

المجلد السادس • القرن العشرون

التطور العلمي والثقافي

الجزء الثاني

١

تطور المجتمعات

إعداد : اللجنة الدولية بإشراف منظمة اليونسكو

الترجمة والمراجعة

عثمان نويه • د. راشد البراوي • محمد علي أبو درة

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

تاريخ البشرية

المجلد السادس . القرن العشرون

التطور العلمي والثقافي

الجزء الثاني

١

تطور المجتمعات

إعداد: اللجنة الدولية بإشراف منظمة اليونسكو

الترجمة والمراجعة

عثمان نويه . د. راشد البراوي . محمد علي أبو درة

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

المقدمة

كتب جوليان هكسلى عام ١٩٤٦ حين كان سكرتيرا تنفيذيا للجنة التحضيرية لانشاء منظمة اليونسكو : أن على الانسانية اليوم واجبا أساسيا هو أن تتعاون فى صياغة تاريخ لتطور الروح الانسانية والانجازات الثقافية • ومثل هذا العمل يتطلب تعاونا تاما بين نقاد الفن والفنانين ومؤرخى الفن وعلماء الأجناس والاخصائيين فى الدراسات المقارنة للأديان وعلماء الآثار والأدباء والشعراء وأساتذة الأدب كما يتطلب من المؤرخين أن يسهموا فيه بقدر كبير •

وفى هذا العمل يجب أن يحتل التطور الثقافى فى الشرق حيزا مساويا لما يحتله التعاون الثقافى فى الغرب • وهيئة اليونسكو هى القادرة على انجاز هذا العمل وذلك بفضل تعدد اهتماماتها وقدراتها على دعوة الباحثين من شتى الأقطار للتعاون فى انجاز هذا المشروع العظيم •

وقد تحقق ما كان يصبو اليه جوليان هكسلى فصدر هذا العمل الرائد الذى أرخ للتطور العلمى والثقافى فى العالم تأريخا تحدوه النظرة الدولية •

وقد صدر المشروع فى ستة مجلدات كبيرة كل منها فى جزءين وقد قامت باعداده اللجنة الدولية لتاريخ التطور العلمى والثقافى للانسانية التى تتألف من حوالى مائة وخمسين من أبرز ما فى العالم من مفكرين ومؤرخين وعلماء واقتصاديين وفنانين •

ويختص الجزء الأول من هذه الأجزاء الستة بعصور ما قبل التاريخ وظهور الانسان وحياة المجتمعات البشرية الأولى •

ويختص الجزء الثانى بالعصور القديمة وظهور أول أبجدية فى التاريخ •

ويختص الجزء الثالث بالعصور الوسطى والهجرات البشرية الكبرى وظهور الحضارات المختلفة .

ويختص الجزء الرابع ببدايات ظهور معالم العالم الحديث وعصر التنوير .

ويختص الجزء الخامس بالقرن التاسع عشر وانتشار الحضارات الصناعية وأثر ذلك على المجتمعات التقليدية .

أما الجزء السادس الذى رأينا أن نبدأ بترجمته ونقدمه للقراء فى هذا المجلد ، فيقوم بتحليل عميق للعالم الذى نعيش فيه .

وفى هذا الجزء من الثروة والخصوبة مايجعل اعطاء فكرة وافية عنه أمرا فى غاية الصعوبة .

ففى قرن واحد من الانقلابات والثورات ونواحى التقدم الباهر وقعت حربان عالميتان ، وتم تجانس بين شعوب أوروبا ، ودخلنا لأول مرة فى عالم تحكمه قوتان رهيبتان هما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى ، وغدا تدخل آسيا فى المضمار .

وانتشرت فى هذا القرن مذاهب الفاشية والرأسمالية والشيوعية ومناهضة الاستعمار والعنصرية وما الى ذلك من الاتجاهات التى يجب فهم معناها الدقيق اذا أردنا فهم عصرنا وما يعانيه من مشاكل كثافة السكان والتعصب العنصرى وتشرد الأطفال ومشكلات وقت الفراغ .

ولقد أدى العلم فى هذا القرن الى استحداث العديد من المخترعات المذهلة . ففى بضع سنوات انتقل الانسان من الدراجة الى مركبة الفضاء ولكنه انتقل أيضا من مدفع برتا الى القنبلة النووية . ويحرص هذا الكتاب على تحليل التقدم العلمى الرهيب وكشف أسبابه وتبين نتائجه .

وقد اقتضى هذا المشروع الدولى الحصول على قدر هائل من المعرفة العلمية وبذل جهد كبير فى التصنيف والعرض . فلأول مرة يتاح للقارىء أن يشهد فى منظور عالمى حقا تطورات العلم والثقافة من عصر ما قبل التاريخ حتى يومنا هذا . فليس بين مجلدات هذا المشروع ما يسرد التاريخ القومى لأى بلد أو شعب بعينه وانما يقدم دراسة مفصلة للأحداث الاقتصادية والاجتماعية والحياة الدينية والثقافية وألوان التعبير الفنى والتفكير العلمى لعديد من الشعوب والحضارات .

وكان صدور هذا الكتاب أمرا لا غنى عنه .

حقا ان دوائر المعارف التاريخية كثيرة جدا · ولكن منظمة اليونسكو أصدرت هذا التاريخ للانسانية لأنه ليس لدى غيرها من الموارد ما يكفل اخراجه ·

فلا يزال المؤرخون حتى أيامنا هذه يركزون عنايتهم فى الأحداث السياسية والاقتصادية والعسكرية التى اعترت تاريخ الشعوب والأمم وحين جلس مؤلفو هذا الكتاب لاعداده لم يسيروا على هدى فلسفة للتاريخ تعتمد على القوانين الاقتصادية والثقافية والأخلاقية التى تسجل التطور الاجتماعى فى وطن بعينه بل كان لابد من الكتابة من وجهة نظر عالمية · وقد تقرر هذا عام ١٩٥١ فى اللجنة الدولية التى شكلت لاعداد كتاب تاريخ التطور العلمى والثقافى للانسانية ·

وقد أنفقت هذه اللجنة ما يزيد على خمسة عشر عاما فى متابعة كل ما كتب أو يكتب من أبحاث منهجية ووثائق · كما تم اجراء مواجهات مباشرة بين المؤلفين لم يسبق لها مثيل من قبل وما كان ليستطيع تحقيقها غير منظمة عالمية مثل اليونسكو .

لقد قررت اللجنة الخطة العامة للكتاب ثم عهدت الى المختصين البارزين بعمل مشرفين على الكتاب كل فيما يخصه · وكان من الواجب على هؤلاء المشرفين أو المديرين أن يخضعوا لقاعدة صارمة هى أن يضعوا آراءهم وجها لوجه أمام آراء مؤرخى العالم أجمع وهكذا تحققت للكتاب موضوعية لم يسبق لها مثيل من قبل .

وقبل طبع أى فصل من الكتاب كان يعرض للمراجعة المنهجية ويوزع على كل اللجان القومية لليونسكو وكل مستشارى التحرير الذين اختارهم مؤتمر الخبراء التابع للجنة الدولية · وقد عاونت تعليقات هؤلاء على اكمال ما قد يكون فى الفصل من نقص أو اصلاح ما يكون فيه مأخذ ·

وكان لابد مع ذلك من عدم الأخذ بالكثير من التعليقات التى قدمها الاخصائيون السوفييت والأمريكيون والبريطانيون والفرنسيون والايطاليون والألمان واليابانيون والمكسيكيون لأسباب تتعلق بتفسيرات تاريخية أو بأيديولوجيات لم تقبلها هيئة المشرفين ·

ولكن مع أن منظمة اليونسكو لا تستطيع بطبيعة الحال أن تطلب الى معاونيها فى هذا الكتاب أن يوردوا فيما يكتبون وجهات نظر لايقتنعون بها ، فقد قررت مع ذلك أن تتاح فرصة الظهور لوجهات النظر هذه وذلك فى التعليقات الواردة فى آخر كل فصل من فصول هذا الكتاب ·

وهكذا يستطيع القارىء دائما أن يميز بين الجزء المقبول عالميا والجزء الذى يحتمل اختلافات فى التفسير لتكون لديه الفرصة لتكوين رأيه بحرية ٠

والكتاب الذى نقدمه هنا فى ثلاثة أجزاء يتناول بالبحث والتحليل التطور الثقافى فى القرن العشرين وقد قام بترجمته ومراجعته السادة : الأستاذ/ د٠ راشد البراوى والأستاذ/ محمد على أبو دره والأستاذ/عثمان نويه . فترجم عثمان نويه فى الكتاب من الفصل الأول (التغييرات الكبرى فى المفاهيم والأفكار) حتى نهاية الفصل الثامن ، وراجع الترجمة الدكتور راشد البراوى ، وترجم الأستاذ/الدكتور راشد البراوى القسم الخاص بالصور الذاتية لشعوب العالم وأمانيها وهو الذى يبدأ بالفصل التاسع وراجع الترجمة الأستاذ/ محمد أبو دره ـ وترجم الأستاذ/ أبو دره القسم الخاص بالفن والتعبير وراجع الترجمة عثمان نويه ٠

وسوف يصدر قريبا المجلد الخاص بالتطور العلمى فى القرن العشرين فقد أوشكت على اتمام ترجمته لجنة باشراف الأستاذ/ الدكتور أسامة الخولى مع عدد من أساتذة العلوم ٠ وسيصدر ان شاء الله فى موعد قريب ٠

لقد رأينا أن نبدأ بتاريخ التطور العلمى والثقافى فى القرن العشرين لأنه يتناول تحليل المشكلات والظروف التى يعيش فيها العالم اليوم ، لا اغفالا لقيمة الأجزاء السابقة ، ولكن ايثارا للبدء بما هو أكثر صلة بحياتنا والعالم الذى نعيش فيه ، وبعد هذا يستطيع غيرنا أن ينتقل بالقارىء من الأحدث الى الأقدم ، ليصل به الى جذور الحضارة البشرية وأصولها الأولى ٠

المشرف

عثمان نويه

الفصل الأول

التغيرات الكبرى في المفاهيم والأفكار

١ ـ مقدمة :

كان تطبيق المعرفة العلمية فى كثير من مجالات الحياة يتصل اتصالا وثيقا بأصداء الأفكار الخاصة بطبيعة المجتمع البشرى ومكان الانسان فيه ، كما يتصل بالقيم المتغيرة التى تعكس التغيير الاجتماعى وتقود العمل الاجتماعى ٠

ويمكن القول بوجه عام ان القرن العشرين كان عصر التفاؤل الكبير، كما كان عصر القلق الكبير ٠ ولقد نشأ التفاؤل من الاحساس الجديد بما أتى به العلم والتكنولوجيا من امكانيات لم تكن تدور من قبل بخيال انسان ، تلك الامكانيات التى أتيحت لكثير من الناس بفضل البنيان المتغير للقوة والمؤسسات الاجتماعية ٠

أما القلق فمصدره الاحساس بأن انتشار العلم والتكنولوجيا يهدد الأوضاع الراسخة ويهدم أساليب الحياة المستقرة ، وأن نظم القيم المتوارثة والمذاهب الفلسفية المتعارف عليها لم تكن مناسبة لظروف العصر الجديد ٠ فى هذه السنوات لم يبق مجال من مجالات الحياة الا وتعرض لسيل جارف من الأسئلة والشكوك ، ولم يبق نظام تقليدى للفكر دون أن تواجهه التحديات ٠

ففى الغرب رأينا فلسفات الماضى التقليدية ، ومعها الوضعية المادية التى طلع بها أوجست كومت وجون ستيوارت مل وهربرت سبنسر ، قد فقدت ايمان الناس بها ، كما أن المنطق الأرسطى الذى أقيمت عليه هذه المذاهب ، لم ينج هو نفسه من الهجوم ٠ ذلك أن ما تم فى القرن العشرين من دراسة اللا شعور وتأثيره على شخصية الانسان قد أثر فى استمرار تقبل الكثير من التفكير الفلسفي الذي كان سائدا فى الماضى ٠

ونظرا للسرعة الفائقة في انتشار المعرفة التي تغطي كل ميدان ، وتغير المفاهيم الأساسية بشأن الزمان والمكان ، وطبيعة المادة والكون ، وطبيعة المجتمع ومكان الانسان فيه ، فقد صارت اعادة تعريف المسلمات الفلسفية والتفسيرات الفلسفية الجديدة أمرا على أكبر قدر من الصعوبة .

وفي العالم غير الأوروبي تعرضت الفروض التقليدية التي قام عليها النظام الاجتماعي للنقد الشـــديد في كل مكان . ولما قوضت التغييرات الاجتماعيـــة العميقة أركان المؤسسات والعلاقات التقليدية فان المذاهب التي كانت تدعمها فقدت الكثير من قوتها . ففي الصين كان التخلي عن نظام الأسرة تعبيرا عن الاندفاع الثوري الذي تمخض عن حركة المد الجديد في عام ١٩١٧ . وأعقب ذلك ثلاثون سنة من الصراع ضعفت فيها قبضة الأخلاق الكنفوشية بوصفها أساس العلاقات الاجتماعية ، بحيث سمحت بأن تحل محل المبادىء الماركسية حين وصل الشيوعيون الى السلطة في سنة ١٩٤٩ . وطوال هذه الفترة جاهدت اليابان من أجل التوفيق بين القيم التقليدية والقيم المستوردة من الغرب ، أو ايجاد حل وسط بينهما ، واتخذ هذا النضال درجة خاصة من الحدة بعد الحرب العالمية الثانية في ظل الهزيمة والاحتلال . بل ربما كان تحدي المفاهيم التقليدية للمجتمع الهندي أساسيا بدرجة أكبر ، ذلك بأن المجتمع الهندوكي كان قد وحد بين الدين وبين ذلك النظام الهرمي من الطبقـات والطوائف والكثير من التقاليد الاجتماعية . فلما هوجم كل هذا وتناوله التشريع بالتغيير في الفترة التي أعقبت عام ١٩٤٧ . وجدنا أن الشطر الأكبر من العقـــائد الاجتماعية للهندوس قد تناوله الالغاء أو التعديل بتأثير الأفكار التي نبتت أساسا في الغرب .

ولم تقتصر أمثال هذه التطورات على آسيا ، فقد رأينا نظائر لها في أفريقيا التي ظلت بالفعل خارج التيارات العالمية طوال القرن التـــاسع عشر . وفي القرن العشرين أدى التأثير الأوروبي الى تحطيم الفكرة التي قام عليها النمط التقليدي للحياة القبلية ، وما حل منتصف القرن حتى كانت الحياة الافريقية تجتاز مرحلة جذرية من مراحل اعادة البناء .

ومع أن هذا العصر هو عصر اللايقين ولم تستطع مدرســة فلسفية أن تسوده أو تقود حياة البشر من حيث هو كل ، فاننا نستطيع أن تميز فيه بعض العقائد والمذاهب والمفاهيم التي لقيت قبولا عاما ، أو على الأقل أثرت في مجمـــوعات كبيرة من البشر وأثرت في علاقاتهم الاجتماعيـــة والسياسية والاقتصادية . ويمكن أن نتبينها في التغيرات وفي المفاهيم

السـائدة عن علاقة الانسان بالمجتمع وبماضيه وبمسـتقبله ، وعلاقته بالطبيعة ونظرته الى آلهته والى نفسـه ، كما يمكن أن نتبينها فى الجهود التى بذلها المفكرون الفلسفيون لتنظيم تجارب الانسان وملاحظاته خلال هذه السنوات ٠

٢ - علاقة الانسان بالمجتمع :

من أبرز الأفكار التى سادت فى القرن العشرين فكرتان طالما قام بينهما الصراع ، هما : فكرة القومية ، وفكرة وحدة البشر ٠ والقومية فى ذاتها ليست من الأفكار التى نبتت فى القرن العشرين ، ولكن هـذا القرن كان أول القرون التى شهدت انتشارها بين كل شعوب الارض تقريبا ٠ ولقد كان تأثيرها على نظرة الشعوب ، وعلى العلاقة فيما بينها ، تأثيرا بالغ الضخامة ، كما أشرنا الى ذلك فى مناقشاتنا لتأثير القومية على مجريات الأحداث السياسية (*) . ولكن ثمة فكرة أخرى بعيدة الأثر، وقد تزيد على الأولى دلالة على روح القرن العشرين ، تلك هى الاتجاه المتزايد نحو وحدة البشر .

حقا ، لقد كان كثير من الأديان فى الماضى يحث على الاخاء بين الناس ، ولكن وحدة البشر لم تكن من الأفكار التى تلقى قبولا عاما من الناس ٠ فالفروق الظاهرة بين الناس فى المظهر الجسدى ، والتقدم المادى ، وغير ذلك من جوانب الثقافة ، كانت تحول بين هـذه الفكرة وبين أن تحظى بالقبول العام . ففى الفترة التى كانت تسيطر فيها أوروبا على معظم أرجاء العالم كان السواد الأعظم من الأوروبيين وغيرهم من الشعوب البيضاء يشعرون بأن وحدة البشر أسطورة من الأساطير ٠ بل ان هذا الرفض للفكرة لم يقتصر على الأوروبيين ، فكل شعب تقريبا كان يعتقد أنه يختلف عن غيره من الشعوب ، ويتفوق عليه ، وانه ، بمعنى من المعانى ، شعب الله المختار ، أو كنانة الله ٠

وكان لابد من جهاد لكى تقبل فكرة الوحدة بين البشر ٠ فقبلت الفكرة على الأقل بمعناها العام — فى منتصف القرن ٠ لقد كان مفهوم « الشعب السيد » بعض ما قالت به العقيدة « النازية » ، وظل يلقى قبولا رسميا فى أجزاء من القارة الافريقية ، بل لقد بقى حتى الآن بين المجموعات المتخلفة فى المجتمعات القديمة الراسخة ٠ ولكن فى الفترة التى أعقبت

(*) انظر الفصل الثانى : تأثير القومية والاتجاه نحو التعاون الدولى ٠

الحرب العالمية الثانية كانت فكرة وحدة البشر قد أصبحت من أبرز أفكار العصر الرئيسية ·

وكانت هـذه الفكرة قوة محركة في كثير من أهم أنشـطة القرن العشرين: محاولة رفع المستويات الاقتصادية والثقافية والمادية للمجتمعات المتخلفة ، والاعتراف ـ من حيث المبدأ ـ بضرورة تمتع الجميع بمسـتوى عام من الحقوق والامتيازات على نحو ما جاء في الاعلان العـالمى لحقـوق الانسان ، الذى أعلنته الأمم المتحدة ، والجهد المستمر للقضاء على الأمراض التى يمكن الوقاية منها والتى كانت بقاع كثيرة معرضة لها ، ووضـع أراضى الوصاية تحت الاشراف الدولى · ومع أنه لا يستطيع أحد أن يدعى أن كل الشعوب قد وصلت الى مستوى تكافؤ الفرصة ، فان الحقيقة التى تلفت النظر فى القرن العشرين اذا قورن بما سبقه من عصور التاريخ ، هى الالتزام بمبدأ المساواة على نطاق عالمى بل أن معنى الوحدة داخل الأمة الواحدة لم يتحقق الا فى القرن العشرين · فحتى فى بلاد مثـل بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية لم يحدث الا فى السنوات العشر التالية للحرب العالمية الأولى ، أن امتد معنى المساواة فى القانون الى أعضاء الطبقة العاملة والنساء والأقليات العنصرية ، وإن تم هذا على نحو ناقص · وبذا تحققت الوحدة الداخلية بين طوائف كل أمة على نحو أتم وأشمل ·

وفى بلاد آسيا كان انعـــدام الوحدة داخل الدولة الواحدة أكثر وضوحا وبروزا ، سواء اتخذ صورة الابقاء على العلاقات الاقطاعية ، كما كان الحال فى اليابان ، أو انعـدام فرص التعليم والتقـدم الاقتصادى أو العناية الصحية الأولية لجماهير الشعب انعداما كاملا تقريبا كما كان الحال فى الصين ، أو كان النظام المعقد للطبقات فى الهند بما فى ذلك المنبوذون البالغ عددهم ٤٠ مليونا ، والمحرومون من الحقوق الاجتماعية الأساسية، أو كان انعزال المرأة عن المجتمع ، أو الوضع الثانوى لغير المسلمين فى بعض البلاد الاسلامية (*) . وفكرة تمتع كافة أفراد الشعب بمزايا متساوية لم تفرض نفسها فى آسيا الا فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الأولى ، فى وقت كانت فيه الطبقات العاملة فى أوربا الغربية قد أحرزت السلطة السياسية ، وأعلنت ثورة أكتوبر الايمان بالمجتمع اللا طبقى · وكان من أهم جوانب النضال القومى فى الهند وبورما وباكستان وسيلان

(*) لم يحرم غير المسلمين من حقوقهم فى البلاد الاسلامية .. (الترجمة)

وأندونيســيا فى هذه السنوات ، هو توكيد التماسك القومى عن طريق تقبل مبدأ الغاء ضروب التفاوت الداخلى ٠

وكانت الدول الشيوعية تدمج مبدأ الوحدة بين البشر فى النظرية القائلة بأن كل السكان يشاركون فى عمل المجتمع ويستمتعون بمنافعه٠ وفى الفترة المبدئية من اعادة التنظيم الاجتماعى كان لابد من اخضـــاع طبقة الرأسماليين وطبقة ملاك الأراضى لدكتاتورية البروليتاريا أو القضاء على هاتين الطبقتين فى حالة المقاومة الايجابية ، ولكن الهدف النهائى هو ايجاد المجتمع اللاطبقى ٠

وثمة فكرة كبيرة أخرى بالقرن العشرين انبثقت من هذا المذهب عن وحدة الجنس البشرى ، وهى الاعتراف بأن رفاهية الكل أمر يهم الكل٠ لقد كان الانسانيون فى القرن التاسع عشر يألمون لآلام الناس فى كل مكان ، ولكن لم يكن هناك اعتراف عام بأن الفقر والمرض والجهل وانتفاء الفرص فى أجزاء كثيرة من العالم هى من الأمور التى تقلق بال العالم من حيث هو كل ٠ فلو أن شعب فنزويلا مثلا قد انتشرت فيه الملاريا ، أو لو أن شعوب أفريقيا قد انتشرت بينها الحمى الصفراء ومرض النـوم ، ولو أن بقاعا شاسعة من بقاع العالم قد تعرضت للمجاعات المزمنة ، فقد كان هذا يعتبر قدر هؤلاء الناس ونصيبهم، هذا باستثناء بعض المساعدات بين الحين والحين ، تعبيرا عن الرحمة وكرم النفس ، أو اغاثة ضحايا كارثة من الكوارث ٠

ولكن العالم لم يكن — على العموم — يعتبر نفسه مسئولا عن هــذه الأوضاع ٠ أما فى منتصف القرن العشرين فان تعدد المنظمات الدولية التى أنشئت تحت رعاية الأمم المتحدة آية على تغير هذه النظرة ، ودليل على أن هناك قبولا واسع النطاق للقول بأن رخاء العالم ورفاهيته وحدة لا تتجزأ ، وأن الكل مسئول عن تحقيقها ٠

وأثمرت فكرة الأخوة العالمية ثمرة أخرى ، هى فكرة اللا عنف ، بوصفها طريقة للسلوك فى العلاقات الانسانية ٠ وليس اللا عنف بالمبدأ الجديد ، فقد دعا اليه بوذا والمسيح ٠ ولكنه ظل مجرد دعوة دينية تلقى التمجيد من المثاليين والقديسين ، فيدعون اليها ، وان كانت تعتبر غير عملية على الاطلاق فى ميدان السياسة ٠

أما فى القرن العشرين فقد حول المهاتما غاندى اللا عنف من عقيدة دينية بحتة الى قوة سياسية ، فعل ذلك أولا فى كفاحه ضد حكومة جنوب

افريقيا فى مطالع هذا القرن ، ثم فعل ذلك أيضا فى الحرب التى قادها لتحرير الهند ، والتى استمرت ثلاثين سنة .

كان غاندى يرى أن اللاعنف هو الوسيلة الوحيدة التى تستطيع أن تنجح فى مقـــاومة العنف ، لان العنف اذا ووجه بالعنف، فالدمار هو نتيجته الحتمية وتعريفه للاعنف لا يلتقى بانكار استخدام القوة المادية ، بل يتعدى ذلك الى العزم على عدم ايذاء أحد من الناس وحتى هؤلاءالذين لجئوا الى العنف ، وانه يعتمد على التمسك الدقيق بالحق . وعلى القوة الأخلاقية التى لايمكن أن تنتصر عليهاطريقة العنف وهى طريقة لا أخلاقية فى جوهرها . ومع أن استخدام اللاعنف فى السياسة لم ينتشر على نطاق واسع الا فى الهند ، فان نجاحه هناك قد سلكه بين الأفكار العملية الناجحة فأخذ يستخدم على نطاق ضيق خارج الهند . وازاء الدمار المتزايد الذى جعله العلم ممكنا فان المقاومة السلبية تستخدم وسيلة بديلة لاحراز التغيير السياسى والاجتماعى (١) .

كذلك كان من الخصائص التى تميز بها القرن العشرون ما ساده من تسامح أزاء الاختلاف الثقافى . فقد كانت الفكرة السائدة فى القرن التاسع عشر أن أوربا هى النموذج الذى يحتذى فى الثقافة . لقد ولدت الحضارة فى بلاد اليونان فورثها الرومان وعنهم وصلت الى أوربا الحديثة . وكان التفوق الكبـــير الذى أحرزه الغرب فى مجالات الصناعة والاقتصــــاد والسياسة يؤيد الاعتقاد بأن الحضارات الأخرى اما أن تكون أشكالا منها فجة قاصرة ، أو تنظيمات اجتماعية على مستوى أدنى .

ولقــد قوضت فكرة التسبيح بالحضــارة الأوربية . فلقد كشفت البحوث الأثرية أن الحضارة لم تبدأ فى الواقع فى بلاد اليونان ، بل ان حضارات كبرى قد سبقتها فى وادى النيل والفرات ، والسند ، وفى الصين وفى أمريكا الجنوبية والوسطى ، حيث تألقت هذه المراكز قبــل ظهور اليونان كمركز حضارى بزمن طويل . كما أن حضارات أخرى فى العالم ـ كان بعضها كالصينية والهندية استمرارا للماضى ، قد أثمرت صورا ثقافية ذات قيمة كبرى ، بل وساهمت فى نمو العلم وتقدم الفكر ، كما أدت دراسة الأنثروبولوجيا الثقافية الى فهم جديد لحياة الناس قبل الصناعة فى ضوء نماذجهم الثقافية وقيمهم الخاصة ، بل لقد كشفت عن أن كثيرا من الأفكار الحبيبة ، والعادات الأثيرة فى المجتمعات المتحضرة لها ما يقابلها فى الحياة البدائية . فأخذ القرن العشرون يتقبل الاعتقاد بأن

الثقافات يمكن أن تختلف فى قيمها ، ولا يمكن رفضها لأنها مجرد «متخلفة أو غريبة» فلم يعد المجتمع الأوربى الحديث ينظر اليه على انه النتيجة الحتمية لعملية تطور جامدة غير مرنة تؤدى آليا وبالضرورة الى ظهور مجتمعات مشابهة فى بلاد أخرى ، بل صار ينظر اليه على أنه نتاج مزاج خاص من الظروف • فليس هو النموذج الذى يجب أن يحتذيه الجميع ، بل هو حضارة واحدة بين حضارات أخرى (٢) •

كذلك تميز القرن العشرون على نحو خاص بتركيزه على أهمية القيم الاقتصادية والاجتماعية فى مقابل القيم الفردية البحتة والقيم السياسية فى المحل الأول التى وجدت ذروتها فى المجتمع الغربى فى القرن التاسع عشر ، فما كاد القرن العشرون يبدأ حتى ظهرت تحديات من مواقع عديدة لمبدأ الفردية (دعه يعمل) وما تتضمنه من أن وظيفة الحكومة هى أن تكفل للفرد حقه الطبيعى الخالص فى الحرية ، وأن الرخاء الاقتصادى سينتج من الجهد الفردى ، وأن الرعاية الاجتماعية يجب أن تترك لضمير الافراد. فظهرت أفكار تعتبر الحرية غير المحدودة للفرد صورة من صور الفوضى الاجتماعية التى تفضى الى أن يسحق القوى الضعيف ويستغل الغنى الفقير • وتقول هذه الأفكار ان حرية الفرد لامعنى لها للشعب من حيث هو كل ، الا اذا كان أفراده يستمتعون بقدر من الأمن الاقتصادى والضمانات الاجتماعية الفعالة •

وكانت العقيدة الاشتراكية منذ منتصف القرن التاسع عشر تؤكد أهمية القيم الاجتماعية بدلا من الفردية كما أدت الحركة النقابية الى احلال العمل الجماعى محل فكرة سوق حرة يستطيع فيها العامل ان يبيع العمل ويستطيع صاحب العمل أن يشتريه طبقا لقانون العرض والطلب ، والكنيسة الكاثوليكية التى كانت تعارض فى اصرار فكرة الحق المطلق للفرد ، أكدت فى المنشور البابوى (أمور جديدة) Rerum Novarum (١٨٩١) أن مبدأ العدالة الاجتماعية هو الموجه للعلاقات الاقتصادية (٣ ، ٤) ولكن فى القرن العشرين فقط ظفرت النقابية والمساومة الجماعية بالاعتراف الكامل ، وأخذ الناس يتقبلون فكرة الالتزام الاجتماعى للدولة، بأن ترعى رفاهية الناس ، وتفرض الضرائب بنسبة أكبر على الأغنياء لهذا الغرض ، وطبقت المذاهب الاشتراكية فى مناطق كبيرة من العالم .

وتتمثل قيم القرن العشرين الاقتصادية والاجتماعية فى فكرة التخطيط • فالتنظيم الواعى للانتاج على أساس مخطط كان تطورا طبيعيا

للنشاط الاشتراكى ، وكانت أحكم صورة للاقتصاد الموجه تتمثل فى صياغة الشيوعيين لخطط خمسية متتابعة على نحو يمكن من السيطرة المستمرة على التنمية الاقتصادية فى كل المراحل •

ولكن فكرة التخطيط لم تقتصر بالتأكيد على الاتحاد السوفيتى وغيره من البلاد الشيوعية ، حيث ارتبطت بالملكية الجماعية لوسائل الانتاج ، والسلطة الكاملة فى وضع الخطط موضع التنفيذ . فلقد كانت (هيئة وادى التنيسى) فى الولايات المتحدة الامريكية هى النموذج الأول للتنمية المخططة لوديان الأنهار ، واحتذته بلاد كثيرة • كما كان تخطيط المدن يطبق على نطاق واسع بمقتضى قانون تخطيط المدن والريف البريطانى الصادر فى سنة ١٩٤٥ ، والتخطيط للرفاهية فى تقرير لورد بفردج سنة ١٩٤٢ • وكلاهما نفذ بعد الحرب العالمية الثانية ، وبعد أعوام الكساد الكبير فى الثلاثينيات بدأت بلاد كثيرة فى ادخال قدر من التخطيط فى توجيه انتاجها الزراعى ، وفى استخدام سياستها المالية والنقدية لكفالة العمالة الكاملة • وقد أخذت معظم الدول النامية فى السنوات العشر التالية للحرب العالمية الثانية تواجه مهمة التنمية القومية عن طريق شكل أو آخر من أشكال التخطيط الاقتصادى ، وعلى أساس هذه الخطط يتم تقديم المعونات المالية من جانب الوكالات الدولية وغيرها من المصادر •

ومفهوم القرن العشرين للتخطيط ، هو أنه تصميم جماعى واع لنشاطات الافراد ــ يعد الى حد ما النقيض الكامل لتقديس القرن التاسع عشر للحرية الفردية ، بحيث جعل منها القيمة الأساسية ، غير أنه لا يتناقض مع المفهوم الجديد للحرية الذى أخذ يسود وينتشر •

لقد أعلن ميثاق الأطلنطى فى أغسطس سنة ١٩٤١ من بين الحريات الأربع ، حريتين تمثلان المفاهيم الجديدة التى سادت فى القرن العشرين هما : «التحرر من الحاجة» و «التحرر من الخوف» . فمفهوم القرن العشرين للحرية الفردية يمكن تحديده بأنه حق كل فرد فى حياة صحية، وفى أن ينال قسطا من طيبات الحياة ، وأن تتاح له فرص التعليم والحماية الاجتماعية ضد المخاطر التى لا سيطرة له عليها ، وأن تتاح له فرصة العمل ليفى بالتزامه الاجتماعى • لم تعد فكرة الحرية الفردية هى أن تفعل ما بدا لك فى حدود القانون ، بل صارت الفكرة أنك عضو فى مجتمع حر ملتزم بالعمل لصالح الجميع •

ومعنى الحرية الفردية فى القرن العشرين هذا ، يقوم على الاعتقاد بأن صالح المجتمع ليس شيئا منفصلا عن صالح الأفراد الذين يتكون منهم المجتمع . وليست الفكرة جديدة ، اذ غالبا ما نادت بها القيادات الدينية وغيرها فى كثير من الحضارات . فجون دون John Donne الشاعر الانجليزى فى القرن السابع عشر هو القائل « ليس أى فرد بالجزيرة المنعزلة .. ولذلك فلا تسل لمن تدق الأجراس ؟ انها تدق من أجلك » . ولكن فى القرن العشرين أصبح المفهوم الجديد للحرية هو الاساس العقلى الذى يقوم عليه قدر كبير من العمل الجماعى .

كان تنظيم النقابات مثلا يحد من حرية الفرد فى المساومة ، ولكن الهدف من المساومة الجماعية كان احراز أجور أعلى وظروف أفضل للعمل، وبذا يتحقق قدر أكبر من الحرية لمن يتعلق الأمر بهم وعلى هذا النحو نجد أن التخطيط الحكومى يتحكم فى زراعة الحاصلات ، ويتدخل فى حرية الفلاح الفردية . ولكن هدفه هو كفالة المصالح الاقتصادية للفلاحين أنفسهم . فكل تنظيم اجتماعى كبير يعتبر حدا من حرية الفرد من أجل حريته الأوسع نطاقا . وكان من أكبر مشكلات القرن العشرين كيفية تحقيق هذه الفكرة بدون اضعاف المبادأة الفردية أو تعويق العمل الحر اللازم لتحقيق كرامة الانسان وتنمية امكاناته ، بدون أن تفرض على المجتمع أعباء بيروقراطية لم تعد ضرورية لتحقيق الأهداف المشتركة .

كذلك رأينا أن تغير النظرة الى الانسان فى علاقته بالمجتمع قد عدلت أيضا من بعض الآراء الأساسية الخاصة بالأسرة ، وهى التنظيم الرئيسى الذى كان يحدد مكان الفرد ودوره فى كل المجتمعات تقريبا .

ذلك أن توسيع نطاق مسئولية المجتمع عن الرفاهية الايجابية لكل أفراده والتى تتمثل فى مسئولية الدولة عن التعليم والصحة العامة وشتى ألوان الضمان الاجتماعى ـ كل هذا ضيق من نطاق مسئولية الأسرة ، وخفف من أعبائها . فلم يعد الآباء مسئولين وحدهم عن تعليم أبنائهم وصحتهم ، فلم يعد فى وسعهم رفض المتطلبات التى فرضتها الدولة . وخففت الدولة عن الأبناء كثيرا من أعباء اعالتهم لآبائهم المسنين ، وحملت عن الاسرة جزءا على الأقل ، من الأعباء الاقتصادية للمرض .

وفى الوقت نفسه فان توزيع الواجبات الاقتصادية على الأفراد ، والنظر الى كل فرد على أنه وحدة من وحدات المجتمع ، قد قوضا أركان

البناء الهرمى داخل الأسرة · ذلك أن توزيع العمل بين الأفراد شمل النساء ، فعدل من علاقات الزوج بزوجته ، وصار ينظر الى الطفل على أنه شخص قائم بذاته ، وليس مجرد لعبة يتسلى بها الآباء أو مجرد رجل لم يكتمل نموه . ولقد أثرت هذه الفكرة تأثيرا عميقا فى العلاقات بين الآباء والأبناء ومكان الابن فى المجتمع . بل أصبح الطفل فى ظروف التغيير الاجتماعى السريع يعتبر أداة من أدوات تحقيق آمال الغد ·

وهكذا لم تعد الأسرة الأساس الشامل الخالد للنظام الاجتماعى ، بعد أن تحررت من شطر كبير من مسئوليتها وانهدم البنيان الهرمى فى داخلها ، واندمج أفرادها فى وحدات اجتماعية أخرى بسبب الاشتراك فى العمل أو غيره من الأنشطة وبذا أصبحت الأسرة الى حد ما مجموعة صغيرة من الأشخاص بينهم التزامات متبادلة تعتمد على الاتفاق أو التعاقد لا على التقديس · كما أن الانفصال عن طريق الطلاق قد صار من الأمور الشائعة التى تلقى قبولا . واتجهت الأسرة الى ان تكون وحدة مخططة ، وصارت فكرة تحديد النسل وتنظيم الأسرة من الأفكار التى تزداد شيوعا بين مختلف الطبقات الاجتماعية برغم معارضة رجال الكنيسة · وقد قامت بعض البلاد بتشجيع تنظيم الأسرة باعتباره من أمور السياسة العامة ·

وكان تغيير مفهوم الأسرة يتخذ أشكالا بالغة الاثارة حيث كانت توجد مؤسسات قديمة شاملة مثل نظام الأسرة الكنفوشى ، أو الأسرة الهندوكية المشتركة · ففى هذه البلاد عدلت هذه النظم تعديلا عمليا ، أو ألغى الأساس القانونى لها عن طريق التشريع · وكان التقليل الفعلى لوظائف الأسرة ، وظهور نماذج جديدة للعلاقات بين افرادها قد ذهب الى مدى أبعد من هذا فى البلاد الصناعية ، حيث حصلت النساء على الاستقلال الاقتصادى · وقد ألغى الاتحاد السوفيتى نظام الاسرة البورجوازية الغاء تاما تقريبا ، وذلك فى المراحل الأولى من اعادة البناء الاجتماعى ، ثم قدم « نموذجا اشتراكيا للاسرة » · ولم تتزحزح الكنيسة الكاثوليكية عن موقفها فظلت تعتبر الزواج رباطا دينيا مقدسا لا انفصام له ، وترى أن الاسرة هى النظام المركزى للمجتمع البشرى · ولكن رأينا أنه برغم نفوذها الواسع العميق ، لم تستطع منع أفكار أخرى من أن تتسرب الى البلاد التى يسودها المذهب الكاثوليكى . ومهما يكن من صور الأسرة ، أو مدى

ما أصابها من تعديل ، فان تضاؤل وضع الأسرة بوصفها وحدة اقتصادية، وأساسا للتنظيم الاجتماعى يعتبر من معالم القرن العشرين ٠

ويمكن أن تقول عموما . وبلا مبالغة . ان علاقة الانسان بالمجتمع فى منتصف القرن العشرين تقوم على أفكار كثيرة كانت تعد ثورية أو غير عملية لو أنها ظهرت فى أى مجتمع فى القرن التاسع عشر ٠

٣ ـ علاقة الانســـان بماضيه ومستقبله

لم تلبث الأفكار الجديدة عن علاقات الانسان ببنى جنســـه أن تمخضت عن مفاهيم جديدة لماضيه ، ولما يمكن أن يكون عليه مستقبله . فاتسع نطاق الدراسات التاريخية على نحو مذهل ســـواء من حيث الزمان أو المكان . فدراسة ما قبل التاريخ فتحت العيون والأبصار على تحرك الانسان نحو الحضارة من خلال عصور مختلفة من التقدم الفنى. وقدمت الكشوف الأثرية تاريخ الحضارات الكبرى فى أجزاء مختلفة من العالم وجعلتها فى متناول الناس ــ سواء فى ذلك حضارة وادى النيل او بابل أو وادى السند أو الصين أو أمريكا ــ على نحو جعل البشرية تحسن الرأى فى ماضيها أكثر مما كانت تفعل . وكذلك أخذت قصة الشعوب الافريقية تتكشف فصولها شيئا فشيئا .

فلما اطلع الانسان على هذه القصص تغيرت آراؤه فى الانسانية ذاتها . فلم يعد الناس يخصون أقاليم بذاتها بعنايتهم كلها ، وينسبون اليها قيما فريدة ، بل صارت دراستهم تشمل المنظور الكامل للتجربة البشـــرية .

هذا التوسع فى علم الناس بالماضى ، قد اضيف اليه موقف جديد ، هو محاولة الانسان أن يسيطر على مقدراته ، وقد ادى هذا الى نتيجتين: الأولى أنه بعث فى الانسان قدرا من التواضع ، حين أدرك أن الحضارة التى يحياها قد يدركها الانحلال هى أيضا فتموت ، وأنه ربما كانت هناك قوى لا يفطن اليها الانسان ، تنمو ، وقد تتفـاقم بحيث تودى فى النهاية بكل ما بناه الانسان بشق الأنفس ، كما حدث لما سلف من الحضارات ، والنتيجة الثانية أنها بعثت فى الناس الأمل فى أن يعينهم تزايد علمهم بالماضى على رسم طريق للتطور البشرى على نحـو يتيح التعديل المستمر فيه ، دون أن يتعرض البنيان كله للانهيـــار ٠ وفى الحالين أدى اتساع العلم بالمضى الى محاولة النظر الى العصر الحاضر

على انه عصر من التاريخ البشرى خلت من قبله العصور ، والنظر الى عمليات التطور البشرى على نحو يتيح الوصول الى أساس جديد لتفسير الأحداث المعاصرة . لقد صار الناس لا يقنعون بالصيغ الكبرى المختلفة التى ورثناها عن الماضى ــ فكرة أن الحياة البشرية ما هى الا تمهيد للحياة الآخرة (٦) أو فكرة أن المجتمع فى جوهره أزلى لا يتغير ، أو فكرة امكان التقدم الى غير نهاية عن طريق اصلاح ما هو قائم أو عن طريق التطور الاجتماعى .

لقد كانت الحفاوة الكبرى التى تلقى بها الناس كتبا مثل كتاب « اضمحلال الغرب » لشبنجلر (١٩١٨/١٩٢٢) وكتاب « دراسة التاريخ » لأرنولد توينبى (١٩٣٤/١٩٥٤) آية على الرغبة فى فهم الحاضر على ضوء الماضى . لقد كان شبنجلر يرى أن الحضارة لا تبلغ مرحلة النضوج الا حين تكف عن النمو ، وأن الحضارة الغربية قد تجاوزت بالفعل أوج النجاح ، وأخذت تنحدر نحو الانحلال . ويقول توينبى ان الحضارات الست والعشرين التى سبقت حضارة العصر الحاضر قد فقدت دفعتها القوية بعد فترة من النشاط والانجازات . وأنه لا يرى ما يمنع من أن يكون هذا مصير الحضارة الغربية أيضا ، وان كان لم ينكر نظريا امكان اعادة الشباب اليها عن طريق حركة بعث دينية . أما ولتربرسكوت و ب (الحد الكبير ١٩٥٢) فقد حاول أن يثبت ان الظروف التى أوجدت الحضارة الغربية وحافظت عليها منذ رحلات الاستكشاف الكبرى ــ الثروات البكر لحوالى ٢٠ مليونا من الأميال المربعة من أرض خرافية فى ثرائها ــ هذه الظروف لم تعد موجودة . وان الحضارة الغربية قد أخذت تنهار نتيجة لذلك . أما النظرة الماركسية فقد نظرت الى العملية التاريخية على انها عملية دياليكتيكية، تعتمد على أشكال الانتاج المادى ، وتؤدى حتما الى مجتمع لاطبقى دائم .

ورجل القرن العشرين مهما تكن الصيغة التى تقبلها ، فانه يرى نفسه جزءا من عملية تاريخية تمتد بعيدا فى الماضى أكثر مما كان أجداده يظنون . وان هذه العملية التاريخية تشمل النوع البشرى فى كل مكان .

وكذلك المستقبل فقد صار ينظر اليه على أساس البشرية كلها . ذلك أن السرعة التى تغيرت بها حياة البشر نتييجة للكشوف العلمية والتغييرات الاجتماعية خلال هذه السنين ، قد فتحت أبواب احتمالات لا تحد ، سواء للخير أو للشر ، ليس فقط بالنسبة لأسرة من الأسر

او أمة من الأمم أو شعب من الشعوب ، بل بالنسبة للبشرية كلها . لقد صار فى متناول الانسان لأول مرة فى التاريخ آن يقضى على الفقر والجوع والمرض وغيره من الشرور الكبرى التى كانت تصيب الانسان خلال العصور . وأصبح من الممكن أن يفكر على أساس تحقيق مجتمع الوفرة . والواقع أن الناس فى مختلف ارجاء العالم يتطلعون الى هذا المجتمع تطلع الحنين العاطفى الى الماضى المجيد ، بل يتمنونه على أساس واقعى ، وعلى أساس أنه هدف واجب التحقيق . ولقد كان من أشد الآراء الثورية تأثيرا فى الناس فى القرن العشرين أنهم لم يعودوا يؤمنون بأن الفقر والتعاسة هما القدر المحتوم لأبنائهم وأحفادهم .

وفى مقابل هذا التفاؤل الجديد ، تتجمع دواعى الخوف على مصير الحضارة والانسان ، نتيجة لتزايد امكانات التدمير التى ابتكرها الانسان ولا زال يطورها ويقويها . فأسلحة القتال التى استخدمت فى الحرب العالمية الأولى كانت عند من عاش قبل هذه الحرب آسلحة غاية فى الرهبة ، وكفيلة بتدمير الحضارة ، ولكن المدافع القوية والقنابل الهوائية والغازات السامة والغواصات التى كانت فى متناول المتحاربين فى الحرب العالمية الأولى اذا قورنت بالأسلحة التى استخدمت فى الحرب العالمية الثانية بدت كأنها من لعب الأطفال ، وحين فجرت أول قنبلة ذرية عام ١٩٤٥ بدا كأنها القوة النهائية للتدمير التى ليس بعدها قوة ، ولكن سرعان ما صارت قزما من الأقزام حين ظهرت القنبلة الهيدروجينية التى تفوقها بمراحل فى القدرة التدميرية . وحين أدرك الناس أن الاشعاع الذرى من تفجير القنابل الذرية والهيدروجينية يستطيع أن يلوث الهواء الجوى بحيث يستطيع تدمير الحياة فوق الأرض ، اضطروا الى التفكير على أساس أن الطاقات الجديدة التى بيد الانسان من شأنها أن تضع حدا لحياة الجنس البشرى . لقد القت الحرب غمامة سوداء على مصير الانسان ، وصار الناس يتنبئون بايجاد واقع من صنع الانسان .

٤ — الانسان والطبيعة

وثمة فكرة تغلغلت على أوسع نطاق ، وان اختلفت فيها الآراء أوسع الاختلاف ، أعنى الاعتقاد بأن العلم يستطيع ايجاد حلول لمشاكل البشر . فتقدم العلم واستخدامه لتحسين احوال البشر كان من الضخامة بحيث بدا أن احتمالاته لا تحد ، فعلى ضوء ما تم انجازه فعلا، والسرعة المتزايدة التى أخذ التطبيق العلمى يؤثر بها فى الحياة اليومية

للناس ، انفسح مجال الاحتمالات غير المحدودة للوصول الى منجزات تستطيع حل المشكلات التى تواجه البشر .

ولكن الايمان بالقوة المسيطرة للعلم وحـده كان يشوبه بعض الشكوك والمخاوف . فالايمان الأوربى البسيط فى القرن التاسع عشر بأن العلم سيؤدى أوتوماتيكيا الى تقـدم البشر قد زعزعته استخدامات العلم للتدمير خلال هذه السنوات ، وما كان من فشل البشر فى انشاء المنظمات الاجتماعية والسياسية التى استهدفت قصر استخدام العلم على الأغراض النافعة . بل ان الاستخدام السلمى للعلم فى وسـائل النقل والمواصلات وانتاج الغذاء واطالة العمر قد بدا لبعض الناس انه يجلب من المشاكل قدر ما يحل منها . فبينما العلم قد لقى ترحيبـا متزايد المدى على اعتبار انه يقدم حلولا لبعض مشاكل الانسـان واحتياجاته فان سيادته وسيطرته قد صارت مثارا للشكوك والريب عند بعض الناس ممن كانوا يؤمنون به فى المراحل الأولى من تطبيقه . ويلاحظ مع ذلك أن الشكوك قد أتت أساسا من جانب بعض العمـال المهنيين ، وبعض الناس الذين خافوا من أن يؤدى تقدم العلم الىحرمانهم من المكان الممتاز الذى يتمتعون به فى العالم ، وكان معظمهم فى أوربا ممن يعتمد مركزهم الشخصى على بقاء القيم التقليدية ، أو ممن لا يستطيعون أن يجدوا أو أن يقبلوا مكانا لهم فى المجتمع الجديد ، أو ممن يعتمـد مركزهم على بقـاء التقدم العلمى حكرا على البلاد التى حذقت التقنيـات العلمية من أول الأمر . واذا استثنينا المهاتما غاندى الذى كان هجومه على التصنيع سلاحا سياسيا يستخدمه ضد الامبريالية البريطانية ، فان الشكوك فى فائدة التقدم العلمى لم تظهـر على العموم فى الدول النامية . فهذه الدول تدرك أن مستقبلها يعتمد على التقدم التكنولوجى، والتربية العلمية لشعبها ، وان كانت فى بعض الأحيان تندد بالثقافة الغربية بوصفها ثقافة مادية وتؤكد قيمها الروحية التقليدية . ولم تأت الشكوك من جانب الطبقات الاجتماعية فى البلاد المتقدمه صناعيا ، والتى استفادت من زيادة الانتاج ، وتحسين وسائل الاسكان والصـحة ومسـتويات المعيشة التى أتى بها العصر العلمى . ان التطورات الثورية فى ميدان العلوم الطبيعية قد غيرت على نحو أساسى آراء الانسان من حيث علاقاته بالطبيعة . وكانت هذه عملية تراكمية ظلت تعمل عملها فى المجتمع الغربى منذ القرن السابع عشر . ثم زادت سرعتها زيادة كبيرة بفضل المنجزات العلمية والتكنولوجية فى القرن التاسع عشر . ولكن الناس لم يحسوا بسيطرتهم غير المحدودة على الطبيعة الا فى القرن العشرين ، فان

انتشار موقف المتسلط على الطبيعة فى قطاعات كبيرة من قطاعات البشر ظاهرة من ظواهر العصر .

فلقد كانت الفكرة العامة فى معظم المجتمعات فى الماضى أن الطبيعة موجودة ببساطة ، تؤثر فى حياة الانسان على نحو لا يتغير . وازاء قوتها العارمة ، لم يحاول ان يطوعها كثيرا لاحتياجاته ، بل كان عليه أن يتكيف وفق ما يلائمها ، ولكن انسان القرن العشرين قد أخذ بخناق الطبيعة ، مصمما على أن يستخرج أسرارها ، وأن يستغل مواردها ، وأن يقهر آثارها الخطرة . الا تستطيع قوة الانســان أن تخلق مواد جديدة خيرا من تلك المواد التى تقدمها الطبيعة ؟ — ألا يستطيع التلقيح الصناعى أن ينتج سلالات بشرية أفضل ؟ — واذا كان المطر لا يسقط بانتظام فهلا يستطاع اغراء السحب بأن تلقى بما فيها من مياه ؟ — واذا كانت الحرارة أشد مما يحتمله الانسان فهلا يستطاع تكييف الهواء بحيث تكون درجة حرارته معتدلة ؟ . — وهل كتب على الانسان أن يظل مشدود الوثاق الى الأرض بينما الفضاء الخارجى يغريه بالصعود والاستكشاف ؟ انه من الواضح أنه قد حدث خلال هــذه السنوات الخمسين تغيير فى نظرة الانسان الى علاقاته بمظاهر الطبيعة التى كان يظنها فيما قبل ثابتة لا تتغير ، مما كان يعتبر من ملامح الطبيعـة الدائمـة .

وأدى تحدى الانسان للطبيعة الى حدوث تغيير جذرى فى موقفه من القدر . ففى الماضى كانت كل كارثة كبرى — كالقحط أو المجاعة أو الوباء أو ما الى ذلك — تعد من المصائب التى لا قبل للانسان بدفعها ، وتنسب الى القدر الذى لا يد للانسان فيه ، ولا قبل له به . فلما أخذ الناس يعرفون أن الأمور التى كانت تنسب الى القدر يمكن أن تقاوم بوسائل بشرية ، عندئذ أخذت فكرة القدر تتوارى بعض الشىء . فالواقع أنها ظلت متأصلة فى عقول كثيرة بحيث لا يمكن اقتلاعها تماما من مكانها ، وظلت تؤثر تأثيرا قويا على سلوك البشر . ولكن نطاقها آخذ يضيق ويتحدد بالتدريج . وكان تغيير موقف الانسان من القدر يلفت الأنظار على نحو خاص فى بلاد آسيا ، حيث كانت فكرة القدر تسـيطر على العقول سيطرة قوية . وكان من النتائج الكبرى لذلك تزايد المطالبة فى كل هذه البقاع بظروف اجتماعية أفضل ، وبخاصة فيما يتعلق بالصـحة .

ومع أن تسلط الانسان على الطبيعة قد بعث فى الانسان مزيداً من الثقة بقواه وآماله التى لا تحد ، فانه قد أثار مشكلات أخلاقية لا يمكن الغض من قيمتها بحال من الأحوال . فما دام الانسان يمتلك وسائل الشفاء أو الوقاية من الأمراض ، فعليه اذن أن يتحمل مسئولية فشله ان هو فشل في ذلك ، اذ لم يعد فى استطاعته أن ينسب هذا الفشل للقدر ، فأصابه هذا بشعور جديد بالذنب اذا هو فشل فى استخدام قواه الجديدة على نحو فعال .

كذلك فان سيطرة الانسان على الطبيعة قد كانت من أسباب زلزلة يقينه فيما يتعلق بغاية الحياة الانسانية ، ذلك أن الانسان كان راضيا بما كتب له ، وبأن مصيره محدد بقوانين أخلاقية عليا من عند الله . فكان يشعر بأنه يخدم غرضا ساميا اذا هو سار على هدى الأخلاق الكريمة . وهكذا نرى أن ارتفاع مكان الانسان فى مواجهة الطبيعة قد أعطاه احساسا كبيراً بقوته الخاصة ولكنه لم يمنحه الضوابط الأخلاقية لحسن استخدام هذه القوة .

ولما كان كل كشف أو اختراع جديد يأتى معه بأخطار كبيرة تحدق بالانسان ، فقد انتابت الانسان الشكوك حول نتائج ما أحرز من سيطرة على الطبيعة . فالطاقة الذرية قد فتحت للانسان آمالا كبرى ، وكأنما قد فتحت له فردوساً جديداً لم يكن يخطر له على بال . ولكن ظهرت بظهورها أخطار كثيرة ، غير امكانية استخدامها عمدا لأغراض التدمير والخراب — وقد أخذ الناس يتساءلون : ترى هل حياتهم لها غاية ، أم أن البشرية انما تسير الى الأمام بلا تبصر ، يدفعها الى الحركة ذكاؤها القلق الذى لا يستقر على حال . وما هى واجبات الانسان نحو اخوته من البشر ، ما هى المبادىء الأخلاقية التى تستطيع أن تهدى الانسان الى خير السبل لاستخدام قدراته الجديدة ؟ . كيف يستطيع مع استخدام هذه القدرت أن يختار السبيل المؤدى الى خير البشر ؟

٥ — نظرة الانسان الى الدين (*) :

وكانت هذه المسائل وثيقة الصلة بمكان الدين من حياة الناس . فكل المفاهيم الدينية الأساسية مثل الروح والخلاص وتأثير الصلاة صارت محل تساؤل ، ولم تأت الشكوك من جانب اللاأدرية أو الملحدين

(*) فى الاصل الانجليزى «نظرة الانسان الى آلهته فآثرنا تغييرها — وفى رأينا نحن المسلمين ان العلم لايتعارض مع الايمان .

فحسب ، كما كانت الحال فى الماضى ، بل كذلك من جانب رجال ونساء عاديين ، عجزوا عن أن يوفقوا بين ما يقول به العلم وبين عقـائدهم الموروثة . وكان من نتيجة ذلك أن مفهوم العقيدة الدينية عند الانسان قد أصابه أيضا تغير ملحوظ .

وثمة حقيقة كبرى من حقائق القرن العشرين ، هى أن ثلث سكان العالم يعيشون فى ظل مذهب ليس فى فلسفته الأساسية مكان لله ، فطبقا للماركسية ـ اللينينية لا يمكن أن تتفق المادية الجدلية والتفسير المادى للتاريخ ، مع فكرة وجود الله ، والدين الذى وظيفته الاجتماعية فى مجتمع شيوعى أنه « أفيون الشعوب » سوف يزول فى نهاية الأمر . ولما كانت نسبة كبرى من سكان العالم تعيش فى دول شيوعية ، فانه يمكن القول بأن فكرة وجود الله لم تعد فكرة تسود العالم كله فى القرن العشرين .

وحتى فى باقى انحاء العالم تعدلت فكرة الناس عن الله خلال نفس الفترة ، أو بعد مفهوم الله باعتباره مجرد انعكاس لرغبة الانسان نفسه في أن يتخطى حدود كينونته . واذ أوضح علم الأجناس البشرية ميل الناس الى خلق آلهة على شاكلتهم فقد وجد كثير من الناس انه لم يعد من الممكن تصور اله على أساس مشابهته للناس ، أو على أساس انه كائن قد يتدخل فى مجرى القوانين الطبيعية العادى ، أو يطلب التضحيات الخاصة برهانا على الولاء له .

لكن برغم أن انسان القرن العشرين مال الى أن يرفض من الناحية العقلية الأشكال الساذجة لمشابهة الانسان بالآلهه ، فقد ظل كثير من الناس يستمسكون بالصور المعدلة للصيغ الدينية القديمة . فقد اهتدوا الى طرائق لاستبقاء بناء للعقيدة يرضى نفوسهم . وذلك باضـفاء معنى رمزى على ما كان من قبل يلقى تصديقا حرفيا ، وذلك باعتبـار أن غايات الانسان هى نفسها غايات الله ، بدلا من التماس العون من الله عن طريق الصلاة أو الدعاء أو عن طريق اعادة تفسير مفهوم صغار الآلهة أو القديسين الذين تجسد من خلالهم معنى الألوهية .

ومن التغييرات الكبرى التى أصابت معظم المجتمعات ذلك الضعف الذى أصاب الاحساس بالخطيئة ، فتقلص حجم المجتمعات التى لا يزال يسيطر عليها ذلك الاحساس . ولقد كان مفهوم الخطيئة من حيث هى انتهاك لأوامر الله له أهمية كبرى من الناحية التاريخية فى معظـم

المجتمعات ، ليس لأنه مصدر المبادىء الخلقية فحسب ، بل لأنه أيضا وسيلة للوقاية الاجتماعية ، ولكن تزايد عدم الايمان ببعض المبادىء التى تتصل بالعقاب الدينى الشديد ، مثل فكرة الجحيم ويوم القيامة ، قد أدى الى اضعاف فكرة الخطيئة عما كانت عليه من قبل . ولقد كشفت دراسات الأنثروبولوجيا عن أن قيما مشتركة كثيرة تكمن وراء الاختلافات الثقافية . ولكن ما يعتبر خطيئة فى مجتمع من المجتمعات قد لا يعتبر خطيئة فى غيره . بل قد يعد فضيلة من الفضائل . كما أن المفهوم العلمى للنسبية يتضمن انكارا للقيم المطلقة . ولما كانت فكرة الخطيئة تعتمد على حكم مطلق فقد فقدت كثيراً من سطوتها على عقول أبناء القرن العشرين .

وفى وجه تزعزع الايمان ، وتضخم هذه الظاهرة ، وازاء تغير المفاهيم وضعف مدلول الخطيئة ، فقد ظهر اتجاهان داخل الأديان الكبرى : أحدهما يعيد تحديد علاقة الانسان بما فوق الطبيعة على نحو يتفق مع الفكر الحديث ، والآخر يؤكد فى غير تسامح أن عقيدته المقررة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . فالهندوكية المعدلة استطاعت بعد أن ألقت عنها كثيرا من زخارفها الاجتماعية ، أن تقدم أساسا للتوفيق بين الفكر العلمى والعقائد الدينية الأساسية . وفى البلاد البوذية حاول الناس اعادة تفسير الدارما Dharma (الشريعة الدينية فى البوذية) فى ضوء الفكر الحديث . وذهب بعض المفكرين المسيحيين بعيدا فى نفس الاتجاه . ولكن نرى من جهة أخرى أن الكنيسة الكاثوليكية لا تزال تؤكد أن عقيدتها هى الحق المطلق .

ولعل التغييرات التى أصابت فكرة الناس فى آلهتهم أكبر فى شكلها الظاهرى منها فى معناها الداخلى . فرغم التقدم العلمى العظيم لا يزال بعض من الايمان بقوى خارقة للطبيعة جزءا من عقلية البلاد غير الشيوعية . بل انه فى البلاد الشيوعية نفسها حيث يرفض الحكام فكرة الله رفضا مطلقا فان شطرا من الناس لا يزالون متمسكين بهذا الدين أو ذاك ، ويلتمسون فى الدين السلوى والعزاء .

٦ ــ رأى الانسان فى نفسه

كانت فكرة الانسان فى نفسه كما ظهرت فى منتصف القرن تعكس فهمه المتغير لعلاقته بالمجتمع ، وبالطبيعة وبالله . ففى معظم أنحاء العالم ، وخلال طبقات اجتماعية كثيرة ، وعلى نطاق واسع ، رأى

الناس أنهم قد سيطروا على قوى جديدة وفرص جديدة ، أو أنهم بسبيل هذه السيطرة ، فاعتقدوا أنهم بصدد فجر جديد لا يمكنهم الا اجتلاء ملامحه بسرعة ، وأما مستقبله واحتمالاته فتدعو الى الابتهاج والى الذعر في وقت واحد ٠

فقد أحس الناس فى طول العالم وعرضه أنهم فى سفينة قد انقطعت اسبابها بالبر ، وعليهم أن يقودوها ـ بغير خريطة ـ عبر بحار مجهولة ٠ كان هذا عند البعض بمثابة مغامرة كبرى لا تخلو من نشوة ، وكان عند البعض الآخر خطرا يهدد بالويل الكبير ٠ ولقد وجد الانسان الحديث نفسه فى موقف ملئ بالمتناقضات ٠ وكلما زاد سيطرة على بيئته ، زاد شعورا بعجزه أمام القوى التى كان اطلاق بعضها من صنعه ٠ وكلما زادت درايته بالعالم خارج نطاق بيئته المباشرة ، قلت قدرته على التصرف المباشر ازاء كثير مما يؤثر فى حياته اليومية ٠ وكلما زادت المعرفة الجديدة من تقويضها لليقينيات السابقة ، وكلما غيرت القوى الاجتماعية في النظم القديمة ، تزايد شعور الانسان بالحاجة الى مصدر من مصادر الأمن والطمانينة يقوم عنده مقام المصادر التى فقدها ٠

وسواء أكان الانسان الحديث من أهل الملايو أو المكسيك او يوهانسبورج أو فى شيكاغو أو بروكسل أو طوكيو ، فان من المعالم الرئيسية التى تميز نظرته ورأيه فى نفسه ، ذلك التناقض الوجدانى الذى يستشعره ازاء نفسه ، وازاء ما يحدث لحياته وحياة من حوله ٠ واذا استثنينا من التزموا التزاما عميقا باحدى الديانات القديمة ، فاننا نجد أن التناقض الوجدانى عند انسان القرن العشرين هو فى وقت واحد انعكاس لما يصيب مجتمعه من تحول خلال هذه السنوات ، كما أنه عامل من عوامل أحداث هذا التحول ٠

٧ ـ الخطوط الرئيسية للفكر الفلسفى

أن أزمات هذه السنين تصورها تلك الجهود المختلفة التى بذلها المفكرون الفلاسفة لاعادة صياغة المفاهيم الفلسفية ، بحيث تستوعب معارف جديدة ، وتجارب جديدة ، وتشحذ من أدوات اللغة والمنطق ، واننا لنجد أن النظرات المميزة لرجل القرن العشرين ومجتمعاته المتغيرة قد وجدت مجالا للتعبير عنها فى المذاهب الفكرية ، كما وجدته فى المواقف والأفكار العامة ٠

ففي الغرب تمخضت جهود الفلاسفة عن آراء في منتهى التنوع . كما تمخضت عن كثير من التفاعلات المتبادلة بين الاتجاهات المتناقضة في الظاهر . لقد كان العصر يتميز بالنشاط الفلسفي المثمر الذي يتسم بالحيوية ، رغم عدم ظهور مدارس فكرية عامة ، ورغم وجود اختلافات واسعة بين من يدرسون المضامين الفلسفية للعلم الحديث ، وبين من انصرفوا عن العلم ليبحثوا عن جواب لأسئلتهم الفلسفية بطرق أخرى غير عقلانية .

فبعد سقوط المثالية الهيجلية في الستينات من القرن الماضي أصبحت الوضعية العلمية هي المذهب الفلسفي السائد في الغرب . وبينما كان هيجل يرى العالم انعكاسا لعالم الروح أو الفكرة المطلقة التي تنمو وتتطور وتتكشف خلال التاريخ بطرق ديالكتيكية معقدة ، فان الوضعيين العلميين يركزون عنايتهم على الحقيقة الخارجية ، ويدرسونها عن طريق العلوم الطبيعية . فقد رأوا في التطبيق المتزايد للطريقة العلمية أعلى صور النشاط البشري ، والطريق الأوحد المؤدي الى الحق ، مهما يكن محدود النطاق ، ومفتاحا للمبادىء التي يستطيع أن يستهدي بها السلوك . وكلا المذهبين يعتمد على الافتراض العقلاني بأن الانسان يستطيع بفضل عقله أن يعرف ويفقه المعنى الكامل للعالم ، مع أن هيجل واتباعه قد رفضوا المنطق الأرسطي الذي ساد عهد التنوير في القرن الثامن عشر ، ووضعوا مكانه منطقا أكثر تعقيدا من الأضداد ، يؤدي آخر الأمر الى وحدة أساسية عن طريق العملية الديالكتيكية : الفكرة ، ونقيض الفكرة ، ومركب منهما .

ولم يستطع الصرح الذي شاده المثاليون الهيجليون ، ولا ذلك المذهب المادي اليقيني الذي شاده الوضعيون .. نقول لم يستطع هذا ولا ذاك أن يكون في مأمن بعد أن اكتشفت جوانب القصور في فيزياء نيوتن ، وتصدع بنيان علوم الرياضة التقليدية . ثم بمضي الوقت حلت الاحتمالات محل السببية الصارمة ، كما أن الفروض العقلانية ، والتقدم التلقائي ، لم تتجاوز محنة الحرب العالمية الأولى وظهور المكتشفات النفسية على يد سيجموند فرويد .

ففكرة الهجليين القائلة بأن الحقيقة يمكن فهمها على ضوء أنها الفكرة المطلقة ، قد تزايل أثرها ، وان ظلت تؤثر في بعض المفكرين البريطانيين في مطلع القرن كما ظلت مثالية كانت Kant تعيش في مراكز بألمانيا في بادن وماربورج حتي بعد الحرب العالمية الأولى . وكان

شارحها الأكبر ذو التأثير البعيد هو الفيلسوف المؤرخ الغزير الانتاج (بندتو كروتشى ١٨٦٦/١٩٥٢) الذى اكتشف آفاق علم الجمال والمنطق والاقتصاد والأخلاق فى كتابه فلسفة الروح (١٩٠٢/١٩١٧) ورأى فى سير التاريخ البشرى تعبيراً عن غاية يستطيع الناس أن يلوذوا بها . وفى رأيه أن هذا الاتجاه يسير نحو مزيد من الحرية الانسانية ، وهكذا أصبح اللسان المعبر عن الليبرالية الايطالية . ولكن محاولة ايجاد فكرة عالمية متسامية لم تعد تغرى معظم مفكرى القرن العشرين ، فقد تدهور وضع المثالية فلم تعد من الأشكال الغالبة على التأمل الفلسفى فى أواسط القرن التاسع عشر ، بل صارت مجرد شكل من الأشكال الفلسفية ، التى تبعد أقصى البعد عن أن تمثل الفكر فى القرن العشرين .

أما الفكر الوضعى فقد شهد تطورا أقوى من سابقه بكثير ، ولكن أصابه فى صورته المادية والميكانيكية انهيار كامل تقريبا ، وأخذ نطاق اهتماماته يضيق ، وراحت تقل أنواع المشكلات الفلسفية التى يحاول حلها . وفى أوائل هذا القرن ادت الوضعية الى ظهور البراجماتية ، ذلك المذهب القوى البعيد التأثير ، الذى وضعه وليم جيمس وجون ديوى (١٨٥٩ – ١٩٥٢) وغيرهما من الفلاسفة البراجماتيين . وعند هؤلاء المفكرين يكون المعنى الوحيد لأى شىء ، والحقيقة الوحيدة لأى شىء هى فيما يستطيع أن يفعل وما سوف يفعل ، وهذا بدوره لا يمكن تقريره عن طريق الاختبار العلمى ، ذلك أن الأفكار فى ذاتها ليس فيها صحة ذاتية وليس لها صحة ذاتية ، وانما تقتصر صحتها على ما يكون من تعبيرها عن حقيقة يمكن ملاحظتها وتمحيصها . ان أهميتها تعتمد على نتيجتها ، أى على ما يحدث للشخص الذى يتصرف على أساس هذه الأفكار .

وطبقا لهذه النظرة لا يوجد مكان للأصول المطلقة ، ولا للغايات النهائية ، وانما تكمن الحقيقة فى العملية نفسها ، حيث تتحد الوسائل بالغايات ، وحيث التغيير أساسى ، وحيث السلوك يمكن أن يكون هادفا. وطبق ديوى هذا المقياس على المشكلات البشرية على اتساع رقعتها – من بيولوجية وسياسية واجتماعية ، وخلص الى فكرة شاملة عن الكيفية التى تستطيع بها الكائنات البشرية – اذا استغلت طاقاتها أقصى استغلال ، واستهدت بالذكاء المسلح بالطريقة العلمية – أن تطور بيئتها وتحسن حياتها فى اطراد . وكان للمذهب البراجماتى تأثير بعيد المدى ، وبخاصة فى ميدان التعليم – وذلك بفضل ما يمتاز به من اتساع المجال، وتقبل التغيير واللايقين ، والتوجيه الى العمل الايجابى .

وفى عقود السنين التى تلت ذلك ، وجدنا أن الانسانيين العلميين مثل جوليان هكسلى قد مضوا بالمضامين الفلسفية للعلم شوطا أبعد الى الأمام . فهم يعتبرون أن الانسان لا يزال فى مرحلة التطور ، وانه لم يتجاوز نقطة البداية فى استخدامه لطاقاته لخلق الظروف التى تسمح بأقصى نمو لامكانياته ، وعلى ضوء هذه الفكرة يكون ازدهار الفرد غاية فى ذاته . ولكن الانسان مخلوق متعدد الجوانب ، معقد غاية التعقيد ، فلا يستطيع ازدهاره الفردى أن يتحقق بعيدا عن المجتمع أو بعيدا عن الطبيعة ، فعليه باستخدام معرفته وذكائه لخلق البيئة والثقافة التى من شأنها أن تفتح أمامه باستمرار الطريق الى مزيد من الادراك الجديد لامكانياته النظرية . فاستطاع بتطبيق الطريقة العلمية على كل ميادين النشاط البشرى أن يكون أداة من أدوات التطور الثقافى .

غير أن فلاسفة آخرين من الوضعيين ركزوا اهتمامهم فى نقطة ضيقة . هى شحذ الأسلحة التحليلية بدلا من توجيهها الى القضايا الاجتماعية الواسعة . لقد تخلى الوضعيون المنطقيون فى منتصف القرن عن بذل أى جهد فى بناء مذاهب للتفكير الفلسفى ، وصاروا يحاولون أن يعرفوا على وجه الدقة ، وينقلوا الى غيرهم على وجه التحديد ، عناصر الفكر والملاحظة ، التى قد يستطاع أن يبنى من لبناتها صرح مذاهب فكرية فى يوم من الأيام . لقد وجهوا عنايتهم المركزة الى تحليل اللغة ، والرموز ، والمعنى ، بعيدا عن هؤلاء الذين يبحثون فى الفكر الفلسفى عن النظرة الميتافريقية أو عن أساس للقيم ومرشد للعمل ، او كلا الأمرين معا (*) .

وحدث رد فعل على كل من الخطوط الرئيسية للفكر الفلسفى فى القرن التاسع عشر ، المثالية والوضعية ، وكل طرائقهما العقلانية فى التفكير ، فرأينا بعض فلاسفة القرن العشرين ، ممن يتمتعون بأوسع شعبية وأكبر نفوذ ، يؤكدون الأهمية الكبرى لملكات الانسان غير العقلانية ـ مثل الحدس ، والفهم المباشر للظواهر ، والوعى بالتجربة الداخلية . انهم يرفضون الطريق العلمى الذى ساد فى القرن التاسع عشر ، بنظرته المادية والميكانيكية ، كما يرفضون النظرة العلمية الجديدة لاعتمادها على الاحتمالات الاحصائية ، واهتمامها بالظواهر الاجتماعية ،

(*) يمكن الرجوع الى الفصل السابع : «الرياضيات والمنطق»

وعجزها عن أن تلقى ضوءا على حالة الفـرد الفريدة فى بابها . هؤلاء الفلاسفة مشغولون بالحياة والانسان ؛ ومشغولون بالفرد على وجـه خاص ، فى وجه الحياة الميكانيكية فى المجتمع الصـناعى ، والانصراف الموضوعى الى العلم .

ولقد اتخذت محاولة الوصول الى الحقيقة عن طريق التجربة المباشرة غير العقلانية عديدا من الصور المختلفة فهنرى برجســون (١٨٥٩ ــ ١٩٤١) وهو أشهر الفلاسفة الفرنسـيين واكبرهم نفوذا فى الربع الأول من القرن ، يؤكد أن الحـدس يستطيع أن يتغلغل الى لب الحقيقة ، وأن المحاولات العقلية للعلم لا تستطيع الا أن تدور حول هذا اللب كما تفعل القشرة ، وأعتقد أن الارادة تستطيع تشكيل هذه الحقيقة على نحو خلاق . وكان برجسون ــ مثل معاصره كروتشى نبيا من أنبياء الحرية ، ولكنه لم يكن كاشفا عن اسرار الفكرة العالمية . فكان يراها ثمرة تتحقق لمن تحفزهم نحوها الشرارة الحيوية . كما يرى انها تتغير خلال الزمن في عملية التطور الخلاق . أما الفيلسوف «الظواهرى» Phenomenologist الألمانى ادموند هوسرل Husserl (١٨٥٩ ــ ١٩٣٨) فقد ركز عنايته فيما أسماه « الظواهر » ويقصد بها البناءات التى يراها المشاهد ، فاذا نظر الى بناء المكعب من زوايا مختلفة تبدى له بأشكال مختلفة . وأعتقد أن محاولة اختبار هذه الظواهر يمكن أن تطبق بنجاح على الرؤية الداخلية للذات . بل ان فيلسوفا متمرسا فى العلم مثـل الفريد نورث هوايتهد ، زميل برتراند رسل فى تأليف المرجع الكلاسيكى للمنطق الرياضى وهو كتاب برنكيبيا متيماتيكا « المبـادىء الرياضية » (١٩١١) يؤكد بعد ذلك أن هيكل الفكر العلمى والمنطقى انما هو بناء علوى مقام على عقائد وأفكار حدسية فى أساسها .

وبحلول الربع الثانى من القرن ، صارت الطرق التى تسلك فى الحياة مسالك لا عقلانية فى أساسها يطلق عليها اسم مائع غير محـدد هو الوجـودية . وليس من جديد فى الفكرة القـائلة بأن على الانسان أن يتفق ويتفاهم مع اللاعقلانى واللامعقـول ، فقـد كان روادها فى القرن التاسع عشر الفيلسوف الدنماركى سورين أ . كيركجارد (١٨١٣ ــ ١٨٥٥) والفيلسـوف الألمـانى فردريتش نيتشه (١٨٤٤ ــ ١٩٠٠) والروائى الروسى فيودور دوستوفيسـكى (١٨٢١ ــ ١٨٨١) وقد عرضها بشكل غاية فى النظام الفليسوف الألمانى المعاصر مارتن هيدجر ولكنها لم تنتشر على نطاق واسع الا من خلال أعمال الروائى والكاتب

المسرحي الفرنسي المعاصر جان بول سارتر وأخذت معنى دينيا قويا على يد الكاثوليكي الفرنسي المعاصر جبريل مارسل والبروتستنتي الألماني المعاصر كارل ياسبرز . ولقد بلغت الوجودية أقصى انتشارها في القارة الأوربية في أواسط القرن العشرين ، لأنها كانت تلائم حاجات الناس الذين أصابهم الدمار المادي والمعنوي في الحرب العالمية الثانية ـ فاشية ، مقاومة ، معسكرات اعتقال ، موت ، هزيمة . ولكنها انتشرت في بلاد أخرى كثيرة ـ في بريطانيا وأمريكا اللاتينية واليابان والولايات المتحدة .

تقول الوجودية بأن الوجود نفسه ـ بلا عقل ولا هدف ولا اتجاه ولا فكرة كبيرة ـ هو الحقيقة الوحيدة ، وعلى الانسان أن يقبلها ، ومن ثم عليه أن يصنع حياته عن طريق الاختيار المستمر . فالفرد حين ينظر في داخل نفسه ،يغير الذات نفسها التي يحاول أن يفهمها ، وهو بسلوكه الخاص واستخدام قوة ارادته يحدد من يكون وماذا يكون . ان لديه الحرية في الاختيار ولكنها حرية مفروضة عليه ، مقضي عليه بها . وهكذا تكون الحياة مشروعا خطرا لأن الانسان حين يوجد انما يجازف بوجوده . وعلى أساس هذه الفكرة لا يستطيع الانسان أن يكون سلبيا، ولا يستطيع أن يقصر همه على أن يعرف وأن يفهم ، بل عليه بمقتضى طبيعة وجوده أن يلتزم ، وان يعمل .

لكن ليس في الوجود منطق أو نظام عقلي نستهدي به في هذا الاختيار وهذا العمل ، ولهذا فان هذه الفكرة لم تؤد الى مجموعة مشتركة من المبادىء أو العقائد . وقد أدت ببعض أنصارها الى اللاأدرية أو الالحاد ، وأدت بغيرهم الى نتائج والتزامات دينية مختلفة . لقد استخدمت لتبرير قيام الاشتراكية الوطنية ، كما يبدو في كتابات هيدجر ، واستخدمت لاستثارة حماسة الفرنسيين لمقاومة الاحتلال النازي ، كما نرى في كتابات سارتر . وهي في أشد صورها ايجابية تنشط الانسان للعمل في وجه انهيار القيم التقليدية ، والميوعة الثورية لحياة القرن العشرين . فهي تحض على فهم الذات فهما مباشرا بدون التستر بالادعاءات ، أو التذرع بمعاذير وقائية ، وتحث الجهد للاتصال بالآخرين ، لا عن طريق أحكام استخدام اللغة أو غيرها من الرموز كما حاول ذلك أصحاب الوضعية المنطقية ، بل بالدخول عن طريق الحدس والخيال في وجود الآخرين . وهي من هذه الناحية قد عززت العلاقات الانسانية والفهم الانساني . أما في أكثر جوانبها سلبية،

فقد أدت الى فصـــل الفرد عن الحياة الرتيبـــة والفكر المنهجي المنظم وقلبته على نفسه ، فى أنانية متمركزة حول الذات ، وادت الى «الانفلات» من الحياة أكثر مما أدت الى « الالتزام » بها ، مع أن الالتزام هو جوهر التعبير الايجابى عن الموقف الوجودى ٠

وهكذا نرى أن الخطوط الرئيســـية للفكر الفلسفى فى الغرب فى هذه السنوات قد صرفت العقول عن يقينيات الماضى ، وعجزت عن أن تقدم مذاهب فكرية جديدة تنظم التجربة الجديدة ٠ ولكن هذه الخطوط رغم تنوعها وتناقضها تتسم ببعض الخصـــائص المشتركة التى تميزها من المذاهب والتحليلات الفلسفية فى القرون الماضية ٠

ذلك أن فلاســـفة جميع المدارس يميلون الى اعتبـــار الحقيقـــة والصدق والعلاقة بين الذات والموضـــوع ، وطبيعة المعرفة ، والادراك والكينونة ، نقول انهم أخذوا ينظرون الى كل هذا نظرة معقدة متشابكة العلاقات ، تخلت عن النظرة القديمة التى كانت تميز بصورة حاســـمة بين الشىء الخارجى والذات المفكرة ، تلك النظرة التى طالما شغل بها كثير من الفلاسفة فى الماضى ٠ وبرغم أن بعض الفلاسفة سلكوا الطرق التى أوحى بها العلم بينما أنكر آخرون قيمة العلم من حيث هو مصدر من مصـــادر المعرفة الفلسفية ، فقد انتشرت فكرة جديدة مؤداها أن العقلانية البسيطة غير كافية ٠ ان لدى الانســـان القدرة على أن يفهم ويدرك عن طريق الاحساس المباشر ، كما يفعل عن طريق العمليـــات المنطقية ٠ ولقد انصرف الفلاسفة عن البحث وراء « الحقيقـــة » المفردة واتجهوا الى قبول فكرة امكان الحصول على أنواع كثيرة ومفاهيم كثيرة ، أى اتجهوا الى المفهوم التعددى للحقيقة ٠ واتجه الاهتمـــام وتركز فى العملية ، فى «الصيرورة» اكثر مما يتركز فى الأصول والغايات والأشكال التى لا تتغير ــ صار الاهتمام يتركز فى الاحداث المترابطة فى المكان ــ الزمان ٠ واذا استثنينا آراء من قصروا عنـــايتهم على صـــقل أدوات التحليل فان الفرد البشرى صار هو مركز العناية ــ ادراكه لذاته وعلاقته بالآخرين ومضامين عمله ٠ ومع أن الفكر الفلسفى فى القرن العشرين قد قام به مفكرون على أعلى درجة من التخصص واستخدموا فيه أســـاليب مصقولة معقدة محكمة التحليل ، فان تدفق الاتصالات والعـــلاقات قد اخترق الخطوط الجامدة فرأينا أن الأفكار التى ظهرت تتسم بســـهولة تكشف عن أساليب متحررة غير جامدة ، وان لم تســـتطع اعتبـــارها الاستجابة المقبولة عالميا لتحديات هذا العصر ٠

وعلى الرغم من وجود الأفكار التى تعكس اللايقين الذى يشترك فيه الفلاسفة وغير المتخصصين على السواء ، فقد ظل مذهبـــان كبيران كما هما لم يطرأ عليهما أى تغيير ، فظلا يقدمان للمؤمنين بهما قدرا من اليقين : وهما عقائد الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، على نحو ماصاغتها التوموية الجديدة نسبة الى توما الأكوينى ، وكذلك المادية الجدلية لماركس وأنجلز . كما صاغها لينين فصارت هيكل عقيدة . وطريقة تفكير فى الاتحاد السوفيتى وجمهورية الصين الشعبية .

وظلت فلسفة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية تعتمـــد على أن عالم الروح حقيقة أعلى من العالم الزمنى . ولقد عاودت الكنيسة اصرارها على عقيدتها السلفية جملة وتفصيلا فى وجه التطورات العلمية والاجتماعيـــة التى أثارت الشكوك فى كثير من العقول . فهى فى احيائها لفلسفة القديس توما الأكوينى تقدم منهجا فلسفيا ودينيا تقليديا لفهم الحياة فى العصر الحديث .

وعاد الاهتمام بفلسفة توما الأكوينى العظيم حين صدر المنشـــور البابوى فى عهد البابا ليو الثالث عشر سنة ١٨٧٩ باسم Aeterni Patris وأنشىء كرسى لفلسفة توما فى جامعة لوزان ببلجيكا سنة ١٨٨٢ . وبعد هذا نمت الدراسات التوموية فى عدد من المراكز الأوربيـــة ، وانتشر الاهتمام بها فى كل ميادين التعليم والبحث فى العالم الكاثوليكى . وأوصى البابوات مرارا وتكرارا بدراسة حياة توما الاكوينى ، واتباع طريقته .

والتوموية الجديدة فى فروضـــها وطرائقهـــا تحتفظ فى جوهرها بنفس النظرة الى الحياة والحقيقة التى عبر عنها القديس توما فى القرن الثالث عشر . وهى فى وضـــعها القوى الجديد المتبع فى معظم الدوائر الكاثوليكية تسلك ســـــبيلين رئيسيين : تطبيق الطرق التوموية على ما استجد فى فكر القرن العشرين وتجاربه ، وصقل هذه الطرق فى ضوء الدراسات التجارية والتحليلية التى وردت بكتابات القديس توما .

وقد استمر الفكر التوموى الجديد فى استخدام المنطق الشـــكلى الصارم ، الذى كان يستخدمه أصحاب الفلسفة المدرسية . فهو يقبـــل الفكرة القائلة بحقيقة الأشياء التى تدرك مباشرة بالحواس . وتفهم بالعقل عن طريق الحكم العقلانى ، كما تقول بحقيقة الأشياء التى لا يمكن ادراكها بل يمكن استنتاجها عقليا عن طريق تطبيق مبادىء السببية والاتساق ــ وهى مبـــادىء لا يمكن أن نقيم عليها البرهان ولكنها تعرف عن طريق

البصيرة العقلية . وتقول التوموية الميتافيزيقية بأن كل الأشياء الموجودة لا يلزم أن تكون مادية بل ان كل الأحداث والأعمال الواقعية لا يمكن تعليلها عن طريق قوانين وخصائص الأجسام المادية . فثمة أعمال التفكير والارادة تعتمد على عمليات كامنة تختلف عن القوى المادية .

وحجز الزاوية فى ميتافيزيقيا فلسفة توما هو اثبات وجود كائن أعلى ، فهى ترى أن وجود الأشياء وحركاتها فى العالم لا يمكن أن تفسر تفسيرا كاملا عن طريق الأسباب الثانوية وحدها فبالرغم من أنه من الممكن تفسير حدث ما فى الطبيعة عن طريق الاهتداء الى سببه القريب فى الطبيعة فانه لا يمكن مع ذلك أن تقدم تفسيرا نهائيا للنظام الكامل للأشياء والأحداث الطبيعية بارجاعها الى أسباب طبيعية أخرى . أما التفسير النهائى الممكن دون غيره لوجود العالم وعمله فانما يكمن خارج العالم نفسه ، فى العلة الأولى وهى الله .

والانسان فى الفلسفة التوموبه يفهم على أنه مركب من كائن مادى ومعنوى ، له روح غير مادية وجسد مادى . والوالدان اللذان ينجبان جسم الفرد لا يمكنهما انجاب روحه ، لان روحيهما غير مادية ، لذا فهى غير قابلة للانقسام ، لهذا فان روح الفرد يجب أن يخلقها الله . ولما كنا لا نعرف طريقة تنتهى بها هذه الأشياء غير المادية ، فلا بد أنها خالدة لا تفنى .

هذه النظرة الى الانسان تقدم لنا أساسا للأخلاق ومفهوما للمجتمع، فالانسان مسئول عن الأعمال التى تقع تحت سيطرة عقله وارادته ويترتب على ذلك أن الخير أو الاستخدام الأخلاقى لقدرة الانسان على العمل ، يتصل بهدف الحياة البشرية وغاياتها ، وهذه لا يمكن تعريفها الا بأنها الخير الكامل ، أى الله . وبلوغ مثل هذه الغاية لا يتحقق الا فى حياة أخرى قادمة . والأعمال التى تعتبر شرا هى التى تؤذى الفرد فى طبيعته وقدرته ، سواء فى ذلك الذات أو الغير . وقواعد السلوك الأخلاقى هى نظريات القانون الأخلاقى الطبيعى ، لانها تنمو من تطبيق المنطق الطبيعى على معطيات التجربة الانسانية الطبيعية .

والحياة الاجتماعية تعتبر جوهرية أيضا بالنسبة لطبيعة الانسان ، وتعتبر الأسرة أبسط مجتمع طبيعى ، لم ينجم عن تعاقد ، بل عن ميل طبيعى عند الانسان وعن الحب والعناية بالأطفال ، ورعاية الصالح العام . ويؤكد التومويون أن الأسرة لها طابع واصل طبيعيان ، ويقفون فى وجه كل مايهدد سلامتها ، باعتبارها وحدة لها طابع وأصل ، ولما كانت

• الأسرة أصغر من أن تفى بكل الحاجات الاجتماعية للانسان ، فان المجتمع المدنى يعتبر أيضا منبثقا عن الطبيعة ، لا صادرا عن عقد ، وان كانت الأشكال الخاصة بالدول قد تتفاوت • ولا بأس بهذا طالما أنها لا تنكر الغرض الروحى الأساسى للحياة البشرية والقانون الأخلاقى والوحدة الاجتماعية الطبيعية ، أعنى الأسرة • ويقابل هذا على الجانب الروحى « المجتمع الكنسى » المختص بحياة الانسان المستقبلة .

هذه الفكرة العامة درست فى كل المؤسسات الكاثولوكية وارتفع بنيانها فى آلاف الجامعات ومراكز الدراسات الكاثوليكية ، وكانت موضوعا لمئات المقالات الأكاديمية التى تنشر كل عام ، وكانت الأصل الذى صدرت عنه دوريات توموية متخصصة ، لم يكن عددها يقل عن الخمس والعشرين فى الخمسينات ، وكذلك شكلت المنظمات التوموية والمؤتمرات التوموية الدولية . ومنذ الحرب العالمية الأولى حتى الآن لم يتهيأ لمجموعة فلسفية أخرى من حيث العدد ـ مثل هذا الحشد من المفكرين ومراكز الدراسات .

أما المادية الجدلية التى تقدم اطارا لكل الأفكار والتبريرات الفلسفية والنظرية لكل عمل من الأعمال فى الاتحاد السوفيتى وغيره من الدول الشيوعية ،فتقف على طرفى نقيض مع المذهب الميتافزيقى للتومويه الجديدة •ان المادية الجدلية تعتمد على العقيدة الأساسية وطريقة التحليل التى أنشأها كارل ماركس وفرد ريش انجلز فى منتصف القرن التاسع عشر • والمذهب الفكرى الماركسى لا يستهدف تفسير العالم وكفى ، بل يستهدف أيضا تفسيره بحيث يصير عمليا الى أقصى حد ، على ضوء الضرورة التاريخية •

يرى ماركس أن جوهر طبيعة الانسان يكمن فى قدرته على الانتاجية التلقائية ونشاطه الحق هو عمله الذى يشمل كيانه كله وعن طريقه يغير نفسه ويغير الطبيعة ، فى خارجه . ولما كان لا يدرك كينونته الواعية من خلال الفكر بل من خلال الانتاجية ، فان الذى يتحكم فى الحياة ليس الوعى ، بل ان الحياة الاجتماعية هى التى تتحكم فى الوعى والادراك . ولا يقتصر هذا المبدأ على أشكال الانتاج التى تمنح الحياة شكلها الأساسى ، بل يمتد الى البناء العلوى من اقتصاد وقانون وأخلاق ودين . وعلى هذا الضوء يعتبر قانون المجتمع البرجوازى وأخلاقياته مجرد تعبير عن هذا المجتمع دون أن يكون لها طابع مستقل بها .

لقد أتبع ماركس طريقة هيجل الديالكتية فى التحليل ، وأن رفض

مثاليته باعتبارها الصورة الصـــافية للايديولوجية البرجوازية • فكان ماركس يرى أن عملية الطبيعة والتفـــكير والتاريخ عملية ديالـكتية • فالحقيقة تتركب من أضداد من نظريات تولد بطبيعتها متناقضات لهـــا فتكون مع ذلك وحدة أساسية • وبمرور الوقت تتقدم هذه الوحدة أو هذا المركب ليحل محـــل النقيض القديم • وهو يرى فى المجتمـــع البورجوازى تناقضا بين قوى الانتاج والعلاقات الانتاجية ، لأن ملكية وسائل الانتاج تمنح الرأسمالى القدرة على استغلال العمال ، ومنعهم من أن يستخدموا طاقاتهم الانتاجية تماما وتعدد جوانبها ، فيـكون المركب الوحيد من الفكرة ونقيض الفكرة هو اقامة مجتمع تلغى فيه الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، وتحل محلها ملكية المجتمع لها •

ويرى ماركس أن طبقة البروليتاريا قدر لها أن تقوم بدور تاريخى، هو الغاء المجتمع البرجوازى ، وبذا تتم العملية التاريخية الديالكتية • وقد أحال لينين نظرية المادية التاريخيـــة الديالكتية الى أداة عملية من أدوات الثورة • ففى ظل التوجيـــه من جانب مجموعـــة ثورية محترفة تستخدم طريقة التحليل الديالكتى لتنفذ الى فهم لقـــوى المجتمع ، يمكن تنفيذ الثورة عن طريق أقلية متماسكة بالموافقة الصامتة لأغلبيةالشعب. وكان يعتقد أن الارادة الثورية للحزب الشيوعى يجب أن تكون قادرة على أن تسمو فوق الوضع الاقتصادى وتحيل التناقض بين الواقع الاقتصادى والقوة السياسية فى روسيا الى عامل ايجابى نشيط عن طريق استخدام « المركزية الديمقراطية » •

وأتى جوزيف ستالين بعد ذلك ، فتقدم بالتحليل الى نقطة أخرى هى أن الدياليكتيك الثورى يمكن تنفيذه وبلوغ هدف المجتمع اللاطبقى داخل قطر واحد هو الاتحاد السوفيتى • وفى عام ١٩٥٠ صار يعتقـد أن الاشتراكية قد تحققت فى الاتحاد السوفيتى ، وان الشيوعية يمكن أن تتحقق بزعامة الحزب ، دون الحاجة الى ثورة جديدة ، لأن التناقضات الكبرى بين قوى الانتاج والعلاقات الانتاجية قد انتهت بفضل تمـــلك الشعب لوســـائل الانتاج • لم يعد المـــوقف محكوما بالتناقض الذى استخدمه لينين كقوة ايجابية ، بل صار محكوما بالتآلف بين النظرية ونقيضها والذى ظهر فى مجتمع الاتحاد السوفيتى •

هذه المفاهيم قدمت نظرة موحدة للحياة ، يمكن على ضوئها فهـــم كل الجوانب والأنشطة فأساس النظرية هو الغرض المادى ، والطريقة الديالكتية ، والجبرية التاريخية ، واعتبار الأفكار من التجربة الاجتماعية

وأن وظيفتها تغيير هذه التجربة فى اتجاه التنظيم العقلانى للانتاج ، والتنمية الكاملة للطاقات البشرية اللازمة للانتاجية المادية والعقلية ، وطريقة المركزية الديمقراطية ـ وبذا تقدم النظرية أساسا متسقا لتحقيق التقدم التكنولوجى ، والتعبير الأدبى والفنى ، والبناء السياسى والتنظيم الاجتماعى ، ورأى الفرد فى نفسه واتجاه السياسة العامة ٠

وقد انتشرت التيارات الفكرية التى ظهرت فى الغرب فى العالم خارج أوربا فأوجدت أفكارا جديدة ، وهزت صرح اليقينيات التقليدية وحفزت الى اعادة امتحان المفاهيم والقيم التى كانت تقبل بلا مناقشة من قبل ٠ واتجه البحث العلمى الذى قام به الأساتذة الغربيون والشرقيون الى الفكر الفلسفى فى الشرق فأدى هذا الى اعادة نشر الكتب البوذية والهندوكية والكنفوشية وغيرها فى نصوصها ، ودراساتها النقدية ،والنظر فيما تعنيه بالنسبة للحياة الحديثة (*) ٠ ومن جهة أخرى فان المواقف والمبادىء العلمية ، سواء ماينتمى منها للقرن التاسع عشر وما ينتمى للقرن العشرين ، والاتجاهات الفلسفية الغربية المختلفة ، بما فى ذلك البرجماتية والمادية الجدلية والوجودية ، ٠٠ دخلت كلها الى فكر الشرق عن طريق الكتب والقادة الذين تلقوا تعليمات غربية ٠ وعلى نحو لا يقل عما حدث فى الغرب ، تحطمت الكيانات الفكرية التقليدية بتأثير التجارب الجديدة ، والأفكار الجديدة ، دون أن يحل محلها مباشرة بديل يحفظ التماسك بين وجهات النظر ٠

أما الاسلام فهو الديانة الرئيسية التى بقيت وطيدة الأركان فى الشرق ٠ ومع أنه ليست له قيادة دينية مركزية ، على غرار الكنيسة المركزية ، لها الحق دونغيرها فى تفسير العقيدة التفسير الصحيح ،ولديها الوسائل لتدبير أمرها ونشرها ، فليس من وسيلة للتفاهم المشترك بين الشعوب الاسلامية الكثيرة المختلفة ، سوى الحج الى مكة والدراسات التقليدية فى المساجد الكبرى ، فان الكتاب المنزل ، والصلوات المفروضة وقواعد السلوك اليومى واستمساك الناس بها ، قد كفلت للعقيدة البقاء سليمة ٠ برغم أن للأفكار الفلسفية الغربية معتنقيها فى البلاد الاسلامية أيضا ٠

لقد كان معظم التفاعل بين الفكر فى الشرق والفكر فى الغرب يسير فى جانب واحد ، هو تأثير الأفكار التى نشأت فى الغرب فى فكر

(*) انظر الفصل الخامس والعشرين «الدين» ٠

الشرق . غير أن تقدم الفلسفات غير العقلانية فى الغرب خلال هـــذه السنوات قد أخذ يوجد صـــلة ممكنة أو معبرا ممكنا تعبر منه الأفكار الفلسفية من الشرق الى الغرب . فأفكار الشرق كانت دائمــا تؤكد استخدام الملكات اللاعقلانية للنفاذ الى جوهر الحقيقة . هذه الاتجاهات مقرونة بما كسبته أمم الشرق حديثا من احترام حين أحرزت المساواة مع غيرها فى الوضع السياسى ، قد أوجدت اهتماما متزايد بالفكر الفلسفى للشرق . ولكن القرن قد انتصف ولا تزال هناك هوة واسعة بينهما ، لا تكاد تسمح بأى تغلغل حقيقى للفكر الشرقى فى الغرب . فما أصعب ان تجد غريبا على استعداد لأن يخضع نفسه للنظام العنيف الذى يراه الشرقيون ضروريا لعمق البصيرة واستجلاء حقيقة الذات والحكمة . وهى جزء من تقاليد الشرق ، التى لا يسع الغربى الا الأمل فى أن يحس بها داخل نفسه .

تعليقات على الفصل الأول

١ – يرى المعلقون السوفييت أن نظرية (اللاعنف) لغاندى ليست بالطريقة التقدمية الجديدة لتحقيق التغيرات السياسية والاجتماعية لاحراز التقدم فى المستقبل بل هى عقيدة اخلاقية دينية متخلفة اضرت بقضية تحرير الهند أكثر مما افادتها . لانها ورطت حركة التحرير القومى فى متاهة المصالحات والتنازلات للامبراطورية البريطانية فى أمور تتصل بالمبدأ ، ومما له دلالته ومغزاه ان المؤتمر القومى الهندى لم يطبق مطلقا سياسة اللاعنف بغير تحفظ ، الى ان تخلى عنها فى نهاية الامر ، بل ان غاندى نفسه لم يظل وفيا لهذه الفكرة حتى النهاية . ذلك ان فكرة اللاعنف التى حاول غاندى أن يحصل على موافقة حزب المؤتمر الهندى عليها بوصفها الاساس العملى لسياسة الدولة الهندية ، كانت مثار صراعات مستمرة داخل المؤتمر الهندى ، وادت الى كثير من الازمات السياسية . كتب ج . نهرو يقول « حين أثار غاندى عام ١٩٤٠ مسألة اللاعنف فيما يتعلق بالحرب ومستقبل الهند الحرة ، كان على أعضاء لجنة العمل بالمؤتمر الهندى مواجهة القضية بصراحة ، فأوضحوا له انهم لا يستطيعون ان يذهبوا معه الى حيث اراد ، ولايستطيعون ان يلزموا الهند أو المؤتمر بالتطبيقات المستقبلة لهذا المبدأ فى الميدان الخارجى . غير ان نفس الازمة قد اخذت تتبلور فى ديسمبر ١٩٤١ حين أصر غاندى على التطبيق الكامل للاعنف . وهنا حدث انشقاق وخلافات علنية ، فلم يستطع رئيس المؤتمر مولانا ابو الكلام آزاد وغيره قبول فكرة غاندى ، وأصبح من **الواضح أن المؤتمر فى مجموعه ، بما فيهم بعض الموالين الاوفياء لغاندى ، يخالفونه فى** هذا الشأن . ولم يحدث فيما بعد أن اثار غاندى هذه المسألة ثانية فى الكونجرس .. وفى الاشهر التالية قرابة اغسطس ١٩٤٢ رأينا أن وطنية غاندى ورغبته القوية فى الحرية جعلته يوافق حتى على الاشتراك فى الحرب ، اذا استطاعت الهند أن تتصرف كدولة حرة .. وفى الصراع الذى دار فى نفسه بين مبدأ اللاعنف الذى كان يجرى فى عروقه مجرى الدماء ، وبين حرية الهند التى كانت عنده عاطفة غلابة تستغرق كل عواطفه ، رجحت كفة حرية الهند على كفة اللاعنف .

Jawaharlal Nehru, *The Discovery of India*, New York, 1946, pp. 455.

وهكذا يمكن أن نقول اعتمادا على شهادة الزعيم الهندى الكبير أن مبدأ اللاعنف والصراع من أجل تحرير البلاد من نير الاستعمار كانا دائما فى صراع وتناقض فليس هناك أوهى مبرر لتعليق اى امل على فكرة اللاعنف من حيث هى طريقة تقدمية جديدة لاحراز التغيير السياسى (انظر)

J. Nehru, *op. cit.*, R.P. Dutt, *The crisis of Britain and the British Empire* (London, 1957).

٢ ــ يقول ن . كونراد أن « المركب الخاص من الظروف » التى تعتمد عليهـا الثقافة الاوربية فى الواقع يعتبر هو نفسه حلقة طبيعية فى سلسلة التطورات التى ادت الى نشأة الثقافة العالمية . وعلى ضوء الماركسية اللينينية نجد التعبير عن الخط العام لتاريخ البشرية فى التقدم المستمر واكتمال هذا التقدم . وبرغم كل أنواع الرجعية وانعراج خط التقدم والنكسات الى الخلف فان المجتمع يسير قدما الى الامام . ومن اهم ملامح هذا القانون الموضوعى الذى يسير عليه التقدم الاجتماعى ، ذلك الاستمرار التاريخى فى تطور الثقافة . وجوهر هذا الاستمرار الذى يعد شرطا لازما لتطور الثقافة هو وحدة عضوية لا تنفصم عراها . من تراث الماضى . أعنى القيم الثقافية للاجيال السابقة من جهة وبين التحليل النقدى واعادة صياغة القيم الثقافية هذه على نحو خلاق من جهة اخرى ، اى الوحدة العضوية بين العراقة والابتكار فثقافة أى تكوين اجتماعى تاريخى هى النتيجة الطبيعية لجوهر هذا التكوين ذاته ، نتيجة للعمليات والظواهر التى تشكلها طريقته فى الانتاج . فطريقة انتاج القيم المادية تحدد وتقرر العمليات الاجتماعية والسياسية والروحية لحياة المجتمع فى مجموعه كما تقرر الانتقال من نظام اجتماعى بثقافته الى نظام اجتماعى أعلى منه ، وما يتولد فيه من ثقافة . والثقافة يجب أن ينظر اليها على انها ظاهرة تاريخية ، على أنها شىء فى عملية التطور. والاستمرار التاريخى فى تطور الانتاج المادى هو جوهر الاستمرار التاريخى فى تطور الثقافة المادية والروحية . وما يدعى بالثقافة الاوربية انما هو استمرار لثقافة شعوب الشرق القديم ، ويمكن أن نتبين عناصر من هذه الثقافة بوضوح فى « الحياة الروحية » لشعوب أوروبا . والثقافة الاوربية بدورها تفسح مكانها الآن (لثقافة عالية) تتشكل أمام أعيننا بظهور طريقة اشتراكية جديدة للانتاج .

انظر :

N.I. Konrad, « *Zametkio Smyle Istorii* » (Notes on the content of History), vestnik istom mirovoy kultury, 1961 No. 2, pp. 3-30 ; (2) E.A. Baller, « *Problema preemstvennosti v razvitii kultyry*, (The problem of continuity in cultural development »), Vestnik istorii morovoy kultury, 1961, No. 5, pp. 14-29).

٣ ــ من أشهر الصيغ التى تعبر عن موقف الكاثوليكية من العدالة الاجتماعية والملكية الفردية فى الازمنة الحديثة هى منشورات البابا ليو الثالث عشر فى المنشور البابوى أمور جديدة (١٨٩١) وعلى الاخص فى المنشورين الحديثين اللذين أصدرهما البابا يوحنا الثالث والعشرون « أم ومعلمه » *Mater et Magistra* (1961) والسلام فى الارض *Pacem in Terris* (1963) وقام البابا بيوس التاسع فى المنشور «بعد اربعين سنة» (من صدور الامور الجديدة *Quadragesimo Anno* (1931). بتفصيل ماأجمله المنشور السابق الخاص بعلاقة العدالة الاجتماعية بالملكية الخاصة . قال : (اود أولا ان اوضح بما لايدع مجالا للشك : انه لا البابا ليو الثالث عشر ولااصحاب اللاهوت الذين تربوا فى احضان الكنيسة وفى ظل رعايتها وهدايتها ، قد انكر فى يوم من الايام ، او دعا الى التشكيك فى حق الملكية بنوعيها ، فهى فردية أو اجتماعية تبعا لاضافتها الى الافراد او الى الصالح العام . لقد كانوا بالاجماع يدفعون بأن حق الملكية الخاصة قد منح للانسان من الطبيعة ، أو قل من الخالق نفسه ، ولم يكن غرضه الوحيد من هذا أن يمكن الافراد من الحصول على حاجاتهم الخاصة وحاجات اسرهم ، بل كان

الغرض أيضا ان الخيرات التى اختص الله بها الجنس البشرى تستطيع آن تخدم هذا الغرض عن طريق الملكية الخاصة ، ولكن هذه الغايات لايمكن ضمانها الا فى ظل نظام محدد مستقر .

وينجم من الطابع المزدوج للملكية الذى سميناه فرديا واجتماعيا ، ان من واجب الناس الا يأخذوا فى اعتبارهم مصلحتهم الخاصة فحسب ، بل والصالح العام ايضا والتحديد التفصيلى لهذه الواجبات اذا اقتضي الامر هو وظيفة الحكومة ، اذا لم يكفل القانون الطبيعى أداء هذه الواجبات .. ومن الواضح مع ذلك آن لا ينبغى للدولة أن تؤدى هذا الواجب بطريقة تعسفية . وفضلا عن مناقشة المشكلات العملية لتطبيق العدالة الاجتماعية التى يشتمل عليها الكثير من المراجع الواردة بالقوائم الببليوجرافية لهذا الكتاب فان القارىء يستطيع ان يحصل على فكرة اساسية عن هذا الموضوع من قراءة تحليل فريد مان لتطور القانون طبقا لتغيرات مجتمع القرن العشرين خصوصا فى الدول الغربية

Cf. W. Friedmann, *Law in changing Society* (Berkeley and Los Angeles 1959).

٤ ـ يقول الاساتذة السوفييت انه من الخطأ عرض الكنيسة الكاثوليكية على أنها من حماة حقوق المجتمع ازاء الفردية . فأساس الكاثوليكية هو الخضوع للسلطات الاوتوقراطية المطلقة لرئيس الكنيسة وهو البابا . فبالنسبة اليه يكون الافراد والشعوب والمجتمع فى مجموعه ، اما أشياء لا حقوق لها على الاطلاق، او انها تقع فى موقع ثانوى جدا بالنسبة اليه . فالكاثوليكية كانت ولا تزال من حيث المبدأ ضد السيادة الشعبية التى هى أساس العدالة السياسية .

Konstitutsionnye Akty Gosudarstva-gorod Vatikan (Constitutional Documents of Vatican City), Arts. 1, 3, 4, 7 and others).

اما عن العدالة الاجتماعية التى قيل أن الكنيسة الكاثوليكية تجاهد لتحقيقها فهذا قول باطل تمام البطلان ، لان الملكية الخاصة لوسائل الانتاج وهى أساس كل المظالم الاجتماعية ، كانت دائما ولا تزال الرمز الاسمى للعقيدة الكاثوليكية . ففى المنشور البابوى ماتر وماجستير (أم ومعلمة) (١٩٦١) كما فى عديد من الوثائق الكاثوليكية الاخرى تعتبر الملكية الخاصة عنصرا لابديل له فى مجتمع حسن النظام والانتاج . وبرغم ما ورد بها من عبارات شعبية عن « التأميم » و « الملكية العامة » فان هذا المنشور البابوى من أوله الى آخره محاولة لتقديم دفاع أيديولوجى عن نظام الملكية الخاصة . فهذا المنشور يدعو الي الحقوق الثابتة للملكية الخاصة فى ان تصان بأى ثمن فهذه الحقوق وحدها ـ كما يقال ـ هى التى تستطيع ان تكفل استقلال الفرد من سيطرة المجتمع والدولة عليه . ويرى يوحنا الثالث والعشرون ان هذه الحقوق تقدم ضمانات للحرية كما تقدم حافزا لصيانتها .

(1) Yu. Aseyev, « *Novoye izlozhenic sotsialnoy dokrriny katolisizma* » (« A New Statement of Catholic Social Doctrine ») *Mirovaya ekonomikai mezhdmardnys, otnosheniya* (World Economics and International Relations) (1961), No. 11, pp. 47-56, (2) L. Gallico, « *Razryy mezhdu v at[illegible]nskov indeologive i Sotsialnoy deystvitelnostyu* » (« The Gap between Vatican ideology and Social Reality »), in World Review (Prague, 1961), No. 12, pp. 38-45.

٥ ــ ينوه استاذ العلوم القانونية أ . بوفين بأنه لم يقم أحد فى الاتحاد السوفييتى على نحو محدد « بحل » نظام الاسرة البرجوازية فالاسرة البورجوازية بما فيهــا من عدم المساواة بين المراة والرجل قد سقطت من تلقاء نفســها خلال تطبيق الاصــلاحات الاشتراكية . ومع ذلك فان النظام الجديد للاسرة الاشتراكية القائم على المساواة بين الجنسين مساواة كاملة اقتصاديا وسياسيا قد لقى فى الاتحاد السوفييتى التشجيع والتأييد باستمرار ، كما يتضح من التاريخ الكامل لتشريعات شئون الاسرة فى الاتحاد السوفييتى .

انظر :

G.M. Svevdlov, *Sovetskoye Semeynoye Pravo* (Soviet Family Law), (Moscow, 1958).

٦ ــ يعلق الاب اميليوبايو قائلا « ان قول الفكر المسيحى بأن حيــاة الانسان مجرد مقدمة للخلود ، لا يدعو مطلقا الى التقليل من قيمة الحياة على الارض ، بل هو يرفع من قيمة هذه الحياة . فهو يضفى قيمة خالدة على الجهود التى يبذلها الانســان لكفالة العدل والمحبة بين الناس » . وهذه الفــكرة عولجت تفصــيلا فى المنشـــورات البابوية المشار اليها فيما سلف ، وفى كثير غيرها من المنشورات فقد شجعت على تأليف عدد ضخم من المجلدات التى تعالج علم الاجتماع وغيره من العلوم الاجتماعيــة وكذلك العلوم والانسانيات من وجهة نظر كاثوليكية .

ويمكن الرجوع الى مايلى اذا اردت التوسع فى دراسة هذا الموضوع :

J.Y. Calvez, *Eglise et Société Economique* (Paris, 1961-1963), 2 Vols.

Cyril C. Clump, *A Catholic's Guide to Social and Political Action* (Oxford, 1955).

J.F. Cronin, *Social Principles and Economic Life* (Milwaukee, 1959).

T.J. Harte, *Papal Social Principles* (Milkwaukee, 1956).

Jacques Maritain, *Man and the State* (Chicago, 1951).

Melvin J. Williams, *Catholic Social Thought: Its Approach to Contemporary Problems* (New York, 1950).

الفصل الثانى

النُظُمُ الاقتِصَادِيَّة

اتسمت حيـــاة العالم الاقتصادية خلال القرن العشرين بمجموعتين متميزتين من النظم والعلاقات ٠

ففى مستهل القرن كان جزء كبير من العالم ـ يضم خمس سكانه أو ربعهم ـ ولعله وصل الى ثلثهم أو جاوز ذلك عند انتصافه ـ يسير فى فلك الاقتصاد التجارى العالمى ، الذى يتركب من الانتـــاج الصـــناعى والزراعة المخصصة للبيع خارج الأسرة أو الجهة المجاورة المباشرة ، والتجارة التى عن طريقها توزع هذه المنتجات ، والنقل والمواصـــلات والتشييد والخدمات ، مما يرتبط بهذه العمليات ٠

وخارج هذا الاقتصاد التجارى المترابط ، وان تأثرت به بصـــورة متزايدة ، كانت القرية ذات الاكتفاء الذاتى واقتصاديات انتاج وســائل العيش والتى عاش فيها قسم كبير من سكان العالم الريفيين ٠ هنا كانت دورة معظم الانتاج والاستهلاك محلية ومباشرة ـ ومع ان السلع القليلة التى تدخل اقتصاد الكفاف من الخارج كانت أحيانا ذات أهمية حيوية ـ كالملح وبعض الأدوية الضرورية ـ وان بعض المنتجات المحلية أو العمل المحلى تعين أن يدخل فى الاقتصاد التجارى لدفع أثمان هذه الضروريات، فان الجزء الأعظم من النشاط الاقتصادى كان يتم على النطاق المحلى ومن أجل الاستخدام المحلى ٠

وفى مستهل القرن كانت اقتصاديات الكفاف ، التى اتخذت عددا من الأشكال المختلفة تخضع بدرجات متفاوتة لتأثير الاقتصاد التجارى ٠ فالقرى الهندية التى كان الوصول اليها أيسر والتى كان اقتصادها التقليدى يعتمد على نظام محكم للمسئوليات المتبـــادلة ، أخذت تغزوها بالفعل منتجات المصانع البريطانية التى حلت محل الحرف المحلية ، وفى بعض المناطق تخلى الناس عن زراعة المحصولات اللازمة لحاجة السكان المباشرة ،

وحلت محلها محاصيل تجارية مثل النيلة والشاى . وكانت مجتمعات القرى الافريقية القبلية فى هذا الوقت قد بدأت التوها فى ارسال رجالها للعمل فى المناجم التى فتحها الأوروبيون ومجموعات القرى المتخصصة فى أودية المكسيك ، والرعاة الرحل فى آسيا الوسطى وايران ، والفلاحون الذين يزرعون وسائل العيش فى المناطق الجبلية المنعزلة بأوروبا والامريكيتين . والزراع المتنقلون فى أجزاء فى أمريكا اللاتينية وجنوب شرقى آسيا ، كل هؤلاء جميعا كانوا منطوين على أنفسهم الى حد كبير جدا .

وخلال القرن العشرين اتسع نطاق الاقتصاد التجارى وازداد تغلغله فى مناطق الكفاف . فشق الطرق قد فتح الطريق الى المناطق المنعزلة ، وأدت المواصلات الاذاعية الى علم بأحوال الحياة خارج القرية . واجتذبت الصناعة مزيدا من العمال من مناطق الكفاف للعمل بها . وتوطدت الأنشطة الصناعية فى صورة مناجم ومصانع فى مواطن جديدة . ومع ذلك فان هذا النموذج الثنائى ظل قائما فى أجزاء شاسعة من آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية حتى منتصف القرن . وحيث تأثرت اقتصاديات الكفاف بالاقتصاد التجارى . كان الأقرب الى الاحتمال أن يخضع بطريقة سلبية لتأثيره ، بدلا من أن تشارك فيه على نحو ايجابى ، برغم أن جهودا شاقة بذلت للتنمية الاقتصادية فى البلاد غير الصناعية ، كانت تميل الى جر هذه البلاد الى حيث تقوم بدور ايجابى فى المجرى الواسع للحياة الاقتصادية.

كان اقتصاد الكفاف القروى تقليديا وسكونيا الا حين تدهورت حالة القرى بسبب ضغط السكان أو استنزاف التربة ، أو خربت بفعل المجاعة أو الوباء أو الفيضان أو غير ذلك من الكوارث . أو لم يتغير بنيانها وتطورها ماديا الا حيث وقعت تحت تأثير الاقتصاد التجارى . ومن جهة أخرى كان الاقتصاد التجارى ديناميا الى درجة عالية . فلم يكن ينمو وينتشر فحسب بل كان أيضا ينشىء مؤسسات جديدة أو يعدل فى المؤسسات القديمة ويتعرض لتغييرات كثيرة خلال هذه الفترة .

وفى مستهل القرن العشرين كان الاقتصاد التجارى عالميا واحدا بين كل أجزائه علاقات وثيقة ، ويجرى وفق طائفة مشتركة من النظم . وبرغم أن كل بلد صناعى كانت له ملامحه الفريدة ، فان هذه لم تكن تختلف اختلافا جذريا من بلد الى آخر وكانت أجهزة التجارة الدولية القائمة على أساس الذهب لا تربط البلاد الصناعية فحسب ولكنها ربطت أيضا الأجزاء المصنعة من المناطق غير الصناعية . وفى هذه المناطق دخل من يعملون

فى الانتاج والتجارة ، فى نطاق الاطار التجارى المشترك ، أما لأن هذا الاطار قبله البلد أساسا للتجارة ، كما فى بلاد أمريكا اللاتينية ، أو بفضل الحكم الاستعمارى فى المناطق الواقعة تحت سلطان الدول الأوروبية ، أو عن طريق معاهدات الامتيازات الأجنبية فى الصين أو تركيا ٠

وخلال القرن العشرين تحطمت وحدة العالم الاقتصادية ، وظهر نظامان اقتصاديان منفصلان وذلك عند تأسيس دولة شيوعية فى الاتحاد السوفييتى ، ثم ادماج شرق أوروبا ودخول الصين فى هذا المجال والاقتصاديات الرأسمالية المتشاركة واقتصاديات الدول الشيوعية ، نمت على أسس مختلفة ولكن بينها ملامح مشتركة لأنها تستخدم تكنولوجيا مشتركة وتؤثر فى اتجاه ونشأة قاعدة مشتركة ، هى نقطة البدء التاريخية بالنسبة لمعظم الخصائص لكلا النظامين ٠ ولكن المظاهر التى كانت تعكس الاختلاف بين الأسلوبين الشيوعى والرأسمالى جاءت بنمطين متميزين للتنمية ، وأما العوامل الكامنة فى هذه التطورات وكذلك فى العلاقات السياسية بين البلاد الشيوعية وغير الشيوعية ، فكانت الى حد كبير من العلاقات الاقتصادية بين المجالين الاقتصاديين بحيث صار كل منهما فى منتصف القرن مكتفيا بذاته الى حد كبير ، على الأقل لصفة مؤقتة ٠

سبق أن ناقشنا الأساس المشترك فى التنمية التكنولوجية ٠ وفى الصفحات التالية سوف نستعرض الأساس المشترك فى الاقتصاد العالمى فى أوائل القرن العشرين ، وتعقب ذلك مناقشة للتطورات المثالية التى مرت بها الاقتصاديات الرأسمالية والاشتراكية ، ولأنماط التنمية الاقتصادية التى أخذت تتشكل فى المجتمعات الحديثة العهد بالتصنيع ، سواء فى صورة الاقتصاديات المختلفة ، والاقتصاديات الخاضعة للتوجيه الشيوعى ٠

١ ـ الأساس المشترك :

الاقتصاد العالمى فى أوائل القرن العشرين

كان الاقتصاد العالمى فى أوائل القرن العشرين يتألف من مشروعات خاصة تستهدف الربح ، يرتبط بعضها ببعض فى نظام متكامل بفعل عمليات السوق التنافسية . من حيث المبدأ كانت المنافسة طليقة من اى

قيد . أما من الناحية العملية فان الاحتكارات القومية كانت تسيطر على بعض الميادين بينما أخذت الدولة تنشىء المرافق العامة وتديرها .

وكانت السوق من حيث هى قوة منظمة ، تشجع انتاج السلع التى يشتد عليها الطلب ، وتضعف من انتاج مالا طلب عليه • وكانت الاسعار تتقرر خلال عملية الشراء والبيع وتمثل العرض والطلب • كان المنتجون يبحثون هل هم يستطيعون أن يصيبوا أرباحا على أساس البيع بسعر السوق ويعدلون انتاجهم بما يتلائم وتحقيق الربح • وكان الانخفاض أو الارتفاع فى السعر يشجع الطلب أو ينقصه • وكان جوهر جهاز السوق من حيث هو منظم الاقتصاد التجارى فى العالم ، هو مرونة الأسعار •

وكان اقتصاد السوق يعتمد على الصفقات المالية ويحتاج الى عرض نقدى يعتمد عليه فى عملياته • وكان هذا يتحقق فى كل دولة فى صورة ذهب أو فضة أو نقود ورقية تصدرها الحكومات ويساندها الائتمان • كما يتحقق عن طريق النقود التى تخلقها وفق النظم المقررة من حكوماتها أما عن طريق اصدار البنكنوت أو عن طريق القروض التى تأخذ شكل خلق ودائع مصرفية وكان استقرار عملة كل بلد يتحقق بفضل تنظيمات الحكومة الخاصة بشروط اصدار العملات الحكومية والادارة المصرفية ،وكانت العلاقة بين العملات فى البلاد المختلفة تنظم تلقائيا على أساس تدفق الذهب الذى كانت ترتكز عليه عملات كل البلاد التجارية تقريبا •

وكان رأس المال اللازم للتوسع الصناعى يتم الحصول عليه عن طريق أسواق رأس المال التى وفرت الأموال للآلات والمبانى وغير ذلك من رأس المال العينى الذى يتطلبه الانتاج الصناعى • وكانت هناك شبكة من المؤسسات المالية تجمع مدخرات الأفراد وتوجهها الى الصناعة ، فكانت البنوك وغيرها من وكالات الاقراض تتلقى الودائع وتقرضها لأصحاب الأعمال وكانت بيوت الاستثمار تقوم بتسويق الأوراق المالية الخاصة بالشركات ، وكانت بورصات الأوراق المالية وما شابهها من الأسواق تتيح المجال لتداول الأسهم فى أسواق رأس المال هذه التى تعمل بمقتضى تعليمات قومية تهدف الى منع الغش ، هيأت سبيلا لاستثمار المدخرات الأجنبية والمحلية لتكوين رأس المال لدولة من الدول • وكان رأس المال يتحرك فى حرية سواء على النطاق القومى أو الدولى ليستغل الموارد الطبيعية أو ليضع يده على موارد للعمل الرخيص أو للعمل الماهر•

وكانت سوق العمل كسوق السـلع وسوق المال مفتوحة وحرة تدار على أساس نظام الأجور . وفى حدود معينة كانت الأجور المرتفعة تجذب العمال الى الأماكن والصناعات التى تحتاج اليهم • وكانت هناك قوة عمل متحركة ، فليس فقط فى داخل البلاد الصناعية ولكنها كانت تهاجر أيضا فى اعداد ضخمة الى مراكز العمل الصناعى ، وبخاصة فى أمريكا الشمالية وكان أفرادها يلحقون بالعمل أو يفصلون منـه وفق متطلبات السوق الحرة • وكذلك فان ما كان يربط العامل الماهر وتلميذه من علاقات الأبوة التقليدية قد أمحت تماما وحلت محلها علاقة الأجر بين العامل وصاحب العمل •

ولكى تصل المنتجات الصناعية الى الأسـواق البعيدة لتصل الى المستهلكين ، أنشئت المؤسسات للتسويق ، وتشمل البيع بالجملة والبيع بالتجزئة ، والنقل البحرى وعن طريق السكك الحديدية والمركبات التى تجرها الخيل ، والتسهيلات التخزينية والتأمين على مرور السلع أثنـاء نقلها والاعلان عن المنتجات .

والقوة الدافعة فى الاقتصاد التجارى هى مشروعات الأعمال •وكانت هذه فى الغالب الأعم فى أيدى أفراد أحرار أو شركات حرة ، تسعى الى الربح الخاص أو تجرى على أساس قوانين عرفية ، كما كانت الحال فى طبقات التجار ورجال الأعمال فى آسيا وكان يكفل لرجال الاعمال الاستمتاع بأرباحهم ، بفضل كفالة القوانين القائمة فى البلاد التجارية لحق الملكية الخاصة ، أما فى خارجها فكان يحميهم الحكم الاستعمارى أو الامتيـازات الأجنبية • وفى البلاد الصناعية كان النجاح فى دنيا الأعمال يجلب معـه النفوذ والسلطة بدرجات متفاوتة ، اعتمادا على بقية من قوة الارستقراطية مالكة الاراضى • أما حيث لم يكن لهذه الارستقراطية وجود فى يوم من الأيام كما هى الحال فى أمريكا الشمالية واستراليا ، فان رجل الأعمال لم يكن له منافس ولا قريب • وكان المفروض فى الانسان الاقتصادى انه يتصرف تصرفا عقليا بحثا عن الربح ، وهو لهذا يحسن الانتاج ليتغلب على منافسيه فى الأسواق •

أما اطار المشروع فكانت ترسمه الحكومة فى صورة قوانين ولوائح وعمل حكومى • فالقانون التجارى يقرر حقوق الملكية ، ويفرض تنفيـذ العقود ، والشروط بين الشركاء ، والعلاقات بين العملاء والمديرين وبين حملة السندات والشركة وبين البائعين والمشترين ، وبين الدائنين والمدنيين ومع أن التفاصيل كانت تختلف من بلد الى بلد ، وبخاصة بين من تعتمد

قوانينهم على القانون العام الانجلوسكسونى ، فان الخصائص الأساسية للقانون التجارى تشترك فيها كل المناطق التى امتد اليها الاقتصاد التجارى .

وكانت اللوائح التى تقررها الحكومات تختلف فيما بينها أكثر مما يختلف الاطار القانونى الأساسى ، ولكنها على العموم كانت تتضمن ايجاد معايير للمال والموازين والمقاييس وكذلك التعليمات الخاصة بالرسوم التى تتقاضاها المرافق العامة ، كالسكك الحديدية ومخازن الغلال أو شركات الغاز والكهرباء وقواعد الأمن فى المبانى ، وحماية العمال وبخاصة الأطفال والنساء فى الصناعات الخطرة . وقد اختلفت البلاد فى درجة حماية حق المنافسة عن طريق القانون ، كما فى الولايات المتحدة . أو السماح بتشكيل اتحاد للمنتجين كما فى المانيا ، تختلف فى قبولها لفكرة تكوين نقابات العمال ، واحلال المساومة الجماعية محل العقد المبرم بين الأفراد وبين صاحب العمل والعامل .

وكان النشاط الاقتصادى للحكومة ذاتها صغيرا ، وان كان يتفاوت من بلد الى بلد فبالاضافة الى المنشآت العسكرية ومكاتب البريد التى كانت تديرها الحكومات فى كل أنحاء العالم كانت دول أوروبية كثيرة تدير البنوك المركزية ، وكانت الحكومة البريطانية تدير التليفونات والتلغرافات وكانت حكومة المانيا تدير السكك الحديدية ، بينما كانت العمليات الحكومية فى الولايات المتحدة تقتصر عموما على خدمات المجالس البلدية مثل مرافق المياه وأحيانا الغاز والكهرباء وشبكات النقل السريع . وكانت النفقات الحكومية تغطى قدرا محدودا من النشاطات الخاصة بحفظ النظام والصحة والوقاية من الحريق أو الترفيه عن الفقير وتقديم وسائل التعليم ، وكانت هذه الخدمات تعتمد فى تمويلها على الضرائب التى كان يجبى معظمها فى شكل رسوم جمركية وكانت تمثل نسبة ضئيلة جدا من الدخل القومى .

وكانت التجارة الدولية تجرى بين المشروعات الموجودة فى البلاد الصناعية التى كانت تتبادل المنتجات ، وبين هذه المشروعات فى البلاد الصناعية وغير الصناعية فقد كانت المنتجات الصناعية تصدر ، وفى مقابلها كانت تستورد المواد الغذائية والمواد الخام ومنتجات الترف والزينة ، وكانت الحواجز الجمركية تحد من دخول بعض المنتجات التى تنافس الصناعة المحلية . غير أن السياسات الجمركية كانت تستهدف الحصول

على دخل أو حماية بعض الصناعات المحلية الخاصة ؛ فلم يكن هدفها تنظيم الحجم العام للتجارة . فخروج الذهب فى مقابل الواردات التى تزيد على الصادرات وكعائد على رأس المال المستثمر فى الخارج ، كان هو الوسيلة المتفق عليها لتصحيح الميزان التجارى الدولى .

وكان الاقتصاد العالمى معرضا للتقلبات ، فقد كانت فترات ارتفاع مستوى النشاط الاقتصادى تعقبها فترات كساد فى الانتاج قد تتفاوت فى درجتها بما يصحب هذه الفترات من بطالة وافلاس المشروعات وانهيار أسواق • فقد حدثت أزمات مالية طويلة فى سبعينيات القرن الماضى وتسعينياته كما وقعت نكسة حادة عام ١٩٠٧ واذا كانت الظروف التى يبدو أنها قد تسببت فى كل فترة من فترات الكساد قد اختلفت ـ أعقاب الحرب ، أو مضاربة خاسرة ، أو الذعر على الذهب ـ فقد كان هناك اعتقاد شائع بأن هذه الذبذبة الفترية بين الرخاء والكساد من الأمور التى طبع عليها هذا النظام ، وكان يشار اليها على أنها دورات اقتصادية •

وتقول النظرية الاقتصادية الكلاسيكية أن هذه الظواهر ليست دقيقة وكفى ، بل هى ظواهر يصحح بعضها بعضا • ففترة الرواج التى ترفع فيها الاسعار ارتفاعا خياليا ، أو يرفع مستوى الانتاج بما يفوق قدرة السوق على استيعابه •• محصلة فترة الرواج هذه يصححها أوتوماتيكيا وقوع النكسة ، لأن الأعمال التجارية فى أثناء الكساد الشديد ـ تستعيد حيويتها وتزدادالعمالة حين تنخفض الأسعار والأجور الى حديكفىلعودة الانتاج مربحا على ضوء امكانيات الطلب وكل فترة جديدة من فترات الرخاء كان ينتظر منها ان تدفع بالاقتصاد عادة الى مستوى أعلى وذلك قبلبلوغ قمة جديدة وفيها يصير العمل التصحيحى للنكسة أمرا ضروريا • ولقد كان هذا هو الحال • فعلى مر السنين كان هذا النظام يقدم ارتفاعا متزايدا فى مستوى المعيشة لقطاع متزايد من مجموع السكان .

أما النظرية الماركسية اللينينية فتعتقد أن فترات الكساد وما يصحبها من بطالة دليل على الضعف المميت الذى يصيب النظام الرأسمالى فهذه الفترات لا بد أن تتزايد باستمرار فى قسوتها • وتحدث شقاء متفاقما ، وتوسع هوة الفوارق بين الدخول وسوف تؤدى فى النهاية الى سقوط النظام ، وان كان يوم سقوطه قد يتأجل بسبب التجائه الى الاستغلال الامبريالى للاقتصاديات الأكثر ضعفا لدعم الاقتصاديات التى لا تستطيع احتمال اقامة سوق رابحة فى الداخل •

٢ ـ تطور الاقتصاديات الرأسمالية والاشتراكية فى القرن العشرين

١ ـ الاقتصاد الرأسمالى للولايات المتحدة وغيرها من البـــلاد الرأسمالية المتقدمة :

الاقتصاديات الرأسمالية تطوير للاساس الاقتصـــادى الذى كان سائدا فى أوائل القرن العشرين ، وان كانت قد أدخلت عليه قيود جديدة كثيرة تحد من التدفق الحر للسلع والعمال ورءوس الأموال سواء داخل البلاد الصناعية أو فى الأسواق العالمية • فلما تطورت هذه الاقتصاديات اكتسبت ملامح لم تكن تميز النظام الرأسمالى فى أشكاله الأولى •

ولقد برز كثير من هذه الملامح فى الولايات المتحدة على وجه الخصوص، لهذا فان اقتصاد هذه البلاد سيستخدم لتوضيح الاتجاهات الكبرى فى الاقتصاديات الرأسمالية المتقدمة خلال هذه السنوات ، وان كانت توجد اختلافات هامة بينه وبين بعض الاقتصاديات الرأسمالية الأخرى •

١ ـ الانتاج الكبير والاستهلاك الكبير : ـ

الميزة الرئيسية للاقتصاد الامريكى هى الانتاج الكبير والاستهلاك الكبير فبتحسين وسائل الانتاج التى سبق أن أرهص به نظام المصانع فى القرن التاسع عشر ، قد حقق الانتاج الكبير قلة فى التكلفة فى مقابل كميات ضخمة من السلع •

وكان نموذج الانتاج الكبير يتفاوت من صناعة الى أخرى ففى بعض الصناعات مثل صناعة الملابس والنسيج أمكن الوصول الى اقتصـاديات الانتاج الكبير بحجم صغير نسبيا • أما فى غيرها مثل السيارات حيث احتاج خط الانتاج الناجح الى سوق لحوالى ١٠٠ر٠٠٠ سيارة من موديل واحد تقريبا ، فانها لا تستطيع احتمال الانتاج الكبير في هـــذه الحالة سوق محلية أو أجنبية كبيرة ، ولن يستطيع ان يعمل فى هذا بنجـاح الا الشركات الكبرى •

والانتاج الكبير بغير ســوق كبيرة لا تكون له قيمة تذكر • فلقد كان وجود سوق محلية مشتركة ضـــخمة ، لا تعوقهـــا الحواجز الجمركية ولا الاختلافات الجوهرية فى الأذواق وطرائق العيش هو ما عزز وقوى

اتجاه الاقتصاد الامريكى الى استغلال امكانيات الانتاج الكبير • وبينما كان قدر كبير من الانتـــاج الصناعى فى القرن التاسع عشر ، شأنه شـأن معظم السلع التى دخلت مجال التجارة فى الماضى ، يسد حاجات قطـاع صغير من الشعب فان السمة الفريدة لاقتصاد القرن العشرين هى الانتاج من أجل الاستهلاك الكبير •

ولقد أخذ الاقتصاد الأمريكى يعتمـد الى حد كبير جدا على القوة الشرائية لجماهير الشعب ، وهو أمر كان بدوره قد صار ممكنا بفضـــل الانتـــاجية المتزايدة لتكنيكات الانتاج الكبير • وهكذا رأينا أن ما نجم عن هذا من أجور ومرتبات ، وما توفر من سلع وغيره ، تمخض عنه نمط للاستهلاك الكبير صار فيه ما كان بالأمس ترفا تتمتع به القلة وميزة تتمتع بها الطبقة الوسطى ، جزء من المستوى المعيشى للاكثرين • ففى أواسـط الخمسينيات مثـــلا كان ما يقرب من ثلاثة أرباع الأسر الأمريكية تمتلك سيارات وتليفونات وتليفزيونات ، وكان لدى تسعة أعشارها أجهزة اذاعة وثلاجات •

هذا التوسع الكبير فى الاستهلاك حدث للأشياء التى تتجاوز مجرد ضرورات العيش وخاصة فى السلع المعمرة مثل الأجهزة المنزلية والسيارات. فلما أدخلت هذه فى ميزانية المستهلك اقترنت بها طرق للتمويل تعترف بطبيعتها من حيث هى شكل من أشكال رأس المال • فامتدت طرق البيع بالأجل الى السيارات والدراجات وقد كان مبدأ دفع ثمن السلعة فى أثناء استخدامها مقصورا من قبل على شراء المساكن برهن البيت •

ان جمهور المستهلكين الذى وفر السوق لمنتجات الصناعة، قدم أيضا الكثير من رأس المال اللازم لتوسعها المستمر • ولقد أتت نسبة متزايدة من أموال الاستثمار التى دخلت الصناعة من زيادة دخول أصحاب الأجور والمرتبات ، فقد أخذ العمال القرويون يستثمرون أموالهم فى شراء أسهم الشركات عن طريق خطط الشراء من جانب العاملين ويقدمون لها القروض عن طريق البنوك وصـــناديق التوفير وجمعيات التسليف (حيث كانوا يودعون مدخراتهم) وعن طريق أموال التأمين على الحياة • ولقد تجمعت مبالغ ضخمة في خزائن نقابات العمال وأصبحت أموال صناديق المعاشات والخدمات مصادر كبيرة للاستثمار • وفى نفس الوقت قللت الضرائب المرتفعة من مدخرات أصحاب الدخول العليا التى كان رأس المال يعتمـد عليها اعتمادا أساسيا فى الماضى • وكانت النتيجة النهـــائية لذلك أن

التوسع الصناعى قد صار يعتمد على مدخرات قطاع معين من السكان غير القطاع الذى كان يعتمد على مدخراته من قبل .

هذه الاتجاهات كانت موجودة بدرجات متفاوتة فى كل الاقتصاديات المتقدمة . اما الدول الصغيرة التى تفتقر الى سوق محلية كبيرة ، فانها مالت الى ادخال الانتاج الكبير فى الصناعات التى تكون فيها أساليبه فعالة بالنسبة لانتاج حجم صغير من السلع على نحو مجز للتركيز على عدد من السلع للتصدير . فالسويد مثلا استفادت من الانتاج الكبير بأن صنعت منتجات خاصة للتصدير مثل مستلزمات الكرات ومعدات التليفون . وبذا حققت لنفسها سوقا ضخمة للسلع المنتجة على أساس الانتاج الكبير التى لا يمكن أن تباع بكمية كافية محليا . كذلك صنعت أدوات فى غاية البساطة والرخص للاستخدام المحلى لمواجهة احتياجات العمال ذوى الأجور المنخفضة لكى تنتفع بالسوق المحلية الى أقصى حد .

كان الاستهلاك الكبير أعظم وضوحا فى الولايات المتحدة ولكن الاتجاه كان ظاهرا بصورة متزايدة فى كل مكان . ولقد كانت مزايا قيام سوق كبيرة محلية هى التى أدت بدول أوروبا فى منتصف القرن العشرين الى اتخاذ خطوات نحو انشاء سوق مشتركة فى القارة الأوروبية .

(ب) التنظيم الواسع النطاق :

مهد الانتاج الكبير والتوزيع الكبير الطريق الى التنظيم الواسع النطاق وبفضله أمكن لهما البقاء . فالمنظمات الكبيرة ـ كالشركات ونقابات العمال والصروح الحكومية ـ تضخم حجمها كما تضخمت أهميتها النسبية فى الاقتصاديات الرأسمالية . ان وجودها وتزايد تسلطها أبعدا طابع الاقتصاد بعيدا عن تنظيم السوق وأديا الى احلال الادارة محل قوى السوق التقليدية .

وبالنسبة للعمليات التجارية فى الولايات المتحدة كان شكل المشروع الذى تفوق على ما عداه هو الشركة الكبرى وهى وحدة صناعية ضخمة تستخدم عدة آلاف من الناس تستثمر مدخرات آلاف من حملة الأسهم ـ أصحابها الاسميون ـ وتخدم مئات الألوف من العملاء وتسيطر على أصول وتقوم بنشاط وأعمال تبلغ قيمته ملايين كثيرة من الدولارات .

لم تكن الشركة الكبيرة ظاهرة جديدة ، فبحلول عام ١٨٩٠ كان لها من الأهمية ما أدى الى اصدار التشريع المضاد للاحتكار والذى أريد به الابقاء على المنافسة ويمنع التجمعات الاحتكارية ذات القوة الاقتصادية . وكانت السمة المميزة للقرن العشرين هى نمو مثل هذه الشركات فى حجمها وأهميتها . فلما أصبحت الشكل السائد للمشروع الاقتصادى صار لهـا تأثير متزايد على وظيفة الاقتصاد ، وذلك بفضل قدرتها على التحكم فى أسعارها وانتاجها .

وأكبر مائتى شركة فى الولايات المتحدة بغض النظر عن البنـوك وغيرها من المؤسسات المالية ــ وكانت تسيطر فى الثلاثينيات على حوالى ثلاثة أخماس أصول جميـع الشركات غير الماليـــة ونصف كل الثروة الصناعية تقريبا . وفى ميدان الصناعة كانت مائة شركة فى عام ١٩٣٥ تستخدم خمس العمال الصناعيين ، وبلغت قيمة منتجاتها ثلث قيمة جميع السلع المصنوعة . وحافظت الشركات الرئيسية على نفس سيطرتها على الأقل فى الأعوام التالية . وما يلفت النظر وله مغزى بالنسبة لتطـــور المؤسسات الاقتصادية مدى سيطرتها على بعض صناعات بعينها ــ أهمها الصناعات الكبرى التى يقوم عليها النظام الصناعى ومنها الصلب والبترول والسيارات والأدوات الكهربائية وتكرير النحاس والألمنيوم والكيماويات والحرير الصناعى ، وكذلك السكك الحديدية والمرافق العامة . غير أن الخدمات والزراعة ، ونسبة كبيرة من التجارة وكثير من الصناعات الصغرى كانت الى حد كبير خارج مجال سيطرة الشركات .

وكنا نجد الشركة الكبرى أساسا فى الصناعات التى يرتفع فيهـا مقدار الاستثمار المالى بالنسبة للعامل الواحد . كذلك فان الاتجاه السريع نحو الاوتومية الذى يتطلب استثمارات رأسمالية ضخمة ، كان من الأمور التى قوت مركز الشركات الأكبر حجما . وكان هذا الاتجاه واضحا فى صناعة السيارات ، ففيها اختفت الشركات الصغرى واحدة بعد الأخرى ، أو اندمجت فى وحدات أكبر ، حتى أصبحت الصناعة كلها تكاد يسيطر عليها عدد قليل جدا من الشركات الكبرى . ويمكن أن نرى مدى التركيز فى السوق اذا استعرضنا قائمة الصناعات التى يرجع ٧٠٪ من انتاجهـا على الأقل الى صناعة الشركات الأربع الكبرى . فمنذ الثلاثينيات فصاعدا شملت هذه بين ما شملت من الصناعات الكبرى ، السيارات بأنواعهـا والسجائر واطارات السيارات والمعلبات والحرير الصناعى . وذلك مع

منتجات أقل شأنا مثل الآلات الكاتبة وماكينات الخياطة والمصابيح الكهربية واللبان . كذلك دخلت الشركات الكبرى ميادين التوزيع لتوجد منفذا كبيرا لتصريف صناعات الانتاج الكبير . وأكبر مائتى شركة غير مالية فى ١٩٣٠ كانت تشمل دارين من دور البريد واثنين من محلات الخمس سنتات والعشر ، واثنين من محلات الأقسام ، وواحدة من سلاسل البقالة ، وواحدة من سلاسل الادوية . ولقد حصل توسع كبير فيما بعد فى سلاسل البقالة والادوية . ولقد كانت وكالات التوزيع الكبيرة ، وكذلك وكالات توزيع الاحذية والملابس الجاهزة والسيارات وقطع غيارها كانت هذه الوكالات تستخدم أصلا كوسائل كبيرة لتصريف السلع الخاصة بالانتاج الكبير ، بدلا من أداء وظيفة تاجر التجزئة التقليدى ، كوسيط بين احتياجات المستهلكين والبضائع المختلفة التى يقدمها المنتجون .

ولقد نمت الشركات الكبرى فى الحجم بدون تحديد ظاهر لما يمكن أن يصل اليه حجم المشروع الذى يدار كمنشأة واحدة . وأكبرها على سبيل المثال شركة التليفونات والتلغرافات الامريكية . كان بها فى سنة ١٩٥٦ (٧٠٠٠ر٨٧١ موظف) و (٠٠٠ر٤٩٢ر١) خملة أسهم . وموجودات تبلغ قيمتها ١٠٠ر١١ مليون دولار وفى سنة ١٩٠٠ كانت هذه الشركة قد أصبحت من أكبر المشروعات الأمريكية وكان بها وقتذاك ٠٠٠و٣٧ موظف و ٠٠٠ر١٠ من حملة الأسهم .

ونما حجم الشركات بوسائل مختلفة . كانت الطريقة التقليدية هى البحث عن أموال جديدة عن طريق سوق الاستثمار ، ولكن بمضى الوقت تزايد اعتماد الشركات الكبرى عن اعادة استثمار أرباحها الخاصة ،فصارت لا توزع على المساهمين الا جزءا من أرباحهم . كذلك اعتمدت فى نموها على استبدال سنداتها بسندات شركات أصغر لكى تمتص هذه الشركات أو تسيطر عليها . وهكذا أخذت الشركات نفسها ـ لا جمهور المستثمرين أو الصيارفة ـ تميل نحو تقرير المواضع التى يحدث فيها التوسع .

ومنذ العشرينات من القرن الحالى تزايد اعتمادها على أعمال البحث لتحقيق نموها وتقدمها . وكانت القدوة التى سارت الشركات الأخرى على هديها فى هذا المضمار شركات الصناعات الكهربية والتليفونات ، فأخذت الشركات تستخدم خير الكفايات العلمية وتقدم الموارد المالية ،

والحرية الكاملة لشئون الدراسة والتجربة • وما وافى منتصف القرن الا وكان لكل شركة كبرى جهاز للبحث ، وأخذت الاعتمادات التى تصرف على البحوث ترتفع كل عام • وكان لهذه الأجهزة فضل كبير فيما تم خلال هذه الفترة من مخترعات ومبتكرات •

وأصبحت الشركة الكبرى هيئة دائمة لها شخصية اعتبارية فى القانون « يملكها » عدد كبير من حملة الأسهم ليست لديهم معرفة مباشرة بالمشروع ولا سيطرة مباشرة عليه وانما صار يديره مجلس ادارة يعتبر من الناحية النظرية منتخبا من حملة الأسهم وممثليهم ، ولكنه فى الواقع يجدد بقاء نفسه بنفسه • وفى الشركات الكبرى انفصلت الادارة عن الملكية • فحيث يتسع نطاق توزيع الأسهم بحيث لا يمتلك فرد واحد أو مجموعة صغيرة من الأفراد أغلب الأسهم أو أقلية كبيرة منها ، كماهو الحال عادة فى هذه الشركات ، فان أمر هذه الشركات يكون فى لأيدى الادارة • قد يستطيع عدد قليل من كبار المساهمين أن يمارسوا نفوذا بفضل وضعهم العام ، أو مكانتهم الخاصة وليس بفضل حصولهم على أغلبية أصوات المساهمين • وفى بعض الحالات كان لرجال المصارف الذين يقومون بتمويل الشركة تأثير على سياستها ، ولكن أخذت الشركات الكبرى تتحرر شيئا فشيئا من سيطرتهم ، وذلك عن طريق استثمار أرباحها المتراكمة فى تمويل التوسع بدلا من توزيع كل الأرباح على المساهمين ثم البحث عن أموال جديدة عن طريق القروض أو بيع السندات •

ولقد صار الأشخاص الذين لهم مصلحة مالية فى سندات الشركة يشكلون نسبة كبيرة من مجموع عدد السكان • ومع أن شطرا كبيرا من الأسهم ظل ملكا لمجموعة محدودة من الأشخاص الأثرياء ، فان ملايين من صغار الملاك صار كل منهم يمتلك عددا قليلا من الأسهم • ففى سنة ١٩٥٥م صار مايزيد على ٨ ملايين شخص فى الولايات المتحدة يمتلكون أسهم الشركات مباشرة ، وثلث هؤلاء تقريبا ينتمون الى أسر تعتبر من حيث الدخل من النصف الفقير من السكان ، وعدد أكبر من ملايين الأفراد استثمروا أموالهم بطريق غير مباشر بايداع مدخراتهم فى صندوق الاستثمار ، أو فى جمعيات الادخار والتسليف أو شركات التأمين أو صناديق نقابات العمال ، وهذه بدورها امتلكت أسهما متنوعة • وقد أدى اتساع نطاق ملاك الشركة الى اهتمام الناس عموما بنجاح الشركة ، ولكنه لم يشركهم ايجابيا فى شئونها الا فى أندر الأحوال حين تتعرض ادارة

الشركة الحالية لتحديات من المصالح الخارجية أو من تكتل بعض المساهمين للاستيلاء على الادارة عن طريق الحصول على أصوات صغار المساهمين وعندئذ يحظى هؤلاء المساهمون بالتملق والتودد من الطرفين المتنافسين ٠

ان الرجال الذين يديرون الشركات الكبرى انما وصلوا الى مراكزهم أساسا بأن ترقوا من خلال البيروقراطية الصناعية ، وهذه ظاهرة آخذة فى التزايد ٠ لقد بدءوا حياتهم فى المنشأة كفنيين أو مهندسين يعملون فى الانتاج ، أو كعاملين فى المبيعات ممن يهمهم ترويجها ، أو كرجال قانون يتصرفون فى عدد ضخم من العلاقات القانونية التى تختص بالشركة ، أو فى ادارة شئون الأفراد المسئولة عن سياسات التوظيف وعلاقات العمل ، أو كجزء من الجهاز المالى للشركة ٠ ومع أن غالبيتهم كانت فى الخمسينيات لاتزال تنتمى الى الأسر ذات الدخل المرتفع نسبيا فان نسبة متزايدة منهم تنتمى الى أسر العمال أو صغار الموظفين ٠ ولم تعد الروابط العائلية هى السبب فى تعيينهم أولا كما كانت الحال منذ خمسين سنة بل منذ خمس وعشرين سنة ٠ ولم يعد أمر ترقيتهم يرجع الى انتسابهم لأسرة غنية أو فقيرة ٠

فلما أصبحت كل شركة أشبه بامبراطورية صغيرة فى ذاتها مالت الادارة الى أن تخرج من داخل التنظيم نفسه ، وان كان يحدث فى بعض الأحيان أن يؤتى بمدير مبيعات ناجح أو مدير انتاج أو غيره من المديرين من شركة لأخرى ٠ وفى سنة ١٩٥٠ لم يكن لدى ٢٢٪ من رؤساء الشركات الكبرى أية خبرة سابقة بالعمل خارج نطاق شركاتهم ، مقابل ٧٪ فقط عام ١٩٠٠ ٠ ففى عام ١٩٠٠ كان لثلاثة أخماسهم (٦٢٪) خبرة واسعة فى ادارة الأعمال مقابل أقل من الخمس (١٧٪) سنة ١٩٥٠ ٠ وبمجرد أن يعين الشخص فى المنشأة ، فانه يمكن نقله من وظيفة الى أخرى كما يحدث للموظفين المدنيين أو العسكريين ، ويؤدى به طريق الترقى غالبا من قسم الى آخر أو يمر به من خلال وظائف فى الفروع ثم يستقر به المطاف فى الادارة المركزية ٠

وكل بيروقراطية فى الشركة تبتكر وسائلها فى تدريب الشباب الذين تتوسم فيهم الكفاءة وتمنحهم الخبرات التى تلزمهم فى تحمل مسئولياتهم فى المستقبل ، كما تحدد طرق الاستحواذ على ولاء الموظفين واخلاصهم ، وتنمية روح الجماعة ، واثارة اهتمام الزوجات والأسر ، لتدعم

تفانى المسئولين فى أعمالهم وفى خدمة مصالح الشركة ، ولما كان الهدف من هذه الجهود هو نجاح المنشأة أكثر مما هو ربح الفرد ، فان السلطة والمركز والترقية قد صار لها تأثير يزيد على تأثير مجرد الربح فى الحفز على حسن الادارة ، وان كانت مرتبات المديرين الضخمة ، وأنظمة المنح التى تعتمد على أرباح الشركة ، لا تزال حافزا اقتصاديا مباشرا ، يعمل عمله بقوة ، وتعتبر زيادة أرباح الشركة مقياسا لنجاحها ٠

هذه المجموعة الجديدة من المديرين الصناعيين أخذت تحل محل ممثلى حملة الأسهم فى ادارة الشركة ٠ كانوا فى سنة ١٩٥٠ يشكلون نصف أعضاء مجلس الادارة أو يزيد فى ثلث الشركات الكبرى ٠ وفى ٨٪ من الشركات كان يشكل منهم مجلس الادارة كله ٠ وهذا الاتجاه الذى وضع الادارة فى مكان لا ينازعها فيه حملة الأسهم ولا رجال المصارف أو غيرهم من الخارج أدى ببعض الناس الى الاعتقاد بأن الادارة المهنية قد استولت على الأعمال ٠ واعتقد دارسون آخرون لأنظمة الشركات بأن هذا المفهوم يبالغ فى وصف دور هذه المجموعة ، ولكن لا شك فى أن مدير الشركة أصبح النموذج الرئيسى لرجال الأعمال الناجح فى منتصف القرن العشرين ٠

ولقد أسهمت الشركات الكبرى فى تقويض أركان المجتمعات الصناعية الحضرية ، فجعلت عددا كبيرا منها يعتمد على قرارات وأحداث تقع كلها خارج نطاق سيطرتهم ٠ وكثيرا مايكون لها فروع فى عدد من الأماكن المختلفة ، ويكون هذا أحيانا لملاءمة هذه الأماكن لعمليات متميزة مختلفة ٠ وقد يكون السبب أن الشركة قد استحوزت على ممتلكات المشروعات الصغيرة ، وقد يكون السبب هو التوسع فى انشطة الشركة وامتدادها الى مناطق جديدة ٠ والقرارات التى تؤثر فى هذه الفروع انما تتخذ من وجهة نظر المشروع من حيث هو كل وليس على أساس تأثيرها فى المجتمع المحلى ، لأن الشركة الكبرى قلما يكون لها استثمارات ضخمة سواء عقارية أو مصرفية أو مخزنية أو خدمات من شأنها أن تتأثر بما يحدث لفرعها المحلى وهى تستطيع أن تتخلى عن الفروع التى تحتوى على مهمات عتيقة ، وأن تبنى فروعا جديدة فى أماكن أخرى ، وتستطيع أن تنقل العمل من فرع الى آخر تكون الأيدى العاملة فيه أرخص ، وان تنتقل من المناطق التى ترتفع فيها أسعار القوى الكهربائية الى أماكن أكثر ملاءمة ، أو تنتقل الى أماكن تمتاز بوفرة المواد الخام وسهولة المواصلات وقرب

الأسواق ٠ وحيثما تكون فروع الشركات الكبرى هي المصـــدر الرئيسى للعمالة في مجتمع ما فان مجتمعات بأسرها تكون خاضعة للقرارات التى تتخذها ادارات الشركة التى لا يعنيها كثيرا مصالح المجتمعات المحلية. وكثيرا ما تتبع الشركات سياسات تسهم في رفع المستوى المادى والمعنوى للمجتمعات التى تعمل فى داخلها ، ولكن هذا لا يقلل من اعتماد المجتمع على قرارات ليس لأهل المنطقة يد في اصدارها ٠

ولم تقف الشركات المنفصلة كوحدات مستقلة تماما ، ولكنها أخذت تشكل مجتمعا خاصا أو اتحادا للصـــناعات ٠ وأخذ كثير من الشركات الكبرى ترتبط عن طريق تداخل تشكيلات مجالس الادارات فصار مديرو بعض الشركات أعضاء في مجالس ادارة شركات أخرى ٠ أو صـــارت الشركات الكبرى تشكل مجموعات مفككة بينها مصالح متبادلة ، وأصبح رجال البنوك الذين يشغلون مراكز أعضاء مجلس الادارة لعدد كبير من الشركات التى يقومون بتمويلها يســـتخدمون نفوذهم كأعضاء مجلس ادارة لجعل سياسات كل شركة تسهم فى تنمية غيرها من الشركات ، كأن يصروا مثلا على أن يكون مكان اقامة المصنع الجديد بجوار ســـكة حديدية يكون لهم بها صـــلة ٠ وكثيرا ما تتعاون شركتان أو أكثر فى انشاء شركة جديدة لصناعة شيء من الأشياء التى تحتاجها هذه الشركات كما حدث حين أنشأ عدد من شركات البترول شركة لصناعة الكيميائيات التى تستخدمها كل هذه الشركات ٠ وساد جو مشترك من الفكر وقواعد السلوك فى مجتمع الشركات ، نتيجة لاســـتخدامها مؤسسات محاسبة واحدة وهيئات قانونية مشتركة ، كما تستفيد من انشطة الوكالات الممولة التى تقوم بتقديم الأموال وتأمينات التسويق والتجارة ويرجع هذا الجو الفكرى المشترك أيضا الى اتصالات شخصية تجرى أثناء تناول العشـــاء أو لعب الجولف أو المناسبات الاجتماعية ٠

وفى البلاد الرأسمالية الأخرى تلعب الشركات الكبرى دورا شبيها بهذا فى جوهره وتتخذ نفس الســـمات ، وان بدت فى بعض الأحـــوال ـ لا كلها ـ أقل بروزا ووضوحا ٠ فسيطرتها تقل نوعا ما حيث تنتشر المشروعات التعاونية كما في السويد أو حيث تقوم الدولة بنسبة كبيرة من النشاط الاقتصادى ٠ وفى أوربا كثيرا ما تستخدم نظام (الكارتلات) لتقسيم السوق فيما بينها ، وهو عمـــل يحظره القـــانون فى الولايات المتحدة ٠ وبعضها مثل الشركة العملاقة (يونيلفر) دولية فى تنظيمهـــا كما هى فى ادارة شئونها ٠ ولكن برغم ازدهار الشركات الكبرى فى كل مكان وسيطرتها على كل مشروعات الأعمال فى أمريكا فان رجل الأعمـــال

الصغير لم يختف من الوجود خلال هذه السنوات فظل رجل الأعمـــال الفرد الذى يدير مشروعا صغيرا لفائدته الشخصية المباشرة هو الوحدة الاقتصادية الرئيسية فى الزراعة وفى شطر كبير من تجارة التجزئة وفى صناعات الخدمات وفى كثير من الأنشطة الصناعية ٠

وتقوم مزارع الأسر فى الولايات المتحدة بالجزء الأعظم من الزراعة التجارية ٠ ومع أن عددا قليلا من الحاصلات وأهمها القطن والسكر يتم انتاجها بالمزارع الكبرى فان أكبر المزارع كانت تنتج نسبة صغيرة جدا من المحصول الكلى ، بحيث لم تمارس نوع الســيطرة الذى تمارسـه الشركات الصناعية الكبرى ٠ وفى ميدان التوزيع استمر عدد كبير من منشآت التجزئة المملوكة للأفراد تؤدى وظيفتها فى المجتمعات والجهـات التى تبلغ من الصغر بحيث تعجز عن امتلاك أدوات التوزيع الكبرى وكذلك فى المجتمعات الأكبر حيث يكون بعض العملاء على استعداد لدفع نفقات خدمات التجزئة الاضافية ، التى عجزت عن أدائها منشآت السلاسل أو منشآت توصيل السلع للمنازل وغير ذلك من وسائل التوزيع الكبرى ٠

وبقيت المصانع الصغرى تمارس عملها وخصوصا فى صناعة السلع المتخصصة ، وتقديم منتجات جديدة ، وتقديم الأدوات الدقيقة على نطاق كبير اذا كانت تتطلب رأس مال صغير وكان حجمها صغيرا نسبيا لتحقق مزايا الانتاج الكبير ، أو اذا كانت هذه الأدوات من مستلزمات الصناعات الكبرى ٠ وينشأ كل عام عدة آلاف من المشروعات الجديدة بيد الأفراد أو مجموعات منهم ، التماسا للربح فى سبيل من سبل الانتاج حديثا كان أو قديما ٠ وفى الخمسينات كانت المشروعات الصناعية الجديدة تقــام بمعدل ٢٥٫٠٠٠ تقريبا فى السنة ، يضاف الى هذا مشروعات جديدة فى التشييد والتجارة والخدمات وغير ذلك من الأنشطة غير الصناعية ٠ وقد بلغ معدلها ٣٢٥٫٠٠٠ فى السنة وبعض هذه الجهود قد منيت بالفشل وكثير من المشروعات القديمة قد توقفت لسبب أو لآخر بنفس السرعة التى تنشأ بها مشروعات جديدة ـ ولكن كثيرا منها قد بقى : بعضــها ظل صغيرا وبعضها نما وتضخم الى درجة قصـــوى وأصبح مع الزمن من المشروعات الكبرى ٠ وليس ثمة اتجاه للتقليل من عــدد المشروعات الجديدة ، ولا لاستمرار بقاء بضع مشروعات صغيرة ٠

ولقد ظل ٩٠٪ من المنشآت الصناعية تستخدم أقل من ١٠٠ عامل٠ وأعداد أمثال هذه المنشآت ـ وهى لا تدار دائما بواسطة شركة مستقلة ـ زادت سنة ١٩٥٤ بمقدار الثلث أو أكثر عما كانت عليه قبل ذلك بخمس

وعشرين سنة — ٢٦٤٠٠٠ر مقابل ١٩٣٠٠٠ر — واننا لنجد منشآت صغيرة فى كل نوع من أنواع الصناعات تقريبا ٠

ان وجود اقتصاد الانتاج الكبير والاستهلاك الكبير يهيىء فى حد ذاته الظروف الملائمة لبقاء المشروع الصغير ٠ فارتفاع دخول الجماهير ، واتساع الفراغ أمامهم مما يتيح لهم فرصا أوسع للانفاق على أمور ليست من ضروريات الحياة — الترفيه ، الالعاب ، والهوايات ، ديكورات المنازل ، تجميل المدينة ، الملابس ، التفنن فى الأطعمة ، السفر ، والاستمتاع بالفنون ٠ والمنتجات الأساسية وبخاصة ما يعتمد منها على الصناعة الثقيلة ، لا يكاد يتيح فرصة تذكر للمشروع الصغير ، لأنه تحت سيطرة الشركات الكبرى ، ويحتاج الى رأس مال كبير ، وتكاليف ضخمة على الاعلانات ، لكى تصل منتجاته الى الأسواق الكبرى ، وانما عاش المشروع الصغير كجزء لا يتجزأ من الصناعات الأساسية ، وبخاصة فى الصناعات المتخصصة للماكينات والانتاج الوفير لأجزاء متخصصة لكى تستخدم فى عملية صناعة الآلات ٠ ولكن ميدان السلع المتخصصة ظل مفتوحا يجتذب اليه رجال الأعمال من ذوى الطموح الذين يستفيدون من تزايد قدرة المستهلكين على التنويع فى مشترياتهم ٠

وللمشروع الصغير ميزة أخرى كانت من أسباب بقائه ، تلك هى قابليته للتطور ٠ فهو يستطيع أن يستخدم الأساليب الحديثة ، دون تحمل النفقات الضخمة اللازمة لتعديل عملية انتاجية معقدة ، ودون تعطيل انتظار صدور قرارات بيروقراطية ٠ ومع أن الشركات الصغرى ليس لديها الموارد التى تمكن الشركات الكبرى من اقامة معامل أبحاث ، فان هذه الشركات الصغرى لا يعوقها عائق عن استخدام الوسائل الحديثة عمليا ، لأنه ليس لديها استثمارات ضخمة فى العمليات الجارية ٠

وهكذا يحتفظ بمرونة الاقتصاد عن يقين — عن طريق البحوث وعمليات التطوير فى الشركات الكبرى وعن طريق الشركات الصغرى التى تنشر التجديد بفضل كثرتها ، وقابليتها للتطور وقدرتها على دخول ميادين جديدة ٠ والواقع أن الشركات الصغرى تمارس ضغطا ما على الشركات الكبرى ، يجعلها فى حالة تيقظ وتأهب ، ويمنع مركزها الاقتصادى القوى فى أن يؤدى بها الى الركود والكساد ٠ والحيوية المستمرة للمشروع الصغير أكثر وضوحا فى البلاد الرأسمالية غير الولايات المتحدة ففى فرنسا خاصة توجد مشروعات صغرى تعتمد على مستويات

رفيعة فى الهندسة وغيرها من المهارات الفنية ، مما حفظ لفرنسا سمعتها التقليدية فى انتاج السلع المتخصصة .

ونشأت تنظيمات العمال على نطاق واسع فى مقابلة نمو الشركات الكبرى ، وازدياد نفوذها . فحتى ثلاثينات هذا القرن كانت معظم تنظيمات العمال الأمريكية عبارة عن نقابات حرفية تزدهر بنوع خاص فى المشروعات الصناعية الصغيرة ، بينما استطاعت الشركات الكبرى أن تقاوم قيام تنظيم لعمالها .

وبعد هذا تقررت المساومة الجماعية ، من حيث المبدأ ، فى صناعة الانتاج الكبير وتحقق ذلك عمليا فى ابان الحرب العالمية الثانية ، وان ظل المبدأ يلقى مقاومة من جانب بعض أصحاب الأعمال ، وفى بعض الصناعات. فالعقود الجماعية التى تتم بالتفاوض مع الشركات الكبرى بالنسبة لكل عملياتها ، ويتزايد استخدامها فى جميع الصناعات ، تحدد الأجور وشروط العمل لمدة عام أو عامين وقد تصل مدتها الى خمسة أعوام .

وللمنظمات العمالية الكبرى بنيانها البيروقراطى الخاص ، الذى يشبه كثيرا البنيان البيروقراطى للشركات . وهى ديمقراطية من حيث الشكل حيث يختار المسئولون بطريق الانتخاب . أما من الناحية العملية فان مدى الممارسة الديمقراطية فى هذه النقابات تختلف من واحدة الى أخرى .

ولمركز زعيم النقابة خصائص فريدة . فهو فى وقت واحد رئيس منتخب ، وعميل فى المساومة ، وله السلطة فى قبول أعضاء جدد فى النقابة . وطالما ظل ناجحا فى تحقيق طلبات الاتحاد فان الأعضاء لايميلون كثيرا لأن يجازفوا باحلال غيره محله ، اذ قد لا يصيب الآخر من النجاح ما أصابه هو . ولذلك توجد رغبة فى الابقاء على زعامة النقابة القائمة ، بقدر ما توجد الرغبة فى الابقاء على الادارة القائمة للشركة . وفى بعض النقابات تكاد توجد مظاهر دعوة الأعضاء الى الاختيار ، ويكون الكفاح من أجل التغيير فى ادارة الشركات الكبرى .

وفضلا عن قيام نقابات العمال بالمساومة نيابة عن الأعضاء ، فانها تسهم فى حمل مسئولية تنفيذ العقود الجماعية . فبناء الشركة والمصنع يقابله تنظيم العمال ، وفيه نجد عمال المحلات التجارية فى مقابل رؤسائهم، والمسئولين عن النقابة المحلية فى مقابلة المستويات الادارية الأعلى . وبمقتضى شروط العقد الجماعى المشترك ينشأ جهاز للشكاوى عادة

ليتصرف في أى مسألة تتعلق بالاخلال بالعقد . ويقوم ممثلو النقابة وممثلون للادارة فى مثل عددهم بحسم الأمور • وبعد الحرب العالمية الثانية أخذت النقابات أيضا تؤدى دورا هاما فى حياة المجتمع ، فهى تمثل قطاعات كبيرة من السكان ولذا فهى فى وضع يسمح لها بأن يمنحوا تأييدها وعونها المالى أو تمنعهما عن المشروعات المدنية ، ومشروعات الخدمات •

ولقد كان ميل منظمات العمال لأن تصبح أجهزة بيروقراطية كبيرة ، وأن تشترك فى ادارة المصانع ـ كان هذا الميل أوضح فى البلاد الرأسمالية الأخرى منه فى الولايات المتحدة ففى بعض البلاد الأوروبية تشترك هذه المنظمات فى ادارة بعض الخدمات الاجتماعية ، أو فى قرارات المصنع فيما يتعلق ببعض جوانب الانتاج ، وتشترك أحيانا فى مجالس الادارة •

جـ ـ التدخل الحكومى :

أدى نمو قوة المنظمات الاقتصادية الكبرى الى تدخل متزايد لصالح الجمهور من جانب الهيئة الوحيدة ذات القوة والنفوذ الكافيين ، فى مقابلة قوة الشركات ، ونعنى بها الحكومة المركزية • فالحكومة تتدخل لتنظيم سلوك العمل فى الشركات ، لمنع التلاعب فى مصالح المساهمين أو المنافسين أو المستهلكين ، أو لمنع سوء استغلال وضع احتكارى أو لحماية العمال •

ومنذ أوائل القرن أخذت الولايات المتحدة الأمريكية كلا على حدة ، ثم من بعدها الحكومة الاتحادية (١٩٣٤) ، تسن القوانين لحماية المستثمرين من الخداع • وكانت تحدد المعلومات التى يجب أن تقدم للمستثمرين المحتملين حين تعرض الأسهم أو السندات للبيع وفى التقارير التى يجب أن تنشر علنا عن أرباح الشركة • ووفرت قوانين أخرى بعض الحماية للمشترى وان كانت لا تعدو أن تكون تعديلا محددا لمبدأ ـ « ليكن المشترى على حذر » ـ وهو الأساس القانونى المقبول فى المبادلات التجارية عموما• واشترطت القوانين أن تحمل المعلبات من أطعمة وعقاقير وأصباغ، معلومات عن محتويات العلبة ، وحذرت من التدليس أو التضليل فى الاعلانات (١٩٠٦ ـ ١٩٣٨) وصدر تشريع يحرم أعمال المنافسة الظالمة حتى تكون للمنتج الأمين فرصة فى منافسة من لا ضمير لهم ولا وازع (١٩١٢) • وكذلك وضعت قيود على ممارسة القوى الاحتكارية ، واحدى هذه القيود لائحة المرافق العامة والقوانين التى تحرم التكتلات التى تعوق

حرية سير التجارة (١٨٩٠ ـ ١٩١٤) والقيود على انشاء الشركات القابضة للسيطرة على السوق (١٩٣٥) وانشاء المشروع الحكومى كمعيار ، لمعرفة ما تتكلفه المرافق وتقدير معدل الربح •

ويشمل الشريع العمالى تحديد ساعات العمل ، والحد الأدنى للأجور، وشروط الأمن الصناعى ، وتشغيل الأطفال ، وحق العمال فى تكوين النقابات وفى الاضراب وفى ومنع زملائهم عن العمل ، وذلك بالوسائل السلمية ، وفى المساومة الجماعية عن طريق ممثلين يختارونهم (١٩٣٥ ـ ١٩٣٨) • ويقضى تشريع الأمن الاجتماعى بأن يسهم أصحاب الأعمال بأموالهم فى حماية العمال من انقطاع الدخل (١٩٣٥) •

وهكذا قدمت الحكومة اطارا للنشاط الاقتصادى يجعله فى خدمة الصالح العام • أما الوكالة الادارية التى أنشئت لتنفيذ أحكام هذا التشريع فقد أوجدت مجموعة كبيرة من القانون الادارى والاجراءات يتصل بتيسير الحياة الاقتصادية ، وقد جاوز كثيرا مبادىء القانون التجارى الذى كان يشكل الأساس القانونى للنشاط الاقتصادى فى مستهل هذا القرن •

واتبعت الحكومات فى تدخلها لتنظيم اقتصادياتها طرقا تختلف من بلد الى آخر ، ولكنها تتفق من حيث الأساس ، فى أن مداها وطابعها العام يغطى فى جوهره نفس الميادين • وقد تطورت على نحو متشابه تشابهـا أساسيا ، وكذلك كان الشأن فيما يتعلق بالتدخل المباشر من جانب الحكومة فى النشاط الاقتصادى • فلقد كانت بعض الدول الرأسمالية الأخرى أكثر من أمريكا ميلا الى تدخل الحكومة ، ونخص بالذكر بريطانيا فى الأعوام التى تلت الحرب العالمية الثانية ، حين جاء حزب العمال الى الحكم • ولكن الاختلاف بين الدول فى هذا الصدد كان اختلافا فى الدرجة لا فى النوع ، بل ان الحكومات المترددة فى التدخل قامت هى أيضا بانشاء مولدات الكهرباء المائية والطاقة الذرية ، وأنشأت شبكة من الطرق ، واهتمت بالصحة العامة والتعليم وغيره من الخدمات ، وتوسعت فى منشآتها العسكرية • ودخلت الحكومات الأميل الى التوسع فى عملياتها على نفس الميادين ، ميادين انتاج الطاقة ، والنقل ، والخدمات ، والمنشئات العسكرية ، وتركت أغلب الأنشطة الصناعية فى أيدى الشركات أو الأفراد •

(د) انهيار جهاز السوق :

ان الدور الرئيسى الذى أخذ يقوم به التنظيم الواسع النطاق ـ الشركة والنقابة العمالية والمشروع الحكومى ـ تمخض عن تغيير أساسى فى طابع الاقتصاد الامريكى وغيره من الاقتصاديات الرأسمالية المتقدمة بأن قوض أركان جهاز السوق ٠ والسوق من حيث هى منظم شامل ، لم يحل محلها رسميا أى جهاز آخر كما حدث فى البلاد الشيوعية مثلا باتخاذ نظام التخطيط المركزى ٠ ولكن الحكومة حلت محل مساومة السوق فى كثير من المناطق ٠ وكان من نتيجة ذلك أن وضعت قيود على عمل السوق الحرة حيث ظلت تؤدى وظيفتها كمنظم للنشاط الاقتصادى ٠

وكان جهاز السوق يعتمد على التوازن عن طريق الأسعار ٠ فالشركة الكبرى التى تسيطر على صناعتها أو تواجه عددا محدودا من المنافسين ، كانت تحدد أسعارها على ضوء التكلفة ، والتأثير الذى تتوقع أن تحدثه سياستها فى الأسعار على السوق ٠ كانت تحدد أسعارها بفترة من الزمن ولا تعدل عن هذه الأسعار الا اذا توسمت فائدة من وراء هذا التعديل ٠ وبدلا من التلائم مع الطلب برفع الأسعار أو خفضها كانت تحدث هذا التلاؤم بزيادة الانتاج أو خفضه ، اذ كان فى يدها أن تقرر أسعارها ، وأن تغير فى انتاجها ٠ كذلك كانت الأجور تتحدد عن طريق العقود الجماعية لفترات زمنية ، وكانت قليلة التعرض للتغيير نتيجة لتذبذب السوق ، شأنها فى ذلك شأن الأسعار ٠ واذا كان قد حدث تغيير ما ، فهو أنها أصبحت أكثر جمودا حين حاولت نقابات العمال أن تحصل لأعضائها على الأمن والاستقرار وتطالب بعقود تسرى لفترات أطول ٠

فى هذه الظروف تحاول الشركة أن تبيع أكبر قدر تستطيعه من السيارات أو السجائر أو أطنان الصلب بسعرها المقرر ، وذلك عن طريق السيطرة على أكبر جزء ممكن من السوق ، وعن طريق توسيع مجال الطلب على منتجاتها الخاصة وهذا يتطلب حملات اعلامية مركزة ، واستخدام أسماء بارزة لمنتجاتها ، وغير ذلك من العلامات التى تميزها عن غيرها ، حتى يعرفها المستهلك ويطلبها ٠ وكان الاعلان الذائع يحقق غرضه وهو توصيل منتجات الصناعة الكبيرة الى علم المستهلكين فى مختلف البقاع ٠ وفى وجود الاسعار المقررة تكون للاعلانات وظيفة اضافية ، وهى حمل الناس على شراء المنتجات وهذه وظيفة كانت تتم من قبل عن طريق تعديل الأسعار فى الظروف التنافسية ٠

ولا تكمن أهمية هذا التطور في جـدته ، وانما في اتساع مداه . فالشركات الصناعية التي تخرج منتجات يمكن تمييزها عن غيرها ، أو تمد بها الأسواق المحلية حيث تقل المنافسة أو تنعدم ، كانت هي التي تحدد أسعارها لزمن طويل ، فتطلق على منتجاتها أسماء مميزة . ولكن في أوائل هذا القرن لم تكن هذه الشركات تشكل الا جزءا صغيرا من الانتاج الكلي . ففي هذا الوقت كانت الحاصلات الزراعية والمواد الخام التي تتلاءم أسعارها مع ظروف السوق ، وتتذبذب طبقا للعرض والطلب. تشكل نسبة كبيرة من السلع التجارية . وكثير من المنتجات الصـناعية مثل الأقمشة القطنية العادية كان يقوم بانتاجها عدد كبير من المنتجين وكانت تباع دون التفريق بين مصادر انتاجها . فالذي أعطى الأسـعار المقـررة في القرن العشرين تأثيرها العميق على ادارة الاقتصـاد وهو التزايد الكبير في كل النشاط الاقتصادي الذي تمثله الصـناعة ، وفي داخل القطاع الصناعي ، تفضل هـذه الوحدات الاقتصـادية التي بلغت وضعا يتيح لها أن تفرض أسعارها .

ولقد كان من شأن السيطرة على الأسعار والأجور أن زاد عـدم الاستقرار الاقتصادي زيادة كبيرة . ففترات الكساد الاقتصادي كانت تصيب الاقتصاديات الصناعية منذ نشأتها الأولى بما يشبه الوباء ، ولكن أشد هذه الفترات كانت في الثلاثينات . ففي الانهيار الاقتصادي خلال تلك السنوات لم يحدث الا نقص قليل في أسعار السلع الصناعية التي تسيطر عليها الشركات الامريكية الكبرى مثل السيارات والصلب والمهمات الكهربية ومهمات المزارع ، كما أن الأجور في هذه الصناعات ظلت ثابتة نسبيا . أما الانتاج فانخفض بنسبة ٨٠٪ مما ترتب عليه حدوث بطالة هائلة .

وازاء تناقص الطلب تمسكت الشركات بأسعارها ، وعطلت عمالها، فهي ليست على ثقة من أن خفض السعر سيزيد من المبيعـات ففضلت الطريق الأسلم وهو تحديد الانتاج المجزي على المجازفة بالتوسع في الانتاج بخسارة محتملة . ولقد حذت الشركات في البلاد الأخرى حذو الشركات الأمريـكية الا حيث عجزت بسبب اعتمادها على الأسـعار السائدة في الأسواق العالمية . أما نقابات العمال فتمسكت من جانبها بنظام الأجور الذي قررته لحماية أعضائها الذين لم تدركهم البطالة ، مفضلة الحفاظ على ما يمكنها السيطرة عليه ، وان أدى ذلك الى تناقص كبير في عدد أعضائها. ولم تؤد هذه الاجراءات الا الى حماية العمال الذين احتفظوا بأعمالهم .

وفى أثناء ذلك سادت مرونة الأسعار بالنسبة للقطاع الزراعى وواجه الفلاح تدهور الأسواق ، وتدهور الأسعار . ونظرا لعجزه عن السيطرة على الأسعار ، لم يكن أمامه من سبيل الا أن يحتفظ بانتاجه ، أو يستكثر منه أملا فى أن يحصل من بيعه على ربح ما مهما قل . وبينما كان العمال الصناعيون كسالى متهاونين ، فان الفلاحين اشتغلوا بجد أكثر مما فعلوا فى أى وقت من الأوقات ، نظير عائد صغير أو لا عائد على الاطلاق . والواقع أن استمرار القطاع الزراعى فى العمل على أساس السوق الحرة يمكن أن يرد اليه الفضل فى وقاية البلاد الصناعية من المجاعة خلال فترة الكساد ، اذ ظل انتاج الغذاء مستمرا ، وكان يباع بسعر السوق ولكنه لم يحم الفلاح من الافلاس ورهن أراضيه .

(هـ) تدابير تحقيق الاستقرار الاقتصادى :

لقد ووجهت الحكومات بشوائب انهيار الجهاز التاريخى للسوق على نحو قاس يهدد المجتمع بأسره ، فتدخلت باتخاذ اجراءات تهدف الى تحقيق الانتعاش الاقتصادى ، والاحتفاظ بالاستقرار الاقتصادى .

ففى الولايات المتحدة اشتملت هذه الاجراءات على جهود لانقاذ الزراعة ، عن طريق برنامج لدعم الأسعار الزراعية . ومن ذلك تحديد انتاج الحاصلات الكبيرة الى حد ما . وللحد من المضاربة فى سوق الأوراق المالية التى أصابت كثيرا من المستثمرين بخسائر فادحة ، رفعت نسبة الشراء بالنقد فى كل حالة . كما قامت الحكومة ببرامج موسعة للأشغال العامة لاتاحة فرص العمل للمتعطلين . كما أدى التوسع فى التأمين ضد البطالة والمعونات الاقتصادية وغيرها من اجراءات الأمن الاجتماعى الى الابقاء على الدخول .

وأثناء تنفيذ هذه الاجراءات وغيرها لاحداث الانتعاش الاقتصادى ، صار من الواضح أن الحكومة يجب عليها أن تتحمل ايجابيا مسئولية المحافظة على الاستقرار الاقتصادى بمجرد تحقيق العمالة الكاملة . وفى قانون العمالة الصادر فى عام ١٩٤٦ أعلن الكونجرس الأمريكى ان هذا القانون يمثل السياسة الدائمة والمسئولية الدائمة للحكومة الفدرالية ، وهى تحقيق الحد الأقصى من العمالة والانتاج والقوة الشرائية بكل الطرق العملية ، ووضع المسئولية مباشرة عن هذا على عاتق رئيس الجمهورية والسلطات التشريعية وقد التزمت الحكومات الأوربية بما يشبه ذلك .

وفى منتصف القرن كانت قد اتخذت وسائل كثيرة واسعة المدى لتحقيق الاستقرار وحماية الاقتصاد وكان بعض هذه الاجراءات فى البنيان ، وكان من شأنها تحقيق الاستقرار بوسائل داخلية • فدعم الأسعار الزراعية وقيود المضاربة بأسعار الأوراق المالية والتأمين الاجتماعى الموسع ، وبرامج المعونة ، التى اتبعت لعلاج الكساد ، قد أصبحت من الملامح الدائمة للاقتصاد • كما أن الضرائب التصاعدية المرتفعة على دخول الأفراد والشركات قد أدت الى انخفاض تلقائى فى متحصلات الضرائب حين انخفضت الدخول • الا أن المصروفات الحكومية العامة المتزايدة على الخدمات الموسعة والمنشآت المدنية والعسكرية لم تستجب تلقائيا لتقلبات السوق وهناك عوامل أخرى تعزز الاعتقاد بأن أعمال الشركات والحكومة سوف تؤدى غالبا الى الاستقرار فالمعلومات التى تمكن الأعمال والعمال والحكومات من التخطيط والعمل قد جمعت على نحو شامل ومنظم ، بحيث تغطى الأسعار ، وتكاليف المعيشة ، وللعمالة ، والبطالة . والأجور ، والأرباح ، والاستثمار ، والتموين • وقد أدى انتشار الاوتومويه بما تتضمنه من استثمارات مالية ضخمة الى توكيد الاعتقاد بانه لابد للنجاح من الانتاج المستمر على أرفع المستويات • وأصبح الالتجاء الى تقليل الانتاج من أجل المحافظة على الأرباح أمرا أقل شأنا من الناحية العملية •

وتملك الحكومات الوسيلة للسيطرة على الموارد المالية ، وبذا تستطيع خلق نقود اضافية اذا تطلب الأمر ، وأن تعدل فى السياسة المالية ، حتى تزيد من نطاق القوة الشرائية اما بزيادة الانفاق الحكومى أو بخفض الضرائب ، أو بكلا الأمرين معا • وفى سبيل السيطرة على عرض النقود ، قوت الولايات المتحدة مؤسسة التمويل المركزية ، وهى نظام الاحتياطى الاتحادى ، وعهدت اليه بالمسئولية والسلطة لجعل حجم النقود فى البلاد كافيا للابقاء على مستوى عال للانتاج والعمالة . ومع أن قدرا كبيرا من النفقات الحكومية لا يمكن تأجيله أو التوسع فيه للمساعدة على استقرار النشاط الاقتصادى ، فان الانفاق على المرافق العامة مثل الطرق والمبانى الحكومية واصلاح الموانى أو الحدائق ، يمكن أن يزيد اذا لاح خطر الكساد، كما يمكن الاسراع فى انشاء المشروعات الكهربائية وغيرها من المشروعات الكبرى ، مع الاحتفاظ بقدر من المرونة فى ادارة الخدمات الحكومية • وفى نفس الوقت يمكن تقليل أسعار الضرائب ، وتقوية القوة الشرائية ، بتمويل الأنشطة الحكومية عن طريق الاقتراض من البنوك ، بدلا من سحب القوة الشرائية من الجمهور عن طريق الضرائب • ويمكن اتباع نقيض هذا الاجراء لمنع التضخم حين يكون هذا نتيجة للارتفاع الشديد فى الطلب •

والاجراءات التى تتخذها الدول الرأسمالية الأخرى سواء في ذلك أجهزة التثبيت الداخلية ، أو الاجراءات التى تستهدف التغلب على الاتجاهات المؤدية الى الكساد ، تختلف فى تفصيلاتها ، وتتأثر بالاستقلال النسبى للاقتصاد القومي ، أو باعتمادها على التجارة الخارجية • ولكنها كلها تهدف الى دعم الطلب حين يهدده الهبوط ، وبذا يمنع تقليل الانتاج من أن يترتب عليه بطالة خطيرة ، وبداية حركة حلزونية الى أسفل ، ليس من دليل على أنها ستنقلب على عقبيها • كل هذا يتضمن سيطرة على الموارد المالية ، واستخدام السياسة المالية المحكومة • وقد يستطيع تعديل الانتاج الحكومي أن يكون عاملا أكثر قوة فى البلاد الأوربية مما هو فى الولايات المتحدة ، لأن الانفاق الحكومى فى الخمسينيات بلغ ثلث الدخل القومى فى بريطانيا العظمى وربعه فى فرنسا والسويد ، يقابل هذا الخمس فى الولايات المتحدة •

وفي منتصف القرن لم يكن قد تقرر بعد : هل هذه النظم سوف تطبق فى الواقع بالمهارة والحكمة اللازمتين ؟ وهل سيكون لها أثر فعال فى محاربة الكساد اذا ووجهت بتجربة قاسية ؟ فهى لم تتعرض لاختبار حقيقى قاس في السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية • وخلال الخمسينيات شهد الاقتصاد الامريكى عدة نكسات صغيرة ، أدت الى بطء حركة نموه وتمخضت عن مظاهر عرضية . أما اقتصاديات أوروبا فقد نمت على نحو ثابت وسريع بعد أن أفاقت من ويلات الحرب •

ومهما يكن من أمر فالواضح انه لا توجد حكومة على استعداد لأن تسمح بأن يحل بشعبها كساد كبير كالذى حدث فى الماضى ، وكل الحكومات على استعداد لأن تتخذ الأساليب الايجابية التى تراها كفيلة بصيانة الاستقرار ، والاحتفاظ بمستوى عال من النشاط الاقتصادى •

و ـ تعديل العلاقات الاقتصادية الدولية :

لما كانت الدول تسيطر على عملاتها المحلية وتتخذ الاجراءات لمكافحة البطالة ، والوقاية من تكرار وقوعها ، فان جهاز التجارة الدولية لا بد من اعادة بنائه • ومع وجود السيطرة الداخلية ، فان الوسائل التقليدية لتعديل الاقتصاد الدولى لم تعد تكفى ، وصار لا بد من أن تستبدل قوى السوق الحرة جزئيا بوسائل تكفل تدفق التجارة والمدفوعات النقدية ورأس المال •

وخلال الحرب العالمية الأولى أدت الاجراءات التى اتخذتها عدة دول لتمويل النشاط الحربى الى أن انفصمت تماما العلاقة القائمة قبل الحرب بين عملات البلاد الصناعية • وكانت الفوارق الناتجة عن ذلك من العظمة بحيث أصبحت محاولة استعادة النمط القديم غير ذات موضوع ، وتخلت البلاد عن محاولة العودة الى الذهب كعملة دولية • ومع أنها استبقت الذهب وسيلة لدفع ثمن الواردات التى تزيد على الصادرات،فانها استعملت عملات خاصة لا تعتمد كميتها نسبيا على تدفق الذهب من البلاد واليها • ذلك أن الكساد فى الثلاثينات قد أوجد لدى الدول ميــــلا الى بناء اقتصادياتهــــا على نحو اقرب الى الاكتفاء الذاتى ، حتى تتقى أثر الهزات التى تصيب بلادا اخرى . وهذا الاتجاه يبدو فى أجلى صورة فى البلاد التى كانت منشغلة أيضا فى بناء قوة عسكرية ضخمة كالمانيا النازية واليابان . بل ان بريطانيا نفسها قد تخلت عن سياستها التقليدية القائمة على حرية التجارة ، فزادت الرسوم الجمركية وابتدعت مشروعا لتفضيل أساس مستعمراتها وكان من أثر الحرب العالمية الثانية تحول العــلاقات بين اقتصاديات البلاد الصناعية وتركها فى ختام الحرب أبعد مما كانت فى نهاية الحرب العالمية الأولى من حيث امكانية استخدام التدفق الحر التقليدى للذهب كجهاز للتصحيح والموازنة . واحتفظت البلاد بسلطة مارستها زمن الحرب ، وهى ســـلطة فرض حصص عــلى الواردات والصادرات ، وتقييد اتفاق عملائها فى الخارج ، والحد من حركات رأس المال ، واستخدمت هذه السلطات لمنع برامجها الداخلية لاعادة البناء الاقتصادى من أن يقضى عليها خلل فى ميزان مدفوعات ليس فى صالحها .

واذ ظهرت علاقات اقتصادية دولية جديدة ، وابتدعت تقنيات جديدة لموازنة الوضع الاقتصادى الدولى فى الفترة التى اعقبت الحرب العالمية الثانية خفت تدريجا قيود الحماية التى تتخذ من جانب واحد ، وان لم تختف تماما • وتتجلى التقنينات الجديدة فى انشاء صــندوق النقد الدولى ، والبنك الدولى للانشاء والتعمير ، وسلسلة من الاتفاقات بين الحكومات ، تتضمن المعــونة الاقتصـــادية ، والتبادل المشترك ، وانشاء أسواق اقتصادية مشتركة ذات نفع مشترك .

ولقد أنشىء صندوق النقد الدولى عام ١٩٤٥ كجهاز لتسوية الاختلالات التى قد تنشأ فى المدفوعات الدولية • وتحقيقا لهذا الغرض منح سلطة العمل مع البلاد المعنية على تقرير العلاقات بين عملاتها المختلفة وزود بأموال

للمساعدة فى المحافظة على العلاقات التى أقيمت • وبالصندوق أرصدة مشتركة من عملات البلاد الأعضاء ، وبذا يتاح له أن يقرض عملات احدى البلاد الى غيرها ، لكى يتجاوز بالبلد فترة العجز المؤقت عن مواجهة مدفوعاته الدولية بدون ارهاق احتياطياته من الذهب والودائع فى البنوك الأجنبية •

ويسهل البنك الدولى تدفق الاموال وذلك بأن يقرض الحكومات الاموال المودعة لديه من قبل البلاد الأعضاء والأموال التى يحصل عليها من مصادر خاصة عن طريق بيع سنداته ، وفيما بعد وضعت الخطط لتوفير رأس المال المغامر عن طريق المسالك الدولية لمنح معونة طوارىء بالطرق الدولية .

وكانت الأرصدة المالية المطلوبة لاعادة بناء اقتصاديات أوروبا من الضخامة بحيث لا يمكن تقديمها عن طريق أى جهاز يشترط سدادها . لمواجهة هذا الموقف أنشأت الولايات المتحدة ما عرف باسم مشروع مارشال للمعونة الاقتصادية بين الحكومات،وتعاونت مع البلاد الاوروبية فى اعادة بناء اقتصادياتها • وقد وجدت هذه البلاد بدورها أن عزلتها التاريخية عقبة فى سبيل نجاح جهودها الرامية الى أستعادة مركزها الاقتصادى ، الذى فقدته بسبب ما أسفرت عنه الحرب من دمار ، وفقد المستعمرات ، فعمدت الى ارساء أساس للتوظف الكامل ، ورفع مستوى معيشة شعوبها • وبالتدريج تقاربت اقتصاديات هذه الدول عن طريق سلسلة من الاتفاقيات التجارية والحصص ، والتعريفات الجمركية ، والعلاقات النقدية ، عن طريق انشاء الجماعة الأوروبية للفحم والحديد للنهوض بهذه الصناعات الأساسية للقارة الأوروبية ككل . وأخيرا أنشئت فى عام ١٩٥٧ السوق الأوروبية المشتركة ، والاتحاد الأوروبى للذرة لاستغلال الامكانيات الاقتصادية للطاقة الذرية . وعن طريق هذه الاجراءات أخذت اقتصاديات أوروبا وقد عادت الى القوة تتجه نحو تحقيق الامكانيات الاقتصادية لاقتصاد أوروبى مشترك .

وفى العلاقات الاقتصادية بين البلاد التى تصنعت والبلاد غير الصناعية ، أضيف العمل الحكومى لتوفير المعونة الاقتصادية ، وتوجيه تدفق رأس المال ، أضيف هذا العمل الى النمط القديم للاستثمار الأجنبى الذى يسعى وراء الربح . فواصلت الشركات البترولية والتعدينية الخاصة استثمار أموالها فى مشروعات فيما وراء البحار ، كما أنشئت الشركات الصناعية هناك فروعا لمصانعها لتجميع السيارات وانتاج الألبان الصناعية وتصنيع الاغذية المحلية • ولكن وضع هذه المشروعات ودورها تغيرا ، حين أقامت البلاد الآخذة بأسباب النمو الحواجز التى تحول دون استغلال

الأجانب لمواردها،وبذلت جهودا ايجابية لادخال الاموال الأجنبية فى خططها الانمائية • ولقد عاونت الدول المقدمة لرأس المال هذه الجهـــود عن طريق المعونة الفنية للأمم المتحدة ، وقروض من البنك الدولى، وعن طريق برامج المعونة والقروض من الولايات المتحدة والدول المتعاونة « عن طريق مشروع كولومبو » •

هـ ــ الاخلاقيات الراسمالية :

برغم ان أنظمة الاقتصاد الرأسمالى أصابتها تغييرات كبرى خلال هذه السنوات فان عددا كبيرا من الدوافع الرئيسية التى أدت الى التقدم الصناعى المبكر ظلت تعمل عملها فى البلاد الصناعية الرأسمالية وظلت «أخلاقيات الرأسمالية» تمجد وتضفى الكرامة على العمل والسعى وراء النجاح المادى وتجميع الثروة ، وتندد بالخمول والفقد وعدم المبـــالاة بالأهداف المادية ، ففى الولايات المتحدة وفى بلاد اخرى مثل المانيا وهولندا وبلجيكا والسويد وبريطانيا العظمى حيث الاقتصاديات الرأسمالية متقدمة جدا ، لم تقتصر هذه الأخلاقيات على التغلغل بين رجال الأعمال • بل تجاوزتهم فتغلغلت فى وجهة نظر الفلاح أو الميكانيكى الذى يبحث عن فرصة لاقامة مشروع خاص به ، كما دخلت فى وجهة نظر أصحاب المهن ، فصاروا يجمعون بين الرغبة فى النجاح الاقتصادى وبين أداء خدماتهم الفنية • ومع أن الرغبة فى الامن قد قويت بفعل الكســاد الكبير ، وأن الدوافع فى داخل البيروقراطيات الصناعية اتجهت غالبا الى احراز السلطة والنفوذ ، لا مجرد احراز ربح شخصى ، فقد ظلت المجتمعات الرأسمالية تعتبر أن اقامة مشروعات تهدف الى الربح هى المسلك الطبيعى السوى وظلت تضفى الاحترام والتبجيل على من نجحوا فى تحقيق هذا الهدف .

ولكن هذه الأخلاقيات تطورت فى شكلها بفعل تغييرات حدثت فى البناء الاقتصادى والظروف الاجتماعية • والمجتمع التجارى الأمريكى يقبل عموما الفكرة القائلة بأن خير طريقة لتحقيق الربح هى الانتاج ، وبيـــع كميات كبيرة بربح قليل للوحدة ، بدلا من ربح كبير فى عدد قليـــل من الوحدات • وفى خارج أمريكا كان هذا المبدأ أقل قبولا وبخاصة ــ كما فى فرنسا ــ اذ سارت التقاليد على أساس انتـــاج على مســـتوى رفيع لسوق محدودة • وكان من المعترف به أن الأجور المرتفعـــة المرتبطة بالانتاجية المرتفعة هى مصدر السوق الكبيرة • وصار الاستهلاك والحصول على مستوى معيشة مرتفع من الأهداف الرئيسية للعمال ، وكل قطاعات الشعب . ففضيلة الادخار من أجل الادخار قد ضــعف أثرها بفعل

انتشار الفكرة القائلة بأن الانفاق يبقى على عجلة الصناعة دائرة ، كما ضعف أثرها بفضل الاجراءات الاجتماعية التى تحقق للفرد حدا أدنى من الأمان الاقتصادى . فاستغل قدر كبير من المدخرات فى انتاج السلع الثابتة للاستخدام اليومى بدلا من ادخار القرش الأبيض لليوم الأسود ، ويلعب الاعلان بعواطف الناس ، فيحفزهم الى الاستهلاك .

وقد اتخذت أهداف الاستهلاك ذاتها أشكالا جديدة حين زادت انتاجية الاقتصاد فلم تعد مجرد الابقاء على الحياة ، بل صارت المشاركة فى ثمرات الصناعة الحديثة . فكثير من أنماط الاستهلاك التى كانت تميز الطبقتين الوسطى والعليا على الطبقة الدنيا ، لم تعد تفصلها عنهما . فجماهير الشعب تأكل تقريبا نفس الأطعمة المغذية ، وتلبس فى الشارع ملابس لا يستطاع معها التمييز بين الطبقات ، فيما عدا أصحاب الغنى الفاحش ، كما صاروا يعيشون فى منازل تتمتع بكثير من وسائل الراحة والخدمة المنزلية ، ويقودون نفس السيارات ، ويسافرون ، ويستمتعون بالعطلات والألعاب ، والسينما ولديهم الحدائق ، وآلات التصوير وغيره من الهوايات . فقد كان للاستهلاك الكبير أثر فى تضييق الفرق ، ويبدو بأجلى مظاهره فى الولايات المتحدة ، ولكنه يبدو أيضا فى كل الاقتصاديات الرأسمالية المتقدمة .

وهدف رفع مستوى المعيشة الذى يدفع بالأفراد الى العمل ويحظى برضاء المجتمع ، له أهمية تفوق مجرد أهميته المادية اذ أنه يعنى قبول فكرة أن وجود الفقر غير ضرورى ، وأن الانسان قد استطاع بجهوده أن يقضى على هذا العدو القديم . وأن تحرير الانسان من الاحتياج المادى معناه تحرير الروح البشرية ، وانطلاق الطاقات الانسانية . ومعناه أن هذه الحرية وهذا الانطلاق ليس وقفا على الأقلين بل هو حق للجميع .

وعلى أساس هذا التصور اجتمعت الانتاجية الصناعية والمنظمات الاجتماعية لتحقيق الرخاء المشترك ، فأثمر ذلك ظهور حياة تتيح للانسان كرامة أكبر ، ورضا أوفر . وقد وجدت هذه الفكرة تعبيرا عنها فى دراسة للحرية والرخاء فى الدول الاسكندنافية الخمس ، تحت رعاية وزراء الخدمات فى هذه الدول . فمستوى المعيشة فى أى دولة يعتمد أساسا على حجم السلع والخدمات التى ينتجها . والمنافع الاجتماعية مهما يكن وصفها هى جزء من مستوى المعيشة .. والأهداف التى تتوخاها شعوب الشمال أهداف بسيطة . فهى تريد أن تجعل من بلادها مكانا جديرا بالاقامة فيه للأحرار من الرجال والنساء .. وتحقيق هذا الهدف يتطلب

العمل ، ومزيدا من الانتاجية ، ويتطلب التعاون فى روح من التضامن العملى * » .

ولنستشهد بما قاله رئيس الوزراء العمالى فى بريطانيا كليمنت اتلى « لا تزال الطبقة الممتازة فى مهدها فى كل مكان » فأفرادها هم أبنـــاء الجيل الجديد ، الذين ولدوا فى مجتمعات أحرزت الوسيلة ، وأصطنعت العزم ، وطورت النظم لتضفى الرخاء على كل أفرادها .

٢ – الاقتصاد الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى والبلاد الشيوعية الأخرى

يمثل النظام الاقتصادى فى الاتحاد السوفييتى المحاولة الأولى لبناء اقتصاد حديث فى دولة شيوعية . وهو يقدم المثل الذى تحتذيه باقى الدول الشيوعية فى تنمية صروحها الاقتصادية .

لم تقدم النظرية الماركسية الا أعم المبادىء لتصميم مثل هذا البنيان الاقتصادى .لقد وصف ماركس بالتفصيل ما ينطوى عليه النظام الرأسمالى من عناصر الضعف والشرور ، وأوضح أن الاقتصاد الاشتراكى سوف يقضى على هذه المظاهر ، وعلى الأخص الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، والأزمات الاقتصادية المتكررة . ولكن ماركس لم يقدم تصميما تفصيليا لأشـــكال تنظيمية بديلة . وكان يرى أن التكوين الاقتصادى الاشتراكى الجديد له مرحلتان ، أولاهما الاشتراكية وهى الأدنى درجة ، والثانية هى الشيوعية الكاملة ، وهى الأعلى درجة . وكان يرى فى الدولة أداة ضرورية أثنـــاء المرحلة الأولى ويتوقع لها أن تذوى فى المرحلة الثانية مع نشوء مجتمع شيوعى .

كان ماركس يعيش فى زمن كان فيه معظم النشاط الصناعى تقـوم به مشروعات صغيرة نسبيا ، وصاغ توقعاته العامة على ضوء سيطرة العمال المباشرة على الانتاج . أما لينين وقد واجهته وحدات اقتصـــادية كبيرة ومعقدة فكان رايه فى الاقتصاد انه يعمل كمشروع اقتصادى واحد ذى طابع مركزى وكان اسهامه النظرى الكبير فى تطوير الاقتصاد السوفييتى هو اعتباره ان الدولة الاشتراكية هى الأداة الرئيسية التى تبنى بهـا

الطبقة العاملة اقتصادا قوميا قائما على جعل وسائل الانتاج اًرئيسيا ملكا للمجتمع • وكان يتصور الحزب على أنه رأس الحربة الثورية التى لا يقتصر دورها على التوجيه المنظم للاستيلاء على السلطة بل ينبغى أن يواصل الدور نفسه فى تنظيم المجتمع الاشتراكى وادارة شئونه . وهو اذ يعهد الى الحزب بهذه المهمة ، انما يعهد اليه بالقيادة السياسية والاقتصادية ويتوقع له أنه سيستطيع وضع بناء النظام الاقتصادى وادارته • وفضلا عن ذلك كان يعتقد ان « تعصير » الصناعة هو الشرط الذى لا غنى عنه لتحقيق الاشتراكية ولقد عبر عن هذه الفكرة فىعبارته التى طالما استشهد بها الكتاب «الكهرباء+السوفييتات = الاشتراكية».

١ ـ حالة الاقتصاد الروسى :

كان الصرح الذى أقامه لينين ورفاقه فى السنوات المبكرة للدولة السوفيتية والوسائل التى ابتكروها تهدف برجماتيا الى مواجهة المواقف التى كان عليهم أن يصارعوها • وكانت هذه المواقف صعبة ، وتتطلبجهدا شاقا . فاقتصاد البلاد قد تحطم بسبب ما أصابها من دمار وفوضى ، من جراء الحرب العالمية الاولى ، والثورة ، وسنوات التدخل الاجنبى ، والحرب الأهلية • ونتيجة لهذه الكوارث كان انتاج الصناعة الكبيرة فى عام ١٩٢٠ لا يكاد يبلغ سبع معدل ما قبل الثورة ، وانخفض مستوى الدخل القومى بحيث لم يكد يتجاوز ثلث ما كان عليه • وكان عبء المشردين والمرضى واليتامى والعاطلين والمطرودين عبئا ضخما . فكانت المهمة العاجلة وهى جمع شتات المجتمع المهمة الأولى التى واجهت القادة السوفييت ، حين كانوا يبحثون عن طريق لبناء اقتصاد قادر على البقاء . وتطلب الأمر ستة أعوام أو سبعة لأداء هذه المهمة بعد انتهاء الحرب الاهلية والتدخل الأجنبى •

وكانت الحالة الثانية التى واجهوها طوال الاربعين سنة التى أعقبت ثورة أكتوبر هى التوقع المستمر للحرب • فالمذهب الشيوعى وتجربة التدخل فى أثناء الحرب الاهلية ، دلا على أن العالم الرأسمالى لن يسمح لمجتمع شيوعى بأن ينمو فى سلام • ومع أن القيادة بعد موت لينين فى عام ١٩٢٤ انتقلت الى الزمرة التى تزعمها ستالين الذى ظن أن فى الامكان بناء الاشتراكية فى دولة واحدة دون أن تؤيدها الثورة العالمية،ظل الاعتقاد راسخا بأن على مثل هذه الدولة ان تكون مستعدة لصد الهجمات التىيشنها عليها أعداؤها الحتميون • ومعنى هذا أن الدولة الشيوعية فى هذه الظروف يجب أن تكون دولة دفاع ، ويجب أن يكون الاقتصاد الاشتراكى

اقتصاد دفاع ، بينما يضع الأساس للتوسع ويلبى الحد الادنى من حاجات السكان • وكان الغزو النازى في يونيه سنة ١٩٤١ مبررا لتوقع الهجوم وكررت الحرب العالمية الثانية ما أحدثته الحرب الأولى من دمار ولكن على نطاق أضخم • وأدى سقوط المناطق الصناعية الرئيسية فى يد الجيوش النازية الى اجبار الروس على نقل صناعاتهم الى الشرق فيما وراء جبال أورال ، وتطلب الأمر بذل جهود مركزة لتعويض الخسائر واعادة بناء المناطق المخربة فى أسرع وقت ممكن بعد الحرب . كما أدى استمرار التوتر الدولى فى الفترة التى أعقبت الحرب العالمية الثانية الى ابقاء الدفاع العسكرى ناحية كبرى من الاقتصاد .

وهكذا صممت مؤسسات الاقتصاد السوفيتية فى ظروف فترتين كبيرتين من فترات الكوارث والتدمير وحالة مستمرة من الخوف وتوقع الحاجة الى الدفاع العسكرى . ولقد عززت الأهمية الغالبة للدفاع شعور السوفييت بضرورة اقامة قاعدة صناعية لا تقل فى تقدمها عن مثيلاتها فى أشد الدول الرأسمالية تقدما ، حتى يستطيع النظام الشيوعى أن ينافس النظام الرأسمالى .

وكان الدفاع بدوره ينظر اليه من خلال هزائم روسيا المتكررة على يد الدول التى تتفوق عليها فى التقدم الصناعى كالسويد فى القرن الثامن عشر ، وفرنسا فى عام ١٨١٢ ، وبريطانيا وفرنسا فى حرب القرم فى خمسينات القرن الماضى ، واليابان المصنعة حديثا سنة ١٩٠٥ ، والجيوش الألمانية النازية فى الحرب العالمية الثانية ، فلم يكن معنى الدفاع مجرد اقامة منشأة حربية قوية ، بل زيادة الطاقة الصناعية اللازمة لمقتضيات الحرب الحرفية . وكان الاندفاع فى التوسع فى الصناعات الثقيلة بسرعة ومهما كان الثمن ، انما يصور الاقتناع السائد بأن هذه هى الطريقة الوحيدة لتوفير احتياجات الدفاع عن النظام وكفالة بقائه . وكذلك كانت الحاجة ماسة الى انشاء الصناعة الثقيلة لامداد الزراعة بالآلات الحديثة وامداد الصناعات الخفيفة وصناعة الأطعمة والنقل بما يلزمها .

كانت الظروف الطبيعية التى يقوم عليها الاقتصاد السوفييتى هى الموارد المتنوعة الضخمة للأراضى الروسية الشاسعة ، التى لم يكن الكثير منها قد استكشف حتى ذلك الوقت ، والمناخ الروسى القاسى ، البالغ البرودة فى المناطق الرطبة الى الشمال ، والبالغ الجفاف فى كثير من المناطق

الدافئة ــ هذه الظروف هيأت الامكانيات للتنمية الاقتصاديه كما فرضت عليها بعض الحدود •

وحين استولى الشيوعيون على مقاليد الحكم كان الاقتصاد تغلب عليه الزراعة ــ كان حوالى ٨٠٪ من السكان لا يزالون يشتغلون بالزراعة ــ ولكن القطاع الصناعى كان ينمو سريعا جدا فى الخمسين سنة السابقة ، وكان يشمل بعض المشروعات الكبيرة • ومنذ عام ١٨٦١ وما بعدها قامت الحكومة القيصرية باجراءات مختلفة لتشجيع التوسع الصناعى : فانشاء السكة الحديدية فتح مجاهل البلاد وربط روسيا الاوروبية بالمحيط الهادى ؛ وأنشىء المجمع الصناعى « دونباس كريفون ردج للفحم والحديد ، وتم الانتاج من الموارد البترولية فى باكو . وخلال فترات كثيرة بين عامى ١٨٨٥ ، ١٩١٣ فاق معدل النمو الصناعى فى روسيا المعدل السائد فى الولايات المتحدة وبريطانيا والمانيا . ومن عام ١٨٩٠ الى ١٩٠٠ بلغ معدل التوسع السنوى فى الانتاج الصناعى ٨٪ تقريبا . غير أن تأخر روسيا نسبيا فى تاريخ بدء صناعاتها كان معناه أن مدى التصنيع فى روسيا حتى قبل ما أصابها فى الحرب العالمية الأولى والحرب الأهلية ، كان أقل بكثير من مثيله فى الدول الصناعية الكبرى .

وكانت نسبة كبيرة من التوسع الصناعى أثناء حكم القياصرة وبخاصة فى التعدين والكيمائيات والصناعات المعدنية وصناعات الخشب وصناعات النسيج ، تتم برأس مال أجنبى • فنصف رأس المال المستثمر فى الشركات المساهمة المشتركة الروسية عام ١٩٠٠ كان يأتى من مصادر أجنبية ، حوالى ٩٠٪ فرنسى وبريطانى والمانى وبلجيكى ، بينما مولت القروض من فرنسا وهولندة وغيرها انشاء الخطوط الحديدية . فلقد جذبت الموارد الطبيعية الضخمة للبلاد في العهد القيصرى أصحاب رءوس الاموال الأجانب الى استثمارها فى روسيا . فكان قدر كبير من الآلات والمهمات يأتى من الخارج ، وكان عدد كبير من الفنيين الاجانب يكملون العدد القليل من الفنيين الأكفاء من الروس الذين تلقوا تدريبهم فى المعاهد الروسية العالية المستوى أو فى الخارج . وبعد ثورة أكتوبر لم يعد فى متناول روسيا جزء كبير من الموارد التنظيمية والمالية والفنية التى كانت تشارك فى تحقيق التوسع الصناعى قبل العهد السوفيتى ، وكان هذا عقبة فى طريق النمو المستمر .

وكانت القوى العاملة تتألف من عدد كبير من الفلاحين ، كثير منهم يمثلون عمالة غير كاملة وبذا يكون من المستطاع نقلهم الى الصناعة ،

وبروليتاريا صناعية ٢٠٪ منها لا تزال تحتفظ بأصولهـــا الريفية وتعمل جزءا من السنة فى الزراعة ، بينما غالبيتهم قد اصبحوا عمالا دائمين فى المدينة •

ومنذ تحرير رقيق الارض فى ستينات القرن الماضى حتى عام ١٩٠٥ كان معظم الفلاحين مسئولين بصورة جماعية عن طريق مجالسهم (مير) عن سداد ثمن الارض التى أصبحت ملكا لهم بعد التحرير ، وهكذا عاشوا معا فى صلة وثيقة الى حد ما داخل مجموعات ، خاضعين لنماذج زراعية مقررة تعاونيا . وفى ظل اصلاحات ستوليبين فى عام ١٩٠٦ لم يعد تسديد هذه الأثمان ضروريا وصار من حق الفلاحين كأفراد أن يطالبوا بنصيبهم من الأرض وأن يزرعوا ما يشاءون ، ويبيعوا كما يحلو لهم . وفى عام ١٩١٥ كان أكثر من نصف الاسر من الفلاحين تمتلك أراضيها وتورثها ، ولكن عشرهم فقط كانوا يزرعون أرضا تحدد وضعها ، كمزارع مستقلة وكانت الاغلبية الساحقة من الفلاحين جميعا تقوم بزراعة حاصلات الكفاف بوسائل بدائية ، وكانوا مدينين لأصحاب الأرض وحتى اذا ملكوا أرضـــا فانهم يفقدونها فى الغالب • وكانوا على العموم يمارسون الزراعة بطريقة جماعية سواء منهم من يمتلكون قطعا صغيرة من الارض ، أو من يعملون فى الارض المملوكة لمجتمع القرية • وكان يسود الفلاحين شعور عميق بعدم الرضا والصراع الدائم من أجل الأرض • أما العمال الصناعيون فكانوا من جانبهم يتعرضون بصورة متكررة لاجراءات القمع المتخذة ضد تكوين النقابات وضد الجهود من أجل تحسين ظروف العمل •

وكان الفلاحون وعمال المدن غير متعلمين بوجه عام • فثلاثة أرباع السكان ممن تزيد أعمارهم على التاسعة كانوا من الأميين ؛ وكانت نســبة الأمية بين النساء ٩٠٪ تقريبا . وكان عدد كبير من الصناع المشتغلين ممن ينتجون كثيرا من السلع الاستهلاكية وبخاصة فى المناطق الريفية يملكون مهارات حرفية . وكان عدد قليل من الأعضـــاء القادرين من الطبقات الدنيا ، بما فيهم بعض قادة الثورة ، قد أمكنهم أن يلتحقوا بالتعليم العالى والفنى الذى كان وقفا على أبناء الطبقات العليا تقريبا . وبذا أصبح فى متناول قادة الاقتصاد السوفييتى قوى عاملة فى الزراعة تعانى من البطالة الجزئية والتدريب الناقص ممن اعتادوا على ضبط النفس والمسئولية الجماعية ، ومن هذه القوى العاملة جندت مجموعة كبيرة من العمال الصناعيين .

ب ــ الخطوات المبدئية فى نقل الملكية الى المجتمع :

فى المراحل الأولى ، أى فترة الحرب ١٩١٨ ــ ١٩٢١ حين كانت المشكلة الرئيسية هى مواجهة الطوارىء وصياغة نوع من النظام من أخلاط الفوضى ، عملت الدولة بسرعة على تأميم الارض والبنوك والمشروعات الصناعية وتجارة الجملة والتجزئة ومعظم الاسكان فى المدن ، فضلا عن مواصلة السيطرة على المشروعات الحكومية السابقة مثل السكك الحديدية ونظم المواصلات . وكان يجرى الاستيلاء على الحبوب لاطعام سكان المدن . وفى المصانع بدأت مجالس العمال باشراف أعضاء الحزب الرئيسى فى أول الأمر هو القضاء على المصاعب وأسبابها ــ كسر عنق توجه الانتاج . وأنشىء المجلس الاقتصادى الأعلى سنة ١٩١٧ وكان همه الزجاجة كلما تراءى ، لكى تظل المواد والمهمات فى متناول المصانع على نحو ما ، ثم أخذ يوجه عنايته الى ادارة المشروعات القومية .

غير أن الانتاج اضمحل على نحو رهيب فى وجه الحرب المستمرة وانعدام الخبرة فى الادارة الاقتصادية وقد أثر نظام الاستيلاء على انتاج الحبوب . وبانتهاء الحرب الاهلية والتدخل الأجنبى بدا للينين ورفاقه فى عام ١٩٢١ أنه لا بد مؤقتا من استخدام الحوافز الفردية ، وبخاصة للفلاحين ، حتى تعبأ القوى للتوسع ، وتتيح الوقت لتطور عمليات التخطيط ، بحيث تصل الى درجة تستطيع معها أن تقود الاقتصاد بنجاح وفاعلية . ولهذا استحدثت السياسة الاقتصادية الجديدة N.E.B. ضريبة نوعية أخف من الضرائب السابقة الى حد كبير ، وسمحت بالتجارة الخاصة للفلاحين وأن يبيعوا نسبة كبيرة من انتاجهم .

وخلال السنوات السبع التالية ، كان هذا التخفيف فى تنفيذ مبدأ الانتاج الاشتراكى والتوزيع الاشتراكي حافزا على الانتاج الزراعى الذى يحتاج اليه لاطعام سكان المدن الصناعية الآخذين فىالزيادة ، وعلىالتصدير لشراء الآلات اللازمة للتوسع الصناعى ، حتى يمكن زيادة طاقة روسيا الذاتية فى صنع الآلات . غير أن السياسة الاقتصادية الجديدة لم تعتبر مطلقا جزءا من بنيان دائم ، بل كانت مجرد وسيلة مؤقتة . فبمجرد أن بدأ تعمير الاقتصاد القومى يسفر عن زيادة فى انتاج السلع وفى تجارة الدولة والتجارة التعاونية ، تعرض القطاع الخاص فى التجارة لضرائب غير مواتية ووضعت فى طريقه الصعوبات فى الحصول على السلع والنقل ، وتعرض لمنافسة مركزة قوية منجانب شبكة المتاجر الحكومية ، ووكالات البيع بالجملة ، وهى شبكات آخذة فى الاتساع . وفى سنة ١٩٢٨ تناقصت

حصة تجارة التجزئة فى ايدى تجار القطاع الخاص من حوالى ٧٢٪ الى ١٦٪ وفى سنة ١٩٣٢ تقرر حظر قيام التجار بالتجارة الخاصة .

وفى نفس الوقت الذى استهلت فيه السياسة الاقتصادية الجديده ، بدأت أولى محاولات التخطيط الواسعة النطاق ادراكا لأن المشكلة الرئيسية فى التنظيم الاقتصادى الدائم هى كيفية احلال التخطيط محل السوق الحرة ، التى كانت تعمل كالمنظم للاقتصاديات الرأسمالية · وفى فبراير سنة١٩٢١ أنشئت لجنة التخطيط الحكومية أو الجوسبلان . وكانت قد أنشئت لجنة خاصة لدراسة شاملة لتنمية الكهرباء وتقديم مقترحات بشأنها . وجاءت خطة التنمية الكهربية التى اعتمدت فى ديسمبر ١٩٢٠ فقضت بأن ينشأ فى خلال فترة من عشر سنوات الى خمس عشرة سنة حوالى ٣٠ محطة لتوليد الكهرباء ، بل وتعدت هذا فحددت أهدافا لمحصول الفحم والحديد الخام والصلب وغيرها من المنتجات الأساسية. وبعد هذا ادمجت هذه المقترحات فى مشروع السنوات الخمس الأولى حين تم وضعه .

وما ان وافى عام ١٩٢٨ حتى كان جهاز التخطيط قد بلغ من تطوره درجة يستطيع معها أن يكون الأداة الرئيسية للسياسة الاقتصادية والتوجيه الاقتصادى · وقد وضعت الخطة الخمسية الأولى موضع التنفيذ فى سبتمبر ١٩٢٨ وكانت قد أخذت بتوجيه المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعى فى ديسمبر سنة ١٩٢٧ · وكان نظام التخطيط يتضمن أمرين رسم الخطة وتنفيذها مع ايجاد أجهزة للمراقبة والتأكد من أن التنفيذ يجرى طبقا للخطة ، واتخاذ التدابير لتصحيح أخطاء التنفيذ اذا انحرف عن الأهداف المرسومة ·

جـ ـ تطبيق الزراعة الجماعية :

يقتضى هذا النظام ضرورة اخضاع كل الأجزاء الرئيسية من الاقتصاد لتوجيه موحد · فمزارع الفلاحين الخاصة المتخلفة والمتناثرة التى ظلت بمقتضى السياسة الاقتصادية الجديدة خارج نطاق السيطرة المركزية، كانت لا تتناسب مع وجود صناعة مركزة تزداد نموا . فأدى عدم تركيز الزراعة والقلة الفائقة فيما يفيض منها بالسوق الى ظهور خطر يهدد نجاح البرنامج فأدى ذلك الى التصميم على اعادة تنظيم الزراعة على نحو جديد لتجميع المزارع الصغيرة التى يملكها الأفراد فى مزارع تعاونية . وقد اقتضت الخطة الخمسية الأولى زيادة كبيرة ، من ٧ر٢ الى ٣ر١٧٪ فى نسبة الزراعة الجماعية أو مزارع الدولة . وخلال الأعوام التالية

أدى الاهتمام المركز بتصفية طبقة الملاك الزراعيين الكبار المعروفين باسم الكولاك ، الى الاسراع بوضع الزراعة داخل نطاق سيطرة الدولة ، على نحو من السرعة لم تكن الخطة تتوقعه . فما ان حل عام ١٩٣١ حتى كان ثلثا الأراضى المنتجة للحاصلات وأكثر من نصف المشتغلين بالزراعة ، قد أحدق بهم نظام الزراعة الجماعية ومزارع الدولة ، وفى عام ١٩٣٦ كان تطبيق النظام الجماعى فى الزراعة قد اكتمل تقريبا .

وكانت هذه العملية باهظة التكاليف ، سواء فيما يتعلق بالانتاج أو الخسارة فى الأرواح فاتخذت الحكومة خطوات للابطاء بها مؤقتا ، وللحد من ضغط أعضاء الحزب المسرفين فى حماستهم وفقراء الفلاحين المتعطشين الى الارض . وكان الفلاحون الذين قاوموا نظام الزراعة الجماعية كثيرا ما يذبحون ما لديهم من حيوانات فنقص عدد دواب الحمل وغيرها من الماشية بما يزيد على النصف ، كما أودت المجاعة وضروب القمع ومعسكرات العمل بحياة أكثر من مليون نسمة . ولكن الزراعة الجماعية كانت عنصرا جوهريا فى البناء العام لاقتصاد يجرى تنظيمه وادارته عن طريق جهاز التخطيط المركزى ! .

د ـ انشاء جهاز وتكنيكات التخطيط :

ان انشاء جهاز التخطيط ، وامتداده المستمر الى مزيد من تفاصيل الحياة الاقتصادية ، وابتكار وسائل الاشراف والتعديل بما يلائم عمليات الانتاج فى اقتصاد الأتحاد السوفييتى الضخم والبالغ التعقيد الا مالا نهاية كان عملا رائعا من التنظيم الاقتصادى لم يسبق له مثيل فى تاريخ البشرية ان اختفاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج لم يزل أية مشكلة من المشاكل الأساسية فى ادارة المشروعات والتنسيق بينها ، وفى ربط التكلفة بالعائد ، وتوفير العرض ، وتنسيق حجم الانتاج وانسيابه بحيث يتحقق التوازن بين انتاج المنتجات الكثيرة ، وبحيث لا يتوقف انتاج آلة بسبب الافتقار الى مسمار محوى او محولة أو اى جزء ضرورى آخر .

وكانت الخطة الخمسية الأولى ، ١٩٢٨ ـ ١٩٣٢ ، لا تغطى فى الواقع الا حوالى ٥٠ صناعة ، بالقياس الى الخطة الخمسية الثانية التى غطت أكثر من ضعف هذا العدد وتشمل تفصيلات تزيد كثيرا عما شملته الخطة الخمسية الاولى . وكانت طريقتها هى تحديد أقل عدد ممكن من الاهداف التى يجب على الصناعات أن تحققها ، أو أن تزيد على ما رسم لها منها ان أمكن وذلك خلال الفترة المقررة . وبوضع أهداف لأكثر الصناعات أهمية ،

وتسمية هذه الأهداف « بالحلقـــات الرئيسية » قررت مجموعة من الأولويات فيما يتعلق بامدادات الوقود والمواد الخام والتمويل . فاذا تخلفت بعض الصناعات عن السير المنشود ، ولكن الحلقات الرئيسية تحققت أو تجاوزت الأهداف المقررة لهـا لم نعتبر أن الأهداف الرئيسية للخطة قد فشلت . وقد أعلن فى زهو وانتصار أن الخطة قد نفذت ، بل وجاوزت الجدول الزمنى المقرر لها ، فى الانتاج الكلى . فقد حققت الأهداف وجاوزتها فى انتاج الآلات والمعدات الكهربية ، وان كانت بعض المنتجات الأخرى لم تصل الى الهدف المقرر لها .

ثم جاءت خطط متتابعه غطت عددا متزايدا من الصناعات فى فروع النقل والزراعة التجارة ــ وتميزت هــذه الخطط بالتحديد التفصـــيلى للأهداف الثانوية على نحو ما حدث للأهداف الرئيسية . وفى الخطة الخمسية الخامسة للفترة من ١٨٥١ ــ ١٩٥٥ كان فن التخطيط قد بلغ حد الاحكام ، بحيث تحققت الخطة الكلية التى شملت فى تفصيل تام تقريبا كل أجزاء الاقتصاد والثقافة ووصلت الى برنامج متوازن لتحقيق أهداف محددة ، أو زيادة متناسقة فى سرعة الانتاج بدلا من تجاوز الحد المرسوم فى اجزاء متناثرة من الاقتصاد .

وفى تطوير الأساليب الفنيه للتخطيط نجد طريقين متنافسين علينا اختيار أحدهما ٠ فثمه مجموعة من المخططين يفضلون طريقة اسقاط صورة الانجاز فى الماضى على المستقبل ، وعلى ضوئه يمكن تحديد مـا يتوقع أن يحدث وتقرير أهداف واقعية متواضـعة ٠ هذه الطريقـة لاتتوخى عـالى الأهداف ٠ أما الطريقة الأخرى فهى تحديد الأهداف التى تحقق احتياجات الدولة السوفيتية مهما يكن تحقيقها عسـيرا فى الظـاهر ، ثم تعبئة كل الموارد الممكنة ، وكل الجهود الممكنة ، للتغلب على الصعوبات التى تعترض طريق التنمية ثم تحقيق الأهداف ٠

وفى أثناء الخطة الخمسية الأولى كانت الطريقة الثانية هى التى وافقت عليها قيادة الحزب بوصفها الطريق الثورى التقدمى ٠ أما أولئك الذين كانوا يفضلون الاجراءات التى تميل الى الجانب المحافظ ، فقد أبعدوا عن المواقع المؤثرة فى عملية التخطيط ، وركز الاقتصاد الروسى على أولوية انشاء صناعة ثقيلة وانشاء قاعدة متسعة يفيد منها المجهود الحربى وتسمح بالتوسع مستقبلا فى انتاج السلع الاستهلاكية والطعام .

وفى ظل ديكتاتورية ستالين لم يســمح بأى شىء ، ولا لأى شخص

بأن يقف فى طريق ما كان ستالين يعتبره الطريق الوحيد الذى يمكن اتباعه لمواجهه الظروف السياسية السائدة خلال هذه السنوات • اما من دعوا الى الطريق الآخر فقد اعتبروا « أعداء للدولة » واذا لزم التخلى عن شيء فى مكان ما من البرنامج الاقتصادى ، لكى يمكن تنفيذ الخطة التى يتوقف عليها استقلال البلاد وحياتها ، فلابد من التخلى عن هذا الشيء • وكان معنى هذا بوجه عام خفض انتاج السلع الاستهلاكية والخدمات ، فيما عدا التعليم والصحه العامه ، اللذين لابد منهما لامداد البلاد بالعمال المتعلمين والمدربين والقادرين ، الذين لا غنى عنهم فى تقدم الصناعة والثقافة •

وعلى رأس عملية التخطيط لجنة التخطيط الحكومية ،ولم يقتصر عملها على رسم الخطط الخمسية ، بل كانت ترسم أيضا خططا سنوية وخططا أكثر تفصيلا تعد على ضوء التقدم فى تنفيذ الخطة الشاملة • ومنذ انشاء الجوسبلان أخذت تنشيء لها بالتدريج جهازا فنيا ، لا فى العاصمة بل وللتقسيمات الفرعيه الجغرافية ولصناعات مستقلة وفروع من الانتاج • كذلك أنشأت جهازا للادارة على رأسه ادارة احصائية مركزية لتقديم الوسائل الضرورية لرسم الخطة ومتابعة تنفيذها ، وبمضى الزمن صارت كل صناعة ومنطقة جغرافية وحتى اصغر الوحدات الجغرافية ، لديهـا جهازها التخطيطى • وبعض هذه الأجهزة تابع للجنة التخطيط المركزية ، وبعضها يتبع احدى الوزارات الكثيرة ، وبعضها الآخر جزء من جهاز الحزب •

وتوضع الخطط القومية عن طريق عملية مستمرة من التفاهم والتفاوض بين السلطات العليا والدنيا ، فالذين يوجدون فى المستويات الدنيا يعلقون على الاهداف التى تقترحها السلطات العليا ، ويقترحون بدائل لها • ويبذل كل جهد لتشجيع الوحدات الدنيا على التقدم باقتراح تحقيق أهداف عليا غير هذه التى كانت مقترحة أصلا وبمجرد ان تتخذ السلطة العليا القرار النهائى فانه يصبح الهدف الذى يجب أن يتوخاه الجميع • وتكتب التقارير الكثيرة عن الانجازات فى كافة المستويات من أدناها الى أعلاها حتى تصل الادارة الاحصائية ، وتهدف هذه التقارير الى تقديم تسجيل مستمر لسير العمل ، بحيث يصير من الممكن اكتشاف الصعوبات المستقبلة وتفاديها • وفيما يتعلق بالصناعات التى تثير المشاكل فان تفاصيل الخطط الخاصة بها تراجع أحيانا من شهر الى شهر ، أو على فترات أقصر لكى يمكن الاستعداد لمواجهة الطوارىء قبل وقوعها •

(هـ) التنظيم والادارة :

الهيكل الادارى الذى يدير مختلف قطاعات الاقتصاد بما يتفق والخطة يتألف من وزراء فى قمته ، ومشروعات فى أسفله . وبعض المشروعات الكبرى تكون مسئولة مباشرة أمام احدى الوزارات • وكثير منها تتجمع فى وحدات كبيرة هى أيضا بدورها مسئولة أمام احدى الوزارات • وكان عدد الوزارات ومدى نشاطها يختلف من وقت الى آخر مع تتابع تغير السياسة بين تركيز العمل فى عدد قليل من الوزارات ، وتوزيعه على وحدات أكثر تخصصا • وفى ظل الوزارات المركزية تدار الصناعات الثقيلة الكبرى على أساس قومى ، بدون النظر الى الأقسام الادارية للبلاد، بينما صناعات أخرى مثل صناعة مواد البناء وصناعة القطن أو الخشب أو الورق ، تدار عن طريق وزراء الجمهوريات الاتحادية • وتكون المسئولية المباشرة الكبرى على وزارات الجمهوريات ، كل فى حدود اختصاصها ، وتقوم بالتنسيق بينها الوزارة المركزية المختصة • وفى سنة ١٩٥٧ تقرر اتباع نظام اللامركزية بشأن نسبة أكبر من المسئولية التى كانت تتحملها الوزارات المركزية ، فصارت تتحملها الوكالات الخاصة بالوحدات الاقليمية ـ المجالس المحلية للاقتصاد القومى •

وأدمج صرح الادارة الاقتصادية فى الادارة العامة للدولة • ففى أعلى المستويات نجد أن مجلس الوزراء والبريسيديوم يوجهان الاقتصاد وكل ما عداه من أنشطة الدولة• وفيمايتعلق بصناعات جمهوريات الاتحاد فان وزارات عديد من الجمهوريات تعمل بالاشتراك مع الوزارة المركزية المختصة وتتحمل المسئولية داخل جمهوريتها • وخلال كل مستويات الاقتصاد ، كما فى كل نواحى الحياة السوفييتية يعمل الحزب الشيوعى كرأس حربة فى التنظيم والقيادة • وهو دائما على أهبة الاستعداد لتحقيق الأهداف • وفى مركز السلطة نجد البريسيديوم التابع للجنة المركزية للحزب الشيوعى ومؤتمرات الحزب تحدد الأهداف أو تقبلها • وأجهزة الحزب من أعلاها فنازلا الى المصنع واتحاد العمال كلها مسئولة عن المراقبة والتشجيع على تنفيذ الخطط •

فأجهزة الدولة والحزب فى كل المستويات تعمل كأجهزة مراقبة ، تتبع آثار التطور ، وتمسك بزمام من يتخلف عن أداء مسئوليته وتقوم لجنة التخطيط المركزية عن طريق ممثليها فى طول البلاد وعرضها بالمراقبة المستمرة ، كما تقوم وزارة المالية عن طريق بنك الدولة وعن طريق جباة الضرائب بمراجعة النواحى المالية • ويقوم الحزب الشيوعى عن طريق

اقسام الانتاج به ، وهى تابعة مباشرة للجنة المركزية للحزب وعن طريق وحدات الحزب فى كل المستويات حتى الخلايا التى بالمصانع ، يقوم بأبحاث خاصة أو يسجل باستمرار جوانب النجاح والفشل فى تحقيق المستويات المقررة للانتاج ٠

وكانت الوظيفة الرئيسـيـة لنقابات العمال بعد عام ١٩٣٠ هى المساعدة على تحقيق أهداف الانتاج ٠ وخلال العشرينات اختلف الرأى حول الوظيفة الحقة لنقابات العمال ٠ فكان ليون تروتسكى يصر على أنها سلاح الدولة البروليتارية لتحقيق الأهداف الاقتصادية العامة ، بينما ميخائيل طومسكى رئيس نقابات العمال يعتقد أن وظيفتها تمثيل العمال فى مواجهة الدولة ، التى تمثـل صاحب العمـل ٠ وقد أطلق لينين على نقابات العمال اسم (مدرسة الحكومة ، مدرسة الشيوعية) ولكنه أصر على ألا تتولى وظائف مباشرة من وظائف الدولة ٠ وفى عام ١٩٣٠ أعلن رسميا فى المؤتمر السادس عشر للحزب الشيوعى أن فكرة طومسكى هى تشويه لفكرة نقابات العمال ، وأنها تصلح لعلاقات العامل بصاحب العمل فى ظل النظام الرأسمالى ولا تنطبق على ظروف المجتمع الشيوعى ، وصارت الاتحادات مسئولة عن حفز اعضائها على تحقيق أهداف الانتاج ، وتنظيم فرق للمفجأة وغير ذلك من وسائل حفز العامل على بذل أقصى جهد ، وعلى النظام واكتساب الكفاية والاتســاق مع سياسة الحزب وبرنامجه ، والوزارات واتحاد الشركات والمشروعات كلها بالضرورة بيروقراطيات ضخمة ومعقدة . وتشبه المشروعات الكبرى واتحادات الشركات فى حجمها وتعقيد بنائها أكبر الشركات الامريكية أو الأوروبية والوزارات المسئولة عن مجموعات من اتحادات الشركات والمشروعات وهى بطبيعة الحال أكبر من هذا بكثير. لهذا فان المشكلات العاجلة والمستمرة للتنظيم الاقتصادى هى المشاكل الكامنة فى طبيعة بناء كل البيروقراطيات ووظائفها .

وفى داخل الاطار العام للتخطيط والادارة يكون لكل مشروع وضع وكيان شبه مستقل ٠ ومع أن المشروع وحدة حكومية ، فانه يعمل بمقتضى ميثاق منفصل ، وهو لا يكاد يختلف فى هذا عن الشركات الحكومية فى البلاد غير الشيوعية ٠ وتهدف عمليـاته الى تحقيق الربح الذى تتطلبه الخطة ، ولا يستثنى من هـذا الا اذا كان مشروعا جوهريا ، أريد له فى الخطة أن يعمل بخســارة وبمعونة حكومية ٠ وحساب المشروع فى بنك الدولة ، يتكون من كل الأرصدة التى اعتمدت له فى الخطة ورصيد دائر للعمليـات الجارية ، وهـذه وسيلة فنية للتسـجيل والحساب الماليين ٠

والعلاقات بين المشروعات تجرى كما لو كانت بين مشترين وبائعين مستقلين ، وذلك فى نطاق الحدود المادية التى يقررها تخصيص المواد والأهداف والأجور والأسعار ومعدل الضرائب على الدخل الذى تحدده الهيئات المشرفة عليه • ويطلب من كل مشروع أن يحقق توازنا ماليا وماديا ، وأن يحقق أهدافه الانتاجية فى نطاق اطار تحدده الأسعار والأجور الثابتة ، والبرنامج المادى للمشروعات المتصلة به •

وحتى أواسط الخمسينات كانت الأدوات الكبرى للتخطيط هى الأهداف المادية والحصص ؛ وكانت تستخدم التعديلات بين الأسعار لتسهيل تحقيق هذه الأهداف المادية ولكنها لم تكن فى ذاتها الوسائل الرئيسية لتحديد حجم الانتاج • وأسعار الجملة التى يعمل بها بين المشروعات تتحدد بواسطة مستوى مفروض فيه تشجيع انتاج السلع المطلوبة وممارسة الضغط على مديرى المشروعات لتقليل النفقات • وهى تعتمد على التكلفة التى تعتبرها وكالة التخطيط معقولة ، أو متوسطة ، أو ممكنة بالنسبة للصناعة كلها يضاف الى هذا الربح المقدر بالخطة • وأحيانا تحدد الأسعار بالنسبة للقطاعات الاقليمية لصناعة من الصناعات حيث قد تتفاوت التكلفة كما يحدث مثلا بين الفحم الغالى النفقة والفحم القليل النفقة ، أو كما يحدث فى المناطق المنتجة للبترول ـ ويمارس ضغط على مديرى المشروعات التى تزيد تكلفتها عما قدره المخططون ليخفضوا من تكاليفهم •

وتحدد أسعار بعض المنتجات بحيث تقل عن قيمة التكلفة المعقولة تشجيعا لصناعات أخرى يلزمها هذا الانتاج كمادة خام ، ومن أمثلة ذلك انخفاض الأسعار المحددة للمعادن وغيرها من المواد اللازمة لصناعة الآلات فى بداية الثلاثينات ، وتخفيض سعر مواد البناء لتنخفض تكلفة التشييد سنة ١٩٥٠ • وحيثما تخفض الأسعار لصالح صناعات أخرى فان الخسائر تعوض من المعونة الحكومية وحين أجريت مراجعة عامة لكثير من أسعار المصنوعات ومعدلات أجور الشحن سنة ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ كانت المبادىء التى أعلنت كأساس للأسعار الجديدة هى تمكين المشروعات عمليا من أن تعمل وتربح طبقا لخطة مرسومة واجتناب الحاجة الى المعونات ، وتشجيع انتاج المواد الضرورية التى تحقق عجزا فى ميزانيتها ، وفى الوقت نفسه تحديد مدى استهلاكها فى الانتاج والاستغناء بقدر الامكان عما لا لزوم له من وسائل النقل وتشجيع النقل المائى وتمكين القطارات من أن تعمل بلا خسائر •

(و) ـ تكوين راس المال :

كان هدف النظام السوفيتى منذ البداية أن يكون اقتصادا مكتفيا بذاته ، مستقلا عن العالم الرأسمالى . وقد هيأت الأراضى الروسية الشاسعة بمواردها الطبيعية الغنية الأساس المادى لمثل هذا التطور ، فمنحت أولوية كبرى فى الحال للكشوف الجولوجية والتنقيب بحثا عن الثروة المعدنية التى يمكن أن يقوم عليها التطور الصناعى الكبير . ولكن الى أن تنشأ الصناعة الروسية الثقيلة كان لا بد من كثير من المعدات الأجنبية للاسراع فى استغلال هذه الموارد وارساء الأساس للنمو الذاتى . وكان التطور البالغ السرعة الذى تم فى أواخر العشرينات والثلاثينات قد وجد عونا ضخما له فى استخدام المهمات والتقنيات المستخدمة فى الخارج .

ولكن راس المال المتاح لتمويل استيراد آلات التعدين والمولدات الكهربائية وغيرها من المعدات كان صغيرا ، مع أن بعض الشركات الأجنبية نالت فى العشرينات امتيازات لادارة شركات تعدين أو صناعة . ولم يكن لدولة شيوعية تستهدف القضاء على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، أن تجتذب كثيرا من الاستثمارات الأجنبية الواسعة حتى لو أرادت . وقد عاونت بعض القروض الأجنبية ـ الى حد ضئيل ـ على تمويل استيراد الآلات ولكن هذه الديون كانت قد تمت تصفيتها عام ١٩٣٨ . وكانت معظم الواردات تشترى في مقابل أهم منتجات الدولة المتاحة للتصدير وهى الحبوب وفى أوائل الثلاثينات أخذت الحبوب تصدر أيضا ، حتى فى المناطق المصابة بالمجاعة ، وذلك لشراء أعداد كبيرة من الجرارات لارساء أساس الزراعة المجمعة ، ولتحل محل الخيول التى ذبحها الفلاحون احتجاجا على التجميع الزراعى

ونظرا لعدم وجود موارد أجنبية اعتمد فى تدبير رأس المال اللازم للتوسع الصناعى على الشعب الروسى فى شكل قيود على الاستهلاك . وكان المصدر الأكبر ضريبة دورة رأس المال التى كانت تفرض على كل السلع عند انتقالها من يد الى يد . وكانت هذه الضريبة توفر نحو ثلاثة أخماس مجموع دخل الدولة المخصص لتمويل كل من التنمية الاقتصادية والادارة الحكومية . وأكبر جزء منها ، وقد بلغ أكثر من ثلثيها سنة ١٩٣٩ ، قامت بدفعه الوزارات المسئولة عن الزراعة والأغذية ، أى أن معظمها أتى عموما من الفلاحين . وقد انعكست صورته فى الفرق الشاسع بين الأثمان المنخفضة التى تدفع للفلاحين نظير الحبوب ،

والأسعار المرتفعة التى يدفعها المستهلكون للحبوب فى المـدن . ومعظم الفرق كان يصرف على مواد استهلاكية أخرى . وفضلا عن ضريبة دورة رأس المال كان جزء من أرباح كل مشروع يخصص لصندوق الاستثمار الحكومى . فحوالى ١٠٪ من ميزانية الدولة كان يأتى من هذا المصدر . وكانت مبالغ اضافية تأتى من القروض الحكومية والضرائب المباشرة المفروضة على السكان . وهذه الضرائب والقروض قدمت رأس المال الذى استخدم فى التوسع الصناعى .

وقد أدى تركيز الاهتمام على تكوين رأس المال وانشاء الصـناعة الثقيلة وبناء قوة عسكرية كبيرة الى فرض قيود مادية على كمية السلع المتاحة للاستهلاك . فمثلا ظل الاسكان فى المدن تنقصه جدا مواد البناء خلال هذه السنوات الأربعين كما أن بعض السلع الاستهلاكية الأخرى لم تحقق الأهداف المخططةلها فى الانتاج بسبب تأخر دورها فى قائمـة الأولويات . ولقد أدت القيود المفروضة على الاستهلاك الى تقديم طريقة عملية للحصول على رأس المال المطلوب للتوسع ، لأنها كانت مصحوبة بحوافز فعالة ومراقبة ناجعة .

(ز) ـ الحوافز :

كانت الحوافز التى اعتمد عليها لادارة الاقتصاد السوفيتى مزيجا من الثواب والعقاب ، حوافز ايجابية مادية وغير مادية ، ورقابات مباشرة وقد استغل التأثير الكامل لأدوات الدعاية فى الدولة لاضفاء المكانة الرفيعة والرضى والاعتراف بالفضل لمن تجاوزوا حـدود الواجب فى انجـاز ما عهد به اليهم ، أو من أظهروا تعاونا فى تحقيق الأهداف الاقتصادية . فالملصقات وجرائد الحائط وشعارات الاذاعة ونداءاتها تحث العاملين على العمل . كما تتيح التقارير الملصقة فرصة الموازنة والتنافس فيمـا بينهم . كما أن عرفان الفضل على المستوى العام والتعبير عنه بطريق الجوائز وشهادات الثناء ، وكذلك المواقف الأساسية التى صمم النظام التربوى كله على هديها كل هذا يثير الحوافز لبذل النوع المطلوب من الجهد اللازم للاحتفاظ بالاقتصاد فى حالة نشاط ونمو .

وثمة جوائز أخرى ملموسة على نحو أوضح بالنسبة للمديرين ، هى ترقيتهم فى السلم الوظيفى ، ومنحهم امتيازات الوظيفة الجديدة مثل المسكن المريح أو السيارات ، وذلك في مجتمع لا تزال فيههذه الأمور نادرة . أما بالنسبة للعمال فتتمثل هذه الحوافز فى منحهم مكافآت على

أساس نسبة من انتاجهم الزائد ، وغير ذلك من المكافآت التشجيعية لحفز هممهم على بذل مزيد من الجهد ، وعلى التماس مزيد من التدريب يؤهلهم لمناصب ذات أجور أعلى .

وتحتفظ الادارة برصيد يتكون من نسبة صغيرة من الأرباح المحددة بالخطة ونسبة أكبر من الأرباح الزائدة على الأرباح الواردة بالخطة ، وتستخدم هذه الأرصدة للتوسع فى حجم المشروع وانشاء مساكن للعمال، وصرف مكافآت خاصة تقديرا للعمال البارزين فى عملية الانتاج وقد أدت زيادة الأجور ورفع المستوى الأدبى لمن يزيدون بالانتاج عن معدله الى زيادة انتاجية العمال .

ويقابل الحوافز الايجابية التى لعبت الدور الرئيسى فى زيادة انتاجية العمال ، نظام العقوبات ــ النقل الى وظيفة أقل ، أو الى مكان غير مرغوب فيه ، أو عقوبات أشد لمن يعتبر فشلهم نوعا من التخريب ، ويطبق هذا على العمال المهملين الذين يخالفون الأوامر والقرارات الصادرة عن أجهزة الدولة . والمفروض أن الذى يكتشف هذا هو شرطة الأمن التى يقع عليها أيضا واجب اكتشاف كل الصور الأخرى للاشتباه فى الولاء ، أو عدم تأييد أهداف الدولة وغاياتها . وتأخذ القيود المباشرة شكل تقييد حق العمال فى ترك أعمالهم اذ لابد من استئذان مدير المشروع (وسرى ذلك من ١٩٤٠ الى ١٩٥٦) . ورصدت نسبة كبيرة من الشباب فى كشوف احتياطى العمل الذى تقرر عام ١٩٤٠ . وهم يدربون تدريبا فنيا ، وتحدد لهم صناعات وأعمال متخصصة . أما الخريجون الآخرون فى المدارس الفنية وغيرها فيلحقون بالأعمال التى تحتاج اليهم دون اهتمام كبير بالجهة التى يريدون أن يعملوا بها . وآخيرا فان من يقاومون الحكومة كانوا يشكلون موردا من موارد السخرة للأعمال الكريهة فى المناطق النائية أو فى ظروف بالغة القسوة .

وفى المواقف الصعبة قد يؤدى استخدام الحوافز الى سلوك يعوق أحيانا تقدم الاقتصاد ولا يشجعه . فبعض المديرين الذين يشعرون بضغط العمل أكثر مما يجب ويخافون مغبة فشل فى تحقيق ما يعتبرونه اهدافا غير واقعية ، قد يلجئون الى حماية أنفسهم عن طريق الاحتفاظ بالمواد أو العمال وغير ذلك من الوسائل غير المجدية التى يحاولون بها حماية أنفسهم من مغبة العجز عن انجاز نصيبهم فى الانتاج. وحيث تكون بعض منتجات المشروعات أكثر ربحا من غيرها فان هذا قد يغرى المديرين بالاستزادة من هذا النوع من المنتجات ، وأن كانت

متطلبات الاقتصاد قد تقضى برفع نسبة الانتاج من المنتجات الأقل ربحا . وهناك اغراء بخفض مستوى الجودة وبخاصة فى السلع الاستهلاكية التى يأتى دورها متأخرا فى قائمة الأولويات ، وكثيرا ما كان يصعب توفير المواد اللازمة لها ، وقد ناقشت الصحف أمثلة لهذه التصرفات من حين الى حين . ولكن ما أكثر الشواهد التى تدل على أنه فى القطاع الصناعى كان لاستثارة الحوافز الايجابية أثرها الناجح فى التوحيد بين جهود غالبية الناس ، وبين متطلبات التنمية الاقتصادية السريعة .

أما فى قطاع الزراعة فقد كانت الاستجابة أقل مدعاة للرضاء . فقد زادت الانتاجية الزراعية بحيث صار من الممكن تجنيد عدد كبير من سكان المناطق الريفية ليكونوا قوة عاملة ضخمة لتحقيق التوسع الصناعى . ومع ذلك فحتى منتصف خمسينيات هذا القرن لم يزد التوسع في الانتاج الزراعى بالنسبة لمستواه سنة ١٩١٣ على معدل الزيادة فى عدد السكان الا قليلا . فقد أصيب الانتاج الزراعى وبخاصة تربية الحيوان ، بنكسات قاسية خلال الحروب ، وفترة التحول الى الزراعة الجماعية ـ وكان من أشق المشكلات التى واجهت تنظيم الاقتصاد السوفيتى ـ مشكلة توجيه عدة آلاف من الوحدات المبعثرة والاشراف عليها ، حتى ولو كانت نظمت كمزارع جماعية ، ومشكلة توفير الحوافز اللازمة ، وادماج الزراعة كلها بباقى جوانب الاقتصاد .

وقد استخدمت وسائل شتى من آن لآخر لمواجهة هذا الموقف : فسمح للفلاحين بأن يزرعوا لحسابهم مساحات خاصة بهم ، بالاضافة الى اشتراكهم فى عمليات المزرعة الجماعية . واختير عمال من المدينة فأرسلوا الى المزارع الجماعية ليساعدوا بهمتهم وحماستهم على تحقيق أهدافها وبذلت جهود علمية كبرى للتوسع فى الانتاج . وابتكر العلماء أنواعا من الحبوب يركز زرعها فى المناطق الباردة ، ويستغرق نموها فترة أقصر . واستخدم التلقيح الصناعى على نطاق واسع لتحسين مستوى الانتاج الحيوانى ، وزرعت مصدات الريح من الأشجار لحماية المزارع بمناطق الاستبس من الرياح الحارة الجافة . وبدىء فى تنفيذ مشروعات طموحه لرى المناطق الصحراوية أو لتوسيع مناطق الرعى بامدادها بالماء اللازم للقطعان .

وبرغم هذه المجهودات فان احصائيات الانتاج التى عرفت بعد موت ستالين كشفت عن عجز القطاع الزراعى باستمرار عن أن يتقدم . ثم

بذلت جهود جديدة لرفع الانتاج الزراعى بمنح مكافآت أفضل ، وفرض مسئوليات أكبر على الفلاحين الجماعيين ، وبادخال برنامج واسع لاستزراع الأراضى البكر فى الشرق . وكل هذه الاجراءات كانت تستهدف التغلب على العقبات التى تتمثل فى مناخ روسيا غير الملائم ، كما تستهدف رفع حجم الانتاج الزراعى وكفاءته بحيث يستطيع أن يوفر مستوى أعلى من المعيشة لشعب الاتحاد السوفيتى ، ويظل قادرا على امداد القطاع الصناعى فى الاقتصاد وهو قطاع يزداد نموا باستمرار ، بما يحتاج اليه من العمال .

ان الاقتصاد المركزى الذى انشاه الاتحاد السوفيتى قد أوضح قوته ومرونته بنموه الصناعى السريع ، وقدرته على استعادة قوته بعد الخسائر الفادحة أثناء الحرب العالمية الثانية . غير أن التوازن فى الاقتصاد كان يختلف اختلافا ملحوظا عن هذا التوازن الذى امتازت به بلاد أخرى دخلت فى دور التصنيع ، بما فى ذلك الاقتصاد الصناعى المعقد فى اليابان . لقد وجهت الموارد الكبرى الى الصناعة الثقيلة والمهمات العسكرية وأدى ذلك الى انفاق نسبة من النشاط الاقتصادى فى هذه القطاعات أكبر بكثير مما يخصص للقطاعات المنتجة للسلع الاستهلاكية ، كما ترتب على ذلك أن المستوى فى الاستهلاك العام فى مختلف الجوانب أكثر انخفاضا منه فى البلاد التى تتساوى مع الاتحاد السوفيتى فى مستوى الدخول بالنسبة للفرد وأن كانت موارد كبيرة قد خصصت للخدمات الاجتماعية التى تكمل الاستهلاك الفردى .

غير أن هذا النظام قدم أساسا عريضا قويا للتوسع بكل أنواعه ، كما ثبت ذلك فى أواخر الخمسينيات ، حين أعلن الاتحاد السوفيتى عن عزمه على أن يتفوق على الاقتصاديات الرأسمالية المتقدمة فى انتاج السلع الاستهلاكية . فزيد من المنتجات الغذائية وغيرها كثير من السلع الاستهلاكية ، وارتفعت الأجور والمعاشات بما يعين العمال على الانتفاع بهذه السلع المتاحة . وفى الوقت نفسه توسع الاتحاد السوفيتى فى صادراته من السلع الرأسمالية الى أوروبا الشرقية والصين والبلاد النامية فى آسيا وأفريقيا .

وباستثناء يوغوسلافيا التى اتبعت طريقها الخاص فى التجربة الاشتراكية ، كان البناء الاقتصادى السوفيتى هو النموذج الاقتصادى المحتذى فى دول شرق أوروبا بعد عام ١٩٤٥ . وكانت التجربة السوفيتية هادية لهذه البلاد فى كثير من انشطتها الاقتصادية (١٤) فخلال فترة قصيرة

نسبيا ، وبغير حاجة كبيرة الى التجربة كما كانت الحال فى الاقتصاد السوفيتى خلال العشرينيات ، سرعان ما قامت هذه البلاد بتأميم صناعاتها وتضييق نطاق التجارة الخاصة والصناعات الحرفية حتى وصلت بها الى نسبة لا تذكر من اقتصادها الكامل . وتقررت الزراعة الجماعية هدفا من الأهداف ، وتحددت طبيعة النقابات العمالية ووظائفها على نحو شبيه بما هو متبع فى الاتحاد السوفيتى . وأدخلت الأساليب الفنية للتخطيط بما أدخل عليها من التحسينات التى تمخضت عنها خبرة الاتحاد السوفيتى .

وعلى العكس من الاتحاد السوفيتى كانت بلاد شرق أوروبا هذه لا تسير على نظام الاكتفاء الذاتى ، كما كان الاقتصاد السوفيتى يسير الى حد كبير جدا منذ البداية ، ولكنها كانت ترتبط فيما بينها بعلاقات كما كانت ترتبط باقتصاد الاتحاد السوفيتى . أما البلاد التى كانت من أراضى الأعداء خلال الحرب العالمية الثانية — ألمانيا الشرقية والمجر ورومانيا والى حد أقل بلغاريا — فقد دفعت تعويضات باهظة في السنوات التى تلت الحرب على نحو ساعد فى اعادة بناء اقتصاد الاتحاد السوفيتى ، وأدى الى تعديل الطاقة الانتاجية لهذه البلاد نفسها . كذلك استولت الحكومة السوفيتية على الموجودات الألمانية فى هذه البلاد وادارت الوحدات الاقتصادية التى تتمثل فى هذه الموجودات . هذه المشروعات مضافا اليها عقود المعونة الفنية ، والاتفاقات بين الوكالات ، وعدد متزايد من المشروعات المشتركة التى أصبح الاتحاد السوفيتى يمتلك جزءا منها — كل هذا — ربط بين اقتصاديات دول شرق أوروبا والاتحاد السوفيتى ومهد سبيل التخطيط المشترك فى ميادين بعينها بفضل هيئات مثل منظمة تعاون السكك الحديدية . وصارت الصادرات والواردات تحكمها مجموعة من الاتفاقيات التجارية بين كل من هذه البلاد والاتحاد السوفيتى ، وفيما بينها ، وخاصة بولندا وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية ، التى كانت فيما مضى تتاجر على نطاق واسع مع أوروبا الغربية .

وفى نفس الوقت أنشأ كل بلد خطة قومية تتوخى تحقيق درجة عالية من الاكتفاء الذاتى . وهكذا نرى أنه خلال السنوات العشر الأولى من وجود هذه البلاد كدول شيوعية ، ظهر اتجاهان ، أحدهما توسيع اقتصاد كل بلد كوحدة ، والآخر تطوير المنطقة الشيوعية المشتركة التى تتألف من روسيا وشرق أوروبا كوحدة ترتبط فيما بينها بكثير من العلاقات المتبادلة ١٥ — ١٦ .

ولقد تطور الاقتصاد اليوغوسلافى بعد الانفصال الذى تم عام ١٩٤٨ بين يوغوسلافيا والاتحاد السوفيتى على أسس تختلف عما أشرنا اليه تمام الاختلاف · وخرج الاقتصاد اليوغوسلافى عن الهيكل الاقتصادى المتداخل لاقتصاديات الاتحاد السوفيتى وجاراتها من شرق أوروبا · لقد كان اليوغوسلاف مقتنعين أن الصوره التى أرتضوها لانفسهم صورة (اشتراكية) حقه فاقاموا نظامهم الاقتصادى على اساس ملكية الشعب لوسائل الانتاج وأن تكون الادارة بيد من يعملون مباشرة فى كل مشروع انتاجى .

ولم تسر يوغوسلافيا على أساس التخطيط المركزى للعمليات ، فهى لم تستخدم التخطيط المركزى الا فى تخصيص اعتمادات الاستثمار الكبرى بين الحكومة المركزية وحكومات الجمهوريات التابعة لها ، والصندوق المشترك لتمويل المشروعات المستقله ووضع قوائم بأولويات عامة وارشادات لاستخدام هذه الأموال ، وادارة هذه القطاعات الاقتصادية مثل النقل والمرافق التى كانت تابعة للادارة المركزية الحكومية . وظلت الادارة المباشرة المهيمنه على المشروعات ، التى تتنافس فى الأسواق المحلية والدولية على نحو شبيه جدا بما يجرى فى الشركات الرأسمالية ـ ظلت فى أيدى مجالس العمال التى تتمتع بسلطات شبيهه بسلطات مجالس ادارة الشركات الرأسمالية ، فلها الهيمنة على الانتاج والأسعار والقروض والتصرف فى الأرباح التى تتبقى بعد تسديد الضرائب .

وهكذا نرى أن الاقتصاد الاشتراكى فى يوغوسلافيا يشبه الاقتصاد فى غيرها من ملكية المجتمع لوسائل الانتاج ، وفى قدر من التخطيط الاقتصادى · كما يشترك مع الاقتصاديات الرأسمالية فى وجود درجة عالية من المغامرة فى المشروعات والتنافس والفصل بين الملكية والادارة ، كما هو الشأن فى الشركات الرأسمالية الكبرى · وبهذا الوضع قد النظام اليوغوسلافى نظاما بديلا كان مثار اعجاب واهتمام بعض الدول النامية، وهى تبحث عن أشكال اقتصادية تناسب أوضاعها وحاجاتها .

٣ ـ اقتصاديات البلاد الآخذة حديثا بأسباب التنمية :

في السنوات التى اعقبت الحرب العالمية الثانية صارت التنمية الاقتصادية هدفا رئيسيا للدول التى خرجت من الحكم الاستعمارى أو شبه الاستعمارى · وصارت شطر كبير من تفكير الهيئات الدولية وأنشطتها

منصرفا الى مشكلات مساعدة الدول النامية فى محاولاتهـا أن تلحق بغيرها .

ولم يكن مفهوم التنمية الاقتصادية محددا كل التحديد ، ولكنه يستخدم فى سياق تقارير البنك الدولى للانشاء والتعمير فى زيادة الدخل القومى ، والدخل بالنسبة للفرد وزيادة الانتاج الصناعى والزراعى والطاقة الانتاجية ، وزيادة انتاجية العمال ورفع مستوى المعيشة للناس فى الحاضر والمستقبل وقد أتبعت اجراءات زيادة التنمية الاقتصادية حين اقتنع الناس والحكومات بأن الخطوات الايجابية البناءة يمكنها أن تسرع الخطى بحركة التنمية ، لأنها تخشى أنه بغير هذه الجهود فان مستوى المعيشة سوف يتدهور فى البلاد القليلة الحظ من الانتاجية ، والكبيرة الحظ من تزايد السكان .

١ ـ الاقتصاد المختلط فى الهند وغيرها من البلاد غير الشيوعية :

فى تنفيذ برامج التنمية الاقتصادية ابتكرت الدول خارج العالم الشيوعى ، أنواعا متنوعة من نظم الاقتصاد المختلط الذى يجمع بين أشكال مختلفة من المشروع الحر والتوجيــه المركزى ، وبين المبـادأة الخاصة والمسئولية العامة . والاقتصاد المختلط فى الهند الذى استفاد كثيرا من تفكير وتجارب كل من البلاد الرأسمالية والشيوعية ، انما قدم حقلا للتجارب جربت فيه وسائل تحقيق التنمية الاقتصادية بالطرق الديموقراطية .

ولقد ظل الاقتصاد الاستعمارى فى الهند لمدة مائة وخمسين عاما يتشكل طبقا لاحتياجات بريطانيا العظمى . ومعنى هذا تشجيع الأنشطة الاقتصادية التى تقدم المواد الخام للصناعة البريطانية مثل الجوت أو القطن أو النيلة التى تمد السوق البريطانية بمنتجات المناطق الحارة مثل الشاى. ومعنى هذا أن تدفق التجارة ونظام النقل والبناء التجارى والمالى انما تولى وجهها شطر الموانى البحرية . ومعنى هذا ادماج الاقتصـاد الهندى فى منطقة التجارة الحرة . وبذا تعرض لتأثيرات النظام الصناعى الأوروبى ، حين دخلت السلع المصنوعة بالآلات الى السوق الهندية .

فى هذه الظروف أصاب الهند دمار متعاقب للصناعات اليدوية التى كانت مزدهرة في يوم ما ، ذلك ان الواردات الأوربية حلت محل الصناعات المحلية التى كانت تلزم لاستهلاك الطبقة العليا فى المدن . بل ان الصناعات الريفية ذاتها أصيبت بالضرر حين حل الكيروسين

المستورد محل الزيوت التى يجرى عصرها محليا . ونافست المنتجات المعدنية المنتجات المصنوعة يدويا . وادى الغزل الآلى والأقمشة المصنوعة آليا الى اضرار بليغ بانتاج مغازل القرية ومناســـجها . بل أن بعض الصناعات الحديثة التى أنشأها الأوروبيون محليا قد دمرت بدورها ، ومثال ذلك الانتاج الواسع النطاق للنيله ... فقد انهار صرحه نتيجة لظهور الأصباغ الكيمائية فى أوروبا فى نهاية القرن التاسع عشر .

وعند استقلال الهند كان اقتصادها فى غالبيته العظمى اقتصادا زراعيا فحوالى ثلاثة أرباع القوة العاملة كانت تعمل فى الزراعة ، ونصف الدخل القومى كان يأتى من هذا المصدر . ولعل ثلث الأرض المزروعة كان فى اقطاعيات واسعة تزرع الحاصلات التجارية مثل القطن والجوت والشاى وجوز الهند . أما الباقى ومعظمه فى شكل ملكيات صغيرة ويزرع بطريق بدائية ، فكان يمد الفلاحين باسباب العيش وغالبا ما كان يبقيهم فى حالة من الجوع الدائم . وطوال عهد الحكم البريطانى كان هناك اتجاه لاحلال الحاصلات التجارية محل حاصلات الكفاف ، كلما أدى التقدم فى وسائل النقل الى امكان ارسال الحاصلات الى السوق ، ليستطيع الفلاحون مواجهة ما عليهم من ضرائب أو ايجارات .

وكان الانتاج من الحاصلات الغذائية منخفضا بوجه عام ، فهو أقل من نصف المحصول فى اليابان وفيما يتعلق بالطعام الرئيسى وهو الأرز بلغ ما دون الثلث . وكان هذا يرجع عموما الى طرق الزراعة أكثر مما يرجع الى ضعف التربة . ولكن عدم انتظام سقوط الأمطار خارج مناطق الرى كان يمثل خطرا كبيرا . فاذا لم تأت الرياح الموسمية بما ينتظر منها من الأمطار فالنتيجة التاريخية كانت دائما المجاعة . وقد وضع الانجليز نظاما للانقاذ من المجاعة ولكنه لم ينجح الا نجاحا جزئيا . لقد بلغ عدد الموتى الذين ذهبوا ضحية مجاعة البنغال سنة ١٩٤٣ مليون وخمسمائة الف نسمة وخلال الشطر الأخير من القرن التاسع عشر حدث توسع كبير فى مساحة الأرض المزروعة مما ساعد على موازنة بعض الآثار غير المواتية لتطورات اقتصادية أخرى . وفي القرن العشرين لم يحدث الا توسع قليل فى الأراضى الزراعية ، وظهر ميل الى تفتيت الأرض الى مساحات صغيرة جدا تعيش عليها الطبقات الدنيا من الريفيين الذين ليس لهم مصدر سواها .

كانت القرية الهندية الزراعيـــة مكتفية بذاتهـــا الى درجـــة كاملة تقريبا ، وكانت منعزلة لعدم وجود الطرق . وكان الحرفى القروى والمنبوذ

يؤديان الوظائف التى تتطلبها منهم القرية كالتزامات وراثية مقابل اطعامهم الذى يقدمه لهم اصحاب الأرض الذين يخدمونهم فلما اخذت السلع المصنوعة فى المصنع تتسرب تدريجيا الى القرية ، وتحول اصحاب الأرض الى المحصولات التجارية تقوضت أركان النظام الوراثى الذى يقوم على التبادل ، وان ظل فى المناطق النائية على نحو جزئى . كذلك كانت القرية تحكم نفسها بنفسها ولكن فى ظل الادارة البريطانية انهدم نظام الحكم الذاتى فى القرية . اذ أن وظائف القضاء وجباية الأموال التى كانت تقوم بها المجالس القروية قد انتقلت الى قضاة المديريات ورجال الادارة .

ومع أن الاقتصاد الهندى كان زراعيا فى طابعه الغالب ، فقد كان هناك تطور صناعى كبير ، وبخاصة فى نسج القطن والجوت ، وكان يعمل فيهما ثلاثة أرباع عمال المصانع . ومع أن سياسة التجارة الحرة كانت تميل الى أن تدفع بالاقتصاد الهندى نحو بيع المواد الخام لا الى الصناعة . ومع أن الضرائب على النسيج الهندى لمنع منافسته للنسيج البريطانى لم تلغ حتى عام ١٩٢٦ ، فان صناعة نسيج القطن تفوقت على نظيرتها فى بريطانيا اثناء الحرب العالمية الثانية ، ولم يعد يتفوق عليها الا صناعة النسيج فى الولايات المتحدة . لقد نشأت الصناعة أول الأمر بواسطة الشركات البريطانية ، ولكنها اتسعت بفضل الأموال الهندية منذ سبعينيات القرن الماضى . وفى وقت الاستقلال كانت معظم مصانع النسيج فى أيد هندية وظلت صناعة الجوت التى تتألف من مصانع كبرى تستخدم ما يزيد على ٢٥٠٠ عامل فى المتوسط فى أيد أوروبية حتى أقيم أول مصنع نسيج لها فى الهند سنة ١٩٢١ . ولكن عندما حل وقت الاستقلال كان نصف المصانع تقريبا يملكها هنود . وكانت نواة صناعة الحديد والصلب موجودة تتمثل فى مصانع الصلب الكبرى التى أقيمت بأموال هندية من ١٩٠٧ وما بعدها معتمدة على موارد الهند الغنية من الحديد الخام والفحم غير أن التعدين وبخاصة استخراج الفحم ظل فى معظمه فى أيدى الشركات البريطانية .

وكان العمال يتألفون من جمهور قروى مستمد من أكثر من نصف مليون قرية حيث نسبة كبيرة من السكان فى حالة نصف بطالة ، بسبب صغر مساحة الأرض التى يملكونها ، أو تدهور مركز حرفهم . وكانت معظم الأعمال فى القرية او فى المدينة ترتبط بالطبقة أو الطائفة وكانت هذه الأعمال وراثية وذلك باستثناء الزراعة التى كانت تشترك فيها كل الطوائف والطبقات . أما أعمال المصنع والأعمال العامة فى المناطق المدنية

فكان يؤديها أفراد من مختلف الطبقات والطوائف ممن يلتمسون النجاة من فقر الريف ، فيلتحقون بالأعمال الصناعية وأعمال الخـدمات في المدينة . مثل هؤلاء العمال كانوا يتوافدون على المدينة بسرعة تفوق سرعة ظهور أعمال جديدة ، وتفوق بكثير سرعة انشاء مساكن جديدة . فأصبحت البطالة فى المدن مرضا مزمنا · كما كانت البطالة الجزئية سائدة فى الريف ، وبلغ عدد السكان المكدسين فى مدن الهند ملايين الأنفس · ومن بين أكداس السكان فى بمباى وجد الكثيرون لهم عملا ، مثل هؤلاء الذين كانوا يقيمون فى مخيمات على جوانب الطرق أو فوق الأرض الفضاء تحت أغطية بائسة من الصفيح أو الكرتون أو الخيش ولكن الكثيرين لم يكن لديهم عمل ولا مأوى . وبعد التقسيم زاد العدد بملايين من اللاجئين .

ولم تظهر زيادة كبيرة على عدد سكان الهند حتى حـوالى عام ١٩٢٠ . فارتفاع معدل المواليد كان يعوضه ارتفاع معدل الوفيات ، نتيجة المجاعات والأوبئه ، وقد بلغ عدد الوفيات عدة ملايين نتيجة المجاعة فى سبعينيات القرن الماضى ، ومن المجاعة والطاعون فى تسعينيات القرن الماضى ، ومن وباء الانفلونزا عام ١٩١٨ ، فأدى هذا الى ثبات عدد السكان كما كان فى منتصف القرن التاسع عشر . وهاجر كثير من عمال الزراعة الى مناطق أخرى داخل الامبراطورية البريطانية – الى فيجى والملايو وسيلان وبورما وافريقيا وجزر الهند الغربية – ولكن عددهم لم يكن كبيرا جدا · وبعـد عام ١٩٢٠ أمكن السـيطرة على الأوبئة والمجـاعات الكبرى ولم تعد الهجرة على مستوى واسع طريقا لاجتناب البطالة نظرا لتغير الوضع السياسى وأخذ السكان يتزايدون على نحو ثابت الى حد ما ، بنسبة سنوية تزيد قليلا على ١٪ ومع أن هذا لا يعتبر معدلا عاليا للزيادة الطبيعية بل هو يقل عن المعدل فى مناطق اخرى متخلفه اقتصاديا فى الربع الثانى من القرن العشرين ، فان زيادة حوالى ٤ مليون نسمة سنويا معناها تقديم عدد ضخم من الأنفس لا يستطيع الاقتصاد الهندى ان يستوعبه وفى السنوات العشر بعد الاستقلال زاد المعدل الى نحـو (٨ مليون) .

أما المواصلات فتقوم بها شبكة واسعة من الخطوط الحديدية التى لا تزيد عنها طولا غير الخطوط الحديدية في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وكندا ، ولها ورش تستطيع انتاج معظم قطع الغيار ووسائل الصيانة · وكانت الخطوط الحديدية فى أول أمرها قد انشأتها وادارتهـا شركات بريطانية خاصة يضمن لها الحكم البريطانى ارباحها . ثم أممت الخطوط الحـديدية وصارت تحت الادارة المباشرة للحكومة بعـد

العشرينيات . غير أن الخطوط الحديدية والطرق الرئيسية كانت تستهدف خدمة الأغراض العسكرية والتجارة الخارجية لا المواصلات الداخلية . ولهذا كانت تمتد الى الموانى والحدود أكثر من أن تقدم شبكة تغطى البلاد بأسرها . وكان الشحن الى الخارج وبحذاء الساحل يتم فى سفن بريطانية . الا ما نقل منه بالسفن الشراعية ، ولكن أنشىء أول مشروع هندى للشحن بعد ١٩٢١ .

وأخذت الصناعة الهندية يزداد اعتمادها على رءوس الأموال الهندية والادارة الهندية برغم الروابط الاقتصادية ببريطانيا . فانخفضت نسبة عمال المصانع فى المنشآت المملوكة للاوربيين من النصف الى الثلث ، وذلك فى المدة الواقعة بين ما قبل الحرب العالمية الأولى الى قيام الحرب العالمية الثانية . وفضلا عن ذلك لم تعد تجارة الهند مركزة على بريطانيا بل اخذ هذا التركيز يقل رويدا رويدا . فانخفضت نسبة واردات الهند من بريطانيا من ٨٠٪ فى سبعينيات القرن الماضى الى ٣١٪ غداة الحرب العالمية الثانية . وكان هذا يرجع جزئيا الى الحركة الوطنية الهندية ودعوتها الى مقاطعة السلع البريطانية . وقلت الصادرات الى بريطانيا من النصف الى ما دون الربع قبل عام ١٩٣٢ ومنذ هذا العام ارتفعت النسبة الى حد ما بفضل اتفاقية أوتاوا التى قضت بمنح الأفضلية لمنتجات الامبراطورية البريطانية ، والتى طبقت على الهند رغم معارضة الجمعية التشريعية الهندية .

وكان بنيان التنظيم الاقتصادى يتركب من أساس هندى ، وبناء علوى من النظم والتجارب البريطانية . أما الاساس الهندى فكان يقدمه البنياس أو طبقة التجار أو مجتمعات التجار مثل المارواري التى كانت تقوم بالتجارة والصيرفه والتسليف كمهنة متوارثة . وحتى زمن الاستقلال كانت المشروعات التجارية والصناعية الأساسية التى لا يمتلكها الأوروبيون فى أيدى طبقات هندوكية أو غيرها من المجوس غير الهندوكيين .

ولقد اتبعت النظم والأساليب البريطانية المتصلة بالتجارة والصناعة والبنوك بتعديل طفيف تستلزمه الظروف المحلية . وقد اتبع القانون المدنى والتجارى والاجراءات القانونية البريطانية بحذافيرها باستثناء قانون الأحوال الشخصية الخاص بالعلاقات الأسرية والمواريث ، فقد ظلت هذه تتبع العقائد الهندوكية والاسلامية . فعلى أساس الاجراءات القانونية البريطانية كان يتم الاعتراف بالملكية فيما يتعلق بالعقارات وبالممتلكات الملموسة وغير الملموسة ، وتبرم العقود ، وتحدد العلاقات بين الوكالات

واتحادات الشركات · ولقد فرض نظام الشركات ذات المسئولية المحدود على النموذج الهندى للمشروع العائلى ، وسارت الشركات الأوروبية فى الهند على نظام الشركات المساهمة ، ولم يقتصر الهنود على استثمار أموالهم فيها ، بل كونوا بأنفسهم شركات مساهمة ·

وتطورت العمليات المصرفية والرقابة على النقد تطورا طيبا وصارت التجارة الخارجية تمول تمويلا تاما تقريبا عن طريق بنوك مبادلة بريطانية الادارة · وكانت أربعة من البنوك الخمسة الكبرى التى كانت تقوم فيما بينها بنصف النشاط المصرفى تقريبا ، مؤسسات هندية وكان بنك الاحتياطى الذى أنشىء سنة ١٩٣٥ يمارس الرقابة على عمليات التسليف للبنوك الأعضاء وينظم انشاء بنوك جديدة ويفرض مستويات أمن مصرفية على المؤسسات الأعضاء ولقد مضت مدة تزيد على القرن لم تستعمل طوالها غير عملة واحدة فى الصفقات التجارية خلال الأقسام السياسية الكثيرة البلاد ·

ولذا أدت المبادىء المالية والنظام القانونى الذى ادخله البريطانيون الى تقوية طبقة التجار ومقرضى الأموال فى الهند وكانوا من قبل الحكم البريطانى يقومون بعمليات مالية معقدة وعلى نطاق واسع · وقد أدت عقود النفاذ التى تخول حق الاستحواذ على أملاك المدين للوفاء بدينه الى استحواذ مقرضى الأموال على الأراضى حين عجز الفلاحون عن فك رهنها. وقد كانت عقود النفاذ من العوامل التى أدت الى تفتيت وحدة الأسرة بأن مكنت الدائنين من أن يطالبوا بامتلاك جزء من العقار المشترك وفاء لدين عجز أحد أفراد الأسرة عن سداده ·

وثمة سمة فريدة من سمات البناء الاقتصادى الهندى هى نظام الوكالة الادارية ففى عصور ما قبل المواصلات السريعة وجدت الشركات البريطانية أنه من المستحيل عليها أن تدير مشروعاتها في الهند التى تبعد عن بريطانيا بمسافة طويلة · فعهدت بادارتها الى وكالات تدير الشركات للمالك وتحتجز لنفسها عمولة · وكانت هذه الوكالات الادارية فى أول الأمر شركات بريطانية · لكن فى خلال القرن العشرين تكونت شركات هندية كثيرة ، غالبا على أساس أسرى · وأخذت وكالات الادارة التى كانت غالبا ما تمثل عددا من المؤسسات على أساس دائم أو طويل الأمد ، اخذت تحقق ثروة ضخمة ونفوذا كبيرا وتقوم بالمباداة فى أعمال التوسع الاقتصادى ويقدم هذا النظام وسيلة نافعة للفصل بين وظائف الادارة وبين الملاك · ولكن هذه الوكالات قد تتحول الى مؤسسات ذات مصالح خاصة بها · وقد يتعارض نشاطها أحيانا مع مصالح المجتمع ·

وكانت سياسة الحكومة البريطانية في الهند ـ طبقا لمبادىء حرية التجارة ـ هى عدم التدخل فى الشئون الاقتصادية فيما يتجاوز الاحتفاظ بعمله مستقرة وغير ذلك من الشروط التى تؤدى الى ازدهار التجارة . ولم تعين لجنة مالية هندية الا فى سنة ١٩٢١ • فأوصت بسياسة الحماية لبعض الصناعات الهندية المختارة . وكان حوالى نصف دخل حكومة الهند يصرف على الجيش الهندى، الذى كان يعتبر الذراع الآسيوى للجيش البريطانى • ومع أن الهند كانت هى التى تتولى الانفاق على هذا الجيش . فقد استخدم خارج الحدود الهندية لا أقل من تسع عشرة مرة بين عامى ١٨٣٨ ، ١٩٢٠ . وكانت الأموال العامة تنفق على الجيش والادارة المدنية كما كانت تستخدم فى ادارة السكك الحديدية والرى وشبكة المواصلات وغابات الاخشاب الممتازة وبعض مشروعات توليد الكهرباء من المياة بعد عام ١٩٢١ وللانفاق على برامج محدودة للتعليم والصحة العامة ، وبخاصة فيما يتعلق بالمستويات العليا للتعليم فى مناطق المدن وبرامج القضاء على الأوبئه والمجاعات .

ولم تكد الهند تتأثر الا قليلا بما طرأ على الفكر الاقتصادى والسياسى من تغيير كما تأثرت بريطانيا نفسها فأدى الى انتقالها الى نظام دولة الرفاهية . غير أن زعماء الهند الذين تعلموا فى بريطانيا تأثروا بهذه الآراء وحاولوا تطبيقها على أمتهم الصاعدة . فهاجم المؤتمر الوطنى الهندى سياسة حرية التجارة ، ودعا الى اتخاذ وسائل ايجابية لتحقيق التطور الاقتصادى . وتأثرا باستخدام اسلوب التخطيط فى الاتحاد السوفييتى انشأ المؤتمر لجنة للتخطيط برياسة جواهر لال نهرو سنة ١٩٣٧ للانتفاع بهذا الأسلوب فى الاستعدادات التى تجرى لانشاء دولة الهند فى المستقبل .

وبعد الاستقلال واجهت الحكومة الهندية واجبا اقتصاديا مزدوجا: اعادة توجيه اقتصاد استعمارى بما يلائم الاحتياجات المحلية ، وانشاء اقتصاد أكثر انتاجية يرفع شعب الهند من حالة الفقر المدقع الى مستوى من المعيشة أقرب الى مستوى البلاد الغنية المتطورة • كان على الهند أن تواجه هذه المشاكل على المدى الطويل بينما كان عليها أن تواجه مشكلات الطوارىء الناجمة عن تقسيم البلاد وادماج الدول الهندية الكثيرة بعضها فى بعض ، وخطر المجاعة نتيجة للفيضانات والقحط خلال السنوات الأولى من الاستقلال .

ولقد قدم الدستور الهندى الاطار الديمقراطى الذى تجرى فى داخله عمليات التنمية الاقتصادية ، وحدد الأهداف الاقتصادية للدولة الهندية

(المادة ٣٩) : ــ كفالة حق المواطنين ، رجالا ونساء على السواء ، فى الحصول على موارد كافية للمعيشة ، وكفالة توزيع الملكية والسيطرة على الموارد المادية للمجتمع بحيث تخدم الصالح العام أكبر خدمة ممكنة ومنعا لتركز الثروة ووسائل الانتاج على نحو يضر بالصالح العام .

وهكذا أخذت الدولة مسئولية ايجابية عن تحقيق الرخاء الاقتصادى مفترضة أنها تستطيع حمل هذه المسئولية عن طريق الاجراءات الديموقراطية .

وبعد الاستقلال بثلاث سنوات أنشأت الحكومة لجنة للتخطيط مهمتها دراسة المشكلات العامة للتنمية الاقتصادية والبناء الدائم للاقتصاد الهندى وسارت اللجنة على طريقة تحديد الأهداف لوضع خطط خمسية متعاقبة ، كانت أولاها تغطى الفترة من ١٩٥١ ــ ١٩٥٦ والثانية ١٩٥٦ ــ ١٩٦١ وفى صياغة الخطط كانت تطبق المبادىء الديموقراطية فى حرية المناقشة المفتوحة ، تطبيقا كاملا فعرضت آراء اقتصادية مختلفة ، واقترحت أولويات بديلة وعبر الناس عن آراء تخالف الخطة فيما يتعلق بالوسائل التى تؤدى الى سرعة نمو الاقتصاد .

وفى أثناء هذه المناقشات حددت الأهداف بوضوح : زيادة الدخل الحقيقى للناس بسرعة تكفل الاحتفاظ باستقرار المجتمع ، ومواجهة مطالب الشعب ، وتحقيق ماسماه الزعماء (النموذج الاشتراكى للمجتمع) ومعناه تضييق الفوارق فى الثروة بين الطبقات ، وازالة مراكز النفوذ الخاصة ، أو عدم السماح لها بالنمو واستخدام جهاز الدولة للأغراض الاقتصادية التى تتلاءم مع نظام ديمقراطى ، وتحقيق تطور اقتصادى متوازن من شأنه أن يقلل من تعرض الاقتصاد للمؤثرات الخارجية ، وان كان هذا لا يعنى الانعزال عن الخارج وتوفير نفقات الدفاع بما يقتضيه الموقف السياسى ، مع افتراض أن هذه ستخف ضرورتها مع الزمن .

وكان لدى الهند موارد كبيرة من القوة المائية ، والمعادن ، والتربة، تكفى لاقتصاد متطور ، ولكن لم يستغل الا القليل من القوة المائية بينما كثير من الثروة المعدنية لم يكشف ، وكثير من التربة قد ضعف باستخدام الوسائل الزراعية المرهقة للتربة . أما مشاكل الهند الرئيسية فهى غير هذا كله : انها تكمن فى المواقف العامة ، والزعامة الاقتصادية ، والخبرة التكنولوجية .

ان الشرط الأول للتطور الاقتصادى هو الرغبة فى التغيير . وفى أيام ما قبل التأثير الغربى كان المجتمع الهندى ومجتمعات آسيا الأخرى

فى حالة ركود أساسى . كانت تتطلب دوام الحال لا تغييرها . وكانت الأسرة تنظيما استاتيكيا . قد يذهب أفرادها ويجيئون ، ولكن الأسرة ذاتها باقية وكان نظام الوراثة والعلاقات التقليدية تحدد مصير كل أسرة. وكانت الطقوس الدينية تتخلل أحداث الحياة فتبعث فيها شيئا من الراحة النفسية . بل أن مصلحى القرن التاسع عشر أنفسهم كانوا يؤكدون دائما انهم لا يطالبون بالتغيير ، وانما يطالبون بالعودة الى الحالة التى تخلى عنها المجتمع ، فضل سواء السبيل .

وخلال أيام الحكم البريطانى صارت فكرة التغيير جزءا من النظرة الى المستقبل ، وجزءا من فكر الطبقة الوسطى التى تلقت تعليما غربيا . غير ان هذا ظل مقصورا على « الصفوة » حتى إيقظ المهاتما غاندى كل الشعب بدعوته الى اعادة تطوير المجتمع الهندى ، والمقاومة للبريطانيين. ومع أن دعوته قد اوهنت من قبضه التقاليد ، وجعلت أهل القرى يتطلعون الى امكانيات جديدة ، فان التعبير الاقتصادى عنها قد صيغ على نحو يوحى بالعودة الى المغزل . وكان السؤال الأول الذى واجه القيادة الهندية بعد الاستقلال هو الى أى مدى يمكن تقبل دعوة التغيير على نطاق واسع فى القرية ، وتوجيه هذا التغيير الى المجهود الانتاجى .

واذا كانت القيادة نفسها مشبعة بمبدأ التغيير ومتحمسة للتطوير ، فانها كانت قليلة الحظ من الخبرة ، والتدريب والعادات التى كانت تميز الزعامة الاقتصادية فى الغرب . فقد كان تعليمها الغربى فى أغلبه أدبيا ونظريا اكثر منه فنيا . لقد أتت غالبيتهم العظمى من البراهمه وغيرهم من الطبقات العليا الذين كانوا يربأون بأنفسهم عن أن يشتغلوا فى جمع المال . وأن كانوا قد انغمسوا في أعمال الادارة . وهكذا كانت مشكلة ايجاد القيادة الاقتصادية اللازمة تتضمن تعديل المواقف التقليدية ازاء العمل الاقتصادى عند الطبقات العليا ، أو وضع تصميم معين لبناء اقتصادى يستخدم قدراتهم الادارية ، دون أن يتطلب منهم ايجاد حوافز لكسب الربح فى نفوسهم . والبديل لهذا هو الاستمرار فى الاعتماد أساسا على المجوس والمروارى وأعضاء طبقات التجار السابقة ، لكى يتقدموا فى شجاعة كافية لخلق الدافع القوى الذى لا غنى عنه للاقتصاد كله .

وقد أظهر نقص عدد الأفراد المدربين تدريبا فنيا كافيا أن البريطانيين اذ كانوا يشجعون صفوة الهنود على التعليم فى أعلى مستويات التعليم الأدبى والنظرى ، فقد قدموا التدريب الفنى على وجه خاص

للطبقات الأدنى فى السكك الحديدية ومشروعات الرى والخدمة المدنية والعسكرية ، بينما شغلت الوظائف الكبرى بالبريطانيين ـ واذا كانت الهند أحسن حالا من مناطق أخرى مثل بورما وسيلان ، حيث لم يكد يكون هناك وجود للتدريب الفنى بين السكان المحليين فان عدد الهنود المدربين كان أقل بكثير مما يتطلبه اقتصاد ناشىء ، لقد كان هناك علماء بارزون فى الرياضيات والفيزياء ، ولكن كان هناك أعداد محدودة من المهندسين المدربين ذوى الخبرة باستثناء ميدان الرى ٠

وفوق هذا أدى الاهتمام بالتعليم النظرى الى اضفاء المكانة والجلال على المثقفين النظريين ، دون أصحاب الأنشطة العملية ٠ وبذا تأكد الموقف التقليدى للطبقات الهندية العليا فى هذا الصدد . وكان هذا يمثل عائقا قويا فى طريق ايجاد الفنيين الذين لا يترددون فى أن تتطلخ أيديهم بأى شىء فى خلال تأديتهم لأعمالهم . وفى المجتمع الطبقى التقليدى بالهند ، لم تقتصر مشكله التعليم الفنى على تدريب عدد من الفنيين بل تعدت هذا الى تعديل فى سلم المكانات الاجتماعية ، يؤدى الى التغلب على السلبيات التقليدية ، التى لا تحترم غير العمل النظرى .

وقد قدمت الخطتان الخمسيتان الأولى والثانية خطوطا هادية للنشاط الحكومى ٠ فهما لم تحاولا تغطية الاقتصاد بأكمله ٠ ولما كانت الحكومة الهندية غير مسئولة الا عن ٨٪ من الدخل القومى ، مقابل ـ ٢٠٪ فى الولايات المتحدة ، وأكثر من هذا فى عدد من الدول الرأسمالية فى أوروبا ، فان برامج العمل الحكومى كانت بعيدة عن أن تكون خطة شاملة للنشاط الاقتصادى الهندى بأكمله . بل كانت برامج تبين كيف تستطيع الحكومة أن تستخدم تأثيرها لتحقيق الأهداف الاقتصادية وحفز النمو فى القطاعين الخاص والعام .

وكانت الحكومة تمارس تأثيرها بثلاث طرق رئيسية : ـ

العمليات التى تقوم بها بنفسها ، اذ تقدم الخدمات فى التعليم ، وانشاء المشروعات العامة مثل السدود التى تولد منها الكهرباء ، وادارة مشروعات مثل السكك الحديدية ، وتقوية بعض الصناعات الأساسية مثل بناء السفن وانتاج السماد ، وأدوات الماكينات ، والطاقة الذرية . وكذلك الأنشطة التى تهدف الى ترقية الشعب مثل استثارة جهود القرية ، واعادة الحياة الى المجالس القروية المسئولة ، من خلال برنامج تطوير اجتماعى أو تشجيع المنسوجات اليدوية بمنحها اعانة سعر خاصة، وتقديم أطار قانونى لنشاطات الأفراد عن طريق حماية الممتلكات ،

والتشريع العمالى ، أو قوانين مثل الغـــاء الطبقات ، والقيود المباشرة على النشاطات المسموح بها ، وذلك باشتراط الحصـــول على رخص للمنشآت أو المهمات وحظر بعض أنواع المصنوعات مثل المنسوجات التى قصرت على المناسج اليدوية ، أو الرقابة على العملة الأجنبية . أو القضاء على نفوذ كبار الملاك وكان هذا يتم غالبا باستخدام سلاح الضرائب أو باعادة توزيع الأرض اجباريا كما يحدث فى بعض الدول .

ويترك تنفيذ المقترحات التى تشـتمل عليهـا الخطط لتنفذها المصالح الحكومية المختصة والتى ينسق العمل فيما بينها مجلس الوزراء بزعامة رئيس الوزراء وهو مسئول أمام البرلمان الهندى . وهكذا أصبح التخطيط وسيلة من وسائل تنسيق وتركيز الجهود المختلفة للوكالات الحكومية والجهود الخاصة للأفراد ، أما عن طريق تنميتها وتنظيمهـا ، أو عن طريق تقديم أهداف تستطيع أن تتطلع اليها الوكالات الخاصـة والعامة ، وأن توجه اليها جهودها .

وقد ركزت الخطة الخمسية الأولى اهتمامها الأساسى على الزراعة، وهى أساس الاقتصاد الهندى ، فجعلت لها هدفين كبيرين مترابطين أولا : تنشيط القرى لتقوم بتطوير نفسها وتحسين التقنيات الزراعية ، حتى يوجد أساس اقتصادى أفضل للحياة القروية والقومية . ولقـد شمل برنامج تنمية المجتمع الواسع النطاق ١٢٥،٠٠٠ قرية خلال الخطة الخمسية الأولى . وثبت أنه قد زاد فى فاعليته عما كان متوقعا فى حفز أهل القرى على قبول التغيير : وبمجرد استثارة اهتمام القرى للتغيير فان مطالبتها بالمساعدات الفنية وغيرها لمشروعاتها الانمائية كادت تفوق قدرة الحكومة فى تقديم العون المطلوب .

وبفضل الرياح الموسمية المواتية أمكن لحملة تحسين زراعة الأرز أن تحقق زيادة كافية فى الانتاج الزراعى مما أدى الى التقليل من استيراد الأغذية ، وبذا أمكن توجيه العملة الأجنبية لشراء الصـــلب والمهمـات الصناعية .

كذلك اشتملت الخطة الخمسية الأولى على اجراءات زيادة انتـاج الأســمدة الكيمائية ، واستغلال مياة الفيضـــان فى توليـد الكهرباء ومشروعات الرى التى تهدف الى تنظيم موارد المياه وتؤدى الى انتاج محصولين أو ثلاثة فى الأراضى التى لم تكن تنتج الا محصولا واحدا ، حين كانت تحت رحمة القحط والأمطار الموسمية . وهكذا تطلع البرنامج الى بعث الحياة في الزراعة داخل الاطار القائم ، مع تحسين التقنيات ، وتحسين المواصلات والرى حيثما احتاج الأمر الى ذلك ، واعترفت الخطة

بالحاجة الى تغيير ملاك الأراضي ، بالتغلب على الأضرار الناجمة عن غياب أصحاب الأرض عن أرضهم وتفتيت الأرض الى مساحات فى غاية الصغر، ولكن الخطة تركت هذا الأمر لتصرف الولايات المختلفة ، اما عن طريق التشريع أو عن طريق تسليم كبار الملاك لأراضيهم طواعية . وقد تمخض البرنامج الأخير الذى بدأه أحد أتباع غاندى واسمه Vinobe Bhave عن اعادة توزيع مساحات شاسعة من الأراضى طواعية واختيارا فى خمسينيات هذا القرن ، أولا بتقسيم الأراضى الممنوحة بين الفلاحين ، ثم منحها للقرية لزراعتها تعاونيا .

أما الخطة الخمسية الثانية فكانت أكثر من الاولى اهتماما بترقية الصناعة وحين نشرت فى صورتها غير النهائية جاء بها أن غرضها هو (التصنيع السريع مع الاهتمام الخاص بتنمية الصناعات الأساسية) ولكن بعد انقضاء سنة من المناقشات العامة ، اعتبرت الخطة النهائية أن تنمية الصناعة عنصر واحد فقط من برنامج متوازن لاعادة بناء الريف الهندى ، ولوضع أساس التقدم الصناعى ، ولاتاحة أكبر قدر ممكن من الفرص أمام القطاعات الضعيفة المحرومة من الامتيازات والتطور المتوازن لكل أجزاء البلاد . ومع الاعتراف بضرورة تطوير الصناعة الثقيلة وتوافر الفرص لذلك . فان التصنيع الثقيل لم يسيطر على الخطة في هذه الأعوام .

وهكذا نرى أن الخطتين الأوليين قد انتهجتا طريقا وسطا بين فكرتين متعارضتين تمام التعارض تعتنقهما مجموعتان مختلفتان من أفراد الشعب : —

فالمجموعة الأولى : تقيم موقفها على أساس معارضة غاندى للصناعة الحديثة على النحو الذى مورست به فى ظل الحكم البريطانى ، وتريد العودة الى الحرف اليدوية واجتناب التصنيع ، اما المجموعة الثانية فعلى نقيض ذلك . فأفرادها يرون فى التصنيع السريع الأمل الوحيد لتغلب الهند على فقرها الواسع الانتشار ويرون أن هذا هدف جدير بأن تبذل فى سبيله كل تضحية .

وكان الرأى الذى ساد فى السنوات العشر الأولى بعد الاستقلال لا يتبع أيا من الرأيين سالفى الذكر ولكنه عمل فى وقت واحد على تقوية القرى وارساء أساس التصنيع . وجاءت الخطة الخمسية الثانية فوسعت من برنامج تنمية المجتمع ، بحيث يصل البرنامج الى ٦٠٠٫٠٠٠ قرية ، وهو يدعو الى التوسع فى صنع الأسمدة ومشروعات توليد الكهرباء من القوى المائية والرى ، وأضاف طريقين خاصين يؤديان الى دعم اقتصاد

القرى والمدن . ولسد الثغرات أثناء ارساء أساس التصنيع اتخذ اجراء مؤقتا وهو تشجيع النسيج اليدوى للأقمشة ، وكذلك الغزل الى درجة اقل . وكان الهدف من ذلك ايجاد فرص العمل لطبقة كبيرة العدد من المتعطلين جزئيا ، ولزيادة الناتج من السلع الاستهلاكية دون ضرورة الالتجاء الى الاستثمار الراسمالى للتوسع فى الغزل والنسيج الآليين . أما تحقيق الهدف الدائم فيتطلب التوسع فى صناعة الآلات الصغيرة فى القرى والمدن لسد حاجة الانتاج المحلى ، او لصنع أدوات صغيرة للبيع أو لتكون أجزاء تستخدم فى المصانع . كان الهدف هو خلق نموذج للتصنيع يغطى مساحة شاسعة من البلاد ، ولا يستهدف اقتلاع الناس من مواطنهم الأولى ، وكان يرجى من هذا اجتناب خلق مدن كبرى مثل بمباى ، حيث كانت الصناعة تتركز فى الماضى ، وحيث فاقت سرعة نمو المدينة بكثير قدره المجلس البلدى على مواجهة احتياجات الاسكان وغيره ، مما يستلزمه تضخم عدد السكان .

وفى الوقت نفسه أدت الزيادات الكبرى فى الانفاق الحكومى الى أن تكرس الخطة الخمسية الثانية عنايتها فى الصناعة والتعدين . وبينما الخطة فى مجموعها قد حققت ما يزيد بقليل عن ضعف ما ورد فى الخطة الخمسية الأولى ، فان ما تحقق فى التعدين والصناعة ـ قد زاد بمقدار ثمانية أضعاف . وكان الانفاق الرأسمالى للتوسع فى صناعة الصلب هو السبب فى ذلك الى حد كبير .

لقد قضت الخطة الخمسية الثانية بالتوسع فى القطاع العام من الاقتصاد بما يجاوز المرافق العامة التى كانت العمليات الحكومية فيما مضى تقتصر عليها فى الغالب . وبعملها هذا أخذت تحدد أدوار كل من القطاعين العام والخاص ، وتشكيل أقتصاد مختلط ستهدف ايجاد « نموذج اشتراكى للمجتمع » وقد أخذ بمبدأ ادارة الدولة للصناعات الأساسية ، مثل التعدين والصلب والطاقة الذرية وأدوات الماكينات وكان لا بد من أن تقوم الدولة بالانفاق الكامل على بعضها . أما البعض الآخر فيمول عن طريق كل من القطاعين العام والخاص ، مع تزايد مسئولية القطاع العام .

ولقد كانت هذه السياسة انعكاسا للراى القائل بأن الصناعة الخاصة لن تتوسع بالسرعة الكافية . ولما كانت هذه الصناعات هى حجر الزاوية فى المجتمعات المصنعة ـ وهذا هو الأهم ـ فان تركيز القوة الاقتصادية فى أيدى الأفراد يمكن اجتنابه على خير وجه اذا حملت

الحكومة المسئولية فى هذه الظروف الحرجة . غير أن التنفيذ كان مرنا ، وفى أول الأمر توسعت صناعة الصلب فى ظل القطاعين الخاص والعام . وحيثما كان النشاط الهام فى أيدى شركات أوربية قوية كما هو الحال فى صناعة السفن ــ فقد دخلت الحكومة الميدان لأنها تتوقع أنه لا توجد شركة هندية خاصة تقوى على منافسه الشركات الأجنبية .

وظلت مشكلات المواقف والقيادة الاقتصادية والكفاية الفنية من المسائل الرئيسية . فالتدريب الفنى قد اتخذت فيه خطوات سريعة ، سواء عن طريق ارسال عدد كبير من الطلبة الهنود للدراسة في الخارج ، أو عن طريق الاهتمام بوسائل التدريب الفنى فى برنامج التوسع التعليمى . وفى نفس الوقت استدعى كثير من الخبراء الفنيين الممتازين فى الخارج للقيام بأعمال مؤقتة ، سواء فى الحكومة أو فى المشروعات الخاصة ، أو جاءوا تنفيذا لبرامج المعونة الفنية من جانب الوكالات الدولية أو القومية .

وكانت مشكلة الحوافز فى القرية أبسط كثيرا مما كان يحسبه الكثيرون . ولكن فى القطاع الصناعى ظهرت مشكلات القيادة الاقتصادية. فالتجار وطبقات الصناع ومجتمعاتهم التى كان بيدها زمام المبادأة الفردية فى الماضى ، يمكن الاعتماد عليها فى الاستمرار فى أداء هذه المهمة ــ وان يكون من الصعب ايجاد ظروف مواتية لها خير من ظروفهم أيام الحكم البريطانى . ولكن الدولة الهندية لم تكن تريد ــ أو تحبذ ــ الاعتماد على اية مجموعة أو مجموعات بالذات . وأتاح نظام الوكالات حلا جزئيا لهذه المشكلة ، اذ أمكن الا يخلق مصالح شخصية ، لأنه يفصل مابين الادارة والاستثمار ويشرك فى الادارة مجموعة كبيرة من الناس . ولكن كان من أسباب التطلع الى القطاع العام ، والتنظيم التعاونى للقطاع الخاص أن الأنواع التنظيمية تتيح الفرصة للانتفاع بمواهب من هيأتهم مواقفهم التقليدية للنجاح . كمديرين أكثر منهم كمقاولين أو أصحاب أعمال .

ولقد كان بعض المراقبين خارج الهند يعتقدون أن قدرة الهند على انشاء اقتصاد قوى كبير تتطلب اتباع كثير من المواقف المرتبطة بالمشروعات فى الغرب ، فكانوا يعتقدون انه بغير الرغبة فى المغامرة والاستثمار من أجل الربح ، فلن يوجد الحافز الضرورى للعمل . واعتقد آخرون أن حوافز مختلفة عن تلك التى تعود عليها العالم الغربى قد تكون ذات فاعلية فى ظروف الحياة الهندية مثل الرغبة فى تحقيق

أهداف غير مادية ، أو أداء خدمة للمجتمع تتسم بانكار الذات ، وهى سمة رئيسية من سمات النهضه الهندوكيه ، وقد نشرتها دعوة غاندى على نطاق كبير ، أو الاستعداد للسير وراء قيادة تستطيع أن تلهم ، وأن تنير الطريق . وفى المراحل الاولى لعبت الروح الوطنية دورا كبيرا من غير شك . كما كان هناك دور كبير لاحساس الهنود بأنهم يجتازون مرحلة اختبار اذ يتنافسون مع الصين الشيوعية ، ليثبتوا أن التنمية الاقتصادية يمكن تحقيقها بوسائل ديموقراطية .

كانت أشد المشاكل الحاحا هى : هل يستطيع الاقتصاد الهندى ان يبلغ معدلا فى النمو أسرع من معدل تزايد عدد السكان ويبدأ يقلل البطالة ، ويحسن الوضع الاقتصادى فى القرى والمدن ، ويمنع الهجرة من الريف الى المدينة من أن يتجاوز حجم الفرص المتاحة فى المدن ، والاحتفاظ بالاستقرار الاجتماعى فى وجه القلق الذى لا مفر منه ، والذى ينجم عن تصاعد الآمال القومية ؟ ويبدو أن أصعب ما فى هذه المشكلة انما يكمن فى معدل الاستثمار الذى يمكن ان يحدث . لقد عرضت الخطة الخمسية الثانية على الجمهور وفيها ثغرة واسعة بين النفقات المطلوبة والوسائل المرتقبة للحصول على الاعتمادات المطلوبة . لقد كانت تتضمن فى غير صراحة عقد قروض من الخارج أو تمويلا من الخارج ، وكان هذا ضروريا فى تلك الظروف . ولكن المشكلة الرئيسية كانت تتمثل فى الحاجة الى موارد جديدة للايراد من الداخل . لقد استولت الحكومة على شركات التأمين على الحياة ، وقامت بحملة لتشجيع المدخرات الصغيرة ، ولكن كل مبالغ الخطة كانت تتطلب معدلا من الاستثمار أقل من نظيره فى معظم البلاد المتقدمة . ولكن هذا المعدل اكبر مما كان يحتمله الاقتصاد الهندى فى الماضى .

والمشكلة الخطيرة هى هل تستطيع دولة ينخفض فيها معدل الدخل بالنسبة للفرد مثل الهند ، التى تخلت عن الطرق المركزية والتقنيات الصارمة التى تتبعها الدولة الشيوعية ، هل تستطيع بالوسائل الديموقراطية أن تحقق مستوى الاستثمار اللازم للنمو الاقتصادى ؟ .

ان الدول الأخرى فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية التى واجهت مشكلات التنمية الاقتصادية هى أيضا ، قد حاولت أن تحل هذه المشكلات بالاقتصاد المختلط الذى يشترك فيه كل من القطاع العام والقطاع الخاص . والنماذج التى أخذت تتشكل فى أواسط القرن كانت

تختلف باختلاف الأقاليم والاقطار . وكانت تخضع لمؤثرات كثيرة - الموازنة بين الموارد وعدد السكان ، التاريخ الاقتصادى والبناء الاقتصادى للبلاد والتوجيه الحكومى - فمشكلات التنمية الاقتصادية فى الممالك الغنية بالبترول فى الشرق الأوسط تختلف اختلافا كبيرا عن مشاكل التنمية فى وادى النيل الآهل بالسكان ، أو عن الاقتصاد القائم على الأرز فى تايلاند، أو البلاد الواقعة على هضبة الأنديز . والبلاد التى قاست الاستغلال الاستعمارى الخارجى ، كشطر كبير من بلاد آسيا وأفريقيا - وجدت نفسها فى موقف يختلف عن مواقف البلاد التى كان الشطر الأكبر من اقتصادها تسيطر عليه طبقة محلية من الأثرياء كما هو الحال فى كثير من بلاد أمريكا اللاتينية أو التى حدثت بها ثورة اجتماعية كما هو الحال فى المكسيك . وفى بعض البلاد كانت الأرض فى أيدى الاقطاعيين ، وفى غيرها كانت فى أيدى ملاك من الفلاحين ، ولكن أيا كان الأمر فان كل الدول النامية تقريبا قد حاولت استخدام التدخل الحكومى الواعى للاسراع بعجلة النمو الاقتصادى ، وكانت المؤسسات الاقتصادية التى أنشأتها الحكومة تجمع بين ملامح من الأنظمة الاقتصادية المختلفة .

ولقد حاولت هذه البلاد استخدام أسلوب التخطيط الاقتصادى بطريقة أو بأخرى ففى أمريكا اللاتينية حيث كانت تقاليد المشروع الخاص قوية كانت برامج التخطيط الاقتصادى فى أول الأمر مقصورة على مشروعات تتعلق باصلاح أودية الانهار ، مثل وادى الكوكا Cauca فى كولومبيا ، أو التقدم الزراعى ، أو الائتمان الخارجى والسيطرة على التجارة الدولية . وكانت معظم بلاد آسيا تتبع نوعا ما من الخطط الخمسية . وبعضها مثل بورما صاغت أهدافا محكمة وان كانت الوسائل الفعالة لتحقيق الأهداف ظلت بحاجة الى التطوير . وغيرها - مثل العراق - ركزت عنايتها فى خطط انشاء أعمال حكومية كبرى ، مثل السدود ومشروعات الرى واستثمار الدخل الحكومى الذى بدت بشائره على الأفق . وكانت وسائل التخطيط التى ابتكرتها برتوريكو تستخدم عملية مستمرة للتخطيط فتخطط فى كل سنة للأعوام الست التالية بدلا من عمل هدف للسنوات الخمس وانشاء خطة جديدة للسنوات الخمس القادمة . كذلك حاولت أن تجمع بين التخطيط المركزى والمبادأة المحلية، بأن تحتفظ بجزء من الأموال العامة الواردة بالخطة لتحقيق المصالح المحلية بالجهود المحلية ، بدلا من اخضاعها لقوائم أولويات مقررة .

وتضمنت الخطط الاقتصادية فى هذه البلاد اجراءات اجتماعية ، تتفاوت من بلد الى آخر . فبعضها مثـــل برتوريكو بدأت بالتخطيط للتشييد المادى ، وبالتدريج خططت أيضا للخدمات الاجتماعيه . وغيرها مثل الهند كان تخطيطها يشتمل منذ البداية على عناصر اجتماعية . ولقد اختلفت الآراء اختلافا واسعا فيما يتعلق بالعلاقة الصحيحة بين الانفاق لزيادة الرفاهية الاجتماعية وبين الانفاق الاقتصادى الهـدف بالمعنى الدقيق ، فيقول رأى من الآراء أن النفقات الاجتماعية نافست النفقات الاقتصادية فكانت طرفا لا يمكن احتماله الا بعد أن يتســـع الأساس الاقتصادى ، ويزيد الدخل القومى . والفكرة المقابلة تؤكد أن الانفاق على أمور مثل الصحة والتعليم هو استثمار اختيارى سليم . لأنه يزيد من انتاجية السكان ويزيل من الأعباء الباهظة التى يسببها العجز المالى وانعدام الكفاءة والموت المبكر . وحيثما أدى الى زيادة فى عدد السكان أسرع من معدل التوسع الاقتصادى ، فانه قد يهدد باختفـاء الفوائد المنشودة ، ما لم يعن على ارساء أساس لانطلاق النمو الاقتصادى فى المستقبل .

كان فريدا فى تاريخ البشر ذلك الجهد الواعى الذى بذلته البـلاد التى يسكنها الشطر الكبير من البشر بالاسراع الى التنمية الاقتصادية . كذلك كان الموقف التكنولوجى والسياسى الذى تحركت هذه الجهود فى اطاره . لقد قال أحد الاقتصاديين العالميين ، جونار مردال السويدى وهو يعلق على الموقف عام ١٩٥٦ ، أن البلاد النامية عليها ألا تفترض أن التفكير الاقتصادى الذى تشكل فى البلاد الأقدم عهدا بالتصنيع ينطبق بالضرورة على هذه البلاد الجديدة . ففى ضوء الموقف الجديد فى منتصف القرن العشرين ربما تتمخض عملية التصنيع عن تجارب تختلف تمـام الاختلاف عن التجارب التى مرت على الدول المتقدمة فيما مضى .

٢ ــ الاقتصاد الاشتراكى فى جمهورية الصين الشعبية

بينما كانت الهند ومعظم البلاد التى كانت من قبل خاضـــعة للاستعمار أو البلاد المتخلفة من الناحية الصناعية ، تتابع تحقيق هدفها فى التنمية الاقتصادية عن طريق اقتصاديات مختلطة تحتفظ بالكثير من اطارات مجتمعها القائم ، فقد قامت جمهورية الصين الشعبية بأعتى

Gunnar Myrdal, An International Economy; Problems and Prospects (New York, 1956), p. 313.

حركة للتصنيع قام بها أى بلد فى اى وقت ، وذلك عن طريق تغيير كلى للمجتمع الصينى .

فحين استولى الشيوعيون على الحكم عام ١٩٤٩ ، لم يكن الاقتصاد الصينى متخلفا من الناحية الصناعية الى حد كبير فحسب ، بل كان معظم هذا الاقتصاد المتخلف فى الأيدى الاجنبية او موجها لصالح موان حددتها اتفاقيات مع الدول الأجنبية أو سكك حديدية كانت امتيازا للأجانب ، كان هذا الاقتصاد فى حالة من الفوضى والتمزق نتيجة عشرات من الأعوام عانت فيها الصين من الحروب الأهلية والغزو اليابانى وأنواع من الفساد أخذت تعيث فى الأرض فسادا فى هذه الظروف . ففى عام ١٩٤٩ لم يزد الانتاج الزراعى عن حوالى ٧٥٪ مما كان عليه فى ثلاثينيات هذا القرن ، ولم تبلغ الصناعة الخفيفة الا حوالى الثلثين ، ولم تبلغ المشتريات من الصناعة الثقيلة الا ٣٠٪ من المشتريات السابقة.

والاقتصاد الصينى اقتصاد زراعى فى أساسه ، وانتاجه يستهدف الاستهلاك المحلى قبل كل شىء ، وان كانت الصادرات الرئيسة مثل الشاى والحرير تعتبر من المنتجات الزراعية . وكان يقدم مجرد الكفاف للمشتغلين بالزراعة . وكان الأرز وغيره من الحبوب الغذائية يستورد فى معظم المناطق اذ كانت مناطق قليلة هى التى يتوفر لديها فائض ، وكان شبح المجاعة يهدد الناس باستمرار ، وينزل بهم من حين الى حين . ولكن الطرق الزراعية فى الصين كانت متقدمة جدا ، فحصيلة الفدان الصينى من الأرز ضعف نظيرتها فى الهند ولكنها لا تزيد عن ثلثى نظيرتها فى اليابان .

والصناعة التى كانت قائمة صناعة خفيفة ، أهمها النسيج . ولم تبدأ صناعة الصلب وما يتصل بها من الصناعات الثقيلة الا حينما أدخلها اليابانيون فى منشوريا . وظلت الموارد الطبيعية للبلاد مجهولة فى معظمها . وكان المعتقد انها تكفى لتقدم صناعى كبير ، ولكن المسألة ظلت محل نظر الى حد كبير الى ما بعد عام ١٩٤٩ . وكانت رداءة وسائل المواصلات تمثل عقبة كأداء فى طريق التنمية الاقتصادية . فكانت السلع فى معظمها تشحن بالسفن عن طريق الانهار والقنوات . ولكن فيضانات الأنهار لم يكن لأحد سيطرة عليها ، وكانت دورية . كما أن عددا كبيرا من القنوات صار الى حال لا يرجى لها صلاح . ولم تكن هناك شبكة عامة من السكك الحديدية اذ لم يكن هناك الا شبكات صغيرة تؤدى الى

الموانى الكبرى شرقا . وكانت الطرق أسوأ حتى من القنوات وما هو موجود منها لم يكن مرصوفا .

ولقد اعيد بناء الاقتصاد الصينى عن طريق الاستخدام المركز لمورد الصين الأكبر أى قوتها البشرية الهائلة التى لم تكن تستخدم من قبل الا استخداما جزئيا . فتشغيل الفلاحين فى غير مواسم الزراعة ، وتشغيل ما يمكن توفيرهم بفضل تنظيم أرشد للانتاج الزراعى وتشغيل النساء ، وتشغيل العمال الذين يمكن توفيرهم باحلال وسائل النقل محل الحمالين ، بل وحتى تشغيل الأطفال الذين يمكن تعبئتهم للأعمال في الكوميونات والعجائز من النساء اللاتى يمكن ان يقمن على العناية بالاطفال فيتوفر للعمل من هم أكثر صحة ولياقة بدنية .. كانت هذه هى الموارد الكبرى التى قامت الزعامة الشيوعية بتنظيمها فصاغت منها اداة فعالة لاعادة بناء الاقتصاد الصينى .

وفى تنظيم هذه الموارد بقصد تصنيع البلاد فى أسرع وقت ممكن، قامت الزعامة الصينية بتطبيق المبادىء الماركسية اللينينية بمرونة براجماتية على ضوء ظروف الصين ، والانتفاع ما أمكن بما سبق من تجارب الدول الأخرى فى هذا المضمار . وقد أفادت الصين على وجه الخصوص من تجارب الاتحاد السوفييتى فى استخدام تقنيات التخطيط والعمليات ذات النطاق الواسع ، كما أفادت من بعض تجارب اليابان للوصول الى التوسع الاقتصادى بأقل قدر ممكن من رأس المال . ومضت الصين فى حركة بالغة الضخامة لاعادة البناء فى جو مركز من الوطنية والروح القومية ، فقد نفضت الأمة عنها غبار قرن من الضعف والهوان على يد الاستعمارين الغربى واليابانى ، وبذا حصلت على رصيد عاطفى ضخم جدا يكفل تركيز كل الجهود فى هدف مشترك ، وانطلاقها بالسرعة التى أرادها أولو الأمر .

وقد تمكن النظام الشيوعى فى سنواته الثلاث الأولى من أن يصلح من شأن الاقتصاد الصينى المتصدع الذى نالت منه الفوضى ، والارتفاع به الى مستويات انتاجية أعلى من المستويات التى امكن الوصول اليها فى الماضى ، ونظمت البلاد اداريا تحت ادارة ومراقبة مركزية فعالة ، وقضت على الفساد والاستغلال اللذين كانا ينخران فى عظام الحياة الاقتصادية ووثقت العلاقات الاقتصادية الخارجية بالاتحاد السوفييتى وباقى دول الكتلة الشيوعية .

وبعد ذلك استخدمت أسلوب التخطيط ، ووضعت خططا خمسية

وحددت لها أهدافا طموحه · كان يعاد تعديلها باستمرار فى المستويات العليا كلما أدت حوافز استنهاض الجهود القومية الى سبق التواريخ الوارده بالخطه · ففى سنة ١٩٥٦ صدرت خطه مدتها أثنـــا عشر عاما للتنميه الزراعية ، بما فى ذلك الانتاج الزراعى وتصنيع الريف وتحسين وسائل معيشة الفلاحين ، على أن تمول هذه الخطه أساسا من الموارد المحليه وان تنفذ جنبا الى جنب مع الخطط الخمسية الممولة مركزيا ·

وقد جرى التطوير فى ميدانين هامين : تطوير الاقتصاد الزراعى الذى يعتمد عليه نحو ٨٠٪ من أفراد الشـــعب ، وخلق قاعدة للتطوير الصناعى ، فى الصـــناعات الثقيله والنقل والتعدين وانشاء المصـــانع والآلات .

وكان تحويل الصناعة فى السنوات العشر الأولى أخطر العـوامل الحاسمة فى التغيير الشامل وبفضل الطبيعة الشاملة للعملية وما صحبها من ضروب الاستمالة صارت تجربة الصين فريدة فى بابها · فلقد جعل ماوتسى تونج من عمال الزراعة قلب الثورة ، وليس فقط بعض مؤيديها ، وكان قد وعد أن يعطيهم أرضا · وقد بدأ فى منطقة الشـــمال الغربى أثناء الحرب ثم فى باقى أنحاء البلاد كلها ـ بتوزيع الأرض على صغـار المزارعين من ذوى الملكيات الصغيرة ، أو من المعدمين الذين يتالف منهم سبعون فى المائة من الفلاحين ، وقامت الكادرات واللجان الحزبية فى كل قرية بتصنيف الفلاحين وخصصت لهم الأراضى المتاحة ولم يقابل هـذا الا بأقل مقاومة منتظرة من جانب ملاك الأراضى وأغنياء الفلاحين ونالت الحركة تأييد الفلاحين الأوساط الذين لم تصب أملاكهم بســوء على وجه العمـوم ·

ومع ذلك فلم تكد الأرض توزع حتى بدأت حملة تدعو الى تكوين التعاونيات بين الفلاحين ذوى الملكيات الصغيرة المبعثرة · فما وافى عام ١٩٥٣ حتى كان حوالى ٤٠٪ من الفلاحين قد صاروا أعضاء فى التعاونيات الزراعية أو فى فرق العون المتبادل · وكانت الخطوة التالية تحويل هـذه التعاونيات الى مزارع جماعية ، شبيهة بتعاونيات الاتحاد السوفييتى التى تدار بعملية مشتركة وادارة مشتركة · وعلى نقيض الحال فى الاتحـــاد السوفييتى ودول شرق أوروبا ، لم يكد فلاحو الصـــين يبدون أية مقاومة للتصفية السريعة للملكية الخاصة للأرض · وما حل عام ١٩٥٧ حتى صارت كل الزراعة الصينية تقريبا تدار جماعيا ·

وعندئذ قفزت الزعامة الصينية قفزة جديدة ذهبت بعملية «الزراعة الجماعية » ، ما جاوز بها محاولات الاتحاد السوفييتى أو أية دولة اشتراكية

أخرى ، أعنى تحويل مجموعات من القرى والمزارع الجماعية الى كومونات وهنا أيضا سارت حركة اعادة تنظيم الاقتصاد الريفى بسرعة خارقة ، ففى خلال أشهر أعلنت أقاليم بأكملها عن تحويل مجتمعها الريفى الى كومونات ذات ادارة مركزية ، وقاعات عامة للطعام ، وفرق للعمل وتقديم الكومون ضرورات الحياة الى الأعضاء مباشرة • وبعد الاندفاع أول الأمر فى انشاء الكومونات خلال عام ١٩٥٨ جاءت فترة مؤقتة للاسترخاء ، فسمح ببعض الزراعة الفردية فى أرض البساتين ، وبيع المحصـــولات وصار استخدام قاعات الطعام ودور الحضانة وغيرها من المرافق الجماعية اختياريا وان كان محل تشجيع قوى • ولكن أساس مجتمع الكومون الريفى كان قد أرسى كما أرسيت ادارة الانتـــاج الريفى على نحو يسمح بأقصى تنظيم للقوة العاملة للعمل بالكومون ، وتكليف حملات من العمال بالعمل فى مشروعات التشييد على نطاق واسع فى مناطق أخرى ، أو نقـــل مجموعات منهم لاستصلاح أراض جديدة ، ومد خطوط السكك الحديدية أو بناء مراكز للصناعة أو التعدين أو البترول .

وهكذا لم تمض الا عشر سنوات حتى تحول الاقتصاد الزراعي القديم فى الصين الى بناء قوى التنظيم • وكان الهدف زيادة الانتاج ، لا بهدف تقليل خطر المجاعة فحسب ، ولكن أيضا لانتاج الصادرات التى يمكن أن تشترى بها الآلات والمعدات من الخارج ، بينما يرسى أساس جهاز لانتاج ما هو لازم محليا • وقد تم هذا التحول ــ على عكس ما جرى فى الاتحاد السوفييتى ــ بدون ميكنه تقريبا . فقد وزعت محاريث محسنة ، وكذلك وزع غيرها من المهمات البسيطة على بعض الكومونات ، وأتاح التجميع الاستخدام الكامل للقوة الحيوانية المتـــاحة لتحل محل بعض الأعمـــال اليدوية • ولكن الزيادات الضخمة فى الانتاج الزراعى خلال هذه السنوات لم تأت بفضل محطات محاريث بخارية أو أى شكل آخر من أشـكال الميكنة • وانما أتت هذه الزيادة الضخمة فى الانتاج من نفس المصـــادر التى جربتها اليابان بنجاح ــ انتقاء البذور ، والرى ، ونظام محكم للقضاء على الآفات الزراعية ، والتسميد ، بالاضافة الى تنظيم الانتاج فى وحدات كبيرة ، بدلا من بقع متفرقة ، واستصلاح أرض جديدة •

كذلك فان القطاعين الصناعى والتجارى من الاقتصاد قد تحولا بدورهما من مشروعات خاصة الى مشروعات عامة بالتدريج ، ولكن فى سرعة ، وبأقل قدر ممكن من المقاومة • وكانت الصناعة والتجارة الواسعة النطاق كلها تقريبا فى أيدى اليابانيين وغيرهم من الأجانب أو حـــزب

الكومنتانج الحاكم ، وتم الاستيلاء عليهـــا فى غير مقاومة • أما أصحاب المصانع الصغيرة ، وأصحاب الحرف اليدوية ، والتجار ، فقد قدمت لهم الحوافز للانضمام الى التعاونيات ، أو التخلى عن متاجرهم أو مصانعهم للحكومة مقابل أجر محدد • ولما أخذت الادارة الخاصة لهذه الأعمال تزداد صعوبة ، وتقل ربحا ، وجد معظم رجال الأعمال أنه من الخير لهم أن يتخلوا عن مشروعاتهم للدولة ، وغالبا ما ظلوا يعملون بها مديرين • وهنا أيضا تمت عملية نقل الملكية الى المجتمع فى فترة وجيزة وبدون مقاومة تذكر •

وهكذا نجد أنه برغم ما كان يبدو فى المراحل الأولى من أن الصين قد ابتكرت اقتصادا يحتفظ ببعض الملامح الفردية والرأسمالية ، فان هذه النزعة المحافظة الظاهرة كانت فى الواقع وسيلة الى تغيير اشتراكى أسرع وأتم ، تتميز بالمركزية وبنظام الكومونات ، على نحو فاق ما تحقق لأى بلد آخر حتى ذلك الوقت وكان اصلاح وسائل النقل وتوسيعهـا وتحسينها هو أول ما يلزم للنمو الصناعى وأول ما يلزم أيضا لتوحيد البلاد والادارة • فقام ملايين العمـال ، كان معظمهم فلاحين فى عصور الركود ، كما قام أيضا بعض عمال المدن والمثقفون والجنود ، بالأعمال الشاقة فى اصلاح النظام العتيق للقنوات والرى فحفروا مجارى مائيـة جديدة ، وأعادوا بناء السكك الحديدية القديمة ، ووسعوا شبكتها وعبدوا الطرق وبدءوا عملية طويلة فى انشاء السدود والسيطرة على أنهار الصين الكبيرة العاتية • وهنا أيضا كان المورد الأكبر هو القوى البشرية المنظمة تنظيما مركزيا • ومع أن بعض آلات الحفر وغيرها مما استجلب من الاتحاد السوفييتى واوروبا الشرقية قد استخدم في بعض المشروعات ، فان الرجال والنســاء من حملة الجاروف والســلال قد حفروا معظم القنوات وأرسوا الجسور وعبدوا الطرق وقووا الدعائم من تحت قضبان السكك الحديدية ، واشتغلوا فى اقامة السدود •

وتمشيا مع هدف ارساء أساس التوسع الصناعى ، وجهت الطاقات الكبرى نحو اقامة صناعة ثقيلة ، وتوليد الكهرباء والاهتمام بمصادر الوقود التى تعتمد عليها هذه الصناعات. فاتسع نطاق عمليات استخراج الفحم بسرعة ، وتم الكشف عن المصادر البترولية فى كانسوا وسينكيانج ثم استغلت ، كما أنشئ أكثر من ١٠٫٠٠٠ ميل من السكك الحديدية وجند مئات الآلاف من العمال لهذه المشروعات الجديدة • وصارت منطقة (انشان) مركزا لمجمع ضخم لصناعة الحديد والصلب يزداد اتساعا بسرعة • وحين زادت طاقة انتاج الصلب عام ١٩٥٨ على المتوافر من امدادات الحديد قامت

حملة فى طول البلاد وعرضها لصهر الخردة المتخلفة فى أحواش الأفران وغيرها وفى الحفر للحصول على الحديد الخام وصهره ، مما قضى على عنق الزجاجة فتدفق الحديد الى مصانع الصلب واعتز الناس فى كل أنحـــاء البلاد بأنهم قد شاركوا فى ارساء أسس الصناعة الجديدة للصين ٠

ومع أن معظم التكنولوجيا كانت تنتمى الى عصر ما قبل الصـناعة حين استولى الشيوعيون على الحكم ، وان الكثير منها قد ظل على حاله فى السنوات العشر الأولى من عصر التنمية ، فان الزعامة قد أصرت على أن تضع الصين فى أسرع وقت ممكن فى مقدمة الدول العلمية ، وأن تنتفع انتفاعا كاملا من التقدم العلمى فى أنحاء العالم ٠ وقد تكونت نواة هـذه الحركة من علماء صينيين فى أعلى درجة من الكفاية ، ممن تعلموا فى أوروبا والولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى ، وان كان عددهم قليلا نسبيا ، وكملت هذه النواة بعدة آلاف من المستشارين العلميين والتكنولوجيين من روسيا ، وبالصينيين الذين أرسلوا للتدريب فى موسكو ، ثم بخريجى مراكز التكنولوجيا والبحث التى أنشئت فى البلاد ، فبينما كانت حملة التقدم التكنولوجى تتخذ فى أحد وجهيها اشكالا بدائية مثل احـــلال عربة اليد أو عربة يجرها الثور محل الحمال البشرى ، فاننا نجد على الوجه الآخر انشاء مفاعل ذرى وصناعات النفاثات فى المصانع الصينية.

وكان الهـدف الصريح لهـذه الجهود القومية هو جعل الصـين أمة صناعية كبرى تمضى مباشرة الى مقدمة الدول العلمية ، وتتفوق على الدول الصناعية الأخرى فى أسرع وقت ممكن ، بادئة ببريطانيا بحيث تصل فى النهاية الى مسـتوى انتاجى يتناسب مع عـدد سكان الصـين ومواردها الضـخمة ٠

وكانت نتائج هذه الجهود ، اذا قيست بمقاييس الانتـــاج ــ أمرا جديرا بالملاحظة ٠ فاذا صرفنا النظر عن التفاؤل المبالغ فيه وعدم الدقة فى التقارير ، بما فى ذلك تخفيض كبير فى الأرقام التى سبق أن أعلنهـا القادة فى عام ١٩٥٩ ، فان معدل التوسع الاقتصادى خلال عشر سنوات فاق ما حققته دول أخرى فى فترة مساوية من التقدم الصناعى مثـل بريطانيا فى أوائل القرن التاسع عشر ، والولايات المتحدة وألمانيا واليابان في أواخر القرن التاسع عشر ، والاتحاد السوفييتى بعد ثورة أكتوبر . وفاق بكثير معدل النمو الاقتصادى فى الهند أو فى أى بلد آخر من البلاد النامية فى آسيا خلال هذه الفترة ذاتها ٠

أما عن الاستهلاك ، فان زيادات الانتاج لم تنعكس فى رفع مستويات المعيشة لأنها خصصت لارساء أساس التوسع فى الصناعة الثقيلة لا ارضاء حاجات المستهلك • غير أن التوسع فى التعليم والخدمات الطبية وتحسين الأحوال الصحية والعناية بالأطفال وكفالة حد أدنى من الغذاء للكثرة التى عانت من قبل خطر المجاعة ، كل هـــذا يمكن اعتباره اضافات صريحة لمستويات المعيشة • ولكن الجهود الكبرى التى طلب من الناس بذلها خلال هذه الأعوام كانت تستهدف المستقبل لا المنافع المادية فى الحاضر •

والاقتصاد الصينى يدار على أساس المركزية • فالوزارات وفروعها فى الأقاليم مسئولة عن القطاع الاقتصادى الذى يختص به كل منهـــا • والبناء الحزبى ، بكادراته فى كل مستوى يبعث الحافز المباشر لتنفيذ الخطط والتعليمات والتبليغ عن النتائج • وقد تقدمت طرق التخطيط والادارة والاشراف الحزبى التى ثبت نجاحها فى الاتحاد السوفييتى • وذلك بفضل وصول الاذاعة الى الناس في كل انحاء البلاد وتعبئتهم مباشرة عند بداية كل مرحلة جديدة فى تنفيذ البرنامج ، وكل دعوة جديدة لتضافر الجهود وهذه وسيلة لم تكن فى متناول الاتحـــاد الســـوفييتى بنفس القـــدر فى المراحل الأولى لنشأته •

ولم تبق أية ظاهرة من ظواهر الحياة الصينية بمعزل عن تأثير تنظيم الشعب الصينى وتحـويله الى اداة ضخمة للانتـــاج يمكن تركيزها على الأهداف القومية كلما أريد ذلك • لقد ألغيت النظم القديمة وأنشئت نظم جديدة • وحلت سلطة الحزب محل سلطة الأسرة ، وحلت المساواة بين الجنسين فى العمل خارج المنزل محل خضوع المرأة للرجل ، فوضعت أنظمة لتقديم الوجبات العـــامة ، والعناية بالأطفال لراحة النســـاء من مسئوليتهن السابقة ، ورفع الشباب الى مراكز الثقة والسلطة ، ومحيت مظاهر التمييز الاجتماعى ، وصار المثقفون يؤدون أعمالا يدوية •

واستخدم القادة الأذكياء فى الحزب والدولة خلال هذه الســـنوات سياسة أثارت الحماسة لبلوغ الأهداف دون الالتجاء الى الارغام كلما أمكن ذلك وكانوا يسيرون فى سياستهم على أساس من المغايرة والتبادل بين تشديد الضغط لبلوغ الأهداف ، ثم التخفيف من الضغط اذا بدا أنه أثقل من أن يحتمل أو أنه قد حقق أغراضه ــ مثل القول بان كل انسان يجب أن يحظى بثمانى ساعات من النوم ، حين ظهر أن الضغط لبلوغ الأهداف الانتاجية الجديدة أورث الناس التعب ــ أو تخفيف القيود لاعادة احكامها بعد ذلك ، كمـــا حدث فى أيام « المائة زهرة » حين شجع الناس

على النقد ، وأعقب ذلك اتخاذ اجراءات صارمة ضد من تجاوزوا الحد فى النقد . وتختار شعارات متتالية مثل « القفزة الكبرى الى الامام » لتركز حولها عقول الناس وارواحهم ، واطلاق العنـــان للعـــداوات المكبوتة للامبرياليين الغربيين وبخاصة الولايات المتحدة . وهكذا احتفظوا بحوافز العمل خلال هذه السنوات ولكن مهما يكن من أمر الوسائل التى استخدمت لتشجيع التعاون بين الناس ، وتعبئة وتوجيه الحيوية الكامنة فى الشعب، ومهما تكن الوسائل التى اتبعت لزيادة انتاجية الاقتصاد الصينى على نحو مطرد فان البنيان الرقابى كان كاملا ولم يحدث فى اى مكان آخر من العالم أن تمت تعبئة حياة شعب بأسره فى مثل هذا البناء التنظيمى الذى أقيم فى تلك السنوات العشر ، واخضاعه للحيـــاة اليومية الرتيبة فى الكومونات .

تعليقات على الفصل الثانى

١ ـ ينوه الاستاذ أ ٠ أ زفوريكين بان الموازنة الدولية بين المؤشرات الاقتصادية عملية بالغة التعقيد بقدر ماهى بالغة الاهمية . ذلك ان الاختلافات فى الطرق الاحصائية القومية تجعل من الصعب موازنة المؤشرات العامة مثل الثروة القومية والانتاج والدخل الى آخره التى تعطى فكرة بالغة التركيز عن البلاد موضوع الموازنة . فاذا أريد لمثل هذه المؤشرات ان توازن على نحو صحيح فلابد لاساسها الاقتصادى من أن يفحص فحصا دقيقا وان تستخدم وسائل خاصة ومعقدة للموازنة ٠ وفى الاتحاد السوفييتى يجرى عمل منهجى ضخم حول هذه المشكلة وتجرى تقديرات ضخمة على البيانات بالموازنة الخاصة بعدد كبير من المؤشرات الاقتصادية والثقافية الاساسية فى الدول الاشتراكية والراسمالية . ويمكن الاطلاع على نتائج هذا العمل فى منشورات مثل مطبوعات «المؤتمر العلمى حول منهج موازنة المؤشرات الاقتصادية الاساسية فى الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة الامريكية (١٩٦٣ رقم ٦ » من ص ٢٩/٧٣) ونماذج للقانون الاحصائى وفهرسة وطرق الفهارس التحليلية والموازنة الدولية للمؤشرات الاحصائية (الاتحاد السوفييتى اكاديمية العلوم قسم العلوم الاقتصادية ـ موسكو ١٩٦٣) .

وتقع أخطاء خطيرة فى الاحصائيات الامريكية فى تحديد المؤشرات الخاصة بتوزيع الدخل القومى ، وبخاصة فيما يتعلق بالحصة التى توزع على العمال . وموازنة مستويات المعيشة للعمال لايمكن قصرها على الاجور وحدها : بل يجب أن تأخذ فى اعتبارها المعاشات والمنح ونواحى الانتفاع والتعليم المجانى والعلاج الطبى وطول مدة الاجازات التى يمنح عنها اجر وغير ذلك من المزايا والمدفوعات من الاموال العامة ، ووجود البطالة أو اختفاءها وطول مدة العمر ومعدلات المواليد والوفيات وتزايد عدد السكان وخط الانفاق عند العمال ونحو هذا من العوامل ٠

وتستطيع طريقة أو اخرى من طرق الاحصاء أن تكشف عن قائمة طويلة من الظواهر، او ان تعرض صورة مشوهة . وهذا هو السبب فى أن المراكز الاحصائية للحكومة والاعمال واتحادات العمال فى الدول الراسمالية بينما هى غالبا تعمل متوازية وتختار المعطيات من نفس المشكلة تصل الى نتائج مختلفة تماما . ففى الولايات المتحدة مثلا ارتفعت تكاليف المعيشة فى الفترة مابين ١٩٣٩ ، ١٩٦١ ـ طبقا للاحصائيات الرسمية التى أصدرها مكتب العمل ـ ارتفعت بمعدل ١١٥ر٢٪ بينما الرقم الذى أوردته لجنة هلر (جامعة كاليفورنيا) عن ميزانيات الاسر العاملة هو ٢١٠ر٤٪ والجداول التى قدمت بطرق اتحاد عمال الكهرباء أعطت نسبة ٢٣٩ر٤٪ (انظر أ.ى كاتز
Polozhemive proletariata S. Sh. A. priimperialismye (Moscow 1962), I, p. 197).

واستخدام مؤشر مثل متوسط دخل الفرد فى البلاد الراسمالية التى تختلف فيها دخول العمال وأصحاب الاعمال يعطى انطباعا مزيفا فيما يتعلق برفاهية الجمهور بينما توزيع الاسر طبقا لمستوى الدخل السنوى يبين الموقف المادى الصحيح للطبقات والمجموعات الاجتماعية .

وموازنة توزيع دخل الفرد الكلى بين الأسر والافراد فى الولايات المتحدة لمدة نصف قرن تقريبا يعطى النتائج الآتية :

عدد الأسر والأفراد المنخفضى الدخل جداً

معروضة كنسب مئوية من كل الدخول المردعة فى الولايات المتحدة الأمريكية

من ١٩١٠ — ١٩٥٩

الأسر والأفراد ذوو الدخول الدنيا

السنة	أقل من ١٠٪	من ١٠—٢٠ ٪	من ٢٠—٣٠ ٪	من ٣٠—٤٠ ٪	من ٤٠—٥٠ ٪	من ٥٠—٦٠ ٪	أقل من ٤٠٪	أقل من ٦٠٪
	الأرقام التى قدمها مكتب المؤتمر الصناعى القومى							
١٩١٠	٣,٤	٤,٩	٥,٥	٦	٧	٨	١٩,٨	٣٤,٨
١٩١٨	٢,٤	٤,٤	٥,٧	٦,٩	٧,٢	٧,٧	١٩,٤	٣٤,٣
١٩٢١	٢	٣,٢	٤,٦	٥,٩	٦,٥	٧,٤	١٥,٧	٢٩,٦
١٩٢٩	١,٨	٣,٦	٤,٦	٥,٥	٦,٥	٧,٩	١٥,٥	٢٩,٩
١٩٣٤	٢,١	٣,٨	٥,٣	٦,٢	٧,٣	٨,٢	١٧,٤	٣٢,٩
١٩٣٧	١	٢,٦	٤,٤	٦	٧,٢	٨,٥	١٤	٢٩,٧
	أرقام مستمدة من مسح انتقائى قامت به هيئة الاحتياطى الفيدرالية							
١٩٤٧	١	٣	٤	٦	٧	٩	١٤	٣٠
١٩٥٠	١	٣	٥	٦	٨	٩	١٥	٣٢
١٩٥٣	١	٣	٥	٦	٨	٩	١٥	٣٢
١٩٥٦	١	٣	٥	٦	٨	٩	١٥	٣٢
١٩٥٧	١	٣	٤	٦	٨	٩	١٤	٣١
١٩٥٨	١	٣	٥	٦	٨	٩	١٥	٣٢
	من إحصائية وزارة التجارة							
١٩٤٤	٤,٩*		١٠,٩*		١٦,٢*		١٥,٨	٣٢
١٩٤٧	٥		١١		١٦		١٦	٣٢
١٩٥٠	٤,٨		١٠,٩		١٦,١		١٥,٧	٣١,٨
١٩٥٣	٤,٩		١١,٣		١٦,٦		١٦,٢	٣٢,٨
١٩٥٦	٤,٨		١١,٣		١٦,٣		١٦,١	٣٢,٤
١٩٥٧	٤,٧		١١,١		١٦,٣		١٥,٨	٣٢,١
١٩٥٨	٤,٦		١٠,٩		١٦,٢		١٥,٥	٣١,٧
١٩٥٩	٤,٥		١٠,٩		١٦,٢		١٥,٤	٣١,٦

* بيانات خاصة لمجموعات تشتمل على ٢٠٪ من الاسر والافراد

المصدر :

A. I. Katz, Polozhemiye proletariata S. Sh. A. priimperalismye (Moscow, 1962) p. 108; National Industrial Conference Board (NICB), Enterprise and Social Progress (New York, 1939), p. 125, Federal Researve Bulletin, "U.S. Income and Output» (1958), p. 161, and Survey of Current Business (July, 1961).

في الجداول ثلاث مجموعات من البيانات لاتختلف فقط فيما يتعلق بالمقياس المستخدم في تقدير الدخول بل تختلف أيضا فيما يتعلق بطبيعة المادة الاحصائية المستخدمة كأساس لها . فالسلسلة الاجمالية من ١٩١٠ الى ١٩٣٧ قد جمعت في أوقات مختلفة عن طريق عدد من الناس يستخدمون طرقا مختلفة تعتمد في معظمها على البيانات الخاصة بفترة بعينها فيما يتعلق بتوزيع الاجور والاحصائيات المالية . والنتائج (من ١٩١٠) انظر و. كنج ثروة ودخل شعب الولايات المتحدة ـ نيويورك سنة ١٩٢٣ ـ ومن ١٩١٨ ف. ماكولى ، الدخل في الولايات المتحدة ـ نيويورك ١٩٢٣ . ومن سنة ١٩٢١ الى ١٩٢٩ م. لفن هـ . مولتون واربرتون : قدرة امريكا على الاستهلاك ـ واشنطون سنة ١٩٣٤ . ومن سنة ١٩٣٤ /١٩٣٧ مكتب المؤتمر الصناعى القومى) موازنة بدرجات متفاوتة مع عمل مكتب المؤتمرات الصناعى القومى الذى هو المنظمة العلمية للاتحاد القومى لرجال الصناعة . والبيانات المقدمة من الجهاز الفيدرالى للاحتياطى تعرض النتائج المستفادة من عينة سنوية بينما المواد المقدمة من مصلحة التجارة تشتمل على المجموعات الكلية للتقديرات التركيبية التى تعتمد جزئيا على معلومات مستمدة من الاحصائيات المالية مع ترابطها بالتقديرات الاجمالية للدخل القومى . ومع ذلك فانه برغم الاختلافات العامة فان البيانات الخاصة بتوزيع مجموع الدخل الفردى بين مجموعات الاسر والافراد ذوى الدخول الدنيا ـ وسوف تختلف الموازنات الزراعية طبقا للانتاج او الانتاجية بالنسبة للهكتار او بالنسبة للعامل أو بالنسبة للرجل ساعة . والفترة التى اختيرت للموازنة ـ هى أيضا « تؤثر تأثيرا كبيرا فى النتائج » . واذا أراد القارىء الاطلاع على مناقشة عامة لمشكلات الموازنات الاقتصادية بين السوفييت والولايات المتحدة فليقرأ .

Joint Economic Committee of the Congress of the United States, Comparisons of the United States and Soviet Economies (Washington, D.C. 1959), Part I. pp. 1-30, and illustrations of these difficulties throughout the studies in this publication).

والبيانات الخاصة بالبطالة تكون مضللة حين لا تأخذ فى اعتبارها البطالة المقنعة فى صورة زيادة فى اعداد العمال المشتغلين فى الارض او اعداد كبيرة من الافراد المشتغلين فى صناعة صغيرة ، بحيث لاتدر عائدا كافيا . وبيانات الاجور الموازنة تتأثر بوجود خدمات مكملة . والبلاد التى تجتاز مراحل مختلفة فى التطور الاقتصادى تكشف عن نماذج مختلفة، وبخاصة حين يتجه المجهود الأكبر الى أرساء أساس صناعى عن طريق انشاء صناعة ثقيلة او توليد الكهرباء .. الخ .. بخلاف ما يجرى حين يتجه الاهتمام الاكبر الى السلع الاستهلاكية والخدمات وتتأثر المعدلات النسبية للنمو بالحجم النسبى للأساس الذى يقدر النمو على ضوئه . وتكشف البيانات المالية عن وجود اختلافات فى مدى المشاركة الحكومية فى الحياة الاقتصادية ، ونسبة مجموع الانتاج القومى الذى يتضمن الانتاج الحكومى . وتستخدم البلاد المختلفة أسسا شتى فى احصائياتها الاقتصادية أو تدمج عناصر مختلفة للتقييم وتطبق اجراءات احصائية مختلفة .

والبيانات الآتية نقدمها ايضا لنحصل على صورة أتم لاقتصاد الولايات المتحدة وهذه البيانات متسقة اتساقا داخليا ، ولكن استخدامها لاغراض الموازنة مثل استخدام

البيانات المتعلقة ببلاد اخرى يجب ان ينظر اليها على ضوء العوامل المعقدة المذكورة أعلاه انظر أيضا تعليق المحررين التكميلى رقم ٣ للفصل الثالث فيما يتعلق بالبيانات الخاصة بتوزيع الدخل ، والوظائف وارباح العمال الصناعيين والمهنيين ، والتعليق رقم ٧ أدناه الخاص ببيانات انتاجية العمل والارباح وساعات العمل .

الانتاج القومى والدخل الشخصى فى الولايات المتحدة

	الانتاج القومى الكلى		الدخل بالنسبة للفرد(١)			
	الدولارات الجارية	الدولارات الثابتة ١٩٦٣	دولارات جارية	دولارات ثابتة ١٩٦٣	جدول الانتاج الصناعى	جدول الانتاج الزراعى
	١٠٠٠ مليون				(١٩٥٧-٥٩=١٠٠)	
١٩٢٩	١٠٤٫٤	٢١٤٫٢	٦٨٢	١٢٥٤	٣٨٫٤	٦٢
١٩٣٠	٩١٫١	١٩٤٫٦	٦٠٤	١١٦٢	٣٢٫٠	٦١
٣١	٦٧٫٣	١٨٠٫٣	٥١٤	١١١٠	٢٦٫٥	٦٦
٣٢	٥٨٫٥	١٥٣٫٨	٣٩٠	٩٥٣	٢٠٫٧	٦٤
٣٣	٥٦٫٠	١٤٩٫٩	٣٦٤	٩٢٣	٢٤٫٤	٥٩
٣٤	٦٥٫٠	١٦٤٫٢	٤١١	٩٧٩	٢٦٫٦	٥١
٣٥	٧٢٫٥	١٧٩٫٨	٤٥٨	١٠٦٧	٣٠٫٧	٦١
٣٦	٨٢٫٧	٢٠٤٫٩	٥١٦	١١٩٣	٣٦٫٣	٥٥
٣٧	٩٠٫٨	٢١٥٫٦	٥٥١	١٢٢٤	٣٩٫٧	٦٩
٣٨	٨٥٫٢	٢٠٦٫٣	٥٠٦	١١٥٢	٣١٫٤	٦٧
٣٩	٩١٫١	٢٢٣٫٢	٥٣٧	١٢٣٥	٣٨٫٣	٦٨
٤٠	١٠٠٫٦	٢٤٢٫٠	٥٧٦	١٣٠٩	٤٣٫٩	٧٠
٤١	١٢٥٫٨	٢٨١٫٨	٦٩٧	١٤٨٣	٥٦٫٤	٧٣
٤٢	١٥٩٫١	٣٢٣٫٢	٨٧١	١٦٥٩	٦٩٫٣	٨٢
٤٣	١٩٢٫٥	٣٦٤٫٤	٩٧٦	١٧٠٤	٨٢٫٩	٨٠
٤٤	٢١١٫٤	٣٩١٫١	١٠٦١	١٧٥٦	٨١٫٧	٨٣
٤٥	٢١٣٫٦	٣٨٣٫١	١٠٧٥	١٧١٧	٧٠٫٥	٨١
٤٦	٢١٠٫٧	٣٣٢٫٠	١١٣٦	١٦٨٠	٥٩٫٥	٨٤
٤٧	٢٣٤٫٣	٣٣١٫٣	١١٨٠	١٥٧٨	٦٥٫٧	٨١
٤٨	٢٥٩٫٤	٣٤٤٫٤	١٢٩١	١٦٣٢	٦٨٫٤	٨٨
٤٩	٢٥٨٫١	٣٤٥٫٥	١٢٧٢	١٦٢٢	٦٤٫٧	٨٧

	الانتاج القومى الكلى		الدخل القومى للفرد			
	الدولارات الجارية	الدولارت الثابتة ١٩٦٣	دولارات جارية	دولارات ثابتة ١٩٦٣	جدول الانتاج الصناعى	جدول الانتاج الزراعى
	١٠٠٠ مليون				(١٩٥٧–٥٩=١٠٠)	
١٩٥٠	٢٨٤,٦	٣٧٤,٠	١٣٦٩	١٧٢٠	٧٤,٩	٨٦
٥١	٣٢٩,٠	٤٠٤,٩	١٤٧٥	١٧٣٧	٨١,٣	٨٩
٥٢	٣٤٧,٠	٤٢٠,٨	١٥٢١	١٧٥٦	٨٤,٣	٩٢
٥٣	٣٦٥,٤	٤٤٠,١	١٥٨٢	١٨٠٦	٩١,٣	٩٣
٥٤	٣٦٣,١	٤٣١,٤	١٥٨٢	١٧٩٠	٨٥,٨	٩٣
٥٥	٣٩٧,٥	٤٦٤,٩	١٦٦٠	١٨٧٠	٩٦,٦	٩٦
٥٦	٤١٩,٢	٤٧٤,٧	١٧٤١	١٩٢٨	٩٩,٩	٩٧
٥٧	٤٤٢,٨	٤٨٣,٩	١٨٠٣	١٩٤١	١٠٠,٧	٩٥
٥٨	٤٤٤,٥	٤٧٦,٧	١٨٢٥	١٩٢٨	٩٣,٧	١٠٢
٥٩	٤٨٢,٧	٥٠٨,٤	١٩٠٤	١٩٨٧	١٠٥,٦	١٠٣
٦٠	٥٠٢,٦	٥٢١,٣	١٩٣٧	١٩٩٣	١٠٨,٧	١٠٦
٦١	٥١٨,٢	٥٣١,٢	١٩٨٣	٢٠٢٨	١٠٩,٨	١٠٧
٦٢	٥٥٤,٩	٥٦٣,٦	٢٠٦٠	٢٠٨٧	١١٨,٣	١٠٨
٦٣	٥٨٥,٠	٥٨٥,٠	٢١٢٧	٢١٢٧	١٢٤,٣	١١٢

المصدر : التقرير الاقتصادى لرئيس الجمهورية ١٩٦٤ ، ومكتب محافظى نظام الاحتياطى الفيدرالى .

(١) دخل الأفراد بعد الضرائب

توزيع الدخل الذى تحققه الشركات الأمريكيه

بالألف مليون دولار

السنه	الدخل الذى تحققه الشركات			توزيع الدخل بعد تسديد الضرائب على الشركات					
				العمال			رأس المال		
	الكلى	ضرائب الشركات	الدخل بعد الضرائب	المرتبات والأجور	العلاوات	النسبه الى تصرف العمال	الفائدة	الأرباح	النسبه المئويه إلى رأس المال
١٩٤٧	١٠٤٫٧	١١٫٣	٩٣٫٤	٧٧٫٣	٣٫٩	٨٦٫٩	٫٦	١١٫٦	٣١٫١
١٩٤٨	١٢٠٫٤	١٢٫٥	١٠٧٫٩	٨٥٫٩	٤٫١	٨٣٫٤	٫٣	١٧٫٥	١٦٫٦
١٩٤٩	١١٥٫٥	١٠٫٤	١٠٥٫١	٨٣٫٤	٤٫٤	٨٣٫٥	٫٤	١٧	١٦٫٥
١٩٥٠	١٣٢٫٣	١٧٫٩	١١٤٫٤	٩١٫٧	٥٫٧	٨٥٫١	٫٢	١٦٫٨	١٤٫٩
١٩٥١	١٥٣٫٣	٢٢٫٤	١٣٠٫٩	١٠٦٫٢	٧٫١	٨٦٫٥	٫٣	١٧٫٣	١٣٫٥
١٩٥٢	١٥٨٫٥	١٩٫٥	١٣٩	١١٤٫١	٧٫٥	٨٧٫٥	٫٣	١٧٫١	١٢٫٥
١٩٥٣	١٦٩	٢٠٫٢	١٤٨٫٨	١٢٤٫٢	٨٫٢	٨٩	٫٤	١٦	١١
١٩٥٤	١٦٣٫٣	١٧٫٢	١٤٦٫١	١٢١٫٩	٨٫٥	٨٩٫٢	٫٥	١٥٫١	١٠٫٨
١٩٥٥	١٨٤٫٢	٢١٫٨	١٦٢٫٤	١٣٢٫٥	٩٫٧	٨٧٫٥	٫٥	١٩٫٨	١٢٫٥
١٩٥٦	١٩٥٫٢	٢١٫٢	١٧٤	١٤٣٫٨	١٠٫٩	٨٨٫٩	٫٣	١٩	١١٫١
١٩٥٧	٢٠٢٫٩	٢٠٫٩	١٨٢	١٥٠٫٦	١٢٫٢	٨٩٫٤	٫٤	١٨٫٨	١٠٫٦
١٩٥٨	١٩٥٫٨	١٨٫٦	١٧٧٫٢	١٤٧٫٤	١٢٫١	٩٠	٫١	١٦٫٨	١٠
١٩٥٩	٢٢٠٫٨	٢٣٫٢	١٩٧٫٦	١٦٠٫٤	١٤٫١	٨٨٫٣	٫٩	٢٢٫٢	١١٫٧
١٩٦٠	٢٢٧٫٤	٢٢٫٣	٢٠٥٫١	١٦٧٫٥	١٥٫٦	٨٩٫٢	٫٦	٢١٫٤	١٠٫٨
١٩٦١	٢٣٠	٢٢	٢٠٨	١٦٩٫٧	١٦	٨٩٫٢	٫٩	٢١٫٣	١٠٫٨

المصدر : وزارة التجارة الأمريكيه – مسح النشاط الجارى للأعمال ، نوفمبر سنه ١٩٦٢ ، والتقرير الاقتصادى للرئيس سنه ١٩٦٤

الخصائص الاقتصاديه للزراعه فى الولايات المتحدة

السنه	عدد المشتغلين بالزراعه بالنسبه لمجموع السكان	محصول المزارع ١٩٤٧–٤٩ =١٠٠	محصول المزارع على أساس الرجل ساعه ١٩٤٧–٤٩ =١٠٠(١)	العاملون بالزراعه				مستوى معيشه العاملين بالزراعة ١٩٤٥=١٠٠ (٢)
				المالك الكامل	المالك الجزئى	المدير	المستأجر	
١٩٠٠	٣٩,٣	٥٦	—	٥٥,٨	٨,٠	١,٠	٣٥,٢	—
١٩٠٥	—	—	—	—	—	—	—	—
١٩١٠	٣٤,٩	٦١	٤٥	٥٢,٨	٩,٣	,٩	٣٧,٠	—
١٩١٥	٣٢,٤	٦٨	٤٩	—	—	—	—	—
١٩٢٠	٣٠,١	٧٠	٤٩	٥٢,٢	٨,٧	١,٠	٣٨,١	—
١٩٢٥	٢٧,٠	٧٠	٤٩	—	—	—	—	—
١٩٣٠	٢٤,٩	٧٢	٥٣	٤٦,٣	١٠,٥	,٩	٤٢,٣	—
١٩٣٥	٢٥,٣	٧٢	٥٧	—	—	—	—	—
١٩٤٠	٢٣,٢	٨٣	٦٧	٥٠,٥	١٠,٢	,٦	٣٨,٧	٧٩
١٩٤٥	١٨,١	٩٦	٨٤	٥٦,٣	١١,٣	,٧	٣١,٧	١٠٠
١٩٥٠	١٦,٦	١٠٠	١١٢	٥٧,٥	١٥,٣	,٤	٢٦,٨(٣)	١٢٢
١٩٥٥	١٣,٦	١١٢	١٤٩	٥٧,٤	١٨,٢	,٤	٢٤,٠(٤)	١٤٣
١٩٦٠	١١,٤	١٢٩	٢٠٥	٥٧,١	٢١,٩	,٥	٢٠,٥	—

المصدر : وزارة التجارة الأمريكية، الاحصاءات التاريخيه للولايات المتحدة والملخص الاحصائى للولايات المتحدة لسنة ١٩٦١ .
صحيفة التعداد الفنى للولايات المتحدة رقم ٣ – السكان الزراعيون ١٨٨٠ – ١٩٥٠ .

(١) هذه الأرقام تختلف إلى حد ما عن الأرقام الواردة بالتعليق ٧ أدناه عن إنتاجيه العمال بسبب الاختلاف الطفيف فى تركيب ووزن المؤشرات فى جانب واضعى التقارير

==

المدفوعات للمساعدات الاجتماعيه بمقتضى برامج حكوميه فى الولايات المتحدة ١٩٣٥–٦٠

مقدرا بالاف الملايين من الدولارات

السنه	التأمين الاجتماعى	المساعدة العامه	المساعدات الصحيه و الطبيه	غيرها من المساعدات	ما يصرف للعجائز	التعليم	الإسكان العام	المجموع	٪من مجموع الناتج القومى	٪ من كل الانفاق الحكومى
١٩٣٥	٤و	٣	٥و	١و	٥و	٢و٢	—	٦و٧	٩و٨	٥١و٢
١٩٤٠	١و٢	٣و٦	٧و	١و	٥و	٢و٨	٠٠٤و	٩	٩و٣	٤٨و٦
١٩٤٥	١و٤	١	١و٩	٢و	٩و	٣و٤	٠١و	٨و٩	٤و٢	٨و٢
١٩٥٠	٤و٨	٢و٥	٢و٣	٤و	٦و٥	٦و٥	٠١و	٢٣	٨و٧	٣٦و٣
١٩٥٥	٩و٩	٣	٢و٩	٦و	٤و٤	١١و٣	٠٩و	٣٢	٨و٥	٣١و٧
١٩٦٠	١٩و٣	٤و١	٤و٣	١و٢	٥و١	١٨و٢	٢و	٥٢و٣	١٠و٦	٣٧و٥

المصدر : وزارة التجارة الامريكيه : التلخيص الاحصائى للولايات المتحدة سنه ١٩٦٣ .

= (٢) المؤشر يعتمد على النسبه المئويه للمزارع المزودة بالكهرباء والتليفون والسيارات وقيمه متوسطة للمنتجات موضوع البيع أو التجارة .
والرقم المبين أمام ١٩٥٥ هو المتوسط بين ١٩٥٤ و١٩٥٦ . وفى سنه ١٩٥٦ كان متوسط العائلات الزراعية المزودة بالمزايا الآتية كما يلى :
الكهرباء ٩٤٪ التليفون ٥٢٪ السيارات ٧٤٪ الماء الجارى ٦٤٪ التبريد الميكانيكى ٩٠٪ التليفزيون ٥٣٪

(٣) الأرقام خاصة بسنة ١٩٥٤ (٤) الأرقام خاصة بسنة ١٩٥٩

٣ ـ يوضح الاستاذ / ى.س. فارجا الآتى :

ان المجتمع الراسمالى فى أيامنا هو نفس المجتمع الامبريالى الذى كان موجودا فى بداية القرن العشرين .. فقوانينه الداخلية المتأصلة فى طبيعة تطوره لم تتغير . وفى ظروف الراسمالية المعاصرة توجد فرص أكبر بكثير جدا مما كان متاحا فى بداية القرن ، من حيث تركيز الانتاج وراس المال فى أيدى الاحتكارات بشكل خاص ، ومن حيث نفوذ أصحاب الأموال وقدرتهم على التصرف فى أموال الآخرين . ولقد أصبحت الاحتكارات ونفوذ أصحاب الأموال أقوى بكثير مما كانت عليه .

ففى بداية القرن كان المصنع الذى يعمل به ألف عامل يعتبر مشروعا كبيرا أما الآن فالمصنع الذى يستخدم الف عامل يعتبر مشروعا متوسط الحجم ، والمشروع الراسمالى الضخم فى يومنا هذا هو الذى يستخدم على الاقل من ١٠٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠٠ عامل وموظف . وفى بداية القرن كانت تعتبر الشركة التى تساوى أسهمها ١٠٠ مليون دولار من أكثر الشركات . أما اليوم فان مجموعة ستاندر اويل لها أسهم تقدر قيمتها الكلية بما يقرب من ١٠ مليار من الدولارات . بينما شركة التليفون والتلغراف الامريكية لها أسهم تساوى ٨ مليار من الدولارات . كذلك فان عدة شركات لها اسهم تبلغ قيمتها عدة ملايين من الدولارات ، منها «رويال داتش شل» ، واليونيتد ستيتش ستيل وغيرها كثير من الاحتكارات . وفى بداية القرن كانت الاحتكارات قد أصبحت القوة المسيطرة على سياسات الدول الامبريالية ولكنها لم تبلغ مطلقا من القوة ما بلغته فى الوقت الحاضر.. اذ ترى مثلا ثلاث شركات تتحكم فى سوق الالمنيوم والسيارات فى الولايات المتحدة (ى . س . فارجا ، رأسمالية القرن العشرين ، موسكو سنة ١٩٦١ ص ٩٩/١٠٠) .

وكتب الاستاذ / د. كوسيف : ان نظرة المؤلفين تعتمد على افتراض ان الفرق بين شركات الشطر الاخير من القرن التاسع عشر وبين احتكارات الوقت الحاضر انما هو فرق فى الكم ، وان شركات الاحتكار انما هى شركات اكبر من سابقاتها فى الحجم .. ولكنهم حين يريدون الوصول الى نتيجة تأسيسا على هذا الفرض يجدون أنفسهم فى الواقع عاجزين عن تقديم تحليل نوعى للظواهر الاقتصادية فى القرن العشرين . ونحن هنا نتكلم عن اقتصاد الدول غير الاشتراكية ، فالمؤلفون يحومون دائما حول هذه المسألة أو يعالجونها علاجا سطحيا نسبيا فيما يتعلق بتركيز الانتاج (بعيدا عن تركيز الممتلكات) . ولكنهم لا يقدمون ما هو جديد نوعيا فى شأن الاحتكارات . فى هذا الصدد نجد المؤلفين لا يسمون الاشياء بأسمائها الصحيحة . مفضلين ان يتكلموا عن «التنظيمات الواسعة النطاق » .. وانه لا يكاد يعتبر من الصواب أن نتجنب مقولات اقتصادية قد

صارت مقررة تماما فى البحوث التى تنشر عن النظرية الاقتصادية ، وان تكف عن تقديم التفسير الكامل للمضمون الحقيقى لتلك المقولات .

ويمكن أن نضيف فى هذا الصدد انتاج الكفايات الماركسية حيث نجد ان عبارة (احتكارات راسمالية) تتضمن تركيزا شديدا لراس المال والانتاج لدرجة انه يمكن ــ فى حدود معينة ــ تحديد الاسعار بشكل منظم والحصول على مزيد من الارباح والاستحواذ على السيطرة الاقتصادية والسياسية .

٤ ــ لقد تجنب المحررون استخدام كلمة « احتكار » وذلك لسببين : بسبب اختلاف المعانى التى تستخدم فيها هذه الكلمة ولانه بالمعنى المستخدم فى كتب الاقتصاد الكلاسيكية نجد أن التطورات الهامة فى الاقتصاديات الراسمالية والمختلطة فى هذا العصر لاتتضمن الاحتكار والغاء التنافس من حيث هو ، وانما تتضمن وجود مشروع واسع النطاق يترتب عليه تغيرات فى طبيعة التنافس وغير ذلك من العلاقات الاقتصادية .

وفى كتب الاقتصاد الكلاسيكية ينطبق مفهوم «الاحتكار» اذا وجد منتج وحيد لصناعة من الصناعات وبخاصة اذا لم توجد منتجات صناعية اخرى تصلح بديلا دقيقا لما ينتج أو على البائع الوحيد فى سوق من الاسواق انظر :

(Paul A. Samuelson, Economics: An Introductory Analysis, 5th ed., New York, 1961, p. 518).

فالمشروعات الكبرى فى الصناعات التى لايوجد فيها الا عدد قليل من المنتجين الرئيسيين مثل شركات امريكان اوتوموبيل American Automobile Manufacturers أو Steel Corporations

أو شركات البترول التى لا ينطبق عليها وصف الاحتكار بمقتضى هذا التعريف . والمرافق العامة مثل شركات التليفون أو الكهرباء التى تمنح الحق وحدها فى منطقة من المناطق ولهذا فهى تخضع للوائح الحكومية هى «احتكارات منظمة» والمشروعات الحكومية مثل الخدمات البريدية هى «احتكارات حكومية» . أما فى القاموس الماركسى فكلمة «احتكار» تستخدم بمعنى أوسع من ذلك بكثير فتنطبق على المشروعات الخاصة التى يكون لها من الحجم أو المكان الاستراتيجى مايجعلها قادرة على أن تمارس نفوذا ضخما على وسائل الانتاج .

٥ ــ يعتقد الاستاذ/ أ.ا. زفوريكين : انه فى بعض البلاد ، وفى بعض العصور التاريخية ، يستطيع العمال ان يحصلوا لانفسهم على قدر من التحسين لمستوى حياتهم ، ولكن على العموم الراسمالية تضعهم فى وضع غير ملائم ، يزداد سوءا باستمرار اذا اخذنا

فى الاعتبار نصيبهم من الدخل الاجتماعى المتزايد . فنتيجة للتقدم التكنولوجى يحدث نمو فى التركيب العضوى لراس المال ، اى فى القيمة الاجمالية لراس المال ، والحصة من رأس المال الثابت التى تنفق على وسائل الانتاج تزداد نسبيا بينما الحصة من راس المال المتغير التى تنفق على العمال تتناقص .

وهكذا ، وطبقا للاحصائيات الامريكية الرسمية نجد أن نصيب الاجور التى تدفع للعمال فى الانتاج ، والتى يعبر عنها بنسبة مئوية من قيمة انتاج المصنع تتناقص باستمرار ففى سنة ١٩٣٧ بلغت ٤٠ر٢٪ ولكن فى سنة ١٩٥٨ بلغت ٣٦ر٧٪ . وهذا الاتجاه يصبح ملفتا للانظار على وجه خاص حين توازنه بميل ارباح الشركات الراسمالية الى الزيادة : بعد طرح قيمة الضرائب ، فقد ارتفعت من ٤ر٧ مليار دولار سنة ١٩٣٧ الى ١٨ر٩ مليار دولار سنة ١٩٥٨ . وتناقص النسبة من الدخل القومى التى تتقاضاها الطبقة العاملة معناه ان عدد العمال يتناقص بالنسبة لمجموع عدد السكان ، وانه يوجد تزايد فى البطالة ، وانه توجد زيادة فى عدد من يعولهم العمال ، وان العامل يزيد من انتاجيته فى العمل ، وغير ذلك مما يضع العامل فى وضع غير موات امام صاحب العمل .

وثمة مثال واضح للكيفية التى يفقد بها العمال مكاسبهم فيما يتعلق بالحد الادنى لاجور الكفاف ولننظر مثلا للثلاثينيات ، حين حدثت أزمة بالغة الخطورة فى الولايات المتحدة . فطبقا للبيانات التى اصدرتها وزارة العمل الامريكية كان الاجر الاسبوعى الاسمى للعمال المشتغلين فى الصناعة سنة ١٩٣٨ اقل بمقدار ١١٪ مما كان سنة ١٩٢٩ – ذلك فى ظروف البطالة المتزايدة . وتدل الاحصائيات الرسمية على ان عدد العاطلين بين عامى ١٩٣٠ ، ١٩٤٠ لم ينخفض عن ٧ر٧ مليون وانه فى سنوات ١٩٣٢ ، ١٩٣٥ ، ١٩٣٨ ارتفع بما يزيد على عشرة ملايين .

كما أن نمو انتاجية العمل ، نتيجة للتقدم التكنولوجى والتسيير الآلى ، لا يؤدى الى تحسين فى موقف الطبقة العاملة . لان هذا النمو انما يتم لصالح اصحاب العمل . وهكذا نجد طبقا للاحصائيات الامريكية أن انتاجية العمل فى الصناعة ارتفعت بنسبة ٢٥ر٨٪ بين عامى ١٩٥٣ ، ١٩٥٩ فاذا أخذنا الاجر الاسمى للعمال فى الصناعة نجد انه قد ارتفع بنسبة ٢١ر٤ ٪ للعامل . لهذا فقد يظهر ان اصحاب العمل يقسمون مع العمال الدخل الاضافى الراجع الى الميكنة والتسيير الآلى . ولكن اذا قابلنا هذا بجدول الاسعار وجدنا ان الدخل الحقيقى للعامل خلال هذه الفترة لم يزد الا بمقدار ١٢ر٣٪ فاذا أخذنا جدول الاجور الحقيقية ، وجدول انتاجية العمال ، ووازنا بينهما ، وجدنا أن «الوضع النسبى» للعامل يزداد سوءا باستمرار . وهكذا اذا اعتبرنا سنة ١٩٣٥ = ١٠٠ فان هذا الرقم يصبح فى الربع الأول من سنة ١٩٥٩ = ٣٩ر٣٪ .

وهناك اختلال متزايد فى التناسب بين الاحتياجات الدنيا المتغيرة اللازمة لايجاد القوى العاملة ، والمدى الذى يمكن تحقيقه لهذا الغرض . فالحدود الدنيا للأجور فى ظل الراسمالية تحددها تكاليف وسائل عيش الكفاف اللازمة لوقاية العامل واسرته من الموت ، وتمكينهم من انجاب أجيال عاملة ، اى من ان يربوا ويعلموا اولادهم بما يتلاءم

مع متطلبات الانتاج . والتكلفة الدنيا للقوى العاملة والاجور التى تقرر مستويات المعيشة ليست ثابتة فى كمها : بل هى تختلف من بلد الى آخر ومن عصر الى عصر .. وتدهور حالة الطبقة العاملة يتضح ايضا فى التخفيض المباشر لمستويات المعيشة ، بما يقل عن المستوى اللازم تاريخيا لقطر من الاقطار وعصر من العصور وفى النشرة الشهرية («Labour's Economic Review») التى نشرتها AFL-CIO اشير الى انه فى منتصف عام ١٩٦٠ كان ٧ ملايين من المواطنين الامريكيين يعيشون عيش الكفاف وفضلا عن ذلك فان مايزيد عن ٣٥ مليون نسمة يحصلون على اجور منخفضة جدا بحيث يعجزون عن ان يعيشوا (فى المستوى الامريكى) . وهذه النشرة تذكر ايضا ان اكثر من ٢٠ ٪ من الامريكيين ، أى ما يزيد على ٤٠ مليون نسمة لم تكن لديهم الفرصة على الوفاء بحاجاتهم الدنيا المتزايدة لعيش الكفاف .. « ولا يزالون يعيشون دون مستوى الدخل اللازم حتى اليوم » .

(The Handbook of Basic Economic Statistics, Vol. XIV, No. I, January 1960, p. 24; No. 4, April 1960, pp. 94, 101-2; Economic Notes, May 1959, p. 2; Labour Economic Review, Vol. V, No. 8, August 1960, pp. 45, 47.)

وتوجد دراسة أكثر تفصيلا فى

cf. G. Kuczynski, Die Geschichte der Lage der

انظر المادة الخاصة بالقرن العشرين

Arbeiter unter dem Kapitalismus, t. I, Berlin Acad. Verb., 1960, ; Labour Fact Book, prepared by the Labour Research Association, 1-15 (N.Y., Inter. Publ. 1931 — 61); A.I. Katz, Polozheniye proletariata SShA pri imperializmy (Moscow USSR, Academy of Sciences, 1962).

٦ ــ يلاحظ الاستاذ / ى.ن.. اندوسون ان الاقتصاديين غير الماركسيين وراسمى السياسة فى غير البلاد الشيوعية يعتبرون ان قدرا ما من البطالة المؤقتة ضرورة لمجتمع يستطيع العمال فيه ان يتركوا اعمالهم او يغيروها ، ويكون اصحاب الأعمال احرارا فى توسيع او تضييق عدد ونوع موظفيهم .. وهم يعرضون هذا الموقف فى مقابل النظام الاقتصادى فى الدول الاشتراكية . ويوجد خلاف فى الراى بين الاقتصاديين فى الدول الراسمالية حول حجم البطالة المؤقتة اللازمة للمرونة . كذلك تختلف تجارب شتى الدول فيما يتعلق بمقدار طبيعة المساعدة التى ينبغى تقديمها لتسهيل اعادة الاستخدام. فالسويد مثلا قد ابتت قدرتها على ان تحتفظ بالمرونة بنسبة ضئيلة جداً من البطالة، أقل من ١ ٪ فى السنوات الحديثة .. ولقد سبقت معظم الدول فى وسائل تسهيل تغيير العمال لاعمالهم . وفى الولايات المتحدة الامريكية تعتبر نسبة ٢٪ على العموم الحد الادنى غالبا . ويعتبر معظم الاقتصاديين أن ارتفاع الرقم عن هذا أمر طبيعى . ومن المتفق عليه عموما ان صورة ما من صور التعويض عن البطالة ينبغى ان تصرف للعمال الذين اضطروا الى البطالة خلال الفترة التى يبحثون فيها عن عمل جديد . وتكلفة هذا تعتبر من الامور التى يجب ان تتحملها الصناعة .وعلى اصحاب الاعمال ان يدفعوا الضرائب اللازمة لمشروعات اعانة المتعطلين ..

ونوع البطالة الذى يصور مرونة الاقتصاد الحر يعتبر امرا يختلف عن البطالة الضخمة التى تصاحب فترات الكساد الاقتصادى كماحدث فى الثلاثينيات . ويتفق علماء

الاقتصاد والساسة فى البلاد الراسمالية عموما على وسائل منع البطالة الواسعة النطاق نتيجة لحدوث كساد اقتصادى كبير . ولقد تحملت حكومات هذه الدول منذ الحرب العالمية الثانية مسئولية التحقق من أن مثل هذه الظروف لن تتكرر ، واتخذت لذلك سياسات وقائية والاستقرار الاقتصادى فى أوروبا وامريكا خلال هذه السنوات يعتبر دليلا على سلامة مثل هذه السياسات . وبالرغم من وجود تقلبات فى النشاط الاقتصادى خلال هذا الوقت ، وبخاصة فى الولايات المتحدة ، فان النكسات الصغيرة لم تكن تنذر بكساد كبير ، فسرعان ما استعيد معدل التوسع .

والاختلاف فيما يتعلق بكل من النظرية والتطبيق فى الاقتصاديات الراسمالية ، يتركز حول العلاقات المعقدة المتبادلة بين العمالة ، والانتاجيـة ، وتوزيع الدخل ، والاستهلاك ، والاستثمار ، وثبات الاسعار ، ووسائل الحصول على النمو الاقتصادى ؛ مع تجنب حدوث تضخم خطير . والاختلافات بين الاقتصاديات الراسمالية فى الخمسينات تتخذ شاهدا على تعقد المشكلات التكنولوجية المتضمنة ، وعلى أن هذه المشكلات لم تحل الى الآن حلا كاملا . فكثير من الدول الاوروبية مثلا لديها الحد الادنى من البطالة . واظهر الاقتصاد اليابانى معدلا للنمو تزداد سرعته باستمرار . أما فى الولايات المتحدة فقد تجاوزت الانتاجية النمو الاقتصادى العام ، وادى هذا الى أن معدل الزيادة فى الانتاج قد زاد على معدل الزيادة فى العمالة — وبقيت البطالة فى مستوى فوق ما تتطلبه المرونة فى الاقتصاد .

ومع تزايد التيسير الآلى اخذت مشكلة اخرى تظهر ، اذ وجد فى وقت واحد نقص فى عدد العمال ، ووجدت البطالة كذلك ان انواع الاعمال الجديدة التى نشأت تتطلب قدرا من التعليم بينما العمال الذين أدركتهم البطالة لم تتوفر لديهم المعرفة بالتعليم ولا التدريب الضروريين لشغل الوظائف المتاحة .

والمراجع عن هذا الموضوع كثيرة جدا وسنذكر منها القليل :

Sir William H. Beveridge, Full Emproyment in a Free Soceity, (London, 1944)
Douglas Hague (ed.), Stability and Progress in the World Economy: The First Congress of the International Economic Association (London, 1958)
Daniel Hamburg, Economic Growth and Instability (New York, 1956)
Income, Employment and Public Policy: Essays in the Honour of Alvin H. Hansen (New York, 1948).

Money, Trade and Economic Growth: In Honour of John H. Williams (N.Y., 1951).

Bertil Ohlin, The Problem of Employment Stabilization (N.Y., 1949).
United Nations, Report of a Group of Experts, National & International Measures for Full Employment (N.Y. 1949).

٧ – يود المحررون أن يكملوا النص بالجدول الآتى :

إنتاجية العمال ، الدخول الفعلية وساعات العمل فى الولايات المتحدة

١٨٩٩ – ١٩٦٣

السنة		متوسط الحصول على اساس الرجل ساعه (١٩٢٩=١٠٠)		متوسط الدخل الاسبوعى الحقيقى المكاسب من الصناعات غير الزراعية	متوسط الساعات الاسبوعية للعمل فى الصناعات غير الزراعية
	مجموع العماله الخاصه	الزراعة(١)	الصناعات غير الزراعية	الاسعار بالدولار عام ١٩٦٣	
١٨٩٩	٥٤,٧	٨٧,٩	٥٢,٨	–	–
١٩٠٤	٥٨,٥	٨٩,٤	–	–	–
١٩٠٩	٦٥,٦	٨٨,١	٦٤,٧	–	٥١
١٩١٤	٦٤,٧	٩٢,٧	–	٣٣,١٦	٤٩,٤
١٩١٩	٧٩	٨٨,٤	٧٩,٧	٣٨,٦٠	٤٦,٣
١٩٢٤	٩١,٧	٩٠	–	٤٢,٣٥	٤٣,٧
١٩٢٩	١٠٠	١٠٠	١٠٠	٤٤,٢٣	٤٤,٢
١٩٣٤	١٠٤,٥	١٠١	–	٤١,٦٥	٣٤,٦
١٩٣٩	١٢٢,٢	١١٩,٥	(٢)١١٦,٤	٥٢,٠٧	٣٧,٧
١٩٤٤	١٥٢,٦	١٣٤	–	٧٩,٤٨	٤٥,٢
١٩٤٩	١٦٢,٧	١٦٥,٩	١٥٦,٣	٦٩,٢٥	٣٩,١
١٩٥٤	١٩٥,٤	٢٣٢,٧	١٧٩,٧	٨٠,٣٨	٣٩,٦
١٩٥٩	٢٢٥	٢٨٩,٩	٢٠٣,٩	٩٢,٨١	٤٠,٣
١٩٦٣	٢٥٤,٦	٣٦٢,٤	٢٢٧,٧	٩٩,٣٨	٤٠,٤

المصدر :

وزارة التجارة الامريكية ، مكتب التعداد ، الاحصائيات التاريخية للولايات المتحدة ، من زمن الاستعمار حتى سنة ١٩٥٧ ، وزارة العمل الامريكية ، احصائيات العمالة والأجور الولايات المتحدة سنة ١٩٠٩ / ١٩٦٢ ، والتقرير الاقتصادى لرئيس الجمهورية سنة ١٩٦٤ .

١ – تختلف هذه الارقام الى حد ما عن الارقام الواردة بالتعليق ٢ اعلاه « والخصائص الاقتصادية للزراعة فى الولايات المتحدة » بسبب اختلافات طفيفة فى تركيب وتقييم البيانات من جانب الوكالات التى قدمتها .

٢ – هذا الرقم يتعلق بعام ١٩٣٧ .

٨ ـ يؤكد المحررون انه فى داخل الشركة الكبرى لابد من التمييز بين فصل اصحاب راس المال عن السيطرة ، وفصلهم عن الادارة فظاهرة عزلهم عن الادارة كان منذ وقت طويل ظاهرة مألوفة ، فى صورة المالك الغائب الذى يخضع نائبه أو مديره لاوامره او مالك المشروع الذى يستأجر مديرا او مالك اغلب الاسهم فى الشركة الذى يسيطر على الشركة وادارتها بفضل صوته الذى يمثل الاغلبية ".

وفصل الملكية عن السيطرة يحدث حين لا يوجد فرد واحد يمتلك نسبة من الاسهم تكفى لممارسة السيطرة بفضل هذه الملكية . وهذا هو النموذج الشائع فى الشركاتالكبرى بالولايات المتحدة وغيرها ، حيث التمويل يبلغ من الضخامة وعدد الاسهم يبلغ من الكثرة مايحول بين احد الناس وبين امتلاك اكثر من نسبة صغيرة من مجموع راس المال . فمثلا فى الشركة الامريكية للصلب ١٩٥٧ كان اكبر ملاك الاسهم يمتلك اقل من خمس من ١٪من الاسهم الموجودة وكل اعضاء مجلس الادارة وكبار الموظفين مجتمعين يمتلكون تقريبا خمس من ١ ٪ .

ومع أن الممتلكات الفردية فى ذاتها وبذاتها قد تمثل ثروة كبرى ، فانها لا تؤدى الى السيطرة " وانما تكمن السيطرة فى مجلس الادارة الذى يحدد بقاءه بنفسه ، والذى يستطيع أن يحتفظ بالسلطة الى الأبد بفضل وكالته عن حملة الأسهم ، وتمثيله لأصواتهم ولايستطيع غير مالك الاسهم أو مجموعة من ملاك الاسهم ان ينفقوا أموالا طائلة جدا ليحصلوا على توكيلات آلاف المساهمين لكى ينجحوا فى التغلب على قائمة مرشحى الادارة ويحلوا محلهم وعلى ضوء تجارب الشركات الامريكية الكبرى لا تستطيع الادارة أن تتوقع حدوث هذا التحدى الا كل ٢٠٠ سنة على الاقل " انظر

Joseph A. Livingston, The American Stockholder, Philadelphia, 1958.

هذا الاستقلال الذى تتمتع به ادارة الشركة عن أصحاب الاسهم يكسب صفات التملك ـ الحق فى تسلم فوائد والقدرة على تقرير استخدام الاموال ـ وبهذا فهو يدخل مجموعة جديدة من العلاقات غير المعروفة للنظرية الاقتصادية التقليدية ، سواء الكلاسيكية أو الماركسية : انظر :

(Adolf A. Berle, Jr., and Gardiner C. Means, The Modern Corporation and Private Property. N.Y., 1933; Adolf A. Berle, Jr. Power Without Property, N.Y., 1959; Gardiner C. Means, Pricing Power and the Public Interest, N.Y., 1962).

وفصل السيطرة عن الملكية لا يقتصر على الدول الراسمالية وشركاتها الكبرى ، فيوغوسلافيا قد حاولت تطبيق هذا المبدأ فى نظامها الاشتراكى بأن ميزت بين الملكية وهى

للمجتمع والادارة وهي — بغير ملكية — في يد مجلس العمال في كل مشروع . وفي رأي الاقتصاديين اليوغوسلافيين والمراقبين الخارجيين يعتبر هذا من الملامح التي تميز الاشتراكية اليوغوسلافية من اشتراكية الاتحاد السوفييتي ، حيث ملكية وسائل الانتاج المفروض فيها انها هي التي تباشر السلطة والدولة تدير مباشرة ، أو عن طريق اجهزة مساعدة ، المشروعات التي تمتلكها . انظر :

Calvin B. Hoover, The Economy, Liberty and the State, N.Y., 1950; G.W. Hoffman and Fred W. Neal, Yugoslavia and the New Communism, N.Y., 1962.

٩ — يعتقد الاستاذ ى.ن. اندرسون ان المحررين لم يوضحوا توضيحا كافيا ان الاخلاقيات الراسمالية ليست ظاهرة منعزلة ، بل هي جزء لا يتجزأ من نظرة اجتماعية ، ونظام للقيم ، متغلغل في المجتمعات الديمقراطية . واساسة هو الاعتقاد بأن وجود مراكز كثيرة لاتخاذ القرارات أمر يساعد على ايجاد المجتمع الصحي ، ويهيىء انسب الظروف للاستقرار والمرونة والتقدم ، وكذلك لايجاد الافراد المسئولين الخلاقين. وطبقا لهذه العقيدة الاساسية كما هي مطبقة في المجال الاقتصادي ، تكون قيمة المبادرة والابتكار والحكم المسئول من جانب أصحاب الاعمال من كل المستويات يزيد عن أن تعوضه الخسارة الناجمة عن التداخل أو المجهودات غير المنسقة . وفضلا عن ذلك فانه لما كانت نفس خصائص المسئولية الفردية واتخاذ القرارات على نطاق واسع هي من صميم الديموقراطية السياسية ، فهي بهذا جزء من صميم النسيج الاجتماعي . ومع تزايد تعقد الحياة الحديثة فان هذه المبادىء الأساسية تواجه مشكلات في التطبيق ، سواء في المجال الاقتصادي والسياسي ، مما ادى الى ظهور مؤسسات كبيرة الحجم وأنواع من اللوائح تختلف عن الصور البسيطة السابقة للمشروع الاقتصادي والمشاركةالسياسية والإعتبارات العامة تظل كما هي ، وصور التخطيط الاقتصادي والتوسع في الادارة السياسية على نحو ماحدث ، لا يستهدف احلال السلطة محل المسئولية ، بل تستهدف تقديم اطار تستطيع روح المبادرة والابتكار ان تعمل فيه ، ويجد المفهوم التعددي للمراكز الكثيرة التي تتخذ فيها القرارات تعبيرا فعالا عنه .

واذا اردت مناقشة نظرية وتحليلا لامثلة مادية فانظر /

Walter Eucken, The Foundations of Economics: History and Theory in the Analysis of Economic Reality (London, 1950).

Walter Eucken, This Unsuccessful Age, or The Pains of Economic Progress (N.Y. 1952).

Frank Knight, The Economic Order and Religion (N.Y., London, 1945). F. Knight, The Ethics of Competition & Other Essays (N.Y., London 1935). Milton Friedman, Capitalism & Freedom, Essays in Economic and Social Philosophy (N.Y., London, 1947).

١٠ — يقول الاستاذ ى . فارجا :

ان وجهة نظر العلماء السوفييت تختلف تماما عن وجهة نظر المؤلفين فيما يتعلق بمسألة الاخلاقيات الرأسمالية . فاهم البواعث للانتاج الراسمالي هو البحث

عن اقصى ربح ممكن ورفع الاستثمار والمنافسة المريرة . هذه العوامل تكون الاخلاقيات غير الاجتماعية للراسمالية ، فهى تبرر الرغبة فى الثروة بكل الوسائل .. بما فى ذلك الخداع وعدم التورع ، واستخدام القوة .

١١ ـ لا يستطيع المؤلفون السوفييت أن يوافقوا على تقييم التجميع كما قدمه كتاب هذا الفصل . فلقد جرت مؤخرا دراسة فى الاتحاد السوفييتى لعمليات التجميع وعرضت نتائج هذه الدراسة بايجاز فى الكتاب الذى صدر مؤخرا وهو

History of the CPSU (nd ed., enlarged, Moscow, Gospolitizdat, 1962, pp. 426, 429-31, 435-51, 462-7).

ان الاتجاه نحو الاقتصاد المجمع قد اتى من أسفل وشعر به كل من الفلاحين الفقراء والمتوسطين . والمدى الواسع للنمو الصناعى وانجازات العمل من جانب العمال ، قد احدثت انطباعا قويا فى الجماهير العريضة للفلاحين . فرأوا كيف ان القوة السوفييتية للعمال ، قد تغلبت على صعوبات بناء مصانع انتاج الجرارات والالات الزراعية الحديثة التى أتت بأعداد متزايدة الى القرى . وساعدت الحكومات السوفييتية الفلاحين بانشاء محطات لتأجير الالات ووحدات جرارات ، ومحطات آلات وقامت وفود كثيرة من الفلاحين بزيارة المصانع ، ومواقع بنائها وحضروا اجتماعات العمال فأصابتهم عدوى من حماسة العمال .. فلما عادوا الى القرى اصبح طلائع ممثلى الفلاحين هم الذين بادروا بتنظيم المزارع الجماعية واتجاه كتل الفلاحين الى انشاء المزارع الجماعية قد تأثر أيضا بالتجربة المثيرة لطلائع هذه المزارع وأصبح الفلاحون مقتنعين اقتناعا عمليا بمزايا الاقتصاديات الواسعة النطاق ، والعمل الجماعى على نحو لايتحقق فى مزارع الافراد ، وكانت المزارع الجماعية وما اليها هى مراكز التقدم الزراعى التكنولوجى .. وقد ساعدت السكان الفلاحين ممن حولها بتقديم الالات والسلالات الجيدة من الماشية والبذور . وفى بداية سنة ١٩٣٠ كانت حركة المزارع الجماعية فى عدد من المقاطعات قد ادت الى تجميع شامل لقرى باكملها قد انضمت الى حركة المزارع الجماعية .. وصار الفلاحون المتوسطون من الفقراء ، فانضموا الى هذه المزارع .. ومع ذلك فان انجاز انشاء المزارع الجماعية فى هذه الفترة قد صاحبته أخطاء خطيرة . فبالنظر الى تعلق الفلاحين باقتصادياتهم الفردية الخاصة وبالنظر الى العدد البالغ الضخامة من المزارع الجماعية (حوالى ٥ ٪ من مجموع المزارع) الذين قاوموا عملية التجميع واعادة البناء الاشتراكى للريف ، وبالنظر الى انعدام وجود اى تجربة تاريخية فى هذا المضمار كان تحول الفلاحين الى الاقتصاد الجماعى هو أصعب مشكلات البناء الاشتراكى وأشدها تعقيدا . وكان ف.ى لينين يفهم كل الصعوبات المتعلقة بالتجميع وقد دعا فى أيامه الى الحذر والوعى فى تحقيق هذه الغاية ، وقال محذرا انه يجب أن يحسب حساب لتعلق الفلاح بحقله ولهذا فينبغى الا يجبر على هذا بالقوة وان العجلة فى هذا الامر محفوفة بالاضرار . ولقد اثبت تطبيق التجميع فى الاشهر الاولى من عام ١٩٣٠ . أن هذه التحذيرات المعقولة لم يلتفت اليها ، وان مبدأ لينين القاضى بأن يكون الانضمام الى المزارع الجماعية اختياريا قد انتهك فقد دعا ستالين الى التعجيل باتمام التجميع .وكان ضعف تقديره لتعلق الفلاح بأرضه الصغيرة الخاصة ، ورفضه الاستماع الى المقترحات المتعلقة بها من جانب عمال الحزب فى الريف أخطر خطأ ارتكبه فى التقدير وكان الاصل فى كثير من الاخطاء التى وقعت فى بداية التطبيق الشامل لنظام المزارع الجماعية . ومع ذلك

فانه ماحل ربيع عام ١٩٣٠ حتى كان الحزب قد أدرك ماصار اليه الموقف فى القرى ، وشرع يعالج الاخطاء التى ارتكبت وقد اتجه الاهتمام الرئيسى الى بناء النظام الاقتصادى فيما يتعلق بالمزارع الجماعية . والاخطاء التى حدثت فى اقامة المزارع الجماعية لم تهز الايمان بصحة الخطة التعاونية اللينينية ، وبأن التجمع هو الطريق الوحيد لانقاذ الفلاحين الكادحين من عبوديتهم على يد (ملاك الاراضى) وانقاذهم من الفقر والجهل ، وأنه الطريق الوحيد لحياة حرة سعيدة .»

١٢ ــ وفى رأى الاساتذة السوفييت انه ينبغى الا نوحد بين السياسة الشخصية لستالين خلال فترة حكمة وسياسة الحزب الشيوعى والحكومة السوفييتية . ففى قرار (التغلب على المذهب الشخصى ونتائجه سنة ١٩٥٦) كتبت اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ما يلى « تنفيذا لتعليمات لينين قام الحزب الشيوعى بالتصنيع الاشتراكى للريف ، وتجميع الزراعة ، وتحقيق ثورة ثقافية .. ان ج . ف . ستالين قد ظل لفترة طويلة يشغل وظيفة السكرتير العام للجنة المركزية للحزب . مع زعماء آخرين قاتلوا بنشاط لتحقيق مبادىء لينين .» ومن الخطأ أن تقترن كل انتصاراتنا الكبرى باسمه .. فنواحى النجاح فى بناء الاشتراكية ، وتقوية الاتحاد السوفييتى ، قد نسبت الى ستالين تأثرا بمبدأ عبادة الفرد » .

« ان المؤتمر العشرين للحزب والسياسة الكاملة للجنة المركزية بعد موت ستالين، تثبت بما لا يدع مجالا للشك انه كانت توجد نواة مترابطة من الزعماء اللينينيين الذين فهموا بحق احتياجات الخطة ، سواء فى الشئون الداخلية أو الخارجية . ومن المستحيل ان نقول انه لم تكن هناك مقاومة للظواهر السلبية المرتبطة بعبادة الفرد فقد كانت أشبه بالفرملة التى تعوق سير التقدم الاشتراكى ، وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك فترات خاصة ــ مثل فترة الحرب ــ كان فيها حكم ستالين الفردى فى أضيق الحدود ، وخفت فيها قسوة الاحساس بالآثار الضارة للاعمال التعسفية وغير المشروعة ومن المعروف بالضبط انه أثناء مدة الحرب كان أعضاء اللجنة المركزية وكذلك كبار قادة الجيش السوفييتى قد اخذوا فى أيديهم جوانب خاصة من النشاط فى الجبهة وفى المؤخرة واتخذوا قرارات مستقلة به وقرارات مع المنظمات الحزبية المحلية والسوفييتية واستطاعوا بعملهم السياسى والاقتصادى والحزبى أن يحققوا النصر للشعب السوفييتى فى الحرب .. وبعد موت ستالين مباشرة شرعت النواة اللينينية المتماسكة فى اللجنة المركزية فى صراع حاسم ضد عبادة الفرد ونتائجها الخطيرة .» ومن الخطأ البين أن نستنتج من وجود عبادة الفرد فى الماضى أن تغيرات من نوع ما قد أصابت البناء الاشتراكى فى الاتحاد السوفييتى، او ان نبحث عن مصدر هذه العبادة فى طبيعة النظام الاجتماعى السوفييتى فهذا خطأ مبين ، لانه يخالف الواقع وتكذبه الحقائق .

وبرغم ما ادت اليه عبادة الفرد فى عهد ستالين من اضرار بالحزب والشعب، فانها لم تستطع ان تغير ، ولم تغير طبيعة نظامنا الاجتماعى . فلا تستطيع عبادة الفرد أن تغير من طبيعة دولة اشتراكية قائمة على ملكية الشعب لوسائل الانتاج ، وتحالف العمال والفلاحين «والصداقة بين الناس» .

(KPSS v rezolyutsiyakh i resheniyakh syezdov, konferentsiy i plenumov Ts K [The CPSU in the resolutions and decisions of its Congresses, Conferences, and Central Committee plenums], 7th ed., Pt. IV., Moscow, Gospolitizdat, 1960, pp. 227-31).

والواقع انه حتى فى هذا الوقت ، برغم تشويه ستالين لكثير من مبادىء لينين الخاصة بزعامة الحزب والسوفييت فان اللجنة المركزية والدولة السوفييتية كانا ينفذان سياسة تتفق ومصالح الشعب السوفييتى . ونتيجة لهذا النشاط السليم استطاع الاتحاد السوفييتى أن يخرج منتصرا من الحرب العالمية الثانية واستطاع ايضا ان يعيد بناء اقتصاده بسرعة بعد الحرب .

«وبرغم عبادة الفرد فان كتل الشعب قد قاومت هذه العبادة وكان يقودهم الحزب الشيوعى ، نتاج نظامنا وقد أظهر مؤهلا فى المبادرة وادى الى تحقيق عمل تاريخى عظيم ، وأمكن التغلب على كل الصعوبات التى اعترضت بناء الاشتراكية .. وقيام الحزب نفسه بشجاعة باثارة مسألة تصفية عبادة الفرد والاخطار الجسيمة التى اقترفها ستالين مجرد هذا برهان مقنع على أن الحزب يقف بصلابة حارسا على اللينينية ، ومبادىء الاشتراكية والشيوعية ، وأنه يرعى الشيوعية الاشتراكية ومصالح الشعوب وانه يحرس حقوق المواطنين السوفييت »

١٣ ــ يلاحظ الاستاذ أ.ا. زلوريكين ان مؤلفى هذا الفصل ليست لديهم فكرة واضحة عن الملامح المميزة للاقتصاد السوفييتى . فهم يصورون تطور هذا الاقتصاد على أنه نتيجة للاجراءات التى اتخذت لمكافأة من يحسنون العمل ، ومعاقبة من يسيئونه ولكن الموقف من العمل قد تغير فى الاتحاد السوفييتى .. فالسنوات الاولى من حكم السوفييت قد رات فعلا ظهور التنافس الاشتراكى الذى صار حافزا قويا فى نمو الاقتصاد السوفييتى ولقد بدأ فى أعوام الحرب الاهلية ، حين قام عمال سكة حديد موسكو ــ كازان بتنظيم عمل تطوعى شيوعى فى الاجازات أو خارج أوقات العمل الرسمية . وكان هذا فى اول مايو سنة ١٩١٩ . واصبح واسع الانتشار فى أعوام الخطة الخمسية الاولى . واستمر التنافس الاشتراكى ينمو فى أعوام الحرب وفى فترة اعادة بناء الاقتصاد القومى فى أعوام مابعد الحرب .. وقد أصبح الآن حركة قوية من حركات العمال الشيوعيين ، يشترك فيها ملايين من الطبقة العاملة والدليل على أن الموقف قد تغير ازاء العمل ، اقبال العمال أنفسهم على ايجاد طرق لتحسين التكنولوجيا ــ كما عبر عن ذلك ظهور المخترعات والمبتكرات الصناعية . ففى سنة ١٩٦١ تقدم ٢٫٥٩٤٫٠٠٠ شخص ٤٫١٥٢٫٠٠٠ اختراعا ومقترحا لترشيد الصناعة ، ومن هذا الرقم اوصي بأن يطبق الانتاج ٢٫٦٧٦٫٠٠٠ ويمكننا أن نورد امثلة لايمكن أن تخطر على البال فى المجتمع الرأسمالى عن تضحيات العمال السوفييت من أجل تحسين معدلات الانتاج . ومن الامثلة ان فالنتينا جاجانوفا ، وهى من عاملات مصانع نسج القطن ، قد تطوعت بقيادة فرقة متخلفة لكى تدرس لافرادها التقنيات المتقدمة وان كان هذا بالنسبة اليها شخصيا يعتبر خسارة مادية ولقد لقى عمل جاجانوفا ترحيبا من الرأى العام فى البلاد ، وحذا الكثيرون حذوها . وقد يكون من التشويه لهذا الموقف ان نرجعه الى التماس المكافأة ، فهذا دافع خارجي . فجذور هذا العمل تصل الى ماهو أعمق من ذلك بكثير لانها ترتبط بنمو الوعى الشعبى وتطور الاخلاقيات الاشتراكية الجديدة .. والعمل غير الانانى الذى يقوم به الشعب السوفييتى يعتمد على الانتفاع الداخلى العميق وعلى ادراك ان العمال انما يعملون بأنفسهم مادامت وسائل الانتاج قد انتقلت من القطاع الخاص الى الشعب العامل نفسه . ان الغاء الملكية الخاصة لوسائل الانتاج واقرار الملكية الجماعية كانت العوامل الفاصلة فى تغيير الموقف ازاء العمل فى الاتحاد السوفييتى وفى نفس الوقت فان الحوافز المادية والمعنوية لها أهمية كبيرة . فالناس

الذين يحققون انتاجية مرتفعة فى العمل يقدمون نوعا ممتازا من الانتاج • ويقللون تكلفة الانتاج ٠٠ هؤلاء يمنحون التشريف والتبجيل فى الاتحاد السوفييتى ويعتبر أبرعهم أبطالا قوميين وتكتب عنهم الصحافة وتفرد لهم اذاعات خاصة ، وتعرض صورهم بشكل ظاهر فى المدن والقرى بالاتحاد السوفييتى . ونظام الاجور فى الاتحاد السوفييتى الذى يعتمدعلى مبدأ الاشتراكية — كل على قدرته ولكل على قدر عمله — يتم بتنظيم كامل بحيث يستفيد الناس ماديا من تفوق انتاجهم كما ونوعا . ولاتفكرالاشتراكية فىالحوافز المادية ١٠ بل تضيف اليها الحوافز المعنوية ، وفضلا عن نظام الحوافز ، فهناك أيضا اجراءات العقاب التى تطبق على الكسالى ، ومن يخرجون على نظام العمل وتتخذ شكل تشهير علنى وتوبيخ وفى حالة الخروج الشائن على النظام ، قد يفصل المخطىء ولكن الفصل لايلجأ اليه الا فى حالات استثنائية ، ولابد ان يكون بموافقةمنظمةاتحادالعمال . ويخلط كتاب هذاالفصل بين العقوبات التى تصب على الخارجين على القانون بالاجراءات التى تتبع لتنظيم الانتاج ، والقيود التى تفرض على حق العمال فى ترك وظائفهم قد ادخلت خلال اعوام الحرب العالمية الثانية حين لاح بالفعل شبح الهجوم الذى شن بالفعل على الاتحاد السوفيتى وكان لابد من تعبئة القوى لمقاومة العدو . فلما تمت اعادة بناء الاقتصاد القومى بعد الحرب ، رفعت هذه القيود ١٠ وكانت تعتبر دائما اجراء استثنائيا ، اقتضته الضرورة القصوى ، ولم تعتبر التقاليد الطبيعية للمجتمع السوفيتى ١٠ أما تعيين الاخصائيين فى أعمال تخرجهم فى المؤسسات التعليمية فهذا لايمكن اعتباره نوعا من العمل الاجبارى ١٠ فشباب السوفييت الذين يتلقون تعليما مجانيا ومعونات مادية أثناء الدراسة يعتبرون أن من واجبهم المشرف عندما يتخرجون ان يعملوا عامين أو ثلاثة فى هذه المشروعات والمنظمات ، وفى تلك الاجزاء من الوطن التى تشتد فيها الحاجة الى الاخصائيين وعلى العموم فان تجميع قوة العمل اللازمة فى اى جزء من البلاد لا يتم الا على أساس التطوع والاختيار . فخلال العهد السوفييتى تطوع ملايين الشباب للعمل فى مشروعات البناء الجديدة فى الاورال ، وسيبيريا وفى الشرق الاقصى وفى الاراضى البكر . وطرق تنظيم الاقتصاد الاشتراكى لا يعوق التقدم الاقتصادى بل يدفعه الى الامام وما ذكرته الصحف السوفيتية عن العمال لبعض المشروعات وغير ذلك من الأعمال غير الأجتماعية ليست من الصفات المميزة للاقتصاد الاشتراكى ولا يعتبر بحال من الاحوال نتيجة للصورة الاشتراكية لتنظيم الانتاج .

V.I. Lenin, Kak organizovat sorevovaniye (How to Organize Competition) Collected Works (4th Russ. ed.) (Moscow, Gospolitizdat, 1949), Vol. 26, pp. 367-76.

V.I. Lenin, Oscheredniye Zadachi Sovetskoi vlasti (The Immediate Tasks of the Soviet Government) loc. cit. (Moscow 1950), Vol. 27, pp. 230-3).

V.I. Lenin, Velikiipochin (A Great Beginning) loc. cit. (Moscow, 1950, Vol. 29, pp. 377-400).

واعمال لينين موجودة بكل اللغات الهامة

V.I. Gershberg, Dvizheniye kollektivov i udarnikov kommunisticheskogo truda (Movement of Communist Labour, Collectives and Shock Workers), Moscow Gospolitizdat, 1961).

Ustokov, kommunisticheskogo truda (At the Sources of Communist Labour) (Moscow, Sotsekgiz, 1959).

I.I. Changli, Sotsialisticheskoye sorevnovaniye i noviye formy kommunisticheskogo truda (Socialist Competition and New Forms of Communist Labour) (Moscow, Sotsekgiz, 1959).

١٤ ــ يقول الاستاذ / ى . س « فارجا انه حتى قبل نهاية الحرب نشأت خلافات خطيرة بين الاتحاد السوفييتى وحلفائه وبخاصة بريطانيا العظمى فيما يتعلق بالنظام الاجتماعى ونظام الحكم فى البلاد التى تحررت من النير النازى . فكان الحلفاء يريدون ان يتأكدوا قبل كل شىء من بقاء النظام الرأسمالى وأن يسلموا السلطة فى بولندة وتشيكوسلوفاكيا للزعماء الذين كانوا قد هاجروا الى لندن وأعلنوا انهم الحكومة المؤقتة واعتبر الاتحاد السوفييتى ان شعوب هذه البلاد انفسهم ينبغى ان يقرروا ماذا يريدون هل هم يريدون نظاما للحكم يكون على رأسه زعماؤهم السابقون أم يريدون انشاء نظام جديد برعامة من سبق لهم أن حاربوا الفاشية داخل بلادهم ذاتها . وكانت مسألة احتفاظ دول وسط وجنوب شرق أوربا بالنظام الرأسمالى أو تكون نظاماً اشتراكيا جديدا ــ كانت هذه المسألة من أهم القضايا التى أدت بعد انتهاء الحرب الى ظهور « الحرب الباردة » ».

فالاتحاد السوفييتى بتحريره بلاد وسط وجنوب شرق أوروبا من قوات الاحتلال الهتلرية قد عبد الطريق أمام القوى التى سبق لها أن نظمت حركات المقاومة ضد الفاشية وحلفائها الداخليين فظهر صراع طويل بين القوى الرأسمالية والمعادية للرأسمالية ، انتهت بعد ثلاث سنوات أو اربع بانتصار الثانية على الاولى ، والانتقال الى الاشتراكية فى كل دول وسط وجنوب وشرق اوروبا باستثناء بلاد اليونان بسبب التدخل البريطانى فيها وفى مكان أراضى المانيا السابقة ظهرت دولتان : جمهورية المانيا الاتحادية وجمهورية المانيا الديموقراطية .

١٥ ــ علاج أوروبا الشرقية فى النص ، فيما يتعلق بالفترة التى اعقبت الحرب العالمية الثانية ، قد وجه اليه النقد من جانب الاساتذة الذين يعتقدون ان علاقة التبعية بين هذه الدول والاتحاد السوفييتى لم تنل قدرا كافيا من الايضاح ومن بين من قال بهذا الرأى الاستاذان أوسكار هاليكى وروبرت ستراوز هوبى (الولايات المتحدة) .

١٦ ــ يقول المحررون أنهم لم يبذلوا محاولة لان يضعوا تمييزاً محددا للعلاقات الاقتصادية والسياسية والعسكرية المعقدة بين الاتحاد السوفييتى ودول شرق أوروبا .

١٧ ــ يقول الاستاذ / س « ج . ستروميلين ان استقرار اقتصاد الدول الاشتراكية لا يعتمد على أساليب القمع والقهر كما يعتقد المؤلفون . بل على تخطيط الاقتصاد على نطاق قومى « ومن المزايا الرئيسية للنظام الاشتراكى على النظام الرأسمالى امكان تسيير الاقتصاد بأكمله طبقا لخطة واحدة . والطابع التخطيطى لاقتصادنا يتضمن مراعاة واعية وتنفيذا متسقا لمبدأ التنمية النسبية لكل فروع الاقتصاد ».

S.G. Strumilin, «Planirovaiye: nashe reshayuschcheye preimuschchestvo» (Planning: Our Decisive Advantage), in Molodoy Kommunist (The Young Communist) 1957, No. 3, p. 12.

الفصل الثالث

النظم الاجتماعية

ان التغيرات التى حدثت فى القرن العشرين قد أصابت كل النظم بالتغيير ، كما أنها لم تدع أى علاقة من العلاقات دون تعديل . وقد شمل هذا فيما شمل الوحدة الأساسية ، وهى الأسرة ، وكذلك مختلف الطبقات الاجتماعية التى تحدد للفرد وضعه الاجتماعى خارج الأسرة . ونظرا لأن هذه النظم التقليدية قد تغير طابعها ونظرا لأن أوضاعا جديدة قد غيرت من مكان الفرد فى المجتمع ، فقد صار كثير من العلاقات يتحدد عن طريق التجمع الاختيارى على أساس تشابه الوضع الاقتصادى أو الأفكار السياسية ، أو السن ، أو الجنس ، أو المصالح المشتركة . غير أنه فى المجتمعات المتحركة السريعة التغير فى القرن العشرين لم يعثر على بديل للعلاقات المستقرة نسبيا ، التى كانت تضفى على معظم الأفراد في الماضى الاطمئنان على وضعهم ودورهم فى المجتمع . وهكذا يواجه الفرد الحديث مهمة فريدة شاقة فى تحديد مكانه بين تعقيدات الحياةالحديثة.

١ – الاسرة

أصيبت الاسرة خلال القرن العشرين بتغيرات كبرى فى تركيبها ووظائفها وبنائها فى كل أجزاء العالم تقريبا ، على اختلاف الأشكال التقليدية السابقة للأسرة ودورها فى ثقافة كل بلد من البلاد .

وفى بداية القرن كانت أشكال الأسرة تختلف اختلافا واسعا ، ففى الغرب كانت الأسرة الريفية التقليدية الشديدة الارتباط بالأرض تكفل الاستمرار فى علاقاتها مع الأرض وتحتفظ بخصائصها سواء بين صغار الملاك من الفلاحين ، وكبار الملاك من الأعيان . وكانت هذه الأسرة على العموم أبوية واستبدادية ، وكان الطابع الغالب عليها أن تشمل ثلاثة أجيال وعددا يختلف فى حجمه من الأقارب . وكان الزواج يستهدف بقدر الامكان تحسين وضع الأسرة من حيث هى مالكة الأرض . وحيث انتشر نظام

تفضيل الابن الأكبر كما هي الحـــالة في بريطانيا ، كان فرع واحد من الأسرة يظل حافظا لكيانه متصلا بالأرض بينما الأبناء الآخرون والبنات اللاتى لم تتهيأ لهن فرصة الزواج فى أسرة تورث أرضا ، هؤلاء الأبنـاء والبنات كانوا يتلمسون رزقهم فى المدن أو فى الهجرة ، اما فى فرنسا وما حذا حذوها فقد أدى نظام المواريث الى تفتيت الأراضى بين أفراد الأسرة فأدى هذا بأصحاب الأنصبة الصغيرة التى لا تكفيهم الى التماس العمل فى المدن فيما وراء البحار كما كان يفعل الايطاليون ٠

وفى مجتمعات المدن فى الغرب صار المألوف هو أسرة الجيلين الآباء والأبناء وكانت هذه الأسرة تتركز حول الأب بدرجة قوية اذ كانت سلطة الزوج والأب يؤيدها القانون الانجليزى السكسونى وقانون نابليون وان كانت هذه السلطة من الناحية العملية تتراوح بين السيطرة كما كان الحال فى معظم الأسر الألمانية والايطالية ، الى السلطة المحدودة بدرجة أكبر كما كان الحال فى كثير من الأسر الحضرية بالولايات المتحدة ٠ وحيثما خلف تراث أيام الرق أثره على بنيان الأسرة كما فى جزر الكاريبى وعند كثير من الزنوج فى الولايات المتحـدة ، كانت الأسر الريفية والمدنية غالبـا ما يكون مركزها الأم فى صورتها الفعلية ، ذلك أن الرق يلغى الحيـاة الأسرية ، وهو فى العادة يضفى على الأبناء وضع أمهاتهم ولا يتيح للأب سلطة ولا يلقى عليه مسئولية ٠

وخارج مناطق الثقافة الغربية كان يسود شكل من الأسرة المشتركة، التى لها أملاك مشـــتركة ، أو شكل من الأسرة الموسعة التى تقوم على التكافل بين أعضائها ، وان كانوا لا يشتركون فى الممتلكات ٠ كان هذا الشكل هو فى العادة أساس البناء الاجتماعى ، وان لم يكن الأساس لهذا البناء فى كل مكان ٠ ففى الصين كانت الأسرة المشـــتركة قد ازدادت اتساعا بالمجتمعات الأسرية خارج نطاق البيت المشـترك ٠ وفى الهنـد كانت الأسرة المشتركة أبوية فى الأغلب ، وان كان لبعض المجتمعات نظام للأسرة المشتركة، السيادة فيه للأم. وتحتفظ كملكية عامة بثروات الأعضاء الذين توجهوا للعمل فى المدينة كما تحتفظ بممتلكات أعضاء مجمـوعة الأسرة التى تقيم فى الريف ٠ أما الأسرة المسلمة ، وهى أبوية بدرجـة قوية ، فكانت على العموم تتبع شكل الأسرة الموسعة ، فكان أعضـــاؤها من النساء معزولات فى المنزل ، أو محجبـات خوفا من عيـــون الرجال الآخرين ٠ وكانت مسئوليتهن الأولى انجاب الأطفال ، لكفالة اسـتمرار الأسرة ٠ وما لم يكن عقـد الزواج ينص على غير ذلك فان لأزواجهن أن يطلقوهن ، اذا شاءوا وأن يأتوا بزوجات أخريات الى الأسرة ٠ وحيث

ينتشر النظام القبلى فى افريقيا وبين الشعوب القبلية فى غيرها من البقاع كانت الأسر المتعددة الزوجات تندمج فى النظم القبلية ، لتقيم البنـــاء الاجتماعى فى هذه المناطق .

وخلال النصف الأول من القرن العشرين ، تعدلت أشكال الأسر هذه بفعل ما وقع فى هذه الأعوام من تغييرات اجتماعية .

١ ــ الأسرة بمدن الغرب (١) :

كان من أثر التصنيع وحياة المدن أن أخذت أسرة الجيلين المتمركزة حول الأب تحل محل الأسر الأكثر اتساعا فى المناطق الريفية . وكانت أسرة المدينة بدورها تتأثر بتغير الظروف الاقتصادية ، وتغير وضع المرأة ، وتغير المواقف نحو الأطفال وصبغ العلاقات الاجتماعية بالصبغة الديمقراطية والفردية . وربما كان أهم من هذه العوامل جميعا الاحســاس المتزايد بأن الانسان يستطيع الى حد ما أن يســيطر على مصيره وليست به حاجة لأن يستسلم تمـــاما للقدر . ونتيجة لذلك تناقص حجم أسرة المدينة ، وتعدلت وظيفتها ، وانطبعت بالطابع الفردى والديمقراطى فى بنيانها ، وأصبحت تعانى من قدر متزايد من عدم الاستقرار ، من حيث هى مجموعة اجتماعية .

(أ) التغيير فى حجم الأسرة :

ساد الاتجاه فى مجتمع المدنية الغربية وفى المجتمعات الريفية التى انتشرت فيها تأثيرات المدنية وقيمها الى تصغير حجم الأسرة . ففى ظروف المدنية فى القرن العشرين صار الأطفال عبئا اقتصاديا لا كسبا اقتصاديا لأن قوانين تشغيل الأطفال والتعليم الاجبارى قد أخرت من تاريخ اسهامهم الاقتصادى وأطالت من فترة اعتمادهم على أسرهم . كما أن نفقات تربية الأطفال وتعليمهم قد زادت بزيادة سنوات التعليم بالمدارس كما ارتفعت المستويات بالنسبة لما هو ضرورى للنضج الكامل للابن أو البنت هذا الى أن أزمة الاسكان وضيق المساكن فى المـــدن كانت تغرى الأبوين بعـــدم انجاب كثير من الأطفال .

وفى نفس الوقت تزايد الاعتقاد بأن الأطفال مســئولية يجب أن يتحملها الأبوان على نحو إيجابى ولا يكتفون بتقبلها على أنها قدر لا مفر منــه وتزايد الاعتقاد بأن الآباء ينبغى أن يكونوا قادرين على أن يكفلوا

لأطفالهم تربية طيبة • فأصبحت الأسر التى تتألف من طفلين أو ثلاثة هى الأسرة المألوفة فى المدن • ورسم الأبوان خطط أسرهم طبقا لذلك •

لقد نمت فكرة مؤداها أن حجم الأسرة يجب أن يكون محل تخطيط واع وانتشر تحـديد النسل خـلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر وانتشر كذلك على نطاق واسع خلال القرن العشرين • ولقد كانت حركة تحديد النسل تحركها فى الأصـــل عدة اعتبـــارات متميزة : ــ تأكيد المالتوسيين الجدد على ما قـد تجره كثـــافة السكان من أضرار ، ورغبة المصلحين فى مساعدة العاملين وتحديد عدد أسرهم الى الحـــد الذى يستطيعون اعالته ، واعتقاد انصار المرأة انه يجب أن يكون لهـــا حـــق الاختيار والا تتعرض للحمل المستمر أو غير المرغوب فيه .

وكان أول مكتب أنشىء لتقـــديم الارشاد عن كيفية منع الحمل فى أمستردام فى ثمانينيات القرن الماضى بفضل أول طبيبة هولندية دكتورة Aletta Jacobs كجزء من جهادها لتحسين صحة الأم • ولكن كان لابد من جهاد قوى للخروج بموضوع تحديد النسل الى الفضاء الفسيح ووضع المعلومات الخاصة به فى متناول النـــاس ، ولقد طبقت القوانين الخاصة بنشر المعلومات البذيئة أو الجنسية على نشر المعارف الخاصة بمنع الحمل فقدمت السيدة Annie Besant للمحاكمة فى انجلترا سنة ١٨٧٧ بهذه التهمة • فأدت محاكمتها الى زيادة انتشار المعلومات الخاصة بمنع الحمل ، وأدت الى تكوين لجان مالتوسية فى كثير من دول أوروبا وعقد أول مؤتمر دولى للمالتوسية الجديدة فى باريس سنة١٩٠٠ وأعقبته مؤتمرات أخرى فى السنوات الخمس والعشرين التالية ولقد جرت محاكمات شهيرة حول هذه المسألة اختلف فيها الرأى فى بلجيكا وفرنسا واستراليا والهند •

وفى الأعوام الأولى من القرن العشرين أدت جهود الدكتورة مارى ستوبس فى بريطانيا والممرضة مارجريت سانجر فى الولايات المتحـدة الى توكيد الجانب الصحى من المشكلة وأيدهم فى هذا كثير من الأطباء ، ومن زعيمات الحركات النسائية مثل السيدة/أوتيسن جنسن فى السويد• وانعكست جهودهم فتبلورت فى تكوين لجنة تحديد النسل فى الولايات المتحدة عام ١٩١٤ ، وانشاء عيادات لتحديد النسل فى لندن ونيويورك فى أوائل عشرينيات هذا القرن • ولقد سافرت السيدة سانجر الى الخارج عام ١٩٢٢ فأثارت الاهتمام بهذه الموضوعات فى اليابان والصين والهند• وأخذ الموضوع ينـــاقش بنشاط فى أمريكا الوسطى والجنـــوبية وتقدمت الحركة رغم معارضة هيئات كثـيرة ولا سيما الكنيســة الكاثوليكية التى

قاومت باصرار تهاون القوانين وانتشار عيادات تحديد النسل . ولم يقض على حركة تحديد النسل ما صدر ضدها من قوانين رادعة فى العشرينات فى ايطاليا وفرنسا لتشجيع الناس على كثرة الانجاب .

وفى الربع الثانى من القرن انتقل مركز الثقل فى الحركة من التركيز على الناحية السلبية وهى منع الحمل غير المرغوب فيه الى الناحية الايجابية وهى التخطيط للأسرة ، ولقد صار هذا التحول أمرا لابد منه نظرا لقلة الوفيات بين الاطفال ، وتوقع ان من يولد منهم سوف يعيش، فرأينا ان لجنة تحديد النسل قد حل محلها الأبوة المخططة التى كان هدفها أن تحصل الأسرة على العدد الذى تريده من الأطفال الأصحاء ، وممن ترى أنها تستطيع العناية بهم . وأخذت العيادات تقدم المساعدات على علاج العقم كما تعنى بالوسائل الفعالة لمنع الحمل تحديدا لعدد الأطفال وفى منتصف القرن كان التحديد العمد لحجم الأسرة قد أصبح أمرا واسع الانتشار فى البلاد المتقدمة صناعيا .

وكان صغر حجم الأسر ملحوظا بنوع خاص فى المدن الكبرى وبين المتعلمين والعناصر التى تشغل أعمالا عليا فى المجتمع . والاختلافات فى حجم الأسرة بين مناطق المدن والريف وبين الطبقات العليا والدنيا قد أصبح على هذا النحو يتناسب تناسبا عكسيا مع قدرة الأسرة على اعالة الأطفال ففى كل الدول الغربية كان متوسط حجم الأسرة فى المناطق المدنية الكبرى قد هبط عند نشوب الحرب العالمية الثانية بما يقل عن المستوى اللازم بفعل النمو الطبيعى فاعتمد نمو المدن على من يهاجرون اليها من الريف حيث كانت الأسرة لا تزال كبيرة العدد . وكان هذا الاتجاه ملحوظا بدرجة أقل فى أمريكا اللاتينية حيث بقى نموذج الأسر الكبيرة . ولكن فى أوروبا فى فترة ما بين الحربين اتخذت بعض الدول اجراءات مثل العلاوة الاجتماعية والمعاونة على توفير المساكن بأجور منخفضة للأسر الكبيرة العدد ، كما توفر لهم بعض المزايا العامة حتى يقل عبء تربية الأطفال . وكانوا يهدفون من ذلك التشجيع على تكبير حجم الأسر بين من يأخذون واجباتهم الأبوية مأخذ الجد ويمارسون التخطيط للأسرة . ولذا فهم أميل الى التقليل من عدد الأطفال اذا قيسوا بالعناصر غير المسئولة فى المجتمع .

وفى الأعوام التى تلت الحرب العالمية الثانية تعدلت الاتجاهات الخاصة بحجم الأسرة الى حد ما . فمن ناحية امتد نموذج الأسرة الصغيرة الى عناصر جديدة من السكان بانتشار المعلومات الخاصة بمنع الحمل .

وكان العمال والفلاحون يصبون الى مستوى معيشى أفضل ويصبون الى أن تتاح لأطفالهم فرص تشبه الفرص المتاحة لأبناء الأسر التى سبق لها أن مارست التنظيم • ومن ناحية أخرى كان الاتجاه نحو التصغير المبالغ فيه فى حجم الأسرة من جانب المتعلمين والعناصر المدنية قد تعدل بفعل الظروف النفسية والاقتصادية التى سادت فى هذه الأعوام ، وأصبحت الأسرة ذات الأطفال الثلاثة أو الاربعة هى السائدة بين مجموعات كانت منذجيل واحد تميل الى أن يكون للأسرة طفلان أو ثلاثة • وكان هذا الاتجاه واضحا مثلا فى فرنسا ، التى كانت قد مضت بعيدا فى اتجاه الأسرة البالغة الصغر • ونتيجة لذلك ضاقت الفوارق المميزة بين المجموعات الاجتماعية ـ مثل الفروق الطبقية والفروق بين أهل المدن والريف، وكذلك الاختلافات العنصرية ـ ومع ذلك فقد مضت عشرة أعوام بعد الحرب ولم تختف هذه الفوارق المميزة كل الاختفاء •

(ب) تعديل وظيفة الأسرة :

كان من شأن التطورات التى حدثت فى القرن العشرين أن تجردت أسرة المدينة فى الغرب من كثير من وظائفها التقليدية • لقد احتفظت بالقليل من ملامحها الاقتصادية من حيث هى وحدة انتاجية حين أصبحت جزءا من اقتصاد المدينة • فالعمالة فى المدينة تعتمد كلها تقريبا على أساس الفرد لا الأسرة ، وأخذ المشروع الكبير يحل بدرجة متزايدة محل الانتاج الحرفى حيث كان الأب والابن غالبا ما يشتغلان معا فى ورشة واحدة . ورغم استمرار قدر كبير من تجارة التجزئة فى المتاجر العائلية ـ مثل محلات البقالة والتبغ والملابس ـ فان انتشار سلاسل المتاجر ، والمحلات ذات الأقسام ، والأسواق الكبيرة ، قلل من حجم هذا النوع من المشروعات الأسرية • ولقد ظلت بعض النشاطات الانتاجية فى المنزل ، ومالت الى الزيادة بفضل تقدم الآلات المنزلية مثل الغسيل فى المنزل بعد ظهور الغسالة الكهربائية • ولكن هذا لم يتغلب على الاتجاه العام لانتقال النشاطات المنزلية السابقة ، مثل صناعة الملابس واعداد الخبز وطهى الطعام الى انتاج المصنع •

غير أن الأسرة الصغيرة استمرت وحدة اقتصادية لأغراض الاستهلاك والعون المتبادل • كان أفراد الأسرة الذين يعملون خارج المنزل يصبون ما كسبوا من المال فى وعاء عام ، للانفاق على الأسرة كلها ، وان كان هذا يتغير مداه تغيرا كبيرا تبعا لثقافة البلد وما جرت عليه الأسرة • ولكن

مسئولية التكافل المتبادل بين الآباء والأبناء والاخوة والأخوات والأجداد والحفـدة • لم يكن قويا فحسب ، بل وكان أيضـا منصوصا عليه فى القانون • ولقد فقدت الأسرة حتى بوصفها وحـدة استهلاكية ـ بعض مجالاتها بسبب تزايد المطاعم العامة التى حلت جزئيا محل وجبـات الأسرة ، وبسبب أنواع الترفيه والتسلية والأنشـطة الاجتمـاعية التى يستمتع بها أفراد الأسرة مع لداتهم ، أو من يشتركون معهم فى الهوايات والميول أكثر مما يتسلون مع أفراد العائلة •

كذلك أخذ دور الأسرة التربوى فى الضعف ، كلما زاد بعد التعليم الذى يتلقاه الطفل عن محتوى الحياة الأسرية ، ومجال خبرة الوالدين ، وكلما انتقلت مهمة التعليم الى الدولة عن طريق المدارس المعانة من الحكومة أو الكنائس • لقد مضى زمن كان المفروض فيه أن يتأثر الابن خطا أبيه ، والبنت خطا أمهـا ، فكان التعليم الزراعى والحرفى والواجبـات المنزلية يمكن أن يقـدم فى البيت • أما فى مجتمعات المـدن فى القرن العشرين فالأبناء والبنات بحـاجة الى التهـام قدر متزايد من المعـارف العلمية والتكنولوجية والأدبية التى تقدمها المدارس ، لا الأسرة •

وتعمل المدرسة فى عديد من المواقف كوكيلة عن المجتمع تجاه الآباء والأبناء • فهى التى تحدد ما ينبغى للابن أن يتعلمه كما تؤثر فى سلوك الوالدين • واننا لنجد بين أسر المهاجرين الذين تصوغ المدرسة أبناءهم بما يلائم ثقافة البلد الذى استوطنوه ، أو بين المهاجرين من الريف الى الحضر ، الذين تعلم أبناؤهم حيـاة المدينة أو فى البلاد التى عمدت الى احداث تغيير اجتماعى سريع ، فى كل هذه الأحوال يتعلم الأبنـاء فى المدرسة أشياء كثيرة لم يعرفها آباؤهم قط ، بل ويتخذون مواقف وقيما تختلف عما يسود فى المنزل •

كذلك فان أسرة المدينة فى حركة مستمرة ولهذا قلت ـ الى حـد كبير ـ فعاليتها فى اضفاء المكانة الاجتماعية على أعضائها • فلم يعد وضع الفرد يتقرر بصلاته الأسرية الا فى أعلى المستويات الاجتماعية ، وفى داخل بعض المجموعات المحـدودة • فهو أصلا من يكون الشخص لا ماذا يكون ؟ ولكن بالنسبة لأغلبية الناس وبخاصة فى المراكز المدنية الكبرى ، لم تعد الأسرة مصدر تحديد المكانة الاجتماعية للفرد • فالفرد فى المدينة فى صلاته المتنوعة بالمدرسة والعمل والحى الذى يقيم به وممارسة هواياته وقضاء وقت فراغه أو صلاته اليومية العارضة ، صار يعرف بماذا يفعل ، لا بمن يكون ، وأصبح الوضع الاجتماعى للفرد تحدده الصفات الشخصية

ـ العمل ، والتعليم ، والثروة ، والمواهب العقلية ، والشخصية • واذا كانت الصلات الأسرية قد تكون الى الآن مزكيا للترقية أو فرص الزواج ، فقد صار دورها اضافيا وليس أساسيا •

ولكن بينما قل دور الأسرة الاقتصـــادى التقليدى كما قل دورها التعليمى ودورها فى منح المكانة الاجتماعية فقد زاد دورها الجوهرى فى تكوين الشخصية وفى بث الحب والأمن • فأسرة المدينة الصغيرة عليهـا أن تعد أطفالها لأن يواجهوا أعباء الحياة الحديثة ، وضغوطها ، وطابعها غير الشخصى ، وأن تمكنهم من أن يتطوروا مع التغيير الدائم الذى لا يدعهم يطمئنون ، ولقد وجهعلماء النفس اهتمام الناس الى التجارب الأولى للطفل لأهميتها بالنسبة لكل تطوره العقلى والعاطفى ، وبالنسبة للأمان الداخلى الذى يجب أن يستشعره لكى يقوم بدور ايجابى كفرد ناضج •

وثمة مشكلة كبرى تواجه أسرة المدينة فى القرن العشرين هى كيف تستطيع أن تنهض بهذا الواجب الهام ؟ فالآباء القلقون قد تأثروا بما قرءوا عنفرويد من أن التربية البالغة القسوة فى المراحل الأولى من العمرقد تؤدى الى آثار وبيلة ، والتمسوا علم ذلك عند طوفان من الكتب الشعبية التى تتكلم عن تربية الطفل ، والمقالات التى تزخر بها المجلات السيارة ونسب قدر كبير من تزايد انحراف الأحداث فى المدن ، كما نسب تفشى بعض الأمراض العقلية الى عيوب منشؤها الأسرة •

وكانت الظروف التى ركزت الاهتمام على الدور العاطفى للأسرة هى نفسها التى جعلت أداء الأسرة لهـــذا الدور يزداد صعوبة باستمرار • فالآمال التى تعلقها الأسر ذات المســتويات الوسطى على أطفالها ، غالبا ما تضـــع الأسرة فى موقف صعب لعجزها عن أن تحصـــل مباشرة على الوسائل التى تحقق لها هذه الآمال لأن تحقيقها يعتمد على عوامل اجتماعية كما يعتمد على انجازات الفرد نفسه • أما الآباء من الطبقة العاملة ، فكانوا بدورهم يقلقون أحيانا على مستقبلهم الاقتصادى ، ووضعهم الحالى والقيم الخاصة بمجتمع المدينة الذى وجدوا أنفسهم فيه بحيث لا يستطيعون أن ينقلوا الى أبنائهم قيما مستقرة أو يمارسوا عليهم سلطة الواثق • وتدور عجلة الزمن فيصبح هؤلاء الأطفـــال آباء بدورهم ، ولكن طفولتهم غير المستقرة قد تجعلهم أعجز عاطفيا من آبائهم أنفســهم عن امداد أبنـائهم ببيت مطمئن • لقد انتحلوا القيم الظاهرة للطبقة الوسطى ففسدت هــذه القيم على أيديهم فى غالب الأحوال وأصابها التدهور الشــديد ، وهكذا أصبحت أسرة المدينة فى القرن العشرين وحدة مضطربة ، غير مطمئنة على

دورها ماذا يكون ٠٠ وتجاوزت في ذلك ما كانت تعانيه أسر المدينة في الماضي ٠

في هذه الظروف بذلت جهود واعية لتقوية الأسرة على أداء دورها الدائم ، فكثرت الدراسات والندوات والمعاهد والمؤتمرات التي تدرس حياة الأسرة . ووصلت المدارس الى نتيجة مؤداها أن الاعداد لحياة الأسرة لا يمكن أن يترك كله للمنزل ، ففتحت فصول للتربية الجنسية والعلاقات الانسانية ، والعناية بالطفل ٠ واتسع تعليم التدبير المنزلي فلم يعد مجرد التدريب على الواجبات المنزلية العملية مثل اعداد الطعام والملبس بل وصار يشمل أيضا تعليم الحياة العائلية ٠

(ج) الطابع الفردي والديموقراطي للبناء الأسري :

ان كثيرا من العوامل التي أدت الى تعديل حجم الأسرة ووظائفهاأدت أيضا الى تعديل بنائها الداخلي وعلاقاتها ٠ فالمؤثرات الفردية التي ظهرت في الغرب نتيجة للاقتصاد النقدي ، والوسط المدني ، والقيم الاجتماعية قد أدت الى الاهتمام بالجانب الشخصي في الزواج ، بدل الجانب العائلي ، وبالحب الرومانسي ، وبتقديم صالح الفرد على صالح الأسرة في مجموعها ٠ وأدى تغيير وضع المرأة الى تغيير الميزان داخل الأسرة وواجبات أفرادها ٠ وكان للاتجاه الديمقراطي العام في العلاقات الاجتماعية آثار في الأسرة ، فعدل من الأوضاع النسبية للآباء والأبناء ٠ وقد أدت هذه العوامل مجتمعة الى اضعاف روابط الأسرة التقلدية ، والاطاحة بسلطان رئيس العائلة ، وأحلت محل البناء الهرمي الدقيق للأسرة نموذجا جديدا تسوده العلاقات المتساوية ٠

كان أساس أسرة المدينة في القرن االعشرين هو في العادة الزواج القائم على الحب الرومانسي ، وان ظلت زيجـات تعقد من أجـل المال أو الحصول على مصالح للأسرة ٠ وفي ظل نظام الزواج هذا كان للغزل أهمية كبرى لأن الشباب صار عليهم أن يعثروا على شريك الحيـــاة ، بدلا من أن يعتمدوا على آبائهم في ذلك . وزادت الحاجة الى ايجاد فرص تتيح التقاء الجنسين بانتشار سيكولوجية فرويد ، فخففت كثير من القيود التقليدية والمحرمات الخاصة بالعلاقات بين الشباب ، وظهرت نماذج جديدة للسلوك الجنسي ، ونشأ ما يمكن أن يسمى ثقافة تحتيـــة بين المراهقين ، وبعد أن تتكون الأسرة يستمر الحب الرومانسي ليكون الرابطة الأساسية للمحافظة على الأسرة ، وصار فسخ الزواج حين تضعف هذه

القوة أمرا يتزايد قبوله باستمرار ، الا من جانب الكنيسة الرومانية الكاثوليكية .

وحلت حرية الاجتماع بين الشباب من الجنسين محل الفصل بينهما فى فترة المراهقة أو الرقابة الصارمة التى كان يفرضها العرف بدرجات متفاوتة من القسوة فى مختلف البلاد فى الماضى . وأوضح شاهد على الاتجاه الجديد هو انتشار التعليم المشترك الذى يستهدف الى جانب هدفه الاقتصادى تشجيع الفتية والفتيات على أن يعرف بعضهم بعضا وأن يشتركوا فى اهتمامات تجمعهم حتى يكون لديهم أساس للحكم على الأخلاق ، وايجاد علاقات بين الجنسين لا تعتمد على الجاذبية الجنسية وحدها .

وقد أدت حرية الاجتماع بين المراهقين الى ظهور نماذج جديدة للسلوك يجد المراهقون أنهم مضطرون الى اتباعها تحت ضغط لذاتهم . وكثيرا ما يحدث الصراع بين الآباء والأبناء حول الحدود التى يحاول الراشدون أن يضعوها على النشاطات الاجتماعية للشباب . وكانت هذه الاتجاهات أوضح ما تكون فى الولايات المتحدة ؛ ولكن حين وقعت الحرب العالمية الثانية كانت هذه الاتجاهات قد ظهرت أيضا فى كثير من مجتمعات المدن الأخرى فى الغرب .

وكان اتخاذ موقف أكثر تحررا نحو الجنس جزءا من النموذج الجديد . فالحد الفاصل بين الفتاة الفاضلة التى تعتبر عذارتها أعز ما تملك ، والفتاة الفاسدة التى تتجر فى الجنس ، أصبح أقل وضوحا . فبفضل صناعات التجميل المزدهرة ، وفنون الأزياء ، وملابس البحر ، اكتسبت الفتيات الفضليات أسباب الجاذبية الجنسية ، وكان هذا من قبل وقفا على المحترفات واشباه المحترفات ، وصار التجميل من أكبر صناعات القرن العشرين . وكان للسينما دورها فى توكيد هذا الاتجاه ، ولا يرجع هذا فقط الى أنها جعلت من الجنس المحور الذى تدور حوله الأفلام ، وحياة النجوم ، بل يرجع أيضا الى أنها ابتكرت نموذج الفتاة الطيبة الفاسدة ، والفاسدة الطيبة الذى حل الى حد كبير محل البطلة النقية ، والوغد الدنىء .

وتغير نموذج سلوك المراهقين مع الزمن . فجيل مابعد الحرب العالمية الأولى فى العشرينات ، كان يطلق عليه « الشباب الملتهب » أو الجيل الثائر ولكن الحريات التى كانت تثير الخوف فى العشرينات صارت أمرا مألوفا فيما تلا ذلك من أعوام . فجيل الشباب الذين عاشوا سنوات الكساد فى

الثلاثينيات ، وأعوام الحرب فى الأربعينيات ، مارسوا حرياتهم باعتبارها من المسلمات ، وصار همهم الحصول على قدر من الأمان والاستقرار لا مجرد ازعاج الكبار ٠

وبعد الحرب العالمية الثانية ظهر اتجاهان متناقضان تماما : أحدهما اتجاه الى الزواج المبكر وانشاء بيت مستقر ، والثانى نحو سلوك متقلب غير اجتمـاعى ٠ وأول هذين الاتجـاهين ـ وسارت على هديه غالبية الشباب ـ كان يصور تلهف الشباب على أن يحصل فى الزواج على قدر من الطمأنينة فى عالم مليء بعوامل القلق وان كانت أغلب هذه الزيجات قد تمت بينما العروسان لا يزالان فى مراحل التعليم ٠ هذه الزيجات عموما لم تعقـد على سبيل التجـربة على نحو ما كانت الطليعة تدعو فى العشرينيات بل أبرمت بقصد انشاء بيت وأسرة ٠

ونموذج العنف الفاجر الذى تورطت فيه أقلية ظاهرة ، تتخذ لنفسها احيانا أسلوبا مميزا فى الملبس ، وتتحدى الآباء والسلطات فى دول القارة الأوروبية وفى بريطانيا والولايات المتحدة ، هذا النمـوذج يختلف عن نموذج انحراف الشباب نتيجة للفقر أو انهيار الأسرة أو غير ذلك من صور الحرمان ٠ فقد أخذ الشباب فى البلاد التى أشرنا اليهـا يحطمون النوافذ ، وواجهات المحلات ، ويقطعـون الزهور من الحدائق ، ويقتلون الحيوانات فى حديقة الحيوان ، ويقومون بغارات على المزارع ، ويهاجمون المارة فى الشوارع ، ويظهرون احتقارا عاما للحياة والممتلكات ٠ وكان هؤلاء ينتمون لكل المستويات الاجتماعية وجاء بعضهم من أسر لم تعوزها فرص التعليم أو العيش الرغد ، كما جاءوا من أسر تختلف عن تلك ،وهذا الانتشار لظاهرة المهول التخريبية دعا المربين والمواطنين المسئولين الى التساؤل عما عساه قد أدى الى هذا السلوك من ملامح الحياة الحديثة ؛ هل هو انهيار الأسرة التقليدية وسلطتها،دون أن يستقر فى مكانها بنجاح أساس جديد للسلوك المسئول ؟ هل هو ما فى حياة الكبار من قلق وعدم استقرار؟ أم هو اتساع شقة الخلاف بين الأجيال ـ على نحو غير معهود من قبل ـ فى فترة من فترات التغيير الاجتماعى السريع ؟ ٠ هل سوء تصور مبدأ الفردية فى التربية أدى الى الانفلات وعدم الانضباط والخروج على المستويات اللازمة؟ هل ما سـاد المجتمع من رخاء يعطى الآباء والأبنـاء على السواء احساسا بالاسترخاء والسهولة ، ويدعهم بغير حاجة الى الجهـاد وبدون أهـداف متصـارعة ؟

لم يكن ينتظر من الأسرة القائمة على الحب الرومانسى أن تحل تماما محل مصالح الأفراد ومطامحهم بل كان المنتظر أن تدعمها وتسمح بنموها المستقل · وعلى وجه أخص كان منتظرا منها أن تعطى الأطفال أحسن بداية فى الحياة· لقد انتقل الخيط الأساسى للمسئولية من يد الأسرة الى الأبناء ، والابن لا ينتظر منه ان يخضع أهدافه الشـــخصية لأهداف الأسرة من حيث هى مجموعه .

وفى مجتمع المدينة تميل التأثيرات والمصالح الكثيرة خارج الأسرة الى تمزيق شمل الأسرة · فمجتمع المدينة الذى لا يعير « الوحدة الأسرية » اهتماما كبيرا ، يقدم عديدا من الأسس الأخرى للتجمع · فحيث تضيق المساحات والمساكن يميل أفراد الأسرة الى أن يتخذوا صحابهم وهواياتهم خارج المنزل غالبا · كما أن الأطفال والشباب يتعرضون لتأثير المدرسة والنادى والشارع والسينما والتليفزيون والأشرطة الهزلية وغير ذلك من التأثيرات الخارجية ، فتأخذ مقاييسها التى يشاركهم فيها الأطفـــال من سنهم ، فى منافسة المستويات التى يريدها المنزل ، وغالبا ما تنتصر على هذه المستويات ، وتميل هذه العوامل الى اضعاف تماسك الأسرة من حيث هى وحدة اجتماعية .

ومن آيات تأثير الاتجاهات الفردية المتحررة زيادة نسبة الزيجات التى تنتهى بالطلاق . فقد اعترف بأن الزواج اتحاد شخصى يمكن فسخه اذا اختفت دواعيه العاطفية · وأخذت قوانين الأحوال الشخصية طابعا متحررا فى معظم البلاد فى الفترة التى نحن بصددها · وصار الطـــلاق أمرا يتقبله المجتمع أكثر مما كان يفعل من قبل ، بل صار (موضـــة) العصر ، بين من يأخذون قيمهم عن سلوك نجوم السينما ، وان كان فى السنوات العشر التى أعقبت الحرب العالمية الثانية قد هبط عدد حـوادث الطلاق هبوطا شديدا بالنسبة للرقم القياسى التى كانت قد بلغته بعـد الحرب مباشرة · وتعتبر زيادة حوادث الطلاق عادة دليلا على أن الأسرة من حيث هى نظام قد صارت أقل استقرارا مما كانت فى الماضى ، وليس واضحا كل الوضوح مع ذلك أن الاتجاه الى الطلاق يمثل فى الواقع زيادة كبيرة فى هدم الأسر لأن الهجر والانفصـــال الجســـمانى كانا من الأمور الشائعة منذ عهد طويل · وظلا هما الشكل الذى يتخذه طلاق « الرجل الفقير » ووسيلة لانهاء علاقة غير مرضية حين كان القانون لا يتيح فرصة للطلاق · أو حيث يحرمه الدين · والزيادة الظاهرة فى عدم الاستقرار العائلى قد لا تدل الا على تزايد نسبة « انهدام الأسر » المسجل قانونا ، وظهور الطلاق لذلك على الملأ ·

وفى خلال كل هذا ظلت الكنيسة الكاثوليكية ثابتة على رفضها لمبدأ الطلاق ولا تزال قوانين بعض الدول خلوا مما يبيح الطلاق ، فلقد رفضت الأسرة المالكة البريطانية تؤيدها كنيسة انجلترا أن يكون بين أفرادها مطلقات • وفى أماكن كثيرة يحتاج الطلاق الى مبررات قانونية قوية ، أو يتعرض من يحاول تحرير نفسه من رابطة الزواج لهوان شديد • ومن جهة أخرى هناك اتجاه عام نحو المبدأ المعمول به فى البلاد الاسكندنافية ، الذى يعتبر الطلاق طريقة شريفة ومحترمة لانهاء علاقة ، لمجرد انهيار أساسها ، وهو الاحترام المتبادل •

وفى داخل الغالبية العظمى من الأسر التى ظلت سليمة أصبحت العلاقات بين أفرادها غير محددة تحديدا حاسما على نحو ما كانت من قبل • فحين حصلت النساء على ما يمكنهن من الاستقلال الاقتصادى عن طريق توافر فرص العمل خارج المنزل ، وبعد أن حصلن على حقوقهن السياسية بحصولهن على حق الانتخاب وتولى الوظائف العامة صار لا مفر من تعديل وضعهن الثانوى فى الأسرة • وفى معظم الدول التى تأخذ بالقانون الأنجلو ـ سكسونى أو قانون نابليون ، عدل قانون الأحوال الشخصية ، بحيث ألغى منه كثير من القيود التقليدية التى كانت مفروضة على المرأة المتزوجة • وفى بعض الحالات ألغيت كل هذه القيود ومن أمثلتها التزام الزوجة بالقيام بخدمة زوجها ، أو تقديم دخلها اليه أو حرمانها من حق التصرف فى ممتلكاتها حيث لم يكن لها حق فى ابرام عقود أو رفع قضايا ، وحرمانها من حق الولاية الشرعية على أبنائها • ولا تزال بعض هذه القيود القانونية التقليدية معمولا بها فى بعض البلاد حتى منتصف هذا القرن ولكن التطور العام يسير نحو الغائها •

وثمة عنصر عملى أثر فى العلاقات المتغيرة داخل الأسرة هو اختفاء طبقة الخدم الذين كانوا يعملون بأجور زهيدة • وهذه الظاهرة أوضح ما تكون فى الولايات المتحدة ولكنها انتشرت بانتشار الثورات الاجتماعية فى هذا العصر • وفى الأسرة الصغيرة حيث لا خدم ، وبدون الأقارب من النساء اللاتى يوجدن عادة فى الأسر العشائرية ، يقع على الأم العبء الكامل فى العناية بالأطفال ، وأداء الواجبات المنزلية ولا تزال مسئوليات الأم مرهقة برغم الوسائل المنزلية الحديثة والأطعمة الجاهزة مما يخفف من أعبائها ، فاضطر الآباء والأزواج تحت ضغط الظروف الى أن يشاركوا فى كثير من الأعمال المنزلية بحيث أصبح الخط الفاصل بين واجبات الزوج والزوجة فى المنزل أقل وضوحا مما كان • وأدى الاهتمام المتزايد بالقيم الديموقراطية ، اجتماعيا وسياسيا ، الى القضاء على ممارسة السلطة

الأبوية الصارمة . فمفهوم العلاقات الأسرية هو أن الأسرة هى الى حد ما مجموعة ديمقراطية بينها تفاهم متبادل بشأن مشكلاتهـــا ، وصـــار مفروضا أن يتحمل الابن مسئولية ، وهكذا حدثت مشاركة فى السلطة ولم تعد كلمة الأب هى القانون الأعلى .

ولكن انهيار السلطةالتقليدية الى الحد الأقصى انما حدث فىظروف التغيير الاجتماعى والثقافى وانقلاب واجبات الآباء والأبناء رأسا على عقب. فأبناء المهاجرين غالبا ما ينفصلون انفصالا حاسما عن تقاليد آبائهم وعلى أساس تفوقهم فى العلم باللغة الجديدة والثقافة الجديدة صاروا يعلمون آباءهم كيف يتصرفون فى الوسط الجديد . وتعتمد المجتمعات الثورية على التوعيـــة المذهبيـــة للشباب ، وتطور امكاناتهم وروحهم القيـــادية لاحداث التغيير .

كل هذه الاتجاهات نحو تخفيف الروابط العائلية وصبغ بناء الأسرة بالديمقراطية اتبعت الى مدى بعيد فى الاجراءات التى اتخذها الاتحـــاد السوفييتى فى السنوات التى تلت ثورة أكتوبر مباشرة . فقد عمد الى تحطيم ما اعتبره من الملامحالاستغلالية للأسر البرجوازية الرأسمالية الأبوية فسوى بين الرجال والنساء فى الحقوق والواجبات . وأنشأ منظمات تقوم بتربية الأطفال أو تشارك فيها . والغى تقريبا كل أشكال الوراثة وأباح الطلاق بلا قيد ولا شرط ، وأجاز الاجهاض قانونا . وكثيرا ما حدث صراع بين الأبنـــاء الذين تعلموا المذهب الشـــيوعى فى المدرســـة وبين آبائهم المحافظين ، فشجع الأبناء على أن يكون بيدهم أمر هداية الأسرة على طريق المبادىء الجديدة (٢) .

ولما نشأت الأسرة الديمقراطية وانتشرت وجه اليها نقد شديد من جانب المدافعين عن القيم التقليدية،فالشرقيون الذين اتصلوا بالغرب غالبا ما صدمتهم الفردية فى مجتمع الأسرة وضـــعف ســـلطة رئيســـها وصارت موازنة مزايا الأسرة الشرقية بمزايا الأسرة الغربية موضوعا شائعا بين الكتاب الأسيويين . وفى داخل المجتمعات الغربية أعرببعض الأطباء وعلماء النفس والكتاب والآباء عن قلقهم من أن تسيطر المطالب الأنانية للشباب على الأسرة الغربية الحديثة . فقد اعتقـــدوا فى يقين أن الاتجاه الديمقراطى قد تجاوز المدىحين عرض فى الولايات المتحدة الأفلام الهزلية التى تعرض الآباء لقدر من السخرية ، وتعرضهم أشخاصا لايكاد يكون لهم حول ولا قوة ، سذجا يسهل خداعهم من جانب بناتهم وزوجاتهم وأبنائهم الخبثاء . وأصر هؤلاء النقاد على أن الأطفال بحاجة الى أن يؤخذوا

بشيء من الحزم ، وان الحرية اذا جاوزت حدها تكون ضارة كضررها اذا كانت أقل مما يلزم ، فهي في الحالين لا تعد الأبناء لاختيار طريقهم أو القيام بمسئولياتهم حين يكبرون .

وقبيل منتصف القرن ظهر تحول في وضع الأسر مال بها الى أن تكون أكثر عددا وتماسكا واستقرارا . فيمكننا أن نلاحظ في هذه الفترة زيادة في حجم أسر المدينة ، والاتجاه الى الزواج المبكر ، وتلهف الشباب في منتصف القرن على انشاء بيوت مستقرة ،وبالنسبة للبعض الذين كان انفكاك الروابط الأسرية يرتبط عندهم تاريخيا بانخفاض الوضع الاجتماعي — كما هي الحال في زنوج أمريكا — فان الحصول على أسرة مستقرة وبيت مستقر قد صار عندهم علامة على التقدم الاجتماعي .

وأنشأت الاقامة بالضواحي نموذجا للحياة لنسبة متزايدة من أسر المدينة . فقد كان أثر الاقامة بالضواحي مختلفا عند الزوج والزوجة ، بين كاسب العيش الذي يرتبط بعمله ومصالحه في المدينة ، وبين الزوجة والأطفال الذين يقضون معظم حياتهم في الضاحية . وخلافا للحالة السائدة في المدينة حيث لا يكاد يربط بين أفراد الأسرة في المنزل شيء غير التليفزيون فان المنزل بالضاحية أصبح هو نفسه بالنسبة لكثير من الأسر هدف كثير من الجهود والمغامرات المشتركة ، وسواء أكان الاشتراك في تنسيق الحديقة واجتثاث الأعشاب ، واصلاح مستلزمات المنزل ، أو عمل ديكورات فيه أو ممارسة هواية منزلية ، فان الاقامة في الضاحية تميل الى تركيز نشاطات الأسرة في عملية المعيشة . فهذه الأسر وقد انفصلت عن مغريات المدينة وتسلياتها تلتمس التسلية في التعاون بين أفراد الأسرة ، واشتراكهم في حياة الضاحية . وهي غالبا ما تقوم بهذا كأسرة أو فيما يتعلق بمصالح أسرية وقد يكون لهذا تأثير في تحديد نظرة ومجال أفراد الأسرة الذين يتزوجون صغارا ، ويعيشون في وحدات أسرية صغيرة .

ودعم كيان الأسرة في الاتحاد السوفييتي أيضا فما وافت الثلاثينيات حتى رأينا أن الأسرة السوفييتية التي تعتمد على المساواة التامة بين الزوج وزوجته ، وعلى المشاركة في المصالح ، قد أصبح ينظر اليها على أنها وحدة قوية داخل نظام العلاقات الاجتماعية وقامت الدولة بعدد من الاجراءات لكفالة مزيد من الاستقرار وأصبح الطلاق والاجهاض من الأمور الصعبة . وتأكدت أهمية واجبات الأسرة واحترام الأبوين ودعم مركز الأسرة باعتبارها من عوامل التماسك في المجتمع .

وكرمت الأمومة بميدالية للأمهات اللاتى أنجبن خمسة أطفال أو ستة ، ومنح وسام الأمومة المجيدة ، ووسام البطلة الأم ، لمن ربين ثمانية أو تسعة أو عشرة أو أكثر من الأطفال ٠

٢ ـ الأسرة المشتركة فى الشرق :

ان الأسرة المشتركة أو الموسعة التى ظلت قرونا المؤسسة الاجتماعية المركزية فى المجتمعات الشرقية وبخاصة فى الصين والهند ، وكثيرغيرهما من بلاد العالم ، تغيرت بل وتفتتت فى كثير من الحالات نتيجة لتطورات القرن العشرين ٠ كانت فى صورتها التقليدية تقدم نوعا من الضمان الاجتماعى لأعضائها لأن الفرد فيها لم يكن يعتمد كل الاعتماد على موارده الخاصة وكانت كل كارثة تصيب فردا من العائلة تشاركه فيها العائلة بأكملها ٠ وكانت الأسرة المشتركة تشمل أو تحدد العلاقات الشخصية الرئيسية للفرد وتحدد وضعه الاجتماعى ، ولم يكن يصل الى المركز الرئيسى للأسرة الا عدد ضئيل نسبيا من الأعضاء ٠ وكانت الأغلبية من الاخوة الأصغرين والأخوات والأجيال الشابة ، تعيش طوال حياتهاتحت ارشاد الأب أو الجد أو الجدة أو العم أو الأخ الأكبر أو الزوج ٠ بل ان الفرد لم يكن يمارس سلطانا على شىء يمكن أن يعتبر من أملاكه بمعنى محدد ٠ أو على حجرة يعتبرها ملكه الخاص فى منزل الأسرة ٠ لقد كان أشبه بعضو عابر فى منظمة مستمرة ٠

ولقد أدت عوامل كثيرة الى تعديل فى الأسرة المشتركة التقليدية وكان بعض هذه العوامل يعمل عملا جزئيا تدريجيا وكان بعضها يحدث أثرا مفاجئا وشاملا ٠ فالتجارة والصناعة قد جاءتا بالدخل والممتلكات الى الأفراد وليس دائما الى الأسر ٠ وكانت الاجراءات القانونية التى اتبعتها الدول الغربية الاستعمارية تؤدى على العموم الى تأكيد الناحية الفردية ، فالادارات البريطانية والفرنسية والهولندية اعترفت بالملكية الفردية للأرض ، كما اعترفت بالالتزامات التعاقدية للأفراد ، وفرضت على الأفراد واجبات مثل الضرائب والعمل وصارت العمالة تسير على أساس فردى سواء بالنسبة للعامل فى المزرعة أو المصنع أو الخدمة المدنية غير ان هذه العوامل الاقتصادية والقانونية لم تؤد تلقائيا الى تحطيم الأسرة المشتركة ، لأن مكاسب الافراد يمكن ان تجمع فى وعاء واحد والارض المملوكة للأفراد يمكن اعتبارها ممتلكات مشتركة للأسرة :

وكان العامل الثانى الذى أدى الى تحطيم الأسرة المشتركة تغير وضع المرأة • ففى الأسرة المشتركة لم يكن للنساء عادة حق الوراثة أو الاستقلال فى العمل ، ولكن فكرة تحرير المرأة انتشرت فى كل أنحاء العالم ، وأحدث ذلك شيئا من الاضطراب داخل بناء الأسرة المشتركة • اذ أدت الحركة الفردية وتمتع النساء بالمساواة فى الحقوق ، الى تمهيد طريق مساواتهم بالرجال أمام القانون ومنحهم حقوق الوراثة ، وفرص التعليم ، وحق الانتخاب • كذلك ضعفت الأسرة المشتركة بسبب التغيير الاجتماعى السريع الذى اتجه الى تقويض دعائم سلطة كبار السن ، فلم يكن من السهل بقاء ولاء الأبناء للآباء بالدرجة التقليدية ازاء انتشار الطابع الغربى الذى كان يتحدى الطرق القديمة ، وحصول الشباب على مقاييس جديدة ومعارف تختلف عن المعارف والقيم التى كان آباؤهم وأجدادهم سدنتها وحافظى أسرارها •

وبقيت الأسرة المشتركة فى بعض الحالات بعد عملية الانتقال الى المدن • وكانت الأسر العشائرية فى كل من الصين والهند يقيم أفرادها معا فى مجتمعات قديمة العهد فى المراكز المدنية القديمة • ولكن انتقال بعض أفراد الأسرة الى المدينة ، أخذ يضعف الأسرة المشتركة حتى وان بقيت نظاما قائما فى القرية وعند أراضيها . وقد حال ضيق المساكن واكتظاظها فى المدن بين الأسر العشائرية واقامة جميع أفرادها معا •

ومع أن هذه العوامل كان من شأنها القضاء على الأسرة المشتركة ، فان هذا النظام لم يتلق ضربة مباشرة فى بعض المناطق الا أيام التغييرات الثورية فى أعوام ما بعد الحرب العالمية الثانية ففى ظل دستور الجمهورية الهندية وقوانينها زاد من سرعة تفتت الأسر المشتركة فرض الضرائب ، وقوانين الوراثة ، والقوانين التى تكفل حقوق المرأة ومع أن الأسر « العشائرية » كانت من قبل قادرة على اقتسام ممتلكاتها المشتركة بالاتفاق والتراضى فان النظام الجديد للضرائب والوراثة قد ضغط على الأسر لتحول نفسها الى وحدات أسرية صغيرة منفصلة غير أن انقسام الأسر العشائرية لم يكن معناه بالضرورة اتباع الشكل الغربى للأسرة اذ أن معظم الزيجات ظلت تتم عن طريق الكبار وظل النموذج الغربى للمغازلة الرومانسية والزواج الرومانسى غير مقبولين فى معظم المجتمعات الهندية.

وفى الصين وجدنا الأسرة المشتركة التقليدية ، والنظم التى تؤيدها فى مهامها ، قد تعرضت للهجوم فى عهد الجمهورية ، ولكنها أصبحت من الأهداف الرئيسية لهجوم النظام الشيوعى • فبدلا من الزيجات التى

يبرمها الكبار التى كادت فى كثير من الحالات تبلغ مبلغ بيع البنات وتعدد الزوجات ، والعشيقات ، وغير ذلك من سمات الأسرة المشـــتركة ، ركز النظام الشيوعى ، بدلا من ذلك على الزواج بوصفه مسألة اختيار شخصى ومسئولية شخصية • أما الأخلاقيات الكنفوشية باهتمامها البـالغ بولاء الأبناء للأسرة بوصفها مركز العـلاقات الاجتمـــاعية والشخصية ، فقد رفضت بوصفها عوائق فى طريق المواقف والنشاطات التى يحاول النظام الشيوعى أن يقيمها • وحلت الملكية الجماعية للأرض والمشروعات الجماعية محل الوحدات الأسرية •

وفى البلاد الاسلامية كانت الأسرة المسلمة نقطة مركزية من نقط الصراع الذى يدور حول الاصلاح الاجتماعى • فاذا استثنينا المنـــاطق التى تغلب عليها الروح المحافظة ، كان هناك اتجاه ما الى الزواج بواحدة والى سفور النساء ، والمزيد من الاستقلال للأطفال • وهذا يصدق بنوع خاص على سكان المدن ، وعلى بلاد تأثرت بالغرب أقوى تأثر مثل مصر ، ولكن حتى فى بلاد مثل العربية السعودية واليمن وأفغانستان ذاتها ، نجد فى أواسط هذا القرن اتجاها الى اضعاف الشكل التقليدى للأسرة ، وكانت تركيا حتى بداية الخمسينيات هى البلد الاسلامى الوحيد الذى طبق الصورة الغربية للأسرة تطبيقا مباشرا ولكن حتى فى هذا البلد لا يمكن القول بأن التغيير القانونى قد لقى استجابة عملية عامة •

وتجربة تركيا توضح لنا بجلاء أنواع المشكلات التى نصادفها اذا حاولنا نقل النظم الأسرية لمجتمع ما الى مجتمع آخر فمع أن أتاتورك ألغى قانون الأسرة الاسلامى ، وأحل محله القانون السويسرى عام ١٩٢٥ ، فان هذا القانون لم يتبع الا فى الزيجات بين الفلاحين فى عشرات السنين التى أعقبت ذلك ، فاضطرت الدولة التركية أن تصدر قوانين فى ١٩٣٣ ، ١٩٤٥ ، ١٩٥٠ تعترف فيها بشرعية بنوة الأطفال الذين تمخضت عنهم الزيجات غير المسجلة •

وثمة صعوبات عملية ظهرت فى تطبيق الاجراءات السويسرية فى القرى التركية كانت من الأسباب التى أدت الى بقاء الأشكال التقليدية ؛ من هذه الصعوبات، ضرورة استخراج شهادات ميلاد حيث لم يكن يوجد منها شىء ، أو الكشف الطبى حيث لا طبيب• وفضلا عن ذلك كان الفلاحون يمتعضون من الدخول فى صورة من صور الزواج تبدو لهم مجافية لمقتضيات موقفهم • فقد حرمت الصورة الجديدة نظاما كان معمولا به ، وهو زواج أى أنثى اضافية غير رسمية تقيم بالمنزل بوصفها عاملة زراعية أو أرملة

قريب ليس لها مكان تعيش فيه ، كما ان نظام المواريث السويسرى يحرم الأبوين من الميراث اذا كان للمتوفى أبناء ، فبدا للفلاحين أن هذا أمر يدع الشيوخ المسنين بلا حماية ، فى بلد لم يكن للضمان الاجتماعى تدخل فى حمل الأسرة على تحمل المسئولية نحو المسنين . وكذلك صار الطلاق صعبا ، وان تساوى الحق فيه بين الرجال والنساء . وصار يستلزم استطلاعا كريها للحياة الشخصية للزوجين .

ومع ذلك أمكن التغلب على هذه الاعتراضات ، واتبع النظام الجديد حيث كان يقدم مزايا مباشرة . فقد سارع جنود القوات المسلحة مثلا الى اتباع الاجراءات الجديدة للزواج ، حتى تحصل أسرهم على علاوات اجتماعية .

٣ ـ الأسرة القبلية فى افريقية :

تمزقت الأسرة القبلية الافريقية نتيجة الاتصال بأوربا والتطور الصناعى فى المدن ، ولعل هذا التمزق قد أحدث أشمل تغيير تعرض له أى نظام أسرى خلال القرن العشرين ، نظام الأسرة والقرابة كان فى معظم اجزاء أفريقيا القبلية دعامة العلاقات بين الأفراد والاندماج الاجتماعى وقد أصيب هذا النظام بضربة قاصمة حيثما تغلغل النفوذ الأوروبى .

فمع أن البناء التقليدى للأسرة القبلية الأفريقية كان يختلف بين المجموعات القبلية المختلفة ، فان كل صورة محددة للأسرة القبلية كان لها سند قوى من العرف والتقاليد ، وكانت المجموعات المتصلة الأنساب تحدد الى حد كبير الواجبات الاجتماعية لأفراد القبيلة الواحدة ، وفى أكثر الصور شيوعا ـ وتقابلها ألوان متغايرة فى مناطق كثيرة ـ كانت الأسرة تقوم على الزيجات ، وتكون كل زوجة مع أطفالها وحدة . وقد تعيش مجموعة الأسرة فى منطقة واحدة ، يكون فيها للزوجات والأعضاء الآخرين فى الأسرة المشتركة أكواخهم المنفصلة ، المحددة لهم على أساس السن أو على أساس علاقاتهم برئيس الأسرة وعلاقات بعضهم ببعض ، ومن مجموعات المناطق التى تصلها أوشاج القربى تتكون وحدات اجتماعية اكبر .

وفى معظم المجتمعات القبلية كانت الأسرة أو مجموعة الأسر وحدة اقتصادية قائمة بذاتها من حيث الانتاج والاستهلاك الذى يشترك فيه الجميع . ففى أيام الرخاء يعم الخير على الجميع ، وفى سنوات الكساد يتدهور حالهم . وكان توزيع العمل يقوم على أساس تقرير الوظائف المخصصة تقليديا لأشخاص ، من السن المناسب أو الجنس المناسب أو

المكان المناسب في الأسرة . كذلك كانت على العموم وحدة فيما يتعلق بأغراض تربية الأطفال ، فسلطة الكبار فى مجموعة الأسرة تسرى على كل الأطفال ، وبذلك لا يكون للأبوين المباشرين سلطة كاملة ، أو مسئولية كاملة عن تربية الصغار لا يشاركهم فيها أحد ، وكان الزواج الذى تعتمد عليه العلاقات الأسرية يتم طبقا للتقاليد السائدة فى القبيلة ويمثل اتحادا بين الأسر أكثر مما يمثل اتحادا بين الأفراد ، وكان يعقد عادة على شكل اتفاق متبادل ، يكون أحيانا فى صورة هدية من قطعان الماشية يقدمها الزوج لأسرة العروس ، وظلت النساء غالبا فى الوضع الأدنى أولا بالنسبة لآبائهن ثم بالنسبة لازواجهن ، ولكن فى بعض القبائل كانت النسوة العجائز يتمتعن بحريات ومسئوليات لم تتح لهن أيام الشباب .

ومهما يكن من شكل الأسرة فقد كانت الى حد كبير تقرر وضع الفرد . فلكل من الأفراد علاقاته المحددة من رأس الأسرة الى الزوجة الأولى والزوجات التاليات والابن الأكبر والأبناء الصغار ذكورا واناثا والأصلاب والأرحام . ويستتبع كل وضع واجبا يقابله وسلوكا محددا يتصل به ، وكان للاطفال أدوارهم المقررة أثناء الطفولة ، وكان انتقالهم الى حياة الكبار يقترن بطقوس العمادة اذ يتعلمون الواجبات والمسئوليات المتصلة بوضعهم الجديد .

وكانت العادة أن يتحمل رئيس الأسرة المسئولية النهائية عن أعمال أعضاء الأسرة فهو يسأل عن اخطائهم ويدافع عنهم اذا تعرضوا لمحنة ، ويمثلهم فى محاكم القبيلة أو مجالسها ويترافع عنهم أمام أرواح الاجداد أو غيرهم ، وكان يتمتع بسلطة كاملة تتناسب مع مسئولياته وكانت الأسرة تساهم فى بنيان الحكومة من خلال نظام رؤساء العشائر ، وهو صورة من صور السلطة مقامة على صلات القربى والنسب ، وكذلك كانت فى غالب الأوقات تؤدى دورا دينيا ، لأن مسئوليات رئيس الأسرة وغيره من أفراد الأسرة المختصين غالبا ما كانت تشمل اداء الطقوس الدينية ولم تكن واجبات الأسرة الروحية تقل عن واجباتها المادية .

وفى خلال القرن العشرين كان من أثر السيطرة الاوبية أن تصدع بناء الأسرة القبلية الى حد كبير فى المدن ، وضعف فى كثير من المناطق الريفية ، فقد نفذت آثار تعاليم المبشرين حتى أعماق الريف ، وذلك بأن الجزء الأكبر من التعليم فى القرن العشرين فى كل أجزاء أفريقيا القبلية قد قام به المبشرون وكان نفوذهم قويا . وهاجم المبشرون المسيحيون تعدد الزوجات وفرضوا على من دخل كنيستهم التوحيد فى الزواج والاعتماد

فيه على طقوس الكنيسة بدلا من زواج المساومة · وكان تأثير الاسلام أقل تدميرا للأسرة القبلية لأن تعدد الزوجات لا يتعارض مع تعاليم القرآن فلم يحاول معلمو الدين أن يوقفوا تعدد الزوجات ·

وكان الحكم الاستعماري ـ على العموم ـ يترك النظم الأسرية التقليدية كما هي فى غير ماتؤثر فيها الاجراءات التجارية أو الادارية على نحو غير مباشر ولكن التجارة والادارة كان لهما من آن لآخر نتيجة حقيقية هي القضاء على صورة الأسرة التى كانت تتمسك ببناء المجتمع القبلي· وأوضح الأمثلة على ذلك محاولة السلطات البريطانية فى نيجريا تقليل المنازعات القانونية بين شعب التيف ·· وفى خلال هذه المحاولة ألغت شكل الزواج الذى لم تكن وظيفته تقتصر على تحقيق الاستقرار الأسرى واستمراره ، بل لقد كان ضروريا أيضا للطقوس التى تضفى على الأرض خصوبتها وعلى المجتمع حمايتها له من الشرور ، ولم تعترف هذه السلطات البريطانية قانونيا الا بشكل الزواج الذى كان يستخدمه التيف للعلاقات المؤقتة وللصور التى تتضمن شراء الرقيق ·

غير أن الآثار الرئيسية التى قضت على الأسرة المشركة انما جاءت من جانب التصنيع والحياة فى المدن ، فالرجال الذين خرجوا للعمل فى المناجم تركوا مجموعتهم الأسرية ، وقد لحق بها الضير ، من حيث قدرتها على الاكتفاء الذاتى ، ومن حيث بناؤها الوظيفى ، ومن حيث السلطة فيها ، وحتى حين يكون غيابهم مؤقتا ثم يعودون الى بلادهم بعد فترة أو يعودون فى فترات متقطعة كل عام ، حتى فى هذه الحالات فان نموذج الحياة الأسرية قد تصدع وجاء التصدع الأكبر نتيجة لاصطحاب النساء لأزواجهن الى المناجم بالمدن واقامتهم وحدات أسرية مدنيـــة فى المواطن الافريقية فى يوهانسبرج وبروكن هل وكمبالا ونيروبى وداكار وبرازافيل ولاجوس واكرا وليوبولد فيل ·

فمن أقصى أفريقيا الى أقصاها كان تزايد عدد الأسر الافريقية المدنية يمثل باستمرار انفصالا عن عناصر البناء التقليدى للأسرة ، حتى ولو استبقى النازحون الى المدن علاقات وثيقة بأقاربهم فى الريف كما كان يحدث فى أغلب الأحيان · لقد ذهب اكتفاؤهم الاقتصادى الذاتى القائم على اسهام الجميع فى الانتاج ومشاركتهم فى الاستهلاك · فكان رب العمل والسلطات المدنية تتوقع من الأجير أن يكون مسئولا اقتصاديا عن أسرته المباشرة ، التى تتألف من الزوجة والأولاد وان كان أفراد أسرته الكبيرة المشتركة ربما ظلت تنتظر منه أن يشارك بما يملك ، على نحو ما كان

يفعل فى المجتمع القبلى . واذا وجد نفسه يعانى من البطالة أو المرض أو غير ذلك من ســـوء الحال ، فلم يكن رئيس الأسرة الموسعة ليعبىء موارد الجميع لحماية العضـــو الذى ساءت حاله . ان زوال هذه الوظيفة الأسرية ، لم يعوض النازحين عنها الا تكوين اتحادات اختيارية للعـــون المتبادل ، ولكنه تعويض جزئى . وذلك ان اتحادات عديدة للادخار ، ودفن الموتى ، ومنظمات التعاون ومنظمات الحرفيين كانت احيانا تضم أفرادا منتمين الى شتى القبائل ، وكانت تقدم قدرا من الحماية الاقتصادية كما تقدم نوعا من الانتماء المشترك ، يتجلى هذا مثلا حين يلبس أعضاء جمعية الدفن ملابس من نفس اللون عند أحياء ذكرى وفاة أحد الأعضاء.

كذلك فان بناء السلطة قد تقوضت أركانه ، فلم تعد هناك هيئة متماسكة من الكبار تمارس السلطة الأبوية على الصغار ، ومع ذلك فان الأبوين لم يكونا مهيأين بحكم تدريبهما وتجربتهما لأن يستقلا بالمسئولية. وكان هذا النقص فى منتهى الخطورة ، لأن المستويات الخاصة بالسلوك لم تعد متفقا عليها ولا مفهومة . فوضع الرجل ودوره أو وضع زوجته وأبنائه وأقاربه وجيرانه ومكانهم لم يعد محددا بوضوح ولا معترفا به من الجميع ، فبالانتقال من بناء أسرى يكفل لكل فرد فيه الطمأنينة على نفسه الى مجتمع المدينة الأفريقية وجد الأفريقى النازح نفسه وقد حرم من كل هذه الطمأنينة .

وهكذا اضـــطرت الأسرة الأفريقية بالمدينة الى أن تعيد بناءها من الصفر تقريبا ، دون أن يكون لديها مصدر للهداية ، وبخاصة فى الحالات الكثيرة التى كانت فيها السلطة الدينية والسياسية كامنة فى الأسرة ، وتمارس من خلال مجموعة الأسرة . والحقيقة أن نفس الظروف التى جعلت اعادة البناء ضرورية أدت الى صعوبة هذه العملية ، لأنه فى نفس الوقت الذى كان فيه الأفريقى يدفع به دفعا الى المجتمع الجديد ، كان يجد نفسه محروما الى حد ما من حق المشاركة الكاملة فى المجتمع الجديد ، ومن أن يكون فى وضع مساو لأعضائه .

وكان هذا الوضع أوضح ما يكون فى اتحاد جنوب أفريقيا ، حيث يوجد أكبر عدد من الأفريقيين المقيمين بالمدن ، وحيث يجرى حرمانهـم من المشاركة فى حياة المجتمع على أساس منهجى صارم . ففى هذه المدن تميز الافريقى المدنى بالاضطهـــاد والبؤس فى « المعـــازل » واحس الهوان بسبب تصاريح المرور البوليسية ، والحرمان من الوظائف ذات المكانة ، والتى تجلب دخلا أكبر ، والحرمان من المشاركة السياســـية ،

والتعرض باستمرار للتناقض بين مبادىء المجتمع الأوربى كما تلقن فى المدارس أو الكنيسة ، وبين ممارسة السلطة الأوروبية عمليا لهذه المبادىء على الأفريقيين فى حياتهم اليومية • هـــذه البيئة لم تكد تتيح للأفريقى الذى تحرر من القبلية أن يقيم نظاما اجتماعيا بديلا يحل محل بناء الأسرة المشتركة فى المجتمع القبلى ، الذى تقوضت أركانه •

وكان الموقف أقل من هذا قوة وسلبية الى حد ما فى مناطق أخرى ، ولكن المشكلة الجوهرية ظلت بغير حل . وفى الكنغو البلجيكى الذى طبقت عليه سياسة استعمارية خاصة ، قوامها تدريب الافريقيين على المشاركة فى المسئولية فى الحياة الاقتصادية ، على عكس ما كانت الحال فى مناطق أخرى من المستعمرات الأفريقية • وكان ثمن هذه المسئولية المتميزة الغاء النظام القبلى ، وتحطيم الأسرة القبلية • وكان هذا عن طريق مـدارس داخلية يبعد فيها الأطفـــال عن أسرهم منذ نعومة أظفـارهم ، وتجرى تربيتهم كلها خارج نظام الأسرة القبلية وحين تمتعت المستعمرات الأفريقية بالحكم الذاتى والاستقلال أدى نمو مجتمـــع المدينة وتغلغل تأثيره فى الريف ، الى انهيار فى السلطة التقليدية ، وبروز مشكلات تتعلق بالصورة الجديدة للأسرة التى تتشكل خلال القارة الأفريقية التى تمر بمرحلة تغيير سريع ، من حيث وضع هذه الأسرة ومسئولياتها وعدم تماسكها •

٢ ـ التقسيم الطبقى للمجتمع

شهد القرن العشرون تغييرا فى التقسيم الطبقى لـكل المجتمعـات تقريبا ، وقد أدى هذا التغيير على العموم الى تخفيف حدة الفواصل بين الطبقات ، ووسع المجموعة الوسطى ـمهما يكن تحديد معنى هذه المجموعةـ وأوجد أسسا جديدة للتقسيم الطبقى للمجتمع ، كما أوجد وسائل جديدة للتنقلات الاجتماعية •

١ ـ فى بداية القرن :

فى بداية هذا القرن كانت معظم المجتمعات فى العالم مقسمة على أسس طبقية ،على نحو جامد الى حد ما ،وان كان التصنيع فى القرن التاسع عشر قد قلب كثيرا من العلاقات رأسا على عقب، كما أن انشاء مواطن جديدة

قد أوجد مجتمعات لم يسبق لها أن قسمت الى طبقات ، على نحو ما كان فى المجتمعات الاقطاعية التقليدية التى أتى منها المستوطنون ٠

واذا استثنينا عددا قليلا من دول أوروبا مثل النرويج ـ حيث لم ترسخ أقدام النظام الاقطاعى فى يوم من الأيام ـ وبعض المدن القديمة ذات التقاليد التجارية العريقة ، فانه فيما خلا هذا العدد القليل ظلت بقايا البناء الاقطاعى اطارا مستمرا للعلاقات ، وكان هذا صحيحا بنوع خاص فى روسيا وأوربا الشرقية ، وصار البناء الطبقى للاقتصاد الرأسمالى موازيا لبقايا الاقطاع مترابطا معه ففيه طبقة عليا أو وسطى من أصحاب الأعمال والمقاولين المستقلين وطبقة كادحة من العمال الصناعيين وحيثما ظلت الطبقة العليا من أصحاب الأراضى قوية فانها تستمتع بمركز اجتماعى يفوق مركز أسر تفوقها فى الغنى ، ولكن ثروتها تأتى من أعمال أقل شرفا ومكانة لأنها ترتبط بالتجارة والصناعة ٠ وكانت طبقة أصحاب المهن ومعظمها أتى من الطبقات مالكة الأرض وصاحبة العمل تشمل عادة المستويات الأدنى عن هذه المجموعات العليا بينما الصفوة العقلية من الأساتذة والأدباء والفنانين يأتون من نفس المجموعة الاجتماعية ويتحركون فى الدوائر المتعلقة بها وان كانت لهم حرية تفوق حرية غيرهم فى التنقل بين الطبقات ، وقد بدأ ظهور طبقة الكتبة وصغار الموظفين فشغلت مركزا دون مركز أصحاب الأعمال والمهنيين وأعلى من مركز عمال المدن وفلاحى الريف ٠

وفى الأراضى الجديدة فيما وراء البحار وبخاصة فى أمريكا الشمالية واستراليا أدى عدم وجود تقاليد اقطاعية ووجود سيولة فى التحرك الاجتماعى لملء الفراغات فى قارة جديدةأدى هذا الى ايجاد بنيان طبقى أقل جمودا فقد صارت ثروة الوضع الاجتماعى الموروث هى التى تحدد الطبقة ولم تكن هناك ارستقراطية فى ملاك الأراضى تعلو مستوى أصحاب المصانع ، وأخذ الناس من كل المستويات الاقتصادية والوظيفية تقريبا يعتبرون أنفسهم من الطبقة الوسطى أو يتطلعون الى عضوية هذه الطبقة لأنفسهم أو لأولادهم على الأقل ٠

وفى المناطق التى استوطنها أفواج متتابعة من المهاجرين من شتى الأقطار مال التقسيم الاجتماعى الى الاعتماد على أسس عنصرية بالنسبة للجيل الأول على الأقل ، مع حصول المهاجرين الأقدم عهدا على مركز أفضل وأكثر استقرارا ، بينما المهاجرون المتأخرون يشغلون المراكز الأدنى من الناحية الاقتصادية والاجتماعية ، فلما ارتقى أعضاء من كل مجموعة الى

درجات النشاط الاقتصادى حصلوا على الثروة التى وضعتهم على قدم المساواة مع المهاجرين السابقين فانتقلوا من المواطن التى يسكنها بنو وطنهم ، فقد أخذت الأسس العنصرية تختفى وتحل محلها الأسس القائمة على المركز الاقتصادى والوظيفى • وقد استمرت التقسيمات على أساس اللون أو الجنس حيثما وجد تراث يؤيد هذا من أيام الرق • وفى الحالات المتطرفة مثل حالة الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية كان التقسيم على أسس عنصرية تؤيده قوانين تفرض التفريق العنصرى •

واذا نظرنا الى بناء دول أمريكا اللاتينية القائم على ملكيات أراض واسعة أو صناعات استغلالية واسعة النطاق مثل المناجم وجدنا أن هذا البناء أقرب الى النموذج الاقطاعى لاوروبا منه الى بناء المجتمعات التى تتألف من أسر صغيرة من أصحاب الأعمال من الطبقة الوسطى فى أمريكا الشمالية واستراليا ونيوزلندا فهذه الأقطار تتميز بوجود طبقة عليا من أصحاب الثقافة الأوروبية وكتلة كبيرة من «النستيزو» الهنود Nestizo والبيون Beons الزنوج وتتفاوت النسب بين السكان فى المناطق المختلفة فبينما نجد مناطق أغلبها من الهنود مثل بوليفيا وجواتيمالا نجد مناطق يغلب عليها العنصر الأوروبى فى الأرجنتين وارجواى كما يسود العنصر الزنجى على طول سواحل الكاريبى والساحل الشمالى الشرقى من البرازيل • وكانت الفروق الطبقية واسعة جدا • فلم يكن هناك طبقة وسطى بارزة كبيرة العدد وكان هناك فاصل حاسم ثقافى بين من يقضون حياتهم تحت تأثير الثقافة الوطنية كالهنود وبين ذوى الثقافة الأوروبية البلانكو Blancos أو اللادينو La Dinos وكان التفريق على أساس اللون موجودا لكنه لم يكن فاصلا حاسما أو مستندا الى قانون بل كان مرتبطا بالاختلافات الطبقية ، فأصحاب البشرة الداكنة كانوا لأسباب تاريخية يحشدون للأعمال الدنيا ويتقاضون أجورا منخفضة كما كان مرتبطا بالنظام القبلى الوطنى •

أما جنوب أفريقيا فانها كانت بعد حرب البوير تمثل نموذجا عنصريا معقدا • ففيه مجموعتان أوروبيتان متضادتان الأفريكانيون الريفيون فى معظمهم وأغلبهم من أصل هولندى ، وغالبية سكان المدن وهم من البريطانيين ، هاتان المجموعتان كانتا تقيمان علاقات خاصة بينهما وبين غير الأوربيين وكان غير الأوربيين يشملون الملونين من أصول عنصرية مختلطة ويحاكون الأسلوب الأوربى فى الحياة ، والهنود الشرقيين (نسبة الى جزر الهند الشرقية) وكان معظمهم قد استجلبوا للعمل فى أواخر القرن التاسع عشر ويقومون بالتجارة والأعمال ، والسكان الأفريقيين

الذين استمروا يعيشون فى قراهم القبلية ولكنهم أخذوا يرحلون بأعداد متزايدة للعمل فى المناجم او المزارع أو ليكونوا خدما فى المدن التى تنمو وتزدهر ٠

كل هذه المجتمعات الفردية فى بداية القرن سواء فى أوروبا أو فيما وراء البحار كانت فى حالة سيوله وتغيير ـ بدرجات متفاوته ـ وبتأثير التوسع التجارى والصناعى والهجرة الواسعة النطاق ٠

وفى أجزاء أخرى من العالم كانت معظم المجتمعات فى بداية القرن لا تزال تحتفظ بتقسيمها الطبقى القديم فلم يدركها تعديل الا فى المواقع التى كان لها صلة مباشرة بالدول المستعمرة أو حيث أدت التجارة أو النشاط التبشيرى الى هذا التعديل ٠ ففى المناطق التى وقعت تحت حكم الاستعمار وضعت فوق التقسيم الطبقى القائم طبقة عليا من الأوروبيين تتميز بمركزها ولون بشرتها وفى بعض المناطق بخاصة فى جنوب شرق آسيا كانت الوظائف الوسطى ، كالتجارة أو الادارة تقوم بها عناصر متميزة أوراسويه (نسبة الى أوراسيا : أوروبا وآسيا) أو مجموعات عنصرية وبخاصة من الصينيين ٠ وفى كل المجتمعات التى تسودها الأمية كان المتعلمون يؤلفون طبقة خاصة ، ولا سيما فى الصين ذات التاريخ الحافل بالمديرين الأساتذة ، والهند التى تتميز فيها طبقة البراهمة ،وكانت توجد أشباه لهذا تتمثل فى طبقة العلماء عند المسلمين ، والرهبان عند البوذيين ، وكانت المجتمعات الدينية والعنصرية وحدات تعمل فى شىء من الحرية داخل البنيان الاجتماعى العام ٠

وفى معظم أجزاء الشرق الأوسط كانت فئة قليلة من كبار الملاك الأثرياء تفصلها هوة سحيقة عن الفلاحين الفقراء الذين يفلحون أرضهم وعن البدو الرحل الذين يعيشون عادة فى مجموعات قبلية ويقيمون بالصحراء ٠

وكان المجتمع الهندى هو اشد مجتمعات العالم تعقيدا ؛ فنظامه الطبقى المعقد كان فى بعض الأحيان يجعل الوراثة سبيلا الى تولى الأعمال، والمجتمع منقسم الى طوائف دينية ذات نظم منفصلة وقوانين شخصية مستقلة ٠ وفى بعض البلاد الأخرى فى جنوب آسيا كان التقسيم الطبقى أقل تعقيدا ٠ فمجتمع القرية الذى يقوم نسبيا على المساواة كان الأساس٠ وفى القمة عدد قليل من الصفوة مثل الأسرة المالكة بفروعها الكثيرة فى تايلاند وكمبوديا والاستقراطيات الصغيرة فى دول الملايو ٠

وفى الصين كان الأساس فى الطبقة العليا هو الغنى وامتلاك الأرض فى الريف والثروة التجارية فى المدن وكان الشطر الأكبر من السكان من

صغار الملاك الزراعيين والمستأجرين لرقعة من الأرض غاية فى الصغر وكتلة من العمال الأجراء فى المدن والريف غير أن ما جرت عليه النظم التقليدية هناك من عقد امتحانات لتولى الخدمة المدنية ـ وقد استمر العمل بها حتى بداية القرن العشرين ـ قد أتاح الفرصة للدخول فى طبقة الموظفين فهى من حيث المبدأ مفتوحة أمام كل من يجتاز الامتحان العملى وبذا فتح طريق الترقى أمام القلة الموهوبة من أبناء الفلاحين الذين يتمكنون من الالمام بعلم الصين القديم وكان دخول الامتحانات المائلة متاحا لأبناء الموظفين والأعيان من أصحاب الأراضى وفى اليابان لم يقتصر الخطب على بقاء أطلال البناء الاقطاعى لتكون نموذج الحياة الريفية بل لقد نقل قدر ضخم منها الى النظام الصناعى النامى ، فاتخذت العلاقات بين العمال وأصحاب العمل نموذجا شبه اقطاعى ٠

أما التقسيم الطبقى فى أفريقيا الاستوائية فكان يتبع نماذج قبلية معقدة ، تمزقت حدودها من أثر التقسيمات السياسية التى فرضها الأوروبيون واقتلعتها من جذورها حركة الهجرة الى المدن ٠ ولقد كانت السياسة الاستعمارية البريطانية تميل الى تأييد البناء القبلى القائم بان تفوض مشايخ القبائل فى بعض السلطات الادارية ٠ أما فى المناطق الفرنسية والبلجيكية والبرتغالية فقد ساد انجاه يرمى الى اجتذاب الافريقيين القلائل الذين تمثلوا الثقافة الأوربية وادماجهم فى الطبقة العليا الأوروبية التى فرضها المستعمر وفى اتحاد جنوب افريقيا تحول السكان الافريقيون الى طبقة دنيا من العمل تظل « دنيا » دائما ٠

٢ ـ تغير نماذج التقسيم الطبقى :

خلال القرن العشرين أدى نمو التصنيع وانتشاره فى كل انحاء العالم الى اتساع رقعة الطبقة الوسطى التى أنشأتها الرأسمالية التجارية اذ أتى التصنيع بطبقة وسطى جديدة ولقد أدت تكنولوجية الانتاج الصناعى الى بروز هذا الاتجاه بصرف النظر عن الوجهة السياسية الثقافية أو درجة النمو الصناعى أو التغيير الكبير فى طابع المجموعات الوسطى ٠

(أ) فى المجتمعات الصناعية :

فى الفترة الأولى من فترات النمو الصناعى فى أوروبا وأمريكا كان قدر كبير من النشاط التجارى والصناعى يقوم به صغار رجال الأعمال الذين كانوا عماد الطبقة الوسطى الأصلية وبتعقد البناء الاقتصادى برزت

الى الوجود طبقة وسطى جديدة تتكون من مديرى المشروعات الواسعة النطاق ومجموعات الفنيين الذين تعتمد عليهم الصناعة والتجارة الحديثتان، فالمديرون والمهندسون والمحاسبون وخبراء الاعلان والمحامون وعملاء البيع ومديرو البنوك احتلوا الاماكن العليا من الطبقة الوسطى أما الكتبة الذين يشغلون المراتب الدنيا من الطبقة الوسطى فقد زاد عددهم بسرعة تفوق السرعة فى زيادة عدد العمال المنتجين ، ذلك أن الآلات كانت باستمرار تحل محل العمال فى المصانع بينما أخذت العمليات الكتابية تزداد تنوعا بنمو الوحدات الاقتصادية فى الحجم والتعقيد ٠

أما العمال المنتجون فقد أخذوا بدورهم ينقلون الى الطبقة الوسطى التكنولوجية ، حين أخذت الميكنة منهم الأعمال الروتينية وأخذت البروليتاريات الصناعية تحل محلها طبقة نامية من الفنيين ــ الميكانيكيين الدين يقومون بصيانة الآلات والمهندسين من مستويات شتى ، وأخيرا اكتسب العمال الأقل مهارة ــ أنفسهم ــ بعض خصائص الطبقة الوسطى بفضل ما مكنتهم منه زيادة الانتاج فاستطاعوا أن يستمتعوا بالنماذج الاستهلاكية التى تتمتع بها الطبقة الوسطى ــ والذين كان يدعوهم البعض بالأجراء المحدثى الثراء هم جمهرة المشترين للسلع التى توفرت بفضل الانتاج الكبير فاستطاعوا أن يمتلكوا بعض المنازل والسيارات والملابس وتمكنوا من السفر وارتياد أماكن التسلية وتعليم أبنائهم وكان لا يحظى بذلك من قبل الا مجموعات المهنيين والتجار والمديرين الذين كانت تتألف منهم الطبقة الوسطى ٠

بل لقد اجتذبت الطبقة الوسطى الجديدة عناصر من مصادر أخرى ــ من البيروقراطية المتضخمة التى تقوم بالوظائف المتزايدة للحكومة والصناعة ومن شتى ادارات الخدمات المهنية أو الشبه مهنية التى تستطيع المجتمعات العالية الانتاج أن تتحمل نفقاتها ٠ ومع أنه قد بقيت فواصل ملحوظة بين هذه العناصر واستخدمت فى التمييز بينها عبارات مثل عمال الياقة الزرقاء وعمال الياقة البيضاء وعمال المعطف الأسود أو ذوى الفانلة الرمادية فقد كان الأثر الأكبر لانتشار التكنولوجية الصناعية هو زيادة حجم المجموعات التى تحتاج فى أداء وظائفها الى قدر من التعليم والمهارة وتحمل المسئولية والتى تسمح دخولها بالمشاركة فى نماذج للاستهلاك تعلو مستوى عيش الكفاف ٠

وبنمو الطبقة الوسطى من كل هذه المصادر ضعفت الفواصل التى كانت تقسم المجتمعات الصناعية السابقة ، وأذا قسنا الامر بمقياس الدخول

وجدنا ميلا واضحا الى تضييق الفوارق بين الطبقات واذ كان الدخل لا يعتبر وحده تعبيرا كاملا عن دعائم المكانة الاجتماعية والسلطة ، فان له تأثيرا على الوضع الاجتماعي للأفراد والمجموعات ومن جهة أخرى فان التوسع فى الخدمات العامة والمزايا التعليمية قد ضيق الفروق فى الدخل الحقيقى الى حد كبير حتى ولو كانت هناك فوارق ملحوظة فى الدخل النقدى ٠

وأول ماجاء هذا التحول ـ وعلى أكمل وجه ـ جاء فى المجتمعات التى تتمتع بالسيولة الاجتماعية فى أمريكا الشمالية واستراليا ولكنه كان يعيد صياغة البناء الطبقى للبلاد الأوروبية أيضا ٠ وقامت فى لندن عام ١٩٣٠ لجنة مسح شاملة لبحث التغييرات فى الحياة والعمل خلال السنوات الأربعين التى انقضت على القيام بعملية المسح الشاملة الأولى فى لندن سنة ١٨٩٠ ٠ فلاحظت أن الفوارق الطبقية لم تعد واضحة بسهولة للعين المجردة فى صورة امتياز فى الملبس بين المقيمين فى الطرف الغربى الثرى وبين المقيمين فى الأحياء الفقيرة ففى السنوات العشر التى تلت الحرب العالمية الثانية أدت الخدمات التى تقدمها حكومة الرفاهية مقرونة برفع مستوى العمالة وضرائب تصاعدية مرتفعة على الثروة الموروثة وتقديم المنح الدراسية للطلبة الذين تبدو عليهم بشائر التقدم ، أدى كل هذا الى تحول البريطانيين الى مجتمع كله من الطبقة الوسطى وثمة اتجاهات شبيهة بهذا ضاعفت من حجم الطبقة الوسطى فى بلاد أخرى من دول أوروبا الشمالية والغربية ٠

ولكن مع أن الأثر العام للنمو الصناعى كان زيادة حجم الطبقة الوسطى وانبهام الخطوط الفاصلة بين الطبقات فان بعض الاتجاهات المتصارعة قد أدت الى زيادة حدة التقسيم الاجتماعى بدلا من أن تخففها فالتدريب الطويل الباهظ النفقة اللازم للتقدم فى عصر التخصص قد يكون معوقا للطفل الذى تعجز أسرته عن تحمل النفقة لفترة طويلة أو الذى لا تجد أسرته ضرورة لذلك بسبب مستواها الاجتماعى والثقافى الخاص ٠ وتدل الدراسات التى أجريت فى الولايات المتحدة على أن عددا كبيرا من الأطفال من أبناء الطبقة الدنيا قد انقطعوا عن المدرسة حين وصلوا الى السن التى نص عليها القانون لأنهم لا يرون لأنفسهم نفعا فيما يلى ذلك من تعليم ٠ ولا تزال الجامعات الهندية فى منتصف القرن لا تقبل عليها الا أقلية ضئيلة من أبناء العمال ، كما أن الزيادة فى حجم المشروع الصناعى وتركز الصناعات فى أيدى الشركات القوية النفوذ أو فى أيدى الدولة قد جعلت من أصعب الأمور على أصحاب الأعمال الجدد أن يدخلوا

الى السوق فى كثير من فروع الصناعة وزادت من أهمية الدفعة القوية الى الأمام التى يختص بها أبناء الأثرياء واصحاب الصلات الخاصة فى بداية حياتهم العملية وحيثما تحل شركة صناعية كبرى محل كثير من الوحدات الصغيرة فان هذا يؤدى الى قلة فى الوظائف الرئيسية ، وزيادة كبرى فى سلطة من فى القمة .

وفى الاتحاد السوفيتى نجحت ثورة أكتوبر فى تحطيم الطبقات العليا ـ ملاك الأراضى والرأسماليين ومن اليهم ـ وذلك عن طريق نزع الملكية ونفى أو اعدام من يقاوم هـذه الاجراءات وقد أوجدت الدولة السوفيتية طبقة صفوة جديدة تتألف من العاملين الفنيين والمهنيين عن طريق تدريب الموظفين العلميين والعمال الثقافيين الذين أتوا بهم من أوساط العمال والفلاحين وعن طريق اعادة تأهيل أعضاء الصفوة القديمة الذين اندمجوا فى الثورة قلبا وقالبا وكانت السياسات التعليمية فى البداية تعطى الأفضلية لأبناء العمال والفلاحين ليتكون منهم الجزء الأكبر من الطبقة الفنية الجديدة . ثم رفعت القيود المفروضة على الطبقات غير العاملة فيما بعد وأصبحت عضوية الحزب الشيوعى آية على المشاركة الايجابية الواعية الهادفة فى بناء الشيوعية ؛ تلك العضوية التى تحمل معها المكانة والنفوذ .

وبعد فترة أولى وهى فترة محاولة اقرار المساواة اتبعت سياسة تفاوت الأجور واستخدمت الحوافز المالية فأدى هذا الى رفع مستوى العاملين فنيا وتعليميا وثقافيا فكان مجال الاختلاف فى الدخول (بما فى ذلك العناصر المكملة كالاسكان والاجازات الطويلة) بين كبار الموظفين والعلماء والفنانين من جانب،والعمال الصناعيين غير المهرة والزراع من جانب آخر شبيها بمجال الاختلاف فى المرتبات والأجور بالبلاد الصناعية الأخرى وان كانت دخول الفنانين والعلماء أكثر ارتفاعا على العموم . ولكن أمثال هذه الفروق لم تنشىء قاعدة لفوارق طبقية موروثة لأن الوراثة قد ضاق نطاقها الى أبعد الحدود وأصبحت فرص التعليم متاحة للجميع وهكذا مالت الفوارق بين الناس فى الثروة التراكمية الى أن تضيق . وكان من سياسة الدولة أيضا طبقا للنظرية الماركسية اللينينية الغاء التمييز بين العمل اليدوى والعقلى وتحقيقا لهذه الغاية عدلت برامج التعليم بحيث صارت تقدم خبرة عملية مباشرة وصار يعول على تزايد انتشار الميكنة والاتوماوية فى ازالةالحد الفاصل بين عمالالمصنع العاديين وبين الفنيين.

وفى البلاد الرأسمالية والشيوعية على السواء وجدنا ان البيروقراطيات التى تدير أجهزة كبرى سواء صناعية أو عسكرية أو حكومية قد صار لها سلمها الوظيفى الخاص المكون من درجات يعلو بعضها بعضا ولقد أدرك أهمية هذا التطور بعض المراقبين فى كلا المجتمعين وان كان كل منهما يرفض هذا نظريا ففى الولايات المتحدة كتب جيمس بيرنهام James Burnham (الثورة الادارية سنة ١٩٤٠) فى وصف تزايد قوة البيروقراطيات الصناعية وتنظيمها بأنه خلق (طبقة المديرين) وفى يوغوسلافيا كتب جيلاس «الطبقة الجديدة» سنة ١٩٥٧ The New Class وفيه يطبق ما يعتبره تحليلا ماركسيا على سلوك البيروقراطية الشيوعية العليا والمنطق الذى يسود سلوكهم وأعتقد أنه يرى خصائص طبقة جديدة ..

ولقد ظل التقسيم الطبقى على أساس عنصرى بين الشعوب المختلطة التى تنتمى الى أصول مختلفة وان كانت العوامل التى تضعف التمييز الطبقى تميل أيضا الى اضعاف الفوارق العنصرية غير أن هذه الفوارق تكون فى غاية القوة اذا كانت لها دعامة من الدين أو اللون وحين يحدث تحيز عنصرى فى اسناد الوظائف وغير ذلك من الأمور التى تحول دون المرونة فى الترقى الاجتماعى فان الفروق العنصرية تتحول الى فروق طبقية أو تستمر هذه الفروق الطبقية يدعمها التحيز اللونى أو التعصب الدينى وثمة مؤسسات اجتماعية مختلفة مثل جمعيات الأخوة والكنائس والأندية والمطاعم ومحلات البقالة والصحف وأحيانا برامج الاذاعة فى لغة الغالبية تؤدى كلها الى الابقاء على الفوارق العنصرية ، والتغيرات الخاصة بالتقسيم الطبقى على أساس عنصرى قد جاءت نتيجة للاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية العامة - من جهة - كما جاءت من جهة أخرى نتيجة للسياسات العامة التى تختلف اختلافا ملحوظا من بلد الى آخر . لقد أدى انهيار السيادة البيضاء فى كل أنحاء العالم - نظريا وفعليا - الى وضع من يمارسون التمييز العنصرى موضع الاتهام . وفى بعض البلاد أضفى على التفريق العنصرى جلال القانون وفى جهات أخرى يلقى هذا التفريق مقاومة صريحة وفى كندا حيث احتفظ الفرنسيون بكيانهم بعد أن انتقلت منطقتهم من يد فرنسا الى يد بريطانيا فى القرن الثامن عشر ، وكانت تتبع سياسة تشجع المجموعات المهاجرة على الاستيطان فى وحدات قومية . وفى القرن العشرين ألغيت سياسة استيطان المجموعات هذه وحل محلها سياسة « التمثل » ولكن بعض النظم وبخاصة نظم المدارس قد أعانت على الاحتفاظ بالتقسيمات التى كانت قد نجمت عن السياسات السابقة

ولقد اتبعت البرازيل طريقا شبيها بهذا الى حد ما . فقبلت أولا استيطان المجموعات مما ترتب عليه وجود مستعمرات عنصرية للألمان وغيرهم وفى الربع الثانى من القرن العشرين سارت على عكس هذه السياسة وفى أستراليا وجدنا أن الأعداد الكبيرة من الاستراليين الجدد الذين هاجروا من أوروبا فى السنوات العشر التالية للحرب العالمية الثانية قد اندمجوا بشكل منظم فى الحياة الاقتصادية للبلاد ، على نحو استهدف منعهم من تكوين جزر عنصرية أو جعلهم طبقة دنيا .

ولم تتبع الولايات المتحدة مطلقا سياسة كندا فى توطين المجموعات القومية بل كانت تتوقع ان ما تسميه « ببوتقة الانصهار » وهى الحياة الأمريكية مضافا اليها نظام تعليمى عام باللغة الانجليزية سوف ينتج جنسا أمريكيا من أخلاط الجنسيات الأجنبية فأصابت الأمريكيين دهشة بالغة حين اكتشفوا عند بلوغ حركة الهجرة الكبرى ذروتها قبل الحرب العالمية الأولى ان سحر التربة الأمريكية لم يغير فى الحال الايطاليين والبولنديين من الفلاحين الى أمريكيين ١٠٠٪ ولم يؤثر كثيرا على الطبقة الوسطى الأنجلو سكونية البروتستانتية والواقع ان كل مجموعة وافدة من المهاجرين كانت تدخل المجتمع من أسفل السلم الاجتماعى والاقتصادى وتقوم بأقل الأعمال أجرا وأقلها حاجة الى المهارة وتعيش فى أفقر المساكن بين جيران يتكلمون نفس اللغة وكان ينظر اليهم باحتقار من جانب الوافدين ممن رسخت أقدامهم وتميزوا على الوافدين الجدد بأعمال أرقى ومساكن أفضل. وحين أدت قوانين تحديد الهجرة الى وقف تدفق المهاجرين الأوربيين بعد الحرب العالمية الأولى عادت عملية التقسيم الطبقى على الأساس العنصرى فقد اجتذبت الأعمال الدنيا الى الأحياء الفقيرة فى المراكز الصناعية الطبقة الدنيا من الوافدين والأمريكيين من الجبال المنعزلة أو الأرض القاحلة والمكسيكين من وراء الحدود والزنوج من ريف الجنوب وأهل برتوريكو من جزيرتهم الآهلة بالسكان .

وكان التقسيم الطبقى على أساس عنصرى أبرز ما يكون حيث يؤدى اختلاف اللون الى وضع المجموعة فى عزلة فلم يكن المفروض فى مبدأ بوتقة الانصهار فى الولايات المتحدة أن ينطبق على الزنوج اذ كان من المفروض أنه يوجد فارق يحدده اللون وظل فارق اللون حائلا دون اتاحة الفرص للزنوج خلال النصف الأول من القرن العشرين ولكن فى خلال هذه الأعوام أخذت الحواجز تضعف بسرعة وأخذ الفارق فى مستويات الدخل والوظائف والتعليم يضيق وينكمش واعتبر التفريق العنصرى أمرا

غير قانوني وفي أواسط القرن أخذ أحفاد الرقيق ومعهم أبناء المهاجرين يدخلون في نطاق الطبقة الوسطى التي تزداد انساعا وتزداد فيها المساواة ·

وفي المناطق الأخرى حيث لم يكن الفاصل اللوني بكل هذا الوضوح وبخاصة في بلاد أمريكا اللاتينية والكاريبي وكان يوجد نفس الميل الى تخفيف الفوارق وسهولة الانتقال الاجتماعي من طبقة الى طبقة تعلوها · وفيما يتعلق بالسكان الهنود الوطنيين في هذه الأقاليم فقد اتجهت البلاد الى الادماج العادل لمن أصبحوا جزءا من الحياة القومية ولم يعد الحد الفاصل هو العنصر بل يقوم على الانعزال الثقافي للمجموعات القبلية · وقد أدت هجرة الهنود الغربيين الى بريطانيا في الخمسينيات الى ادخال عامل اللون في الاعتبار للمرة الأولى هناك كما أن وجود عدد كبير من العمال الجزائريين في فرنسا قد فرض الضغط للحصول على المساواة رغم اختلاف اللون وكان التفريق على أساس اختلاف اللون من تقاليد هذا البلد · وأدت هجرة الأوروبيين الآسيويين ـ الى هولندا عند استقلال أندونيسيا الى ايجاد مشكلة تمثل السكان ولم يقو التفريق اللوني الا في اتحاد جنوب افريقيا · فقد تفاقمت حدة التفريق العنصري هناك ، بينما ضعفت في باقي أجزاء العالم ·

(ب) في المجتمعات غير الصناعية :

في المجتمعات الطبقية في الشرق وفي أفريقيا كانت هناك أداة كبرى للتغيير ، هي مجموعة الأفراد الذين تعلموا تعليما غربيا ، وصاروا في مركز يسمح لهم بتحدي الصفوة التقليدية في المجتمع القديم ·

وكانت طبيعة العنصر المطبوع بالطابع الغربي ومركزه يختلفان بوضوح من بلد الى آخر · ففي الصين كان أصحاب الثقافة الغربية يشكلون مجموعة بذاتها ، معظمها من طبقات التجار بالموانى التي يعمل فيها التجار الأجانب ، ومن الطلاب بمدارس التبشير ، الذين تمكنوا من اجادة اللغات الغربية ليتمكنوا من مواصلة تعليمهم بالخارج ، والحصول على المنح الدراسية · وفي محاولتهم اعادة بناء المجتمع الصيني ، وجدوا أنفسهم في صراع مع من يمثلون العرف والسلطة ، كما وجدوا أنفسهم معزولين عن كتل الشعب · فلما استولى الشيوعيون على السلطة استطاعوا بسهولة أن يمحوا أثر العنصر المطبوع بالطابع الغربي ، عن طريق اعادة

تقوية القيم الثقافية الصينية التقليدية ، بينما كانوا هم أنفسهم يعيدون صياغة المجتمع الصينى بتكنولوجية الغرب ومؤسساته .

أما فى اليابان فلم يقتصر الطـابع الغربى على مجموعة متميزة ، فصلت نفسها عن باقى كتل الشـعب ، بل لقد تغلغل فى المجتمع الى حد ما . فبدلا من أن يخلق طبقة اجتماعية جديدة فقد أثار الصراع فى داخل عقول نسبة كبيرة من السكان وسلوكها تاركا بناء المجتمع دون تغيير أساسى وفى كوريا ظل التأثير المحدود للمبشرين هو المصدر الرئيسى لنشر الطابع الغربى حتى بعد الحرب العالمية الثانية حين أخذت كل قطاعات السكان تشارك فى عملية سريعة لانشاء الدولة العنصرية .

وفى تايلاند دخل الطابع الغربى عن طريق التعليم الغربى للأسرة المالكة ، والأرستقراطية التى تعمل بالبلاط وبذا لم يخلق طبقة اجتماعية جديدة بل عدل من سلوك ومواقف الصفوة القائمة . وفى البلاد العربية حيث بلغ الفارق بين الفلاحين وملاك الأراضى أقصى الحـدود كانت كل العناصر المتعلمة تقريبا آتية من الطبقة العليا .

وكانت الدول الاستعمارية تعتمد فى توسيع نطاق حكمها وادارته على عنصر محلى مدرب على أعمال خاصة . فاعتمدت سياسة الهولنديين فى أندونيسيا على تطوير العنصر الهندى الأوروبى ليكون منه المساعدون الرئيسيون للمديرين الهولنديين ، أما الأندونيسيون فلم يكادوا يحظون بأى تعليم غربى وقد أدى هذا الى ظهور طبقة مطبوعة بالطابع الغربى ، وهى طبقة تنتمى الى عنصر خاص . فلما استعاد الأندونيسيون استقلالهم وجهوا سهام غضبهم الى هذه الطبقة الممتازة ، فى قسوة بلغت حد طرد نسبة كبيرة منهم من البلاد . ولم يكن فى متناول الدولة الأندونيسية لتقوم بالتطوير والتنمية الا مجموعة ضئيلة من الأندونيسيين ذوى التعليم الغربى . وفى بورما استخدم البريطانيون الهنود فى معظم الوظائف الفنية والمدنية التى لا يشغلها بريطانيون ، بينما أهل بورما الذين تعلموا فى المدارس الانجليزية صاروا قلبا وقالبا من ذوى الثقـافة الأوروبية والميول الأوروبية . وقد جاء زعماء بورما المستقلة من الرجال الذين ظلوا أوثق صلة بالشعب . وفى الهند ظهر عنصر مطبوع بالطابع الغربى بفضل شبكة واسعة من المدارس الانجليزية تعد الطلبة لشغل الوظائف المدنية . وكان ظهور هـذا العنصر مصحوبا بحركات قوية لاصـلاح المجتمع من الداخل وبحركة القومية الهندية ولهذا فان العناصر ذات التعليم الغربى

لم تنفصل عن البناء التقليدى بل صارت أشبه بالخميرة التى انتفعت بها الحياة السياسية كلها ٠

وكان أقوى ما بذل من جهـــود لتغيير البناء الطبقى فى البـلاد الآسيوية فى اليابان والهند وفى الصين الشيوعية ٠ أما فى غيرها فان الاجراءات التى اتبعت لتحسين أحوال الفلاحين وبداية الصناعة والاستكثار من الموظفين والمجموعات المهنية المتعلمة ، كل هذا انما كان يشـير الى اتجاه التغيير ، ولكنه حتى أواسط القرن لم يترك أثرا ظاهرا على البناء الاجتماعى الأساسى ٠

وقامت اليابان بسلسلة من الاصلاحات عقب الحرب العالمية الثانية، قصدت منها الى اعادة صياغة مجتمعها على نحو ديموقراطى ، وقد أثرت هذه الاجراءات على ملكية الأرض ، وحق التعليم ، ووضع العمال ، ومكانة الشباب والنساء ، وقد أدت هذه الاصلاحات فى أول أمرها الى تغيير الجوانب الخارجية للمجتمع ، ولكن بقى أن نتساءل الى أى حد استطاعت هذه الاصلاحات أن تؤثر فى نموذج العـلاقات الراسخة التى عززتهـا ودعمتها أساليب الكلام والخطاب ، وتميز ذلك فى تفاصيل المواضـعات اليومية للسلوك ؟ ٠

وفى الهند كان نظام الطبقات الوراثى قد تعرض لهجوم من جانب الحركات الاصلاحية فى القرن التاسع عشر ، وقد تعرض هذا النظام لهجوم مباشر من جانب من عظم حظهم من الثقافة الغربية بينما كان المصلحون الهندوكيون يؤكدون ان التقسيم الرباعى للمجتمع الفيـــدى Védic لا يتضمن توارث الامتياز الطبقى بل يجب أن ينال هذا الامتياز على أساس الأخلاق الشخصية والكفاءة الطبيعية ٠ وقامت فى العشرينات حركة بزعامة المهاتما غاندى لمناهضة التمييز الطبقى ، فدبت الهمة فى نفوس المنبوذين، وأصبحوا جزءا من الحركة الوطنيـة ٠ وقد سوى غاندى بين المنبـوذين وغيرهم فى أشرم ــ حيث أطلق عليهم اسم هاريجان ومعناه أحباب الله ٠

وقد شجع التزواج بين مختلف الطبقات ، واخذ يدق دعائم البناء الطبقى ، بالدعوة المستمرة الى ذلك ٠ ونظم المنبوذون صفوفهم للخـلاص مما يفرض عليهم من قيود ٠

فلما حصلت الهند على استقلالها كان الشعور العام قد عبىء ضد فكرة النبذ الاجتماعى ، وانهارت ممارسة النبذ فى عدد من المواقع ٠ فالغاها الدستور الهندى الغاء صريحا وجعل فرض أى قيد تأسيسا عليها

جريمة يعاقب عليها القانون . كذلك الغيت القيود المفروضة على التزاوج فيما بين مختلف الطبقات والعقائد بمقتضى قانون الزواج الهندوكى سنة ١٩٤٩ وقوانين ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ . فقد نصت هـــذه القوانين على بطلان استبقاء الانتماء الطبقى على أساس وراثى .

على أن جوانب كثيرة من النظام الطبقى فى الهند ظلت قائمة من الناحية العملية بعد أن ألغاها القانون. اذ من غير الممكن الغاء النبذ الاجتماعى ما بين عشية وضحاها . ومن بعض النواحى حصل التقسيم الطبقى على مبرر لوجوده مع ادخال نظام التصويت الديمقراطى لأن المرشحين للمراكز السياسية يعتمدون بطبيعة الحال على مجموعاتهم الخاصـة ، أى طبقتهم الخاصة . ولكن الأحزاب السياسية تضم أعضاء من مختلف الطبقات والمعتقـــد أن التصويت ـ على المدى الطويل ـ سيعطى ميزة للمجموعات الأكبر عددا ، لا للمجموعات التى كانت فى الماضى أقوى نفـــوذا وبذا فسوف يرسى أساسا جديدا للعلاقات بين الكتل الاجتماعية .

وكان أقوى العوامل التى أدت الى تحطيم جمود التقسيم الطبقى نمو الصناعة الحديثة . وتقدم المهن الجديدة التى شملت أفرادا من مختلف الطبقات ، وصارت الحياة المدنية والحياة الصناعية تعتمدان على ســهولة الانتقال الى طبقات أعلى ، والنشاط فى الخدمة العامة . لقد كان التقسيم على أساس الجنس أو الدين أقوى وأعمق فى آسيا مما كان فى الغرب ، لأن فكرة المواطنة المشتركة ظلت غريبة على تقاليد المجتمع الآسيوى الى أن طبق نظام الدولة القومية الزمنية . وكان المفروض فى المجموعات الدينية والعنصرية أن تحتفظ بطابعها ونظامها المميز بما فى ذلك قانونها وعاداتها التى تتمثل فى ثقافتها . ولهذا فان المواطنة القومية فى المجتمعات المتعددة الثقافات فى آسيا كانت تسير سيرا بطيئا فى طريق الالغـــاء ، أو حتى تخفيف حدة الانقسامات بين المجتمعات العنصرية أو الدينية .

ولا يكاد يوجد فى آسيا بلد غير اليابان وكوريا والصين الا وظهرت فيه هذه المشكلة فى احدى صورها ، ولعلها أوضح ما تكون فى الملايو . ففى عهد الحكم البريطانى كان أهل الملايو يتمتعون ببعض الحقوق التى لا يشاركهم فيها المواطنون من أصل صينى أو هندى ، وان كان هـؤلاء يشكلون أكثر من نصف سكان دولة الملايو عند الاستقلال . ولكن هـذا كان موجودا فى الوضع المنفصل للسكان الصينيين بأندونيسيا وتايلاند، وبالنسبة للغة التاميلية فى سيلان ، وثمة مشكلة خطيرة كانت تواجه الهند وباكستان هى هل تنجح الهند فى ادماج الأقلية المسلمة بهـــا بوصفهم

مواطنين فى دولة زمنية ؟ وماذا يكون من أمر الهندوس الذين يشكلون عشر سكان دولة باكستان الاسلامية ؟

والتقسيم العنصرى يتعقد حين يتصادف التقاؤه بالتقسيم على أساس الطبقة الاقتصادية كما يحدث فى غالب الأحوال • وقد ظهر هذا الوضع فى تركيا حيث أدت حركات تصفية الأرمن وطرد اليونانيين الى حرمان كبير للمجتمع التركى من طبقات التجار والعمال اليدويين • كذلك فان الصينيين فى أندونيسيا ، والى حد كبير جدا فى تايلاند والملايو يشكلون مجموعة اقتصادية كما يشكلون مجموعة عنصرية •

وهكذا ظلت الفروق العنصرية ذات أهمية كبرى فى بنيان المجتمع فى آسيا ، والشرق الأوسط حتى منتصف القرن العشرين • وتميل بعض الأحداث الى تقوية هذه الفروق وتميل احداث أخرى الى التخفيف من وطأتها • فقد أدى ظهور القومية الى تقوية الوحدة العنصرية كما حدث ذلك مثلا نتيجة للصراع الاجتماعى الوحشى الذى أعقب تفتت الامبراطورية العثمانية وتقسيم شبه القارة الهندية • وفى أعوام ما بعد الحرب العالمية الثانية أدى وجود جمهورية الصين الشعبية الى جعل الصينيين خارج البلاد الشيوعية من المشبوهين السياسيين كما جعلهم هدفا للحسد الاقتصادى •

ولكن تتجه الفواصل الاجتماعية الى الاختفاء كلما انتقل الناس الى المدن ، وما يصحب ذلك من التخلى عن الأزياء المميزة والحصول على دخل من أعمال لم يتعود الأفراد عليها • واتخاذ هويات أخرى بدلا من تلك المرتبطة بالماضى العنصرى • وفى كل مكان يظهر ميل الى انتاج ما يسميه علماء الاجتماع بالرجل الحدى marginal man ويقصدون به الرجل الذى يخضع لتأثير ثقافتين أو يكون فى مرحلة التخلى عن ثقافة قديمة ، وكسب ثقافة جديدة • ومع أن الأقلية العنصرية تتشبث بشراسة بولاءاتها المستقلة ، فان القومية الجديدة بتعليمها العام وتثقيفها للجميع بلغة المجموعة القومية ومثلها تميل الى جعل الهنود والعراقيين والأندونيسيين وأهل الملايو وباكستان ولبنان أمة واحدة تنصهر فى بوتقة كل هذه الثقافات المتعددة •

٣ ـ المنظمات الطوعية

١ ـ وظائف المنظمات الطوعية فى المجتمع الحديث :

نظرا لتقلص حجم الأسرة وتقلص الوظائف الاجتماعية التى تقوم بها ونظرا لأن التقسيم الطبقى والتكتل العنصرى قد فقدا الكثير من دلالتهما الحاسمة على مكان الفرد ودوره فقد ظهرت المنظمات الطوعية لتلعب دورا متزايدا فى تشكيل المجتمع الحديث وتحديد هويه أعضائه ومراكزهم الاجتماعية •

والمنظمات الطوعية لها أنماط كثيرة وتعتمد على أنواع عديدة من الاشتراك فى المصالح ، وأوسع هذه المنظمات وأكثرها تغلغلا الأحزاب السياسية التى تتزايد أهميتها فى ادارة سياسة الدولة الديموقراطية الحديثة . ومن بين المنظمات الطوعية الواسعة الانتشار الى أقصى حد تلك الاتحادات التى تكونت لتحسين الظروف الاقتصادية لأعضائها وحماية مصالحهم مثل اتحادات العمال ، ومنظمات تجارية لرجال الاعمال، اتحادات أصحاب العمل والغرف التجارية ومنظمات الفلاحين والاتحادات المهنية واتحادات المستهلكين أو دافعي الضرائب • ولما تزايد نفوذ هذه المنظمات أخذت فى بعض الأحيان تصبح هيئات احتكارية وتسيطر الى حد كبير على ممارسة بعض المهن وعلى الفرص المتاحة لبعض أنماط العاملين أو تسيطر على طرق الوصول الى بعض الاسواق الخاصة ومصادر الامدادات وبذا فقدت قدرا من طابعها الاختيارى الحر •

وبعض الاتحادات تتيح لأعضائها فرصة المشاركة فى النشاطات الاجتماعية المختلفة على أساس السن مثل اتحادات الشباب أو فى المنظمات النسائية على أساس الجنس وبعضها مكرس للنشاطات المدنية أو الخيرية وبعضها الأخير يتيح للأعضاء أن يمارسوا هواية مشتركة أو اهتمامات ثقافية مشتركة •

وقد احدثت هذه المنظمات الكثيرة المختلفة ردود أفعال تلقائية للحاجة لايجاد وسيلة للمشاركة فى حياة المدينة المعقدة لأنها تشكل التجمعات التى يتم عن طريقها الاتصال الاجتماعي وممارسة الاهتمامات والنفوذ فصار الفرد الذى لم يعد يستطيع تحديد مكانه تماما على أساس الاسرة يستطيع أن يحدد مكانه على أساس وظيفته والمجموعات التى ينتمى اليها مثل كنيسته وحزبه السياسى والاتحاد العمالى الذى ينتمى اليه وناديه

واتحادات الأخوة أو الجمعية المدنية أو الخيرية التى يشترك فيهـا ويكون التقاؤه بشخص آخر على أساس انتماء هذا الشخص لاحدى المنظمات ومن ثم تكون توقعاته بالنسبة لهذا التعرف الجديد هذا فضلا عن هويته التى يدل عليها العمل الذى يقوم به ٠

كذلك كان التنظيم الطوعى أداة تتزايد ضرورتهـا لسير عمليات الديمقراطية الليبرالية فالديمقراطيات الحديثة لا تستطيع أن تعتمد على الصور المباشرة للاتصال التى تتميز بها القرية أو التى كانت تتميز بها دولة المدينة عند الاغريق أو اجتماعات أهل المدينة فى نيوانجلند ٠ اذ لابد من بعض وسائل الاتصال لصياغة أفكار الجماهير والتعبير عنها ، وتقدم المنظمات الطوعية معلومات شخصية حميمة أكثر مما تعمل وسائل الاتصال بالجماهير لتشكيل آراء الناس ومواقفهم وامداد الناس بوسيلة للتعبير عن مجموعتهم التى يستطيعون عن طريقها أن يشاركوا مشاركة فعالة فى أجهزة الحكم الديمقراطى .

وفى المجتمعات الاشتراكية أيضا تلعب المنظمات الطوعية دوراخاصا فتطبيقا للمبدأ القائل بمشاركة الناس جميعا ــ وفى نهاية الأمر ــ فى ادارة الحياة العامة فان هناك المنظمات التى تمارس وظائف عامة ومن أمثلتهـا اتحادات العمال والاتحادات المهنية وما شابه ذلك ٠ فهى تمنح سـلطات ومسئوليات خاصة بها وتحل بعض المشكلات بنفسها - وفضلا عن ذلك فهى تشمل أفراد الشعب كلهم تقريبا ، فعضوية اتحادات العمال مثـلا يشترك فيها كل عمال المصانع والمكاتب تقريبا ، بينما منظمات الشباب تشمل الغالبية العظمى من الشباب ٠

٢ ــ منظمات المصالح الاقتصادية ٠

(أ) منظمات رجال الأعمال :

أخذت منظمات رجال الأعمال التى أنشئت لرعاية مصالحهم شـكل اتحادات التجارة بالنسبة لصناعات منفصلة ، واتحادات أصحاب الأعمال لمواجهة اتحادات العمال ، والغرف التجارية لتحسين الظروف التجـارية لمنطقة محلية بذاتها ٠ وكل هذه المنظمات كان لها نموذجهـا الأول فى اتحادات الحرف والتجار فى العصور الوسطى كما كانت هناك أيضـا اتحادات العمال ، ولكن وجود هذه المنظمات بالنسبة للصناعة الحديثـة

يرجع الى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ثم تزايد عددها واتسعت مهامها فى فترة الحرب العالمية الأولى وما بعدها .

وقد نشأت اتحادات التجارة على يد المنتجين للحد من المنافسة غير المفيدة ، ولتقوية مركزهم ازاء صناع المنتجات البديلة فاشتغلوا بالبحث ونشر البيانات التجارية ، وحاولوا التأثير على السياسة العامة فيما يتعلق ببعض الأمور مثل التعريفة الجمركية وأجور الشحن بالنسبة لمنتجاتهم. وفى التنافس الذى جرى بين الصناعات أكثروا من الاعلانات الموحدة لترويج المنتجات أو الخدمات الخاصة بصناعة كاملة ، بدلا من منتجات أو خدمات شركة واحدة .

ولقد هيأت الحرب العالمية الاولى دفعة قوية لاتحادات التجارة ،حين طلب من الصناعات أن تبذل جهدا مشتركا لمواجهة طلبات الحكومات من المنتجات الحربية . وبعد سنوات الحرب توسع نشاطها فشمل توحيد المواصفات للمنتجات ، مثل المواصفات القياسية بحجم المسمار المحوى أو أدوات الامن بالنسبة للمهمات الكهربائية . ولقد جعل منها موسولينى مركزا للتجارب فى التنظيم الاقتصادى فمنحها حق التحكم فى الصناعة. كما استخدمت لنفس الغرض فى الفترة القصيرة التى حاولت أمريكا خلالها انقاذ الاقتصاد من وهدة الكساد فى الثلاثينيات عن طريق قوانين اقترحتها اتحادات التجارة فيما يتعلق بالأجور والأسعار وممارسة الاعمال فى كل صناعة من الصناعات .

ولقد أدت اتحادات التجارة وظائف اجتماعية وتعليمية ، فضلا عن وظائفها الاقتصادية لأنها مكنت رجل الاعمال من أن يوحد بين مصالحه ومصالح العاملين فى نفس الحقل ، وأن تكون له علاقات اجتماعية داخل المجموعة . ولم تقتصر مطبوعاتها على الاعلام بالأمور الوثيقة الصلة بأعمالها بل ساهمت أيضا فى تشكيل الآراء ونشر المعارف العامة .

ولقد شكلت اتحادات أصحاب الأعمال أحيانا لغرض صريح هو حل مشكلاتهم الخاصة بعلاقاتهم بالعمل وفى جهات أخرى كانت اتحادات التجارة تقوم بهذا الدور وكانت معظم اتحادات أصحاب الاعمال فى صورتها الأولى عنيفة فى رفضها لاتحادات العمال ، وقامت بنشاطات تستهدف منع تكوين الاتحادات العمالية التى من شأنها أن تعارض فى مطالبها وتوجد جوا عاما من الآراء المناهضة لوجودها وأدائها لأعمالها ، وبزيادة قوة الاتحادات العمالية تخلت اتحادات أصحاب الاعمال عموما عن روحها

العدوانية المتطرفة ، وأصبحت أدوات للتفاوض ابتغاء الوصول الى اتفاق مع العمال أو تمثيل مصالح أصحاب الاعمال أمام الاجهزة الحكومية ، كما كانت الحال فى كثير من الدول الاوروبية وفى استراليا ونيوزلندا لتسوية المشكلات المتعلقة بالأجور والعمل ، ولقد كتب البقاء لبعض اتحادات أصحاب الأعمال المناهضة للعمال فى الولايات المتحدة ـ وبعد أن تخلت مثيلاتها عن الروح العدوانية فى معظم البلاد االاخرى فرأيناها فى الثلاثينيات تقوم بأعمالالعنف والارهاب وتحتفظ بشرطة خاصة بحملات دعاية بالغة القوة للنيل من مكانة اتحادات العمال ، وكان الامر يحتاج الى سن تشريع قوى والى المهارة فى تطبيقه لاكتشاف وسحق الحيل الكثيرة التى لجأت اليها هذه الاتحادات للقضاء على حقوق العمال المشروعة فى أن يتفاوضوا جماعيـــا بشأن الاجور عن طريق الاتحادات التى يختارونها • ومهما يكن من مركز اتحادات أصحاب الاعمال فانها فعلت الكثير نحو صياغة مواقف أعضائها وبهذا ساهمت فى تكوين الرأى العام الذى تمارس فيه علاقات العمـل خلال هذه السنوات •

ورغم وجود تداخل فى العضوية بين الغرف التجارية من جهـــة واتحادات أصحاب الاعمال والاتحادات التجارية من جهة أخرى،فان الغرف التجارية منظمة طوعية من طبقة متميزة تتألف من أعضاء يمثلون العمل فى مجتمع محلى ـ ليس للتجار فقط بل أيضا لأصحاب الصناعة والصيرفيين وغير ذلك من أصحاب المصالح المتصلة بالعمل • والمبرر الرئيسى لوجودها هو ايجاد الظروف الملائمة لرعاية المصالح الاقتصادية للمجتمع المحـــلى والعمل على أن تكون السياسة الضريبية أو سوق العمل ملائمين لحاجـات العمل المحلى وتشجيع الصناعات أو الحرف التى تزدهرفى المنطقة أوالتى يأملون انشاءها فيها لدعم القوة الشرائية لعملائهم ، وكثيرا ما تكون الغرف التجارية المتحدث باسم المجتمع • وفى المدن غير محددة الاسم والمعالم كانت الغرف التجارية فى غالب الأحيان هى التى ترسم حدود المدينه وتعبر عن مصالح المجتمع والطريقة التى ينبغى اتباعها لتحقيق هذه المصالح وهى اذ تفعل ذلك انما تجعل مصالح المجتمع مرادفة لمصالح مجموعة رجال الاعمال وتسهم فى تحقيق السيطرة لعنصر رجال الاعمـال ، وكانت منظمـــات العمل هذه تتألف على أساس نوع النشاط التجارى أو مكان ممارسته وتتجمع فى الاتحادات القومية التى تمثل الأعمال على المستوى القومى وقامت الاتحادات القومية لأصحاب الصناعات والغرف التجـارية القومية بدور القيادة غير الرسمية فى بعض البلاد كما مارست رقابة صارمة على الوحدات التابعة لها فى بلاد أخرى • وقد سلم بأن وجودها فى كل بلد يقوم

على أساس اختيارى حتى حين شكلت منظمة العمل الدولية ١٩٩١ وظلت هذه المنظمات واحدا من الأسس التى قام عليها تمثيل كل بلد فى بناء منظمة العمل الدولية تمثيلا ثلاثيا بواسطة العمال وأصحاب الأعمـال والحكومة .

ولم يقتصر الأمر فى اتحادات الاعمال على الارتباط على أساس قومى بل لقد ارتبطت أيضا على أساس دولى طبقا للصناعات وعن طريق الغرفـة التجارية الدولية التى تأسست ١٩١٩ والتى عملت كجهاز اتصال لتبادل المعلومات بصورة غير رسمية بين مجموعات أصحاب الاعمال فى مختلف البلاد .

(ب) الهيئات المهنية :

زادت أهمية المنظمات المهنية بزيادة عدد المهن التخصصـــية وكانت بعض هذه المنظمات هيئات ذات تاريخ طويل ، مثل الروابط القومية للأطباء والمحامين فى معظم البلاد . وبعض التقسيمات الفرعية داخل هذه الاتحادات الواسعة ، مثل أطباء الامراض العقلية كونت روابط منفصلة حين تميـز اختصاصها عن اختصاص غيرها . كذلك فان بعض المهن الجديدة قد ظهرت مثل العاملين فى الميدان الاجتماعى فأقاموا روابط خاصة بهم حين اعتبروا من أصحاب المهن .

والوظيفة العامة للروابط المهنية هى كفالة الاستقرار والتحسين للمهنة وأحيانا حراستها . وهى تحدد شروط العضوية على أساس المؤهل ، وتقرر دساتير لأخلاقيات المهنة ، وتسحب امتيازات العضوية وحق ممارسة المهنة ممن امتهنوا المبادىء الاخلاقية التى وضعتها الهيئة ، وتقوم أيضا بتزويد أعضائها بالمعلومات ، ليحيطوا بما يستجد من معارف فى ميدانهم . على أن الدور الذى تقوم به الروابط المهنية فى الترخيص بممارسة المهنة ، وفى التفتيش على معاهد التدريب ، والاعتراف بها ، يختلف من بلد الى آخر . ففى بعض البلاد تمارس هذه الاختصاصات وكالات عامة ، وتمارسهـا فى بلاد أخرى اتحادات مهنية ، وفى غيرها تمارسها المنظمات المهنية نيابة عن الدولة . كما أن الروابط المهنية تتيح أيضا لأعضائها الطريق للتعبير عن آرائهم فى الامور العامة . ففى ميدان الصحة مثلا نجد للاتحادات الطبية تاثيرا كبيرا على تحسين الخدمات الصحية ، سواء فى رفع مستويات الخدمة ، أو فى تأييد ــ أو معارضة ــ تدابير صحية معينة .

ج ـ نقابات العمال

ان نقابات العمال التى نظمت تعزيز قوة العمال فى مواجهة أصحاب الأعمال قد منحت العمال الصناعيين وسيلة الاندماج فى نوع من النضال، وفى هيئة يستطيعون فى داخلها أن يتحملوا المسئولية ، ويتعلموا العمل فى مجموعة • فلما استقرت الاتحادات ، وصارت أشبه بهيئات روتينية ينضم اليها العمال أوتوماتيكيا ليستبقوا وظائفهم ، وأخذت الاتحادات تتحمل المسئولية قبل محاكم العمال ، أو فى تطبيق الاتفاقيات ، أو فى الحصول على ضمانات اجتماعية ، ففقدت جزءاً من معناها القديم ، بالنسبة للفرد العامل . فبعد ان كانت اتحادا يعتبره الفرد ملكا له ، أصبحت مجرد تنظيم ضخم لابد للعامل من أن يتعامل معه ، وعليه أن يسدد له ما عليه ، شأنه فى ذلك كشأنه مع الدولة . ولكن اتحاد العمال ظل ـ بعد الكنيسة والحزب السياسى ـ أوسع تنظيم طوعى يرى فيه سكان البلاد الصناعية خير معبر عنهم .

د ـ منظمات الفلاحين

أسس الفلاحون والزراع منظمات طوعية أقل على العموم ، واقصر بقاء من اتحادات العمال وأصحاب الاعمال • فالتنظيم الطوعى للفلاحين كان جزئيا ومتقطعا ، وان كان لهذا استثناءات ملحوظة كما حدث فى الدنمارك حيث المنظمات السياسية والثقافية للفلاحين قد صارت منذ الربع الثالث من القرن التاسع عشر عنصرا كبيرا فى بناء الدولة • وقد اتجهت هذه المنظمات فى البلاد ذات النظم الزراعية المتقدمة الى تحسين عملياتها الاقتصادية • أما فى المجتمعات الزراعية التى بقى فيها الطابع الاقطاعى ، فقد كانت جزءا من حركات سياسية تستهدف الاصلاح الاجتماعى •

هـ ـ اتحادات لرعاية مصالح اقتصادية أخرى

كانت أنواع أخرى من المصالح الاقتصادية المشتركة أساسا لتكوين اتحادات • فاتحادات دافعى الضرائب المحليين ، أو دافعى العوائد ، أو ملاك المنازل، والعقارات، غالبا ما تمثل مصالح السكان الموجودين أو المستثمرين المحليين للأراضى أو التجار الذين يحاولون منع حدوث تغييرات فى الطابع الخاص لبيئتهم المحلية ، أو اجتناب تحمل عبء نفقات خدمات عامة جديدة ففى فرنسا فى الخمسينيات ثار هؤلاء المستثمرون الصغار ، فقاموا بحركة سياسية يقال لها Poujadisme لمقاومة فرض الضرائب • ولقد شعر

من يشترون المنتجات الصناعية المعقدة بحاجتهم الى أن يكون لهم حق مراجعة الأسعار التى يطلبها أصحاب المصانع، فأدى هذا فى الثلاثينيات الى تشكيل منظمات يتألف أعضاؤها من هؤلاء المشترين ، لاختيار المنتجات المطروحة فى السوق وتسجيل نتائج هذه الاختبارات، حتى يعرف المستهلكون حقيقة ما يشترون وأصبحت هذه الخدمة ذات قيمة كبرى ، حتى لقد بلغ عدد أعضاء احدى هذه المنظمات ٠٠٠ر١٠٠ فى أواسط خمسينيات القرن الحالى٠

و ـ التعاونيات

تجمع الأفراد فى جمعيات تعاونية لحماية مصالحهم كمستهلكين . ولقد بدأت الحركة التعاونية فى انجلترا فى منتصف القرن التاسع عشر بين العمال الفقراء الذين وجدوا فرصة للاسهام بينساتهم لكى يحصلوا لأنفسهم على أرباح تاجر التجزئة ٠ ولقد نمت بالتدريج فى معظم البلاد ٠ ويمكن الى حد كبير اعتبار نشأة الجمعيات التعاونية فى بريطانيا امتدادا للحركة العمالية ٠ وفى بلجيكا دعمت التعاونيات الحركة الاشتراكية وأصبحت جزءا منها ، وكان لها نشاطها فى البلاد الاسكندنافية ٠

وكان الدور الذى قامت به المنظمات الخاصة بالمستهلكين صغيرا نسبيا على العموم بالنسبة لمجموع الاقتصاد . فبرغم أنه قد ظهرت فى كل مكان اتحادات ائتمانية ومتاجر تعاونية وتعاونيات للاسكان وتوفير الخدمات الطبية لأعضاء الجمعيات التعاونية فان تعاونيات المستهلكين نادرا ما اشتملت على نسبة كبيرة من السكان ، أو كانت مصدر جزء كبير من مشترياتهم ٠

وعلى الرغم من قلة التعاونيات وصغرها فى بعض الأحيان ، فقد كانت ذات أهمية لأعضائها فيما يجاوز الآثار الاقتصادية ٠ لأن المبادىء التى قررتها الجمعية التعاونية الأصلية فى روتشيل قررت نظاما للتعليم والمناقشة قبل أن يقوم الأعضاء بأى مشروع تعاونى ، واشترطت أن يخصص دائما جزء من الدخل السنوى للمجموعة للأهداف الاجتماعية والتعليمية. وفى أماكن قليلة ،وبخاصة بين صيادى الاسماك وفقراء الفلاحين فى مقاطعة نوفاسكوشيا فى كندا ، أصبحت الحركة التعاونية وسيلة لانعاش اقتصاد كاسد ، كما سبق لها أن رفعت مستوى الاقتصاد الريفى الكاسد فى الدانمرك فى الشطر الأخير من القرن التاسع عشر ٠ وفى منتصف القرن قام عدد من البلاد ذات الاقتصاد الآخذ فى النمو ـ وبخاصة الهند والى حد أقل أندونيسيا ـ باتخاذ الخطوات لتسهيل اقامة التعاونيات ، أحيانا كخطوة تمهيدية على الطريق الى نظام الزراعة الجماعية أو الادارة الجماعية للمزارع

٣ ـ منظمات المنفعة المتبادلة

ظلت المعونة المتبادلة فى أوقات الضيق أساسا للتنظيم الطوعى . ولكن التوسع فى الضمان الاجتماعى والمزايا التى تضفيها دولة الرفاهية على أفرادها ، كل ذلك قلل من الحاجة الى أمثال هذه الاتحادات كوسيلة للحماية .

واتحادات الأخوة التى انتشرت من بريطانيا الى الممتلكات البريطانية فيما وراء البحار والى الولايات المتحدة خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، كانت فروعا لجمعيات الصداقة التى كونها العمال فى المراكز الصناعية البريطانية للعون المتبادل فى حالة المرض أو الموت . ولها ملامح مزدوجة وقائية واجتماعية ـ فهى من جهة جمعيات للتأمين كانت سيئة الادارة غالبا فى أول الامر ، ولكنها مع مضى الوقت أصبحت تدار على اساس اكتوارى سليم ، ومن جهة اخرى فهى محافل على غرار محافل البنائين الاحرار (الماسون) بطقوسهم السرية التى يتعلمها الاعضاء . فلما اتبع نظام التأمين الصحى وغيره من التأمينات الاجتماعية صار على اتحادات الاخوة ان تسجل نفسها كوكالات تنفيذ لجزء من البرنامج العام كما حدث فى ظل نظام التأمين الصحى البريطانى سنة ١٩١١ ، او أن يقتصر نشاطها على المزايا التى لا تقدمها أنظمة التأمين الحكومية ، كما حدث فى استراليا .

على أن أهميتها الرئيسية فى القرن العشرين كانت فى دورها الاجتماعى « فالمحفل الساهر » حين كان الأعضاء يمارسون فيه طقوسا سرية ، ويخاطب بعضهم بعضا بألقاب التبجيل والاحترام ، ويشارك بعضهم بعضا فى مشاعر الاخوة ـ هيأ سبيلا الى التنفيس عن ضيقهم بحياتهم الروتينية الرتيبة فى المصانع وجهل الناس بعضهم بعضا فى المدينة . فاذا انتقل عضو أحد المحافل الى مجتمع جديد ، استطاع أن يأمل فى العثور على أخوة جدد هناك . وفى الربع الثانى من القرن العشرين تضاءلت أهمية الاتحادات الاخوية الى حد ما ، لأن السينما والتليفزيون قد ما بعض المسليات ووسائل التنفيس التى كان المحفل يقدمها من قبل . كما أن التأمين الاجتماعى العام جعل التأمين المتبادل بين الأفراد أقل ضرورة مما كان . ومع ذلك فقد استمرت اتحادات الأخوة هى الوسيلة التى يستطيع بها الافراد الذين ليس لديهم سبيل آخر لأن يعرفهم أحد أن يعقدوا روابط اجتماعية وصلات وثيقة بالآخرين .

وحيثما يتجمع مهاجرون جدد ، فانهم أيضا يشكلون جمعيات معونة متبادلة ، ليقف بعضهم الى جانب بعض فى حالات المرض والموت • فهى وسيلة يستطيع بها المغتربون أن يستمتعوا معا بعادات بلادهم التى خلفوها وراءهم • فلما تضاءلت الهجرة الجماعية من أوروبا بعد الحرب العالمية الاولى قلت أهمية جمعيات المهاجرين ، لأن الاتحاد القائم على الارتباط ببلد الآباء لم يعد يستهوى كثيرا قلوب الاحفاد وبخاصة حيث تكونت الجمعيات على أساس فردى أو اقليمى كما كان الشأن فى معظم اتحادات المهاجرين الايطاليين • فحولت كثير من هذه الجمعيات هدفها من العون المتبادل الى معاونة بنى وطنهم السابقين فى أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها ، ولقد عادت بعض اتحادات المهاجرين الى قوتها على هذا الأساس بعد أن كانت آخذة فى الضعف ، وفى المجتمعات المدنية فى افريقيا كانت جمعيات العون المتبادل هى الوحدات الاجتماعية الرئيسية التى أخذت تعيد صياغة حياة الافريقيين الذين انتزعوا من مواطنهم القبلية •

أما الاتحادات الطوعية التى تتألف على أسس عنصرية فقد جاوز نشاطها العون المتبادل ، وامتد الى رعاية مصالح مجموعاتهم المضطهدة وتحسين وضعها • فالاتحاد القومى لتقدم الشعب الملون كان بمثابة رأس الحربة فى الجهود التى بذلت لتحسين وضع الزنوج فى المجتمع الامريكى ، كما كان « اتحاد كل الهند المضطهدة » المتحدث القوى باسم المنبوذين فى الهند •

وأوسع منظمات التجمع العنصرى المنظمات اليهودية • ففى القرون التى عاشها الشعب اليهودى فى جزر تحدق بها مجتمعات أجنبية من كل جانب ، أنشئوا لأنفسهم مجموعة ، تكاد تكتمل ، من النظم الاجتماعية التى تسير عليها حياتهم الخاصة • وفى البلاد التى لم يعودوا يحيون فيها حياة الانعزال فى أحياء خاصة بهم ، استمروا يدعمون المنظمات العنصرية لاغراض متنوعة ـ لمساعدة اليهود فى الخارج وتأييد الصهيونية ، وتقديم خدمات اجتماعية للمجتمع اليهودى للدفاع عنه ضد التمييز العنصرى ، ولتحقيق مشاركته المدنية للعناصر الاخرى من السكان •

وثمة عوامل أخرى من التجارب المشتركة كانت أساسا لقيام اتحادات هدفها تحسين أحوال أعضائها ورعاية مصالحهم • ففى فترة شهدت حربين عالميتين ذاقت ويلاتها قطاعات ضخمة من السكان ، عملت اتحادات المحاربين القدماء على أن يقدم لأعضائها المزيد من الامتيازات والخدمات ، وصارت من آن الى آخر تجدد مشاعر الزمالة القديمة بين أعضائها •

٤ - منظمات النشاطات الاجتماعية

لم نفتصر المنظمات الطوعية على الاتحادات التى تستهدف رعـــاية المصالح المباشرة لأعضائها • بل قدمت أيضا وسيلة للتجمع لأغراض عديدة اجتماعية وترفيهية ومدنية وخيرية ، تحقيقا لمصالح مشتركة ، تعليميـــة أو ثقافية • ولقد زاد عدد الاتحادات الطوعية القائمة على السن والجنس زيادة كبيرة فى معظم الأقطار خلال هذه الفترة .

أ - الشباب

ان ظروف المجتمع الصناعى الحضرى جعلت التنظيم أمرا هاما بالنسبة للشباب • فطول مدة الدراسة ، وقوانين تشغيل الاطفال رفعت من السن التى يبدأ فيها الشباب العمل ، كما أدت الى زيادة حدة الاختلاف بين حياة البالغين وحياة الاطفال ، واطالة فترة المراهقة • وفى الاوساط الحضرية بما يسودها من علاقات موغلة فى الفردية ، وعديد من التيارات المتضاربة عجزت الاسرة الصغيرة عن أن تكون أساسا يحدد وضع الشباب وعلاقاتـه الاجتماعية على نحو ما كانت تفعل الاسرة العشـائرية فى المجتمع الريفى المستقر • فبالنسبة للمراهقين والاطفال الكبار فى المدينة وجدنا أن الاندية والشلل أو الجمعيات التى تتألف من ذوى الاعمار المتقاربة تفى بحاجتهـم الى الانتماء ، ومنها يستمدون وضعهم ، ويحســون بذواتهـم ، ويجدون الفرصة للحياة الاجتماعية • وتنظيمات الشباب تؤدى هذه الوظيفــة الأساسية لأعضائها ، سواء آكانت هذه التنظيمات شللا فى الطريق ، أم كانت فرق كشافة ، أو أندية كنسيه ، أم حركات سياسية للشباب ؟ •

وفى أجزاء كثيرة من العالم حيث تحدث تغييرات ثورية ، سياســية واجتماعية ، تؤدى منظمات الشباب مهمة اضافية • فهى قد تقوم تلقائيـا أو بتوجيه من القادة السياسيين بوظيفة طلائع الدفع الثورى لاحداث التغيير واعادة صياغة القيم والعلاقات فى مجتمعهم ، ودعم نظم الحكم الجديدة •

واتحادات الشباب التى كثر عددها ، واتسع مجال عضويتها خـلال القرن العشرين ، انما نبتت من عدة تطورات متميزة تماما حدثت فى القرن التاسع عشر / حركات الشباب ذات الطابع السياسى ، التى تمثلهـــا حركة « ايطاليا الفتــاة » لماتزينى ، وما شابه ذلك من حركات ثورية ليبرالية فى ألمانيا وبولندا وغيرهما ، والتجمع التلقائى للشباب تمرد على سلطة الكبار ، وجهود المنظمات السياسية والدينية والعمالية وغيرها

لضم الشباب الى صفوفها ، والجهود التى يبذلها زعماء الحركات المدنية والدينية ، وحركات الرعاية الاجتماعية لتوفير الحـــاجات الاجتماعية لشباب الطبقة العاملة فى المجتمعات الآخذة فى النمو الصناعى .

وتعتمد حركات الشباب السياسية فى الغالب على طلبة الجامعات وغيرهم من شباب المثقفين ، باستثناء حركة الشباب الاشتراكية التى تعتمد على الطبقة العاملة • وكان هؤلاء الشباب فى تمرد متعمد على النظم المقررة ويدافعون فى استماتة عن مثلهم وتصورهم لنظام سياسى واجتماعى جديد ضد مواقف الجيل القديم وزعاماته •

وكانت حركات الشباب التى من هذا النوع قائمة فى كثير من البلاد فى أعوام ما قبل الحرب العالمية الاولى • وكانت الطليعة لحركات سياسية متنوعة • فكانت تقيم المظاهرات وتشارك فى الدعاية لأهدافها السياسية والعمل المباشر لتحقيق هذه الاهداف • ولكن حركات الشباب السياسية لم يكن لها وجود يذكر فى البلاد التى لم يكن فيها توتر شديد ، سياسيا كان أو اجتماعيا ، وكانت النظم القائمة تسمح باجراء تغيير منظم ومستمر، كما كانت الحال فى بريطانيا والدنمارك وكندا والولايات المتحدة• ولكن حيث تشتد التوترات ويهاجم البناء الاجتماعى والسياسى ، ابتداء من بلاد أمريكا اللاتينية الى بلاد آسيا ، كان للحركات التلقائية التى قام بها الطلبة ومن اليهم ، أثر كبير فى النضال من أجل احداث تغيير جذرى • فتركيا الفتـاة التى حاولت اعادة صياغة الامبراطورية العثمانية، وحركة الطلاب الصينيين المؤيدة لصن يات صن ، والحركة المسماة بالثورة الثقافية السياسية التى يطلق عليها المد الجديد ــ هذه كلها أمثلة واضحة لما ذهبنا اليه • ولقد كان الطلبة الهنود فى ثلاثينات هذا القرن وأربعيناته عنصراً فعالا فى الجهاد من أجل الاستقلال ، وفى خمسينياته اشترك الطلبة فى حركة خلع ديكتاتور كوبا وفى مظاهرات كثيرة فى بلاد أخرى •

والى جانب الحركات السياسية أصلا ، وبصورة مستقلة أيضا عن المنظمات التعليمية والترفيهية والتى تستهدف بناء الاخلاق والتى يؤسسها الراشدون ويديرونها ، ظهرت تنظيمات مستقلة للشباب تمارس الحكم الذاتى فى عدد من الدول الاوروبية ، وبخاصة بين الالمان والتشيكيين والاسكندنافيين والهولنديين . هذه التنظيمات رياضية تقيم المعسكرات والالعاب ، وهى أحيانا تشترك فى بعض الحركات مثل حركة مكافحـــة الخمور ، أو تقوم بدور الطليعة للحركات الاشتراكية • وأكبر هذه المجموعات

هى حركة الشباب الالمانية التى نشأت قبيل عام ١٩٠٠ ، وهى حركة تمرد ضد كل أشكال السلطة التقليدية فى المنزل وفى نظام التعليم الألمانى الذى كان نصفه عسكريا ونصفه للسلطة الأبوية • وقد أثبتت هذه الحركة الحاجة الى طريقة جديدة للحياة ، والى مزيد من الحرية والاخلاص والجمال ، بدلا من المادية وتقاليد العصر • ولقد أحيت هذه الحركة التقاليد الألمانية الرومانسية والأغانى والرقصات الشعبية والفولكلور ، وكونت مجموعات ألف بينها دفء الحياة العاطفية والثقة فى قيادة زملائهم ممن يكبرونهم سنا • ومع أنها حاربت كل سلطة مقررة ، فلم يكن لها أى هدف سياسى أو اجتماعى واضح أو محدد ، يصلح بديلا للنظام القائم ، وكانت تتوق الى سلطة جديدة ، (فوهرر حقيقى) بدلا من السلطة الحالية للأب فى المنزل ، والقيادة البيروقراطية فى الدولة • وكان قلقها يمثل القلق الألمانى التقليدى القديم ، كما يمثل القلق الجديد للشباب الساخط المنخرط فى صراع عميق لتغيير علاقات الآباء والأبناء ، وكانت صيحة عاطفية تنشد الحرية داخل البناء السياسى والاجتماعى لألمانيا قبل الحرب •

وفى الأعوام التى تلت الحرب العالمية الأولى وجدنا أن كلا من منظمات الشباب ذات الأهداف السياسية ، وحركات الشباب المستقلة ذات النزعة الرومانسية ، قد استولت عليها النظم الديكتاتورية ، فحولتها الى ادوات لتعزيز سلطة الزعيم ، ولاعادة صنع المجتمع على اسس يمليها من أعلى . فالفاشيون الايطاليون المعروفون باسم (باليلا)، والنازيون المعروفون باسم (يوجند هتلر) لم يكونا تعبيرين تلقائيين من تعبيرات الشباب الذى يحارب الزعامة المقررة للكبار ، بل هما ذاتان محكمتا التنظيم ، خاضعتان لمنظمات الكبار . وبدلا من أن يتكون معظمها من الطلبة والمثقفين كان اعضاؤها فى الغالب الأعم من تلك المجموعات الاجتماعية التى لم يسبق لها أن مارست النفوذ الاجتماعى أو السياسى. ومع أنهم يرفضون سلطة من يكبرونهم سنا على نحو أتم مما كانت تفعل حركات الشباب التلقائية ، فقد كانوا رهن اشارة زعامة حاكمة جديدة من الكبار .

وعقب ثورة أكتوبر صارت عصبة الشباب الشيوعى فى الاتحاد السوفيتى هى الذراع اليمنى للحزب الشيوعى فى كل ميادين النشاط الاجتماعى ، بما فى ذلك الصناعة والثقافة وتربية الأطفال والشباب والتعليم العام والرياضة • ولقد أخذ أعضاؤها زمام القيادة فى حملات كثيرة

مثل افتتاح المزارع الجديدة ، ومشروعات الكومسومول للانشاء ، وحملات الاقتصاد الصناعى ، وحملات المحافظة على النظام العام ، وقامت بتدريب أعضائها ليكونوا أفرادا حسنى التربية متحلين بضبط النفس ، قادرين على المبادرة الخلاقة فى كل مشروع . وهى ترشد الرواد الشبان فى عملهم ، الذى يهدف الى معاونة المدرسة ، ومعاونة الآباء فى تربية الأبناء ، ليكونوا أعضاء فى المجتمع ايجابيين ، كاملى النضج .

وحيثما عبئت منظمات الشباب لاعادة بناء المجتمعات ، سواء أكان تجنيدهالذلك على مستوى التابع أو الشريك ، فا نأعضاءها قداتيح لهم القيام بدور اجتماعى نشيط ، وصارتلهم هيئة ينتمون اليها ، وقوى احساسهم بأنهم مكرسون لخدمة مصالح الشعب والدولة ، وأن هذه المصالح مرادفة لوجودهم وذواتهم . وفى بلاد أخرى نجد أن منظمات الشباب التى تلعب دورا ايجابيا فى أحداث الثورة السياسية ، والتغيير الاجتماعى ، غالبا ما تجد نفسها بغير دور محدد تؤديه بعد بلوغ هذه الاهداف كما كان شأن الطلبة الهنود الذين ظلوا يمارسون المقاومة السلبية فى أعوام الاستقلال ، فاعتبر هذا عملا فوضويا من جانب بعض الناس الذين كانوا هم المحرضين على هذا السلوك أثناء مكافحة الاحتلال البريطانى .وثمة منظمات كثيرة تختلف عن هذهأوسع الاختلاف فى الأصلوالهدف ، وأن كانت تشبهها فى انتفاع الاعضاء ، تلك هى منظمات الشباب التى تمثل جهود مجتمع الكبار لمواجهة احتياجات شباب المدن . فمنذ بدأت الكنائس بحركة مدارس الاحد ، التى كانت تأخذ الأطفال الفقراء من الشوارع فى برمنجهام ومنشستر لتعليمهم ، أخذت على عاتقها القيام بأوجه النشاط للشباب بانتظام ، لكى تجتذب الشباب الى الكنيسة ، وتبقى عليهم فى حظيرتها . وعن طريق عدد لا يحصى من الأندية والاتحادات والجمعيات المتصلة بمختلف الكنائس فى معظم المناطق الحضرية وجد الشباب فرصا للاتصالات الاجتماعية والنشاطات الجماعية وطريقا يستطيعون به أن يقدموا الخدمات الى مجتمعهم وأن يعبروا عن اهتمامهم بشئون بنى جنسهم ، أو أن يوجدوا علاقات لهم مع شباب آخرين ، بصرف النظر عن الطبقة أو العنصر أو الوطن . ولقد كانت المنظمات الطوعية ذات الطابع الدينى مكملة للمنظمات التابعة للكنائس مباشرة . فجمعية الشباب المسيحية، وجمعية الشابات المسيحية التى تقابلها ، وقد تأسستا فى لندن عام ١٨٤٤ ، ١٨٥٥ أصبح لهما نشاط عالمى فقد بلغ عدد أعضائهما الكلى فى الخمسينات ما يزيد على ٤ مليون رجل ونصف مليون امرأة . ولم تقصر هذه المنظمات عضويتها على المسيحيين ، أو على أصحاب أى

مذهب بعينـــه ، ولكن منشأها البروتستانتى وزعامتها البروتستانتية المستمرة قد جعلت اعضاءها من المناطق البروتستانتية أكثر من المناطق الكاثوليكية أو غير المسيحية . وثمة منظمات للشباب الكاثوليكى فى بلاد كثيرة ، انضم اليها عدد ضخم من الاعضاء ، يتألف من مجموعات شـباب الابرشيات ، ومنظمات الشباب فى الكليات الكاثوليكية وغير الكاثوليكية والجامعات . وتألفت منظمات مشابهة بين شباب اليهود .

وكانت المجموعات التى تشترك فى المنظمات ذات هدف دينى تحت رعاية الكنيسة ، تختلف أعمار أعضائها باختــلاف الأقطـــــار والكنائس والمجتمعات المحلية . وكانت برامج بعض الكنائس موجهة بشكل رئيسى لصغار الأطفال ، وفى بعض البلاد كانت جمعية الشابات المسيحية تتألف كلها تقريبا من نساء عاملات من الشابات الراشدات وكان يلتحق بهـــا صبية ومراهقون وشباب أكبر سنا .

ومع أن الكنائس كانت السابقة الى هذا الميدان ، فان المنظمات غـير الدينية التى أنشأها العاملون فى الخدمة الاجتماعية ، والقادة المدنيون ، قد زادت ضخامة وعددا . وأخذت أندية الصبية ينظمها العاملون فى الميدان الاجتماعى فى ستينات القرن المـاضى ، وبخاصة فى الولايات المتـحدة . وانتشرت حركة « بيت الرواد » (١) بسرعة فى السنوات العشر الاخيرة من القرن التاسع عشر وأوائل العشرين وكانت قد بدأت فى لندن فانتشرت الى مدن كثيرة فى بريطانيا والولايات المتحدة وشمال أوروبا مكرسة جهدا كبيرا لانشاء أندية للفتيان والفتيات من الاحياء الفقيرة المزدحمة .

وثمة منظمات كثيرة تسير وحداتها المنفصلة على نموذج موحد من النشاط وقد تكونت فى بواكير القرن العشرين وبلغ عدد أعضائها الملايين بعد ذلك بخمسين سنة . ونظمت حركة الكشافة والمرشدات التى تأسست فى انجلترا سنة ١٩٠٨ و سنة ١٩١٠ ، وانتشرت فى طول أوروبا وعرضها وفى الولايات المتحدة ودول الكومنولث قبل الحرب العالمية الاولى ، وفى أمريكا اللاتينية وآسيا وافريقيا خلال العقدين أو الثلاثة التالية . وما حل عام ١٩٥٥ حتى كان لحركة الكشافة منظمات قومية فى كل بلد تقريبـــا خارج العالم الشيوعى ، فقد بلغ عدد المنضمين اليها فى العالم ستة ملايين وخمسمائة الف وبلغ عدد المرشدات ما يزيد على أربعة ملايين عضـــوا .

---

(١) يقيم به بعض المصلحين الاجتماعيين فى احد الاحياء الفقيرة (المترجم) .

أما اتحادات أندية الفتيان فقد اتبعت النموذج المقرر فى الولايات المتحدة عام ١٩٠٦ . وقد أنشئت فى بلاد أخرى وربط بينها تنظيم دولى .واتبعت جمعيات الصليب الاحمر الصغرى بعد الحرب العالمية الاولى برامج متشابهة فى كثير من البلاد ، ونظمت دوليا . واشتركت أندية لا عدد لها فى المباريات الرياضية .

وتميل كل هذه المنظمات الى تضييق مسافة الخلف بين الأجيال لا الى توسيعها . فهى بطريقة أو بأخرى تسعى لتحقيق هدف يتصل ببناء الخلق وتتيح الفرص لنمو الشخصية والمسئولية الاجتماعية ، وروح القيادة ،وهى فى الوقت نفسه تقدم وسائل الترفيه وأوجه النشاط التى تستهدف تنمية المهارات . فعن طريق نشاطات مثل اقامة المعسكرات ، مكنت شباب المدن من أن يحصلوا على بعض الخبرة من العيش على الطبيعة . وعن طريق منح أعضائها مسئولية ادارة شئونهم قدمت لهم فرصة للتدريب على المواطنة الديموقراطية . وعن طريق تبعيتها القومية والدولية أوجدت اتصالا بين الشباب من مختلف الاجناس والقوميات ، وجعلت الانتماء اليها على أساس اجتماعى وقومى ، ومهدت لأعضائها البارزين الفرص للاشتراك فى المؤتمرات والمجالس القومية والدولية .

وكان أغلب أعضاء منظمات الشباب الرسمية يأتون من الطبقات الوسطى والمهنية ، ومن المستويات المستقرة من الصناعيين وكانت التجربة الواسعة ـ وان لم تكن عالمية ـ لحركة الكشافة والمرشدات وجمعيات الشبان المسيحيين وجمعيات الشابات المسيحيات وأندية الفتيان والاندية الرياضية بمحلات الرواد والكنائس والمراكز الاجتماعية ، كانت كل هذه تجتذب بصفة خاصة الفتيان والفتيات من ذوى الاهتمامات النشيطة والمطامح الايجابية ، التى اكتسبوها من أسر تستطيع أن تشترى لفتاها بذلة رسمية ، أو من الأسر التى تشجع ارتياد الكنائس . أو الأسر التى تهتم بتربية أبنائها . ومع ان منظمات الشباب ذات الطابع الاجتماعي أنشئت أساسا لمقاومة الآثار السيئة لحياة المدينة على الاطفال والشباب الذين ليس لدى أسرهم ما تقدمه ، فانه لم ينضم الى أية منظمة من هذه المنظمات غير عدد قليل من العناصر غير المستقرة اجتماعيا ، فهؤلاء الشباب لم يكن يتاح لهم الا العصابات التلقائية التى تتشكل فى الناحية ، وهى أحيانا عصابات غير اجتماعية ، وغالبا ما تكون فى صراع عنيف مع مجموعات أخرى تهدد بغزو أراضيها ، هذه هى التجمعات التى وجدوا فيها ذواتهم وولاءهم وتأكيد شخصياتهم .

ومع أن جماعات الشوارع والكشافة ومنظمات الفتيان والأندية التى ترعاها المؤسسات الاجتماعية أو الدينية قد انشئت أساسا فى منـــاطق حضرية ، فقد تقرر أيضا تنظيم شباب الريف فى عـــدد من الأماكن · وعلى خلاف ما كان لمنظمات الشباب فى المدينة من منشأ حر وتمويل طوعى ، فان الحكومات فى غالب الاحوال هى التى رعت أندية الشباب الريفى كجزء من برنامج رفع مستوى الحياة الريفية والتكنولوجيا الزراعية · وقد اتبعت بعض البلاد نموذج الخدمة العامة التى أنشأتها وزارة الزراعة الأمريكية ، والتى قدمت برنامج نادى ٤ هـ سنة ١٩١٤ · وبفضل ما لقيته هذه الاندية من الارشاد الفنى استطاعت أن تقيم برامجها حول مشروعات زراعية ومنزلية تحث أعضاءها على أن يتعلموا ، ويستخدموا أحسن التقنيات الزراعية والمنزلية ، وينموا مواهبهم القيادية ·

ومهما يكن من طابع منظمات الشباب وأهدافها والمؤسسات التى ترعاها فانها فى القرن العشرين تعكس الظروف الاجتماعية المتغيرة التى أدت الى قيامها ، وقررت شكلها ، وهى: ضعف السلطة الأبوية التقليدية وزيادة الحرية الاجتماعية وزيادة الصلات بين الجنسين . كذلك فقد أنشأت مقاييس للسلوك ينتظر من لداتهم أن يلتزموها ، وأن يسلم بها الكبار فى آخر الأمر .

ب ـ المسنون

كان انشاء منظمات المسنين أقل انتشارا ، وكان هدفها أقل وضوحا من أهداف منظمات الشباب ولكن فى الربع الثانى من القرن العشرين ،قويت الدوافع لانشاء هذه المنظمات بعد الحرب العالمية الثانية · وقد لقيت حركة تنظيم المسنين فى الولايات المتحدة دفعة قـــوية فى سنى الكســـاد فى الثلاثينات ، حين قامت حركة شبه سياسية لتكوين أندية (تونســـند) نسبة الى مؤسسها ، للمطالبة بمعاشات للشيوخ ، وتهيئة نشاط اجتماعى لهم من وقت الى آخر · فلما تقرر التأمين ضد الشيخوخة ومعاونة الشيوخ سنة ١٩٣٥ تشتت قدر كبير من الحافز السياسى ، ولكن الحافز الاجتماعى استمر ، وأخذ شكل انشاء أندية (اليوبيل الذهبى ، واليوبيل الفضى ،فى كثير من المجتمعات) · وفى بلاد أخرى كون المتقاعدون منظمات تمكنهـــم من الحصول على معاشات أفضل أو تكوين مجموعات اجتماعية ·

غير ان أندية المواطنين المسنين لم تكن الا بداية لايجاد طريقة يستطيع بها المسنون أن يستبقوا لأنفسهم وظيفة فى مجتمع اتسعت فيه الفرص ايما اتساع . ولكن ساده نظام الأسرة الصغيرة من الأب وأبنائه ، وصار التفضيل للشباب فى اسناد الأعمال ، وأدى فيه الالحاح فى تمجيد الفتوة والشباب الى شعور المسنين بأنهم قد وضعوا على الرف . وهذا الموقف قد قابله المسنون فى بعض مناطق الاتحاد السوفيتى بالقيام بمشروعات لصالح أطفال المجتمع .

ج ـ النساء

انتشرت المنظمات النسائية فى كل مكان ، واتسع مجالها ، وتضاعف عددها . ولقد فقدت المنظمات النسائية التى تألفت للدفاع عن حقوق المرأة قدرا كبيرا من أهميتها حين بلغت المرأة هذه الحقوق . ولكن دور المرأة فى الشئون المدنية قد اتسع ، فتألفت منظمات نسائية للعون والتأييد المتبادل مثال ذلك نساء الجامعات اللاتى اتحدن لايجاد طريق للاستمرار فى الاطلاع على المعارف ، وتقديم منح دراسية للطالبات ؛ وتعزيز مستويات تعليم المرأة ؛ وتأييد حق النساء المؤهلات فى شغل الوظائف ؛ وتيسير الاتصال لتبادل الرأى مع النساء ذوات الاهتمامات المتشابهة فى الخارج ، فثمة اتحاد دولى تألف سنة ١٩١٩ وصار فى الخمسينيات يربط بين اتحادات النساء الجامعيات فى خمسين دولة . ونظمت صفوف النساء المهنيات وصاحبات الأعمال الحرة لأغراض مشابهة .

وكونت بعض النساء منظمات مدنية لأغراض محددة ، مثل الجمعيات النسائية لمكافحة الخمور التى كثر عددها فى القرن التاسع عشر ، واستمرت فى بعض البلاد فى القرن العشرين ، والجمعيات النسائية التى تألفت لأغراض أوسع . وكانت التبعية الدينية المشتركة اساسا لبعض المنظمات ، مثل اتحادات النساء الكاثوليكيات أو اليهوديات أو البروتستنتيات . وكان تكوين بعض المنظمات غير محدد . وكانت أغراضها غير واضحة تماما ، كما كان الحال فى كثير من الاندية النسائية أو النقابات النسائية التى قد يكون لها أى عدد من الاهتمامات ، من العناية بالحدائق الى تعليم الكبار ، وغالبا ما كانت ترتبط فيما بينها لتكون اتحادات قومية . وقد شكل بعضها اساسا لأغراض الرعاية الاجتماعية ، للقيام بعمل خيرى محدد مثل العناية بالأمهات غير المتزوجات ، أو انشاء ورش يعمل فيها أصحاب العاهات .

وإذا استثنينا الهيئات المساعدة النسائية ، لبعض اتحادات العمال أو الفلاحين أو الأحزاب السياسية ، فقد كان معظم أعضاء المنظمات النسائية من الطبقة الوسطى • وهى تمكن النساء اللاتى يتهيأ لهن بعض الفراغ من استخدام هذا الفراغ استخداما بناء ، كما يتهيأ لهن فى الوقت نفسه الاستمتاع بصحبة الأخريات • وفضلا عن ذلك فانها تقدم فى مجتمع المدينة الذى يسمح بالتنقل الطبقى الى الحد الأقصى وسيلة للسيدات تمكنهن من عقد صلات اجتماعية فى المجتمعات الجديدة التى قد ينتقلون اليها نتيجة لما يعترى وظيفة الزوج أو الزوجة من التغيرات •

٥ ـ الرابطات المدنية :

كانت الهيئات المدنية من مختلف الأنواع أمرا لا غنى عنه في بناء المجتمع المحلى فى أجزاء كثيرة من العالم ، اذ أن قدرا كبيرا من أعمال الحكومة المحلية يؤدى على أساس التطوع ، أو على الأقل بواسطة أشخاص تقع أعمالهم المهنية خارج نطاق الحكومة المحلية ، ولا يتقاضون الا النفقات التى يتكبدونها ، أو مكافآت ضئيلة ، نظير الخدمات التى يقومون بها للمجتمع • فالمحلفون المحليون والمجالس المحلية فى بريطانيا مثلا تتألف من مواطنين متطوعين ، وفى الولايات المتحدة يشرف على نظام المدارس كله مجالس تعليم محلية من المتطوعين ، وهم عادة منتخبون من المنطقة المحلية• وبينما التعقيد المتزايد للادارة المحلية قد نتج عنه التخصص فى كثير من الخدمات المحلية فانه أيضا قد ضاعف من المناطق التى يطلب فيها من المواطنين أن يقدموا خدمات اختيارية كأعضاء فى المجالس واللجان التى تشرف ، أو ترشد ، أو تكمل عمل الموظفين العموميين • وهذا الشكل من أشكال النشاط المدنى يعتمد أكبر الاعتماد على أعضاء الطبقتين الوسطى والعليا ، ولكن مع تزايد أهمية منظمات العمال ، تزايد عدد ممثلى المجتمعات العمالية فى اللجان المدنية والمجالس المدنية •

وفضلا عن الهيئات الطوعية التى تتحمل مسئولية مباشرة عن الحكومة المحلية أو الخدمات المحلية ، فهناك منظمات تضم مواطنين بارزين، يضفون مستوى مدنيا على مجتمعاتهم المحلية • وتتألف بعض هذه المنظمات مثل أندية « الروتارى » من ممثل واحد لكل من المهن الكبرى والنشاط التجارى فى المجتمع • وأندية الكيوانى Kiwanis وأندية الليونز Lions دولية فى مجالها ، شأنها فى ذلك شأن الهيئات النسائية التى تقابلها ، مثل الزونتا Zonta وقد تألفت جمعية الروتارى الدولية سنة ١٩١٠ بعد انشاء أول ناد للروتارى .

ويلتقى أعضاء هذه الأندية بانتظام لتوثيق عرى التعارف والألفة ، ولمناقشة شئون المجتمع ، ويحرصون على أن يحضر اجتماعاتهم أعضاء المجتمعات الأخرى المحلية ، الذين يتصادف وجودهم فى المدينة • وهم يحتفون بالزوار الممتازين ، ويمارسون نوعا من أنواع القيادة الاجتماعية وتسمى أنديتهم أحيانا (أندية الخدمة) ولهذا فهى تهتم جدا بتأكيد مسئولية أعضائها تجاه التقدم المدنى لمجتمعاتهم ، وان كانت تتهم أحيانا بأنها مجرد واجهات للمصالح الرأسمالية ، وأنها غير متعاطفة مع العمال، وأنها تميل الى أن تكون محافظة فى مجال التقدم المدنى الذى قد يشمل دفع الضرائب ، ولكنها على العموم قامت برعاية بعض مشروعات الخدمة الاجتماعية ، التى تتفاوت بتفاوت الحالة الاجتماعية للمجتمع المحلى ، وفى المدن التى تفتقر الى خدمات اجتماعية متقدمة • وقد تقوم هذه الجمعيات بأعمال خيرية صغيرة ، أو تشرع فى جهود لتقديم خدمة يكون المجتمع فى مسيس الحاجة اليها • وفى مناطق المدن الكبرى حيث تكثر المجموعات ذات السلطة والنفوذ ، يكون تأثير هذه الأندية أقل منه فى المدن الأصغر حجما ، حيث يشمل النادى نسبة اكبر من قطاع المهن والأعمال . ولكنها على كل حال مثال آخر من أمثلة المنظمات الطوعية التى صاغت شكل المجتمعات وقيادتها ..ولولا هذا لكانت مجتمعات فجة غير متبلورة •

وفى كثير من الدول الآخذة فى النمو لقيت النشاطات المدنية الطوعية بعد الحرب العالمية الثانية دفعة كبرى من برامج تنمية المجتمع • وفى جاميكا أقيم برنامج موسع يرتكز معظمه على لجان التخطيط من المتطوعين • وفى الهند استخدمت الحكومة نفوذها لتكوين منظمات من المتطوعين كوسيلة لا غنى عنها لاقامة بناء ديموقراطى • وفى الفيلبين وباكستان والهند وغيرها كان الواجب الأكبر الملقى على كاهل عمال القرية العاملين فى برنامج التنمية الاجتماعية هو حفز المواطنين على تنظيم صفوفهم للقيام بأنشطة مدنية طوعية ، وفى سيلان كان برنامج التنمية الريفية يقوم كله على تشكيل جمعيات قروية من المتطوعين •

٦ ـ المنظمات الخيرية :

كان من أكثر المنظمات الطوعية عددا المنظمات الخيرية للانفاق على الخدمات الاجتماعية فى مجالاتها غير المحدودة ، لتأييد بعض القضايا مثل حماية الأطفال ، الرفق بالحيوان ، حسن معاملة المسجونين والعناية بهم وتأهيلهم بعد الافراج عنهم • وتعود نشأة الكثير من الوكالات الطوعية الى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، حين أخذ الضمير الاجتماعى

يثور على عيوب المجتمع الصناعى ، حين لم تكن خدمات دولة الرفاهية قد توطدت وتقدمت • وكان لها فى أغلب الأحوال أساس دينى ، ففى بعض الحالات كانت تنشئها الفرق الدينية فكانت تقدم لها خدمات التمريض ، والتدريس ، وتقدم الملجأ والملاذ للأمهات غير المتزوجات ، أو للأحداث المنحرفين • وكان لكل بلد تقريبا منظمة للصليب الأحمر أو الهلال الأحمر ، على استعداد لأن تعبىء المتطوعين فى حالة الكوارث أو الطوارىء •

وقد تألفت اتحادات لا تحصى فى ميدان الصحة لتحسين الصحة العامة ، ومكافحة السل ، والسرطان أو أمراض القلب ، أو الوقاية من العمى ، والعناية بالأطفال المصابين بالكساح أو ضعاف السمع ، وتعين ضحايا شلل الأطفال أو الانزلاق الغضروفى ، أو تشجيع البحوث الخاصة بأحد الأمراض الأخرى التى لم يعرف لها علاج • وقد تشكلت معظم هذه الاتحادات فى أول الأمر من المهنيين الذين يعملون فى مواجهة المشكلة ، والأشخاص الذين كانوا ضحايا أو أقارب للضحايا • فهيئات الاتحادات أوجدت الوسيلة التى أمكن بها تحقيق التعاون بين القيادة المهنية والأعضاء المعينين من المجتمع المحلى للعمل على تحقيق هدف اجتماعى مشترك . ومكنت الناس العاديين فى مجتمع معقد شديد التخصص من توجيه جهودهم نحو أهداف يحسونها احساسا عاما ، ولكنهم يعوزهم شخصيا التخصص الفنى اللازم لعلاجها .

وبرغم التوسع فى الخدمات الاجتماعية ، استمرت الوكالات الطوعية للخدمة الاجتماعية تعمل فى الأماكن التى أنشئت فيها فى الماضى • وغالبا ما غيرت دورها حتى تكون تكملة ـ لا ازدواجا ـ للخدمات التى تقدمها الوكالات الحكومية ، أو لتقوم نيابة عن الوكالات الحكومية ببرامج معانة من الدولة • وكان للجهود الطوعية للخدمة أهمية خاصة فى البلاد الحديثة العهد بانشاء الخدمات الاجتماعية • فمع أن مثل هذه الدول قد أنشأت الخدمات الاجتماعية كمسئولية عامة ، فانها بحاجة أيضا الى أن تبعث فى شعبها شعورا بانه « يخدم نفسه » • وفى البلاد التى عانت شعوبها من الاهمال طيلة قرون ، توجد مشكلة مؤداها أن من طال عليهم الامد فى السلبية تحت وطأة المحن ، سوف يظلون سلبيين ازاء المكاسب الجديدة التى توشك أن تصلهم • ومهما يكن من تصور الدولة الآخذة فى النمو لدورها كدولة رفاهية ، فيجب عليها ألا تغفل بين أهدافها الرئيسية هدفا هاما هو تشجيع المواطنين على بذل الجهود الطوعية المتبادلة .

٧ ـ جمعيات الثقافة والاهتمامات المشتركة :

وأخيرا فان التنظيم الاختيارى يقوم اساسا لمتابعة أى عدد من الاهتمامات الثقافية • ففى كثير من المدن قامت الجمعيات الأدبية والموسيقية والفنية ، والمنظمات الخاصة برعاية الفنون ، والتى تقوم بعروض تمثيلية للهواة ، أو تؤلف فرق أوركسترا محلية ، أو تنشىء فصولا لتدريس الفنون ، وليطلع الفنانون على صور زملائهم • وأندية الحدائق ، وجامعى الطوابع ، كما أن منظمات هواة الراديو وأنصار السينما وهواة صيد الأسماك وغيرهم قد انضموا فى أندية لممارسة هواياتهم المشتركة • وانتظم هواة الألعاب الرياضية من كل الأنواع ، فشكلوا فرقا واتحادات للحصول على ملاعب وصيانة هذه الملاعب ، وادارة المباريات الدورية ، والمحافظة على قواعد اللعب . وبالزيادة الكبرى ، فى أتساع وقت الفراغ المرجال والنساء والشباب فى القرن العشرين نمت منظمات ممارسة الاهتمامات الثقافية الى غير حد .

٤ ـ الفرد فى القرن العشرين

وهكذا وجد الفرد فى القرن العشرين فى كل أنحاء العالم تقريبا ، أن ذاته وهويته ، ومكانته ، ودوره فى المجتمع ، يقل اعتمادها على النظم التى كانت تعتمد عليها تقليديا فيما مضى ـ الأسرة ، الطبقة الاجتماعية ، مهنة الأب ، الهوية السلالية • وقد استمرت كل هذه العوامل تعمل عملها فى الحياة الاجتماعية للعصر ، ولكن الصعوبة المتزايدة فى العلاقات الاجتماعية ، والزيادة الكبرى فى « التنقل » الجغرافى والاجتماعى قد قللت من الأهمية النسبية لهذه العوامل • فقد صار الفرد يستمد هويته، ومكانته ، ودوره من مكونات كثيرة مختلفة فى حياته ـ أمته ، عمله ، عضويته فى نقابة عمال أو حزب سياسى ، دينه ، وجنسه ، ومستوى تعليمه ، وأصله العنصرى • ففى الظروف الكثيرة التى وجد فيها ، كان الفيصل فى تقرير مكانته وعلاقته لواحد أو آخر من عناصر الانتماء هذه •

وفى حياة المدينة الحديثة التى تتسم بالسيولة واختفاء هوية الفرد ، يصير على الفرد باستمرار أن يقرر هويته من جديد ازاء من يتعامل معهم من الغرباء ، وأحيانا أمام نفسه • أنه الآن قد قل اعتماده على الملبس لاظهار هويته ، وان كان من غير العسير فى اجتماع للأمم المتحدة أن تتعرف على اعضاء كتلة السارى أو السارنج كما أن الاختلافات الطبقية واضحة

بجلاء في شوارع القاهرة حيث أفراد الطبقات الدنيا لا يزالون يلبسون الجلباب • ولا يزال الفلاحون الكاثوليك والبروتستنت في بعض قرى هولنده يلبسون قبعاتهم بطريقة مميزة • ولكن الفرد لا يحتمل الآن أن يقضي حياته مع قوم يحددون هويته باسم أبيه •

ولكن الفرد حتى بعد أن وجد أمورا يحدد على أساسها من يكون ، كما يحدد بها هوية الآخرين ، ظل غالبا بلا مرشد يطمئن اليه ، يهديه الى السلوك الجديد بمكانه ودوره ، كما صار لا يستطيع التعويل على غيره من الناس في معرفة علاقتهم به على نفس الأساس الذى استخدمه وأن يتوقع منهم السلوك الذى قد يتوقعه من نفسه • وتعظم الصعوبات الناجمة من هذا الموقف حيث تكون التغييرات في الأوضاع الاجتماعية سريعة ، ومهددة لوضع المجموعات العليا . فالعلاقات متغيرة بين الطبقات في بريطانيا ، وبين الزنجي والأبيض في الولايات المتحدة ، وبين الهندى واللادينو Ladino في أمريكا الوسطى وبين الآسيوى والأوروبى ، وبين أصحاب الأعمال والعمال ـ ولقد كان عدم الاستقرار في هذه العلاقات الجديدة في كل مكان يتمثل في تزايد شديد في الحساسية والعدوانية ، وغير ذلك من صور التعبير عن عدم الاستقرار والطمأنينة بين أفراد الفئات الصاعدة ، كما يتمثل في الشعور بالذات والتعصب ، أو غير ذلك من صور الحيرة أو المقاومة عند من يعجزون عن تكييف موقفهم العقلى لدورهم الأعلى •

وهكذا قد أدت ميوعة القرن العشرين ، وما ساده من تغيير اجتماعى ، الى وضع ملايين الأفراد تحت أنواع من الضغوط كان من النادر أن تفرضها المجتمعات السابقة على أعداد كبيرة من أعضائها ، وحيث تتعاظم الضغوط ، فقد يجد الفرد شيئا في العالم الخارجى يبرز عجزه عن التصرف ازاء ما يسود عصره من اضطراب وارتباك ، أو قد ينحى باللائمة على نفسه • فليس عجيبا أن القرن العشرين ، برغم تقبله العام العظيم للوحدة الجوهرية للبشر ، واحترام الخلافات الثقافية قد شهد اتجاها شريرا للبحث عن كباش الفداء ، وللتعصب والاضطهاد ـ مثل الثورة النازية الضارية المحمومة ، والعنف الذى لم يكن متوقعا بين الطوائف في تركيا والهند ، وانفجار الشكوك في « الهدامين » في الولايات المتحدة أو الهجمات البريطانية على المهاجرين الجمايكيين المسالمين •

كذلك لم يكن غريبا أن أطباء الأمراض النفسية قد وجدوا أن نقطة الانهيار عند الكثير من مرضاهم ، كانت في منطقة الاحساس بالذات •

ولم يشعر بالاستقرار والأمن غير أقلية ضئيلة من الناس ــ أقلية من المتدينين المؤمنين ، وممن يكرسون حياتهم كلية لمثل أعلى جديد . وأفراد الفريق الأول ــ على اختلاف أديانهم ــ يستمسكون بالنماذج القديمة ، وأفراد الفريق الثانى ، الواثقون من مثلهم الجديدة ــ تحقيق المجتمع الشيوعى أو النهوض بأمة ناشئة ــ يجدون أنفسهم جزءا من نموذج جديد . ولكن بالنسبة للأغلبية العظمى من البشر يواجه انسان القرن العشرين عبئا لم يسبق أن واجهه أحد قبله ، عبئا تنوء به قدرته على تنظيم عالمه الاجتماعى الخاص ، ووصل نفسه بهذا العالم على نحو مرن أمين .

تعليقات على الفصل الثالث

١ – من رأى الملقين من الشعبة القومية الايطالية ان الكلام عن الاسرة فى هذا الفصل يولى اهتماما مبالغا فيه لبعض الجوانب غير الهامة نسبيا ، وانه يبدأ من مقدمات نسبية الطابع تؤدى بالمؤلفين الى أن ينسوا الفرق بين ما يتغير فعلا وما هو ثابت ، فموقف الكنيسة الكاثوليكية ازاء الزواج والاسرة قد أعاد صياغته البابا بيوس الحادى عشر فى المنشور البابوى كاستى كونوبى Casti Connubi وفيما يلى مقتطفات من هذا المنشور :

« .. فلنرددها مرارا وتكرارا كعقيدة أساسية ، لا تغيير فيها ولا خروج عليها . ان نظام الزواج لم ينشئه انسان ولم يصلحه ، وانما هو من صنع الله .. ولم يكن الانسان هو الذى جعل القوانين تدعمه وتؤيده وتعلى من قدره .. لقد فعل ذلك الله خالق الطبيعة ، والمسيح الهنا الذى اصلح الطبيعة ، ومن ثم فان هذه القوانين لا يمكن أن تكون موضوعا لاى مراسيم يصدرها البشر ، ولا يمكن أن تحفل بأى مبدأ مخالف لها ، ولو اراده الازواج انفسهم .

٦ .. ولكن مع أن الزواج هو بطبيعته ذاتهـا نظام الهى ، فان الارادة البشرية ايضا تدخل فيه وتؤدى فيه دورا غاية فى النبل . ذلك أن كل زيجة ، هى الى جانب كونها اتحادا وارتباطا بين رجل وامراة ، فهى انما تنشأ من الموافقة الحرة للزوجين . وهذا التصرف الارادى الحر ، الذى يقبل فيه كل من الطرفين الحقوق الخاصة بحالة الزواج ويسلم بها ، هو امر ضرورى جدا للزواج الصحيح بحيث لا يمكن أن تضيف أى قوة بشرية شيئا اليه لتكمله ..

١١ . وهكذا يحتل الطفل مكان الصدارة من نعم الزواج .. »

اقرا أيضا فى هذا الميدان

British National Conference on Social Work, Bedford College for Women, 1953, «The Family Report», (London: National Council of Social Service, 1953). «Famille d'Aujourd'hui, situation et avenir». Compte rendu in extenso, (Lyon: Chronique sociale de France, 1958).

Robert D. Hess, «Family Worlds: A Psychological Approach to Family Life, (Chicago, 1959).

John L. Kane, «Marriage and the Family: A Catholic Approach (New York, 1952).

Clifford Kirkpatrick, «The Family, as Process and Institution (N.Y. 1955).

Talcott parsons, «Family, Socialization and Interaction Process (Glencoe, Ill., 1955; London, 1956).

John Ryan and Alan Keenan, «Marriage, a Medical and Sacramental Study» (N.Y. 1955).

F.J. Sheed, «Marriage and the Family» (N.Y. 1957).

Carle C. Zimmerman and Lucius F. Cervantes, «Marriage and the Family» (N.Y. 1956).

٢ ــ يؤكد الاستاذ ا .. بوفين المتخصص فى العلوم القانونية ان الاطفال فى الاسرة السوفيتية لم يشجعوا مطلقا على « تحدى » آبائهم . ففى السنوات الاولى لاستيلاء السوفييت على السلطة ، وقعت فى بعض الاسر هنا وهناك صراعات راجعة الى الفارق بين الفكرة الاخلاقية الجديدة عند الاطفال الذين تقوم بتربيتهم المدارس والمجتمع على أساس الاخلاقيات الشيوعية ، وبين الافكار والنظرة الرجعية عند أفراد الجيل القديم. وقد اصبحت هذه الصراعات احيانا موضوعا للمناقشة بين قطاعات واسعة من الراى العام (أنظر

G.M. Sverdlov, Sovetskoye Semeynoye pravo (Soviet Family Law), Moscow, 1958 ; pp. 13-16).

٣ ــ يرى الاساتذة السوفييت ان هــذا القسم لم يبرز الحقــائق الجوهرية فى البناء الاجتماعى البشرى ، لان المؤلفين يعتبرون أن اساس التقسيمات الاجتماعية يتألف من كل اشكال الاختلافات الفرعية (طريقة الحياة ، نوع العمل ، الدخل ، الافكار ، الوعى ، التعليم ، الخ) ويقدم صورة سديمية مختلطة جدا «للتقسيم الطبقى للمجتمع» .

فأساس التقسيم الاجتماعى هو اختلاف وضع الناس ازاء وسائل الانتاج .. ففى المجتمع الراسمالى الحديث يوجد فى وضع الناس ازاء وسائل الانتاج تناقض بلغ ذروته وادى هذا الى تقسيم ذلك المجتمع الى طبقتين متعارضتين تعارضا أساسيا ، البرجوازية والطبقة العاملة والمقصود بالبرجوازية طبقة الراسماليين ، المالكين لوسائل الانتــاج فى المجتمع ، واصحاب الاعمال التى يستأجر لها العمال . وتتصل طبقة كبار ملاك الاراضى بالبرجوازية اتصالا وثيقا . والمصدر الرئيسى للدخل عند هؤلاء الملاك هو ايجار الاراضى الذى يتقاضونه من الراسماليين الزراعيين الذين يفلحون ارضهم والطبقة البرجوازية وطبقة كبار ملاك الاراضى تكونان معا احد قطبى المجتمع الراسمالى الحديث .

والطبقة الرئيسية الاخرى فى المجتمع الراسمالي هى البروليتاريا ، أو الطبقة العاملة والبروليتاريا هى فى العصر الحديث طبقة الأجراء الذين لا يملكون شيئا من وسائل الانتاج ، بل يبيعون عملهم لاصــحاب رءوس الأموال وهم المنتجون المبــاشرون لفائض القيمة وفائض راس المال الذى ينعم به هؤلاء الراسماليون .

وهكذا يتألف احد قطبى المجتمع الراسمالى من البرجوازيين وكبار ملاك الاراضى، ويتــألف القطب الآخــر من البروليتاريات التى تشــمل كلا من العمــال الصــناعيين والزراعيين . ومع ذلك فان البناء الاجتماعى الراسمالى لا يظهر فى صــورة نقيــة ، فى صورة هذين القطبين وحدهما . فالراسمالية تتميز بشبكة من العــلاقات الاجتمــاعية والمراحل الانتقالية بين طبقة وطبقة اخرى . والفئات الاجتماعية الواقعة بين قطبى البناء الاجتماعى ــ اذا اخذت معا ــ تشكل الطبقات الوسطى فى المجتمع . وليست الطبقــات

الوسطى كلا متجانسا من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، كما هو شأن الطبقات الاجتماعية . فممثلو الطبقات الوسطى يشغلون مواقع مختلفة فى نظام العلاقات المادية ، ولهذا كانت هذه الطبقات على علاقات مختلفة بوسائل الانتاج ، وهم يشغلون مراكز مختلفة بالنسبة لبعضهم البعض فى عملية الانتاج ، وفى مجال التوزيع . انظر :

(V. Semonov, Problema Klassov i Klassovoy borby v sovremennoy burzhua-znoy sotsiologii (The Problem of classes and the class struggle in Modern Bourgeois Sociology), Moscow, 1959, pp. 76-7, 82-3).

الفصل الرابع

النظم السياسية

ترتبط التغييرات التى طرأت على النظم السياسية فى القرن العشرين ارتباطا وثيقا بتغيير دور الدولة ، واتساع مجالاتهــا فى ظروف المجتمع الصناعى الحديث . كما ان هذه التغييرات تمثل تغييرات فى صــورة الدولة ، أخصها ظهور نظم سياسية جديدة فى الدول التى دخلت فى الشيوعية • وسيركز هذا الفصل عنايته فى الدولة من حيث هى نظام ، وفى الأدوات التى عن طريقها يعمل الجهاز السياسى • وسيعنى فى المحــل الأول بالنظم السياسية الآخذة فى التغير فى الدول الديمقراطية الليبرالية والنظم الجديدة فى الدول الشيوعية(١) •

وقد حكم عدد من الدول بألوان شتى من أشكال الحكم الاستبدادى خلال هذه الأعوام ، ولـكن باستثناء ايطاليا الفاشية وألمـانيا النـازية ، لم تكن النظم السياسية لهذه الدول تمثل تقدما جديدا • فهى انما تتسم بالسلبيات ــ رفض أو الغاء النظم الديمقراطية • ويمكن القول صراحة بأنها مثال للحكومة التى تقوم على القوة العسكرية وبتأييدها •

ولقد ذهبت الفاشية والنازية الى ما جاوز مجرد الاعتماد على القوة ، فأعلنت مفاهيم بديلة للأشكال التى ينبغى أن تتخذها مؤسسات الدولة • وكان موسولينى ــ بالاضافة الى تغلغل الأشــكال العســكرية ونصف العسكرية وشبه العسكرية فى بناء الدولة ، كان ينظر الى تنظيم الدولة على أساس اندماجى ، يشمل هيئات منشأة على أســاس وظيفى ، تمارس سلطة على أعضائها • وتحقيقا لهذه الغاية منح اتحادات الشركة فى صناعة خاصة مسئولية ادارية فيما يتعلق بهذه الصناعة • أما النظام النازى فقد قام على مبدأ الزعامة والوحدة المهيبة للدولة • اذ تهــدف مؤسساتها الى صوغ المجتمع كله فى وحدة واحدة ، مستجيبة فى كل أجهزتهــا لارادة الزعيم وتصوره لهدف الدولة وطبيعتها . وفى عصر هتلر كان هــذا الهدف هو اعادة تسليح ألمانيا وتكريسها كلية للأهداف العسكرية .

وقد هزمت هاتان الدولتان فى الحرب العالمية الثانية ، بعد انقضاء فترة قصيرة كانت مؤسساتها تبدو فى خلالها فى شكل مؤسسات مؤقتة أو فى مرحلة الانشاء ، أو فى حالة الطوارىء • وقد تسربت بعض ملامح هذه النظم الى دول أخرى وأشكال كثيرة من الدولة الاستبدادية ، قديما وحديثا ، وظلت تفرض نفسها فى الأعوام التى تلت الحرب العالمية الثانية • ولكن النظم الفاشية والنازية بمعناهما الدقيق قد فشلت ، وخلال الفترة التى نتكلم عنها لم تتركز أو تتخذ شكل بنيان سياسى بديل فى الحياة السياسية •

وكان كثير من الدول الجديدة التى ظهرت فى الوجود بعد الحرب العالمية الثانية ــ بعدد كاد يضاعف من عدد الدول المستقلة فى العالم ــ كان كثير من هذه الدول تعوزه تقاليد الديمقراطية الليبرالية وتجربتها ، ولكنها لم تتبع النموذج الشيوعى مباشرة ، بل بحثت عن نظم تصلح لبلاد أغلبها من الأميين ، وتسودها تقاليد ثقافية مختلفة ، وتريد أن تحقق تنمية اقتصادية سريعة فى ظروف العصر الحاضر ، فاتبعت خليطا من أشكال سياسية • وحتى نهاية الخمسينيات لم يكن قد اتضح الشكل الذى ستتخذه هذه التطورات آخر الأمر • ترى هل سيتمخض الأمر فى النهاية عن ظهور نظم سياسية جديدة ؟

١ ــ أشكال الدولة

١ ــ الملكية :

فى بداية القرن كان الملوك يحكمون الشطر الأكبر من العالم• وكانت جمهوريات أمريكا الشمالية والجنوبية ، وسويسرا وفرنسا تكاد تكون وحيدة فى أن نظام حكمها غير ملكى •

وفى منتصف القرن لم يكن قد بقى غير حفنة من الملوك • وقد اختفى معظم الأسر المالكة القوية ــ أسرة هبسبرج ، واسرة رومانوف ، وأسرة هوهنزلرن ، وأسرة مانشو ، وسلاطين آل عثمان ، والأسر المالكة فى أسبانيا والبرتغال وايطاليا • ولم تبق الملكية فى أوروبا الا فى الدول التى لم يعد للملك فيها سلطة فعلية ، فلم يعد أكثر من رئيس رمزى لدولة ديمقراطية ، كما فى بريطانيا ، والأراضى الواطئة ، واسكندناوه • وقد بقى النظام الملكى فى الدول القليلة الصغيرة بآسيا وافريقيا التى لم تقع من قبل تحت الحكم الاستعمارى المباشر ــ أثيوبيا وتايلاند

وأفغانستان وايران ــ وكذلك فى اليابان ، وان كان الامبراطور المقدس قد أصبح شيئا لا يكاد يتجاوز الرمز • وثمة عدد قليل من الدول الجديدة فى آسيا وافريقيا ــ ليبيا ومراكش والأردن والعراق والسعودية ــ قد اتبعت النظام الملكى عند نشأتها ، ولكن معظم الدول اختارت شكلا جمهوريا ، وأقامت حكمها على صورة مماثلة للنظام الديمقراطى الليبرالى •

وهكذا يمكن أن يقال : انه عند منتصف القرن ، كانت الملكية قد أصبحت نظاما من أنظمة الحكم التى عفى عليها الدهر • ففى معظم أرجاء العالم صار الناس من الناحية السياسية مواطنين لا رعايا ، وصار معنى الدولة هو مجموع أفراد شعبها •

ولقد كانت الحرب العالمية الأولى نقطة تحول فى تاريخ الملكية من حيث هى نظام للحكم • حقا أن البرتغال كانت قد طردت ملكها وأصبحت جمهورية ، وكانت الثورة فى الصين قد أنهت العهد الامبراطورى الذى استمر ٢٠٠٠ سنة ، ولكن اختفاء الامبراطوريات الأربع الكبرى التى تمثل التقاليد الأوتوقراطية ــ الروسية والنمساوية الهنغارية . والألمانية والعثمانية ــ هو الذى يمثل سقوط فكرة النظام الملكى •

وفى الأعوام التى تلت ذلك سقطت ملكيات أخرى ، ودخلت تغييرات فيما بقى منها • وكان ضياع المستعمرات الكبرى التابعة لملك بريطانيا مؤذنا بالغاء لقب « امبراطور بريطانيا » • كما ان أكبر ملك يحكم بالحق الالهى ــ امبراطور اليابان ــ قد تنازل عن حقه تحت ضغط الحلفاء المنتصرين وصار باقى الملوك أو الأباطرة يحكمون ــ نظريا على الأقل ــ بارادة الشعب أو بموافقته ، ولا يستثنى من ذلك الا أباطرة وملوك أثيوبيا والعربية السعودية .

وحتى حيث بقيت الملكية مجرد رمز ، وظل البيت المالك يحظى بولاء حار من الشعب ، فان النظام الاجتماعى الطبقى المتصل بالملكية ، قد صار مجافيا لاتجاهات المساواة السائدة فى هذا العصر • وتدل الانتقادات التى توجه الى الملكية فى بريطانيا ، وجهود الأسر المالكة فى هولندا واسكندناوه لاتباع سيرة ديمقراطية فى السلوك •• يدل كل هذا على أن القوم يعترفون بعدم اتساق الملكية من حيث هى نظام مع الاتجاهات الاجتماعية السائدة فى منتصف القرن العشرين •

٢ ـ الديمقراطية الليبرالية

في الأغلبية العظمى من الدول التى تخلصت من النظام الملكى ، حلت محله صورة مما يمكن أن نسميه « بالديمقراطية الليبرالية » ٤ ، ٥ . وتستخدم هذه العبارة هنا لتدل على الدول التي تكون فيها السلطة السياسية في يد الشعب يمارسها عن طريق ممثلين منتخبين ، ويكون فيها رئيس منتخب للحكومة مسئولا عن التعبير عن الارادة الشعبية . ونحن نفضل هذه العبارة على عبارة « الديمقراطية البرلمانيـة » التى تعنى النظام الذى تقوم فيه الأغلبيـة البرلمانية بالمسئولية التنفيذية ، كما نفضله على تسميتها (بالجمهورية) لأن هذا الاسم يخرج من نطاقها الديمقراطيات البرلمانية التى تتخذ لرئاستها ملكا صوريا ، أو «الحكومة التمثيلية » . ونحن لانستخدم عبارة «الديمقراطية الليبرالية» بالمعنى الذى كان يستخدم فيه فى القرن التاسع عشر « دعه يعمل » وانما نستعمل هذه العبارة لنميز مجموعة واسعة من الدول ، ذات تقاليد سياسـية برلمانية أو تمثيلية ، من الدول الشيوعية التى تطلق على نفسها « الديمقراطيات الشعبية » .

واذا تكلمنا بشكل عام جدا قلنا ان الشكل الذى تتخذه الديمقراطيات الليبرالية هو النموذج البرلمانى الذى تكون السلطة التنفيذية فيه بيد مجلس الوزراء المسئول أمام البرلمان ، ومكون من حزب الأغلبية أو ائتلاف بين الأحزاب . وفى بعض الدول يكون بنـاء الدولة أشـبه بالنموذج الأمريكى ، حيث يوجد رئيس للحكومة منتخب انتخابا مستقلا ، منفصلا عن السلطة التشريعية . غير أن الدول الديمقراطية كلها ـ سواء أكانت برلمانية أم رئاسـيه ـ قد تغير كثير من شـكلهاالداخلى خلال القرن العشرين . فقد اضطرت الدولة تحت وطأة الحاجات المتصلة بالمجتمع الصناعى بالمدينة ، الى توسيع مجال نشاطها لتقدم اطارا أوفى للحياة الاقتصادية ، ولتسيطر على القوة الاقتصادية ولتقدم خدمات عامة .

فقد أصبحت فى المحل الأول دولة تشريعية الى درجة لم تكن معروفة من قبل . فالتوسع الكبير فى نشاط الدولة والاتساع الكبير فى خدمات الدولة تضمن نظرة جديدة الى التشريع ، ودوره فى المجتمع . فلم يعد هدفه الوحيد حماية الدولة ، وكفالة مواردها ، وتحـديد حقوق المواطن وحمايتها . فالمفهوم التقليدى للقانون بأنه فى أغلبه تسجيل أو تفسير عادات الناس وتصرفاتهم ، مما صار جزءا من السلوك الاجتماعى ـ هـذا المفهوم قد صار يكمله مفهوم أكثر نشاطا وايجابية ، صار القـانون يعتبر ـ ويستخدم ـ وسيلة لتحسين أحوال الناس ، ولتنفيذ أهداف الدولة .

ومع الفهم الجديد تزايد حجم التشريع زيادة كبرى · اذ يقدر أن البرلمان البريطاني قد أصدر في النصف الأول من القرن العشرين من القوانين أكثر مما أصدره طوال تاريخه الطويل السابق على هذه الفترة ، ولقد أظهرت الهيئات التشريعية الأخرى ما يشبه هذا الاتجاه ·

وفي المحل الثاني فان مبدأ سيادة الشعب الذى تقوم على أساسه الدول الديمقراطية قد أصبح شاملا للجميع ، بامتداد حق الانتخاب — الى طبقات كانت محرومة منه من قبل ، كما امتد حتى شمل النساء . لم يشذ عن ذلك الا دول قليلة . فمنذ الأعوام التى تلت الحرب ونتيجة للمشاركة العامة فيها ، صار الأساس الذى يقوم عليه الحكم فى الدول الديمقراطية هو حق الشعب كله فى السياسة الفعلية .

ومع هذا التوسع الأخير للديمقراطية طالبت بأن تكون مصدر جميع السلطات . فلم يعد هناك مجال من مجالات الحياة البشرية يعتبر — من حيث المبدأ — خارج سلطة الدولة الديمقراطية . واختفى التمييز بين ما ينبغى ادارته بحكمة الشعب ، وما يجب أن يترك لتقدير الفرد أو للسلطة الروحية . فباستثناء الحدود التى نصت عليها قوانين الحقوق فى الدساتير الديمقراطية ، واعترف بها عمليا ، صار للدولة حق السيطرة على كل جانب من جوانب الحياة البشرية ، طبقا لما تمليه الارادة الشعبية .

ويعد هذا التغيير التدريجى الأساسى فى طبيعة النظم الديمقراطية من أبرز ملامح الحياة السياسية فى القرن العشرين ·

٣ ـ أشكال الدولة الاستبدادية :

لم تستطع النظم الديمقراطية فى بعض الدول أن تثبت أقدامها ، أو أن تعالج أزمات العصر ، فحلت محلها بعض صور الحكم الاستبدادى الذى ألغى المؤسسات الديمقراطية القائمة على مبدأ سيادة الشعب ، ولكنه استبقى وقوى مبدأ شمول سلطة الدولة · ففى بعض الدول أسلمت السلطة الملكية الزمام مباشرة لنظام دكتاتورى . فالثورة الكمالية مثلا فى تركيا قد أقامت منذ البداية نظاما استبداديا أدخلت عليه فيما بعد بعض الملامح الديمقراطية · وفى دول أخرى استولت نظم دكتاتورية على السلطة فى الدول ذات النظام الديمقراطى ، وبخاصة فى شرق أوربا وجنوبها فى أعوام ما بين الحربين العالميتين ، وفى الدول الحديثة فى آسيا وافريقيا فى الخمسينيات وفى أماكن متفرقة فى أمريكا الوسطى والجنوبية · وهكذا نرى أنه برغم استمرار الاتجاه نحو الديمقراطية الليبرالية ، وبرغم أن

انتصار الديمقراطيات فى الحربين العالميتين قد أضفى مكانة واحتراما على النظام الديمقراطى وكان من أسباب انتشاره ، فان الميـــل الى بعث الأوتوقراطية كان ميسما واقعيا من مياسم تطور النظم السياسية فى القرن العشرين ، شأنه في واقعيته شأن تزايد المؤسسات الليبراليـة ، وظهور صور الدولة الشيوعية • ويتسم بناء الدولة الاستبدادية فى كل مكان بثلاث سمات : رئيس الدولة أو الزعيم وله سلطات استثنائية ، وله حزب أو مجموعة خاصة تؤيده ؛ وهيئة تشريعية تنتخب عادة بطريقة تستبعـد الأحزاب أو الجماعات المناهضة للنظام والتى تعتبر خطرة على فلسفة الحكام وادارة بيروقراطية لا تكلف نفسهـا حتى مئونة التظاهر بمظهر الخـاضع لرقابة الشعب •

وتختلف الدول الاستبدادية فيما بينها اختلافا ملحوظا فى تقديرها لمدى شمولية سلطة الدولة من حيث أنها تتضمن معنى جعل كل مؤسسة متناسقة مع بناء الدولة وجزءا من هذا البناء ، وفى مدى تطلبها لوحدة الفكر ، وانكارها كل الحقوق المدنية ، ومدى اعتبارها الدولة هدفا فى ذاتها . وقد بلغ هتلر منتهى التطرف فى هذه الأمور فى دولته الاشتراكية الوطنية الشمولية ، بينما ذهبت بعض الدكتاتوريات بعيدا فى الاتجـاه المضاد لهذا ، بحيث أعلنت أن غرضها النهـــائى هو اقامة ديمقراطية ليبرالية . ولكن نفس السمات توجد الى حد ما فى كل الدول التى تحكم حكما استبداديا .

٤ ـ الشيوعية

لم تكن الدول الديمقراطية والاستبدادية أشكالا جديدة من التنظيم السياسى ، وان أخذت مضمونا جديدا فى القـرن العشرين • أما التطور الجديد فى شكل الدولة فهو بناء الدولة الشيوعية •

فـكل الدول الشيوعية ، سواء أكانت اتحادية فى طابعها كالاتحاد السوفيتى أو كان لها دستور مركزى ، تتميز بخصائص مشتركة مميزة • فمن أصغر الوحدات ـ سواء كانت قرية سوفيتية أو ما يقابلها فى الصين ـ الى أعلى الوحدات ، فان كل جهاز من أجهزة الدولة ينتخب على أســاس هرمى ، وتتركز سلطته فى القمة • وكل هيئة منتخبة تمارس سلطاتها ، مع الخضوع لاشراف ورقابة الهيئة التى تعلوها مباشرة ، مع بقاء السلطة النهائية فى كل الأمور بيد الجهاز الأعلى(١١) •

كذلك فان الدور الذى يؤديه الحزب الشيوعى يعد من المعالم المميزة للدول الشيوعية • فالحزب بوصفه الأمين على مصالح الشعب ، يحتفظ فى

يده بالسلطة النهائية ، وان كان يمارس السلطة على نحو غير مباشر • فهو الذى يصوغ السياسة ، ويراقب تنفيذها فى كل المستويات ، وفى كل مجالات النشاط •

٥ ـ النظم الاستعمارية :

كان هناك وجهان لكل دولة من الدول الأوربية الاستعمارية : بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وهولندا والبرتغال ـ وجه فى داخل الدولة الأم ، ووجه فى المستعمرات وغيرها من المناطق غير المستقلة • فالامبراطورية الاستعمارية التى على رأسها دولة ديمقراطية ليبرالية كانت نموذجا للتنظيم الذى يجمع بين مبدأين متعارضين ، الحكم الذاتى والحرية فى الداخل ، والاوتوقراطية وانكار الحرية فى الخارج • وكان مما يميز كل الدول الاستعمارية فى القرن العشرين أن الأفكار السياسية للحكم تختلف فى الدولة الأم عنها فى المستعمرات •

ولم يقتصر الفرق بينهما على التنظيم الحكومى ، بل لقد كان يمتد الى تحقيق العدالة والسياسات التعليمية ، وحقوق الفرد تجاه الدولة • فلقد كان هناك مستويان مختلفان للمعاملة ، حتى فى تطبيق القانون • فالاعتبار الغالب فى الحكم الاستعمارى هو لمكانة الدولة الحاكمة وسلطانها • وفى معظم المستعمرات حدث تغيير تدريجى ، غالبا ما كان صوريا أكثر منه جوهريا ، وذلك خلال الفترة التى تلت الحرب العالمية الأولى • ولكن الطبيعة الثنائية للحكم الاستعمارى ظلت قائمة حتى استقلت المستعمرات •

وكان البناء الفعلى للحكم الاستعمارى يختلف بين دولة استعمارية وأخرى ، كما يختلف باختلاف أجزاء الامبراطورية الواحدة • وقد اشتملت الامبراطورية البريطانية على أكبر مجموعة متنوعة من النماذج • ففى المناطق التى استوطنها مهاجرون أوروبيون طبقت النظم الديمقراطية السائدة فى الدولة الأم ، وصارت هذه المناطق تحكم حكما ذاتيا ، وان لم تتخلص كندا واستراليا ونيوزيلندا واتحاد جنوب أفريقيا من وضعها كممتلكات للامبراطورية البريطانية تخلصا رسميا الا فى سنة ١٩٣١ ، واصبحت من دول الكومنولث البريطانى • أما الامبراطورية الهندية ، التى كانت تشمل برما وعدن بالاضافة الى الأراضى التى تشغلها الآن الدولتان المستقلتان الهند وباكستان ، فقد كان لهذه الامبراطورية الهندية وضع خاص ، فكانت امبراطورية داخل امبراطورية • اذ كانت تعمل تحت رئاسة وزير دولة خاص مسئول أمام البرلمان البريطانى ، وكان للحكومة

البريطانية فى الهند وزارة للخارجية خاصة بها ، وكانت تعقد معاهدات مع الدول الواقعة على حدودها أو فى شبه الجزيرة العربية · وكانت مكانتها ونفوذها يجعلانها موضع استشارة عند صياغة السياسات الامبراطورية ذات الصلة بالدول الآسيوية . وكان لها جيش كبير يعتمد على مواردها الخاصة ، وخدمة مدنية يشغل فيها البريطانيون المناصب الكبرى عادة ·

أما باقى أجزاء الامبراطورية البريطانية فكانت تدار على أنها سلسلة من مستعمرات التاج تديرها وزارة المستعمرات ؛ وتختلف طريقة حكم كل منطقة باختلاف التقاليد التاريخية ، والظروف الاجتماعية والاقتصادية للمنطقة ، والأهداف الرئيسية للحكم الامبريالى · وكان النظام المتبع وبخاصة فى المناطق الافريقية خارج الأقاليم التى يستوطنها البيض ، هو نظام الحكم غير المباشر ، وطبقا لهذه الطريقة ظل الحاكم المحلى أو الزعيم القبلى يمارس سلطته ، ولكنه يمارسها نيابة عن الدولة الحاكمة ·

بالاضافة الى المناطق التى كانت أجزاء فعلية من الأمبراطورية البريطانية ، كانت لبريطانيا سلطة فعالة فى بعض « المحميات » مثل مصر من ١٩١٤ الى ١٩٢٣ ، أو السودان ؛ وفى هذه الدول ظلت الحكومة المحلية كما هى ، وسيطرت بريطانيا على السياسة عن طريق نظام المستشارين للعلاقات الخارجية والشئون المالية والعسكرية · وفضلا عن ذلك كان لبريطانيا مناطق نفوذ ، بمقتضى معاهدات تخولها امتيازات فى أجزاء من الشرق الأوسط والصين ·

كذلك كان الاستعمار الفرنسى يصاغ بحيث يتلاءم مع اختلاف الظروف المحلية ، وعلاقات المناطق المختلفة بالدولة الأم · وفى الهند الصينية الفرنسية ظلت دول كمبوديا وأنام ولاوس تحت حكم ملكيات ثابتة ، وكانت الحكومة الفرنسية تستخدم جهازا اداريا من المواطنين ليمارس سلطاتها · أما تونكين وكوشين صين ، فقد كانت تدار مباشرة كمستعمرات · وفى شمال أفريقيا كانت تونس ومراكش كلتاهما تدار كمحمية عن طريق حكامها المحليين ، وكان للمستوطنين الفرنسيين فى البلاد بعض الحقوق السياسية الخاصة غير أن مراكش كان لها وضع دولى لم يكن لتونس مثله · أما الجزائر فكانت على خلاف ذلك اذ كان لها ثلاث وزارات فى حكومة فرنسا الأم ، ولها ممثلون فى البرلمان الفرنسى · ولكن حتى أواخر الخمسينيات كان معظم الناخبين من المستوطنين الفرنسيين أما الممتلكات الفرنسية فى أفريقيا الاستوائية فظلت حتى أواخر الخمسينات

تحت الادارة المباشرة لفرنسا . وعملا بمبدأ «الادماج» نال من حصلوا على الثقافة الفرنسية وضع المواطنين الفرنسيين ، وصاروا يمثلون فى البرلمان الفرنسى فى باريس .

بل كانت الصروح الاستعمارية الهولندية والبلجيكية والبرتغالية أثقل وطأة من الحكم البريطانى والفرنسى . فالنظام البرتغالى بعد عام ١٩٣٣ كان متميزا من ناحية أنه لم يجعل البلاد خارج الدولة الأم دولا تابعة بل جعلها أقساما ادارية فى الدولة الأم ولكن فى داخل هذه الأقسام لم يكن يتمتع بالحق الكامل للمواطن الا نفر قليل من البرتغاليين والوطنيين « المندمجين » . أما جماهير الشعب فى افريقيا البرتغالية فكانت قطيعا من الأتباع لا يتمتع بحق المواطنة . كذلك كان الحكم البرتغالى يختلف أيضا عن حكم الدول الامبريالية الأخرى فى أن الحكومة لم تكن تعتمد على المبادىء الديمقراطية فى حكم البرتغال ذاتها . بهذا لم تكن شقة الخلاف واسعة بين الصروح السياسية فى الداخل والخارج .

وبارتفاع مد العداء للاستعمار خلال القرن العشرين ، والصراع من أجل تقرير المصير الوطنى من جانب شعوب المستعمرات ، وجدت الدول الاستعمارية أنه من الخير لها أن تقدم تنازلات للبلاد التابعة لها ، فاتخذت هذه الأقاليم التابعة بعض ملامح الدولة الأم . وفى الهند كانت بريطانيا قد بدأت فى ادخال القانون الجنائى والتجارى البريطانى فى منتصف القرن التاسع عشر باعتباره جزءا من التنظيم الادارى ، وأدمج الهنود فى هذا التنظيم بأن شغلوا المراتب الدنيا من الخدمة المدنية ، وفى ثمانينيات القرن الماضى أخذ البريطانيون يدخلون قدرا يسيرا من الحكم الذاتى ، ثم أدخلت اصلاحات متعاقبة فى سنوات ١٩٠٩ ، ١٩١٩ ، ١٩٣٥ استجابة لضغط الهنود ، فأقامت الحكومة البريطانية أنظمة للحكم تتبع النظام البريطانى فى الداخل ، وان كان مجالها أضيق ، وكان التطبيق يتم أولا على النطاق الاقليمى ثم القومى . ولما اتضح أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها أن الاستعمار مقضى عليه لا محالة ، سارعت بريطانيا الى اعداد أجزاء أخرى من الامبراطورية للحكم الذاتى والاستقلال ، وكانت تنشأ فى كل حالة الأشكال التنظيمية المتبعة فى بريطانيا نفسها .

كذلك قدمت فرنسا نظمها الداخلية تراثا لشعوب المستعمرات . وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية لم يكن يدور فى خلد النظام الاستعمارى الفرنسى ان المستعمرات ستحظى بالاستقلال التام فى نهاية الأمر ، اذ كان الهدف النهائى المعلن ، على الأقل فيما يتعلق بالمستعمرات الافريقية،

هو الاندماج فى الاتحاد الفرنسى ، ولم يسمح بفكرة الحكم الذاتى أو أى امكانية للتطور خارج الامبراطورية الفرنسية حتى عام ١٩٤٤ ، ولكن كان من دأب فرنسا منح النظم الفرنسية كاملة ما أمكن لمن تم «تمثلهم» لها ، فلما شرعت فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية فى القيـــام ببرنامج ضخم لانشاء الطرق ونشر التعليم فى مستعمراتها الافريقية اتبعت فى المستعمرات الافريقية النظم القائمة فى فرنسا • وفى عام ١٩٥٧ حين وافقت فرنسا أخيرا على منح هذه المستعمرات قدرا من الحكم الذاتى بمقتضى اللواكادر • كان الوزراء الافريقيون الذين قاموا بتنفيذ هذا النظـــــام ممن تدربوا على السياسة كأعضاء فى البرلمان الفرنسى •

وسارت التنازلات الهولندية المحدودة على منوال شبيه بهـذا حين استجابت لمطالبة الاندونيسيين بالاشتراك فى الحكم . وبدأت هذه التنازلات عام ١٩١٦ ، وكانت تعتمد على منح أندونيسيا الأشـــكال البرلمانيـــة الهولندية • اما الحكومة البلجيكية التى لم تشرع فى منح الحـكم الذاتى للكنغو حتى خمسينيات هذا القرن ، فقد بدأت بأن أقامت فى الكنغو نظام الكومون البلجيكى كأساس للحكم الذاتى المحلى .

ولكن فى منتصف القرن العشرين لم تكن الجهود التى تبذل للمحافظة على سلامة الصروح الاستعمارية الا محـــــاولات من قبيل حماية مؤخرة الجيش المتقهقر . فأخذت بريطانيا تنسحب طبقا لبرنامج مدروس من مستعمرة بعد أخرى ــ غانا ثم الملايو على أن تتبعهما جزر الهند الغربية البريطانية وغيرها ــ ولكنها فى الوقت نفسه تشبثت اطول مدة ممـكنة بالأراضى التى كانت تعتبر بقاءها فيهـــا ممكنا ، أو التى كانت تعتبرها حيوية لمصالحها القومية ، مثل قبرص وشرق افريقيـــا ، وجبل طارق ، والمحميات الواقعة على الساحل الغربى • وقد تخلت عن هذه المستعمرات واحدة بعد أخرى كلما استعصى عليها البقاء فيها • واضطرت فرنسا الى التخلى عن النظر الى افريقيا على أنها بلاد الفرنسيين السود حين اشـتد تيار القومية فى هذه الأراضى • وكادت الامبراطورية الهولندية تذهب كلها وان ظلت هولندا تقول بأنها صاحبة الحق فى غينيا الجديدة الغربية ، وتحتفظ بمساحات صغيرة من الأراضى فى جزر الهند الغربية • وخشيت البرتغال من تأثير الاضطرابات الخارجية على مستعمراتهـــــا فأغلقت كل مستعمراتها الافريقية تقريبا فى وجه العالم الخارجى فما انتهت الخمسينيات حتى كان الاستعمار كنظام للحكم قد انتهى تقريبـــا ، ولم يبق له الا أن

يتساءل : هل يمكن أن يحتفظ مع الوحدات السـابقة للامبراطوريات بعلاقات تزيد عما يكون بين الدول المنفصلة المستقلة من علاقات ؟

٦ - الدول المترابطة :

بينما تدهور الاستعمار من حيث هو أساس لتجميع وحدات سياسية فى بناء مشترك ، برزت نماذج عدة للدول القائمة على المشاركة، تكون ارتباطاتهـا أوثق من مجرد المحالفات ، ولكنها لا تبلغ درجة الاندماج فى دولة واحدة أو فى بناء امبراطورى . وابرز هذه البناءات المؤتلفة الكومنولث البريطانى .

ولقد ظهر الكومنولث كصورة خاصة من النظم الدولية على مراحل متعاقبة . ففى بداية القرن لم يكن يتمتع بالحكم الذاتى من أجـزاء الامبراطورية البريطانية الا أراض فيما وراء البحار تنتمى غالبية سكانها الساحقة الى أصل بريطانى - مثل كندا واستراليا ونيوزيلندا . ولـكن هذه الدول ذاتها لم تكن تتمتع بالسيادة ، لأن البرلمان البريطـانى كان لا يزال يحتفظ لنفسه بحق التشريع لها ، ولم تكن لها علاقات دبلوماسية بدول أخرى . وحدث أول تغيير كبير فى عام ١٩١٠ حين أضاف قانون اتحاد جنوب أفريقيا أول دولة تحكم حكما ذاتيا دون أن ينتمى سـكانها الى أصل بريطانى . وكان هذا النظام السياسى الذى شمل شعب البوير فاتحة لتعدد العناصر فى الكومنولث البريطانى ، وان كان لا يزال ذلك فى نطاق السكان الذين ينتمون الى أصل أوروبى ، لأن جمهوريات البوير كانت لا تسمح لغير الأوروبيين بالاشتراك فى سياسة البلاد .

أما التغيير الثانى الكبير فجاء فى أعقاب الحرب العالميـة الاولى التى اعتمدت المملكة المتحدة فيها اعتمادا كبيرا على المستعمرات المستقلة والهند. فطالبت هذه الدول بدورها بأن تشارك فى تقرير السياسة الخارجيـة . وبعد عشر سنوات من المفاوضات والمناقشات تم الاتفاق على مبدأ السيادة المستقلة المتساوية وذلك فى سنة ١٩٢٦ وتضـمنه قانون وستمنستر سنة ١٩٣١ ، فاصبحت بلاد الدومنيون التى تتمتع بالحكم الذاتى تكون مع بريطانيا الكومنولث البريطانى .

وكان لابد من تغيير دستورى آخر بعد الحرب العالمية الثانية ، حين أصبحت الهند جمهورية ، ووافقت فى الوقت نفسه على البقـاء داخل الكومنولث . وأدمجت الهند وسيلان وباكستان ، وبهذا لم يعد الكومنولث

يقتصر على الشعوب ذات الأصل الأوروبى • وبقبول جمهورية الهند فى عضوية الكومنولث اختفت منه أيضا تلك الرابطة التى كانت تعتبر عنصر التوحيد بين دوله ، وهى الولاء لملك واحد . وفى منتصف القرن العشرين صار الكومنولث صورة للارتباط الدولى السياسى المتعدد الأجناس •وتطور الكومنولث فتخلص من السيطرة واستبقى الائتلاف . ولا ندرى هل هو صورة سياسية صالحة للبقاء فى المستقبل ، أو سيكون مجرد جسر ، أو مرحلة انتقال ، بين الامبراطورية والانفصال الكامل بين أعضائها •

وقد جرت محاولات أخرى لتحويل الممتلكات السابقة الى دول تقوم على المشاركة ، ففرنسا كانت تأمل حتى أواخر الخمسينيات فى خلق صورة من صور المجتمع الفرنسى ، يكون أساسا لاستمرار الائتلاف بين تلك الاجزاء من امبراطوريتها السابقة التى قد ترغب فى أن تبقى على بعض الارتباط بفرنسا • وقد فشلت جهود هولندا فى ايجاد أساس للائتلاف مع اندونيسيا ، ومنيت العلاقات المبدئية التى قامت عند بداية الاستقلال بالفشل ، اذ الغاها الأندونيسيون بعد ذلك بست سنوات • اما بورتوريكو وكانت فيما سبق من ممتلكات الولايات المتحدة ، فقد رفضت كلا من الاستقلال والاندماج كولاية فى الاتحاد الامريكى ، بل اختارت ان تؤكد وضعها كدولة « كومنولث » امريكى ، فتظل داخل الاتحاد الجمركى للولايات المتحدة وتحتفظ لشعبها بحقوق المواطنين الامريكيين ، ولكن بشرط ان تدير هى شئونها الداخلية بنفسها •

وفى الأعوام التى تلت الحرب العالمية الثانية ، ظهرت نماذج للارتباط بين الدول التى لم تكن بينها علاقات استعمارية سابقة • فاقامت الهند علاقة خاصة بالدولة الصغيرة المسماة نيبال على حدودها الشمالية ،وتولت مسئولية الدفاع العسكرى عنها • اما دول شرق اوروبا التى انضمت الى المعسكر الشيوعى، وهى بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وبلغاريا ورومانيا والبانيا والمانيا الشرقية ، فقد ارتبطت بالاتحاد السوفيتى عن طريق جوانب من بنائها الاقتصادى ، وقدر من الاندماج بين قواتها المسلحة ، وادارة حزبها الشيوعى أو ما يسمى بالديموقراطى الشعبى • وأنشأت أوروبا الغربية أدوات فوق المستوى القومى ـ تشريعية ادارية وقضائية ـ لكى تدير مجتمعات الصناع العاملين فى مناجم الفحم والحديد ، كذلك انشأت السوق الأوروبية المشتركة ، والاتحاد الأوروبى للذرة ، فعدلت بذلك وظائف الوكالات القومية ذات الصلة بهذه الأمور • أما منظمة حلف

شمال الاطلنطى فلم يكن معناها فقط اندماجا بين أجزاء من جيوش الدول الأعضاء بل خلق نظم مشتركة فيما بينها ٠

كانت المنظمات الدولية فى ذاتها شكلا من أشكال الارتباط . وان كانت تقوم على مبدأ المساواة فى السيادة بين كل الدول الأعضاء ٠ ولقد حاولت جامعة الدول العربية أن تكون نوعا من مجموعات الدول المترابطة يضم الدول العربية فى الشرق الاوسط ٠ أما منظمة الدول الامريكية فأنشأت جهازا استخدم مرات متعاقبة فى التدخل حين بدت نذر الصراع المسلح بين الدول الأعضاء ٠ وعلى النطاق الدولى أنشأت الأمم المتحدة جهازا قضائيا ، وان كان عرض المنازعات على محكمة العدل الدولية أمرا اختياريا . كذلك عملت الأمم المتحدة على توحيد القوات المسلحة ، وان كان ذلك لم يحدث الا لفترات مؤقتة خلال الأعوام الاثنى عشر الأولى التى مضت بعد انشائها ٠

وبرغم قوة العاطفة القومية وكثرة الدول القومية فان هذه الصور للارتباط والتزايد المستمر فى مجالات نشاط الوكالات الدولية تشهد كلها بأن هناك ميلا قويا فى منتصف القرن العشرين من جانب الدول المستقلة استقلالا تاما ، لأن تأتلف بغيرها ، وأن تتطور وفق مقتضيات هذا الائتلاف حتى تنسجم مع النماذج الاجتماعية العالمية التى يعتمد بعضها على بعض ، ومع احتياجات شعوب العالم وأمانيها ٠

٢ ـ نظم الدول الديمقراطية الليبرالية

١ ـ النظام الانتخابى والاحزاب السياسية :

كان النظام الانتخابى بمكان القلب من بنيان الديموقراطية الليبرالية لانه كان الجهاز الأساسى الذى يستطيع به الشعب أن يمارس سيادته ٠

والأحزاب السياسية اداة اختيار المرشحين وتعبئة التأييد لهم فى الانتخابات ٠ ولقد اختلفت اختلافا جوهريا فى شتى البلاد ، ولكن بينها جميعا بعض المظاهر المشتركة ٠ فهى منظمات اختيارية ، على النطاق القومى عادة ، تتكون من أناس متفقين على الأقل على قدر من السياسات العامة المرغوب فيها ٠ وهدفها هو الاستيلاء على السلطة التشريعية ، والأجهزة التنفيذية للدولة ، عن طريق الانتخاب الشعبى ، حتى تتقرر سياستها وتوضع موضع التنفيذ ٠ ويقوم العمل فى التنظيم الحزبى الى حد كبير

جدا على أساس تطوعى مجانى ، وان كان من الضرورى على العموم وجود نواة من العاملين ذوى المرتبات ٠

وقد أدى توسيع حق الانتخاب الى زيادة ضخمة فى اهمية المنظمات الحزبية فى الحياة السياسية ، لأنها جعلت من المستحيل تقريبا على الأفراد أن يحصلوا على أصوات الناخبين بدون تأييد المنظمة الحزبية ٠ ذلك أن تنوع القضايا ، نتيجة لتوسع مهام الدولة ، قد أدى الى تعقيد كبير فى مشكلة تنوير الناخبين باستمرار بحيث يستطيعون استخدام حق التصويت استخدام المسئولين ٠ وفضلا عن ذلك فان وسائل التأثير فى الرأى العام عن طريق المستحدثات الجديدة ، كالسينما والراديو والتليفزيون وغيرها من وسائل الاتصال بالجماهير ، قد أصبحت من التعقيد وضخامة التكاليف بحيث لم يعد يتحملهـــا الأفراد ٠ ولقد ظل المرشـــحون يظهرون فى الاجتماعات العامة ، ليجيبوا عن الاسئلة ، وليصافحوا الناخبين ٠ ولكن التأثير فى الرأى العام على النطاق الجماهيرى قد أصبح فنـــا من الفنون المتخصصة ٠ وأصبحت تعبئة التأييد السياسى أمرا يخطط له وينفـــذ بنفقات ضخمة على نطاق الأمة كلها ، على نحو يتطلب وجود أحزاب منظمة على المستوى القومى ، ولها موارد مالية كافية ٠ وهكذا احتلت التنظيمات الحزبية مكانا بارزا فى عمل الديمقراطيات الليبرالية ٠

كانت الأحزاب أجزاء لا تتجزأ من الصروح البرلمانية ٠ فقد اعترف بدور المعارضة كما اعترف بدور الأغلبية الحاكمة ٠ وأصبحت مراكز كل من زعماء الأغلبية والأقلية تمول بأموال مخصصة لادارة النظام التشريعى ٠ وفضلا عن ذلك صارت العلاقات بين الأحزاب البرلمانية على نحو تقدم فيه المعارضة ــ رغم تمثيلها للأقلية ــ التأييد الكافى للسياسات التى تقررها الأغلبية لكى تحقق الاستمرار الضرورى للسياسة القومية ، فهى تعمل « كمعارضة شريفة » حتى يأتى عليها الدور فتصير أغلبية ٠ ويجرى قدر كبير من صنع السياسة داخل الأحزاب ، فلدى الأحزاب ، مكاتب للبحوث ومنشورات وعلاقات ثابتة مع الصحافة ، وجماهير الشعب ٠ وعن طريق هذه الوسائط تحصل الأحزاب السياسية على المعلومات والآراء فيما يتعلق بالقضايا الكبرى ، وتصوغ النتائج فى شكل تشريعات ٠

ومع أن الاحزاب السياسية تبدو اذن ضرورية لكى يمارس الشعب سيادته فى ظروف الدول القومية الحديثة ، فان وظائفها تختلف اختلافا تاما من قطر الى قطر (١٣) ، ففى بريطانيا والولايات المتحـــدة ودول الكومنولث التى تنتمى الى الأصل البريطانى ، كانت الأحزاب قليلة العدد

مستقرة ، ويحاول كل حـــزب ان يتبنى مجالا واســـعا من الآراء والاهتمامات . فالنظم الديموقراطية فى هذه البـــلاد تعمل على أساس نظام الحزبين ، وتكون الأحزاب متوازنة القوة على نحو كاف ، بحيث تستطيع الأقلية أن تصبح أغلبية بأن تحصل على مجموعة اضافية من أصوات الناخبين . ولقد يحدث انشقاق فى الأحزاب الكبرى ، أو قد يحصل حزب ثالث على تأييد كاف يمكنه من أن يحل محل أحد الحزبين الكبيرين ، كما حل حزب العمال البريطانى محل حزب الأحـرار ، فى المعارضة أولا ثم فى الحكم . على ان السمة الجوهرية لهذه الأحزاب هى سعة استيعابها للأمور ، وقدرتها على البقاء عن طريق التـــلاؤم مع الظروف المختلفة والرأى العام المتغير .

ولما كان كل حزب كبير فى هذا النظام يحاول ان يجتذب اليه أغلبية الناخبين ، فان عليه بالضرورة ان يرسم فى مراكزه القيادية السياســات التى تحظى بتأييد شعبى كبير • والحزبان الكبيران بينهمـــا اختلاف كاف بشأن مايوليانه أعظم الاهتمام فى حديثهما الى المجموعات المختلفـــة من الناخبين ، وتقديم بدائل للمستقلين الذين لا يعطون أصواتهم على أساس الولاء الحزبى الخالص ، ولكن التقارب يزداد بين سياســـات الحزبين • فالقضايا الشعبية التى يبدؤها أحد الحزبين يكملها الحزب الآخر • والبرامج التى يبدأ تنفيذها حين يكون احد الحزبين فى الحكم ، يستمر خلفـــه فى تنفيذها . وكان احتفاظ حزب المحافظين البريطانى حين ولى لحكم عام ١٩٥١ بكثير من السياسات الاجتماعية التى وضعها حزب العمـــال لخلق دولة الرفاهية مثالا ملحوظا فى هذا المجال • ففى ظل نظام حزبى لا يكون هناك انقسام خطير حول القضايا الرئيسية ، ولا يمثل النظـــام الحزبى انشقاقات أساسية فى المجتمع ، وتتميز المؤسسات السياسية بقـــدر كبير من الاستقرار •

والموقف يختلف عن هذا تمـــام الاختـــلاف حيث تمثل الأحزاب انقسامات عميقة فى المجتمع أو حيث قامت الأحزاب على أساس خلافات جوهرية تتعلق بطبيعة الدولة وشكل الحكومة • ففى النمسا مثلا حاول كل من الحزبين الاشتراكى والكاثوليكى أن يشد الدولة فى الاتجاه المضاد للآخر ، واستمر ذلك عشرين سنة ، الى أن ســـقط ما بقى من الحكومة الديمقراطية فى أيدى النازى . وبعد الحرب اشتركت هذه الاحزاب فى حكومة ائتلافية لمدة تزيد على عشر سنوات ، وبذا حققت الاســـتقرار ، ولكنها احتفظت بعلاقات العمل فيما بينها بأن اتفقت على شـــغل كل الوظائف العامة بكافة أنماطها بمراعاة التنـــاسب بين المنتمين الى كل

الأحزاب • وقد اتبع نظام مماثل الى حد ما فى هولندا وبلجيكا بعد الحرب العالمية الثانية • وفى كولومبيا اتبع نظام تبادل السلطة ، فعقد اتفاق على تبادل منصب رئيس الجمهورية بين الحزبين الكبيرين فى عام ١٩٥٨ لانهاء فترة بلغت عشر سنوات من الصراع السياسى والفوضى التى كادت تفضى بالبلاد الى حرب أهلية • وتمتد الخلافات الحزبية الى الشكل الأساسى للدولة فى البلاد التى يكون للحزب الشيوعى فيها اتباع كثيرون ، كما هى الحال فى ايطاليا وفرنسا • أما فى الجمهورية الأسبانية بعد عام ١٩٣١ فكانت الهوة بين الأحزاب من العمق بحيث أدت الى شلل حركة الدولة وقيام حرب أهلية •

كما أن للأحزاب دورا آخر فى البـــلاد التى يوجد بها عدد كبير من الأحزاب الصغيرة تمثل تفاوتا كبيرا فى الآراء من اليســـار الى اليمين • وفرنسا مثال بارز على هذا الطراز من البناء الحزبى. فعلى عكس الأحزاب البريطانية والأمريكية التى تستهدف أساسا الحصول على تأييد أكبر قطاع ممكن من السكان حتى تفوز فى الانتخابات وتصل الى الحكم ، فان كل حزب فرنسى يعبر عن ظل خاص من الظلال المتفاوتة فى الآراء • ولا يوجد وراء أى حزب فرنسى القوة المنظمة اللازمة للحصول على الأغلبية ، لهذا كان لابد دائما من تعاون عدة أحزاب فى الحكم ، وكل منها يخرج من الائتلاف كلما انحرفت سياسة الحكومة عن مبادئه الخاصة . وكان معظم ما ساد النظام البرلمانى الفرنسى من عدم الاستقرار خلال القرن العشرين نتيجة لنظام حزبى فتت الأصوات بدلا من أن يركزها فى أغلبيـــات مسئولة وعملية • فجاءت الجمهورية الخامسة الى الوجود عام ١٩٥٨ كرد فعل على هذا النظام الحزبى •

ولكن مهما يكن من أمر النظام الحزبى ، فان الجـوهر الأساسى للدولة الديمقراطية الليبرالية ، كان ولا يزال يتمثل فى وجود أحـزاب متنافسة تنظم أصوات الناخبين ، وتتنافس من أجل الحصـول على تأييدها ، على أساس قضايا مطروحة للمناقشة الحرة .

٢ ـ وسائل أخرى للتعبير عن الرأى السياسى :

مع أن الأحزاب السياسية هى المنظمات الرئيسية لتنمية الرأى العام والتعبير عن رأيه فى القضايا السياسية ، فانها ليست بأية حال المنظمات الوحيدة التى يمارس الشعب سيادته من خلالها . فعدد كبير من المنظمات الاختيارية ، التى تجمع الناس حول مصالح مشتركة ـــ

مهنية ومدنية ودينية وتعليمية وخيرية – تهيىء أساسا مشتركا لمناقشة القضايا العامة ، وتشكيل نظرة مشتركة للأمور بين أعضائها .

وبعض هذه المنظمات لها اتصال مباشر بالأحزاب السياسية ، أو هى جزء لا يتجزأ منها ، كما هو الشأن فى نقابات العمال فى عديد من البلاد الأوروبية . وقد ذهب بعضها الى مدى بعيد فى التأثير على رأى أعضائها بل والرأى العام كله فى القضايا التى تعتبرها ذات أهمية خاصة لها ، كما فعلت الجمعية الطبية الأمريكية فى مسألة التأمين الصحى الاجبارى فى الولايات المتحدة . وقد شكل بعضها صراحة لتحسين أحوال معينة مثل تقرير حد ادنى للأجور ، أو تقييد تشغيل الأحداث ، ونزع السلاح . واقتصر بعضها على طرح القضايا العامة ليناقشها الأعضاء ، ويتخذ بعض المنظمات دور « الكتلة الضاغطة » وتجعل موقفها محسوسا به .

وبين التعقيدات الكثيرة ، وصراعات المصالح فى المجتمعات الصناعية ، تلعب هذه الاتحادات الطوعية دورا لا غنى عنه فى تشكيل الرأى والتعبير عنه . والتمثيل السياسى – باستثناءات قليلة – يعتمد على التقسيم الجغرافي ، ولكن القضايا الهامة كثيرا ما تمس مصالح الناس فى مختلف المناطق الجغرافية ، كما أن المناطق الجغرافية قد يعوز سكانها الاتساق والتجانس . وهنا نجد أن المنظمات الطوعية يمكن أن تكون احدى الوسائل التى تستطيع بها هذه المصالح أن تعبر عن نفسها سياسيا . وفى الفترات التى تتخلل الحملات الانتخابية تقوم هذه المنظمات الطوعية بتسجيل آراء الناخبين .

وثمة أداة أكثر حساسية لتسجيل الاتجاهات العامة بين فترات الانتخاب ، هى معاهد الاحصاء التى استخدمت على نطاق واسع فى الربع الثانى من هذا القرن . وتؤخذ هذه الاحصاءات على أساس عينات تختار بمهارة ، وبذا تجعل المشرعين على علم بحقيقة اتجاهات الرأى العام وتظهر الزعماء الحزبيين على بعض الاتجاهات التى ينتظر أن يتخذها التصويت المنتظر ، وان كانت هذه الاستفتاءات لا تظهر فى العادة الاختلافات فى العمق والتعصب فهى عادة لا تفرق بين الآراء التى تؤخذ أخذا خفيفا والآراء التى تعبر عن معتقدات قوية .

٣ ـ البناء التشريعى :

ان نمو الدولة المشرعة بوظائفها الموسعة قد احدث تغيرا فى النظم التى تعمل عن طريقها الهيئات التشريعية . فبينما استمرت الاجراءات التقليدية فى كل من هذه الهيئات فيما يتعلق بالتصويت والمناقشة أخذ العمل الأكبر للهيئات التشريعية ينتقل شيئا فشيئا من قاعة المجلس الى حجرات اللجان . وقد حدث هذا بشكل خاص حيث يوجد فصل بين الوظائف التشريعية والوظائف التنفيذية كما هى الحال فى الولايات المتحدة ، أو حيث يوجد نظام تعدد الاحزاب كما هى الحال فى فرنسا . اما في نظام الحزبين ومجلس الوزراء المسئول كما هو الشأن فى بريطانيا فلا يزداد الالتجاء الى اللجان البرلمانية فى الاجراءات العادية لاعداد التشريعات . ويتزايد الاعتماد على ما يجريه الحزب الحاكم من دراسة واعداد ، ولكن توجد فى بريطانيا أيضا بعض اللجان التشريعية .

وليست اللجان بأية حال ظاهرة جديدة من ظواهر البناء البرلمانى . فان الهيئات التشريعية كانت دائما تفوض مسئولياتها عن بعض الأبحاث والتحقيقات الخاصة الى لجان ، أو تستخدم اللجان لمراجعة بعض جوانب التشريع المقترح قبل عرضه للمناقشة العامة . وانما تتمثل الأهمية الجديدة للجان التشريعية فى توسيع نطاق هذه الوظائف .

فضخامة حجم التشريعات المقترحة لا تتيح لكل عضو فى الهيئة التشريعية أن يدرسها بكفاءة ، وأن يستوعبها ويقيمها فى دقة . ففى الولايات المتحدة يدرس الكونجرس ١٥٫٠٠٠ مشروع قانون تقريبا فى دور انعقاد من سنتين . وثمة أمر هام آخر هو أن موضوعات التشريعات يتزايد تعقيدها وتخصصها بحيث لا يستطيع غـــير خبير ان يفطن الى المسائل السياسية الكامنة فيما قد يبدو مجرد اختلافات صغيرة فى الصياغة . ولقد مكن نظام اللجان عددا قليلا من الأعضاء من أن يكونوا على معرفة بكل جزئيات التشريع ، وبذا أتاح للمجلس فى مجموعه أن يتصرف تصرفا مسئولا على أساس دراسات اللجان وتوصـــياتها . وفضلا عن ذلك فان اللجان التى تعرف حق المعرفة التشريع فى ميدان بذاته ، تستطيع أن يكون لها رأى في خطوات تنفيذه وبذا تعطى حقيقة المسئولية الشاملة للهيئة التشريعية أمام الناخبين عن ادارة شـــئون الدولة .

وهكذا أصبحت الوحدات العاملة التى تحملت العبء الأكبر فى العمل التشريعى هى اللجان التشريعية . وحينما يتطلب فحص التشريع

المقترح الاستنارة بآراء المواطنين ، او طوائف معينة من المواطنين ، من ذوى المعرفة الخاصة او الاهتمامات الخاصة ، كما يحدث فى الكونجرس الامريكى ، فان هذه اللجان تكون بذلك طريقا مباشرا للتعبير عن الرأى العام . ونظرا لأنها تشتمل على خبراء فنيين ومهنيين ، فانها تستطيع أن تقدم للمشرعين أساسا مستقلا للحكم العلمى فى المسائل الفنية التى تعرض على الهيئات التشريعية .

٤ ـ البيروقراطية :

غير أن أهم تطور تنظيمى فى الدول الديمقراطية ، لم يكن فى الجهاز الانتخابى أو التشريعى ، ولكن فى الجهاز التنفيذى ، مع نمو الادارة البيروقراطية . ومع أن جذور البيروقراطية الحديثة تمتد الى القرن التاسع عشر ، حين بدأ الاعتراف بنظام الخدمة المدنية فى الدول الديمقراطية بامريكا واوروبا ، فقد كان ظهورها كقوة كبيرة من سمات القرن العشرين ، واليك أرقام قليلة تدل على حجم التغيير الذى حدث. فى سنة ١٨٥٥ بلغ عدد العاملين فى الخدمة المدنية في المملكة المتحدة ، بما فيهم سعاة البريد والبوابون وسعاة المكاتب أقل من ١٨٫٠٠٠ ، وبعد مائة عام بلغ عدد الفئات المذكورة ما يزيد عن ٧٠٠٫٠٠٠ . وفى عام ١٩٠٠ كان عدد العاملين فى الحكومة الفدرالية بالولايات المتحدة نحو ٢٠٠٫٠٠٠ شخص . وفى منتصف القرن زاد عددهم على المليونين.

وكان التغيير فى طابع الدولة السبب فى كبر حجم البيروقراطيات. فبعد أن كانت الدولة لا تعنى الا بالتشريع للسياسات العامة ، وكفالة الأمن والنظام ، أصبحت دولة ادارية تعنى بالتنفيذ التفصيلى للسياسة فى موضوعات يتزايد حجمها وتنوعها باستمرار . وهذا يتطلب فى كل المستويات جيشا جرارا من الموظفين المدربين ، القادرين على الاشراف على تنفيذ القرارات الحكومية في كل ركن من أركان البلاد ، وأدى هذا الى انشاء جهاز ضخم لم يكن لدى أى دولة فى الماضى وسيلة لانشائه أو الاشراف عليه . وذلك أن توسيع نشاط الدولة قد تضمن طرازين رئيسيين من الوظائف : ـ الطراز التنظيمى وطراز تنفيذ العمليات . فمن أجل احتواء القوة المتزايدة للصناعات الكبرى ، ولتنفيذ التشريعات الوقائية ، وللاشراف على حركة المرور ، وتنظيم حركة المبانى ، وغير ذلك من شتى جوانب الحياة الحديثة ، صارت الدولة تتدخل فتصدر التعليمات ، وتقيم هيئات ادارية لتنفيذها وهذه الهيئات لا تقتصر على

القيام بالوظائف الادارية ، بل تقوم أيضا بوظائف شبه تشريعية ، مثل وضع القواعد داخل الاطار الذى يقرره القانون ، وكذلك تقوم بوظائف شبه قضائية لتقرير ما اذا كان قد حدث اخلال بهذه القواعد أم لا (١٤).

كذلك صارت الوكالات الحكومية تقوم بعمليات مباشرة فى كثير من الميادين ـ فى اقامة السدود وانشاء الطرق ، وما لا يحصى من الأعمال العامة ـ وصارت المشروعات الحكومية تتسع لتستوعب أنشطة كثيرة شديدة التنوع ، مثل النقل والمواصلات والتعدين وبناء السفن وتوريد الكهرباء وتوزيعها وانشاء المستشفيات والعيادات وكثير من منظمات الرعاية الاجتماعية ، وكذلك اقامة المنشآت العسكرية التى تضخمت بشكل كبير ، بما تتطلبه من أوجه للنشاط فى البحث العلمى وانتاج الأسلحة .

والبيروقراطيات التى تضخمت لتأدية هذه الأغراض لا تحتاج فقط الى كفاية كبيرة فى الادارة ، بل تحتاج أيضا الى عدد كبير من المهارات الخاصة المتصلة بالأنشطة والخدمات الجديدة والمتخصصة . ولقد حاولت نظم الخدمة المدنية التى بدأت فى القرن التاسع عشر أن تضع الوظائف الادارية خارج نطاق السياسة الحزبية والمحسوبية ، وأن تشغل هذه الوظائف على أساس الكفاية . واشهر هذه النظم النظام البريطانى ، وقد جعل المؤهلات اللازمة لمعظم المناصب هى المعلومات العامة الواسعة ، والذكاء ، والاستقامة ، على افتراض أن طبيعة الادارة العامة تجعل صاحب هذه قادرا على تنفيذ السياسة المقررة بأمانة ، وان يتصرف فى كل المواقف التى قد تنشأ ، وأن يتزود وهو فى الوظيفة بكل ما قد يحتاج اليه من معلومات خاصة .

ولكن الميادين البالغة التخصص والفنية التى تسلل اليها نشاط الدولة ، تحتاج الى ما يزيد عن مجرد الثقافة العامة والذكاء والاستقامة تحتاج الى مهندسين ، وعلماء في الطبيعة ، واقتصاديين ، وأطباء ، ورجال احصاء ، وعدد كبير من المختصين الآخرين . فلما آخذت البيروقراطيات الجديدة يشغل وظائفها الاخصائيون الفنيون المشغولون بأنواع جديدة من المهام ، نشأت مشكلات تنظيمية ووظيفية جديدة . بل أن الادارة العامة نفسها أخذت طابع ميدان متخصص من ميادين المعرفة ، يحدد العلاقات بين المهتمين بالجوانب الفنية لنشاط معين ، والمسئولين عن البناء التنظيمى واتخاذ القرارات الادارية .

كذلك ابتكرت أشكال تنظيمية جديدة لتنفيذ أنشطة محددة ، ولقد أخذ التوسع فى البيروقراطيات أحيانا شكل توسع فى المصالح الادارية العادية ، وانشاء أقسام جديدة ، كلما تطلب الأمر . ولكن حيث كانت الحكومة تقوم بأنشطة اقتصادية ، أو تدخل ميادين مختلفة اخرى من ميادين العمل ، فان المصلحة الحكومية العادية ، مهما تكن حسنة الادارة ، لم تعد التنظيم الذى يفى بالفرض فيما يظهر . وكانت النتيجة انشاء هيئات مستقلة وهيئات شبه مستقلة للوفاء بهـــذه الأغراض الخاصة .

والنظام الذى يتبع على أوسع نطاق هو الهيئة المستقلة المنشأة بمقتضى قانون خاص ، والمزودة بسلطات واسعة وان كانت محددة ، والتى تعمل الى حد ما كجهاز تابع للدولة ، وله بيروقراطية خاصة به وفى حدود الخطوط العامة للسياسة التى تضعها السلطة التشريعية تعمل هذه الهيئات دون تدخل من أحد . وســـلطة وادى التنسى بالولايات المتحدة وهيئة خطوط الطيران البريطانية أمثلة لهـــذه الهيئات . وفضلا عن ذلك فقد أنشئت أيضا مؤسسات حكومية شبه مستقلة ليس لها استقلال رسمى بمقتضى القانون ، ولكنها مستقلة عملا عن الفروع الأخرى للحكومة ، وهى مسئولة عن مهمات محددة ، والأمثلة على ذلك مؤسسة الفحم ، ومؤسسة الكهرباء فى بريطانيا ، وكثير غيرها من المؤسسات المشابهة فى بلاد أخرى . ولقد اتبع هـذا النظام على نطاق واسع لادارة الصناعات المؤممة . والنموذج الثالث هو الشركة المستقلة ، المقامة على غرار الشركة الخاصة فى ظل قانون الشركات ولكن اغلب أسهمها ان لم يكن كلها ، ملك للحكومة ومهما يكن الشكل فهناك ميزتان بارزتان بالنسبة لكل هذه النظمات ، اولاهما أن أساس هذه المنظمات الجديدة هو أنها مفوضة بسلطات من الدولة . فهى فى الواقع أشبه بقسم لا مركزى يؤدى وظيفة من وظائف الدولة . والميزة الثانية ان هذه المنظمات نفسهـــا قد أوجدت بها بيروقراطيـــات واسعة النطاق ، وبذا فهى تؤدى الى نفس الاتجاهات التى تلاحظ فى أجهزة الدولة للادارة المباشرة .

ولقد سلكت التغييرات التى حدثت فى بناء المنظمـــات الادارية الحكومية نفس الخطوط التى اتبعتها الصناعة فى تطـــورها ، بحيث صارت الى شركات كبرى . ولقد سبق أن لاحظنا ما حدث من تغيير

وانتقال من الوحدات الصناعية الصغيرة نسبيا الى الشركات الكبرى. ولقد اتبعت الدولة مبادىء مشابهة في نشاطها الاقتصادى والصناعى وأوجدت أشكالا تنظيمية مشابهة ، مما جعل الدولة الحديثة فى مناطق كثيرة تبدو وكأنها مجموعة من الشركات الكبرى ، تنسق فيما بينها السلطات السياسية التقليدية ، كما تكفل المحافظة على القانون والنظام وادارة العلاقات الدولية .

وفى الوقت نفسه كانت الهيئات المستقلة وشبه المستقلة من الوسائل التى حاولت بها الدول الديمقراطية أن تحتفظ بقدر من التنوع وحرية العمل ، وهى من الأمور الأساسية لمبادئها من حيث هى دول ومجتمعات . فرغم كبر هذه الوحدات وبيروقراطيتها فانها أصغر بكثير من المنظمة الادارية الكبرى وهى الدولة بأجمعها . فهذه الهيئات التى خولت قدرا من السلطة والاستقلال فى مشروعاتها انما هى وسيلة ابتكرتها الدول الديمقراطية الليبرالية ، واستطاعت بفضلها أن تجتنب البناء الموحد ، ومظهر التجنيد الضخم لشعوبها ، وذلك على الرغم من الاتساع البالغ لنشاطات الدولة .

والبيروقراطيات ، سواء أكانت حكومية أم شبه مستقلة ، تعمل نظريا تحت السلطة النهائية والاشراف النهائى للأجهزة السياسية للدولة ، التى تعبر عن سيادة الشعب . وفى الدول ذات النظام البرلمانى يمارس هذا الاشراف مباشرة عن طريق مسئولية مجلس الوزراء ، الذى يقف على قمة البناء الادارى امام البرلمان وحيث يسود النظام الرئاسى، ويكون على راس السلطة التنفيذية رئيس الجمهورية الذى انتخبه الشعب ، وهو مسئول أمام الشعب ، فهذا الجهاز يكون مستقلا عن السلطة التشريعية . ومع ذلك فان هذه السلطة التشريعية تمارس اشرافا واسع النطاق عن طريق التشريع والرغبات التى تبدى أثناء المناقشات ، وسلطة التحقيق ، وبخاصة عن طريق اقرار ميزانيات الوكالات الادارية .

وأيا ما كان الأمر فان تزايد استقلال البيروقراطية كان من المعالم الرئيسية للقرن العشرين ، فخلال هذه السنوات لم تصبح البيروقراطية عمليا خادما للدولة ، لمجرد تنفيذ السياسات التى تقررها سلطات أخرى ، بل صارت عنصرا فعالا ، مشاركا فى وضع سياسة الدولة ، وممارستها لسلطانها .

وليس من الصعب التعرف على أسباب هذا التطور · ففي أفضل الأحوال لا توجد هيئة تشريعية بوسعها أن تولى عنايتها للتفاصيل الضخمة التي تتضمنها ادارة دولة الرفاهية ، وان كان التأثير الفعلى لسياسة الدولة على المواطن تتضمنه قرارات تتعلق بهذه الأمور التفصيلية ذاتها ، وتصير هذه العناية أكثر استحالة حيث تكون الخدمات أو أوجه النشاط على أعلى مستوى من الفنية ، فهنا يميل الفنيون الذين يعملون فى الادارة الى أن يعتبروا أنفسهم أصحابها ، وحيث يوجد قدر من التخطيط الاقتصادى تصير حتى القرارات السياسية الكبرى نفسها ذات طبيعة فنية جدا ، بحيث يتحتم أن تصدرها وكالة التخطيط ، لا الجهاز السياسى . كما أن أمور الدفاع قد وضعت عائقا آخر فى طريق اشراف الجهاز السياسى . فالحرب الحديثة أصبحت تتضمن كل جوانب الحياة ــ معظم الصناعات والبحث العلمى وأشكال مختلفة من التدريب ، فأصبحت أقسام كبيرة فى النشاط القومى لابد أن يعهد بها الى بيروقراطية متخصصة · وحتى خارج العمل الذى يتضمن الأسرار العسكرية بنوع خاص ، فان شئون الدفاع تغطى مجالا واسعا من النشاطات · وصارت الدولة السياسية ــ مهما تكن النظرية التى تقوم عليها ــ لا تمارس الا اشرافا محددا · (١٥)

٥ ــ القانون الادارى :

وثمة جانب كبير من هذا التطور هو ظهور عدد كبير من القوانين الادارية لا يقوم بصياغتها وتفسيرها رجال القانون ، بل المصالح الادارية ويتزايد عدد التشريعات البرلمانية فى كل البلاد الديمقراطية الليبرالية التى تترك سلطات وضع اللوائح ــ التى لها بالفعل قوة القانون ــ لوكالات ادارية . واللوائح نفسها يقوم بتفسيرها وتطبيقها الموظفون لا المحاكم . ففيما يتعلق بضريبة الدخل ، أو التعليمات الخاصة بالمبانى، أو رقابة النقد ، أو مستويات العمل وعلاقاته ، أو تلقى مزايا التأمين الاجتماعى ، أو المعونة الاقتصادية ، أو الخدمات العامة ــ فيما يتعلق بهذه الأمور يجد المواطنون انفسهم ازاء قرارات اتخذها موظفون غير معروفى الاسم ، يقررون اجراءاتهم بنفسهم ، ويقومون بتفسير الحق والامتياز ، ويصدرون القرارات التى لها قوة القانون دون اتباع « المسلك القانونى الصحيح » الذى تقرر عموما فى هذه البلاد كحق من حقوق المواطن .

ومن المعترف به أنه يمكن افساد السلطة البيروقراطية ، والاجحاف بالحقوق المدنية نتيجة لهذا التطور فى القانون الادارى . ولكن هنـاك استحالة فى أن تشرع كل القوانين ، ويعهد بتنفيـذها الى الاجراءات البطيئة للمحاكم المثقلة بالعمل ، وهذا أمر معترف به أيضا ، وفى هذه الظروف تبذل الجهود لتقرير حدود للقرارات الادارية ، لمنع اتخـاذ اجراءات تعسفية ، نتيجة لتطبيق المستويات والاجراءات الجديدة ، وفى بعض الأحيان تقام محاكم خاصة ، أو يعهد الى المحاكم العـادية ، بمراجعة القرارات الادارية .

وثمة مثال مثير لمحاولة ابقاء القرارات الادارية فى حـدود لا تتجاوزها . فقد قررت المحكمة العليا للولايات المتحدة سنة ١٩٣٥ بطلان التشريع الذى كان قد صدر للانتعاش الاقتصادى فى سـنوات الكساد ، وقررت أن هذا التشريع غير دستورى ، ومن ثم فهو باطل ، لأن الكونجرس قد فوض السلطة فيما هو فى الواقع سلطات تشريعية الى وكالات تنفيذية ، دون بيان كاف للسياسة ، وبدون وضع قيـود على السلطة الادارية . وفى بريطانيا وضع أحد كبار المشرعين سـنة ١٩٤٢ (*) (فيما يتعلق بتخطيط المدن) المبادىء الخاصـة بتعـويض ملاك العقارات الذين تأثرت أملاكهم بأعمال الهيئات الادارية وصار هذا هو أساس التشريع الذى تسترشد به الوكالات الادارية فى عملهـا . وأنشئت محاكم خاصة فى عدد من البلاد للنظر فى منازعات العمل أو الشكاوى من الضرائب .

ولقد دخـل ميدان عامان الى الاجراءات الادارية : مبـدأ القابلية للتعيين ومبدأ التظلم . فحيثما اشتمل الأمر على أى نوع من الخدمات أو المنافع ، فان النشر الكامل للمواصـفات المطلوبة هو الضمان الأول ضد التعسف والمحسوبية . وأنشىء جهاز للنظـر في الشكاوى من القرارات الادارية . وكان هذا اما مكتبا خاصا داخل الوكالة نفسها ، وأما المحاكم العادية فى بعض الأحيان .

بهذه الطرق تحاول الدول الديمقراطية الليبرالية أن تمنع النشاط الادارى المتنوع الواسع النطاق من أن يتحول الى نوع جـديد من الاستبداد . ولكن غير قليل من النـاس قد أعربوا عن خوف مؤكد من أن يؤدى تشعب نشاط دولة الرفاهية واتساعه الى القضاء على الفردية

(*) Final Report of Expert Committee on Compensation and Betterment (1942).

والابتكار ، وهما اللذان منحا الحضارة الاوروبية كثيرا من صـــفاتها الديناميكية . ولم يكن قد اعترف حتى منتصف القرن بالأهمية الكاملة لما يحب بعض الناس أن يصفوه « بنظام البيروقراطية البرلمانية » والأثر الكامل لنمو القـــانون الادارى وســـلطانه على المواطنين فى الدولة الديمقراطية .

٦ ــ الهيئة القضائية :

فى هذه الأثناء واصلت الهيئة القضـــائية أداء دورها التقليدى في تنظيم العلاقات بين الأفراد على أساس القانون المدنى والتجارى وقانون الاحوال الشخصية ، وفى المحـــافظة على المجتمع والدولة عن طريق تطبيق القانون الجنائى ، وفى المحافظة على حقوق الفرد أمام الدولة عن طريق نظم مثل نظام هابياس كوربس Habeas corpus الذى يقضى باطلاق سراح من تثبت براءته فورا ، وهو من دعائم الحرية الفـردية للمواطنين ؛ وغير ذلك من عناصر « الاجراءات القانونية السليمة » التى تقوم فى بعض الأحيان على صيانة الدستور ضد نزوات الأغلبية .

والمحاكم اذ تؤدى هذا الدور المستمر فى ظروف الدولة الحديثة تواجهها دائماً مواقف جديدة ليست لها سوابق خاصة ، كما تواجههـــا الحاجة الى أن تأخذ فى اعتبارها أمورا تخرج عن دائرة اختصاصها ، اى دائرة ما سلف اعتباره من اختصاص القانون . فالعلاقات الجـــديدة التى خلقتها الشركات الكبرى لا يمكن أن تغطيها المفاهيم التقليـــدية والمبادىء التقليدية المتعلقة بالملكية والشخصية القانونية . والعلاقات بين العامل وصاحب العمل لا يمكن أن تندرج كلها فى الاطـــار الضيق للعقد التجارى الذى يبرم لشراء العمل أو بيعه . ووجدت المحـــاكم نفسهـــا مضطرة الى أن تأخذ فى اعتبارها الحقيقة الاقتصادية ، كما تأخذ بالشكل القانونى ، فلا تغفل المضامين الاجتماعية لما يعرض أمامها من منازعات، بل لا تغفل معنى « الحماية المتساوية للقانون » بمعناها السيكولوجى.

وبرغم الاتساع الكبير في نطاق القانون الادارى ، ظلت الهيئـــة القضائية المستقلة حصنا من حصون الدولة الديمقراطية الليبرالية . انها تعمل فى بعض الأحيان كقوة محافظة ، بطيئة فى الاستيعاب ، وفى منح الشرعية للاتجاهات الاجتماعية الجديدة . ولكن ليس من قبيـــل المصادفة انه فى كل بلد حلت فيه نظم الاستبداد الجماعية محـــــل الديمقراطية كان النظام القضائى من أول النظم التى يتناولها التغيير.

كما أنه ليس من قبيل الاتفاق أن النظام القضائى الموروث عن دولة مستعمرة ، أو المنقول اختيارا عن الغرب ، كان من الدعائم الرئيسية التى حاولت الدول الجديدة ذات الدساتير الديمقراطية أن تقيم عليها بنيانها لتحقيق آمالها الديمقراطية ٠

٧ ـ المشكلات التى تواجهها الدول الجديدة فى تطبيق النظم الديمقراطية:

اتخذت الدول الجديدة فى آسيا وأفريقيا ، باستثناء عدد قليل منها ، شكلا من أشكال الديمقراطية البرلمانية عند استقلالها ، مع مراعاة بعض الفروق المحلية ٠ فقد صاغت دساتيرها على غرار دساتير الديمقراطيات الأقدم منها عهدا ، وأنشأت اجراءات انتخابية ونظما برلمانية واجهزة ادارية تستهدف وضع هذه المبادىء موضع التنفيذ . وقد واجهتها أثناء ذلك مشاكل كبرى فى الحكم ، زاد من حدتها وجود مشاكل اساسية بهذه البلاد هى مشاكل التنمية الاقتصادية والاجتماعية ووجدت دولة بعد أخرى أن النظام الذى اتبعته لا يسير بنجاح ، وكثير منها ، باستثناء الهند ، ألغت أو أوقفت أحكام دساتيرها الأصلية ، وكان هذا عادة بزعامة العسكريين ، ابتغاء اقامة أشكال جديدة تلائم تجارب هذه الشعوب واحتياجاتها ٠

فى هذه البلاد لا يوجد تقليد محلى راسخ وراء الحكومة الجمهورية أو النظام الديمقراطى القائم على الممثلين المنتخبين ٠ وفى معظم هذه الحالات كانت تعوز البلاد التجربة والخلفية السيكولوجية اللازمة لتطبيق هذه النظم . فالمضامين الكاملة للنظام البرلمانى ، بمجالس وزرائه وهيئاته التشريعية وما الى ذلك ، قد فهمت فهما خاطئا ، ليس فقط من جانب كتل الشعب بل غالبا ما أسىء فهمها من جانب القادة انفسهم ٠

والمشكلة الرئيسية التى واجهتهم هى مشكلة الطاعة . كانت سلطة الملك أو نائب الملك مفهومة جيدا اذ كانت فى الواقع تقبل كمسلمة من المسلمات . فالملك تحف بمنصبه الجلالة والمهابة ، وعلى حد الخاتم التقليدى الذى كان يختم به أباطرة الصين أوامرهم (ان على عامة الشعب أن يرتعدوا ويطيعوا) اما السلطة فى دولة ديمقراطية ، أى ارادة الشعب ، أو على نحو أخص ارادة الأغلبية كما تعبر عنها البرلمانات ، فهى أمر غير مفهوم بوضوح وغير مقبول ، فطاعة الأغلبية ليست أمرا مسلما على الاطلاق ، ولهذا يحدث عليها تمرد مزمن أو عرضى ، ويحدث

استيلاء على السلطة بوسائل غير دستورية ، وحل للهيئات البرلمانية، أو اسقاط للوزارات بواسطة الحاكم أو رئيس الجمهورية ليتغلب على حكم الأغلبية . وقد وقع هذا فى دولة جديدة بعد أخرى خلال السنوات العشر الأولى من انشائها ، ويعتبر هذا دليلا على ان مبدأ الخضوع للأغلبية لا يزال أمامه وقت قبل ان يصبح الأساس العملى للحكم فى كثير من الدول الجديدة .

وتبدو هذه المشكلة فى صورة حادة فى مسألة سيادة السلطة المدنية على القوات المسلحة . فسيادة السلطة المدنية على السلطة العسكرية فى الدولة الديمقراطية انما تعتمد على روح ديمقراطية عميقة واسعة الانتشار بين الناس . وحتى فى كثير من الدول الديمقراطية القديمة المستقرة قام الجيش فى أوقات مختلفة من تاريخها بتحدى السلطة المدنية ، وحيث لا تعمل النظم الديمقراطية على نحو سليم تكون دائما مهددة من جانب السلطة العسكرية . وفى الدول الحديثة حيث الناس قد طال تعودهم على قبول حكم القوة الفعلية يتفاقم هذا الخطر ويتزايد الخطر على بقاء النظم الديمقراطية .

وادارة الدولة الديمقراطية تعتمد على سلسلة من المؤسسات تعتبر غريبة على تجارب الدول الجديدة وعاداتها فى التفكير . وابرز الأمثلة على ذلك نظام « المعارضة الموالية » وتتكون من حزب أو أكثر وتعبر بحرية عن معارضتها لسياسة الحكومة ، وتحاول الحصول على الأغلبية لأفكارها . واذا نجحت فى ذلك كان معناه قبول القيام بمهمات الحكم والمسئولية عن ادارة شئون البلاد . وفى كثير من الدول الجديدة، التى جرت التقاليد فيها على أعتبار المعارضة مرادفة للافساد والتضليل، لم يكن من السهل على من هم خارج الحكم ان يلتمسوا الوصول اليه بطريقة مسئولة ، أو كما يفعل المسئولون .

وفضلا عن ذلك فان الأنظمة الديمقراطية تتطلب اشتراك الناس فى الحكومة على كل المستويات . فالنظام البرلمانى الذى يحاول أن يعمل من مركز السلطة فقط ، ولا يكون للمستويات المحلية خبرة بالادارة الديمقراطية ، لا يمكن أن تكون له حقيقة كبرى عند من يشتركون في الانتخابات . وفى هذا الصدد نجد ان الدول التى كانت تتكون منها امبراطورية الهند لها ميزة على الدول الجديدة الاخرى ، لأنه قد طبق فى هذه البلاد قدر من الحكم الذاتى فى ثمانينيات القرن الماضى ، وبدأ تعود الناس على المفاهيم الديمقراطية والاجراءات

الديمقراطية ، وتعلموا كيف يطبقونها محليا قبل أن يطالبوا بتطبيقها على نطاق أوسع . ولكن هذا النوع من الخبرة لم يكن موجودا على العموم خارج الهند . فحتى فى باكستان فان الجهود المبدئية التى بذلت فى سبيل انشاء نظم ديمقراطية على المستوى القومى كانت قصيرة الأمد ، وسرعان ما أطاح بها انقلاب اقام بناء اداريا بزعامة عسكرية . وقد أعلنت الزعامة الجديدة اقامة أساس لحكم ديمقراطى سليم ، وقد أعادت جزئيا الانتخابات الديمقراطية محليا كوسيلة للتدريب ، حيث يستطيع الباكستانيون أن يحصلوا على الخبرة التى تسمح لهم مع الزمن باعادة النظم الديمقراطية على المستوى القومى .

كذلك تعوز هذه الدول عملية توليد الأفكار وتكوين الرأى العام. فالنظم البرلمانية تستهدف تنفيذ الأفكار التى تتولد فى المجتمع كله ، ولا تكون المصدر الوحيد للفكر . وفي الديمقراطيات المستقرة تتشكل البرامج القومية والسياسية العامة فى اتساعها وتنوعها بواسطة نشاط ثقافى اختيارى تقوم به مجموعات نشيطة ، ويكون المثقفون فيه ترسانة للأفكار والمناقشات العامة ، تختبر الأفكار وتصقلها ، ولكن نظم التعليم العالى لم تكن موجودة ، أو كانت حديثة جدا ، فى معظم الدول الجديدة، وفى أثناء حكم الاستعمار لم يكن للمراكز الثقافية الموجودة حرية الاشتغال بالسياسة ، ومناقشة المسائل العامة . وكانت الأحزاب قد أقيمت قبل التحرير ، لكى تضطلع بمهمة الجهاد من أجل الاستقلال . فصارت المشكلة هى : ــ هل تستطيع هذه الأحزاب أن تتحول الى منظمات دائمة للاشتراك فى الحكم الديمقراطى ، أو هل يمكن استبقاء الاهتمام الواسع بين الناس بالشئون العامة بحيث يكفل بقاء الجهاز الديمقراطى يعمل على نحو سليم ؟

على أن المشكلة الأساسية حقا بين كل المشاكل قد نشأت من أن الديمقراطية ليست مجرد مجموعة من النظم السياسية ، ولكنها مركب كامل ، انها طريق فى الحياة . وفى كل من الديمقراطيات القديمة كان للأشكال السياسية المميزة صلة بجوانب أخرى من جوانب الحياة القومية . فالاختلافات بين البلاد مثل سويسرا وفرنسا والأراضى الواطئة وبريطانيا والولايات المتحدة تدل على المدى الذى كانت به النظم الديمقراطية الخاصة بكل دولة عنصرا وجزءا لا يتجزأ من البناء الكامل للمجتمع . وانه لمن جوهر الديمقراطية ، فضلا عن ذلك ، أن تتغير مفاهيمها ونظمها باستمرار تبعا لتغير المجتمع ، فالحرية والمساواة

يجب ان يكون لهما معان مادية مختلفة فى القرن العشرين عما كانت عليه قبل ذلك بمائة سنة .

والمشكلة القائمة فى الدول الحديثة هى أن الديمقراطية قد تبقى مجرد ايديولوجية مستوردة ــ نوعا من الديمقراطيات التى وردت بالكتب . والاشكال الخاصة للنظم الديمقراطية التى اتبعتها معظم هذه الدول قد صيغت على غرار النظم الديمقراطية للدول التى كانت تستعمرها . ولا يكاد يكون لها علاقة بالصروح الاجتماعية التى فرضت عليها . وبقدر قبول الدول للأشكال السياسية ، بدون تفهم للقيم الديمقراطية على أساس حياتهم الخاصة ، يكون الخطر من أن تظل النظم الديمقراطية مجرد محاكاة مصطنعة ، ولا تعدو أن تكون واجهة تخفى وراءها حكم الديكتاتورية ، أو الأوليجاركيه (حكم الأغنياء) أو الفوضى . وهناك شواهد فى بعض الدول الجديدة خلال هذه السنوات تدل على أن هذا الخطر قد يكون حقيقيا .

والبيروقراطيات التى ورثتها الدول الجديدة عن عهد الاستعمار ، والتى اضطرت الى الاعتماد عليها فى أول الأمر ، تختلف فى عددها وخصائصها . ولكن فى كل الأحوال ، كان لابد من توسيعها واصلاحها الى حد كبير لتقدم الجهاز الضرورى للحكومة . وفى الخدمة المدنية فى المستعمرات ، بما فى ذلك الهند حيث بلغت الخدمة المدنية أقصى تطور ، كانت المناصب الكبرى ، كلها تقريبا وقفا على أبناء الدولة الحاكمة ، وفى ادارات الخدمة المدنية الأقل تطورا ، كما فى المستعمرات الفرنسية أو السودان ، كان عدد أبناء البلاد الذين شغلوا الوظائف الصغرى نفسها قليلا . وفضلا عن ذلك فان مجال الادارة الاستعمارية محدود للغاية ، لا يكاد يتجاوز جباية الايراد الحكومى ، وكفالة القانون والنظام ، وتهيئة الظروف المواتية للتجارة . والمدى الواسع للوظائف والخدمات التى يجب تأديتها فى الدول الحديثة العهد بالاستقلال يقع كله تقريبا خارج نطاق اختصاص الخدمة المدنية فى العهد الاستعمارى.

لهذا واجهت الدول الجديدة مهمة مثلثة اذ كان عليها لكى تحافظ على صروحها الحكومية ، وتنجز التغييرات الاقتصادية والاجتماعية التى لا غنى عنها لتطورها ، أن تجد وأن تعد أشخاصا على مستوى كاف من المقدرة والتدريب والاستقامة ليشغلوا المناصب الكبرى ، وأن توسع نطاق الخدمة المدنية كلها توسيعا كبيرا وسريعا ، وأن تعد

هيئـــة من الفنيين من المتخصصين فى التكنولوجيا والادارة فى شتى الميادين لكى تقوم بالعمليات المتخصصة فى الدولة الحديثة ٠

وفي البلاد التى كانت فيها الطبقة المتعلمة قليلة العدد للغاية فى وقت الاستقلال ، كان من الضرورى أن يعول كثيرا على استخدام مديرين من الخارج بصفة مؤقتة ، كما حدث مثلا فى السودان ٠ وفى غيرها من البلاد ، وبخاصة الهند وباكستان بدرجة أقل كان هنـــاك عدد كاف من المتعلمين يمكن تجنيدهم للخدمة العامة وبذا يمكن احراز توسع كبير جدا فى العدد الكلى للعاملين ، واتباع نظام ناجح للترقية لشغل الوظائف الكبرى ٠ ولكن كانت هناك صعوبة شديدة فى ايجاد وتدريب الكفايات الفنية والادارية اللازمة ، حتى فى هذين القطرين ٠ فالهند التى ضاعفت من عدد مهندسيها فى السنوات العشر التى تلت الاستقلال قدرت أنها ستكون بحـاجة الى أن تزيد العدد بأربعة أمثاله فى الســـنوات الخمس التالية لملء وظائف المشروعات والخدمات الواردة بخطـــة التنمية ٠ ولكن معظم البلاد الأخرى كانت أشد فقرا بكثير من الكفايات والمهارات المطلوبة ، وهكذا نجد أن استقرار الدول الجديدة وتقدمها يعتمد الى حد كبير على السرعة التى تستطيع بها بنـــاء ادارة تتسم بالكفاية والدراية والأمانة بحيث تكفل حكوماتها الاستقرار الضرورى ، والأدوات اللازمة لتنفيذ السياسات القومية ٠

وفى نفس الوقت فان مجال النشاطات التى صـــار على الدول الجديدة أن تمارسها أوسع كثيرا من المجـال المطلوب فى الديمقراطيات القديمة ، ذلك أنه نظرا لعدم وجود أو عدم كفاية المشروعات الخاصة الكثيرة ، والخدمات الاختيـارية العديدة التى تتوفر فى الخارج ، لم يـكن أمام الدول الجديدة اختيار فى أن تنفذ عن طريق الحكومة أشياء كثيرة تتم ، أو يتم جــزء على الأقل ، بفضــل الوكالات غـــير الحكومية فى البلاد الأخرى ٠

ولقد وقعت الدول المتأخرة اقتصاديا فى دائرة خبيثة ٠ فالطاقة الانتاجية للمجتمع لم تنم بدرجة كافية بحيث تمكن الجمهور من أن يرعى مصالحه الخاصة ، وبدون خدمات الرفاهية لتحسين مستويات المعيشة لم يكن من المتوقع أن تزيد الطاقة الانتـاجية ٠ وبهذا كان على الدولة أن تنفذ الخدمات على نطاق قومى ، وأن تزيد فى الوقت نفسه من الانتاج الصناعى وغيره ٠ وهذا يتضمن انغماس الدولة فى كل أشكال النشاط ، من تنظيم الأسرة وتغذيتها ، الى خلق صناعات حديثة ، والقيام بدور فعال فى الانتاج

وهى لا تتطلب تحسين الصحة العامة والتعليم والاسكان فحسب ، بل تهدف أيضا الى احداث تغييرات فى البناء الاجتماعى ، وفى المواقف ، وفى توزيع الأرض وغيرها من مصادر الثروة ٠

وفى الدول الحديثة العهد بالاستقلال كان لابد للدولة من أن تكون شمولية فى نشاطها ، تضع قوانين الزواج بينما هى تشجع أحدث المكتشفات العلمية ، وتحسن وسائل الطب الوقائى بينما هى تطبع وسائل النقل بالطابع الحديث ، وتحاول أن تقدم للشعب التعليم العام وتخطط لتنمية الحياة الريفية وتطويرها، تعنى بالتصنيع على نطاق واسع كما تعنى بتشجيع الفنون والآداب ٠ فخلق حياة جديدة فى المناطق الريفية مثلا لا يتضمن مجرد تنظيم جهاز حكومى جديد قادر على العمل على نطاق واسع ، بل يتضمن أيضا خلق قيادة غير رسمية فى المناطق المحلية ، فأصبحت نظم التدريب بالنسبة للعاملين على مستوى القرية ضرورية كضرورة نظم التدريب للفنيين . ونجاح خطط التصنيع على نطاق واسع لا يعتمد فقط على أحدث المعلومات الفنية ، بل يعتمد أيضا على ايجاد عنصر ادارى على مقدرة تنفيذية مدربة . فادارة شئون المال والائتمان على المستويات القومية والدولية ، والقدرة على محاربة الاتجاهات التضخمية التى لا مفر منها حيث ينظم الانفاق ــ هذه أيضا تتطلب تدريبا خاصا وقدرة خاصة ٠ فضلا عن ذلك فان المهارات والقدرات المطلوبة لتحقيق هذه الأغراض يجب أن تكون فى أعلى مستوى . ذلك أن المشكلات من كل جانب مشكلات فى منتهى الصعوبة والتعقيد ٠

وثمة جانب من جوانب النظم السياسية للدول الجديدة هو الدور الذى يلعبه القانون ٠ فحتى منتصف القرن العشرين كانت بعض المبادىء القانونية والنظم التشريعية المستقاة من القانون الأوروبى ، سواء قانون نابليون أو القانون العام الأنجلو سكسونى ، قد أدمجت فى النظم القانونية فى كل البلاد ، فيما عدا بعض البلاد الاسلامية ، وكذلك البلاد الشيوعية ٠ فبطريقة أو بأخرى فرض القانون الغربى على القانون القائم على العرف أو الدين فى البلاد غير الغربية ، أو حل القانون الغربى محل القانون المحلى ٠

وكان الأخذ بالقانون الغربى خارج العالم الغربى أكمل ما يكون فيما يتعلق بالقانون التجارى والبحرى ، اذ أنه يميل الى العالمية لأن هذه طبيعة التجارة ٠ أما القوانين الجنائية فقد أخذت تقترب من قوانين نابليون أو القوانين الأنجلو سكسونية فى القضاء الجنائى مع ما يرتبط به من اجراءات ٠ وميدان قانون الأحوال الشخصية وقوانين الأسرة التى تمس

قلب النظام الاجتماعى أقل القوانين تأثرا بالغرب وآخرها تأثرا به ، أما القانون الخاص بالأراضى ، سواء فيما يتعلق بالميراث أو نقل الملكية فغالبا ما يمثل موضوعا للصراع بين المبادىء القانونية القديمة والحديثة •

ولقد وصل القانون الغربى الى البلاد غير الغربية بطرق مختلفة ، فابتداء من القرن السادس عشر أرسى القانون التجارى الأوروبى قواعده حيثما استقرت الشركات التجارية ، وانتشرت جوانب أخرى من القانون الأوروبى فى هذه القواعد عن طريق المعاهدات والمحاكاة والاستعمار • وكان هناك نظام للامتيازات ، فكان الأوروبيون فى داخل الامبراطورية العثمانية يحاكمون بمقتضى القانون الأوروبى فى محاكم خارج أوروبا • وكان للأوروبيين امتيازات مماثلة فى بلاد اسلامية أخرى منها فارس ، ومصر ، ومراكش ، ثم العراق ، وفى الصين واليابان وسيام وأثيوبيا • وكان هذا القضاء الأوروبى يمد اختصاصه عموما الى ما يجاوز المنازعات بين الأوروبيين ، الى المنازعات التى تقع بين أجنبى ووطنى ، بل ويمتد الى المنازعات التى تقع بين الوطنيين الذين يعملون فى خدمة الأوروبيين •

ومع أن نظام الامتيازات كان نظاما بغيضا ، وكان الغاؤه هدف جهود الوطنيين ، فقد جعل المبادىء القانونية الأوروبية وما يصاحبها من اجراءات مألوفة لعديد من الناس فى هذه البلاد • وقد ألغى نظام الامتيازات ، أولا فى اليابان سنة ١٨٩٩ ثم ألغى فى كل مكان آخر تقريبا فى العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن ــ وحين ألغى كانت النظم القضائية للبلاد التى ألغى منها قد صارت قريبة الشبه بالنظم الأوروبية •

وقد اتبعت النظم الغربية القانونية فى بعض البلاد التى لم تقع تحت حكم الاستعمار وكان هذا جزءا من سعيها لأن تحقق لبلادها الطابع الجديد العصرى فى الحكم والحياة • وكانت اليابان أول دولة آسيوية أصدرت مجموعة من القوانين الجديدة القائمة على النظريات الغربية • فأصدرت قانونا جنائيا على غرار القانون الفرنسى سنة ١٨٨٢ ، ومجموعة قوانين مدنية وتجارية على غرار القوانين الألمانية والانجليزية سنة ١٨٩٩ ، ثم أدخلت سيام فى قوانينها جزءا كبيرا جدا من القانون الألمانى .

على أن هناك تجربة بالغة الاثارة والاكتمال هى محاولة تركيا احلال النظام الأوروبى محل النظام السائد بها وذلك على أثر ثورة أتاتورك عام ١٩٢٣ كان قدر كبير من القانون الأوروبى قد أدخل بالفعل على نحو مجزأ وغير منتظم خلال القرن التاسع عشر بما فى ذلك القانون الجنائى والقانون التجارى والقانون البحرى والاجراءات الخاصة بالقانون الجنائى والتجارى

كما أنشئت المحاكم المدنية . ولكن أتاتورك قام بحركة شاملة لطبع الدولة بالطابع الزمني والغربي ، وادخال اصلاحات اجتماعية ، وقضائية ، فأصدر قوانين للعقوبات والقانون المدني والتجـــاري والبحري والاجراءات المدنية والجنائية على أساس القوانين الايطالية والسويسرية والألمانية وتقرر اتباع القانون المدني السويسري في الميدان الذي لم يمسسه أي تغيير حتى هذا الوقت ، وهو قانون الأحوال الشخصية وقانون الأسرة . وألغيت المحاكم الدينية والقانون الاسلامي الغاء تاما .

وقد تمت عملية مختلفة عن هذه تماما في ايران ، كان الهدف فيهـا هو الربط بين القانون الغربي والقانون الاسلامي ، والتقريب بينهما بدلا من احلال أحدهما محل الآخر . وكانت الخطوات الأولى في عامي ١٩١٢ ، ١٩١٤ تستهدف اقامة جهاز قضائي على النمط الأوروبي ونظام للمحاكم التجارية ، ولكن المحاكم الدينية استمرت قائمة تؤدي مهمتها . وفي سنة ١٩٢٦ صدر قانون للعقوبات على أساس القانون الفرنسي . وبعـد ذلك بعامين صدر قانون مدني يقوم على أساس الشريعة الاسلامية ، ولكن مع تعديلات من القانون الفرنسي . واتبعت الاجراءات القانونية الفرنســية بالنســبة للقضايا المدنية والجنائية والتجارية . وطبق القـانون الاسلامي بعد ما أدخلت عليه المحكمة المدنية من تعديل ، كنظام موحد في طول البلاد وعرضها ، وليس على أساس التفسـير الفردي الذي كان يقوم به المجتهدون المحليون أو القضـاة الشرعيون ، وصارت كل اجراءات الزواج والطلاق تسجل في المحاكم المدنية .

وفي المنـاطق التي كانت تقع تحت النفوذ الاستعماري ، أصبحت النظم القضائية للدولة الحاكمة جزءا من الادارة الاستعمارية ، وان كانت في أندونيسيا لم تطبق الا على الأوروبيين أو غير الأندونيسيين . وكانت نتيجة ادخال القانون الغربي ملحوظة بشكل خاص في البلاد التي كانت تتكون منها الامبراطورية الهندية حيث كانت مبادىء القانون البريطـاني التجـاري والجنائي والمدني والاجراءات المدنية والجنائية قد أدخلت في بنية النظام الســياسي طيلة مائة سنة . وكان لطبيعة القانون العـام الأنجلو سكسوني علاقة بنتائج هذه العملية . فعلى النقيض من القانون المدني في النظم القضائية بالقارة الأوروبية لم يكن القانون العام الأنجلو سكسوني نظـاما يشتمل على قواعد قانونية ، بل كان مجمـوعة من الاجراءات للوصول الى الحقيقة ، وتسوية المنازعات ، طبقا للعرف أو للسوابق أو على أساس التشريع . وهكذا قدم مبادىء أساسية مثل المساواة أمام القانون واجراءات أساسية مثل « ابرز الجثة » هابياس كوربوس وقواعد الشــهادة

ولكنه لم يعدل في العلاقات التقليدية الا حيث يوجد تشريع • وأما قوانين الأسرة بالنسبة للهندوس والمسلمين فقد ظلت كما هي تقريبا •

وهكذا حصلت الدول التي كان يحكمها البريطانيون من قبل على مجموعة من المبادىء القانونية والاجراءات القانونية كما تعلمت أن التشريع وسيلة لاقرار علاقات جديدة ، وهي فكرة وضعتها موضع التنفيذ بمجرد حصولها على الاستقلال • ومما هو جدير بالملاحظة أن الدستور الهندى الصادر عام ١٩٤٩ قد عدد في مواده الخاصة بالقضاء المبادىء القانونية المختلفة مثل الهابياس كوربوس والكوورانتو Quo Warranto (سؤال المختص من الذى خولك أن تفعل هذا ؟) ، والمنداموس mandamus (أمر صادر من محكمة عليا باسم الملك) والكرتيوراري Certiorari (حق المحكمة العليا في الاطلاع على محاضر قضايا نظرت بمحكمة صغرى) • وهي من الاجراءات القضائية البريطانية • وبينما الدستور الاسلامى لباكستان الصادر سنة ١٩٥٦ يقرر انه لا يجوز أن يصدر أى قانون مناف لأحكام الاسلام ، فانه يقرر أيضا أن من حق المحاكم العليا أن تسن المبادىء القانونية نفسها فيما يتعلق بتنفيذ الحقوق الأساسية التى يمنحها الدستور أو لغير ذلك من الأغراض • هذه الدولة وغيرها من الدول الجديدة رأت في سلطة التشريع وسيلة لتغيير القانون التقليدى ، واستفادت من ذلك في ادخال مزيد من الاصلاحات الاجتماعية •

ولقد كانت المبادىء والاجراءات القانونية المأخوذة عن الغرب هى السائدة في جوهرها في أوروبا في القرن التاسع عشر • فالنظم القضائية والقوانين التقليدية ذات الطابع الدينى قد تعدلت بتأثير الأفكار الحرة التى سادت المشرعين في أوروبا في القرن التاسع عشر • وسواء منها ما أعد عمدا لانشاء الدولة العصرية ، أو ما تشربته الدول الجديدة اثناء الفترة الاستعمارية ، فقد كانت أدوات كبرى لتحقيق الاصلاح الاجتماعى ، وكانت المبادىء والعلاقات التى أرست قواعدها والاجراءات التى أنشأتها ذات أثر جوهرى جدا لادارة هذه الدول على النهج الديمقراطى الليبرالى أو ما نحا نحوه •

٣ ــ مؤسسات الدول الشيوعية

١ ــ الحزب الشيوعى :

أبرز مميزات الدولة الشيوعية ، والاتحاد السوفييتى هو النموذج الأول لمثل هذه الدولة ، هو الدور الذى يؤديه الحزب الشيوعى • فالحزب الشيوعى يعتبر نفسه تجسيدا لارادة العمال والفلاحين ، وهو بهذه الصفة أصدق طريق للتعبير عن ارادة الشعب • والجهاز الرسمى للدولة يشتمل على أجهزة معقدة لتنفيذ ارادة السيادة كما يعبر عنها الحزب الشيوعى • وبهذا المعنى يكون الحزب فوق الدولة ، ويكون مؤتمر الحزب هو الهيئة العليا ، ويكون زعماء الحزب الذين تتألف منهم اللجنة المركزية موظفين دائمين • ان الحزب يعتبر نفسه هو الشعب ، ولهذا فله السلطة الكاملة الشاملة ، في وضع السياسات الداخلية والخارجية ، وتقرير صحة النظريات ، والتخطيط والتوجيه للاستراتيجية السياسية ، وقيادة كل جهاز فى الدولة وارشاده والاشراف عليه •

ويتكون الحزب من أنشط عناصر الشعب • انه طليعة وهبت نفسها للخدمة العامة ، مدربة طبقا للعقائد الشيوعية ، وتخضع لفترة من الاختبار• والقبول فى عضوية الحزب لا يكون بمجرد ضم من يقبلون برنامجه العام ــ فالمرشح يجب أن يثبت وجوده فى مختلف مجموعات العمل بالدولة ــ المصنع أو المزرعة الجماعية أو اتحاد المثقفين أو غير ذلك ــ على نحو يثبت به قدرته النظرية والعملية وولاءه واتباعه الدقيق للفكرة الشيوعية ، لكى يصبح عضوا كامل العضوية فى الحزب • ويبلغ عدد أعضاء الحزب من ١ الى ٤ ٪ من مجموع السكان تقريبا وقد بلغ عددهم ٨ مليون فى الاتحاد السوفييتى و١٠ مليون فى الصين فى أواسط خمسينيات هذا القرن •

وتختلف وظائف الحزب الشيوعى اختلافا جوهريا عن وظائف الأحزاب السياسية فى الدول الديمقراطية الليبرالية ، ذلك أن الحزب الشيوعى نفسه يعمل بوصفه ممثلا لارادة الشعب ، ولذا فنظام الانتخاب العام لا يكون وسيلة لتسجيل اختيار مرشح من بين مرشحين متنافسين ، أو اختيار فكرة معينة فى القضايا العامة • اذ تقتصر وظيفة الانتخابات العامة فى الدولة الشيوعية على اعادة تأكيد الثقة العامة بالحزب وقراراته بوصفه تجسيدا لارادة الشعب . لهذا فيقتصر الأمر على أن يطلب الى الناخبين أن يصوتوا بنعم أو لا على قائمة المرشحين التى يقدمها الحزب •

ومع أن الحزب لا يشمل الا جزءا صغيرا من مجموع السكان فانه الوسيلة التى يعتمد عليها فى حمل عدد ضخم جدا من الناس على بذل النشاط الدائم ، وتحمل المسئولية فى تشكيل وتنفيذ السياسة العامة . فكل خلية للحزب وكل لجنة محلية أو وحدة حزبية عليا مفروض فيها أن تنخرط فى مناقشات مستمرة ، وأن تكون فى منتهى اليقظة . فكل وحدة جزء من حلقة الاتصال التابعة للسياسات التى تتقرر فى المستويات العليا ، وكل منها جزء من أداة التوصيل ، وتسجيل وتنفيذ السياسة واحاطة المستويات العليا بذلك ، وكل منها جزء من عملية السماح للقضايا بأن تناقش وأن تكون محل حوار فى المستويات الادنى فالأدنى ، ورفع الأفكار الى الأجهزة العليا المشتغلة بتكوين السياسة . ومع الخضوع لاشراف الوحدة الأعلى ، التى قد تفصل عاملا فى وحدة أدنى لفشله فى القيام بمسئوليته ، فان اختيار القيادة داخل كل وحدة يتم بالانتخاب ، وتتكون الأجهزة العليا للحزب من مندوبين اختارتهم الوحدات الدنيا .

ولا يقتصر الحزب على تقديم معظم كادرات العمل الحكومى ، بل يقدم أيضا الأعضاء للهيئات السياسية فى الدولة . وهكذا فهو يقدم شاغلى مراكز المسئولية بكل أجهزة الدولة . وفضلا عن ذلك فهو يعمل فى كل المستويات كحارس ، لا تقتصر مهمته على منع وقوع المخالفات وكفالة الكفاية فى العمل من القاع فصاعدا ، بل تمتد مهمته أيضا فتشمل تحقيق وحدة الأسلوب ، فيتأكد من أن السياسة قد فهمت فهما موحدا فى كل أركان الدولة ، وأن التغييرات التى حدثت فى السياسة قد نفذت على نحو موحد . فالواقع أن الحزب هو الذى أعطى الدولة الشيوعية طابعها الموحد . فى هذه الحالات تكون أجهزة الدولة من بعض الوجوه أقل أهمية من أجهزة الحزب ، لأن أهمية رجال الحكومة لا تعتمد على وظائفهم بقدر ما تعتمد على مكانهم فى الحزب .

٢ ـ أجهزة الدولة :

الوظيفة الرئيسية للدولة فى المجتمع الشيوعى هى نشر وتوضيح الأخلاقيات الشيوعية ، وتطبيق المبادىء التى يدين بها المجتمع .

ولما كانت النظرية الماركسية ـ اللينينية تقضى بأن المجتمع يستمد طابعه من عمليات الانتاج ، وأن وسائل الانتاج يجب أن تكون ملكا للدولة ، فان ادارة الاقتصاد تكون النشاط المركزى للدولة ، وتكون أجهزتها الرئيسية لذلك أجهزة الحياة الاقتصادية . وفى هذا الصدد

تختلف الدولة الشيوعية اختلافا شديدا عن الدولة الديمقراطية الليبرالية ، التى تعتبر وظيفتها الرئيسية تقديم اطار للمجتمع المنظم تجرى فيه النشاطات الاقتصادية ، وغيرها على نحو مستقل ، والتى لا تتحمل المسئوليات الاقتصادية المباشرة ، الا اذا كانت هناك ضرورة ظاهرة لذلك تخدم الرأى العام ·

ان الدولة الشيوعية دولة مشروع · وأهدافها تقاس بمقاييس اقتصادية واجتماعية ومركزها فى العالم ، ووظيفتها الأولى أن تقوم بعمليات مباشرة · فمن أعلاها الى أسفلها ، من الدولة الى أصغر مصنع أو مزرعة أو عيادة أو مدرسة أو وحدة فى الجيش ـ تعمل الدولة الشيوعية كمشروع ضخم · وبوصفها مشروعا فانها تتصف بالشمولية والتنظيم الدقيق فى كل جوانب الحياة · وهى كمنظمة حكومية تزرى فى ضخامتها بأى دولة أقل منها شمولية ، كما تزرى بها فى مدى نشاطها وتعقيدها ، ويستهدف بناؤها تحقيق النجاح للمشروع ، وهو بناء مجتمع اشتراكى يصير فى النهاية مجتمعا شيوعيا ·

والمبدأ الأول فى تنظيمها هو « المركزية الديمقراطية » وكما يقول لينين يجب على مؤسسات الدولة أن تعمل فى طريقين من أعلى الى أسفل ومن أسفل الى أعلى ، والتوجيه المركزى والرقابة المركزية لابد أن يقترنا بمشاركة عامة واسعة النطاق عن طريق المنظمات الوظيفية ، وأجهزة الدولة الدنيا ، التى ترفع منها الأفكار وتصل الى المركز · وبعد وفاة لينين قام صراع بين كبار أتباعه ، وتمخض الصراع عن تولى يوسف ستالين زعامة الحزب · وظل ستالين ثلاثين سنة يدير جهاز الحزب والدولة ادارة دكتاتور شديد المراس ، لدرجة أن خلفاءه نددوا فيما بعد بتطرفه فى الاستبداد · ففى الظروف التى سادت هذه الأعوام ــ الثورة والتصنيع والتجميع الزراعى والحزب واعادة البناء ــ قويت جوانب الاشراف المركزى والسيطرة المركزية على كل جوانب الحياة ·

وأثناء حكم ستالين كانت الطريقة التى تتبع ازاء المعارضة القائمة أو المحتملة « هى التطهير » أو العزل من السلطة · وفى الحالات الخطيرة كان القبض يجرى على الأشخاص الذين يظن أنهم خطرون على الدولة ، ويجبرون على الاعتراف بذنبهم ، ويرسلون الى معسكرات العمل ، أو يعدمون طبقا لخطورة جرمهم وأهمية مراكزهم · وأدت هذه الطريقة الى نتيجتين : محو المعارضة وتوضيح سياسة الحزب بجلاء تام (١٧) · وفى حملات التطهير الكبرى التى تمت فى أواسط الثلاثينيات عزل عدد

كبير من الأشخاص الذين كانوا يحبذون احدى السياسات التى كانت معروضة على الحزب ليختار من بينها منذ الثورة ، وتأكدت وحدة كل من السياسة والتنظيم تحت زعامة ستالين وخطه السياسى • وكان ستالين فى الواقع يحاول أن يجعل من السيطرة والكبت نظاما دائما • وبينما قرر دستور ١٩٣٦ من حيث المبدأ كثيرا من ملامح الديمقراطية الاشتراكية ــ فوسع الى حد كبير من سلطات مجلس السوفييت الأعلى ، ودعا الى نظام انتخابى أكثر ديمقراطية ، ونص على صبغ القضاء بالصبغه الديمقراطية ــ ظلت معظم الأشكال السياسية التى تقررت فى الدستور حبرا على ورق ازاء الخوف المتزايد من العدوان الفاشى والظروف التى استحدثتها الحرب العالمية الثانية • وبعد موت ستالين ١٩٥٣ ومع تغير ظروف الزمن واختلاف مرحلة النمو الصناعى والاجتماعى فى الاتحاد السوفيتى حاول خلفاؤه التخفيف من وطأه المركزية المتطرفة ، ووقف اجراءات السيطرة العنيفة • فصار النقل الى وظائف أقل أهمية يكفى فى معظم الأحوال للتخلص من المعارضة ، وتثبيت سياسات العنصر المسيطر فى اللجنة المركزية للحزب ، بينما الاعتراف العلنى بالخطأ أو الجريمة ظل يعمل به كوسيلة لجعل سياسة الحزب واضحة أمام الشعب على نحو موحد لا يحتمل الاختلاف ، واتخذت اجراءات لتفويض جمهوريات سوفيتية عديدة بقدر من السلطة ، ووضع مسئولية أكبر على المنظمات الوظيفية مثل اتحادات العمال ، ومؤتمرات الكتاب ، أو مجموعات الشباب، بحيث تكون حرة فى ادارة شئونها ، وبذا تحاول أن تضع الدولة فى جانب سياسة تحقيق التوازن بين التوجيه المركزى والمشاركة الواسعة على نحو ما دعا اليه لينين •

وقد اتبع البناء الادارى العام للدولة السوفيتية الأساس الوظيفى فيما يتعلق بالاقتصاد . فقد حدد لكل من الوزارات الرئيسية جانب من جوانب الاقتصاد ــ الصناعات الثقيلة ، الكهرباء ، المنسوجات •• الخ ــ والوحدة الاساسية للتنظيم هى الوحدة الانتاجية ــ المصنع ، المزرعة ، المستشفى •• الخ • وثمة منظمات وسطى تشمل مشروعات أو مجموعات من المشروعات مجموعة فى اتحادات ، وهذه يمكن أن تكون مركزية جدا ، أولا مركزية من بعض الوجوه • والتنظيم الجغرافى مكمل للتنظيم الوظيفى • فالأجهزة الجغرافية كالمدن أو الهيئات الأقليمية مسئولة مسئولية مباشرة عن النشاطات التى لا تعتمد اعتمادا أساسيا على اتصالها بالمناطق الأخرى ، مثل الحرف اليدوية المحلية ، كما أنها مسئولة

عن تقديم بعض وسائل الترفيه المحلية ، والنشاطات الثقافية . أما مسئوليتها غير المباشرة فهى الاسهام فى انجاح المشروعات داخل منطقتها.

وتعتمد مسئولية الأجهزة الدنيا على تفويض السلطة اليها من المركز · والاتحاد السوفييتى منظم على أساس فيدرالى ، فيه حكومات منفصلة فى كل جمهورية من جمهورياته · وداخل هذا البناء الفيدرالى تكون سلطات وزراء الجمهوريات خاضعة لموافقة السلطة المركزية · ولقد أقيم البناء الفيدرالى فى الاتحاد السوفيتى لأسباب منها تعدد القوميات فى البلاد ، ويتضمن البناء سلسلة من الأجهزة المقامة على أساس قومى تتركز كلها فى مؤتمر القوميات . ولكن هذا البناء أيضا مكمل للبناء الوظيفى ·

وبعد عام ١٩٥٧ وضع القرار الخاص باللامركزية بعض الأنشطة فألقى مسئوليات جديدة على المؤسسات بمختلف الجمهوريات ـ فعدد كبير جدا من المصانع التى كانت تديرها من قبل وكالات الحكومة المركزية انتقلت الى المنظمات الاقليمية والى الجمهوريات · وتخلت الوكالات المركزية عن وظيفة سن القوانين ، وفوضت السلطة فى هذا الى الجمهوريات ، وحلت الوزارات القومية للعدل والشئون الداخلية ، وفوضت سلطات متزايدة للمحاكم الصغيرة وتبعت المليشيا لمجالس السوفيت فى الأقاليم ·

وجهاز التخطيط للدولة هو الجهاز المركزى فى الاتحاد السوفيتى· فأنشطة الدولة فى كل المستويات وفى كل الميادين ، تدور حول اعداد الخطة وتنفيذها · والدولة كمشروع ، وكل الأجزاء التى تتألف منها ، تدار وتتحرك نحو وضع الأهداف الانتاجية ـ سواء كانت صناعة أطنان من الصلب أو تعليم أعداد من الأطفال أو بناء مستشفيات أو استزراع مساحات من الأرض · ويقاس انجاز كل جهاز أو كل موظف بقدر ما يحقق من الأهداف · وبذا أصبح التخطيط الأداة الحكومية الكبرى لتحديد أهداف الدولة وتنظيمها وتنفيذها ·

وتبتكر وسائل متنوعة لتنمية روح الابتكار والمسئولية عند الأفراد ولتجنب الأخطار المرتبطة بالبيروقراطية ، مع الاحتفاظ بوظيفتى الاشراف والرقابة · وفى الاتحاد السوفييتى يدار كل مشروع بوصفه وحدة منفصلة ، فيدخل فى علاقات تعاقدية مع المشروعات الأخرى التى يستمد منها مواده الأولية أو التى يمدها بمنتجاته · والمشروع مسئول ماليا وماديا عن تحقيق أهداف الخطة أو تجاوزها ان أمكن · وفى داخل

المشروع يتحمل المحاسب والمراقب الفنى ورئيس الصيانة ورئيس النقابة مسئولية مستقلة أمام رؤسائه فى الجهاز الوظيفى الأعلى — والمجموعة الحزبية فى كل مشروع تكون مسئولة أمام المنظمة الحزبية مباشرة عن اليقظة فى تحقيق أهداف الخطة • وفضلا عن ذلك فان لدى السلطات المركزية نظاما للتفتيش لمراجعة أعمال المشروعات ، حيث يوجد مبرر لوجود شك فى الأمانة أو عدم الكفاية ، كما أن أجهزة أمن الدولة على استعداد للتدخل اذا حدث اشتباه فى القيام بأعمال تخريب أو غيرها من الجرائم الخطيرة •

ولما كانت الدولة الشيوعية بحاجة الى أن تشرك كل الناس فى السير لتحقيق هدف ايجابى مشترك يتفق مع السياسة كما يفهمها الجميع ويطبقونها ، كانت أجهزة الدعاية أدوات جوهرية فى يد الحزب والدولة • وقد أدى الفرق بين الدولة الشيوعية والدولة الليبرالية فى مفهومهما لسيادة الشعب ، الى اختلاف المفاهيم تماما فيما يتعلق بتكوين الرأى العام • فالدولة البرلمانية تفترض أنه توجد خارج الحكومة مراكز مستقلة يمكن أن تتولد فيها أفكار بشأن القضايا السياسية ، وعن طريقها تصل الى الهيئة الحاكمة لتنعكس فى السياسة العامة • أما فى النظرية الشيوعية وتطبيقاتها فان الحزب نفسه باعتباره تجسيدا لسيادة الشعب هو جهاز تكوين الرأى العام ، وحامى النظرية ، وزعيم الفكر وصائغه • لهذا كان من وظائفه أن يثير المناقشات الشعبية الواسعة النطاق ، داخل اطار القضايا والسياسات التى تقررت فى المركز ، وأن يشرف على أجهزة تكوين الرأى العام والمواقف ، وان يستخدمها استخداما كاملا ومنهجيا ، لكى يخلق رأيا عاما متمشيا مع سياسات الحزب ، ويحتفظ به هكذا ، ولكى يمد الحزب بما يحدث من ردود أفعال عند الشعب مما يمكن أن يكون فى اعتبار الحزب حين يصوغ السياسة • لهذا فان الصحافة والاذاعة والفنون والآداب ، ينظر اليها على أنها من أسلحة الدولة •

ومن السمات الخاصة للدولة الشيوعية استخدامها القانون وسيلة للادارة والتعليم (١٨) ولقد كانت الدول الشيوعية فى أيامها الأولى قد ألغت البناء القانونى الذى كان قائما من قبل ، فالاتحاد السوفيتى ألغى النظام القضائى الذى كان موجودا أيام القياصرة ، وألغت الصين الشيوعية القوانين التى أصدرتها الجمهورية السابقة بمساعدة مستشارين من الغرب • فمن الناحية النظرية كانوا يتوقعون فى أول الأمر أن تصحيح الظروف الاقتصادية سوف يصحح الظروف التى تؤدى فى المجتمع الرأسمالى الى الجريمة ، وأن تجعل القانون بمعناه المستخدم فى الدول الرأسمالية

غير ضرورى . فصار السلوك المنحرف يقوم عن طريق التربية لا طريق العقاب . وكان المذنبون يعرضون لعملية مركزة تدعى « اعادة التعليم » تقوم بها فى الغالب الفئة الاجتماعية التى ينتمى اليها المذنب .

وبمرور الوقت اتضح أن الاعتماد الكامل على اعادة التعليم لا يكفى فتقرر فرض عقوبات تتناسب مع خطورة الجرائم . غير أن هذه العقوبات كانت أقرب الى طبيعة الاجراءات الادارية منها الى تطبيق المبادىء القانونية . فالجرائم أساسا هى ما يعوق عمل الدولة من حيث هى مشروع مثل الاهمال فى تحقيق أهداف الانتاج ، وضياع أو تدمير أملاك الدولة وهكذا . ويقابل العقاب على عدم التعاون الكامل الفعال فى المجهود القومى المكافأة والتشريف والاعتراف بالفضل لمن يحقق الأهداف ويزيد عليها .

وهكذا نرى أن النظام القضائى لا يعمل بالطريقة التى تصورها الديمقراطيات الليبرالية ، فهو ليس فرعا مستقلا من فروع الحكومة ، له قواعده ومبادئه الخاصة ، مثل مبادىء الاسراع بمحاكمة المتهمين ، أو المحافظة على الملكية الفردية مما منح المحاكم فى الدول الديمقراطية الليبرالية طابعها الخاص . وبالرغم من انشاء نظام للاختصاصات القضائية يعطى وضعا محددا ، فان المؤسسات القانونية والقضائية ظلت تعتبر أجهزة سياسية وتعليمية ، لا أدوات للعدالة بالمعنى التقليدى المتبع فى الدول الليبرالية .

وكانت الدول الشيوعية تعمل خلال هذه السنوات فى ظروف التغيير الثورى وكان الحزب وتنظيمات الدولة هى أدوات تحقيق هذا التغيير ـ تصفية الملاك السابقين من حيث هم طبقة ، وتصنيع المجتمعات غير المصنعة أو المصنعة جزئيا ، والتوسع الضخم فى النشاط الاقتصادى الذى يتطلبه مثل هذا التغيير ، والجهود البالغة الضخامة التى تتطلب تضحيات كبيرة ، وتثبت قدم الدول الشيوعية القومية فى عالم يعتبر الشطر الأعظم منه عدوا لأهدافها وجهودها . لهذا وجب أن ينظر الى الشكل الخاص الذى اتخذته مؤسسات الدولة الشيوعية خلال هذه الفترة لا على أنه مجرد تطبيق للنظرية الشيوعية ، بل على أنه أيضا عملية لاحداث التغيير الاجتماعى الثورى .

وبينما حدث التطور الرئيسى للمؤسسات الشيوعية فى الاتحاد السوفييتى ـ ولقد نوقشت المؤسسات السياسية للدولة الشيوعية فى هذا الضوء أساسا ـ ظهرت ألوان متفاوتة من المنظمات فى الدول الأخرى التى اتبعت النظام الشيوعى بعد الحرب العالمية الثانية .

وكانت المؤسسات التى تختلف فى طابعها أشد الاختلاف عن الطابع السوفييتى هى التى ظهرت فى يوغوسلافيا • فهذه الدولة ، وان كانت من الدول الشيوعية ، ظلت خارج الحركة الشيوعية الدولية بعد عام ١٩٤٨ • فالمبدأ الأساسى فيها هو اللامركزية ، عن طريق مجالس العمال المسئولة عن ادارة كل مشروع ، والمجالس المحلية التى تتحمل قدرا كبيرا من مسئولية ادارة كل اقليم . وعلى نقيض الاتحاد السوفييتى حيث التخطيط الانتاجى المركزى يوجه جهود كل وحدة ، فان التخطيط فى يوغوسلافيا خلال هذه السنوات لم يستخدم الا لرسم اطار عام ، وتهيئة المناخ الذى تعمل فيه الجهود المحلية لصياغة الأهداف الاقتصادية ، لا لتقديم أدوات التنفيذ • واستخدمت وسائل غير مباشرة مثل معدلات القروض الملائمة وغير الملائمة لتشجيع أو لتثبيط الانفاق المالى وفقا لمتطلبات الخطة •

أما مؤسسات الصين الشيوعية فتسير فى الاتجاه المضاد • ففى خلال السنوات العشر الأولى استخدمت جمهورية الصين الشعبية على التعاقب وسائل تقوى باستمرار من سلطة الادارة المركزية والاشراف المركزى ، بما فى ذلك نظام الكومونات ليحل محل أسر الفلاحين والقرى والمزارع الجماعية ، وكذلك الاشراف على تنقل الناس من مكان الى آخر • هذه المؤسسات مكنت الدولة من أن تعبىء ملايين العمال للمشروعات الكبرى ، وأن تمضى قدما فى تنفيذ برنامج ذى أبعاد تدير الرءوس لاعادة بناء الحياة الاقتصادية والمجتمع فى هذه البلاد القديمة (١٩) •

تعليقات على الفصل الرابع

١ ــ يأخذ كثير من النقاد على هــذا الفصــل خلوه من المــادة التى ترتبط عادة بالمعالجة السياسية التقليدية فى كتاب من هذا النوع . وقد كتب الاستاذ لين م . كيس Lynn M. Case يقول : « كان ينبغى ان يحتوى هذا الفصل على قدر أكبر من ذلك لماذا ؟ لتكتب جنبا الى جنب مع ماذا ... اذ لا يوجد تفسير لظهور الفاشية أو النازية او غيرها من دول الاستبداد الجماعى . ويبدو كانما كل المؤســـســـات الســـياسية قد نشأت فى فراغ » .

٢ ــ يقول ا . بوفين A. Bovin الاستاذ فى العلوم القانونية انه فى الوقت الحاضر لا توجد الحكومات « المعتمدة على القوة العسكرية والمؤيدة منها فى الاقطار ذات النظم الفاشية فقط » ، فلقد طبع الجهاز بالطابع العسكرى فى الوقت الحاضر حتى غدا من معالم بعض الدول « الديمقراطية الليبرالية » ايضا ولقد علق على هذا بعض الاساتذة والساسة الغربيون ــ من علماء الاجتماع والفلسفة والعلوم الاجتماعية . انظر ندوة : نزع الســـلاح والاقتصـــاد الامريكى الذى نشره ابثكر H. Aptheker بنيـــويورك ١٩٦٠ ، بذلك يشـــهد الصـــحفى الامريكى البارز ف . كوك F. Cook فى كتـــابه الشــهير « الدولة العســـكرية » Juggernaut (نيويورك ١٩٦١) فهــو يقــدم عدة امثلة توضح ان العسكرية قد تغلغلت فى كل فروع الاقتصاد الامريكى ، وان العسكريين الامريكيين قد استولوا على مناصب رئيسية فى جهاز الدولة . ويمكن ملاحظة عمليـــات مشابهة لذلك فى جمهورية المانيا الاتحادية وبريطانيا العظمى وفرنسا

انظر :

1) Fred Cook, The Warfare State: Juggernaut (N.Y. 1961).

2) John P. Davis: Corporations: A Study on the Origin and Development of Great Business Combinations and of Their Relation to the Authority of the State (New York, 1961).

3) E. Khesin, Militarizm i voyenniye Kontserny Anglii Militarism and British Arms Firms. In Mezhdunarodnaya Zhizn (International Affairs 1962) No. 1.

4) N. Tsygichko, Zapadnogermansky militarizm i yego doktrina (West German Militarizm and its Doctrine). In: Mirovaya ckonomika mezdunarodnoye otnosheniye (World Economics and International Relations) 1961 No. 9.

5) E. Fajon «Nastuplenie monopolii na Prava frantsuzskikh trudyashchikhsya (The Onslaught of the Monopolies on the rights of French workers). In: Mezhdumarodnaya zhizn, No. 9, 1961, Y. Ostrovityanov A. Sterbalova «Yest li vykhod iz tupika voennoy ekonomiki?» (Is there a way out of the blind alley of war economy?) In: World Marxist Review (Prague, 1961, No. 4).

٣ — حدد المحررون معنى الحكومة العسكرية بأنها « التى تعتمد على القوات المسلحة وتأييدها » وقد جعلوا نصب اعينهم الحكومات التى وصلت الى الحكم بانقلابات عسكرية ، وظلت فى مكان السلطة بفضلها ، مع غياب الاجراءات الاخرى المقررة لمنح الشرعية للحكومة أو مع تحدى هذه الاجراءات ». واستخدام هذه النظرية لا تستبعد الاعتراف بتأثير العسكرية وقت السلم كتأثيرها زمن الحرب داخل الدول ذات الحكومات المقررة شرعيا على اختلاف أشكالها . انظر : الفصل الخامس حيث تجد مناقشة لهذا التأثير .

٤ — يقول الاستاذ أ . بونين انه لا صحة للقول بأن الاتجاه الرئيسى فى تطور النظم السياسية خلال القرن العشرين قد سار فى الاتجاه الى «الديمقراطية الليبرالية ». فهذا الطراز من التنظيم السياسى يسير نحو الاختفاء فى الوقت الحاضر . فمن الديمقراطيات الليبرالية التى كانت توجد فى أوروبا ١٩١٨ لم يبق الا خمس عشرة الآن . وحتى فى هذه الدول قد وضعت قيود مختلفة على الليبرالية الديمقراطية على نحو ما اعلنت فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . انظر :

(D.E. Brown : The Growth of Democratic Government, Washington, 1959, p. 3).

ولا يمكن اعتبار الدول الديمقراطية التى نشأت فى الماضى فى المستعمرات أو الدول غير التامة الاستقلال مجرد نسخ من النماذج الغربية . فهى أحيانا جديدة بصورة جذرية فشعوب المستعمرات السابقة وما اليها تجتاز مراحل مختلفة من مراحل صراعها للتحرر الكامل من أجل الاستقلال القومى وتصفية نتائج سيطرة راس المال الاجنبى والتطور فى اتجاه التقدم الاجتماعى »

وكل هذه الاهداف يمكن أن تتحقق عن طريق اقامة دول ديمقراطية قومية وتطويرها . والدولة الديمقراطية القومية هى الدولة التى تدافع فى اصرار عن استقلالها السياسى والاقتصادى ، وتحارب الامبريالية وكتلها العسكرية والقواعد العسكرية المقامة على أراضيها . والديمقراطية القومية دولة تتمتع شعوبها بحقوق وحريات ديمقراطية واسعة . وبذا تستطيع أن تنفذ مشروعات الاصلاح الزراعى ، وأن تحقق مقتضيات الاصلاح الديمقراطى والاجتماعى »

(On the National Democratic State) Kommunist (Communist), No. 8, 1961, pp. 36, 41.

٥ — تجد مناقشة لشئون الدول الحديثة العهد بالاستقلال فى الصفحات من ٢٢٨ — ٢٣٦ .

٦ — يقول الاستاذ أ . بونين الاستاذ فى العلوم القانونية ان التعريف الوارد هنا للديمقراطية الليبرالية لا يشير الى الفروق الوصعبة بين هذا الشكل من الديمقراطية والاشكال الاخرى .

فالديمقراطيات الشعبية التى يضعها المؤلفون فى مقابل الديمقراطية الليبرالية لها هى ايضا نظم وتقاليد سياسية تمثيلية » وانه على التحديد فان هذه الاجهزة التمثيلية فى سلطة الدولة ، سواء على المستوى القومى ، أو المحلى ، هى التى يتكون منها أساس جهاز الدولة بأجمعه فى الديمقراطيات الشعبية . وفى الديمقراطيات الشعبية الاوروبية تشمل هذه الاجهزة مجالس شعبية وقومية ومجلس الدولة والبرلمان

ومجلس الشعب وبرلمان الشعب ، ولها على المستوى المحلى المجالس الشعبية أو اللجان القومية أو الشعبية .. والمجالس الشعبية أو القومية واللجان الشعبية أو القومية باعتبارها تمثل القمة الديمقراطية لشعب العامل بما لها من أساس جماهيرى بالغ القوة ، تتشكل وفق نتائج انتخابات ديمقراطية ، يقوم بها الشعب العامل نفسه . وهى تمثل حكم الطبقة العاملة فى المدن والريف ، وفيما يتعلق بالتقاليد الديمقراطية فانها موجودة ، ولها جذور فى الديمقراطيات الشعبية تحت أثناء التطور التاريخى الخاص بهذه الدول . ومن المعروف جيدا أن المجالس الشعبية (اللجان) قد اقيمت فعلا أثناء الحرب فى ظروف عصيبة كأدوات فى الجهاد من أجل تحرير الشعب من الغزاة وحلفائهم من أبناء البلاد . فتمخضت عن ادوات لسلطة الدولة الديمقراطية الشعبية . وكان ممن شاركوا فى اقامة هذه الاجهزة الاحزاب الديمقراطية والمنظمات العامة وكذلك بعض المجموعات السياسية التى تقدمت لجمع شتات كل القوى الديمقراطية للصراع من أجل الحرية والاستقلال . وقد رأت جماهير الشعب العامل فى المجالس الشعبية الأمل لا فى التحرير القومى فحسب بل ايضا فى تحقيق أمانيهم الديمقراطية لان سلطة المجالس الشعبية هى سلطة الشعب نفسه ، أى العمال والفلاحين وكل الشعب العامل . أنظر :

(Gosudarstvennove Pravo Zarubezhnvkh Sotsialisticheskikh stran (The state law of foreign socialist countries), Moscow Academv of Sciences of the USSR, Institute of Law, 1957, pp. 83-5; (ii) konstitutsii Zarubeznykh sotsialisticheskikh gosudarstv (The Constitutions of Foreign Socialist States) Moscow, 1956).

والفروق بين الديمقراطية الليبرالية والديمقراطية الشعبية فروق أكثر جذرية من هذا بكثير .. فلب الموضوع أن الديمقراطية الليبرالية انما هى ديمقراطية برجوازية ، أى انها نوع من المنظمات السياسية للمجتمع الذى يعتمد على الملكية الخاصة ، والصراع التنافسى والاستغلال . وعلى النقيض من هذا الديمقراطية الشعبية فهى الشكل السياسى لمجتمع من طراز مختلف : مجتمع اشتراكى قائم على الملكية العامة لوسائل الانتاج واقتصاد مخطط ومتحرر من الاستغلال . انظر :

(Gosudarstvennoye Pravo Zarubezhnykh Sotsialisticheskikh stran, Moscow 1957, pp. 7-14.

وهذا الرأى يقول به أيضا الاستاذ المجرى Vilmos Peschka لقد كتب يقول :

(أ) القسم الثانى الخاص بنظم الدول الديمقراطية الليبرالية يحتل حيزاً أكبر من الذى يستحقه ، وذلك على حساب الجزء ٣ الخاص بمؤسسات الدول الاشتراكية .

(ب) لم يحدث مطلقا فى مناقشة مؤسسات الدول الاشتراكية أن استخدم تعبير « الدولة الديمقراطية » كوصف للدولة الاشتراكية .

(جـ) هذا الفصل قد كتب على اساس المقولات والمفاهيم السائدة فى الديمقراطيات الليبرالية ، وهو يهتم فى المحل الاول بالكلام عن سمات الديمقراطية الليبرالية . ويجب أن يلاحظ ان ما قدمه المحررون انما هو دفاع عن مؤسسات الديمقراطية الليبرالية لانهم حتى لو قيموا المعطيات والظروف التى استشهدوا بها فى الجزء الخاص من الفصل ،

لوصلوا حتما الى ان ما يدعى بالديمقراطيات الليبرالية لم يعد ديمقراطية ليبرالية بالمعنى الاصلى للكلمة .

فالسمات والنظم الخاصة بالديمقراطية الليبرالية هى ما يبحث عنه المحررون فى الدول الاستبدادية والاشتراكية » فان عجزوا عن اكتشافها فى الدولة موضـوع البحث قالوا بأن الدولة غير ديمقراطية بل هى اما دولة استبدادية او دولة اشتراكية . وهـذه الطريقة فى التحليل خاطئة فيما يتعلق بالدول الاشتراكية ، لان فيها تشويها للحقائق ، وبذا تؤدى الى احكام باطلة . فالديمقراطية الاشتراكية لا يمكن تفسيرها على أسـاس مفاهيم الديمقراطية الليبرالية : فالديمقراطيـة الاشـتراكية ديمقراطية من نوع جديد ، ديمقراطية مقامة على مؤسـسات ومبادىء تنظيمية تعتبر بفضـل أسـاسها الجماهيرى واتساع مداها واكتمال ديمقراطيتها ، اسـمى بكثير من المبدأ الديمقراطى الحقيقى للدولة الليبرالية وهى ديمقراطية لاتتفق مع ماعرضه هذا الفصل ».

٧ ــ يقول المحررون انهم لم يعالجوا الديمقراطيات الشعبية (أو الجمهـورية الشعبية كما هى الحال فى الصين) كنظام منفصل عن « الدول الشيوعية » وقد ورد فى التعقيب الذى كتبه ف . أ . تيمانوف ان المظاهر الاساسية للاشـكال الديمقراطيـة السـوفيتية والشعبية لا فرق بينهما ولقـد أطلق المؤلفون عبـارة « الديمقراطيـة الليبرالية » فى الفصل الرابع بدلا من مجرد كلمة « ديمقراطية » أو أى تعبير آخـر على الدول الواقعة داخل نطاق التقليد الديمقراطى لاوروبا الغربية وأمريكا او الدول التى تتبع نفس النموذج .

ويعرض النص نظم الديمقراطية الليبرالية والدول الشـيوعية باعتبار كل منهما وحدة منفصلة . ويلاحظ المحررون أن هذين النظامين يمكن أيضا تحليلهما على أسـاس المؤسـسات المتقابلة لاداء الوظائف المتشابهة فى الحكم فى المجتمعات الصـناعية المتعـددة الحديثة . فأية حكومة يجب أن تشتمل على مؤسسات :

١ ــ لتتصل الهيئة الحاكمة بالمحكومين »

٢ ــ وتضع السياسة .

٣ ــ وتحتفظ بقدر من الاستمرار فى السياسة والاجراءات وكذلك بقبول التغيير وهداية خطاه .

٤ ــ ولتنفيذ وظائف الدولة »

٥ ــ ولحل الصراعات فيما بين المواطنين ، وفيما بين الفرد والدولة . والمؤسـسات التى تؤدى هذه الوظائف وطريقتها فى العمل تميل الى ان تتشابه بسبب تشابه الوظيفة، والى أن تختلف باختلاف التوجيه الحكومى ، وفى هذا الصدد يكون الاختلاف بين نظام الحكم يستهدف تمكين مجتمع متعدد الطبقات من أن يغير نفسه عن طريق التفاعل الحر بين الطبقات التى يتكون منها ، ونظام آخر مهمته أن يقود المجتمع الى تحقيق الشيوعية .

٨ ــ ينوه الاستاذ أ . بوفين بأن الفكرة فى القوانين التى تستهدف حماية مصالح العمال فى التشريع البرجوازى الحديث هى نتيجة الصراع بين منظمات العمال والقوى

التقدمية ، ولا ينشأ من طبيعة القانون البورجوازى نفسه ، بل ان الامر على نقيض ذلك ، ففى التشريع البرجوازى طبقت كثير من الاجراءات القانونية ضد ارادة الشعب .. تلك التشريعات المجحفة بالعمال (مثل قانون تافت هارتلى) والتشريعات المنافية للديمقراطية (مثل قانون ماك كران وود) والقوانين العسكرية التى صارت تحتل قدرا كبيرا جدا من التشريع فى أوروبا الغربية والولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية .

1) Sovremennoye Trudovoye Zakonodatelstvo imperialistiches kikh gosudarstv na sluzhbe monopolii (Contemporary Labour Legislation in the Imperialist States in the Service of the Monopolies (Moscow Institute of Law of the USSR Academy of Sciences, 1962).

2) M.V. Baglay, Zakonodatelstvo SSh A v borbye s Zabastovochnym dvizheniem (The U.S. Government in its Struggle with the Strike Movement) Moscow, 1960.

3) S.A. Ivanov, Mezhdunarodnaya organizatsiya truda I Profsoyuznie prava v Kapitalisticheskikh Stranakh (International Labour Organization and Trade-Union Rights in the Capitalist Countries) (Moscow, USSR Academy of Science, 1959).

4) S.L. Zivs, Krizis Buržhuaznoy Zakonnosti v Sovremennykh imperialisticheskikh gosudarstvakh (The Crisis of Bourgeois Legality in the Modern Imperialist States), (Moscow, USSR Academy of Science, 1958).

5) S.L. Zivs, Razvitie formy Prava v Sovremennykh imperialisticheskikh gosudarstvakh (Development of legal forms in modern imperialist States) Moscow, USSR Academy of Science, 1960.

٩ ــ يقول الاستاذ ا .. بوفين ان نظرية سيادة الشعب لم تصل الى درجة الشمول حتى منتصف القرن العشرين كما يقرر كاتبو هذا الفصل .. فليست الديمقراطيات الليبرالية كلها تعترف بأن الشعب هو المصدر الوحيد للسلطة فى الدولة . فمن بين ٢٣ بلدا بورجوازيا لم تعلن سيادة الشعب الكاملة الا فى احدى عشرة دولة (النمسا واندورا وبريطانيا العظمى وايرلندا وايسلندا وايطاليا ولكسمبرج والنرويج وجمهورية المانيا الاتحادية وفنلندا وفرنسا) . اما فيما عداها من البلاد فلم توجد الا جزئيا كأن تكون السلطة التشريعية مشاركة بين الشعب ملكية وراثية لا تعتمد على الانتخاب . وهذا هو الحال فى بلجيكا واليونان وليشتنشتين Liechtenstein والاراضى الواطئة والسويد .. واذا نظرنا الى خريطة اوروبا وجدنا فيها دولا لا يعترف فيها على الاطلاق بمبدأ سيادة الشعب وهذه الدول هى اسبانيا والبرتغال وموناكو ومدينة الفاتيكان . وفى الاتحاد السويسرى لا يزال مبدأ سيادة الشعب يختص به الرجال وحدهم فى معظم المناطق .

وفضلا عن ذلك ، فانه حتى فى هذه الدول البورجوازية التى أعلن فيها مبدأ سيادة الشعب كاملا ، فان هذا لا يعدو ان يكون مجرد خرافة من الناحية العملية . ففى الدول الحديثة التى تدين بالديمقراطية الليبرالية ، يشمل قانون الانتخاب عددا كبيرا من القيود وهذه الى حد كبير تضيق من نطاق التصويت العام السرى المتكافىء ، الذى تعلن هذه الدول تمسكها به .. وهكذا نرى فى الولايات المتحدة الامريكية ، فى مختلف الولايات ، ما يزيد عن ستين نوعا من الشروط الانتخابية ، منها شرط معرفة القراءة

والكتابة ، والحصول على حق الاقامة ؛ وحسن السلوك ودفع الضريبة الانتخابية ونحو ذلك . والنتيجة التى تترتب على كل هذه القيود هى فى غالب الاحيان تشويه لارادة الناخبين ، أى تحدى مبدأ سيادة الشعب . انظر :

Konstitutsii burzhuaznykh gosudarsv Evropy (The Constitutions of European Bourgeois States) Moscow 1957.

L. Dadiani: Kak Prokhodyat vybory v kapitalisticheskikh stranakh (How Elections are Run in Capitalist Countries) in Kommunist (Communist) 1962, No. 4, pp. 111-12.

١٠ ــ يؤكد الاستاذ ا . بوفين أنه فى البلاد الاشتراكية حيث تلتقى سيادة الدولة مع سيادة الشعب لا يحدث تعزيز لسلطة الدولة على المجتمع ، بل يحدث تعزيز لنفوذ المنظمات العامة والدور الذى تؤديه فى الحياة الاجتماعية ، وتشجيع للمواطنين على المشاركة الايجابية فى ادارة الدولة وتوسيع حقوق الحكم الذاتى . واشتراك العاملين فى ادارة الدولة مبدأ من المبادىء الثابتة فى تنظيم الدولة الاشتراكية ، مما يشهد بالطابع الديمقراطى العميق للنظام السوفييتى . فادارة شئون الدولة ليست امتيازا خاصا لفئة من المواطنين تخصصت فى فن الادارة (موظفى الدولة السوفيتية) ولكنه بحق من شأن الشعب فى مجموعه . كذلك فان دورا ايجابيا مباشرا فى ادارة الدولة يقوم به أيضا المواطنون السوفييت الذين لا يشغلون مناصب رسمية فى أى جهاز أو مؤسسة قائمة ، ولهذا فالذى يشارك فى الادارة هو الاغلبية الساحقة لابناء الشعب ، دون اى ارتباط مباشر بجهاز الدولة (اى أنهم لا يعملون به) .

وعدد الاشخاص الذين يعملون فى الجهاز الادارى فى الدول الاشتراكية يتناقص بوضوح . انظر :

Sovetskoye gosudarstvo i obschhestvennost v usloviyakh razvernutogo stroitelstva kommunizma: sbornik statey (The Soviet State and the Soviet Public in the Conditions of the Extended Building of Communism: A collection of Articles. Moscow 1962).

١١ ــ ينوه أ. بوفين بانه فى الدول الاشتراكية تقوم تبعية الاجهزة الدنيا للسلطة والادارة للاجهزة العليا ، تقوم على افتراض التحقيق الكامل لمبدأ سيادة الشعب فى كل الاجهزة المنتخبة ، واستمتاع المؤسسات المحلية فى حدود اختصاصها بقدر كبير من الاستقلال .

والجهاز الاعلى للسلطة فى الدولة الاشتراكية هيئة ينتخبها الشعب كله على أساس التصويت العام المتساوى السرى لمدة من اربعة الى خمسة أعوام . فكل المواطنين رجالا ونساء ممن وصلوا الى سن معينة (عادة ١٨) لهم الحق فى التصويت ولاتوجد قيود خاصة بالجنس او القومية أو الطبقة الاجتماعية أو غير ذلك . وهناك سمة خاصة بالنظام الانتخابى فى البلاد الاشتراكية ، هو حق سحب الثقة من النواب المنتخبين وهو حق يمارسه المواطنون اذا لم يحقق النائب ماوضع فيه من ثقة ، ومع أن هذا الحق لايمارس كثيرا فان مجرد وجوده له دلالة عظمى . فهو يكفل الرقابة الدائمة من جانب الجماهير على أعمال ممثليهم المنتخبين ، ويقوى من شعورهم بالمسئولية امام الناخبين ، كما يزيد من نشاطهم فى أداء واجباتهم .

وتنتخب الاجهزة المحلية للسلطة بواسطة أهل المنطقة على قدم المساواة ، عن طريق التصويت السرى العام المباشر . وطبقا لمبدأ سيادة الشعب فان سلطات هذه الهيئات المحلية تستمد مباشرة من الشعب ، وليس من سلطات اعلى .. وسلطاتها تبلغ من الاتساع ما يمكنها من أن تكون نبراس هداية لكل جوانب الحياة فى المنطقة التى تختص بها . انظر :

Constitution of the Union of Soviet Socialist Republics (Moscow 1961) (2) Vysshiye organy vlasti stran narodnoy demokratii (The Higher Organs of Authority in the People's Democracies) Moscow 1960.

١٢ ــ يقول الاستاذ أ .. بوفين انه لا يمكن بغير تحفظ شديد ان يوصف النظام الانتخابى فى الدول الديمقراطية بأنه « جهاز تمارس سيادة الشعب من خلاله » . لقد لاحظ عدد كبير من علماء الشئون السياسية وشخصيات مرموقة فى الغرب ، ان نظم الانتخاب المتبعة حاليا فى الدول البرجوازية عاجزة عجزا عضويا عن التعبير عن ارادة الاغلبية ، على نحو مايتطلبه مبدأ سيادة الشعب .. فنرى ان الفقهاء الامريكيين الذائعى الشهرة س.ب. جوسنل C.B. Gosnell و.ل.و.. لانكاستر L.W. Lancaster ور.س. رانكلين R.S. Ranklin يقولون انه بالنظر الى قصور نظام الانتخابات الامريكى فقد تضاءلت سيادة الشعب ، فصارت الى مايشبه «الحق الادبى فى الاعتراض»

C.B. Gosnell, L.W. Lancaster, R.S. Rankin : Fundamentals of American National Government, New York 1955.

ويقول عالما السياسة البريطانيان ليكمان ولامبرت E. Lakeman and J. Lambert : فى كتابهما : التصويت فى الديمقراطيات Voting in Democraties. «

بأن النظام الانتخابى البريطانى يؤدى الى موقف يجد مجلس العموم فيه أنه لايمثل شعور الامة . كذلك نان أعلاما من رجال السياسة الفرنسيين يقولون انه بسبب الاجراءات الانتخابية المتبعة حاليا فى فرنسا فان البرلمان الفرنسي بعد انتخابات ١٩٥٨ لايمثل آراء الشعب .

V. Rochet, Polozhenivo Frantsii i politika Frantsuzskoy kompartii, in Kommunist (Communist) 1962, No. 3, p. 85.

ويمكن القول على العموم ان النظم الانتخابية فى الديمقراطيات الغربية الحديثة بعيدة عن الكمال . ويمكن تقسيمها الى طرازين أساسيين :

النظم النسبية ونظم الاغلبية .. ونظم الاغلبية الانتخابية (على نحو ما هو متبع فى الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا العظمى وغيرهما) تتيح مجالا واسعا جدا لشتى انواع التلاعب بأصوات الناخبين . والنظام النسبى أكثر ديمقراطية ، ولكنه ليس واسع الانتشار جدا ، كذلك فهو مصاب بقصور خطير . وتجد نقدا للنظم الانتخابية المتبعة حاليا فى دول اوروبا الغربية فى الكتب الآتية :

1) E. Lakeman and L. Lambert, Voting in Democracies : A Study of Majority and Proportional Electoral Systems, London 1956.

2) R.J. Ross, Parliamentary Representation, London 1944.

3) I.D. Levin, Sovremennaya burzhuaznaya nauka gosudarstvennogo prava (Contemporary Bourgeois Science of Public Law) Moscow USSR Academy of Science 1960.

4) L.M. Belson, Sovremennoye burzhuaznoye gosudarstvo i narodnoye predstavitelstvo (Contemporary Bourgeois Government and Popular Representation) Moscow 1960.

١٣ ــ يقول الاستاذ أ. بوفين ان الاحزاب السياسية الممثلة فى برلمانات الدول الغربية ليست أقل عجزا من نظم الانتخابات فى التعبير عن مبدأ سيادة الشعب .. ففى اكبر الدول الديمقراطية الليبرالية نجد أن الاحزاب الحاكمة ــ التى لها اغلبية كبرى فى مقاعد البرلمان ، هى فى العادة أحزاب اقلية تتكون من اقوى المواطنين اقتصاديا . وهكذا نجد ان حزب المحافظين ، حزب الطبقة الغنية من السكان ، لم ينل الا ٣٨٪ من مجموع أصوات الناخبين فى اكتوبر ١٩٥٩ ، ومع ذلك ظل الحزب الحاكم وحصل على مايزيد عن ٥٧٪ من مقاعد مجلس العموم .

ومن جهة اخرى نجد ان الحزب الشيوعى الفرنسى ، وهو حزب ديمقراطى شعبى قد حصل على حوالى ٤ ملايين صوتا أى ٣٠٠,٠٠٠ صوت زيادة عما ناله حزب الجمهورية الجديدة (UNR) البرجوازى . ومع ذلك لم يفز بعضوية الجمعية الوطنية غير (٧٠) نائبا شيوعيا ، و ٢٠٠ نائب من حزب الجمهورية الجديدة ، انظر :

V. Rochet, Polozhenie Frantsii i politika Frantsuzskoy kompartii (The Position in France and the policy of the French Communist Party) in Communist 1962 No. 3 p. 85.

١٤ ــ يقول الاستاذ أ . بوفين ان قيام الاجهزة الادارية بوظائف تشريعية ليس من الجوانب الايجابية لتطور النظم السياسية فى القرن العشرين .. فمجموعة القوانين التشريعية التى اصدرها الاداريون والتى تنظم تفصيليا حياة المجتمع ، هى فى المحل الاول شاهد على تدهور الرقابة البرلمانية على أعمال السلطة التنفيذية ، ويدل عموما على تعفن نظام الديمقراطية الليبرالية نفسه .

فالرقابة البرلمانية على الحكومات كانت من النظم الديمقراطية البورجوازية التى حاولت القوى التقدمية فى المجتمعات البرجوازية دائما ان تدعمها وتصلحها . لكن البرجوازية تحاول فى الوقت الحاضر بكل وسيلة فى استطاعتها ان تحد من قدرة كتل الشعب على التعبير عن ارادتها السياسية عن طريق النظام الانتخابى ، وتتخذ خطوات هامة لتحديد سلطات الهيئات البرلمانية .. ومن ثم فهى تحاول تقوية السلطة الحكومية الادارية التنفيذية فى مواجهة المجالس النيابية ، وتزيد فى ضخامة ماتدعوه بالتشريع عن طريق التفويض الذى تقوم به مصالح ولجان حكومية شتى .. فالتشريع بالتفويض عمل تشريعى حكومى لاضابط له ، يشهد بالسلطة الخرافية المركزة فى أيدى كبار الموظفين . وفى غالب الاحوال يكون هذا العمل غير المنضبط الذى تقوم به الحكومة موجها ضد مصالح الطبقات الديمقراطية من السكان» . وقد عبر كثير من العلماء فى الغرب عن فزعهم من نمو حركة «التشريع بالتفويض على حساب الحقوق الدستورية ، وأبانوا ان هذه الحالة تشكل «تهديدا خطيرا للحرية» انظر :

C.B. Gosnell, L.W. Lancaster, R.S. Rankin «Fndamentals of American National Government» N.Y. 1955, p. 247.

راجع ماكتب عن هذا الموضوع فى

1) I.D. Levin, Sovremennaya burzhuaznaya nauka gosudarstvennogo prava (The Contemporary Bourgeois Science of Public Law) Moscow 1960, pp. 334-6.

2) B.S. Krylov, «Kritika Sobremennykh burzhuaznykh teoriy parlamentarizma» (A Critique of Modern Bourgeois Theories of Parliamentarism), in Sovetskoe gosudarstvo i pravo (Soviet State and Law) (1962, No. 1 pp. 111-15).

3) S.L. Zivs, Osnovnye tendentsii v razvitsi sovremennogo imperialisticheskogo gosudarstva (Basic Tendencies in the Development of the Modern Imperialist State) in Sovetskoe gosudarstvo i pravo (Soviet State and Law) (1961), No. 10, pp. 177-8.

4) S.L. Zivs, Krisis burzhuaznoy Zakonnosti v sovremennykh imperialisticheskikh gosudarstvakh (The Crisis of Bourgeois Law and order in the modern Imperialist States), Moscow 1958.

١٥ ـ يقول استاذ العلوم التشريعية ا . بوفين ان المحررين قد رصدوا رصدا صحيحا الحجم الهائل للجهاز البيروقراطى فى الديمقراطيات الحديثة ، واتساع مدى استقلاله عن الرقابة البرلمانية ، ولكنهم يخطئون حين يقولون ان هـذا الوضع لابد منه للكفاءة فى ادارة الشئون المعقدة فى دولة الرفاهية . والواقع ان غلبة الطابع البيروقراطى على الحياة الاجتماعية ، اقتصادية وسياسية ، فى الدولة الرأسمالية هو تحقيق مباشر لمصالح الراسمالية الاحتكارية . فهذا النمو البيروقراطى يتجه أساسا لخدمة الشركات الخاصة . فالاحزاب البرجوازية والمنظمات الرجعية والدولة كلها تحاكى اشكال وطرائق الهيمنة البيرواقراطية على النحو الذى ابتكرته الاحتكارات .

ان التضخم البيروقراطى لجهاز الدولة البورجوازى يظهر فى المحل الاول فى خلق مصالح ومنظمات من شأنها زيادة القوة الاقتصادية والمالية للشركات الخاصة على حساب العمال . وثانيا فان نمو الجهاز البيروقراطى فى الدولة شديد الارتباط بسياسة طبع الدولة بالطابع العسكرى . فحقيقة الحياة فى البلاد الراسمالية الحديثة تتميز بارتفاع حاد فى دور العنصر العسكرى الذى يتدخل فى كل مجالات النشاط : فى الاقتصاد والسياسة ، فى العلم والتعليم ، وفى جهاز الدعاية . والبيروقراطية العسكرية ـ كما هو معروف ـ تتميز بالسذاجة الظاهرة فى طرق حكمها ، وافتقارها حتى الى ظواهر الديمقراطية » فالبيرواقراطية على العموم من المظاهر المميزة للاتجاه الامبريالى الى التخلى عن صور الديمقراطية البرجوازية . انظر :

1) M. Lerner: America as a Civilization (New York 1957).

2) C.W. Mills: White Collar (New York 1956).

3) S.L. Zivs: «Osnovnve tendentsii v razvitii sovremennogo imperialisticheskogo gosudarstva» (Basic Tendencies in the Development of the Modern Imperialist State) in Sovetskoye gosudarstvo i pravo (Soviet State and Law) 1961, No. 10.

4) Yu. A Zamoshkin: «Byurokratizatsiya burzhuaznogo obshchestva i sud by lichnosti»: (The Bureaucratization of Bourgeois Society and the Fate of the Individual) in Voprosy filosofii (Problems of Philosophy) No. 4, (1961).

١٦ – يؤكد استاذ العلوم القانونية ا. بوفين ان الحزب الشيوعى لم يكن قط أعلى من الدولة ، وهو ليس كذلك فى الوقت الحاضر السلطة العليا فى الدولة ، فهو لايستطيع أن يحل محل اجهزة الحكومة انظر :

Constitution of the Union of Soviet Socialist Republics, Moscow 1961, Art 30, Statute of the Communist Party of the Soviet Union, Moscow 1961.

ففى البلاد الاشتراكية تكون الاحزاب اتحادات اختيارية من أفراد يلتقون فى تفكيرهم ويتحدون لكفالة النصر لمثل الشيوعية والاشتراكية والديمقراطية . وهى اذ تقرر سياستها تأخذ فى اعتبارها الجماهير غير المنضمة للحزب ، وتعرض هذه السياسة للاختبار عن طريق منظمات الدولة المنتخبة من الشعب جميعه . والحزب الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى يعمل ثابتاً فى التنظيمات الديمقراطية .، وهذا الدور لايفرضه على المجتمع ، فالمجتمع نفسه – او بالاحرى غالبيته العظمى – من العمال والفلاحين والمثقفين اى جماهير الشعب العامل – تضع الحزب الشيوعى فى مكان الصدارة وتسير بقيادته . والسبب فى ذلك ان الحزب أثبت انه اشد المدافعين عن مصالح الدولة اتساقا ونشاطا. فبعد ان استولى الشعب العامل على السلطة ، وأصبح الحزب الشيوعى هو الحزب الحاكم شرع فى تنفيذ برنامج للتنمية السريعة لقوى الانتاج لكى يحقق على هذا الاساس تحسنا اساسيا فى أحوال الشعب ، وثقافته وحياته عموما .

ويحاول الحزب الشيوعى ان تكون له الكلمة المسموعة فى نشاط المنظمات الاخرى ، بما فى ذلك اجهزة السلطة والادارة . ويسهل هذه المهمة ان الشيوعيين اعضاء فى كل المنظمات ، أو كلها تقريبا . وعن طريقهم فى المحل الاول يحقق الحزب برنامجه .

والحزب الشيوعى يتزايد عدد أعضائه باستمرار عن طريق اجتذاب أشد العناصر وعيا فى الشعب .، ويشمل الحزب ٦٪ من مجموع السكان ، اى مايزيد عن ٩ مليون شخص فى الاتحاد السوفيتى . انه حزب شعبى حقا .

ان وضع قيادة البلاد فى يد مثل هذه القوة المنظمة الهادفة – وهى الحزب الشيوعى ، يطبع المجتمع كله بطابع موحد . وبذا ينجح فى مقاومة محاولات التدخل من الخارج ، ويحل مشكلات كبرى بروح المثل الشيوعية .، ليس معنى هذا بطبيعة الحال ان الحزب يغتصب لنفسه وظائف المنظمات الاخرى . بل ان الامر على النقيض من ذلك، فالحزب يهتم بتشجيع الابتكار على أوسع مدى ممكن فى حلقة من حلقات النظام السياسى ، لانه يرى فى ذلك ضمانا للحل الناجح للمهام التى تواجه الشعب فى مجموعه .،

(F.M. Burlkatsky (Rastsvet Sotsialisticheskoy Demokratii» (The Development of Socialist Democracy), in : Vestnik istorii mirovoy Kultury (Review of the History of World Culture) No. 5, 1961, pp. 5-61.

١٧ – يقول الاستاذ بوفين أن طرق القيادة المنافية لسياسة الحزب والمبادىء اللينينية التى مارسها يوسف ستالين لاينبغى عرضها على انها طرق ساعدت على جعل خط الحزب «واضحا جدا» فهذه الطرق قد أساءت الى سياسة الحزب ، وأساءت كثيرا الى الخط الواضح للحزب ، وقد أدانها بقسوة المؤتمر الثانى والعشرون للحزب الشيوعى السوفييتى CPSU فى اكتوبر ١٩٦١ ومع ذلك فان حكم الفرد لم يستطع

تغيير الروح الاجتماعية الاقتصادية للنظام الاشتراكى ، أو الطبيعة الديمقراطية للنظام السياسى ، ذلك انه بفضل الطابع الاشتراكى لنظامه الاشتراكى والسياسى – وهو يختلف عن نظام حكم الفرد المختار – وبفضل بقاء جماهير الشعب العامل قوة حاسمة فى كل الظروف فى بناء الاشتراكية والشيوعية – بزعامة الحزب الشيوعى – مرتبطة أوثق الارتباط بالشعب ، بفضل هذا وذاك أمكن التقليل الى حد كبير جدا من الدمار الناجم عن حكم الفرد ، ثم التغلب عليه وعلى نتائجه .

Sovety i Stroitelstvo kommunizma (The Soviets and the Building of Communism) Leading article in Kommunist (Communist) No. 2 (1962) pp. 4-5.

انظر أيضا تعقيب ١.٢ على الفصل الثانى .

١٨ – يقول الاستاذ بوفين : ان النظام القضائى السوفييتى لم يكن مطلقا «اداة فى يد الحكومة» بل هو أداة للعدالة «

فادارة العدالة فى الاتحاد السوفيتى وظيفة مستقلة عن الدولة ، مستقلة عن الادارة العامة للحكومة . والمستويات الدنيا من النظام القضائى منتخبة من الشعب . والمستوى الاوسط والاعلى منتخبان من اجهزة السلطة . والمحاكم مستقلة ولاتخضع الا للقانون « والعمل التشريعى يجرى على ترك مجال خاص للمحاكم – يشمل الى جانب القضاة الدائمين المتفرغين – أفرادا من الشعب – من العاملين فى بعض فروع الانتاج او الثقافة أو رجال من المتقاعدين .. الخ .

ومبدأ مناقشة الاختلاف فى وجهات النظر ، وحق الدفاع ، والاعتراف بدعوى البراءة ، والحق المتاح تماما للاستئناف حتى الوصول الى المحكمة العليا ، واشتراك الجمهور سواء فى جانب الدفاع أو الاتهام – هذه المبادىء وغيرها تكفل الكشف عن الحقيقة اثناء المحاكمة «

وفضلا عن ذلك يعتمد التشريع السوفييتى على المبدأ القائل بأن عمل القضاء له وظيفة تربوية الى جانب وظيفته العقابية . وهو يستخدم على نطاق واسع مختلف انواع العقوبات التى لاتتضمن حرمانا من الحرية ، مثل الحكم مع ايقاف التنفيذ والتوبيخ العلنى .. الخ وتتزايد اهمية الاتجاه الى تسليم المتهمين بمخالفات صغيرة الى منظماتهم الجماعية فى مقر أعمالهم « وهذا الاجراء يكون فى العادة اكثر فاعلية من العقوبة بمقتضى قانون العقوبات .: انظر :

F.M. Burlatsky, Rastsvet sotsialisticheskoy demokratii (The Development of Social Democracv) in Vestnik istorii mirovoy kultury (Review of the History of World Culture) No. 5, 1961, p. 9.

للحصول على بحث تفصيلى للقسم الخاص بمؤسسات الدول الشيوعية انظر :

Volume VI, Tome II, of the History of Mankind Cultural and Scientific.

ويعتقد الاساتذة البلغاريون ان فصل المؤسسات السياسية به عيب خطير : هو الميل الى النظر الى اشكال الحكم ، والعمل التشريعى .. الخ كل على انفراد ، بمعزل عن الصراع الطبقى فى المجتمع ، ونمو القوى الانتاجية ، والظواهر الاجتماعية الاقتصادية – وهى العوامل والاسباب التى تحدثها أو تقضى عليها «

١٩ ـ يلاحظ الاستاذ أى . ن . اندرسون ان المؤلفين لم يوضحوا خاصية من الخصائص البارزة للنصف الاول من القرن العشرين ، هى انتشار الالتجاء للطرق الوحشية ، والتعذيب وغير ذلك من صور العنف . والوحشية كانت موجودة فى كل المجتمعات الانسانية وفى كل العصور التاريخية ، وكان من الطبيعى ان تظهر فى عصر يوصف بأنه عصر «الازمة الثقافية» والملامح الخاصة للعنف فى العصر الحاضر هى استخدامه على نطاق بالغ السعة ، وتنوع اشكاله واستخداماته ، وانتشاره بين شعوب على أعلى مستوى من التربية والتقدم التكنولوجى ، كما يحدث بين شعوب المناطق المتخلفة ، بين الطبقات وبين طوائف المتدينين كما يحدث بين من تخلوا عن الدين . وقد استخدمت الطرق الوحشية كسياسة حكومية رسمية ، وهى تلقى الانكار القانونى ولكن يسمح بها أو يتغاضى عنها رسميا ، وقد استخدم العنف تحديا للسلطة . وفى كثير من الاقطار اصبح العنف جزءا من التقاليد ، بحيث صار من الصعب وضع مقياس تحدد على أساسه كمية ونوع العنف الذى يعتبر عاديا بالنسبة لمعظم المجتمعات ويخضع لرقابة القانون الجنائى ، ومايعتبر شديد التجاوز لتقاليد المجتمع المنظم .

وقد يكون من المستحيل تصنيف الاشكال الرئيسية للعنف السائدة فى النصف الاول من هذا القرن ، ولكن لعل محاولة هذا التصنيف توضح مغزى هذه الظاهرة . فهناك عنف غير قانونى او مناف للقانون يكشف عن كراهية عنصرية أو قومية او دينية فى مستويات محلية اختيارية غير رسمية . والنوع الثانى هو المعارضة بقوة السلاح لتنظيم اجتماعى جديد . ونوع آخر يشمل الفرد او الحركة على نحو مانرى من تحليل البرت كامى فى (المتمرد) . واننا لنرى ان كراهية المجتمع القائم ونظامه ، والتعطش الى السلطة لاعادة صياغة المجتمع ، قد أديا الى الحرائق والاعتداءات والاغتيالات والتحرشات المستمرة بالاشخاص العامين والخاصين نتيجة لازدرائهم التام من جانب معارضيهم . بقى طراز آخر لمعالجة العنف قانونا ورسميا ويدخل فى هذا الطراز التعذيب النفسي ، وغسل المخ وماشابه ذلك من ألوان الضغط .

وكثيرا ماتسن مجموعات من القوانين ، وتقام أنظمة قضائية لتعطى لصور العنف هذه كلها مظهر الشرعية ، فيقر القانون بأن ينتشر البوليس السرى فى كل اجزاء المجتمع . ويكون القبض والمحاكمة سريين . وفى بعض النظم يكون العقاب سريا أيضا كما يقر القانون سيطرة الحكومة على توزيع حصص التموين ، وتعمد انزال المجاعة رسميا بمن تخشى معارضتهم وتدخل فى هذا النوع من العمل الرسمى محاولة ابادة شعب بأكمله ، وأبرز مثل على ذلك معاملة الاشتراكيين الوطنيين لليهود فى المانيا ـ وقد أدى خطر ظهور هذا النوع من العنف الى اصدار قرار الامم المتحدة باستنكاره وتسميته جريمة ابادة الجنس . وقد أضاف الاشتراكيون الوطنيون نوعا جديدا الى أنواع قسوة الدولة اذ أعدموا المتخلفين عقليا ، والمشوهين جسديا ، ومن لا علاج لمرضهم ، وغير المنتجين اجتماعيا ، وأباحوا اجراء تجارب علمية مزعومة على أعداء النظام . وثمة نوع آخر من أنواع العنف شديد الصلة بالنوع السابق هو الهرب الاجبارى لملايين البشر من أوطانهم والقسوة التى يتضمنها تبادل السكان وطرد اللاجئين .

ولاشك انه كان بوسعنا ان نضيف الكثير الى ماأوردنا من صور العنف ، وان نهذب بعض ماأوردناه . ومع ذلك فقد قدمنا من الامثلة مايؤيد القول بأن هذا القرن كان ولايزال عصر العداوات الجائحة ، وعصر وفرةالوسائل لاقتراف جرائم العنف الجسدى والعقلى فى الافراد والجماعات .. ولعل هذا المدى فى الوحشية يعد فريدا فى تاريخ البشرية .

وما أكثر ماكتب فى هذا الموضوع .. وبخاصة فى أوروبا *

الفصل الخامس

المؤسسات العسكرية

أخذت المؤسسات العسكرية تحتل مكانا متزايد الأهمية فى مجتمعات القرن العشرين ، وذلك لأن طبيعة الحرب قد تغيرت وصار تأثيرها العميق يزداد تغلغلا فى حياة كل دولة حديثة .

ولقد كانت المؤسسات العسكرية فى كل العصور تعكس البناء العام للمجتمع وتؤثر فيه بدورها . وكان هذا يصدق تماما على المنشآت التى صارت تعكس بنـــاء المجتمع الصناعى الحديث ، وتحث الخطى فى عمـــل بعض نواحى هذا المجتمع . لذلك فان طرق الحرب فى القرن العشرين قد أدت الى الاندماج من جديد بين المؤسسات المدنية والعسكرية ، التى كانت اتجاهات القرن التاسع عشر تدفع بها الى الانفصال فعملية التعبئة الصناعية تتضمن توجيه المؤسسات المدنية لخدمة الأغراض العســـكرية وتوجيه المؤسسات العسكرية لخدمة جهاز الانتاج الصناعى .

ولقد أدت فترات الحروب الى ازدياد أهمية المؤسسات العسكرية دائما وأدى وقوع حربين عالميتين فى خــــلال خمس وعشرين سنة ، وكذلك حدوث سلسلة تكاد تكون مستمرة من العمليات العسكرية الأصغر حجما ، الى أن تكون فى المقدمة دائما القيـــادة العسكرية والمنظمات العسكرية . وكلما صارت الحرب أقرب الى الشمول ، احتاجت الى التخطيط الواعى ، والتنسيق والاشراف على عدد ضخم من العوامل التى تتركب منها المجتمعات وهى عوامل منفصلة وان كان بعضها يعتمد على بعض . ويفضى ذلك الى تنظيم شامل واسع النطاق . وفى الدول ذات الادارة المركزية اقتصر أثره على دعم قوة « تنظيم » فى وقت السلم ، أما فى الدول الأخرى فقد تطلب الأمر انشاء أجهزة جديدة لا تختفى كلها بعد نهاية الحرب .

كذلك كانت المؤسسات العســكرية فى القرن العشرين من أدوات التغيير الاجتماعى . فمع أنها فى العـــادة تجنح الى المحـــافظة ، ولديهـــا

تقاليد راسخة ، وتفان قوى من أجل الابقاء على الحالة الراهنة ، فان طبيعة الحرب الحديثة قد جعلتها من عوامل التجديد القوية. وفضلا عن ذلك فقد أصبحت المؤسسات العسكرية فى بعض الظروف بمثابة رأس الحربة فى عملية التغيير الاجتماعى • فالجيش الأحمر السوفييتى بعد عام ١٩١٧ وجيش التحرير الشعبى فى الصين كانا من العوامل المباشرة التى أدت الى الثورة واعادة بناء الوطن • ولقد قدم العسكريون كثيرا من القـادة للثورة ، وطبع البلاد بالطابع العصرى فى بلاد الشرق الأوسط مثل تركيا وايران ومصر • وفى بعض البلاد غير المتطورة صناعيا مثل تايلاند بعد الحرب العـالمية الثانية كانت القوات المسلحة من المنظمات التى أدخلت التكنولوجيا الحديثة الى البلاد • وأسهمت جيوش الهند والولايات المتحدة فى ادماج المجموعات الاجتماعية المتنافرة •

١ ـ المؤسسات العسكرية التقليدية

فى مطالع هذا القرن كان بين المنشآت العسكرية فى معظم الدول ، كثير من الخصائص المشتركة وان كان هناك اختلاف كبير بينها فى تفاصيل تشكيلها ، وتحـديد مهامها • فالجيش الألمـانى منذ أن أحرز النصر على الفرنسيين ١٨٧٠ حتى نشوب الحرب العالمية الأولى ، كان هو النموذج ، أو على الأقل مصدر الالهام بالنسبة للمجموعات العسكرية المحترفة ، فى معظم البلاد الأخرى وعلى الأخص جدا فى تركيا واليابان •

فكل بلاد أوروبا الحضارية ، وكذلك اليابان صار لها جيوش على أساس التجنيد الاجبارى ، وبها مجموعة من الضباط الدائمين ، ونواة من المدربين معظمهم من الضـباط المتطوعين ، واحتياطى كبير من القوى البشرية المدربة عسكريا لمدة عامين فى العادة • وفى أى وقت معلوم كانت القوات الموجودة تتكون من العناصر الدائمة مضافا اليها الشبان الذين تتراوح أعمارهم عادة بين ١٨ و ٢٠ سـنة أثنـاء تأدية مدة الخدمة العسكرية • وفى بلاد أخرى ، وبخاصـة بريطانيا والولايات المتحدة ، كانت الجيوش تعتمد عموما على التطوع الاختيـارى • وكانت البحرية تعتمد على التطوع الاختيارى ، وفى بعض البلاد كان من حق المجنـدين أن يختاروا الالتحاق بالبحرية .

وكانت هناك هوة سحيقة تفصل بين الضباط والجنود • اذ كان الضباط عموما من الطبقات الاجتماعية العليا ، وكانت وظيفة الضابط تعتبر من المهن العليا • وفى بعض الفرق الاختيارية ذات السمعة الخاصة

والتقاليد الخاصة ، وهى غالبا فرق الفرسان أو وحدات الحرس ، كان الجنود المتطوعون أيضا يتمتعون بامتياز خاص وان ظلوا منفصلين عن طبقة الضباط بفاصل لا سبيل الى اجتيازه .

وفى بلاد كثيرة كانت نواة مجموعة الضباط من أبناء طبقة اجتماعية خاصة ، هى فى العادة طبقة كبار ملاك الأراضى ، وهذا من تراث المجتمع الاقطاعى الذى كان يربط بين وظيفتى امتلاك الأراضى والحرب . فقد كان من كل أسرة من ملاك الأراضى فى بروسيا وبريطانيا وروسيا وامبراطورية النمسا - المجر وأمريكا اللاتينية ، يلتحق بالحياة العسكرية فرد واحد على الأقل - لعله الابن الثانى للأسرة . وكانت هذه المهن شبه وراثية عند الكثيرين ، وبخاصة الأرستقراطية البروسية ، وكذلك كانت طبقات المهنيين تقدم كثيرا من الضباط فى هذه البلاد ، كما كانت تقدم أغلب الضباط فى البلاد التى ليس بها تقليد أرستقراطى مثل سويسرا .

ولما كان القادة العسكريون يختارون غالبا من الطبقات الاجتماعية العليا ، ومن القطاع الزراعى أكثر مما يختارون من القطاع الصناعى بالمدن ، فقد كانت المؤسسات العسكرية أميل الى أن تعكس وجهة نظر هذه العناصر . ولم تكن وجهة نظرها محافظة فحسب ، تعتمد على طبقة الصفوة وتعادى غالبا السياسات القائمة على المصالح التجارية ، بل كانت أيضا - مع بعض الاستثناءات البارزة - تميل الى عدم الاكتراث للمعرفة العلمية . فكان الضباط الألمان يعترضون على رفض قبول أبنائهم غير اللائقين فى المدارس الحربية ، بينما كان الضباط البريطانيون يصرون على أن مدى صلاحية الشاب للحياة العسكرية انما يتجلى فى الملاعب لا فى فصول الدراسة . وكانت البحرية على العموم أميل الى العلم من الجيوش البرية لأنه منذ بداية القرن العشرين صارت البحرية فعلا أكثر ميكنة من غيرها ، وان كان المسئولون عن ادارة السفن لم يصلوا الى مراكز الضباط .

وفى البلاد الأخرى كانت طائفة الضباط تنظم على أساس سلم وظيفى محكم لا تحدد الوظيفة فيه للمسئولية فحسب ، بل تحدد أيضا الوضع الاجتماعى . وكانت القوات البحرية والبرية ينظم كل منها على انفراد ، على أساس سلم وظيفى خاص به ، ولا يخضع أحدهما للآخر ، ولكل منهما معاهد تدريب وتقاليد وادارة وعلاقة خاصة بالجهاز الحكومى . وكانت الترقية للدرجات الأعلى من كادر الضباط متاحة لكل الضباط . وأدت الرغبة الى افساح مجال الترقية فى كثير من الأحوال ، بأعضاء البيروقراطيات العسكرية الى أن يقترحوا سياسات تجعل هذا الأمر

ممكنا . فسرعة الترقية تعتمد على معدل التوسع فى حجم الخدمة . وكان يحدث أحيانا احتكاك بين الشبان فى المواقع الدنيا والشيوخ فى القمة . ناتبعت أنظمة تخفيض سن ترك الخدمة فى بعض الجيوش ، لكى تتهيأ للجيش قيادة فتية ، وتمتلىء مراكز الضباط الشبان برجال جدد قادرين على الصعود .

وبينما كان هناك نظام مفتوح للترقية بين الضباط فلم يكد يكون هناك قبل الحرب العالمية الأولى طريق للالتحاق بفئة الضباط عن طريق الترقية من أسفل ، فالمجند يمكن أن يرقى الى رتبة صف ضابط ، ولكن لم تكن هناك فرصة تقريبا تتيح له أن يكون من هيئة الضباط .

وقد أدى الفصل الحاسم فى الأجهزة العسكرية الذى دعمته الفروق الطبقية ـ نقول أدى ذلك الى الطبيعة المتسلطة التى تسود المنشآت العسكرية . ففى المجتمعات التى تخضع لنظم استبدادية لم تكن المؤسسات العسكرية نشازا بالنسبة للنموذج الاجتماعى العام . فالجيوش البروسية واليابانية مثلا ، يمكن أن تعتبر صورا مبالغا فيها لبناء هذه المجتمعات التى تحكمها السلطة المستبدة والبناء الاقطاعى . والواقع أن الجيش الألمانى قد أعان على خنق الروح الليبرالية النامية فى هذه البلاد خلال القرن التاسع عشر .

وجمع الجيش اليابانى بين تقليد اقطاعى وولاء كامل للامبراطور ، وبين جوانب للتنظيم العسكرى مأخوذة عن ألمانيا . وكان لقادة الجيش فى اليابان نفوذ قوى دائما ، حاولوا أن يستغلوه للسيطرة على السياسة القومية بدرجات متفاوتة من النجاح .

أما فى بريطانيا العظمى فان التنظيم العسكرى يصور استمرار التقسيم الطبقى ولكن روحه الاستبدادية لا تنسجم مع الاتجاه نحو الصور الديمقراطية السياسية . ولقد كانت القوات المسلحة البريطانية فى السنوات الأولى من هذا القرن يعسكر معظمها فيما وراء البحار ، وكانت مشغولة أساسا بالمحافظة على الامبراطورية البريطانية . وقد أدى هذا الى تخفيف امكانية حدوث صراع بين المواقف الاستبدادية والمواقف الديمقراطية ، لأن هذه الأخيرة لم تمتد الى علاقات البريطانيين برعاياهم فى المستعمرات ، وهم من تعمل القوات المسلحة بين ظهرانيهم . وفى بلاد مثل الولايات المتحدة الأمريكية ودول اسكندناوه وهولندا كانت المؤسسات العسكرية المتسلطة غير منسجمة مع الاتجاه الديمقراطى للمجتمع ، وكانت هدفا للارتياب العام من جانب المدنيين .

وفى أمريكا اللاتينية كانت المنظمات العسكرية فى الواقع جزءا من بناء الحكومة . وعلى الرغم من أن معظم هذه الجمهوريات كانت تعيش فى ظروف تتطلب الانتخابات الحرة فان قليلا منها مثل أرجواى قد اتبعت الاجراءات الدستورية على نحو واسع النطاق . والواقع أن عددا كبيرا من الحكومات كان يقام أو يتغير بسبب تدخل الجيش .

وكانت الدول الاستعمارية الكبرى تنظم وتدرب بعض شعوب المستعمرات ، وتشكل فرقا من الوطنيين لتستخدمهم غالبا داخل المستعمرات . وكان أهم الجيوش فى المستعمرات هو الجيش الهندى والفرق الأفريقية الفرنسية . كذلك قام الهولنديون بتدريب الفرق الأندونيسية وفرق من المستعمرين من البلد الأم الذين تطوعوا للخدمة فى جزر الهند التابعة للأراضى الواطئة . وقامت أسبانيا بتجنيد المراكشيين ، وأنشأت بريطانيا بعض الفرق الافريقية بطريق التطوع .

وكان لبريطانيا هيئتان عسكريتان متميزتان فى الهند ، لكل منهما ضباط بريطانيون ، احداهما تتألف من وحدات الجيش البريطانى المعسكر هناك ، والأخرى تتألف من فرق جندت ودربت فى الهند . وكان الجيش الهندى الذراع الأيمن للامبراطورية البريطانية خارج أوروبا . وقد استخدم فى بورما والخليج الفارسى وافريقيا كما استخدم على حدود الهند ليستتب الأمر للسلطة البريطانية فى شبه القارة .

وكانت فرق المستعمرات الفرنسية تجند كجزء من الجيش الفرنسى الرئيسى لتعويض النقص فى عدد الرجال بالجيش الفرنسى . فبعد هزيمة فرنسا ١٨٧٠ حين هزم الجيش الفرنسى الأصغر عددا والأحسن تدريبا على يد الجيوش الألمانية الأكثر عددا ، صارت فرنسا تحرص على ألا تقل عن منافستها فى عدد رجال القوات المسلحة . ولقد أدى صغر عدد سكان فرنسا وانخفاض معدل المواليد بها الى صعوبة احراز المساواة العددية مع الألمان ، وان كان الفرنسيون ـ فى الأعوام التى سبقت الحرب العالمية الأولى ، قد استدعوا ٨٣٪ من القادرين على حمل السلاح ، بينما لم يستدع الألمان الا ٥٣٪ ولهذا اعتمد الجيش الفرنسى على التجنيد من مستعمراته فيما وراء البحار . وغداة الحرب العالمية الأولى كان حوالى ١٠/١ الفرق الفرنسية الفعلية من الافريقيين ، معظمهم من السنغال . وكان جميع ضباط هذه الفرق من الفرنسيين وظلوا كذلك باستثناءات قليلة حتى نشبت الحرب العالمية الثانية .

وتتمتع المنشآت العسكرية بالاستقلال الذاتى ، وتتطلع الى تحقيق كل ما تصبو اليه من استقلال فى العمل • وهى فى الديمقراطيات الليبريالية خاضعة للاشراف المدنى فى الأموال وتحديد السياسة ، ولكن حتى فى هذه الدول قلما كان لهذا الاشراف فاعلية بحيث يمتد الى البناء الداخلى أو اتخاذ قرارات عسكرية •

والهيئة الكاملة المسئولة عن السياسة العسكرية والاستراتيجية هى هيئة أركان الحرب • ولقد أنشئت هذه المؤسسة بالجيش الألمانى ، ونقل نظامها بحذافيره الى الجيش اليابانى ، واتبع نظامها بصور معدلة كثيرة فى جيوش بلاد أخرى، وبخاصة روسيا • وفى ألمانيا كان أعضاء هيئة الأركان العامة يختارون من بين هيئة الضباط ، على أساس واحد هو الكفاية • وكانوا يتلقون تدريبا مركزا مدة ثلاث سنوات فى الكلية الحربية • والنسبة الصغيرة من الدارسين بالكلية الذين أتموا هذا التدريب المضنى بعد ذلك سنتين يتتلمذون خلالهما لضباط الأركان العامة العاملين • ويشمل التدريب كل الجوانب العملية ، والمخابرات والنقل والامدادات ، مع دراسات تاريخية ونظرية لتقنيات الحرب ، بقصد تهيئة ضباط الأركان للفهم والتفكير الواسع الأفق على أساس عسكرى غير سياسى فى أمور الاستراتيجية العامة والتخطيط العسكرى •

وكانت هيئة الأركان العامة الألمانية التى دربت هذا التدريب وتميزت بزى رسمى خاص بها ، مجموعة مختارة صغيرة العدد لم يكن عددها يتجاوز ٢٧٦ عند نشوب الحرب العالمية الأولى • وكانت العلاقات بين أعضائها تقوم على روح جماعية قوية ، وهى علاقات شخصية أكثر منها بيروقراطية• وكانت الأركان العامة الألمانية تعتبر مجموعة من الخبراء أكثر من كونها بيروقراطية فى علاقاتها الداخلية •

وكان فى كل مركز من مراكز القيادة ضابط من هيئة الأركان العامة ، سواء أكانت القيادة لفرقة أو ما يعلوها ، أم القيادة العامة ، ويعمل ضابط الأركان عمل مستشار وثيق الصلة بالضابط المسئول ، فيشاركه فى اتخاذ قراراته واصدار الأوامر فى غيبته • وكان الاتصال بين ضباط الأركان العامة مباشرا لا يمر من طريق ضباط التنفيذ • وكان المفروض أن تتحقق بين كل أعضاء هيئة الأركان العامة وحدة المعرفة ووحدة الفهم ووحدة النظر الى الاستراتيجية العسكرية الكاملة ، وبذا تتحقق وحدة الهدف ووحدة التوجيه للمجهود الحربى • وهى تخطط وتعمل كقوة تتمتع تقريبا بالاستقلال الذاتى داخل الدولة •

غير أن دولة من الدول التى أنشأت هيئات الأركان العامة المختلفة لم تتبع النموذج الألمانى فى جعل الهيئة دائمة صغيرة العدد «من الصفوة» ومرتبطة فيما بينها بروابط شخصية فى جوهرها ، وان كان النموذج اليابانى قد جاء قريبا جدا من النموذج الألمانى ، سواء فى قلة عدد الهيئة وتوحيدها بين السياسة العامة والأهداف العسكرية • أما فى بلاد أخرى فقد كانت هيئة الأركان العامة كبيرة العدد ـ فقد بلغ حجم هيئة الأركان العامة الفرنسية فى بداية الحرب العالمية الأولى أكثر من ثلاثة أمثال حجم الهيئة الألمانية بالنسبة لعدد الفرق ، وكانت بيروقراطية فى علاقاتها الداخلية • وأحيانا ، كما هى الحال فى الولايات المتحدة حيث لايتحمس القوم لفكرة ايجاد هيئة خاصة من الصفوة ، كان أعضاء الأركان يتغيرون دائما • وفى بريطانيا لم تقبل فكرة المقدرة فى كل الميادين فأخذ بفكرة التقسيم الى العمليات والمخابرات من جهة والنقل والامدادات من جهة أخرى • ولكن فى داخل كل بناء عسكرى توجد هيئة وظيفتها التنسيق والقيادة المثقفة للتخطيط العسكرى والأعمال العسكرية وتمثل السلطات العسكرية أمام السلطات المدنية والسكان المدنيين •

وكان اهتمام المنشآت العسكرية فى السنوات الأولى لهـذا القرن متجها الى الرجال فى المحل الأول ولم يكن يتجه الى المهام الا على نحـو ثانوى • ونظرا لأن قليلا من القادة العسكريين كانوا ينتمون الى القطاع الصناعى بالمدن فقد كانت عقولهم فى كل مكان تمثل عقلية ما قبل عصر الصناعة • وكانت القيم والعلاقات عندهم شخصية لدرجة قوية • ولم يكن لهم عهد بالحســاب الاقتصادى ولا ميـل الى احلال الآلات محـل الأيدى العاملة ، أو اتباع نماذج التنظيم الصناعى • لم يكن بوسعهم أن يتخيلوا أهمية الصـــناعة أو علاقاتها المحتملة بالعمليات أو الأهداف العسكرية • لقد كان العسكريون يجهلون العلم تماما فلم تكن لديهم خبرة بالطرق العلمية أو الصناعية ، فتركوا زمام المبادرة فى انتاج الأسلحة لأصحاب المصالح •

٢ ـ صناعة الأسلحة

فى بداية القرن العشرين كان انتاج الذخائر عملية مستقلة محكمة التنظيم • وبينما كانت المنشآت العســكرية نفسها تتشبث بنظرة زراعية اقطاعية فى جوهرها ، فان صناع الأسلحة قد أخذوا فى تحويل طبيعة الحرب وأخذوا أخيرا فى تغيير طبيعة « العسكرية » ودورها •

كانت تسيطر على كافة الميادين مجموعة من شركات الذخائر الخاصة الكبرى ، جاء كل منها نتيجة لسلسلة من الادماجات والتوسعات • فاتحاد شركات نوبل للديناميت.Tre Nobel Dynamite Trust Co. Ltd تكونت نتيجة ادماج شركات المسحوق غير ذى الدخان والديناميت التابعة ، للممول السويدى الفريد نوبل كانت مركز التجارة العالمية فى المتفجرات • وأدمجت (فيكرز وارم سترونج) فى انجلترا فى تسعينيات القرن الماضى فصارت هذه المؤسسات العملاقة أكبر شركة للأسلحة فى العالم ، لانتاج مهمات الجيش والمصفحات والسفن البحرية للسوق العالمية • ولها فروع فى اسبانيا وايطاليا وروسيا واليابان وفرع رئيسى فى ألمانيا • لقد ابتلعت مصانع كروب الألمانية فى تسعينيات القرن الماضى الشركات الأصغر ذات المنتجات المتخصصة ، وأضافت السفن البحرية الى اختصاصها الأول فى المصفحات والمدافع . واستطاعت مع منافستها المغامرة ايرهارد أن تحتكر الى حد كبير السوق الألمانية ، وأن تكون لها أسواق واسعة فى الخارج • وكانت شنيدر - كريزو فى فرنسا من أقدم شركات انتاج الذخائر ، وكانت فى مقدمة شركات تصميم مدافع الميدان • وكانت مصانع سكودا النمساوية فى بوهيميا التى تصنع أساسا قطع المدافع والمصفحات والمركبات ، تستخدم بعض مخترعات كروب • وكانت شركة بوتيلوف فى روسيا تعمل بالتعاون مع الشركات البريطانية والفرنسية والنمساوية •

أما فى الولايات المتحدة فلم يكن انتاج السلاح مطلقا فرعا متميزا من فروع الصناعة ، وان كان هناك بعض المنتجين المتخصصين مثل شركة ديبونت الكيميائية • وكان الانتاج للأغراض الحربية فرعا من انتاج صناعى قائم بالفعل ، موزعا على شركات كثيرة • ولم يكن هناك ملوك للسلاح ، ولا شركات أمريكية كبرى مندمجة دخلت سوق التسليح العالمى • وفى اليابان كان ظهور الصناعة الثقيلة نفسها الى درجة كبيرة يستهدف الانتاج الحربى ، وكانت تحظى منذ البداية بقدر كبير من تأييد الحكومة ومساهمتها المالية . أما الدول الصغرى فكانت فى العادة تشترى أسلحتها من كبار المنتجين ، وان وجدت بعضها الوسائل لصنع بعض الذخائر الخاصة أو بناء سفن بحرية •

ولم يكن كبار صناع الذخيرة بعيدين تماما عن الانتاج المدنى • فكثير من مصانع الذخيرة الكبرى جاء من نمو مصانع انتاج السلع المدنية مثل صنع الأدوات من الحديد والصلب ومختلف أنواع الأدوات • وقبيل الحرب العالمية الاولى كان ٦٠٪ من انتاج شركة فيكرز من السلع غير

العسكرية • وظلت كروب منتجا رئيسيا للصلب للصناعة الالمانيـــة ، وللمنتجات الصناعية وبخاصة مهمات السكك الحديدية •

ومع ذلك ، كانت هذه الشركات شديدة الاهتمام بترسيع السوق أمام الذخائر حيثما أمكنها ذلك ، كما كانت تستخدم فى سبيل الربح كل الوسائل المعروفة فى عالمى التجارة والسياسة لتقوية الرغبـــة فى الحصـــول على أسلحة أفضـــل وأكثر • وكانت هى التى تقدم وتحسن التصميمات الجديدة وكثيرا ما كان يشار اليها جميعا بعبارة «تجار الموت» وصـــارت الصـــورة المثيرة لبازيل زهاروف ، رئيس مجلس ادارة شركة فيكرس أرم ستونج ، و هويسير على نحو خبيث من مقاطعة الى أخرى رمزا للدور الشرير الذى يقوم به صناع الذخيرة (٢) •

٣ ـ تحول المؤسسات العسكرية بسبب الحرب الشاملة

ان كلا من طبيعة المنشآت العسكرية ومكانها فى المجتمع الكلى قد تغيرا بسبب الحرب الشاملة • فالحرب العالمية الاولى قد جعلت كل شيء يربط المنشآت العسكرية بالماضى الاقطاعى أمرا عتيقا لا يصلح لهـــذا الزمن • فاختفى الفرســـان ازاء اســـتخدام الدبابات وما اليها ، الا فى روسيا حيث الأوحال البالغة البرودة والعمق قد جعلت استخدام المركبات الحديثة غير عملى فى بعض الاحيان • وقد ثبت عدم غناء فرق الحرس الخاص التى كانت فخرا أو زينة عديد من الجيوش وانفتحت طبقة الضباط المقفلة انفتاحا جزئيا لأفراد من طبقات مختلفة حين تزايد حجـــم الجيوش أثناء الحرب • واحتاجت الحرب الميكانيكية الى معرفة تكنولوجية، ومهارات فنية ، وتطلبت تنظيم خدمات اضافية جـديدة كثيرة ، كمـــا احتاجت الى تقديرات تعتمد أكثر فأكثر على مواد الحرب والأفراد .

كذلك غيرت السمة الجديدة للحرب من العلاقة بين الخدمات الحربية المتعددة • اذ كان الجيش والبحرية تحت قيادات منفصلة • وأدى ظهور القوة الجوية الى ايجاد سلاح ثالث • وفى كل قطر كان على الســـلاح الجوى أن يكافح من أجل تقرير وضعه ازاء الجهود التى كانت تبذلهـــا الاسلحة الاقدم عهدا لاعتبار الطيران مجرد قوة مساعدة لعملياتهـــا ، لا سلاحا قائما بذاته • ولم يكن هناك اندماج أو حتى تنسيق كامل بين الاسلحة الثلاثة فى أى بلد من البلاد • وقد أدت عدة عوامل مجتمعة الى ابقاء الأسلحة الثلاثة مستقلة بعضها عن بعض ، منها تقاليد الاستقلال فى الادارة والولاء لسلاح بعينه والتزام السرية ، والصعوبة التى كان

يلقاها أى فرد يحاول أن يفكر في شمولية الجيش ازاء التعقيدات المتناهية للحرب الحديثة ، والمبادىء التى تلقن لكل ضابط أثناء تدريبه ، وكثيرا ما كان يقوم التنافس بين هذه الاسلحة ولكن التطورات التكنولوجية كانت دائما تدفع بالسلاح الجوى الى وضع رئيسى تتزايد أهميته باستمرار .

ولقد أخذت المنشآت العسكرية الجديدة كثيرا من سماتها عن المشروعات الصناعية الكبرى . فقد اكتسبت المؤسسات العسكرية كثيرا من خصائص المؤسسات المدنية كالطرق الحديثة لادارة الاعمال ، وتنظيم العمل والمحفوظات ، وما الى ذلك من وسائل التصنيف والحفظ والمراجعة والاتصالات وكافة الوسائل المتبعة في تنفيذ العمليات الصناعية الكبرى.

وأقيمت وحدات أو فروع خاصة للقيام بعملية التعبئة الصناعية وكان النموذج المعتاد هو أن تستمر هيئات الاركان العامة فى القيام بشئون العمليات العسكرية بينما تنشأ أجهزة متميزة بالجوانب الصناعية والامدادات ، مثل وزارة الامدادات فى بريطانيا العظمى ، والكلية الصناعية الحربية فى الولايات المتحدة ، ومكتب الاقتصاد والتسليح فى القيادة الألمانية العليا .هذه الأجهزة كانت مسئولة عن تقدير الامكانيات الصناعية لبلادها ، واستنباط الاجراءات التى تتبع فى التعامل مع الشركات المدنية واقامة نظام للتعبئة الاقتصادية .

وحيثما تقدم التخطيط الاقتصادى المركزى فى الأعوام التى تلت الحرب العالمية الأولى ، كما حدث فى الاتحاد السوفييتى ، أصبح التخطيط الحربى جزءا منه لا يتجزأ . ففى روسيا السوفيتية فى ظل الخطط الخمسية المتعاقبة ، كانت احتياجات الجيش الاحمر يقررها نفس الجهاز المختص بربط الاعتمادات وتقرير الأولويات فيتبع فى شأن الجيش الأحمر ما يتبع مع غيره من المرافق مثل القوة الكهربية والزراعة والنقل . وكانت الخطة الخمسية فى جوهرها خطة للتنمية السريعة للامكانيات الصناعية للاتحاد السوفيتى . فلما حلت أهداف الحرب محل أهداف السلم أمكن بسرعة تحويلها الى خطة اقتصاد حرب كما حدث فى أغسطس ١٩٤١ . أما خطة السنوات الاربع فى ألمانيا عام ١٩٣٦ فمع أنها فى الأصل قد رسمت أساسا لمواجهة النقص فى المواد الخام ، فانها أصبحت اطارا للتعبئة الاقتصادية من أجل الحرب العالمية الثانية .

وفى بلاد مثل فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة حيث ظل النشاط الاقتصادى العام غير منسق ، فان خططا للتعبئة الصناعية من وضع السلطات العسكرية قد أخذت شكل اطارات عامة استخدمت ، وبخاصة فى بريطانيا لتوجيه الجانب الصناعى من التسلح فى الثلاثينيات ، وكانت تستهدف وضع سياسة ادارية للتصرف فى الموارد وتوجيهها فى وقت الحرب ٠

وفى اليابان رأينا أن سلسلة من اتحادات الرقابة على جميع الصناعات كانت هى الاداة التى أمكن بفضلها فى السنوات العشر التالية لعام ١٩٣١ زيادة الانفاق العسكرى بما يعادل ثمانية عشر مثلا بالنسبة لما كان عليه ، وكان هذا يمثل الاقتصاد الحربى لليابان ٠ كذلك حدث تحول فى صناعات الذخيرة ٠ فقبل الحرب العالمية الاولى كانت شركات الاسلحة شركات خاصة ، تتجاوز الاحتياجات القومية ، وتنتج وتبيع أدوات الحرب فى السوق المفتوحة ٠ وكان كل منها هو المورد الرئيسى لامداد القوات المسلحة فى بلاده بالذخيرة ، ولكن الشأن فى هذا لم يكن يختلف عنه فى منتجات معظم الشركات الصناعية التى تكون معظم مبيعاتها فى السوق المحلية ٠

فلما أظهرت الحرب العالمية الاولى أن عددا قليلا من شركات انتاج الذخيرة لا يستطيع الوفاء باحتياجات جيش ضخم ، واخذت الحكومات تعتمد على كل مواردها الصناعية ، فقدت شركات الذخيرة دورها الرئيسى وأصبحت مجرد منتج واحد من بين منتجين كثيرين للامدادات العسكرية خصوصا وان المبادأة فى تصميم الاسلحة قد أخذت تنتقل من الشركات المنتجة الى الجيوش التى تبحث عن أسلحة جديدة ٠

وفضلا عن ذلك فان الحرب الشاملة الجديدة ــ حرب الشعوب وحشد الامكانيات كلها ــ جعلت استقلال صانعى الذخيرة وحرصهم على طابعهم الخاص لم يعودا يتفقان مع طابع الحرب والصالح القومى ٠ فاذا قامت أمة بجهد جماعى ضخم يتطلب تعبئة كل طاقاتها وأصبحت القدرة العسكرية للأمة تقاس بطاقاتها الانتاجية أكثر مما تقاس بالقوة البشرية ، فقد أصبح ملاك صناعات الذخيرة من دعائم القوة الحربية القومية ، ولم يعودوا مجرد رجال أعمال يبيعون حيثما شاءوا ٠ فبيع الأسلحة لدولة أخرى على نحو ما كانت تفعل شركات الذخيرة فى الماضى بحرية ، أصبح عملا سياسيا لا صفقة تجارية ٠ ومع أن مصانع الذخيرة الكبرى قد استمرت فى الازدهار والتوسع ، فقد فقدت مركزها الحيوى كمنتج للأسلحة ،

كما فقدت استقلالها فى العمل خارج البلاد • فبدلا من الصورة الرمزية التى تمثل بازيل زاهاروف يحاول أن يروج لمبيعاته بتحريض دولة على أخرى ، وحملها على التنافس والمزايدة للحصول على أسلحة من فيكرز هارم فقد صار الرمز الجديد هو صوره موكب طويل من رجال للصناعة يتفاوضون مع حكوماتهم بشأن طلبيات عسكرية متنوعة غاية التنوع ، قد تمثل من ٥٪ الى ٩٠٪ من انتاجهم وقت السلم و ١٠٠٪ من انتاجهم زمن الحرب •

واعتبار الاقتصاد الكلى لندولة جهازا قوميا للانتاج الحربى الشامل يتمثل تماما فى الاكتفاء الذاتى المطلق الذى سعت الى تحقيقه ألمانيا النازية ، كما سعت اليه بعض الدول الاخرى بدرجة ما • لقد أخذ هتلر فى اعتباره آثار الحصار خلال الحرب العالمية الأولى ، فحاول أن يجعل الاقتصاد الالمانى مستقلا عن الاتجار مع الدول الاخرى ، وكلف العلماء باستنباط بدائل للمواد التى كانت تستورد من الخارج • وحاول البرنامج اليابانى للتوسع أن يبنى منطقة اكتفاء اقتصادى ذاتى ، بحيث تندمج موارد كوريا ومنشوريا وأرض الصين وجنوب شرق آسيا ، وبخاصة ما كان منها ضروريا للانتاج الحربى فتندمج موارد هذه البلاد ولا تعود جزر اليابان بسكانها الكثيرين ، ومواردها المحدودة ـ معتمدة على تقلبات التجارة الدولية وفى الظروف الفعلية للحرب العالمية الثانية وجدنا أن الاقتصاد البريطانى الذى لم يسبق له أن حاول الوصول الى الاكتفاء الذاتى قد عبىء على نحو أكمل واندماج أتم ، فى المجهود الحربى ، يفوق ما حدث فى ألمانيا •

وتعكس التغييرات فى التنظيم العسكرى تغييرات فى المجتمع كله كما تعكس تغييرات فى طرق الحرب • فبناء الجيش السوفييتى ، والعلاقات بين ضباطه وجنوده تعكس بناء المجتمع السوفييتى والدور الذى يلعبه فيه الحزب الشيوعى • ذلك أنه لما كان الحزب يدير كل نواحى النشاط فى الدولة • كان المسئول السياسى الذى يمثل الحزب جزءا أساسيا فى التنظيم الحربى ويختلف وضعه طبقا للتغييرات التنظيمية فى الجيش والبحرية كما يتفاوت بمقدار الحاجة الى تقوية نفوذ الحزب فى فترات محددة •

كذلك فان المصادر التى تؤخذ من القيادات الحربية السوفيتية هى على النقيض مما كان يحدث فى أيام القيصرية ، اذا استثنينا بعض الضباط من العهد القيصرى الذين اندمجوا فى النظام الجديد وآمنوا به •

فالضباط الجدد تاتى غالبيتهم من بين أبناء العمال والفلاحين الذين اجتازوا مراحل تعليمية مركزة ، قصد بها اختيار أقدرهم على التقدم والنمو وقد جاء وقت كان الكثيرون منهم من أبناء ضباط الجيش الاحمر نفسه . ومقومات الترقى فى حياة الضباط هى النبوغ الاكاديمى فى المواد العلمية والتكنولوجية وثقة الحزب وكذلك فانه من مراحل البناء العسكرى أيضا قد اختفى الفاصل القديم بين الضباط والجنود ، وحلت محله العلاقات الاجتماعية الأكثر سماحة ، كما فتح طريق الترقية أمام الجنود الذين يظهرون كفاءة ، ويتلقون تدريبا خاصا فيصبحون ضباطا . وبمضى الزمن وتحول السياسة السوفيتية العامة من المساواة العامة الى رفع أجور من يؤدون للدولة خدمات أكبر أصبحت فئة الضباط من الفئات العاليـــة المرتبات . وعادت الرتب والألقاب الى سابق أهميتها . فالجيش الأحمر مرآة صغيرة ترى الحياة السوفيتية بأسرها من خلاله .

ولقـد أصبح التحرير الشعبى فى الصين هيئة فريدة فى نوعها . فهو من الناحية العسكرية ينظم لخوض حرب العصابات والحرب النظامية ومن حيث هو أداة من أدوات الثورة الاجتمـاعية فقد قام باصلاح قرى الفلاحين فى المناطق الواقعة تحت رقابته ، فجعل الفلاحين أشبه بجزء من الجيش نفسه .

وفى الدول الفاشية كان التنظيم العسكرى هو النموذج والمثـــال الذى يحتذيه تنظيم المجتمع . وكما قال الفريد روزندرج ، فيلســــوف الاشـــتراكية الوطنية ، لقد كان الأسلوب الدائم لحياة الألمان فى ظـل الاشتراكية الوطنية هو (أسلوب الصف العسكرى فى مسيرته ، بصرف النظر عن وجهة هذه المسيرة أو هدفهـا) . وتحويل كل المؤسســـــات الى مؤسسات عسكرية قد ذهب خطوة أخرى فى ألمانيا النازية واليابان بعد عام ١٩٣١ ولكنه كان من النقط الاساسية فى مبادىء وبنيان ايطاليـــا الفـاشية وأسبانيا الفالنجية ، وكان يلون الديكتاتوريات العســـكرية فى أوروبا الشرقية .

والتنظيم العسكرى الشامل للحياة المدنية هو الى حد ما تعبير عن الفكرة القائلة بأن الحرب هى الهدف الجوهرى للدولة . قال بنيتوموسولينى فى مقال كتبه عن «الدولة» فى دائرة المعارف الايطالية : «الحرب وحدها هى التى تبلغ بالطاقات البشرية غاية شدتها وتضفى نبلا على الشعـوب التى تجرؤ على خوضها » ، ومع ذلك فان الأســلوب العســكرى يكون فى ذاته أيضا طريقا للحياة .

وفى المانيا النازيه كان مبدأ الاستبداد الجماعى يتستر فى كل مكان برداء عسكرى . فكل المنظمات التى تقوم على أساس ديمقراطى حلت محلها هيئات شبه عسكريه . فنقابات العمال أصبحت جبهة العمال ، وكل مصنع وحدة عسكرية تكون فيه علاقه الادارة بالعمال هى علاقة الضباط بالجنود . وجند الشبان فى منظمات هتلر للشباب وجندت النساء فى جبهة النساء ، وكان لكل مهنة تنظيمها الرسمى الذى يسوده الطابع العسكرى . وغزت المصطلحات العسكرية اللغة فى كل نشاطات البشر .

ووسط المؤسسات شبه العسكرية لهذا المجتمع صار للقوات المسلحة مكان رئيسى سواء من حيث أنها نموذج للآخرين ، ومن حيث أنها تمثل السلطة ، وكانت تنتظم الخصائص والأفراد والمواقف التى تميز طبقة الضباط التقليدية ، مع مظاهر جديدة تعبر عن الحرب الميكانيكية الجديدة والتغيرات الاجتماعية التى صحبت النظام النازى ومع أن الضباط ظلوا يختارون من المجموعات القديمة التى كانوا يختارون منها فى ١٩٣٦ كان خمسة من كل ستة من كبار الضباط وحوالى الربع فى رتبة عقيد فما فوقها ينتمون الى طبقة النبلاء . مع ذلك فقد اجتذبت القوات المسلحة اليها بعض الكفايات . فأصحاب رتبة عقيد وعميد فى هذه السنة كان منهم خمسة من الحائزين للقب الدكتوراه ، ولا ينتمى أحدهم الى طبقة النبلاء . ولقد لقى الجيش النظامى التحدى لمركزه – كما لقى استكمالا لقوته – من جانب قوات العاصفة وبخاصة ألوافن س . س . وكانوا يتألفون من شباب من كل الطبقات وكان لزيهم البنى والأسود تأثير منحهم السلطة والمكان المرموق .

٤ – المؤسسات العسكرية المدنية فى الحرب العالمية الثانية :

أتمت الحرب العالمية الثانية تحويل المنشآت العسكرية الى مؤسسات مركزية للمجتمعات الصناعية ، تشارك ، وغالبا ما تقود حركة التطور التكنولوجى والعلمى . فالتعبئة الاقتصادية وعملية الميكنة فى هذا الصراع التى بلغت حدها الأكمل أدت الى ادماج مدنيين من ذوى العلم والمهارات الخاصة مثل مهندسى الانتاج وخبراء الادارة والعلماء والفنيين من شتى الأنواع ، فى أسلحة الجيش فى رتب تدل على خبرتهم المدنية لا فى السلك الوظيفى العسكرى . ولقد ووجهت مشكلات الحرب العالمية الخاصة بالامدادات بتشكيل منظمات دقيقة محكمة تتضاءل ازاء ضخامتها أكبر الشركات الصناعية . واذا استثنينا الدول الشيوعية حيث الاجهزة الادارية المركزية

تعمل باستمرار ، فقد كان لابد من خلق ادارات الحرب . عن طريق توسيع الوكالات القائمة ، كما حدث فى ألمانيا وفرنسا وايطاليا واليابان ، أو عن طريق اقامة وكالات جديدة كما حدث فى بريطانيا والولايات المتحدة .

وكان تصـميم وتوصيف ملايين من احتياجات الحرب ، وتحـديد مقاييسها وكفالة انتاجهـا ، وتنظيم توزيعها فى الوقت الصحيح ، كل هذا كان يتطلب عددا ضخما من الموظفين وأنظمة دقيقة للمحاسبة والتسجيل ومعرفة العمليات الصناعية وفهمها مما يزيد كثيرا عما هو ضرورى من العمل العادى وقت السلم • وأدى تعقيد هذه العمليات الى ايجاد صعوبة كبيرة فى تطبيق المفهوم التقليدى لهيئة الأركان العامة على أنها لم تستطع أن تفهم وأن تدير كل مراحـل المجهـود الحربى . فضاق مجال الأركان العامة فى كل مكان ، واقتصر على عمليـات الميـدان بينما تعبئـة القوى البشرية ، والتوسع الصناعى قد وضعا تحت ادارة هيئـات مثل وزارة الامدادات البريطـانية التى زاد عـدد موظفيها من ٥٠٠٠ شـخص الى ٦٨٫٤٩٦ أو مكتب الانتـاج الحربى الأمريكى الذى بلـغ عدد موظفيـه ٣٠٠٫٠٠٠ شخص •

وأدى الانتاج الكبير والتسليح الواسع النطاق الى ايجاد مشكلة « الجمود » وهى مشكلة خطيرة ، فمعظم المنتجات الصناعية تتطلب سـنة أو سنتين من تاريخ التصميم الأصلى الى الانتاج الفعلى • ولكن التقدم فى الأسلحة يأتى سريعا جدا ، لدرجة أنه يلزم غالبا تخطيط نموذج جديد قبل أن يبدأ النموذج السابق فى الخروج من المصنع • وقد أنشئت مراكز التعديل فى الولايات المتحدة الأمريكية منعا لضياع الوقت ومهمتها ادخال التعديلات الخاصة على المنتجات التى تم صنعها من قبل ، وبمجرد شحن الامدادات فانها تمضى الى المكان المحدد لها بالنظام والتوقيت المقررين لها وقت قيامها • ولا يمكن اعادة تحويلها اذا اشتدت الحاجة اليها فى مكان آخر ، الا بانشاء جهاز ضخم للتسجيلات أى بانشاء محطات تحويل على طول الخط الملاحى •

وتحقيق التوازن بين المتنافسين على طلب القوة البشرية وتوسيع هذه القوة واستخدامها تتضمن عملية معقدة مستمرة من عمليات الترشيح للتعيين والنقل والتدريب واعادة التدريب ويمكن مباشرة الحاق حوالى ثلثى قوة العمل الكلية بالخدمة العسكرية والانتاج الحربى والدفاع المدنى وكانت التقديرات فى بريطانيا العظمى هى ٢٢٪ فى الخدمة العسكرية ، و ٣٣٪ فى الانتاج الحربى وربما ١٠٪ فى الدفاع المدنى • ويترك الباقون

لمهمة الانتاج المدنى • ولقد زاد حجم القوة العـاملة باستخدام النســاء والشباب دون سن التجنيد ، وفى ألمانيا زادت القوة العـــاملة بحوالى ١٠ مليون مسخر من المناطق المحتلة أو من أسرى الحرب •

وقد جرت الطريقة التقليدية على ارسال الشبان الاكفاء الأصحاء الى جبهة القتال وبقاء الآخرين ببلادهم ولكن هذا لم يعد يتفق مع الحاجة الماسة الى المهارات المتخصصة فى الانتاج الحربى ، هذا ما تبينه الفرنسيون من أنهم أفسدوا عملية التعبئة الصناعية حين استدعوا قواتهم العسكرية على هذا الاساس سنة ١٩٣٩ ، فكان لا بد من ابتكار نظام للاعفاء من الخدمة العسكرية لمن يشغلوا مراكز حساسة •

فحين أرسل المدنيون المهرة للعمل فى النشاط العســكرى كان لابد من أن تشغل مراكزهم بترقية من هم أقل مهارة عن طريق التدريب الخاص بينما يحل محلهم من يقلون عنهم مهارة أو المعينون الجدد بعد تدريبهم على شغل وظائفهم • وفى الولايات المتحدة فى ذروة المجهود الحربى كان ٢٢٪ من مجموع القوى العاملة ملتحقين فى وقت ما فى نوع أو آخر من برامج التدريب التى أنشئت لمواجهة هذا الموقف ، وانتقل ١/٥ مجموع السكان أو أكثر من مواطنهم فى أثناء عملية اعداد القوة البشرية لاحتياجات الحرب وكانت المشكلات أعظم فى البلاد التى تعرضت لقذف القنابل أو للغزو أعنى مشكلات اعداد القوة العاملة بما تستتبعه من صعوبات الاســكان والنقل ووسائل المعيشة •

وقد أدت احتياجات الحرب للقوة البشرية الى احداث توسع أساسى فى مفهوم الخدمة القومية • ففى قانون التنظيم القومى الفرنسى الصــــادر سنة ١٩٣٨ بعد أربعة عشر عاما من المناقشة والتجربة ، اختفى مبـــدأ « الخدمة العسكرية العامة » وحل محله مبدأ « واجب الدفاع القومى» الذى يشمل كل المواطنين سواء من يطلب منهم أداء واجبات فى الحرب أو من يطلب منهم الاعداد لما بعد الحرب •

ولقد عبر قانون الطوارىء البريطانى الصادر فى عام ١٩٤٠ عن نفس المبدأ حين نص على ان كل الأشخاص قد يدعون الى وضع «أنفسهم وخدماتهم وممتلكاتهم » تحت تصرف صاحب الجلالة ، ولقد طبق مبدأ شبيه بهـذا على نحو أكثر شمولا ، فى الاتحاد السوفيتى • وطبق على نحو أقل اطرادا فى ألمانيا وايطاليا واليابان •

والاستقرار الاقتصادى فى وجه الجهود التضخمية الشديدة ،يتطلب

أن يحل التقدير الادارى محل قوى السوق التى تكون لها اليد العليـــا فى معظم العلاقات الاقتصادية وقت السلم فى الدول غير الشيوعية • فكان لا بد من اقامة منظمات ادارية تتغلغل حتى تصل الى كل مجتمع مهما صغر ، لتنفذ نظم الرقابة على الأسعار والأجور وحصص التموين وتوزيع مواده • ولكفالة التأييد الايجابى من جانب السكان ، ولتحطيم الروح المعنوية عند العدو ، حاولت وكالات الدعاية والروح المعنوية تقوية الجبهة الداخلية المدنية ، وشن حملات حرب نفسية على معسكر المدنيين فى بلاد الأعداء •

فلما صارت الحرب تستنفد الطاقات القومية على نحو أشمل زادت صعوبة التنسيق بين كل جوانب الحرب سواء فى داخل القطاع العسكرى أو بين القطاعين العسكرى والمدنى ولكن برغم اقامة كل بلد جهـازا لهذه الأغراض فان الاستقلال التقليدى لكل سلاح من الاسلحة الحربية قد ثبت أنه أقوى من أن يتغلب عليه • وكانت حكومة بريطانيـــا وقت الحرب من الحكومات القليلة التى استطاعت أن تحصرالاحتياجات العسكرية والمدنية والموارد الكاملة اللازمة لمواجهتها واصدار وتنفيذ القرارات التى تحقق الاستخدام المتوازن تماما للقوة البشرية والمواد . وفى الاتحـاد السوفييتى كانت ادارة الحكومة فى السلم لحركة الاقتصاد تقـــدم كل الاحتياجات العسكرية والمدنية وتنظم العلاقات فيما بينها وبذا كانت فى وضع ممتاز يمكنها من تنسيق المجهود الحربى القومى •

٥ ـ المؤسسات العسكرية فى العصر النووى

بعد الحرب العالمية الثانية اشتد الصراع لاحراز السبق العلمى ، فأضافت المؤسسات الحربية الى أجهزتها هيئات علمية كبرى لا تشتغل فقط بالعلم التطبيقى بل بالعلم البحت أيضا • ولقد استخدمت الاعتمادات المخصصة للقوات المسلحة لتقديم تسهيلات للبحث ، وبخاصة فى ميدان الطبيعة النووية ، حيث يحتاج البحث الى معدات باهظة التكاليف • وتقوم المعامل التى تديرها المنشآت العسكرية مباشرة مثل معمل بحوث البحرية فى الولايات المتحدة ، بعمل كبير تكمله أبحاث أخرى ضخمة ، تقوم بهـا الجامعـات والمؤسسات الأخرى تنفيـذا لعقـود تبرم بينهـا وبين القوات المســلحة •

واذا كانت الميـادين المختارة للدراســة قد أوحت بهـا أول الأمر المشكلات العسكرية ، مثل الحاجة الى معرفة التركيب الأساسى للمعادن أو

معرفة المزيد عن الأيونات التى يعتمد عليها الرادار ، فقد أدى هـذا الى دراسات علميـة أساسية • فطبيعة الحرب الحـديثة قد جعلت الكشوف العلمية مهما تكن أساسيتها قابلة للتطبيق المباشر على الأغراض العسكرية. وفى العصر القلق الذى تلا الحرب العالمية الثانية ، صار العلم بدوره يعتمد بقدر كبير فى تقدمه على الاعتمادات المـالية الضخمة التى تكون للسلطات العسكرية أفضلية فى الحصول عليها وامداد مراكز البحث بها • وثمة خطر ممكن قد ينجم عن هذه العلاقة ، ويهدد الطبيعة الخلاقة للعلم فى المستقبل• وقد أصبحت المشكلة تقلق بال كثير من العلماء وتزعجهم •

وقد استمر دور المنشآت العسكرية فى ميدان الانتاج الحربى يتسع حتى أصبحت هذه المنشآت موصولة بالاقتصاد المدنى بأواصر لاتنفصم وفى العمل المشترك بين المصانع وأسلحة الجيش يقوم الجيش بتحديد المشكلة التى يواجههـا وغالبا ما يقترح التصميمـات الملائمة ، ويقوم المنتجون ، وبخاصة الشركات الكبرى ، والشركات المتخصصة فى منتجات بعينها ، باعداد نماذج محسنة ، وتتنافس فيما بينها فى الوفاء بما تتطلبه السلطات العسكرية والحصول منها على أوامر تشغيل ، كما تتنافس فيما بينها فى اجتذاب ألمع العقول الهندسية •

وعلى العموم فان طلبيات التشـغيل الخاصة بالامدادات العسـكرية تميل الى أن تأخذ طريقها الى الشركات الكبرى ، رغم ما يقال كثيرا عن قيمة تعدد الموردين مما يحقق المرونة ويجنب التعرض لهجمات مركزة • ذلك لأن الشركات الكبرى هى الأقدر والأفضـل لتقـديم كميات ضخمة ومواصفات موحدة • فثمة مئات الآلاف من المواد تطلب ، ومن الأسهل للسلطات العسكرية أن تتعامل مع مقاول كبير من أن تتعامل مع عدد كبير من صغار المقاولين • واذا كانت الموارد الانتاجية عند الصغار هى المطلوبة، فانه يمكن الحصول عليها بالسماح للمورد الأساسى بأن يتعاقد من الباطن مع شركات صغرى • وكانت النتيجة زيادة قوة الشركات الكبرى وصارت صلة المنشآت بهذه الشركات شديدة التشابك •

هـذا الى أن التطورات التكنولوجية والعلمية البـالغة السرعة التى جعلت كل ابتكار جديد يبدو عتيقا قبل انتاجه ، قد أوجدت مشكلة هى : هل تكدس السلطات العسكرية مستودعات ضخمة بالأسلحة أو تركز اهتمامها على التأكد من أن الطاقة الصناعية يمكن فى أية لحظة أن تتحول الى الانتاج الحربى اذا اقتضى الأمر ؟ قبل الحرب العالمية الأول كان معظم القادة العسكريين يفترضون أن الحروب الحديثة يجب أن تكون قصـيرة ، وحاسمة ، وأن أى حـرب قد تنشب فسـوف تكون أساسا بالأسـلحة

الموجودة عند بداية الحرب ، وان كان أصحاب الاستراتيجية البريطانية فى اعتمادهم على سلاح البحرية ، قد فكروا على المدى الأطوال وفى الصراع الذى طال مداه فى الحرب العالمية الأولى • كانت النتيجة تعتمد على قدرة المحاربين على الابقاء على تدفق سيل عارم من المواد المنتجة حديثا الى الجبهة • وبعد ذلك أخذ الاستعداد العسكرى ، لا شكل تسليح ، فحسب ، بل شمل أيضا خططا لتعبئة الموارد الصناعية والعلميه • وبظهور الأسنحة النووية والطيران الأسرع من الصوت والقذائف الموجهة ، ظهرت المشكلة من جديد وهى هل نفكر على أساس أن الحرب قصيرة وحاسمة ، أم نفكر على أساس حرب طويلة ؟ اذن فهل نعتمد على الأسلحة الموجودة فعلا ، أم على استطاعتنا انتاج أسلحة جديدة ؟

وفى منتصف القرن لم تكن المشكلة قد وصلت الى حل وكانت معظم الدول تتبع الطريقين معا • فتحتفظ بمصانعها مشغولة جزئيا بالوفاء بالطلبيات العسكرية المقدمة ، بينما تهيأ آلاتها المستخدمة لصناعة سلع مدنية لأن تتحول فى الحال للانتاج الحربى اذا تطلب الأمر • وكانت الصلة وثيقة بين الاقتصاديات العسكرية والمدنية فى كل المستويات ، من تقديم طلبات للامدادات الى المهمات الكبرى الى تمويل البحوث العلمية الأساسية، بحيث لم يعد فى الامكان وضع حد فاصل بينهما .

والخدمة العسكرية التى كانت واجبا مفروضا على معظم شباب الأمة او كلهم قد قدمت خبرات مشتركة لكل قطاعات الشعب فكانت على الأقل أشبه ببوتقة مؤقتة تنصهر فيها الطوائف المختلفة من شباب كل أمة ، وتعرضهم جميعا لتأثير المواقف السائدة فى الدوائر العسكرية • وكان هذا التدريب فى كل الجيوش الحديثة يشتمل على قدر من التوجيه السياسى ، والتحصين ضد الحرب النفسية ، وكان الشباب الذين يدربون، مضافا اليهم العاملون الدائمون فى المنشآت العسكرية مصدر اضعاف للموارد الانتاجية المدنية • وفى البلاد التى كانت شديدة المعارضة لنظام التجنيد الاجبارى فى وقت السلم ، وبخاصة بريطانيا العظمى والولايات المتحدة ، كانت هناك مسالة تلح فى الظهور دائما ، تساؤل عن قيمة الاحتياطى من أبناء الشعب اذا قورنت بقوة عسكرية دربت على أعلى مستوى لاستخدام الأسلحة الحديثة المتخصصة •

وكان العسكريون من جانبهم يشاركون ايجابيا فى كثير من الأعمال المدنية • فشغلوا مناصب سياسية ودبلوماسية وادارية ، وكثيرا ما عين كبار الضباط على رأس المشروعات التجارية بعد خروجهم من الجيش العامل • وكانت الخدمة العسكرية ميدانا لتطوير عدد من الأنشطة المدنية

فى جوهرها ، مثل الهندسة والطب والعلاج النفسى • ولما تزايدت فنية الخدمات العسكرية صارت تقدم تدريبا يعد الشباب لعدد من الأعمال المدنية كالعمل فى الأجهزة الألكترونية ، وهندسة الطيران ، وقيادة الطائرات ، وحرف أخرى لا تحصى • وفى بعض البلاد كان التدريب على الخدمة العسكرية يتضمن تدريبا مدنيا متخصصا كما يحدث فى السلفادور وأمريكا الوسطى حيث كان المجندون من المناطق الريفية يتلقون تدريبا فى الطرق الزراعية الحديثة أثناء خدمتهم العسكرية ، كجزء من البرنامج القومى للتنمية الزراعية • وفى الهند كان ١/٥ الأماكن بالاكاديميات العسكرية مخصصة للمدنيين الذين لا يدربون على حياة الجيش •

كان الجيش فى بعض الأحوال يستخدم كأداة ايجابية لاحداث تغيير فى الحياة المدنية • فالقوات المسلحة فى الولايات المتحدة كانت قد استخدمت الزنوج قبل الحرب العالمية الثانية فى سلاح الامدادات أساسا، فأخذت تسمح لهم تدريجا بالاشتراك الكامل مع الجيش أثناء الحرب . وكانوا أولا فى فصائل مستقلة ، ثم صار يعين لها ضباط من الزنوج بالتدريج ، ثم أخذوا يستخدمون فى الخدمات الفنية التى لا تقتصر على وحدات الزنوج ، وأخيرا فى وحدات مختلطة فى كل الرتب دون تفرقة • ففى أعوام الحرب وما تلاها ، حين أخذ القوم فى أمريكا يتخلون فى بطء عن سياسة التفرقة العنصرية ، كانت القوات المسلحة هى النموذج والرائد • ولقد خدم الجيش الهندى دولة الهند الجديدة كأداة من الأدوات الهامة لربط البلاد وتوحيدها ، والقضاء على الفوارق بين الطبقات • ولقد شجعت الحكومة الهندية التجنيد من كل أجزاء البلاد وكل طوائفها ، وأنشأت فصائل « جميع الهند » حيث يجتمع الرجال فى تجربة مشتركة رغم كل ما كان بينهم من اختلافات فى الماضى •

كذلك تركت المؤسسات العسكرية بصماتها البعيدة المدى فى الحياة المدنية ، بفضل المركز الخاص الذى يتمتع به المحاربون القدماء • ففى كل قطر تمنح مزايا مختلفة لمن شاركوا فى معارك وقت الحرب أو على الأقل لمن أصيبوا بعاهات فى أثناء الخدمة العسكرية ، وأحيانا لكل من خدموا فى الجيش •

كذلك تغيرت نظرة الشباب ولم يكن هذا فقط بسبب قضاء فترة فى الخدمة العسكرية ، بل كان كذلك بسبب وجود منظمات عسكرية الطابع ، توجه الفتيان والشباب لأنماط من السلوك العسكرى والمواقف العسكرية : وهكذا أخذت المؤسسات العسكرية تلعب دورا بعيد المدى

حتى فى المجتمعات التى لها تقاليد مدنية ديمقراطية بل مناهضة للعسكرية .

وفى البلاد التى جرت تقاليدها على أن يكون للعسكريين دور هام فى الدولة ، استمر العسكريون يمارسون نفوذهم المعتاد ، واستمرت الجيوش فى بعض بلاد أمريكا اللاتينية تستخدم قوتها فى اقامة الحكومات واسقاطها ، مع الاحتفاظ لنفسها بمركز القوة . فالجيش هو الذى مكن جوان بيرون من أن يلغى النظام الدستورى فى الأرجنتين وأن يتولى السلطة عام ١٩٤٢ ، وهو الذى عزله ووعد باعادة المؤسسات الحرة عام ١٩٥٥ ، وكان جيش بوليفيا هو الذى أنشأ أول حكومة فى أمريكا اللاتينية خارج المكسيك تقوم بدور جاد فى مشروعات اصلاح الأراضى . وكان الجيش فى فنزويلا هو الذى سمح أول رئيس جمهورية منتخب هو رامون جالوجوس يعلن فى خطاب الافتتاح عام ١٩٤٨ ان « الجيش سيكون الخادم لا السيد للشعب » فلم يمض عام الا كان هذا الرئيس قد طرد من منصبه ونفى ، لأنه لم يعط العسكريين سلطة كافية ، وظلت الديكتاتوريات فى أسبانيا والبرتغال تعتمد على قاعدة عسكرية صلبة .

وفى بعض بلاد الشرق الأوسط وآسيا كان الجيش أداة التغيير السياسى ـ فالجيش فى مصر هو الذى أنهى النظام الملكى ، وأقام حكما ثوريا عام ١٩٥٢ . وكان العسكريون فى تايلاند هم الذين قاموا بانقلاب سياسى عام ١٩٥١ ، واستولت القيادة العسكرية على الحكم فى باكستان والعراق عام ١٩٥٨ .

وفى الديمقراطيات الليبراليه ظلت السيطرة المدنية قوية . فالبرلمانات فى بريطانيا ودول الكومنولوث والكونجرس الأمريكى تحتفظ بالسيطرة على الميزانيات العسكرية ، وعلى السياسات الأساسية فيما يتعلق بالمنشآت العسكرية . فقادة الجيش خاضعون لوزارة مدنية أو مجلس مدنى . ومع ذلك فان ضخامة الميزانيات العسكرية ، وعجز أعضاء السلطة التشريعية عن فهم تعقيدات الحرب الحديثة ، واصرار العسكريين على عدم كشف تفاصيل الميزانية العسكرية لأن هذا يؤدى الى كشف الأسرار العسكرية ، كل هذا قد جعل من أصعب الأمور على المشرعين المدنيين أن يمارسوا سيطرة فعالة . فعدة آلاف من ملايين الدولارات تبلغ من ٣٠ ـ ٤٠ ٪ من ميزانيات الدول الكبرى على اختلافها ، وحوالى من ١٠ ـ ١٤٪ من الدخل القومى الكامل لدول منظمة حلف شمال الأطلنطى قد وضعت تحت تصرف السلطات العسكرية ، مع قيود قليلة تحدد كيفية انفاقها ، ووضع نظام لمحاسبتها عن استخدام هذه المبالغ يعتبر أقل

صرامة مما يتبع عادة فى شئون الانفاق المدنى • أما فى الدول الشيوعية فان المؤسسات المدنية والعسكرية جزء من البنيان القومى المشترك ، الذى يشمل كل شىء ، والذى يتولى الحزب الشيوعى قيادته الفعلية •

كذلك ظهر التنظيم العسكرى على المستوى الدولى • فقد أدمجت القوات المتحالفة على نحو ما قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى ثم ظهر هذا الاتجاه بشكل ضخم بين القوات المتحالفة على مسرح أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية ، وان لم يظهر فى المحيط الهادى أو فى جبهة أوروبا الشرقية • وبعد الحرب العالمية الثانية أقيمت مؤسسات دائمة تحت قيادة حلف شمال الأطلنطى وحلف وارسو • وفى أمريكا الشمالية أنشئت منظمة دفاعية اشتركت فيها الولايات المتحدة وكندا ، فقامت تقريبا بادماج قوات الدولتين فيما يتعلق بنظم الانذار المبكر والدوريات الجوية • وفى الكومنولث البريطانى صارت مؤسسة الحرب الامبراطورية جهازا لتبادل المعلومات بين القيادات العسكرية فى دول الكومنولث • ان التنظيم العسكرى الدولى فى ظروف الحرب الحديثة لا يتضمن فقط ادماج الوحدات العسكرية تحت قيادة مشتركة بل يتطلب ادماجا أشد صعوبة ، هو ادماج الامدادات مع ما يستتبعه من مشكلات توحيد التصميمات والتنسيق بين الجداول الزمنية للتسليم •

كانت منظمة حلف شمال الأطلنطى هى أشد المؤسسات العسكرية الدولية الدائمة تنظيما وتعقيدا ، وقد أنشئت بعد سنوات قليلة من انتهاء الحرب العالمية الثانية • وهى تشمل قيادة عليا لها هيئة أركان عامة أو لجنة عسكرية تتألف من ضباط من كل بلاد الحلف ويتناوبون الرئاسة ، وسلسلة من القيادات لبعض المناطق الخاصة يشرف على كل منها ضابط برى أو بحرى من دولة من الدول ، فيقود القوات المشتركة لعدة دول • وأنشأ الحلف كلية الأركان لاعداد هيئة من الضباط المدربين على طرق التعاون العسكرى الدولى ، كما أنشأ وكالات لتوحيد وتنسيق الاجراءات وطرق المواصلات وتدريب الطيارين والامدادات • وكان الحلف فى مراحله الأولى قد مضى شوطا بعيدا فى توحيد مواصفات الادارة والمواصلات وتعميم الأسلحة والتدريب ، ولكن عددا كبيرا من الامدادات المعتمدة على الانتاج المدنى على العموم لا يمكن توحيد مواصفاتها الا بالتنسيق الشامل بين الاقتصاديات الكاملة للدول الأعضاء •

أما ادماج المنشآت العسكرية فى روسيا والبلاد الشيوعية فى شرق أوروبا فى ظل حلف وارسو فقد أمكن تحقيقه بفضل المتخصصين فى

الجيش الأحمر - الذين يشتغلون فى هيئة الأركان داخل جيوش مختلف دول الحلف لاقامة بنيان موحد تحت قيادة مركزية عليا ٠

ولقد فكر الآباء المؤسسون لعصبة الأمم فى انشاء قوة دولية دائمة للمحافظة على السلم ، منبثقة من العصبة ولكن لم تشكل هذه القوة فى ظل عصبة الأمم ، ولا خلال السنوات العشر الأولى بعد انشاء هيئة الأمم المتحدة ٠ فالقوات التى جمعت على نحو مفكك تحت علم الأمم المتحدة فى عام ١٩٥٠ فى حرب كوريا انما نظمت على أساس مؤقت لا دائم ٠ كما أن البوليس الدولى الذى أنشىء ليحول دون الصدام بين الأعداء بعـــد حرب السويس عام ١٩٥٦ ، رغم عدم كفايته لأن يعتبر قوة عسكرية فقد أحيا الأمل فى امكان اقامة قوة دائمة فى يوم من الأيام ، ولعلها ستعتمد ، كما اعتمد هذا البوليس الدولى ، على قوات من الدول الصغرى لا من الكبرى ، كما كان يحسب الآباء المؤسسون لعصبة الأمم ولهيئة الأمم المتحدة ٠ ولكن لا يكاد يفكر أحد فى منتصف القرن العشرين فى انشاء منظمة عســكرية دولية تستطيع أن تقف فى وجه القوات القومية لندول الكبرى ٠

تعليقات على الفصل الخامس

١ ـ يقول الاستاذ ن" تالنسكى ان الوصف الوارد فى هذا الفصل لهيئة الاركان العامة الالمانية واليابانية وصف غير كامل ، فهيئة الاركان العامة الالمانية كانت منذ ظهورها الى الوجود منظمة للحروب العدوانية . ولقد لعبت دوراً حاسما فى ادارة العمليات العسكرية ، وكانت تمارس نفوذاً قويا فى السياسة الخارجية والداخلية لالمانيا . ومثلها كانت هيئة الاركان العامة اليابانية . فقد كانت بؤرة تجمعت فيها العناصر الشديدة الميل الى العدوان من رجال الجيش والبحرية ، ممن سيطرت عليهم ارادة غلابة للنصر والفتح ". وفى هذه الهيئة ولدت الخطط الوحشية لخلق الاستراتيجية الفعلية لعمليات العدوان ، التى اقترفتها اليابان فى النصف الاول من القرن العشرين .

٢ ـ يرى الاستاذ تالنسكى انه يجب ان يضاف الى ما ورد بهذا الفصل ان رؤساء شركات صنع الاسلحة والاحتكارات الخاصة بها هم ممن تقع عليهم المسئولية المباشرة لنشوب الحربين العالميتين الاولى والثانية . ويرى انه يجب التنويه هنا بأن الصحافة العالمية قد حملت فى الوقت المناسب حملات واسعة النطاق على خيانات مصالح الاوطان التى كان رؤساء هذه الشركات يقترفونها بشكل منظم بتزويد العدو ـ عن طريق طرف ثالث ـ بالاسلحة والذخائر . وكانت هذه الاسلحة تستخدم فيما بعد ضـد جيوش بلادهم "

٣ ـ يؤكد الاستاذ ن " تالنسكى ان هذا الفصل يصف تغلغل العسكرية فى شعوب المانيا وايطاليا واليابان قبل الحرب العالمية الثانية وفى اثنائها بصورة لا تقدر هذا التغلغل قدره الصحيح .

الفصل السادس

الدين

١ ـ اتجاهات عامة فى الأديان الكبرى فى العالم

فى القرن العشرين قام كل من الاديان الكبرى بتجديد قوته ونشاطه فى وجه الاتجاهات الزمنية القوية التى سادت الحياة الحديثة ، وتحديات العلم والعقلانية للعقائد غير العقلانية ، ونمو المؤسسات اللادينية وتعددها . وفى بعض الحالات اتخذت حركة تجديد النشاط شكل المقاومة لأنواع المعرفة الجديدة والهرب من شرور العالم الحديث ، وفى حالات أخرى تضمن التخلى عن كل ما يبدو للمحدثين انه متاهات عتيقة مجافية لروح العصر ، وتوكيد المضمون الاجتماعى ، وحث الرجل الحديث ومساعدته على اعادة فحص قيمه وتجديدها لتواجه الاحتمالات الجديدة والأخطار التى ينذر بها العلم . وفى كثير من شعوب آسيا وبعض شعوب أفريقيا ارتبطت حركة احياء التقليد الدينى بصورة تعبير الشعب عن نفسه وعن قوميته . وفى المناطق التى تسيطر عليها الشيوعية رفض الدين التقليدى أو امتهن قدره ، وأصبحت الشيوعية نفسها عقيدة شمولية فى الفكرة والعقيدة(١) .

وفى مستهل القرن العشرين كانت الأديان الكبرى فى العالم وتقسيماتها الفرعية الرئيسية موزعة على الكرة الأرضية على نحو ما كانت عليه فى نهاية القرن السابع عشر بعد توسع أوروبا فيما وراء البحار ، وتقهقر المغاربة والأتراك من أوروبا ، ووقف الزحف الاسلامى فى الهند ، وانتهاء الحروب الدينية فى أوروبا . وكانت بعض التغييرات الطفيفة قد حدثت فيما تخلل هذه الفترة من قرون : فالمسيحية قد انتقلت على يد المبشرين الى المناطق البوذية والهندوكية فى شرق آسيا وجنوبها ، حيث دخلت فيها مجموعات قليلة العدد حقا ولكنها كانت قوية النفوذ أحيانا . وترك التجار العرب وراءهم عددا متزايدا ممن دخلوا فى الاسلام على طول خطوط التجارة فى الساحل الشرقى لافريقيا ، وخطوط تجارة الرقيق جنوب الصحراء الكبرى ، وكان المبشرون المسيحيون قد أخذوا يتغلغلون فى هذه القارة . وكانت الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية قد اتسع نطاقها

مع التوسع الروسى فى سيبريا • وكانت الهجرة الواسعة النطاق من جانب الكاثوليك واليهود من أوروبا الى الولايات المتحدة قد أخذت تعدل الطابع البروتستنتى القوى لهذه البلاد .

ولم يحدث خلال القرن العشرين الا تغير ضئيل نسبيا فى توزيع الأديان الكبرى سواء بسبب التحول من عقيدة لأخرى أو الاضطهاد أو الهجرة ، مع وجود استثناءات هامة في هذا الصدد • فنسبة كبيرة من المسيحيين قد طردت من الأراضى التركية فى الشرق الأدنى بسبب المذابح وأجلاء الشعب الأرمنى خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها ، وحركة تبادل السكان اليونانيين والأتراك بآسيا الصغرى ومقدونيا فى أوائل العشرينيات واقتلع الشعب اليهودى الى حد كبير من مراكزه الرئيسية فى وسط أوروبا وشرقها وتركز فى الولايات المتحدة واسرائيل ، عن طريق الهجرة فى الشطر الأول من هذا القرن ، والابادة المنظمة لليهود بواسطة النازى فى ألمانيا وفى بلاد أوروبا الشرقية والغربية التى وقعت تحت حكم النازى فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، والهجرة الى فلسطين قبل الحرب ، وخاصة من بعدها • كذلك انفصل السكان المسلمون فى الهند عن الهندوس انفصالا جزئيا بانشاء دولة باكستان ، والهجرة فى أثناء التقسيم لحوالى من ٦ ــ ٨ مليون هندوسى وعدد قريب من ذلك من المسلمين • على أن الانفصال لم يكن كاملا بحال من الأحوال ، لان ما يقرب من ٤٠ مليون مسلم ظلوا فى الهند ، وحوالى ثمانية ملايين هندوسى ظلوا فى باكستان مكونين ما يقرب من عشر عدد السكان فى كل من البلدين وهجرة الهنود الى بعض المناطق مثل موريتوس وفيجى والملايو وجنوب افريقيا وشرقها وجزر الهند الغربية قد أدت الى انتشار الديانة الهندوكية خارج المنطقة التى كانت تقتصر عليها قبل ذلك • والهجرة المستمرة من المناطق الكاثوليكية بأوروبا ، ومن كندا الفرنسية والمكسيك والأراضى الكاريبية ، قد جعلت الولايات المتحدة منطقة كاثوليكية هامة •

والمسيحية ، وهى الدين الوحيد الذى يقوم بنشاط تبشيرى منظم واسع النطاق ، لم تتقدم الا قليلا فى آسيا بسبب الروح القومية المتزايدة، وعودة الأديان الأسيوية الى قوتها ، ولكن أفواجا من الافريقيين أخذت تدخل فى المسيحية والاسلام كما أن الأديان التى كانت تؤمن بها الشعوب القبلية فى افريقيا وآسيا والمحيط الهادى والامريكتين قد أخذ نجمها فى أفول متزايد كلما تحطمت الانعزالات القبلية ، وان كان بعض ما تتعرض

له الأديان القبلية من ضغوط قد خفت وطأته حين اوضحت الدراسات الانثروبولوجية أن لها أسسا فلسفية سامية ، على غير ظن العالم الخارجي، الذى كان يحكم عليها من ظواهر ممارستها ٠

وبينما التوزيع الجغرافى للمجموعات الدينية قد ظل ثابتا نسبيا ، فان وضعها السياسى قد تغير فى مناطق عديده ٠ فالكنيسة الرومانية الكاثوليكية قد عادت اليها السلطة الزمنية بمقتضى معاهدة لاتيران عام ١٩٢٩ التى عقدت بينها وبين الحكومة الايطالية فى عهد موسولينى ، وقضت المعاهدة باعادة قيام مدينة الفاتيكان كوحدة سياسية ٠ وقد اعترفت هذه المعاهدة بحكومة البابا ، الذى كان من قبل يعتبر نفسه سجينا فى الفاتيكان منذ أن أدمجت الولايات البابوية فى مملكة ايطاليا سنة ١٨٧٠، فصار الآن يحكم كملك ، ويتبادل الممثلين الدبلوماسيين مع دول العالم ٠ ولكن الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية قد حلت محلها بثورة أكتوبر ، واقتلعتها من مكان الشريك فى الحكم مع حكام الامبراطورية الروسيه الأوتوقراطية ، وأصبحت الكنيسة مؤسسة محدودة فى دولة مناهضة للدين ، ولكنها احتفظت لنفسها بمركز قوى فى بلاد اليونان وظلت من القطاعات الهامة فى المجتمع المسيحى ٠

وعندما انحلت الامبراطورية العثمانية وأنشئت دولة تركية زمنية ، تزعزع الاسلام من المناطق الرئيسية التى كان فيها المسلمون مستقلين عن الحكم الأجنبى فى بداية القرن ، وألغيت الخلافة الاسلامية سنة ١٩٢٤٠ ولكن المسلمين أصبحوا مسيطرين من الناحية السياسية على معظم مناطق شمال أفريقيا والشرق الأوسط وجنوب آسيا وجنوبها الشرقى ، حيث كان المسلمون يعيشون تحت امرة حكام من غير المسلمين فى بداية القرن أو بعد سقوط الدولة العثمانية ٠ وفى آسيا الوسطى وقع المسلمون تحت حكم الشيوعيين الذى يقلل من شأن الأديان ٠ أما الهندوس فى الهند والبوذيون فى سيلان وبورما ودول الهند الصينية الذين كانوا هم أيضا تحت حكم استعمارى مسيحى فى بداية القرن ، فقد أصبحوا سادة فى بلادهم ٠ وأدى انحسار الحكم الاستعمارى والغاء الامتيازات الأجنبية فى الصين وتركيا الى حرمان البعثات التبشيرية المسيحية من الحماية الخاصة التى كان يضفيها عليها اتساع القوة السياسية الأوروبية فى أنحاء العالم ٠

ولقد تغير وضع الكنيستين الكاثوليكية والبروتستنتية فى مختلف البلاد المسيحية الى حد ما خلال هذه السنوات واستمرت الكنائس تحظى على العموم بتأييد الدولة والاعتراف الرسمي بها ، مع منح الحرية الدينية للطوائف المسيحية الأخرى وغير المسيحية ٠ على أن الكنيسة الكاثوليكية قد حرمت من تأييد الدولة فى فرنسا والمكسيك ، كما أن الكنيستين الكاثوليكية والبروتستنتية قد ألغاهما النظام النازى فى وسط أوروبا وشرقها ، وتحدد وضعهما وضاق حين خضعت أوروبا الشرقية للحكم الشيوعى ٠ وفى الأقطار القليلة التى ساد فيها مبدأ فصل الكنيسة عن الدولة فى بداية القرن ـ كالأراضى الواطئة والولايات المتحدة وكندا فيما عدا كويبك الكاثوليكية الفرنسية ، واستراليا ونيوزلندا ـ صار نفوذ الهيئات الدينية فى الشئون العامة ، وبخاصة نفوذ الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، يزداد بقدر ما خلال هذه الفترة ٠

وخارج المناطق الشيوعية المناهضة للدين كان وضع الأديان المختلفة أقوى فى منتصف القرن مما كان عليه فى بدايته ، وصارت معظم الشعوب تحيا فى ظل نظم يسودها دينها الخاص ٠

وفى كل الأديان الكبرى ظهرت فى النصف الأول من القرن العشرين قوى تقلل من شأن الدين ، بينما ظهرت قوى أخرى تقوى من سيطرة الدين على أتباعه ، ومن وضع المؤسسات الدينية والدور الذى تؤديه الزعامة الدينية ٠ وقد تفاعلت هذه القوى بعضها مع بعض ، وكانت النتيجة النهائية زيادة نفوذ كل الأديان الكبرى فيما عدا الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ٠

وفى الأعوام التى سبقت الحرب العالمية الأولى سادت العوامل التى تميل عموما الى الاقلال من نفوذ الدين ٠ فتزايد الاتجاه نحو الأفكار الزمنية ٠ وكانت المادية تهدد بالقضاء على المواقف الدينية ، وبخاصة فى مناطق الحضارة الغربية وبين العناصر الغربية الثقافة فى أجزاء أخرى من العالم ٠ ذلك أن العقلانية قد تحدت الايمان ، كما هدد العلم بالقضاء على الأسس التى قام عليها الدين ٠ وكان كثير من التيارات الثقافية فى القرن التاسع عشر قد أدى الى اللاأدرية ، وفى غير قليل من الأحوال أدت الى التصادم مع السلطة الدينية ، ويرى د٠ كويت مؤلف الكتاب الكلاسيكى « تاريخ صراع العلم مع اللاهوت فى العالم المسيحى سنة ١٨٩٦ » ان كل خطوة الى الأمام فى البحث عن المعرفة قد حوربت باسم الدين ٠

وتغلغلت الروح العلمية تغلغلا متزايدا فى مجال الدين نفسه ، على

ما كانت تفعل منذ القرن الثامن عشر ، فأدت الى دراسات نقدية ، وبحوث تاريخية للنصوص الدينية عند المسيحيين واليهود والهندوكيين والبوذيين. وبعد دراسات ضخمة تاريخية وأثرية أخذ (العهد القديم) يعتبر تدريجيا سجلا تاريخيا للشعب العبرى بعد وضعه فى السياق الزمنى التقريبى الذى كشفت عنه الحفريات فى مسوبوتاميا ومصر وآسيا الصغرى • كذلك فان الشواهد الخاصة بحياة المسيح قد فحصت لنتحقق من صحتها التاريخية • كما أن الدراسات الأدبيه والانثروبولوجية قد درست الكتب الشعرية وكتب النبوءات وتعقبت الأسطورة وما تحويه من رموز • وطبق العلماء السنسكريتيون طرقا مشابهة على الكتب المقدسة الهندوكية • فاكتشاف وتفسير المهايانا وترجمة ونقد الهينايانا قد اعطت تفسيرا جديدا للبوذية •

ومع أن كثيرا من الناس قد وجدوا آخر الأمر أن الدراسات العلمية للكتب المقدسة ، واعادة تقييم العقائد الدينية على نحو ما اقتضت هذه الدراسات ، قد زادت من فهمها وقدمت أساسا جديدا لقبول عقيدتها التاريخية ، فان التأثير المباشر لذلك كان من غير شك اضعاف نفوذ الأديان التى أجريت فيها هذه الدراسات •

وكان للصراع الظاهر بين الدين والعقلانية العلمية تأثيره الرئيسى على المواقف الدينية للعناصر المتعلمة من السكان • أما جماهير الشعب العادى ، وبخاصة البروليتاريات فى المدن ، فكانوا فى هذه الأثناء منصرفين عن الدين ، أو غير مكترثين به ، لاقتناعهم بأنه لا يعنيهم فى صراعهم من أجل حياة أفضل ، وكثيرا ما يكون حجر عثرة فى طريق جهودهم • وبينما كانت الشرارة الاشتراكية والديمقراطية تنتشر فى كل أنحاء العالم ، كان الرضى والهدوء يسودان « الصفوة » فى مختلف المجتمعات وكان المفروض فى هؤلاء أنهم فى مقدمة المتدينين وفى مكان الصدارة من الحالة الاجتماعية ــ وقد أدى الوضع الى تصوير المؤسسات الدينية على أنها معاقل المحافظة على الوضع القائم • وكان هذا يصدق أيضا على البراهمة فى الهند ، والموظفين الفلاسفة فى الصين ، والصفوة الكاثوليكية بأمريكا اللاتينية وأوروبا ، والكاثوليك الروس الوثيقى الصلة بالبلاط الامبراطورى ، والطبقة العليا والجانب الأعلى من الطبقة الوسطى فى الكنائس البروتستنتية فى بريطانيا وأمريكا والأراضى الواطئة ، كل هذه العناصر كثيرا ما ظهر أنها تمثل مصالح أنانية ، كما تمثل روح اللا مبالاة ازاء مصالح الجماهير الشعبية •

وفي بعض البلاد اتخذ رد الفعل عند العمال صراعا عنيفا ضـــد رجال الدين كما حدث في فرنسا وأسبانيا ، أو كما حدث في المكسيك حيث أطاحت ثورة ١٩١٠ في وقت واحد بالكنيسة والنظام الســـياسى القائم والأرستقراطية مالكة الأراضي · لكن رد الفعل اتخذ على العموم شكل عدم الاكتراث بالدين بين الطبقات العاملة في المدن ·

ويبدو أن الطبقة العاملة المنصرفة عن الدين صارت نموذجا اجتماعيا في أوروبا في نهـــاية القرن التاسع عشر ، اذا استندنا الى الشـــواهد المبعثرة من الكنائس في المناطق الصناعية ومن الأقوال المأثورة في انجلترا ان بنيامين دزرائيلي قد أجاب على كبير أساقفة كنتربرى سنة ١٨٦٠ حين شكا كبير الأساقفة من أن الكنيسة قد فقدت نفوذها في المدن ، فقال له دزرائيلي : « ان نيافتكم على خطأ ، لأن الكنيسة لم يكن لها نفوذ في المدن يوما ما » · ففي المدينة حيث الحركة ، وحيث ينتفي الجانب الشخصي من الحياة ، وحيث تجتاح الحياة أسباب التغيير الاجتماعي السريع ، لم تستطع الكنيسة أن تعود الى وضعها الاجتماعي الرئيسي الذي تحتله في المجتمعات الريفية المستقرة البسيطة · فلغة الكنيسة وصورها ورموزها بعيدة عن احساس سكان المدن الصناعية ، كما أن معظم رجال الكنيسة ظلوا بعيدين عن الصراع الاجتماعي والصناعي · فعقيدة تقبل العذاب في الأرض لم تكن لتلائم مزاج من يحاولون تغيير أحوالهم في الأرض عن طريق جهودهم الخاصة المنظمة · وحيثما انتشرت الاشتراكية الماركسية وجدنا أن عبارة ماركس المأثورة القـــائلة بأن « الدين أفيـــون الشعوب » تقوى من عدم اكتراث العمال بالدين ، أو تؤدى الى رفضهم اياه · وبنمو المجتمع الصناعي في المدن لم يعد الدين يلقى التأييد من جانب الوسط الاجتماعي ، وأصبح يميز بصفة رئيسية حياة أفراد أوفياء للقيم الدينية لا لمكان المؤسسات الدينية في حياة المجتمع بأسره ·

كذلك فان الاحساس باليقـــين الديني قد تقوضت أركانه بسبب الاتصالات الثقافية المختلفة بين دول العالم · كان الدين يقوم الى حد ما على عقيدة محلية في جوهرها ، مؤداها صحة عقيدة خاصة نبتت في تربة بيئة خاصة، ولكن تعارف الشعوب المختلفة عن طريق المواصلات المتبادلة، ونتيجة للدراسات الانثروبولوجية ، أوجد الشعور بأن الحقيقة قد تأخذ أشكالا كثيرة · فضعف الاحساس اليقيني بأن الدين والثقـــافة لمجموعة خاصة من الناس هما الشيء الصحيح الوحيد · وكان هذا الاتجاه لا يزال

على أشده فى أوائل القرن ، لان الايمان بتفوق الثقافة الغربية والدين المسيحى كان لا يزال يحرك الجهود التبشيرية ، كما كان احيــاء الأديان الآسيوية الذى صحب المقاومة الوطنية المتزايدة للنشاط التبشيرى يقيم عقائد منافسة • لكن مع أن هذه المواقف لم تكن حتى منتصف القرن قد تحولت تماما الى الاحترام المتبـادل بين الأديان والثقافات ، فان تزايد الاحساس بالنسبية الثقافية قد أعان على جعل أتباع كل دين يميلون الى تفهم غيره من الأديان •

وازاء هذه الاتجاهات التى أضعفت نفوذ الدين فى أجزاء كثيرة من العالم ، يجب أن نلاحظ بعض التطورات المضـادة التى لم تكن فى أول الأمر من القوة بحيث تتغلب على عوامل الضعف • ولكنها تزايدت فى القوة حتى أحدثت بعثا واسع النطاق للدين فى منتصف القرن العشرين• فازاء موقف العلم من العقيدة ، وتفاقم المادية ، كان ثمة شعور بالارتباك والحيرة المتزايدة ازاء ما جلبه العلم من قوة وتعقيد • وحين تغلغل العلم الى ما دون اليقينيات السهلة التى بدا أنهـا فى متناوله ، رأينا بعض العلماء أنفسهم يؤكدون أنه لا يقين فى المعرفة العلمية ، وأن هنـاك أمورا غامضة لا تزال بعيدة عن متناول الكشف العلمى • ولقد تحول النقـد العلمى على يد بعض الناس الى عقيدة ثقافية يمكن الدفاع عنها •

وقامت حـركات لتوكيد المحتـوى الاجتماعى للعقيدة والمضـامين الدينية ، لاصلاح العلل الاجتماعية فى بعض الدوائر المسيحية والهندوكية والاسلامية لتحدى اتهام الدين بأنه مستغرق فى الطقوس وأمور الحيـاة الأخرى ، بينما الناس يقاسون فى هـذا المكان والزمان • وعند أناس آخرين كانت شواهد الانثروبولوجيا ومعرفة الأديان الأخرى تؤكد وظيفة الدين فى كل المجتمعات ، وبذا دعمت مركزه فى الداخل • ووجد تركيز الجهود التبشيرية على تقديم الخدمات التعليمية والطبية تأييدا مستمرا من جانب بعض الناس ، الذين لم يعودوا يستطيعون تشجيع حركة تحـويل الناس الى المسيحية •

وقد أخذ الدين يحظى على نحو خاص بمزيد من القوة والحيوية حينما ارتبط بالشعور القومى • فالبولنديون والايرلنديون الكاثوليك الذين كان الدين عندهم نقطة تجمع للمحافظة على وحدتهم الثقافة ، وأمانيهم القومية ضـد الحكم الأجنبى المفروض من البريطـانيين الانجليـين ، وروسيا الأرثوذكسية ، وبروسيا اللوثرية ــ هؤلاء كانوا أكثر تعصبا للكاثوليكية من سكان ايطاليا مثلا حيث الدين السائد قضية مسلمة ، وقد حملوا معهم هـذا الاختلاف فى الولاء حتى حين هاجروا الى الولايات المتحـدة

وغيرها • كما أن القومية الهندية أثارت وتأثرت ببعث واعادة تفسير واعادة تقرير التقليد الهندوكي • وكانت الصهيونية منذ بدايتها مرتبطة غالبا بتمسك قوى بالعقيدة اليهودية ، ولكن اضطهاد اليهود في الثلاثينات أدى بالكثيرين الى البحث عن وطن لليهود ، أو تأييد هذه الفكرة لأسباب سياسية فى المحل الأول • واتخذت مقاومة الحكم البريطانى فى بورما وسيلان شكل جهود لاعادة تقرير التعليم البوذى ، الذى كان قد ألغى الى حد كبير وكانت القومية اليابانية بذرة نمت فى تربة عقيدة الشنتو • ووجد الاسلام أقوى تعبير حركى له فى الجهود التى بذلت لتحرير شعوب الاسلام من الحكم الأجنبى •

وبعد الحرب العالمية الأولى أصيب الدين بضربات قوية فى بعض أجزاء العالم ؛ ولكن زادت قوى البعث الدينى فى غيرها من الأجزاء • وكانت أقوى لطمة أصابت الدين هى التى وجهتها اليه الثورة البلشفية • فقد أنزلت الدين عن عرشه فى مناطق واسعة من العالم ، فروسيا الشيوعية لم تكتف بحرمان الكنيسة الأرثوذكسية من تأييد الدولة ، بل أسرفت فى دعاية نشيطة ضد الدين • وتركيا التى كانت فى يوم من الأيام أعظم وأوسع امبراطورية اسلامية لم تكتف بالغاء الخلافة الاسلامية، بل ألغت القانون الاسلامي وأحلت محله قوانين غربية ، كما أحلت تقاليد غربية محل التقاليد المرتبطة بالاسلام وكذلك قامت الحركة الجديدة فى الصين ببرنامج قوى للقضاء على الدين • وكان النظام النازى قد حرم الهيئات الدينية من استقلالها ، لكى يجعل كل المؤسسات المستقلة تسير فى الخط الذى يسير فيه الحزب والدولة • واستمر تأثير القوى التى أدت الى اللامبالاة الدينية أو التخلى عن الدين فى السنوات الأولى فى هذا القرن فقد ظلت الاتجاهات الزمنية قوية ، وامتدت الى مناطق خارج العالم الغربى مع انتشار المعرفة العلمية والتعليم ، والتأثير الثقافى الغربى • ومع أن يقينيات علم نيوتن فى القرن التاسع عشر قد حلت محلها النسبية العلمية واللايقين ، فقد زاد تغلغل العلم فى المناطق التى كان يحتلها الدين حين اتجه أصحاب البيولوجيا والكيمياء الى فهم طبيعة الحياة ، وحين وصل علماء الفلك الى مكتشفات جديدة حول أصول العالم المحتمل ومستقبله ، وحين تغلغل علماء النفس فى أغوار الانفعالات وشبه الشعور واكتشفوا منطقة التدين ، وحين أدى تزايد حجم المدن الصناعية باستمرار الى وجود مجتمع غير ملائم دينيا مؤثر فى عدد متزايد من سكان العالم • وفى المناطق التى يسيطر عيها الشيوعيون نشرت المعارف العلمية عن العالم والمجتمع لتكون وسيلة لمحاربة العقائد الدينية ، وأصبح ينظر الى

المؤسسات الدينية على أنها ستار للاستغلال البرجوازى الذى لا مكان له فى المجتمع الحديث ٠

ومع ذلك فثمة اتجاهات قوية كانت تقوى العاطفة الدينية فى نفس الوقت ٠ فأزمة الحضارة الأوروبية التى نجمت من الحرب العالمية الأولى ، أضعفت الايمان بالعلم والتقدم ، وأعادت كثيرا من الناس الى المصادر التقليدية للقيم والدعم الروحى ٠ فرأينا الكنيسة الرومانية الكاثوليكية التى قاومت باصرار كل التنازلات فى العقيدة للعلم أو لروح العصر منذ عام ١٨٦٤ (منشور كونتاكورا وبرنامج الأخطاء) ، قد عادت الى توكيد العناصر الأساسية فى عقيدة الكنيسة فى العصور الوسطى ، وعادت تؤكد ان الحضارة الدينية أرفع قدرا من الحضارة العلمية ٠ ولقد جدد المنشور البابوى كوادراجيسيمو أنو (١) ١٩٣١ والتعاليم الاجتماعية لمنشور ربرم نوفاروم (١٨٩١) وعاد الى اعتبار مفهوم العدالة الاجتماعية مفتاحا للاصلاح الاجتماعى ٠ وأدت اعادة البابا الى السلطة الزمنية ، وتشجيع التعليم الكاثوليكى ،وتزايد الكاثوليك فى الولايات المتحدة أدى ذلك الى امداد الكنيسة الكاثوليكية بقوة جديدة ، واستعادتها مكانتها القديمة وحاولت حركة شباب العمال الكاثوليك الاحتفاظ بشباب العمال موالين للكنيسة ٠ وعبأ الكاثوليك مجموعات من غير رجال الدين لنشر التمسك بتعاليم الدين بين جيرانهم ولتأييد عمل الكنيسة ٠ وأدت حركة الارتداد الى الدين بين عدد من المثقفين بما فيهم أدباء أوروبيون كبار صاروا يدعون الى العودة الى قيم القرون الوسطى ـ أدى هذا الى التمهيد لاحياء مجد الكاثوليكية فى أوروبا وأمريكا اللاتينية ٠

وأصبحت الزعامة الروحية العظيمة للمهاتما غاندى قوة عالمية تؤيد الدين وتدعمه ٠ فهى قد أظهرت قوة اللاعنف وشنت هجوما موفقا على نظام الطبقات وغيرها من الشرور الاجتماعية ، واعترفت بالأخوة الروحية بينها وبين العقائد الأخرى وبذا صار لها تأثير تجاوز حدود الهند والدين الهندوكى الذى كان أكبر مصدر لالهام غاندى ٠ وحين تزايدت قوة الحركات الساعية الى التحرر القومى بين المسلمين والبوذيين والهندوس ، وكادت ثمرتها تدنو للقطاف ، أصبح الجانب الدينى من كل حركة أكثر بروزا ، وبخاصة بين المسلمين ٠ ولقد أدى الاضطهاد النازى الى حمل اليهود فى كل أنحاء العالم على دراسة تقاليدهم من جديد ، وأدى هذا على العموم الى زيادة التمسك بالعقيدة حتى بين من كانوا قد انحرفوا بعيدا عن جادتها ٠

---

(١) اى منشور « السنة الاربعون » بعد صدور « الامور الجديدة » ٠
(RERUM NOVARUM

وفى الأعوام التى تلت الحرب العالمية الثانيـــة كان من الواضح أن القوى المؤيدة للمؤسسات الدينية والقيادات الدينية قد أخـــذت مكان الصدارة فى أجزاء العالم خارج الأقطار الشيوعية • وفى الاعوام الحـافلة بالمتاعب والأحداث بعد الحرب ، كان للدين ، المرتبط بالقومية الظافـرة الصاعدة ، دور فى تحقيق الذات ثقافيا وسياسيا • وقد قدم واحـــة للراحة وللطمأنينة ، ومصدرا للاستقرار وسط عوامل التوتر والتغيير ، وقد قاوم انتشار الشيوعية المناهضة للدين ، وبذا أدى دورا فى الصراع العالمى من أجل الاستيلاء على عقول الناس •

وأسهم البعث الهندوكى فى حيوية الهند الجديدة وروحها ، وان كان بناء الدولة قد قام على أساس زمنى • وكانت الفلسفة البوذية هى الهادى والمرشد لبورما الجديدة وسيلان • وقامت باكستان بانشاء دولة حديثة على أساس التعاليم الاسلامية ، ونص الدستور المصرى عام ١٩٥٦ على أن الاسلام هو الدين الرسمى للدولة • وثمة حزبان اسلاميان من الأحزاب السياسية الأربع الكبرى فى أندونيسيا الجديدة وفى بعـــض أجزاء افريقيا كانت عودة الدين المحلى مقترنة بروح القومية الافريقيـة وقدمت الأحزاب الديمقراطية المسيحية كثيرا من القادة فى حركة اعادة بناء أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية •

فى هذه السنوات قدم الدين لكثير من الناس نوعـا من العـزاء والطمأنينة ازاء شرور زمن شعر فيه الكثيرون أنهم يكادون يعجزون عن العيش فيه • وقبل ذلك بخمسين عاما ، حين كانت المجتمعات تبدو أكثـر استقرارا ، وأكثر اطمئنانا الى احراز التقدم ، كانت هذه الراحة لاتبدو لها مثـل هذه الضرورة • ولكن فى عالم مزقته حربان عالميتان فى جيل واحد ، وصدعت بنيانه عشر سنوات من الانهيار الاقتصادى وملأ أرجاءه أناس اقتلعوا من ديارهم عن طريق الهجرة الاختيارية أو الجبرية ، وغامت على حياتهم الخشية من احتمالات استخدام القنابل الذرية والهيدروجينية، وامتهنت كرامتهم اجراءات الدول البوليسية ، وهزتهم الفوضى الاجتماعية التى تلت التغيير الاجتماعى — فى هذه الظروف بدا أن الدين هو الذى يقدم لكثير من الناس ، طرق الأمان وسبيل الاخلاص من شرور العصر • ووسط ما ساد الحياة الحديثة من فقد الذاتية والاضطراب والصراع ، قـدم الدين احساسا بالذاتية وأساسا لتضامن المجتمعات • ومن أوروبا وأمريكا على نحو خاص حيث انتشرت اللا مبالاه الدينية الى أقصى حد ، ظهـر أن بعث الحياة فى الدين يعكس رغبة فى اعادة كشف جوهر داخلى للتماسك

كان يبدو أنه قد فقد ، ولاعادة الحياة الى القيم والمفاهيم التى كانت لهـا الغلبة فى الثقافة الغربية يوما ما ٠

فى هذا النشاط الذى عاد يدب فى الدين كان لكل من التحررالدينى والسلفية الدينية دور يؤديه ٠ فمحاولاتالتوفيق بين العلم والدين استمرت على يد قطاع صغير من المهتمين بالدين ، وبدأ أن المهمة أقل صـعوبة مما كانت تبدو قبل خمسين سنة ٠ وزاد انتشار المواقف غير المتعصـبة بين رواد الكنيسة من ذوى الضمائر ٠ ولكن الدفعة الرئيسـية أتت من جانب الكنائس المتزمتة مثل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية التى رفضت الجديد فى شئون العقيدة ، كما أتت من جانب الطوائف البروتستنتية والقادة الدينيين الذين قدموا رؤيا رمزية ، متجهة لاستهواء العاطفة عـلى نحو غير عقلانى ، أو قدموا طريقا لتحقيق الذات خارج نطاق الفكر العقلانى والمهام الزمنية ٠

ولم يقدم الدين لاتباع العقائد الشرقية فى هذه السنوات نفسالنوع من الطمأنينة الذى قدمه فى الغرب ؛ لأن الروح الزمنية لم تكن سـائدة فى الشرق بقدر ما هى فى الغرب ٠ ولكن الدين كان عنصر استقرار فى المناطق الهندوكية والبوذية والاسلامية ٠ فأيد كثير من الزعماء المؤسسات الدينية سعيا الى الابقاء على تماسك مجتمعاتهم تحت ضغوط الحياة الجديدة والتصنيع ، وعمليات التغيير الاجتماعى السريع ٠ وفى هذه المناطق أيضا ظهر أن العناصر الدينية المحافظة كانت قوية خلال هذه السنوات ٠

ولعبت المنظمات الدينية دورا متزايدا فى الاعوام التى تلت الحـرب العالمية الثانية ، وذلك فى الصراع العالمى من أجل النفوذ والسلطان ٠ فرأينا أشد الهيئات الدينية فى العالم نظاما وقوة وهى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، قد وقفت فى مقدمة المعارضين للشيوعية ،ولم تقتصر محاولتها على جمع الكاثوليك ، بل امتدت أيضا الى تجميع المسيحيين من غـير الكاثوليك وحتى أصحاب الديانات من غير المسيحيين ، لوقف انتشار العقيـدة المادية ٠ وحيثما كثر أتباعها زاد نفوذها فى الأجهزة السياسية الكلية للدولة ٠ وفى أمريكا اللاتينية لم تبد الكنيسة الا نشاطا قليلا فى أوائل القرن ولكن نشاطها الآن قد زاد قوة ، فطالبت بما كان لها من نفـوذ من قبل ٠ وفى أوروبا تمكنت من أن تحول لصالحها التيار الذى كان يناهض الكنيسة ، وذلك فى بلاد مثل فرنسا وأسبانيا ٠ وفى هولندا وبلجيكـا وفرنسا دفعت الى المقدمة بقضية التأييد الحكومى للمدارس الدينية وتمكنت

من أن تعلم الدين للشباب فى كل دولة · وحاولت الاستفادة من تزايد حجم وثروة الرعايا الكاثوليك في الولايات المتحدة ومكان هذه البلاد من العالم ·

أما الكنائس البروتستنتية فكان نشاطها من أجل السلطة فى هذه السنوات أضيق من نشاط الكنيسة الكاثوليكية ، كان أيضا جزءا من حركة مناهضة للشيوعية الالحادية ، وحصلت على قدر جديد من الوحدة بفضل تشكيل المجلس العالمى للكنائس عام ١٩٤٨ ، ولكنها ظلت مصابة بانشقاقات عميقة مذهبية ، كما انقسمت الى شيع عصرية وراديكالية ، وأدى أساسها الفردى الى تضيق مجال عملها الجماعى · ولقد كانت فى العادة تولى تأييدها لقضية الدولة ضد قوى القومية المتطرفة أو الانعزالية وكانت عادة ــ لا دائما ــ تدافع عن المبادىء الليبرالية فى حرية الرأى والضمير والتعبير ضد العدوان الدائم من جانب قوة الدولة الحديثة ·

كانت الهيئة الدينية الكبرى التى انغمست فى القضايا العالمية هى الاسلام وهو يلى فى هذا الكنيسة الكاثوليكية · لم يكن للاسلام قيادة مركزية مثلما كان للكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وكانت قوته تعتمد على قبول اتباعه لحكم القرآن ، واحترام العلماء الاعلام الذين يفسرونه والمبدأ الأساسى لوحدة الاسلام ، الجهاد الذى يمكن أن يعلن وقت الخطر ليوجه جهود الشعوب الاسلامية وجهة واحدة · ان الاسلام بوضعه الاستراتيجى بين أوروبا وآسيا وامتداده فى كليهما عبر أغنى مستودعات للبترول فى عالم يعتمد على القوة المحركة ، ومتاخمته للحدود الجنوبية لجزء كبير من العالم الشيوعى ، ونفوذه المتزايد فى قارة افريقيا الناهضة ، قد صار فى منتصف القرن عاملا فعالا يؤثر فى العالم تأثيرا أقوى مما كان له فى أى وقت منذ بدأ التوسع الأوروبى ·

ومع أن الأديان الكبرى قد زادت من دورها المؤثر فى أجزاء أخرى من العالم ، فان النظام الشيوعى الذى يقضى بأن « العبادة ــ وان جازت قانونا ــ الا أنها لا تليق بشباب السوفييت » ، هذا النظام قد وطد أقدامه وانتشر فى أوروبا الشرقية والصين ، وأخذ يغرى الناس فى مناطق أخرى بالانضمام اليه · ولقد خفت وطأة الدعاية السوفييتية ضد الدين الى حد ما فى السنوات الاخيرة ، ولكن المؤسسات الدينية لم يسمح لها بنشر التعليم الدينى خارج المنزل ، واستبعد الدين من كل جوانب الحياة

العامة الشديدة التنظيم فى الاتحاد السوفينى • وفى هذا الوسط الذى ينكر الدين رسميا حاول الزعماء من رجال الكنيسة الارثودسية الشرقيه والكاثوليكية الرومانية والبروتستنت واليهود والمسلمين والآباء الاتقياء ـ حاول هؤلاء جميعا الابقاء على جذوة الشعور الدينى والمعرفة الدينية للعقائد حية فى نفوس الأجيال الجديدة • ولقد أظهرت بعض دول الديموقراطيات الشعبية فى شرق أوروبا ، وبخاصة بولندا ، استعدادا أكبر للسماح للكنيسة بأنتمارس نشاطات أوسع وسيكشفالزمن وحده ما اذا كانالنظام الشيوعى سيوفق أو لا يوفق فى هذه المحاولة الفريدة فى تاريخ البشر لجعل الدين كله فى منزلة الخرافات العتيقة ، وان ترضى حاجات الشعب الروحية والمادية عن طريق بناء مجتمع اشتراكى • والزمن هو الذى سيكشف من جهة أخرىماذا سيكون مصير الأديان الكبرى فى العالم ، ازاء التغييرات المستمرة فى طرائق الحياة للانسان نتيجة تأثير العلم والتكنولوجيا ، وهو تأثير لايغلب •

واذا كانت الصورة العامة التى قدمناها فيما سبق تنطبق على العالم من حيث هو كل ، وعلى وجوه التشابه والاختلاف العامة فى اتجاهات الأديان العالمية الكبرى فسنقدم بحثا تفصيليا عن كل عقيدة لنرى على نحو أتم تطور المؤسسات الدينية التابعة لها ، ومدى استجابتها لظروف العصر وتياراته •

٢ ــ المسيحية

كانت المسيحية تحس احساسا كاملا بحركة التصنيع والانتقال الى حياة المدن ، والعوامل الأخرى التى أضعفت من سلطان الدين ومكانة المؤسسات الدينية خلال القرن العشرين • وفى الوقت نفسه كانت روحها الأساسية متمشية مع الحركات الاجتماعية لهذا العصر ، لأن التركيز على قيمة وكرامة وفردية كل شخصية بشرية هو الجوهر الروحى للديمقراطية، وجاءت دولة الرفاهية تعبيرا زمنيا عن الضمير المسيحى الذى يسترشد بمبدأ « أحبب جارك كما تحب نفسك » •

ولقد عانت المسيحية على نحو مباشر جدا من الصراع الظاهر بين العلم والدين ، وتطبيق النقد العلمى على النصوص المقدسة ، كما عانت من صبغ الفكر بالصبغة الزمنية وتاليه الحياة ، ومن عجز الكنيسة عن أن

تتكلم بلغة المجتمع الصناعى ، كما عانت برغم عقائدها الاجتماعية مما يظهر غالبا على أنه لا مبالاة لتعاسة العمال الصناعيين ، وعانت من انكار الاشتراكية الماركسية لها وما لاقاه الدين من امتهان فى الاتحاد السوفيتى. وقد عانت المسيحية بوصفها العقيدة التى تبشر بها الدول الأوربية المستعمرة : عانت من نمو القومية فى آسيا وأفريقيا ، تلك الروح التى غالبا ما يكون معنى المسيحية عندها مرادفا لمعنى الاستعمار . ومع ذلك فان الكنائس المسيحية فى خلال تلك الأعوام قد واجهت كثيرا من تلك التحديات وتغلبت عليها . وباستثناء ما اصاب الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، فان الكنائس ـ فيما يبدو ـ صارت أقوى فى منتصف القرن مما كانت عليه فى بدايته . وكان فقد الكنيسة المسيحية على نطاق واسع للاجراء الأوربيين من سكان المدن اكبر خسارة كمية أصابت الكنائس المسيحية خارج الاتحاد السوفيتى .

فلقد أثبتت الدراسات التاريخية والاجتماعية الدقيقة لعدد من مدن أوروبا وجود نموذج متسق وواضح يتبين منه انخفاض عدد من يرتادون الكنيسة فى مناطق سكن العمال أكثر من انخفاضه فى مناطق سكن الطبقة الوسطى . فارتياد الكنائس يتناقص بانخفاض الوضع الاجتماعى والاقتصادى ـ وهو أشد ما يكون انخفاضا بين العمال اليدويين . وكان التناقض الطبقى فيما يتعلق بالمتدينين الاولياء أوضح منه فيما يتعلق بمن يقلون عنهم تقى وورعا . فلقد أثبتت دراسة أجريت فى باريس عام ١٩٥٥ وجود عشرة من التقاة من الطبقة الوسطى ، مقابل تقى واحد من أبناء الطبقة العاملة ، وخمسة أشخاص من مرتادى الكنائس (وكفى) من الطبقة الوسطى فى مقابل شخص واحد . وفى مجتمعات المدن عموما كان عدد من يؤدى العبادات الدينية يمثلون أقلية ، تتدرج من ١٠ الى ٣٥٪ من مجموع السكان الكبار ، تمثل من يحضرون الى الكنائس فى أى يوم من أيام الأحد فى معظم المدن الأوربية التى شملتها الدراسة . وتميل النسبة الى الانخفاض كلما كبر حجم المجتمع . وتتضح هذه الاتجاهات من دراسة الحالة فى مدينتين فرنسيتين وكنيسة أبرشية من الكنائس التى يرتادها العمال فى الأغلب الأعم من باريس .

النسبة المئوية للسكان الذين يرتادون الكنيسة سنة ١٩٥٠

	مدينة صناعية صغيرة (سانت اتين)	مدينة صناعية كبرى (نانسى)	أبرشية طبقة عاملة بباريس سانت ايبوليت
مديرون ومهندسون	٥٠ ـ ٦٠	٤٣	١٣
مهن حرة	٤٠	ـ	١٠
موظفون	٣٠	٢٢ ـ ٣٥	٥ر٤
أصحاب حرف وعمال مهرة	٢٠	٩	٥ر٤
عمال يدويون ومعدنون	٥ ـ ١٠	٦	٥ر٢

لم تكن ظاهرة أنصراف العمال عن الدين بالجديدة فى القرن العشرين اذ شوهدت فى الفترة الأولى من التصنيع • ولكن توجد دلالات كثيرة على أنها ازدادت خلال هذه الفترة ، بتزايد عدد سكان المدن وكبر حجمها ، وفشل السكان الجدد من مواليد المدن الصناعية فى اعادة خلق البناء الاجتماعى الريفى الذى كانت الكنيسة تحتل فيه موقعا رئيسيا • وفى الأراضى المنخفضة حيث البيانات الخاصة بالانتماء الدينى قد وردت فى التعداد الذى يجرى كل عشر سنوات ، قال ١٧٪ من السكان عام ١٩٤٩ أنهم بلا دين مقابل ٢٪ قالوا أنهم كذلك قبل خمسين سنة • وبالنسبة لكثير من العمال الأوروبيين الذين بقى عندهم احساس قوى بالاختلافات الطبقية ، أخذت الكنيسة عندهم تصبح مرادفة للطبقة البرجوازية من أصحاب الأعمال التى يشعر العمال أن هوة سحيقة تفصلهم عنها • وكانت الكنيسة عند العمال الاشتراكيين والشيوعيين تعتبر عموما أداة فى يد الطبقة المعادية لهم •

وكان انصراف العمال عن الكنيسة أكبر فى فرنسا ، حيث كان الشعور المعادى للكنيسة تقليديا ، وكان الزعماء الكاثوليك فى القرن التاسع عشر لا يعطفون على العموم على جهود العمال الفرنسيين ، الذين يحاولون تحسين أحوالهم • أما فى البلاد الأخرى فكانت الهوة أضيق بين العمال ومؤسسات الدين • وقد اجتذب اتحاد العمال الكاثوليكى نسبة كبيرة من العمال المنظمين فى بلجيكا وهولندا وفى ألمانيا حيث كان الزعماء

الكاثوليك فى القرن التاسع عشر أكثر عطفا ، وكان تلث أعضـاء الحركات العماليه فيما قبل هتلر منضمين الى اتحادات كاثوليكية • وفى بريطانيا رأينا أن المنهجيين الانجليين ، والزعامة الروحية للاشتراكيين المسيحيين ، والانجليكازى البارز الذى كان يظهر من حين الى حين ليرفع صوته فى الدفاع عن العمال • كل هؤلاء ، قد أضفوا على الحركة العمـالية البريطانية روحا مسيحية عامة ، وان لم يجعلوا للكنيسة الرسمية تأثيرا هاما فى حياة معظم أفراد الطبقة العاملة •

وفى المناطق الصناعية بأوربا عموما ، كان العنصر المناهض للكنيسة يتكون من أقلية مناضلة ، قد يبلغ خمس عدد السكان فى المناطق الصناعية التى تبلغ فيها هذه الحركة أقصى نشاطها • وحفنة من عمال أتقياء ، يبلغ عددهم الخمس فى المراكز التى تبلغ الكنيسة فيها أقصى قوتها ، قد ظلت تمارس الطقوس الدينية بنشاط ، ولكن الأغلبية الكبرى السـاحقة كانت تتميز بشعور عام من عدم المبالاه •

أما فى الولايات المتحدة فلم يكن عدم الاكتراث بالدين عاما ولم يكن يتبع خطوطا طبقية بوضوح شأنه فى أوروبا • ومع ان محافظة الأمريكيين على الدين لم تدرس دراسة دقيقة كما درس الموقف فى أوروبا ، فقد أشارت الشواهد الى نماذج مختلفة جوهريا عن النموذج الأوروبى ، لعلها كانت من أسباب قوة الدين هناك عند منتصف القرن .

وكان من المميزات الأساسية للموقف فى أمريكا انفصال الكنيسة عن الدولة ، ذلك الانفصـال الذى كفله الدسـتور الذى يعبر أساسا عن البروتستنتية التقليدية للبلاد ، وموقف عصر التنوير ـ فى القرن الثامن عشر ـ من الدين • فكل فئـة دينية كانت حرة ، تقوى أو تضعف دون ما حاجة الى أن تحارب كنيسة مقررة تدعى أنهـا عالمية ، أو تتمتع بتأييد الدولة • وهكذا استطاع تنوع المؤسسات الدينية أن يعكس تنوع السكان ويشبع حاجاتهم المختلفة• وازاء هذه السيولة الدينية وعدم اعتبار الكنيسة مرادفة لأصحاب الأعمال ، لم يشعر العمال الأمريكيون بأن هناك مبررا لأن يتخذوا الموقف المناهض للكنيسة الذى اتخذه العمال فى أوروبا •

ومن الناحية التاريخية حمـل المهاجرون الى أمريكا ولاءاتهم الدينية المختلفة • وحين تأتى موجة بعدد من السكان الى منطقة من المناطق ، فان كنيسة المتوطنين السابقين تصبح كنيسة أولى الثراء والصفوة الممتازه ، بينما كنيسة الوافدين الجدد الفقراء تعكس انخفاض وضعهم فى البنـاء

الاجتماعي . وفي القرن العشرين أتت أغلبيــة المهاجرين الجدد من مناطق كاثوليكية وجعلت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية كنيسة جماهير الناس في المدن . وعند بعض من هاجروا كانت الهجرة تعني فقد التبعية الدينية كما حدث في مدن أوروبا . ولكن عند الكثيرين ، وبخاصة من كان الدين عندهم علامة مقدســـة على الهوية ، مثـــل الأيرلنديين والبولنديين والكنديين الفرنسيين ، فقد قدمت الكنيســة لهم صلة تصلهم بالثقافة التي تركوها وراءهم . فكانت عنصر تجميع ودفاع ضـــد البيئة الغريبة عليهم . وعلى عكس الكنيســة الكاثوليكية الأوروبية التي كانت تعني في عقول العمـــال أعداءهم من الرأسماليين ، كانت الكنيســـة الكاثوليكية في أمريكا غالبا ما تعتبر كنيسة العمال ، لأن عددا كبيرا من روادها كانوا من العمال بينما أصحاب العمل أميل الى أن يكونوا من أتبـــاع الـكنيسة البروتستنتية المقررة .

وظهرت مرارا وتكرارا فــرق دينية جديدة ، أو انتشرت ، لأنهـــا استمالت قلوب جماهير الشعب حين ارتبطت الأســـماء القديمة بطوائف رجعية أو من الصفوة الاجتماعية . وعند بداية القرن التاسع عشر كانت أكبر الوحدات الدينية البروتستنتية، وأكبر الهيئات الانجيلية من العماديين والنظاميين ، تلك الطوائف التي كانت تضم ســـكان الريف من الفقراء والزنوج في القرن الثامن عشر وأوائل القرن العشرين . كما كانت فرق أخرى ذات أتباع كثيرين قد نشأت على الحدود الغربية من المواطن .

وفي القرن العشرين نمت وانتشرت كنائس جديدة استمالت قلوب سكان المدن من المهاجرين ، وكان بعضها فروعا من الهيئات القديمة وكان بعضها الآخر من خلق زعيم ديني ويلقب « بالأب المبارك » وقد أطلقت على نفســـها أسماء مثل شهود يهوذا ، أو كنيســـة الله . وكانوا يمارسون نشاطهم في الأبنية الحـــالية أو حيثمـــا وجدوامأوى ، وكانوا على العمـــوم محل الزراية من جانب رجال الكنائس المقررة ، وكانوا يثيرون موجة من الاعتراض العاطفي ضد مادية العصر وعقلانيته وبذا منحوا أتباعهم ملاذا من هـــذه الشرور ، ومنحوهم الاحســـاس بالذاتية الشخصية . ومـــع أن عـــددهم كان يعتبر أقلية صغيرة بين أعضـــاء جميـــع الـــكنائس ، فقـــد كانت أهميتهم تعتمد على أنهم يصورون تمرد قطاع من ســـكان المدن ، ويحققون له حاجاته مما عجزت عنه الكنائس التقليدية . انهم يقابلون في تمثيلهم لسكان المدن في القرن العشرين الكنائس الانجيلية وكنائس الحدود

التى كانت قد أنشـــئت لخدمة الجماهير فى فترات ســـابقة من التاريخ الأمريكى ٠

وفى المجتمع المتغير غير المتبلور فى الولايات المتحدة لم يسبق للعبادات الدينية أن كانت شيئا يمارسه الجميع ، بل لم تكن فى كثير من المجتمعات تمارسها الأغلبية ، ولكن كانت حيويتها تعود اليها فترات بفعل مؤسسة « البعث » وهى صاحبة دعوة عاطفية لمجتمعات بأكملها ٠ فأثرت فى وجدان مجموعات كبيرة من الســكان ، وجعلت جماهير الناس تعلن استمساكها بالعقيدة وتهب نفسها لبعث جديد من أجل الخلاص ٠ والبعث العاطفى ، الذى كان يجرى أصــلا فى الهواء الطلق أو فى مخيم فى مناطق ريفية ، صار يوجه الى سكان المدن ، ويستخدم امكانيات وسائل الاعلام الجماهيريه٠ وأنجح أصحاب هذه الحركة فى القرن العشرين هو « بيلى جراهام » الذى رقى الأساليب الفنية التى كان قد استخدمها سلفه « بيلى سنداى » أقدر الانجيليين على الاثارة فى أوائل القرن العشرين ٠ فقد نظم تعاون الأساقفة البروتستنت بعناية ، وأعطاهم أسماء كل من استجابوا لدعوته ، كحواريين يتبعونه ، واستخدم كل الوسائل الفنية لاســـتمالة الجماهير ، عن طريق الصحافة والاذاعة والتليفزيون ، وغير ذلك من الوسائل التى تؤثر فى الرأى العام ، وأنفق ما يزيد على مليون دولار على حملته فى مدينـــة كبيرة واحدة ، وكان فى كل ليلة يدعو الجماهير المحتشدة ، الذين يملئون أكبر قاعات المحاضرة المتاحة ، أن يتقدموا ويعـلنوا ولاءهم للمسيح ٠ وحمـل رسالته وأساليبه الفنية لينشرها فى المدن فى العالم المسيحى وغيره من كل أجزاء العالم ٠

وهكذا نجد أن الدين بينما كان يفقد قدرا كبيرا من تأييده الشعبى بين السكان الصناعيين فى أوروبا ، فان هذه العوامل المختلفة كانت تهيىء له قاعدة جماهيرية دائما فى الولايات المتحدة ٠

وكان الجواب الرئيسى للكنائس على انصراف أتباعها عنها من أهـل المدن الصناعية ، هو أن تركز على المحتوى الاجتماعى للعقيدة المسيحية ، وتوسع من نطاق الدور الاجتماعى الذى تقوم به الكنائس ٠ فالمنشورات البابوية الخاصة بالعمل « الأمور الجديدة (١٨٩١) وكوادر راجسيموانو (العام الرابع) (١٩٣١) وأمثلة هذه الدعوات لنشر العدالة الاجتماعيـة من جانب الزعماء البروتستنت ، كانت تحاول استخدام نفوذ الكنائس لكبح جماح الأنانية عند أصحاب الأعمال ، واثارة حماسة معنوية به لتحسين أحوال العمال الصناعيين ٠ وقد تجدد الاهتمام بالتعاليم المسيحية التى تدعو

الى تكريس الذات لمملكة الله على الأرض ، والمسئولية عن جارك وخدمه ، وصارت معاهد تدريب القس تضع فى برامجها دراسات اجتماعية • وكان هذا فى أول الأمر فى معاهد الفرق البروتستنتية الأكثر تحررا ثم عمم فى غيرها ، سواء عند البروتستنت أو الكاثوليك .

ولم يكن الاهتمام بالأحوال الاجتماعية بالأمر الجديد ، لأن الضمير الاجتماعى القوى كان قد تغلغل - وبخاصة - فى بعض الفرق البروتستنتية وكان من الدوافع التى أدت الى الاصلاحات الاجتماعية فى القرن التاسع عشر ، بما فى ذلك الغاء الرق ، وتحسين أحوال عمال المصانع ، والمعاملة الانسانية للمجانين ونشر التعليم العام •

وفى ظروف القرن العشرين أدى اهتمام الكنائس بالجانب الاجتماعى الى قدرة الكنائس على الاحتفاظ بوضعها بين شتى المؤسسات المدنية ، وأن تنافس المدارس وجمعيات الأخوة والجمعيات الخيرية والاصلاحية ، واتحادات العمال ، والأحزاب السياسية وغير ذلك من مختلف المنظمات التى يحاول كل منها أن يحصل على اهتمام الأفراد بالمدن وأن يستحوذ على ولائهم •

وقامت الكنائس ببرامج للرعاية الاجتماعية ، مما أتاح لونا من الخدمات لبعض أعضائها كما أتاح المعونات الاجتماعية للآخرين ، واضفى التأييد الدينى على العمل الاجتماعى • وقامت هيئات التبشير المحلية باقامة مراكز لتقديم خدمات صحية وترفيهية وتدريب مهنى وتعليم الكبار والتمريض وأعمال المكتبات وغير ذلك من الخدمات فى الأحياء الفقيرة والآهلة بالسكان ، كما قام كثير من الكنائس بنشاطات اجتماعية واسعة النطاق لأعضائها • ووظيفة الراعى المسيحى وهى وظيفة فريدة بين وظائف رجال الدين فى الأديان الكبرى ، تقضى بأن وظيفة القسيس لا تقتصر على أداء الطقوس وخدمة الرب، بل تمتد الى تحقيق احتياجات الرعية ، وبذا اتسعت المهمة فصارت تشمل جوانب متزايدة من حياة شعب الكنيسة • وقامت المؤسسات اليسوعية التعليمية برعاية برامج لتدريب العمال فى عملهم وتدريبهم فى ميدان العلاقات الصناعية بين العمال وأصحاب الأعمال • وانتشرت منظمات الشباب مثل جمعية الشبان المسيحيين وجمعية الشابات المسيحيات انتشرت فى بلاد كثيرة • وقد أدت هذه الأنشطة الى تقوية الكنائس من حيث هى مؤسسات • وساعدت فى أوروبا على تخفيف حدة العداء بين العناصر الاشتراكية والمسيحية ، وعلى تمهيد الطريق للتعاون الوثيق بين الاتحادات العمالية المسيحية والاشتراكية •

ولم يحدث مطلقا أن سيطرت القضايا الاجتماعية على الكنائس

الكاثوليكية أو البروتستنتية سيطرة تامة · فقد يقيم أحد القساوسة الكاثوليك مركزا اجتماعيا تابعا لكنيسته على أساس أن « شعبى يجب أن يكون قادرا على أن يجد فى الكنيسة ما يحتاج اليه » بينما قد يعلن قسيس آخر فى الأبرشية المجاورة فى احتقار « اذا كانت كلمة الله خلال العصور لم تجلب الناس اليه ، فان أخذى لفتيان الكشافة فى رحلة لن يفلح فى ذلك » وفضلا عن ذلك أثبتت الكنيسة الكاثوليكية أن هناك حدودا معينة لا تستطيع أن تتجاوزها ·· ففى ١٩٥٤ ألغت نظام « القساوسة العمال » فى فرنسا الذين ظلوا عشر سنوات يعيشون ويعملون كعمال صناعيين حتى يقدموا لزملائهم خدمات مباشرة ويساعدوهم على التعبير عن احتياجاتهم ·

وكان القساوسة البروتستنتيون مختلفين أشد الاختلاف فى عنايتهم بالقضايا الاجتماعية · فكان بعضهم محافظا أو غير مكترث ، وكان غيرهم يتجاوزون فى حماستهم الحدود اللائقه فى نظر رؤسائهم أو شعوبهم · وكان كثيرون فى أوروبا يتبعون عالم اللاهوت السويسرى الكبير النفوذ كارل بارث الذى ارجع الى صميم العقيدة البروتستنتية التقليدية مفاهيم لوثر وكلفن بعد أن بدءوا عصرا من الاشتراكية الدينية · ولكن برغم اصرار بارث على الطابع الفردى البحت فى الدين ، والتزام الانسان بأن يشترك فى محاورة مستمرة مع الله ، فان اتباعه قد اجتذبوا الى الميدان الاجتماعى والسياسى · لأنه أصبح زعيما روحيا وثقافيا كبيرا فى الكنيسة الاعترافية التى احتجت على الروح اللامسيحية واللاانسانية للاشتراكية الوطنية ·

ولكن لم تقدم الكنائس المسيحية قيادة متسقه للتغيير الاجتماعى بشأن القضايا الاجتماعية الكبرى فى القرن العشرين وان كانت بعض الأماكن قد أسهمت اسهاما كبيرا فى قضايا مثل التعاون الدولى والمساواة العنصرية· وبانتشار مفهوم دولة الرفاهية على نطاق واسع ، تحول الضمير الاجتماعى الى صورة زمنية على العموم ·

ومع أن عدم الاكتراث من جانب الطبقات العاملة كان معناه نقص كبير فى عدد أتباع الكنيسة ، فلقد كان الصدام الظاهر مع العلم والعقلانية والروح الزمنية والمادية هو ما أضعف قوة الزعامة العقلية للكنيسة ونفوذها وتأثيرها على الكفر فى العالم الغربى ·

فى أوائل القرن كانت النظرة الميكانيكية الى العالم المستمدة من العلوم الفيزيائية تصور وجها غير حبيب الى قلب رجال الدين ، بينما من يستمسكون بالمسيحية القائمة على الوحى والتفسير الحرفى للأناجيل لم

يستطيعوا قبول المواقف العلمية والطرائق العلمية اذا مست المجال الذى يدعيه الدين لنفسه ولقد أخذت محاولات التوفيق بين العقل والدين صورة تراجع من جانب الدين ، والميل الى استبعاد كثير من محتواه التقليدى الذى كذبته الشواهد العلمية ، وكان البديل عن ذلك هو حدوث صدام مباشر ٠ فحتى فى عام ١٩٢٥ رأينا أن مدرســا فى مجتمع امريكى منعزل صغير ، خاضــع للفكر الدينى الســلفى ، قد قدم الى المحاكمة لأنه درس نظرية التطور ٠

ولكن التطورات التالية التى حدثت فى كل من الدين والعلم غيرت من طبيعة تصالحهما أو تعايشهما أو صراعهما ٠ فعلم القرن العشرين يسهل تعايش الدين معه ، بعد أن تخلى عن يقينياته السابقه ، وغروره السابق ، وقبوله اللايقين كمبدأ أساسى ٠ كذلك صعب على الدين سبيل الهرب أو التراجع بينما تتسع مجالات تحليقه ويزداد تغلغله فى الظواهر التى لا يمكن ملاحظتها مباشرة ، وانما تستنبط عن طريق العقل ٠ هذا الى أن الدين من جانبه قد تزحزح عن موقف التفسير الحرفى ، الذى دفع به الى التصادم مع العقلانية العلمية ، فاستكشف طرقا عديدة لتقبل المعرفة العلمية الجديدة دون التخلى عن المقومات الأساسية للعقيدة ٠

وقد أنكر عدد من العلماء وجود خلاف بين العلم والدين ٠ فثمة عدد من علماء الفيزياء والبيولوجيا والفلك ، مثل ج ٠ أ ٠ طومســون (العلم والدين سنة ١٩٢٥) وجيمز جينز (العالم العجيب سنة ١٩٣٠)وج٠ب٠س٠ هالدين (العلوم والفلسفة سنة ١٩٢٩) وا ٠ س ٠ ادنجتن (طبيعة العالم الفيزيائية سنة ١٩٢٨) وروبرت ا ٠ ميليكان (عالم يعترف بايمانه سنة ١٩٢٣) قد عبروا عن احســاسهم بعدم كفاية العلم وحده للكشف عن الأسرار النهائية للعالم والانسان ٠ ولقد وضع بعضهم حدا يفصل بين العلم والدين ، بينما آخرون قد اتفقوا فى الجوهر مع ما يقوله الفريد ن ٠ وايتهد من « انه توجد حقائق أوسع ونظرات أسلم يمكن فى نطاقها ايجاد توفيق بين الجانب العميق من الدين وبين الجانب الخفى من العلم» ٠ ولقد عبر العالم الطبيعى اليسوعى الأب تيل هارد دى شاردان (١٨٨١ ـ ١٩٥٥) عن رأيه حيث قال ان « الدين والعلم وجهان أو مرحلتان لنفس العملية ، عملية المعرفة الكاملة ـ تلك المعرفة التى هى الشىء الوحيد الذى يســتطيع أن يشمل ماضى التطور ومستقبله تأملا وقياسا وتحقيقا » ومع انه كان ممنوعا أثناء حياته من التدريس فى فرنسا أو الكتابة فى الموضــوعات الفلسفية ، فان كتابه « ظاهرة الانسان » الذى نشر عقب وفاته ، قد أثار اهتماما واسعا بين العلماء والقادة الدينيين والجمهور العام ٠

وقابلت بعض الكنائس النقد العقلاني فى منتصف الطريق ، فأعادت تفسير العقيدة على نحو يتسع للتفسيرات التاريخية والرمزية والعقلية لمعنى الكتاب المقدس ومواد العقيدة والطقوس وطبيعة التجربة الدينية ٠

اما الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فناهضت كل الجهـود الرامية الى البحث عن أساس للعقيدة خارج الكنيسة ٠ فأنكرت انكارا قاطعـا حركة المحدثين التى قامت داخل الكنيسة بين القساوسة والعلمانيين فى نهاية القرن التاسع عشر ، والتى كانت تحاول تطويع تعاليم الكنيسة بما يلائم بينها وبين مكتشفات البحث العلمي والنقدى الحديث ٠ فأصدر البابا بيوس العاشر عام ١٩٠٧ مرسوما يدعى لامنبتيلي والمنشور البابوى باســندى دومنيكى جريجس يندد فيهمـا بالتجديد لأنه فى نظره يحـل المقاييس الذاتية البحتة فى أمور العقيدة والأخلاق محل سلطة الكنيسة ٠ وطلب من كل القساوسة عام ١٩١٠ أن يقسموا يمين مناهضة البدع الجديدة ٠ وظل الموقف دون تغيير ، ووضعت الحدود التى يجب الا يتعداها البحث ، وأكد المنشور البابوى «الجنس البشرى» سنة ١٩٥٠ الصدق المطلق للعقيدة الكاثوليكية وأدان ما عداها من الآراء ووصفه بأنه زيف وبطلان ٠

غير أن الكنيسة الكاثوليكية قد رحبت بالدراسات الأكاديمية لأصول الطقوس القائمة ، وقبلت فكرة امكانية تعديلها فى ضوء الشواهد التاريخية الجديدة ٠ وكان مركز النشاط العالمى فى هـذا الميدان هم البندكتون فى مينيسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية ، وكانوا يركزون دراســـتهم فى العبادات واعتبرت نتائج البحث التاريخى أسسا ممكنه لطقـوس جديدة مؤدية الى ممارسة دينية تتفق وظروف العالم الحديث ٠

أما الكنائس البروتستنتية فلم يكن فى يدها نفس السلطة ونفس العصمة من الخطأ فى مسائل الدين ، فلم تتجاهل حركات التجديد، وحاولت أن توفق بين عقيدتها وبين الفكر الحديث ٠ وبينما بعض الفرق قد قاومت هذه الاتجاهات بالتشبث بالعقيدة السلفية ، فان معظم الفرق الكبرى كانت تتميز بمجال واسع من الأفكار المتفاوتة بين أفرادها وبين رجال الكنيسة ٠ ولقد تأيدت فكرة التجديد بقوة ٠ بفضل حلقات الدراسة التى تعد القسس للعمل فى الكنائس الحرة لشتى الفرق الدينية ومع هذا فقد كان هنـاك عنصر سلفى فى معظم الفرق ٠ وفى منتصف القرن أظهر الرأى العام قبولا للنقد العلمى للنصوص الدينية ، ويشهد بهذا الاهتمام الكبير الذى لقيه اكتشـــاف وثائق البحر الميت وما يمكن أن تلقيه من ضـــوء على انجيل المسيحيين ، ولقد طبعت الكتب المخطوطة بهذه الوثائق فى طبعات جيب

للقراءة العامة ، وكانت من أوسع الكتب انتشارا فى الولايات المتحدة فى أواخر الخمسينيات ٠

لقد خرجت الكنيسة الكاثوليكية أكثر تماسكا بعد طوفان المجادلات الحديثة فى بداية القرن ٠ أما الفرق البروتستنتية فقد ظلت تجمع بين العناصر المناصرة للجديد والمتشبثه بالقديم ، وان كان الحد الفاصل بين الفريقين قد أخذ يختفى ، وأخذ صراع الآراء تخف وطأته بمرور السنين ٠

وفى تلك الأثناء كان الاحساس العميق باللايقين الذى كان الرجل الغربى يواجه به عالمه المتغير ، يغذى اتجاها متزايدا نحو اللاعقلانية ٠ فلقد تعاقبت المدارس الفلسفية الأوروبية فى الابتعاد شيئا فشيئا عن الأساس العقلانى البحت ٠ فمن أعلام الأدب البارزين من وجدوا أن الحياة الحديثة خراب وضياع ، فلاذوا بالدين ، اذ رأوا فى الكنيسة جماع التقاليد الجوهرية والتجربة الضرورية ، التى بدونها تفقد الحياة معناها ، كما فعل ت ٠ س ٠ اليوت أو جاك مارتيان اللذان عادا فأكدا قيم مسيحية القرون الوسطى ٠ وأعلنا أنها أسمى من قيم هذا العصر ٠ ورأينا المؤرخ ارنولد توينبى ، وهو أوسع المؤرخين طموحا وأكثرهم قراءة فى منتصف القرن العشرين ، يجعل الدين مفتاحا لنجاح الحضارات عبر التاريخ ٠ أما توكيد سيجمند فرويد على أهمية العنصر اللا عقلى فى السلوك البشرى فقد فسره تلاميذه على نطاق واسع بأنه يقدم تبريرا علميا للمواقف والعقائد غير العقلية ، وان كان فرويد نفسه قد حاول تطبيق الطرق العلمية على دراسته اللاعقلانية ٠

والنزعة اللاعقلانية بظواهرها الكثيرة قد غيرت المناخ الثقافى للمجتمع الغربى فى القرن العشرين ، فيما عدا المناطق الشيوعية ، فكثير ممن كانوا يحاولون التوفيق بين العلم والدين قد تخلوا عن المحاولة ، وعادوا الى سلفية جديدة ، تتجاهل العلم أو حتى ترفضه ٠ وصارت أعداد كبرى من الناس تنضم الى الفرق المتزمتة من الكنائس البروتستنتية ٠ واذا كان التغيير فى المناخ الثقافى لم يعد بالناس الى أداء الفروض الدينية ، فقد كان دعما لمن بقى منهم على عقيدته الدينية ، كما أثار اهتماما جديدا بالدين لدى من كانوا لا يكترثون بالدين ، ورد الاعتبار والاحترام الى العبادات الدينية ، وحرم من كانوا يسخرون بالدين علنا من مادة لسخريتهم ٠ وكان الخوف من الشيوعية سببا آخر من الأسباب التى أدت الى ذلك ٠

غير أن تجدد الاهتمام بالدين لم يكن معناه ترديدا كاملا لتعاليم الكنائس المقررة ، لأن جزءا كبيرا من هذا الاهتمام كان شخصيا جدا ،

فأدى الى شهرة الأدباء والوعاظ الذين يستخدمون وسائل الاعلام الحديثة لتقديم الدين في ثوب قشيب ، كما أدى الى دراسة الفيدانتا وأشكال من التصوف الشرقي ، وأدى الى ظهور أنواع مختلفة من الفرق الدينية التى يبدو أنها تقدم لأعضائها من الرضى الدينى ما لا تقدمه الكنائس المقررة ، وأدى أيضا الى قيام حركات اتسع انتشارها مثل حركة التسلح الخلقى ، التى استخدمت البعث الدينى لمناهضة الاتجـــاهات الزمنية الرامية الى التغيير الاجتماعى ٠

واذا كان الاتجاه الى السلفية الجديدة فى منتصف القرن قد بدأ قويا، فان بعـــض العلماء والناس العاديين ورجال الدين قد خافوا من أن يفقـد المجتمع مقوماته اذا سيطر عليه العلم دون ان يصلوا معه الى اتفاق على القيم، فظل هؤلاء الناس يجاهدون من أجل ايجاد موقع عليه ثقافة يندمج فيهـــا العلم والدين ٠ وقد وجد بعضهم ما يؤيد الفكرة القائلة بأن مكتشفات العلم تؤكد الرؤى الأساسية للدين وقد تثريها وتخصبها٠ ورأى غيرهم أن نوعين من الحقيقـة يمكن الوصـــول اليهما عن طريق العمليتين المتميزتين اللتين يستطيع بهما الانسان أن يحرز المعرفة ــ الطريقة العلمية التى تعتمد الملاحظة وتكوين القوانين العامة والتثبت منها ، والعملية الدينية التى تعتمد على الاحساس المباشر وسرعة البديهة . ورأى آخرون أن معنى الدين انما يكمن فى الدور الذى يؤديه فى حياة البشر ، وليس فى صحة أو بطلان أى مذهب لاهوتى .

غير أن المسيحية ــ بفضل تركيزها على قيمة الفرد كانت من العناصر القوية فى الفلسفة الانسانية برغم أن مركز العقيدة فيها هو الله ٠ كما أن النظرة الانسانية التى ظهرت فى عصر النهضة الأوروبية فى عصر التنوير فى القرن الثامن عشر قد أعطت معنى روحيا لجهاد الانسان نفسه ، وجعلت استقامة الانسان بمعناها الكامل هدفا دينيا فى جوهره ٠ وفى منتصـــف القرن العشرين ظهر عدد صغير من الناس ، لم يجتمعوا فى منظمة وان كان لغالبيتهم نفوذ كبير كأفراد وعبروا عن ايمانهم العميق بالنظرة الانسانية ٠ ولما كانوا هم ورثة كل من التقاليد العلمية والدينية فى العالم المسيحى ، فقد واجهوا عصر العلم دون يأس ، وقبلوا فكرة البصيرة الدينية دون أن ينتكسوا الى عقائد لاعقلانية، واستمدوا من التراث الروحى للمسيحية روح التعاطف والأمل والايمـــان بالبشر والتفانى فى خدمته ٠ وقد أظهرت المسيحية المتحررة باتاحتها المجـال لمثل هذه النظرات أنها تســـتطيع أن تستوعب تيارات الفكر العلمى ، وأن تبث المعنى والروح فى العقول العلمية.

وعند بداية القرن العشرين رأينا ان حركة التبشير المسيحية التى صحبت التوسع الاستعمارى الغربى فى القرن التاسع عشر قد أخذت تلقى مقاومة من القومية الآسيوية الناهضة ، ومن ادراك الآسيويين لذواتهم . وهى أمور ترجع بدورها الى اتصالهم بأوروبا نفسها . فالهندوكية بعد استعادتها لقوتها قد وقفت موقف المناهض لدعاوى المسيحية ، بل لقد اجتذبت اليها كثيرا من الناس فى الغرب ، أما اليابان فقد ادمجت عقيدة الشنتو بالوطنية والتعليم ، وقدمت جبهة قومية ضد محاولات المبشرين . وفى الصين كانت محاولات العنف المتكررة ضد المبشرين التى بلغت ذروتها فى تمرد « بوكسر » عام ١٩٠٠ قد كشفت وجود كراهية عميقة « للشياطين الأجانب » وكذلك « لأتباع الشياطين » من الصينيين الذين دخلوا فى المسيحية .

غير أن الجهود التبشيرية المسيحية قد استمرت . وان كان تحقيق الأمل فى دخول أعداد ضخمة من الناس فى المسيحية قد صار أقل احتمالا بعد تراجع الاستعمار الغربى عن آسيا وافريقيا . لقد اجتذب ميدان التبشير كثيرا من العاملين المخلصين ، الذين غالبا ما اتجهت جهودهم الرئيسية الى محاربة المرض والجهل ، وأدى نشاطهم الى المعاونة على تحسين وسائل الصحة والتعليم . واشهر هؤلاء الدكتور ألبرت شفيتزر الذى عاونه العالم كله على اقامة مستشفاه فى افريقيا . وقد تأثر كثير ممن لا يكادون يحفلون بالجهود التبشيرية باصراره على « توفير الحياة » .

وفى كل من آسيا وافريقيا كان المبشرون يلقون التشجيع من الدول الاستعمارية التى كانت تعتمد عليهم فى تقديم الخدمات الاجتماعية ــ ويستثنى من ذلك كوريا وغيرها من البلاد التى وقعت تحت نير الاستعمار اليابانى حيث كانت بعثات التبشير المسيحية نقطة التجمع ضد الاستعمار . وفى الممتلكات البرتغالية عهد الى الكنيسة بكامل المسئولية فى التعليم ونشر المسيحية والثقافة البرتغالية فى نفس الوقت . وفى المستعمرات البريطانية والهولندية كانت بعثات التبشير تقدم كثيرا من الخدمات التعليمية والصحية ، وتميزت الممتلكات البريطانية فى آسيا بضخامة مواردها المحبوسة على أداء هذه الخدمات عن طريق الوكالات غير الدينية قبل الحرب العالمية الثانية .

ولكن من وجهة نظر الكنائس المسيحية لم يكن أوسع ميادين التبشير فى أى منطقة من مناطق المستعمرات ، بل كانت فى الصين سنة ١٨٦٤ حيث حجم السكان وعدم وجود دين قومى متأصل وضعف الحكومة المركزية

والحاجة الواضحة للخدمات الصحية وغيرها من الخدمات الاجتماعية ، قد جعلت من الصين مركز جذب شديد للبعثات التبشيرية فى كل الفرق وكل الاقطار · ولم تكن الدول الاستعمارية وحدها هى التى تتحمل الانفاق على بعثات التبشير المسيحية فىأنحاء العالم كله ، اذ كانت الأموال تأتى أيضا وعلى نطاق متزايد من الولايات المتحدة ·

وفى الثلاثينيات كانت الثقة التى تحمل بها بعثات التبشير المسيحية ثقافتها الغربية وايمانها الى من تعتبرهم « الوثنيين المتخلفين » قد اهتزت وضعفت وثمة وصف عميق للنشاط التبشيرى ورد فى تقرير لفرقة ممتازة ذات مكانة مرموقة من العلمانيين البروتستنت ١٩٣٢ بعنوان « نظرة جديدة الى البعثات الأجنبية ، بحث علمانى بعد مائة سنة » (نيويورك ١٩٣٢) وخلص البيان الى أن بعثات التبشير المسيحية قد تكون بحاجة الى أن تتعلم شيئا ممن تحاول أن تخدمهم وأن تجعل هدفها التبادل فى المعرفة فلا يكون التعليم من طرف واحد للطرف الآخر· ومع ذلك فان رواد الكنيسة ذوى الضمائر الحية ظلوا يدفعون المعونات لبعثات التبشير المسيحية حتى بلغت ميزانياتها السنوية ملايين كثيرة من الدولارات فى منتصف القرن ، هؤلاء كانوا يفترضون أن معوناتهم الاختيارية انما تساعد على نشر العقيدةالصحيحة . وقد تبرع أعضاء أربع وأربعين فرقة بروتستنتية فى الولايات المتحدة بمبلغ ٥٩ مليون دولار لبعثات التبشير فى الخارج سنة ١٩٥٤ .

وكانوا آخر من يعلم مدى عمق وانتشار روح الامتعاض من موقف التعالى الذى وقفوه ·

ولقد كشف تاريخ الجهود التبشيرية المسيحية فى الصين على نحو أوضح خصائص مشكلات مثل هذه الجهود فى كل أنحاء العالم · فبمقتضى معاهدات فرضت على الصين سنة ١٨٥٣ بعد الحروب التى شنت لفتح البلاد فى وجه التجارة الغربية كان المبشرون يتمتعون بحرية السفر والوعظ وبالامتيازات الأجنبية لأنفسهم والحماية لمن يحيلونهم الى المسيحية فأصبحوا بذلك مجتمعا ممتازا تحميه الدول الأوروبية . وخلال التمرد على الأجانب المعروف بتمرد بوكسر سنة ١٩٠٠ خربت الكنائس والمدارس المسيحية ، وذبح المسيحيون الصينيون ولكن الأمل فى تحويل أعداد كبيرة الى المسيحية قد يستمر ، وأعيد تكوين البعثات التبشيرية بفضل التعويضات التى فرضت عما أحدثه تمرد بوكسر من تدمير .

وكانت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية تعتبر الصين ميدانا فى غاية الأهمية لمد نفوذها وتوسيعه لدرجة أن البابا شخصيا قد رسم أول اسقفين صينيين سنة ١٩٢٥ . وفى هذا الوقت كان أكثر من ميلون ونصف مليون من الصينيين يتلقون العلم فى نحو ٣٠ ألف مدرسة كاثوليكية ، منهم ألف فى خمس مؤسسات للتعليم العالى ، وكان للبعثات التبشيرية الكاثوليكية ما يقرب من سبعمائة مستشفى والفى عيادة ، وألف وخمسمائة ملجأ أيتام وثمانية ملاجىء جذام . وفى الوقت الذى استولت فيه الحكومة الشيوعية على الحكم ، كانت المدارس الكاثوليكية يتعلم فيها نحو ٥ مليون تلميذ وكانت الخدمات الطبية تصل الى ما يقرب من ٣٠ مليون شخص ، وكان عدد القساوسة الصينيين يبلغ أربعة آلاف قسيس و ١٢ ألف عضو فى المذاهب الكاثوليكية .

وكانت بعثات التبشير البروتستنتية وبخاصة الآتية من بريطانيا والولايات المتحدة كبيرة العدد أيضا ومختلفة فى مجالاتها ، ولكنها توقفت فى التوسع بعد الربع الأول من القرن ، حين قويت حركة القومية والبعث الثقافى المحلى . وكان كثير من شباب الصين من ذوى الثقافة الغربية ممن قادوا حركة البعث وكانوا مسيحيين اسما. ولكنهم الآن كشفوا عن حقيقتهم بأنهم ضد الدين ، وضد الأجنبى ، وضد المسيحية . . ثمة مؤرخ صينى ممتاز نظر الى الوراء فى منتصف القرن الى الدور الذى أدته بعثات التبشير المسيحية فى بلاده ولخص ما أحدثه ذلك من رد الفعل فى مجتمعه . لقد التحق بمدرسة تبشيرية فى قريته حين كان طفلا ، وبلغ مرحلة الشباب حين قامت ثورة بوكسر ، ودرس فى الخارج وصار مديرا لجامعة صينية مرموقة ، وارتحل مع الحكومة الوطنية الى فرموزا . قال لقد أحببنا المبشرين لانهم كانوا يركبون لنا مضخات الماء . ويعالجون مرضى الملاريا ، ولكنهم قالوا لنا ان الههم اله غيور، ونحن لسنا بحاجة فى الصين الى أى اله غيور ، وحين استولى الشيوعيون على السلطة كانت البعثات التبشيرية المسيحية أولى المؤسسات التى تناولتها عمليات التصفية .

ولم يحدث فى أى مكان أن أدت حركات التبشير الواسعة النطاق فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين الى ادخال نسب ضخمة من السكان فى العقيدة المسيحية وأصدق التقديرات لأعداد المسيحيين فى مختلف البلاد غير المسيحية ، بما فى ذلك أعضاء كنيسة جنوب الهند التى يرجع تاريخها الى العصر المسيحى الأول ، تتراوح بين ما يقل عن ١٪ من السكان فى الصين الى ما يزيد شيئا ما عن ٤٪ فى اندونيسيا وأجزاء من أفريقيا الاستوائية و ٦٪ فى الهند الصينية .

غير أن النسبة الصغيرة لمن تحولوا الى المسيحية لا تعكس بالطبع صورة كاملة للأثر الكامل لبعثات التبشير المسيحية خلال هذه السنوات اذ أن كثيرين ممن حولتهم هذه البعثات الى المسيحية قد أصبحوا زعماء قوميين عالميين،مثل صن يات صن فى يوم ما وشيانج كاى شك وتوبوهيكل كاجاوا وثمة قادة لم يدخلوا فى المسيحية ولكنهم تأثروا الى حد ما بالفكر المسيحى مثل رابندرانات تاجور والمهاتما غاندى • وقد أدى تأثير المسيحية الى قيام حركات اصلاحية فى أديان أخرى مثل دين البرامو ساماج فى الهند ولقد قدمت مدارس التبشير كثيرا من الرجال والنساء الذين قاموا بدور الزعامة فى تحويل بلادهم الى الحياة العصرية •

وأكبر النتائج نسبيا قد تحققت فى أجزاء من أفريقيا، وبخاصة فى افريقيا الشرقية حيث صار ما يقرب من ٦٪ من السكان من المسيحيين فى منتصف القرن • ولكن هنا كثيرا ما ووجهت بعثات التبشير المسيحية بمناقشة قاسية وناجحة من حركات التبشير الاسلامية ، على نحو ما فعلت فى عصر سابق فى جنوب شرق آسيا حيث كان الاسلام يشكل وسيلة من وسائل الاحتجاج ضد السيادة الغربية • وكان من الاسهل على كثير من الافريقيين ان يؤمنوا بصحة العقيدة الاسلامية التى تقول بأن الاجناس سواسية ، وأن يقبلوا دين التجار العرب من أن يفهموا ماذا يعنيه المبشرون الاوربيون بالاخوة المسيحية بينما الحكام الاوروبيون يقررون للعمال أجورا غير عادلة، وينشئون معازل للوطنيين ، وممرات خاصة بهم • ومع أن الاسلام قد دعا من يدخلون فيه الى تغيير بعض الطرائق القبلية فى الحياة ، فأنه لم يحرم ما ألفوه من تقاليد ، مثل تعدد الزوجات وهو أمر حرمته المسيحية• ومع ذلك فان بعثات التبشير المسيحية قدمت التعليم والرعاية الطبية التى كان كثير من الافريقيين فى أمس الحاجة اليها ، واستمروا يلعبون دورا هاما فى التطور الافريقى حين ضعف نفوذهم الى حد كبير خارج أفريقيا •

وفى نظر الكنيسة الرومانية الكاثوليكية كان النشاط التبشيرى جزءا من مجهود لا ينقطع لتوسيع نفوذ الكنيسة وتحقيق مفهومها العالمى الذى نادت به• وفى منتصف القرن بعد أن كانت الكنيسة قد تحملت عاصفة الزمنية فى مراكزها القديمة ، فقد صارت على استعداد لأن تتحمل وطأة التيار المناهض للاستعمار ، والذى تمثل فى القساوسة المحليين الجدد ، والزعامات الوطنية لكنائسها الجديدة فى بلاد أخرى •

وكانت حركات التبشير البروتستنتية أكثر تعرضا للهجوم حتى تداعى صرح التفوق الغربى فلقيت معارضة واعية ممن كانت تأمل ادخالهم

فى المسيحية • فاذا كانت البروتستنتية فى التحليل انهائى تقـوم على أساس افتراض أن كل فرد يجب أن يهتدى الى طريقه الخاص المؤدى الى الله ، فانه لم تبق الا خطوة صغيرة ثم تسلم لغير المسيحيين أيضا بأن كلا منهم قد يكون من حقه أن يهتدى الى طريقــه الخاص المؤدى الى الله • وازاء الموقف الجديد فى منتصف القرن فقدت كثير من بعثات التبشــير القديمة طابع التبشير بالدين ، وركزت على تقديم خدمات فنية فى الطب والتعليم والزراعة ، متعاونة فى ذلك مع المجتمع المحلى • ولقد جاء أعظم تأييد سخى للمبشرين الجدد من بعض الفرق الانجيلية مثل Mennonites, Jehovah's Witnesses Penlecostals الذين يعتبرون أن اخوانهم المسيحيين بحاجة الى الاهتمام بالتوبة بقدر ما يحتاج غير المسيحيــين اليها ســو ء بسواء ، وكانوا من أشد النقاد لجوانب كثيرة فى الحضارة الغربية بدل أن يكونوا دعاة لها •

وقد وجدنا على العموم ان البروتستنت مثل الكاثوليك ، قد انتقلوا من دور الدخلاء الأجانب ، الى دور المؤيدين للكنائس المحلية التى أنشئت خلال مائة عام من النشاط التبشيرى وهكذا تحول النشاط التبشيرى الى وسيلة من وسائل التعاون بين الكنائس القديمة والجديدة ومع أن هــذه الكنائس الجديدة خارج العالم العربى لم تـكن تتبعها الا أقليات صـغيرة بالنسبة لمجموع السكان ، فان بعضها قد صار وحـدات ضخمـة • وحين أخذت أماكنها فى بناء مجتمعاتها وفى المجالس المسيحية لم يعد الطابع البارز الذى يميز المسيحية هو أنها دين الغرب ، بل صار المجتمع المسيحى جزءا من مجتمعات متعددة الأديان فى أنحاء العالم •

ولقد حاولت الكنائس المسيحية أن تدعم مركزها عن طريق التنظيم وأحرزت الكنيسة الكاثوليكية نجاحا بالغا فقد قدمت البابوية للكنيســة دعامة قوية بفضل سلسلة من البابوات الأقوياء الذين حصلوا لأنفسهم على الاحترام العام فى العالم المسيحى وخارجه • وفى الاحتفالات بأعوام اليوبيل فى ١٩٢٥ ، ١٩٣٣ ، ١٩٥٠ وفدت أفواج من المؤمنين الى روما ، وبذا قوى اعتبار الكنيســة مجتمعا عالميا • وأدى تجميع القانون الكنسى الى اعادة توكيد وحدة النظام الكنسى فى التشريع • وقد اسـتطاعت الكنيســة الكاثوليكية أن تدعم مركزها فى معظم الأقطار ، رغم ما أصابها من نكسات قاسية • لقد فقدت الكنيسة الكاثوليكية مركزها الرسمى فى فرنسا حين فصلت الكنيسة عن الدولة سنة ١٩٠٥ ، وطرد رجال الدين ، ولكن بعد الحرب العالمية الأولى تقرر نظام للتعايش السلمى ، يتيح استمرار نفوذ

الكنيسة وتوسيعه ، وأدى دخول عديد من مشاهير المؤلفين الفرنسيين فى المسيحية الى زيادة مكانتها ، وأدت المناداة بجان دارك قديسة الى تقوية الرابطة بين الكنيسة وفرنسا • وفى أسبانيا بعد أن فقدت الكنيسة نفوذها لفترة وجيزة فى الثلاثينيات فى ظل الجمهورية الأسبانية المناهضة للدين ، حصلت على تأييد كامل وعميق فى عهد الجنرال فرانكو • وقوى مركز الكنيسة فى بولندا حين استعادت هذه البلاد استقلالها بعد الحرب العالمية الأولى ، اذ كان الدين مرتبطا بمعنى الوطنية والأمانة القديمة للشعب البولندى ، ضد حكامها الروس الأرثوذكس والألمان البروتستنت• غير أن كنيسة بولندا ذهبت ريحها حين استولى الشيوعيون على السلطة بعد الحرب العالمية الثانية ، وان احتفظت بعلاقة مع النظام الشيوعى تمكنها من العمل • وبعد عودة السلطة الزمنية الى الفاتيكان صارت هذه المدينة مركزا من مراكز الديبلوماسية •

ولقد تصالحت الكنيسة الكاثوليكية مع كل حكومة رجعية فى أثناء سطوتها — مع موسولينى وهتلر وفرانكو وبيرون ، لأنها قبلت حكومات اليمين، على اعتبار أنها حصون تقى من أخطار اليسار المناهض للدين•ولكن حين ظهر أن التطرف فى الرجعية والاستبداد لم يدع مجالا لسلطة مستقلة تتمتع بها الكنيسة ، قامت لتناقض هؤلاء الحكام المستبدين أنفسهم، وقدمت زعامات كاثوليكية للحكومات الديمقراطية التى أعقبت سقوط المستبدين • وبرغم ما وجهه الكاثوليك فى البلاد الديمقراطية من نقد عنيف الى سياسة الكنيسة فى مهادنة الفاشية والنازية ، فان عدد الكاثوليك ونفوذهم قد نما فى بعض الدول الديمقراطية مثل هولندا وبريطانيا وبلجيكا خلال هذه السنوات •

وفى أمريكا اللاتينية وجهت الثورة المكسيكية ضربة شديدة الى الكنيسة الكاثوليكية ، فصادرتها فى أول الأمر ، ثم سمحت لها بأن تعود الى الحياة بقيود شديدة ، ودون أن تعاد اليها ثروتها أو مكانتها • وفى الدول اللاتينية الأخرى كانت اللامبالاة بالدين منتشرة على نطاق واسع ، وان اختلفت هذه الدول فيما بينها اختلافا ملحوظا • ففى ڤنزويلا كانت هناك مناطق شاسعة تكاد تخلو من العبادات الدينية خلوا تاما ، بينما فى جارتها كولومبيا كانت الكنيسة تؤدى دورا قويا فى الحياة القومية • وما حل منتصف القرن حتى كانت هناك شواهد كثيرة على بعث كاثوليكى فى معظم دول أمريكا اللاتينية • وأخذت المسافة الفاصلة بين رجال الكنيسة والناس العاديين تضيق ، حين قام أفراد من القساوسة بتدريس برامج

اجتماعية فى أبروشياتهم ، وأخذ التعليم الدينى يشمل تدريس القضايا الاجتماعية ، وطرق التعاون مع النـاس فى حل مشكلاتهم الاجتماعية • فحصل الـكاثوليك بذلك العمل على قادة للعقيـدة من العلمانيين فى عدة أقطار •

غير أن المصدر الأكبر لتجديد الحياة الكاثوليكية وتقويتها انما أتى من انتشارها فى الولايات المتحدة ، حيث أصـــبحت أوسع المذاهب الدينية انتشارا وأقواها نفوذا ، اذ كانت تضم فى عضويتهـا حوالى خمس مجموع السكان ، كما تضم غالبية السكان فى كثير من المدن الكبرى • ولقد أتاح الفصل التقليدى بين الكنيسة والدولة فى الولايات الامريكية التى يسودها المذهب البروتستنتى ، فرصة كاملة للكنيسة الكاثوليكية لتنمى أنشطتهـا ومؤسساتها • وقد مكنها تزايد ثروتها بتزايد رخاء البلاد ، تولى اتباعهـا مراكز مرموقة فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، مكنها من أن تنتهز الفرصة السانحة • ففى ظل نظام يسمح باقامة مدارس خاصة ، أقامت الكنيسة مدارس أبروشية كما استطاعت أبروشية من الأبروشيات أن تنفق على مدرسة من المصروفات التى يدفعها آباء التلاميذ أو من المعونات ، أو من اعتمادات التبشير فى الأبروشيات الفقيرة • وفى منتصف القرن صـارت قضية اعانة الدولة للمدارس الأبروشية من القضايا الحيـة برغم المبدأ الامريكى المقرر ، الذى يقضى بالانفاق على المدارس العامة فقط ، فخصص استخدام الأموال العامة للخدمات الاجتماعية مثل مركبات الأتوبيس الثابتة للمدارس والخدمات الطبية، والوجبات الغذائية فى المدرسة، وللمنح الدراسية والكتب المقررة على التلاميذ الذين يتعلمون فى المدارس غير العامة •

ولقد استفادت الكنيسة من ميل الامريكيين الى تشكيل منظمـــات من كل نوع ، فدعمت قوة منظماتها الكنسية وصلاتها الدينية الاخوية بعدد كبير من الهيئات الأخرى ، فشكلت منظمات كاثوليكية للرجال والنســاء والشباب والكشافة ، وأندية الانسان الجديد للطلبة فى غير المؤسسات الكاثوليكية • وكان هناك عدد كبير من وكالات الخدمات تحاول أن تؤثـر فى جوانب كثيرة من الحياة الامريكية فأخذت تنسق جهودها عن طريق المؤتمر الكاثوليكى القومى للرعاية •

ولقد اتخذت الكنيسة من وضع أمريكا ومواردها الوسيلة لتوسيع نفوذهـا فى باقى أنحاء العـــالم وبفضل جمــاعة Legion of Decency (نوط اللياقة) وهى وكالة كاثوليكية شبه رسمية أقيمت لتقييم الافــلام

لصالح القطاع الكاثوليكي من المشاهدين ، فصار صوتها مسموعا فى عاصمة السينما بالعالم ، وأصرت على أن تظهر مفاهيمها وعروضها دائما من خلال هذه الوسيلة على النحو الذى تراه صحيحا • ومهما يكن من أمر اعتراض الامريكيين البروتستنت على تزايد نفوذ الكنيسة الكاثوليكية ، فقد ضعف هذا الاعتراض بعد الحرب العالمية الثانية بسبب الخوف من الشيوعية ، لأن الكنيسة أضفت على نفسها دور المدافع عن العالم الحر ضد الالحاد والطغيان الشيوعى ، وبذا صارت بمنجى من هجوم نقادها القدامى • ان نفوذ كنيسة روما فى منتصف القرن قد تجاوز مداه الذى بلغه حتى فى العصور الوسطى ، حين كانت المسيحية لا تشمل الا جزءا صغيرا من العالم ، وان كانت المسيحية لم تتغلغل الى الأعماق على نحو ما كانت تفعل فى الماضى •

لا تستطيع الكنيسة الارثوذكسية ولا الكنائس البروتستنتية أن تدعى أنها حققت نفس القدر من النجاح تنظيميا وسياسيا • ذلك انالكنيسة الارثوذكسية الشرقية التى عانت من تدمير بطريركيتها الاوسع نفوذا عقب ثورة أكتوبر العنيفة فى عدائها للكنيسة ، أصيبت بأفجع هزيمة للمسيحية منذ قيام الاسلام • فطبع الدولة بالطابع الزمنى الكامل ، والتعليم المناهض للدين فى المدارس ، وعدم استطاعته تعيين بطريرك جديد لفترة من الزمن بعد موت البطريرك Tichon (تيشون) ١٩٢٨ ، والزام الفرق الدينية بالالتجاء الى مجلس الدولة فى الشئون الدينية المتعلقة ببناء الكنائس والمطبوعات ، وغير ذلك من الاحتياجات ، كل هذا أضعف الكنيسة الروسية وأدى بها الى حالة من العجز التام تقريبا ومع أن الدستور السوفييتى الصادر فى عام ١٩٣٦ كفل حرية العبادة الدينية ، كما كفل حرية الدعاية ضد الدين ، فان الكنيسة لم يعد لهاوضع، واعتبر الدين رسميا من نتاج نظام الاستغلال الذى ألغاه المجتمع الاشتراكى فى الاتحاد السوفييتى • ولم يعد بيد الكنيسة الارثوذكسية الشرقية سلاح ضدطوفان الزمنية الا ايمانها الدائم بأن الانسان متدين بطبعه ، والأمل فى أن الشعب الروسى سوف ينهض يوما ليجدد ايمانه •

أما الجواب المنظم للكنائس البروتستاتية فقد أخذ صورتين متباينتين، الاستكثار من الفرق الدينية الجديدة للوفاء بالحاجات التى تعوز سكان المدن المضللين المهاجرين ، وحركة الاتحاد بين الكنائس البروتستنتية ، وايجاد نقطة التقاء بينها • والاتجاه الأول ، وبخاصة فى الولايات المتحدة ، حيث جرت التقاليد على تعدد الفرق الدينية ، لم يكن له أثر كبير على وضع الكنائس من حيث هى مؤسسات • وأما الثانى ، الذى تركز أصلا فى أوروبا فكان محاولة مباشرة لزيادة نفوذ المسيحية المنظمة •

ولقد تمت حركة الاتحاد العالمى للكنائس نتيجة للجهود التى بذلت لتقوية بعثات التبشير فى الخارج التى أدت الى تقارب عدد كبير من الكنائس البروتستنتية ، كما جاءت نتيجة للاتجاهات الواسعة نحو الدولية ، التى أدت بالكنائس الوطنية الى فرق بعينها ، الى توثيق روابطها بأصحاب نفس الدين فى البلاد الأخرى · ويمكن القول انها تعود الى مؤتمر التبشير الدولى الذى عقد فى أدنبرة سنة ١٩١٠ ، والذى أنشأ مجلس التبشير الدولى كهيئة دائمة · ولقد أدت الاجتماعات التى عقدت فى سويسرا وهولندا سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٩ الى عقد المؤتمر العالمى الأول للكنائس فى ستوكهلم سنة ١٩٢٥ وحضره ممثلون للكنائس البروتستنتية من سبع عشرة دولة ·

وأنشىء تنظيم ثان للاتحاد العالمى « للعقيدة والمذهب » فى لوزان سنة ١٩٢٧ · وفى سنة ١٩٣٨ انضمت المجموعتان لاعداد دستور لمجلس عالمى موحد · ولكن لم يقرر الدستور الا بعد الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٨ فى أمستردام ، وأنشىء المجلس العالمى للكنائس ·

ولقد استطاعت الهيئة المفككة التى تصف نفسها بأنها « زمالة بين الكنائس التى ترضى بيسوع المسيح ربا ومخلصا » أن تضم أكثر من ١٣٠ من المنظمات الكنسية الكبرى ، بما فى ذلك الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ، ولكنها لم تضم كنيسة روما ، التى لم تفتر فى اعلان أنها الكنيسة الحقة الوحيدة ، ولقد قدم المجلس العالمى للكنائس وسيلة استطاعت بها الكنائس غير التابعة للكنيسة الرومانية الكاثوليكية أن يدعم بعضها بعضا فى تأثيرها الأخلاقى ، وفى موقفها ضد الزمنية ، وضد اللادينية الشيوعية ، وفى ادارة شئون البعثات التبشيرية الأجنبية ولكنها لما كانت اتحادا للكنائس التى تتميز كلها بالفردية الأساسية للبروتستنتية فانها لم تستطع أن تفعل شيئا مذكورا فى توحيد العقيدة ، أو خلق تنظيم مشترك ·

فى منتصف القرن كان مؤيدو المسيحية يقولون انه لم يحدث قط فى التاريخ أن المسيحية أو أى دين آخر ، قد انتشر على هذا النطاق الواسع جغرافيا ، وتعمقت جذوره فى مثل هذا العدد الضخم من الشعوب ، أو كانت له هذه القوة الكبرى فى حياة البشر بأسره* وكانوا يستطيعون أن يشيروا الى حقيقة أن السبب الرئيسى فى احياء المسيحية ،

(*) Kenneth S. Latourette, Challenge and Conformity: Studies in the Interaction of Christianity and the World of to-day (New York, 1955), p. 10.

وازدياد نسبة ما تلقاه من التأييد ، انما هو آت من بلد يقف فى الطليعةمن التقدم التكنولوجى فى منتصف القرن العشرين ، وهو الولايات المتحدة • فهناك ازدادت نسبة المترددين على الكنائس عما كانت فى أى وقت مضى ، وتنفق الأموال الطائلة على أبنية الكنائس وأعمال البر وبعثات التبشير فى الخارج ، كما كان يرتفع دائما عدد المترددين على الكنائس ، وقد ارتفع فى المدن الكبرى بقدر ما ارتفع فى الريف • ولقد أجابت أغلبية من اشتركوا فى استفتاء قومى سنة ١٩٥٤ كما ورد فى « الكتاب السنوى » الذى أصدره المجلس القومى لكنائس المسيح ، بأن تزايد الاهتمام بالدين يرجع الى الخوف والقلق وردود الفعل الناجمة من الحرب • وهكذا نجد أن الظروف نفسها التى كان يبدو أنها تمثل الخطر الأكبر على مركز الدين ، كانت التربة الصالحة لتجديد قوته •

٣ ـ اليهودية

تأثرت اليهودية فى القرن العشرين تأثرا عميقا بالحوادث التى أصابت الشعب اليهودى ، كما تأثرت بتيارات الفكر والمعرفة التى امتهنت كل الأديان خلال هذه الأعوام • وكان اليهود فى بداية القرن يتركزون فى أوروبا الشرقية ، حيث عاشوا منعزلين الى حد كبير عن الثقافة المحيطة بهم • وكانوا يحيون حياة تغلغل فيها الروح بقوة ، حياة منظمة على نحو يسمح بأداء الفروض اليومية للدين اليهودى • وفى أوروبا الشرقية كان معظم مراكز التعليم اليهودى ، والقيادة الروحية لليهود وكذلك الأغلبية العددية للشعب اليهودى • وكاد البرنامج النازى للابادة المنظمة لليهود أن يقضى على اليهود فى شرق أوروبا • اذ كان يقدر عددهم بستة ملايين ونصف مليون يهودى فى الاقطار التى وقعت تحت الحكم النازى ، فلم يبق منهم الا أقل من مليون فى نهاية الحرب بينما بقى مليون آخرون على قيد الحياة كلاجئين • وفى وسط المجتمع اليهودى فى أوروبا الشرقية ، فى بولندا حيث كان يعيش ثلاثة ملايين وثلاثمائة ألف عام ١٩٣٩ لم يبق الا ٨٠ ألفا • وفى منتصف القرن كانت المراكز الأساسية لليهود قد انتقلت الى الولايات المتحدة واسرائيل •

وهذا الانتقال من مركز الى مركز كان له أثر مزدوج على التطورات الدينية : ففى أمريكا كان على اليهودية أن تكفل الحياة الدينية لليهود الذين يسهمون اسهاما كاملا فى حياة مجتمع متحضر تغلب عليه المسيحية• وفى اسرائيل كان عليها أن تسوى العلاقة بين اليهودية من حيث هى دين، وبين اسرائيل من حيث هى دولة يهودية ، وأن توفى بالاحتياجات الدينية

لقوم جلبوا الى وطن جديد ومعهم مجموعة متنوعة من التجارب والآمال ۰ وفى المجتمعات اليهودية ، حتى القضاء عليها ، فى شرق أوروبا كانت اليهودية تقدم الهيكل والمحتوى لطريقة المجتمعات اليهودية فى الحياة ۰ فالتقليد اليهودى العلمى الذى يشارك فيه الجميع هو أساس الاحترام والنفوذ فى المجتمع ، فالعالم المتفقه كان يصغى له الجميع ، مهما يكن مركزه الاقتصادى ، أو مهما تكن رتبته ۰ والطفل الذى يظهر يقظة وتفوقا فى الدراسات العبرية التى هى جوهر تعليمه ، يحظى بالاعجاب والتأييد من أبويه ومن المجتمع بل قد يحظى بالتبجيل وتملق الناس ۰ وكانت موارد المجتمع تستخدم لتقديم معونات لفقراء الطلبة حتى يستطيعوا أن يفرغوا للدراسة ، وكان أفراد المجتمع يقضون وقتهم فى دراسة ومناقشة التوراة والتلمود فى الحجرة التى خصصها كل معبد يهودى لهذا الغرض ۰

وكانت حياة الناس محشوة ببرنامج معقد للمراسم ، التى يجب اتباعها فى المعبد ، وفى المنزل ۰ وهذه تشمل الصلوات ، والتبركات يوميا وفى مناسبات شخصية كثيرة ، كما تشمل المراسم الأسبوعية ليوم السبت من غروب يوم الجمعة الى غروب يوم السبت مع طقوس تؤدى فى المنزل والمعبد مع الامتناع الصارم عن أى نوع من أنواع العمل بما فى ذلك الواجبات المنزلية مثل ايقاد النار أو الطهى ، وطقوس فى المنزل والمعبد فى مناسبات كثيرة خلال العام يمتد بعضها عددا من الأيام ، واتباع القوانين الربانية التى تصف نوع الطعام الذى يؤكل وطريقة الذبح والاشراف عليه والمزج المسموح به بين الأطعمة ومجموعات الأطباق المفضلة ۰ وكانت العزلة فى الحياة اليومية عن باقى السكان قد فرضت على يهود جيتو Ghetto وبيل Pale وقد دعم هذا عدم مبالاة المجتمع اليهودى بالشعوب المحيطة به من غير المتعلمين فى غالب الأحيان ، كما عزز ذلك الانعزال الاختلافات اللغوية بين اليهود الناطقين باللغة اليهودية Yiddish وجيرانهم كما عززتها القيود الصارمة التى تحرم الزواج خارج مجموعة اليهود وأجيال قضتها الحياة اليهودية فى الانعزال ۰

وفى مجتمعات أوروبا الغربية عدل هذا النموذج من الحياة اليهودية المركزة قبل بداية القرن العشرين ، لان اليهود هناك كانوا قد حصلوا على الحرية الدينية ، وتحرروا من القيود المفروضة عليهم من الخارج ، ثم حصلوا على حق المواطنة الكاملة آخر الأمر فى أثناء حركات التحرر التى سادت القرن التاسع عشر ۰ ففى دول أوروبا الغربية كان اليهود يلتحقون بالمدارس والجامعات الزمنية ويشاركون فى تيارات الفكر المعاصر وكثيرا

ما كانوا يتزاوجون مع غير اليهود · وفى المانيا على الأخص انتشر الاتجاه الزمنى وظهرت حركات الاصلاح الدينى وهذه الاتجاهات نحو الدمج فى المجتمع الكبير ، والروح الزمنية والاصلاح الدينى ، قد بلغت فى الولايات المتحدة فوق ما بلغته فى أوروبا الغربية نفسها · اذ زاد عدد اليهود فى تلك البلاد من أقل من ١٠٫٠٠٠ فى بداية القرن التاسع عشر الى ما يزيد على المليون فى نهايته ·

وفى بداية القرن العشرين كان نموذج المجتمع الدينى اليهودى الأمريكى قد تقرر نتيجة للجهود التى بذلها الزعماء اليهود للوصول الى أساس للحياة الدينية ليهود أمريكا · فزعماء احدى فرق الاصلاح الذين حاولوا تطويع أساليب الحياة اليهودية بما يلائم ظروف الحياة الأمريكية وزعماء فرقة أخرى (المحافظين) الذين يصرون على أن اليهودية التقليدية أو التاريخية هى الأساس الوحيد للحيوية المستمرة ، هاتان الفرقتان قد تخلتا عن كل جهـــد لايجاد نقطة التقاء سنة ١٨٨٥ وكونتا جناحين لهما مدرستان يهوديتان منفصلتان، المنظمات التلمودية والاتحادات الابروشية· وطائفة ثالثة أطلقت على نفسها اسم الأرثوذكس ظهرت للوجود ف تسعينيات القرن الماضى ، وتتميز الطائفة المحافظة تميزا أساسيا بأن أتباعها يتكونون من المهاجرين الجدد فى دول شرق أوروبا ، وهذا الجناح الثالث الذى نظم فى اتحــاد الابروشيات اليهودية الأرثوذكسية ، قد أسس سنة ١٨٩٨ معهدا Yeshiva على غرار ما كان متبعا فى مجتمعات شرق أوروبا لدراسة التــوراة لذاتها ، وقامت معاهد تدريب رجال الدين من فرق الاصـــلاح والمحافظين لتدريب الحاخامين على نحو ما كانت تفعل المؤسسات الامريكية المتخصصة للدراسة العليا ·

فكانت تشمل برامجهم دراسات زمنية أو يهيئون لطلبتهم الحصول على مثل هذه الدراسات فى مكان آخر ، بينما أليشيفا كانت فى أصلها لا تهتم بالدراسات الزمنية ·

ولا تختلف الفرق الثلاث فيما بينها فى أمور العقيدة الأساسية ، بل تختلف فى أمور العبادات · فالحركة الاصلاحية ، فى مبادئها وكتاب صلواتها ، تخرج على اليهودية التقليدية فى تخليها عن القوانين الخاصة بنظام الطعام ، وتبسيط كثير من المراسم ، وتحل اللغة الانجليزية محل العبرية ، وتجلس النساء الى جانب الرجال فى المعبد ، وفى تخفيف القيود الخاصة بيوم السبت وبخاصة اذا كان على الناس أن يعملوا فى يوم السبت لكسب عيشهم ، بل انها ذهبت الى حد نقل عبادات يوم السبت الى يوم

الأحد · وهى ترفض الصهيونية ، ونعتبر أمريكا أرض الميعاد التى سوف تقوم بها حياة اسرائيل · أما المحافظون والأرثوذكس فهم شديدو التمسك بالعبادات التقليدية وان جعلت الظروف العملية للحياة الأمريكية من المستحيل ذلك التشبث الصارم بالطقوس اليومية ، والقوانين المتعلقة بالغذاء وطقوس يوم السبت ·

وفى الأعوام الأولى من القرن العشرين لم تشعر هيئة دينية بتأثير الروح الزمنية على نحو أقوى مما شعر اليهود فى أوروبا الغربية وأمريكا· فالهجرة والاختلاط والتفاعل بالثقافة المحيطة بهم ، كل ذلك فصل أعدادا كبيرة من جيل الشباب عن جذوره الدينية · فكثير من الشباب الذين ترعرعوا فى الولايات المتحدة كانوا يعتبرون ان طبعهم بالطابع الأمريكى معناه طبعهم بالطابع الزمنى · وفضلا عن ذلك فان أعدادا ضخمة فى أوروبا الغربية والشرقية انضموا الى الأحزاب الاشتراكية ، واتخذوا موقفا ماركسيا مناهضا للدين · وفى نفس الوقت لقى العنصر الأرثوذكسى فى المجتمع اليهودى تعزيزا قويا من طوفان المهاجرين اليهود فى أوروبا الشرقية ودول غرب أوروبا وأتى بمليون ونصف مليون يهودى الى الولايات المتحدة ، حيث بلغ عدد السكان اليهود ثلاثة أمثال عددهم الأصلى بين عام ١٩٠٠ ونشوب الحرب العالمية الأولى ·

وبعد الحرب صارت الحركة اليهودية فى الولايات المتحدة أمريكية فى زعامتها وتكوينها على نحو متزايد ، وان ظلت تعتمد على جلب العلماء والباحثين من المراكز الرئيسية للعلوم اليهودية فى بولندا · وبتناقص الهجرة ، بسبب الحرب أولا ثم بسبب التشريعات المقيدة للهجرة ، حرم المجتمع اليهودى من التعزيز السنوى بأفواج جديدة كبيرة من الأوروبيين الشرقيين مع قادتهم العقليين والروحانيين · فدرست معالم أحياء المهاجرين حيث كانت المعابد اليهودية مراكز الحياة ، وحيث المتاجر توصد يوم السبت وحيث تباع الأطعمة اليهودية الشعبية فقد ارتحل سكانها الى مناطق أقل فقرا وازدحاما بالناس ، ولم يحل فيها مهاجرون جدد بدل الذين ارتحلوا · وكشأن أبناء المهاجرين الآخرين أخذ أبناء اليهود الذين تربوا فى أمريكا يرفضون أساليب آبائهم الأجنبية · وأخذ الأرثوذكس والاصلاحيون والمحافظون نظرة أمريكية متزايدة ، كما اتخذوا ــ تحت تأثير الظروف ــ كثيرا من العادات والتقاليد الأمريكية ·

وكانت أمركة الجناح الأرثوذكسى واضحة بشكل يلفت النظر فى ميدان التعليم · ففى عام ١٩٢٨ تخلت معاهدهم الدينية (اليشيفا) عن

جهودها فى بعث المركز التقليدى للدراسات التلمودية غير الرسمية التى تميزت بها المجتمعات اليهودية في شرق أوروبا ، وأصبحت «جامعة يشيفا» تقدم دراسة نظامية لاعداد الحاخامين الأمريكيين ، وتشمل دراسات عامة فضلا عن دينية . وبدأت حركة على مستوى التعليم الابتدائى سنة ١٩٣٨ بقصد انشاء مدارس أبروشية شبيهة بما تقيمه الكنيسة الكاثوليكية ، يتلقى فيها الأطفال تعليما عاما ، مع التعليم الدينى وتعليم اللغة العبرية والتاريخ اليهودى .

ومن جهة أخرى عادت الحركة الاصلاحية الى بعض جوانب النموذج التقليدى الذى كانت قد تخلت عنه ، على اعتبار أنه لا يتفق مع الحياة الحديثة . ذلك أنها وصلت الى رأى مؤداه أن جوهر العقيدة والأخلاق لا يكفى وحده لصيانة شعب الاصلاحيين ضد المزالق الدنيوية ، ما لم تؤيده بعض الاشكال التقليدية . فأعادت عددا من الطقوس الدينية التى كانت قد أسقطتها ، وعدل كتاب الصلوات فأعيدت اليه الصلوات التى حذفت منه ، وشجع النـاس على ممارسة الطقوس التقليدية الكثيرة فى المنزل ، وهو ما كانت معظم الأسر الاصلاحية قد تخلت عنه الى حد كبير. وصدر بيان جديد سنة ١٩٣٧ ليحل محل المبدأ الأصلى الصادر سنة ١٨٨٥ ، وكان يمثل نصرا جزئيا لمن يعتقدون أن الطريق الوحيد لصيانة حيوية اليهودية انما يكون بالتعزيز القوى للعبادات اليهودية .

كذلك تخلى الجناح الاصلاحي عن معارضته الصارمة للصهيونية وان لم يتبن كهيئة ، القضية الصهيونية . وحين أيد بعض الحاخامين الاصلاحيين الصهيونية ، أدى ذلك الى انشقاق فى مجموعة الاصلاحيين . وازاء قيود الهجرة التى فرضتها الولايات المتحدة ، والاضطهاد النازى لليهود ، فقد الموقف السلبى عددا متزايدا من أنصاره الى أن صدر اعلان فى سنة ١٩٣٥ يقول ان اليهودية الاصلاحية محايدة فى هذا الشأن ، فاعترف رسميا بما فى صفوف الاصلاحيين من خلاف . واذ راقب يهود أمريكا تدمير اليهودية فى شرق أوروبا ووسطها ، انضم عدد متزايد من العناصر الاصلاحية الى حركة المطالبة بالهجرة الى فلسطين وانشاء وطن لليهود . ولكنهم ــ على عكس التنظيم الصهيونى الأرثوذكسى ــ كانوا يؤيدون وجود ملاذ سياسى ، أكثر من تأييدهم وجود مركز دينى لليهودية العالمية .

ولقد كان النمو الأكبر لليهودية الأمريكية بين صفوف المحافظين ، فالجناح المحافظ المتمسك بالطقوس التقليدية الأساسية كان لا يشجع

الانحرافات ، ولكنه لم يندد بالمجامع التى مارست هذا الخروج • فبرغم قبوله فكرة التغيير والتطور ، باعتبارها من سمات أى دين نشيط ، رفض أن يبسط فى بيان رسمى ذلك التعقيد وعدم التحديد اللذين يعتبرهما جوهر أى عقيدة حية ، وأخذ يلتمس داخل المجتمع موطنا تلتقى فيه أساليب المجتمع الأمريكى والأساليب اليهودية ، فأنشأ مراكز للعبادة لها برامج للنشاط شبيهة بما كانت تفعل الكنائس المسيحية وعلى النقيض مما كان يجرى فى المعابد اليهودية بشرق أوروبا ، حيث كان الرجال يجتمعون للدراسة والمناقشة •

ولم تنظر الفروع الثلاثة لليهودية الأمريكية الى نفسها على أنها مذاهب منفصلة قط ، بل كانت تنظر الى نفسها على أنها اتجاهات مختلفة لتطور عقيدة مشتركة ، وطائفة دينية واحدة • وفى الربع الثانى من القرن العشرين حاول كل منها أن يطبع بطابعه الطائفة كلها ، وأن يضم تحت جناحه جمهور كل معبد جديد ، ومنذ سنة ١٩٢٦ وما بعدها اشتغلت المجموعات الثلاث جنبا الى جنب عن طريق مجلس المعابد ، وانضم ممثلوها الى حركات مثل التعاون مع غير اليهود فى هيئات متعددة الأديان ، ورعاية المؤسسات اليهودية التى تقوم بخدمات للقوات المسلحة الأمريكية ، واعداد معروضات من التراث والتقاليد اليهودية ، والتحسين الاقتصادى لأحوال المجتمعات اليهودية فى أوروبا وفلسطين ، وأخذت الاختلافات التى بقيت رغم هذا تأخذ شكلا تنظيميا أكثر منه دينيا ، وتعكس الفروق الاجتماعية الراجعة الى الجنسيات الأصلية ، وتاريخ الهجرة • ولما صارت زعامة كل الفرق الى يد الأجيال التى ولدت بأمريكا، أصبحت هذه الفوارق الطفيفة أيضا بغير مغزى •

ولقد قويت وحدة الشعب اليهودى بسبب الوكالات الكثيرة التى تقوم بمعاونة المهاجرين ، وتعليم اليهود ورعايتهم ، وتهيئة السبل للترفيه عنهم ، والتخفيف من مصاعبهم • وقد أنشئت هذه الوكالات خارج المعابد، وكانت تخدم الجميع بدون تفرقة • هذه المنظمات الكثيرة التى تطبق المبادىء اليهودية التقليدية كالبر والعون المتبادل ، جعلت المجتمع اليهودى من أكثر قطاعات المجتمع الأمريكى تنظيما وأحسنها استمتاعا بالخدمات ، ولكن كجزء لا يتجزأ من البنيان الاجتماعى الأمريكى لا كنموذج منفصل عنه • وكان الاتجاه فى منتصف القرن هو اعطاء برامج هذه المنظمات

« محتوى يهوديا » بدلا من تركها بغير تمييز لها عن المنظمات الزمنية التى تؤدى نفس الوظائف • ولكن زعماء اليهود لم يتفقوا بأى حال من الأحوال على ما ينبغى أن يكون عليه هذا المحتوى •

لقد تميز اليهود خلال العصور بانهم شديدو التأثر بدينهم • وهم يحسبون أنهم كرسوا لاتباع سبيل الحق بمقتضى ما بين أجدادهم وبين الله من عهود متجددة فهم يحسبون أنهم يمثلون الحرية النهائية والمسئولية الأخلاقية للروح البشرية ضد كل سلطة خارجية • ولقد أدت طقوسهم الدينية الى الاحتفاظ بحيوية تاريخ الشعب العبرانى ، واليهودية لا يعبر عنها الاعلان بالايمان بها وانما يعبر عنها الخضوع لأوامرها ونواهيها ، فهى نظام شمولى •

ولقد واجهت اليهود فى أمريكا فى القرن العشرين مشكلات نجمت من صعوبة اتباعهم النظام التقليدى ، بينما هم يعيشون فى بلاد تستهدف تحقيق مطالب المجتمع الصناعى ونماذج غير يهودية للحياة • ولم ينجم غير قليل من الصدام فى ميدان الفكر ، لأن التقليد اليهودى يتفق مع العقلية العلمية ، وان كانت ميادين علمية وزمنية أخرى من ميادين المعرفة قد نافست الدراسات اليهودية التقليدية فى جذب اهتمام الناس واسترعاء نظرهم •

ولقد شارك المجتمع اليهودى فى حركة الاحياء الدينى الواسعة النطاق التى اجتاحت الولايات المتحدة فى الأعوام التى تلت الحرب العالمية الثانية ، اذ كان هذا عند بعض اليهود شكلا من أشكال التعرف على الذات• لقد هزتهم تجاربهم فى ألمانيا فعرفوا أن ذوبانهم فى المجتمع الكبير قد لا يتيح لهم الأمان فى وقت الأزمة ، وقد يلقى بهم الى حيث يحتاجون الى عون طائفتهم ، فشعروا بأنه لا يسعهم أن تتقطع أواصرهم بتقاليدهم الثقافية ، وحاول الكثيرون أن يجددوا ولاءهم لتراثهم الدينى •

وفى المركز الكبير الآخر لليهودية ، وهو اسرائيل ، لم يكن مجرد اتاحة الفرصة للمرة الأولى خلال ألفى سنة للشعب اليهودى لكى يبنى مجتمعا يهوديا بالأمر الكافى لحل كل المسائل الخاصة بمكان الدين

وأشكال الطقوس الدينية • ففى اسرائيل - كما فى الولايات المتحدة - واجهت اليهودية المشكلة ذاتها ، وهى الى أى حد تتفق العبادات التقليدية مع ظروف الحياة النابعة من مجتمع صناعى حديث •

والحركة الصهيونية التى خلقت اسرائيل ، وشكلت أيديولوجيتها ، كانت هى نفسها نتاجا لوجهات نظر مختلفة ومتعارضة • وحين اشتد ساعد هذه الحركة بعد بداية القرن العشرين ، اجتذبت رجالا من ذوى الأيديولوجيات الدينية المتفاوتة أشد التفاوت من الأرتوذكس المتزمتين الى الملاحدة من أنصار العنف ، ولهذا لا يمكن اعتبار موقف واحد بذاته تجاه الدين هو الموقف الرسمى للصهيونية •

لقد اعتبر البعض ان العودة الى الاقامة فى اسرائيل معناها الاستقلال السياسى ، واعتبرها آخرون بعثا ثقافيا - وان لم يكن دينيا بالضرورة - واعتبرها آخرون اعادة تجميع كل اليهود فى دولة واحدة وانهاء تشتتهم فى الأرض • ورغب بعضهم فى اقامة دولة يكون للقانون الأرثوذكسى فيها الكلمة العليا ، بينما أمل آخرون فى أن تؤدى هذه العودة الى القضاء على ما يدعى بجمود اليهودية التقليدية •

وكانت النقطة الدينية الوحيدة التى تلتقى عندها كل فروع الصهيونية هى آن اليهود ليسوا مجرد هيئة دينية ، وبهذا المعنى لم تكن الصهيونية رد فعل على اضطهاد اليهود فحسب ، بل كانت أيضا رد فعل على حركة التنوير اليهودية Håscalah التى فصلت بين القومية والدين •

وقام الصهاينة بحل مشكلة الشعب اليهودى عن طريق بعث الاحساس القومى فيه ، فرأوا فى أنفسهم أنبياء محدثين يبشرون بالمفاهيم اليهودية القديمة • لقد رفضوا العقيدة القائلة ان على اليهود أن يصبروا حتى تحدث المعجزة ، وأن يصبروا على النفى ، فطالبت الصهيونية بالعمل المباشر عن طريق الشعب اليهودى نفسه • ولما كانت اليهودية التقليدية فى رأى الكثيرين مسئولة عن الموقف السلبى الذى اتخذه اليهود ازاء ما أصابهم من اضطهاد ، لهذا اشتملت الحركة الصهيونية أيضا على تمرد ضد هذه اليهودية التقليدية ، وضد التاريخ الماضى للشعب اليهودى • فانعزال اليهود فى حى بعينه ، وكل ما يتصل بذلك ، كان محل كراهية الصهيونية واحتقارها • ولما كان الدين وثيق الارتباط بمثل هذه الحياة ،

فانه لم يستطع النجاة من هذا الهوان ، فأصبح عند البعض رمزا لأقوى معوقات تحرير الجهود اليهودية ٠

وبينما كان كثير من رواد الصهيونية مقتنعين بأن الانفصال عن الماضي أمر لابد منه لكفالة بعث الشعب اليهودى ، ظل عندهم حنين قوى الى العادات والنماذج الشعبية للحياة الدينية ليهود أوروبا ٠ لقد اختلف الى حد كبير مدى المحافظة على المراسم مثل الأيام المقدسة ، ومدى ما أصابها من تأثير الطابع الزمنى والقومى ، ولكن الجانب الدينى التقليدى لم يحتفظ به تمام الاحتفاظ الا أنشط العناصر الأرثوذكسية ٠ واذا استثنينا عددا قليلا من الرواد ، فقد كانوا على العموم يحنون الى استمرار التقاليد التى يتوارثها خلف عن سلف ٠ ولكن الوطن قام عند الكثيرين مقام القانون ٠ لقد أخذوا يتطلعون الى الوطن ، والى المثل الاجتماعية ، وكرامة العمل بدلا من التطلع الى الدين التقليدى ، الذى أخذوا يشعرون بأنه قد أدى واجبه بأن أبقى الناس على قيد الحياة فى المنفى ، ولكنه عاش بيننا بعد أن انتهت فائدته ٠

وهكذا نجد أن مؤسسى اسرائيل يتفاوتون فى الأيديولوجية ، بين المتزمتين الدينيين ، الى المجموعة الوسطى للصهاينة العاديين العاطفين على الدين ، الى الجناح الأيسر الذى يرفض القيام بالطقوس الدينية والتمسك الجامد بالعقيدة ٠

وخلال الأعوام العشرة الأولى من وجود اسرائيل كانت تقاليد دينية كثيرة تتبع فى الاحتفالات العامة ٠ فى المناسبات الدينية كانت اجازات رسمية بينما كانت قيود الطعام وبعض التعاليم الخاصة بيوم السبت تتبع فى الأقاليم ، وكان يوم السبت هو يوم العطلة المدنية الأسبوعية ٠ أما عن اتباع الأفراد للدين ، فلكل فرد أن يختار الطريق الخاص به ٠ وكان هذا يعنى عند البعض قبول بعض العبادات واتباعها ، وكان لا يكاد يعنى عند غيرهم شيئا ٠ وعلى العموم كانت الظروف الحكومية والاجتماعية والاقتصادية ملائمة لممارسة اليهودية وتعلم الأطفال فى المدارس الكتاب المقدس ، والتاريخ اليهودى ، وأدب اليهود وتقاليدهم ، باعتبار هذا ضروريا للحياة الدينية اليهودية ٠

وجرت التقاليد بين اليهود المتدينين ، على أن يربوا أبناءهم ليشبوا متشبثين بعقائدهم الدينية ، وذلك بفضل مدارس دينية تعتبر جزءا من النظام التعليمى للدولة ٠ ولقد زاد عدد أفراد الأسرة المتدينة

بفضل أفواج اليهود المتدينين المهاجرين من البلاد العربية ، ولكن العادات الشعبية لهؤلاء الوافدين الجدد ، وهى غير مألوفة لدى الحضارة الغربية ، جعلت من الصعب عليهم أن يربوا أبناءهم على شاكلتهم · وكان التحول الى الحياة الزمنية فى اسرائيل يتضمن صداما بين الثقافات الشرقية والغربية ، مما حرض الشباب على التمرد ضد القيم التى آمن بها آباؤهم، ومنها الدين ·

وكانت المستعمرات تقرر اتباع المجتمعات للطقوس طبقا لموقفها الايديولوجى · وكان بعض أعضاء المستعمرة مناهضين للدين بقوة ، وبعضها الآخر متمسكين بشدة · ولقد صار رجال «الكيبوتز» المتدينون بفضل كبر عددهم ومراكزهم ، من أقوى وأنشط المجموعات الدينية فى البلاد · فلقد كان شباب هذه المجتمعات الزراعية المتدينة الرائدة ينتمون كلية لاسرائيل بالمعنى القومى ، كما كانوا متعلمين وعصريين ، فنجحوا فى اثبات أن الحياة الدينية يمكن أن تسير جنبا الى جنب ، مع متطلبات الوجود الحديث ، كما نجحوا فى ادماج مفاهيم الدولة بالمثل الدينية ·

وبتوالى السنين أخذت الدعوات لتجديد الدين تأتى من العناصر المتدينة وغير المتدينة على السواء · فمن بين الأرتوذكس من دعوا — مع الالتزام التام بالتقاليد — الى اعادة النظر فى بعض القوانين اليهودية التى تجعل الحياة فى المجتمع الصناعى الحديث صعبة ، ان لم تكن مستحيلة ، أو اقترحوا ادخال نظام مجلس قضائى دينى ومدنى للفصل فى كل المسائل المتعلقة بالقانون اليهودى · أما غير المتدينين فكانت الدعوة الى العودة للقيم الدينية تظهر بينهم كثيرا فى الخطب والمنشورات ، وكان قدر كبير من مناهضة المستوطنين الأصليين للدين الرسمى قد اختفى بين الأجيال التى ولدت فى الموطن الجديد ، الذين لم يربوا تربية دينية منتظمة ، فأوجد هذا عندهم نوعا من اللامبالاة بدلا من موقف التمرد الذى وقفه آباؤهم ·

أما أغلبية الشعب فموقفهم غير محدد ، موقف غير دينى ولكنه غير الحادى ، يتراوح بين الأرثوذكسية وبين القلة اليسارية المتطرفة التى ترى الدين حجر عثرة فى طريق التقدم الاجتماعى · لقد ألغوا الطابع الجبرى للنظام التقليدى الكامل للقانون واللاهوت اليهوديين ، ولكنهم لم يتخلوا عن مفهوم الله كما فسرته اليهودية الأرثوذكسية · ولقد قبل السكان من غير الأرثوذكس نتائج الفحص للكتاب المقدس وللدين فى مجموعه ·

وأخذت مكتشفات نقاد الكتاب المقـــدس تدرس فى المدارس الزمنية ، وهكذا لم يعد أساس الحياة الأرثوذكسية بوضعه تقليدا من لدن عـزيز حكيم ولم يعد من المسلمات عند الاسرائيلي العادى ونظرا لعدم وجود أى أساس آخر مرض للدين الرسمى فقد بقيتاليهودية عقيدة عامة، واستمر اتباع الناس لبعض الطقوس الخاصة اذا كانت فيهـا جاذبية جمـالية أو قومية ٠

وفضـلا عن ذلك فان ما يبـدأ فيه الأرثوذكس ويعيـدون من أن الشخص الذى يتبع الأوامر التقليـدية بكل تفاصيلها هو الذى يمكن تسميته بالمتدين ، قد ساعد على تقوية الشعور بأنه لا يوجد طريق وسط فى شئون العقيدة والعبادات ٠ أما المحاولات القليلة الاصلاحية أو المعابد المحافظة ، التى يرجع أصلها الى العناصر الألمانية أو الناطقة بالانجليزية ، فلم تجد لها تربة صالحة ، ولم تجتذب اليها الاسرائيلى الأصلى ٠ كذلك لم تقدم الحاخامية فى هـذه الفترة ما يكفى من الزعامة الروحية فى اعـادة تفسير اليهودية ، مما قد يستهوى قلوب الجيل الجديد . بدا أن وظيفتها الرئيسية هى عملها الرسمى الخاضع لسلطة الحكومة ، فى تنفيذ بعض جوانب قانون الأحوال الشخصية مثل الزواج والطلاق ، مما جرت التقاليد فى الشرق الأوسط على أن يعهد به الى رجال الدين ٠ وقد أثار هذا بعض الامتعاض بين المعادين للدين، الذين اضطروا الى الخضوع للتعاليم الحاخامية كما أقلق بعض الأحرار الذين شعروا بأن هذه الأمور ينبغى أن تكون تابعة للسلطة الزمنية لا الدينية ، فشعروا بأن ما حدث انما هو هدم لمبـدأ الدولة الزمنية ٠ وفضلا عن ذلك فان تورط الدين فى السياسة الحزبية قد قلل من شأنه ، فهو كمشارك فى الميدان السياسى ، أصبح مجـرد أيديولوجية أخرى تضم الى غيرها من الأيديولوجيات ٠

بل ولم يقم المعبد فى اسرائيل بمثل الوظيفة التى قام بهـا مركز المعابد فى أمريكا ٠ فالاحتياجات الاجتماعية تقوم بهـا وكالات أخرى ، بينما التعليم اليهودى تقوم به المدارس الحكومية ٠ ولا حاجة بالفرد لأن يعبر عن يهوديته بتبعيته لأبروشية معينة لأن الاقامة فى دولة يهودية قد كفلت ايجاد هذا الرباط فى الحياة اليومية ٠

غير أن معرفة التراث اليهودى التى حصل عليها كل اسرائيلى أبقت على اهتمام الناس باليهودية ، وان كان الدافع الأساسى وراء هذا التعليم هو اثارة الاهتمام بتاريخ الأمة اليهودية ٠ والبلد ملء بمشاهد ذات مغزى دينى ، والأدب الكلاسيكى القومى أدب دينى ، واللغة مطعمة بمصطلحات

دينية صار لزاما على أى زمنى متعصب أن يستخدمها للتعبير عن نفسه ٠ وهكذا فان الاسرائيليين من غير المتدينين ، والذين التزموا بالابقاء على التقليد اليهودى ، والشعب اليهودى ، كانت لديهم معرفة أساسية باليهودية وأصبحوا يعرفون الأشكال الدينية ، التى قبلوا الكثير منها فى صورتها الزمنية ٠ وكان بعضهم يأمل فى ايجاد زعامة ديناميكية تستطيع دمج اليهودية التقليدية بالمفاهيم الحديثة العلمية والفلسفية وايجـــاد طريق دينى يقدم الهداية الدينية بدون جمود ولا تحكم ، وينبع من احتياجات الأمة والشعب ٠

والقضية الرئيسية التى تواجه اليهودية فى مركزيها الكبيرين فى منتصف القرن هى : الى أى حـد وبأى الأشـكال يعتبر العنصر الدينى ضروريا لاستمرار حيوية التقليد اليهودى ، الذى منح الشـعب اليهودى القـدرة على البقاء فى المـاضى ، والذى لا يزال يدعمهم فى البـلاد التى يقيمون بها ٠

٤ ـ الاسلام

كان الاسلام فى القرن العشرين متشـابكا تشابكا لا فكاك منه مع التطورات السياسية والاجتماعية لهذا العصر ٠ ولما كان الاسلام دينـــا يشمل عند اتباعه القانون وأسلوب الحياة فقد كان لابد له من أن يكون عنصرا من عناصر حركات تحرير الشعوب الاسلامية من حكم غير المسلمين، ونشر التغييرات الاجتماعية داخل العالم الاسلامى ٠ ومع أن بعض المناطق قد تأثرت بشدة بالاتجاهات الى الحياة الزمنية التى سادت العصر ، فان الاتجاه الأقوى فى معظم أرجاء العالم العربى كان ـ فيما يظهر ـ تعزيز قوة الولاء الدينى ٠

وكان أقوى تعبير عن الاسلام ومشاكله الكبرى فى القرن العشرين فى المجال السياسى ٠ فالاحياء الاســـلامى كان جزءا لا يتجزأ من حركة الثورة السياسية والاقتصادية بين الشعوب الاسلامية ٠ وقدم الاســـلام مصدرا روحيا للقومية ثقافيا وسياسيا فمنح الجهاد ضد السيطرة الغربية بعض خصائص الحرب المقدسة ٠ وفى الاسلام من حيث هو مرشد للسلوك السياسى نجد أن اصراره التام على المســـــاواة بين المؤمنين يتمشى مع الاتجاهات الديمقراطية الحديثة ٠

بل ان ما بدا أنه ضربة أصـابت مكانة الاسـلام ، وهو تصفية الامبراطورية العثمانية ، والغاء الخلافة سنة ١٩٢٤ ، قد أدى الى دعم الاسلام ـ على نحو غير مباشر ـ من حيث هو قوة سياسية ، لأنه أطلق القومية العربية من عقالها فى البلاد التى كانت واقعة تحت حكم السلطة العثمانية • فى هذه المناطق وفى الأراضى الممتدة من أندونسيا الى المغرب التى كان يعيش فيها المسلمون تحت حكم استعماريين من غير المسلمين ، أدت حركات التحرر السياسى الى وجود دول جديدة • وهكذا حصل عدد من الدول المستقلة على فرصة حكم ذاتها فى ضوء مبادىء الاســلام ، بينما الغاء الخلافة لم يكد يكون له تأثير على بناء السلطة الاسلامية ، لأن النفوذ الدينى الحقيقى كان للعلماء ، أى الزعمـاء الدينيين المتفقهين فى كافة المجتمعات الاسلامية •

وكانت حركة القومية الاسلامية كحركة دينية سياسية قد ابتعثها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر جمال الدين الافغانى (١٨٣٩ـ ١٨٩٧) الذى جعل يجوب العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصـاه ، مبشرا باحياء الجامعة الاسلامية وتعتبر القوميات المحليه هى الخطوة الأولى فى تحقيق هذه الغاية • ولما قويت الحركة بزعامة القادة المحليين خلال القرن العشرين كان الاسلام قوة محركة لحركات التحرير ، ومناهضة الاستعمار ، ومقاومة السيطرة الغربية من المغرب الى جاوه • وكان أبرز ثمار هـذه الحركة انشاء جمهورية باكستان الاسلامية ، ولكن القومية العربية كانت بمعنى من المعانى تعبيرا أساسيا أكثر مباشرة من تلك عن حركة لهـا جذور دينية عميقة فالمنطقة العربية هى مركز العالم الاسلامى ، والعربية لغة القرآن • ومع أن العرب لا يشكلون الا خمس قوة الاسلام ، وثمـة مجموعتان آخريان تفوقانهم عددا بكثير ، هم مسلمو الهند وباكسـتان ومسلمو الملايو واندونيسيا ، فان العقيدة قد كان لها فى العالم العربى مركزها التاريخى وعصرها الذهبى ، فها هنا تقع مدينة مكة المقدسة ، ولغة القرآن هى لغة الحديث والكتب المطبوعة •

ولقد ظل الاســلام فى فكره وفقهه بعيدا عن التـأثر بالتطورات الحديثة • فقد ظل القرآن وهو كلام الله غير مدافع ولا منازع كما كان العهد به طوال التاريخ الاسلامى ، واحتفظ علمـاء الدين بالمكانة التى تمكنهم من الاستمرار فى اداء دورهم كمفسرين لمصادر العقيدة الاسلامية •

وكانت هناك مذاهب دينية شتى تعمل ـ ولها قادتها واتباعها ـ داخل منطقتها الخاصة أو مجموعتها الخاصة ، بعضها يزدهر وبعضها يضمحل • فحركات الاصلاح مثل الحركة الوهابية التى دعت الى العودة

الى نقاء الاسلام الأول ووحدته ، ورفضت التعقيدات الفقهية التى ظهرت فى القرون الوسطى كما رفضت الطقوس الغامضة للصوفية الدينية ، قد ظل لها نفوذ كبير وبخاصة فى شبه الجزيرة العربية ، وظلت فكرة العودة الى القرآن والسنة هى الاتجاه الفكرى الرئيسى للمصلحين على اختلافهم • وكانت الطائفتان اللتان شهدتا نموا كبيرا وزيادة فى النفوذ فى القرن العشرين هما الأحمدية والاسماعيلية ، اتباع الاغاخان وكانت الطائفة الاحمدية قد اعترفت بظهور نبى فى وقت متأخر وقبلت نفسيره للعقيدة الاسلامية بلغة الحياة العصرية ، وكان هذا الأمر محل الانكار عند المسلمين الآخرين ، ولكن الطائفة كانت منظمة تنظيما قويا للقيام بنشاط تبشيرى باسم الاسلام وتحويل بنى دينهم من المسلمين الى مذهبهم• أما الاسماعيلية فقد نمت مجموعة صغيرة ثم أقامت مذهبا واسع الانتشار ، يركز عناية فى التطور الاجتماعى والاقتصادى ويكفل التعليم والعلاج الطبى وغير ذلك من الخدمات الاجتماعية لأعضاء الطائفة عن طريق اتحادات تمول من صندوق الزكاة • وكان التأثير الهام للاحمدية والاسماعيلية التبشير خارج المناطق الاسلامية الرئيسية ولا سيما فى افريقيا وكانوا من الأسباب الهامة فى نشر الاسلام فى هذه المناطق • غير أن الطوائف والمذاهب الدينية لم يكن لهسا تأثير كبير على التيارات الرئيسية للفكر الاسلامى •

وقد أدى تأثير الاتصال بالغرب والتعليم الغربى الى بذل الجهود فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين للتوفيق بين الفكر الغربى والاسلامى وأدى هذا الى ظهور ما يمكن أن يسمى بالتجديد العصرى الاسلامى فى مصر والهند وتركيا • فكان الشيخ محمد عبده فى مصر سنة (١٨٤٩ ــ ١٩٠٥) مقتنعا بأنه لا يوجد تعارض بين علم الغرب والفكر الاسلامى ، اذا تعمقنا فى كل منهما فوصلنا الى معناه الكامل فقام بعرض عقائد الاسلام بلغة عصرية • وفى الهند كان السيد احمد خان (١٨١٧ ــ ١٨٩٨) يعمل على أساس فرض مفاده أن جوهر الاسلام يتسق مع الطبيعة وقوانين العلم ، فأنشأ جامعة اسلامية حديثة لتقوى ايمان مسلمى الهند بتفقيههم فى الفكر الحديث كما رأينا المشرع الهندى سيد أمير على ، فى كتابه البالغ التأثير « روح الاسلام ١٨٩١ » يستشهد بالقرآن لتأييد الاخلاقيات الاجتماعية المعاصرة فى أمور منها الرق ، وتعدد الزوجات ، والطلاق بالاكراه ، وأكد دور الاسلام كقوة تقدمية متحضرة• ووجد فى القرآن ما يؤيد الدعوة لطلب العلم الزمنى والترغيب فيه بشدة ، وقال بأن الفكر العلمى الحديث اسلامى فى أصله ، لأن بذوره قد انتقلت الى أوروبا عن طريق العلماء العرب فى العصور الوسطى •

هؤلاء وغيرهم من المجددين والمصلحين ، بقبولهم المعرفة العلمية الحديثة ، واهتمامهم بالاصلاح الاجتماعى ، كان لهم تأثير قوى على المجتمع الاسلامى الذى حاولوا تجديد شبابه ، ومكنوا الشباب ذوى الثقافة الغربية من أن يبقوا فى نطاق العقيدة ويفخروا بالاسلام · وكان أقوى تأثير لهم فى الجوانب الاجتماعية للحياة الاسلامية ، لأنهم شجعوا فكرة التغيير الاجتماعى ، ومهدوا لحركات حقوق المرأة ، والتنظيم التعليمى وتنظيم العمل ، على نحو ما نشأ فى معظم البلاد الاسلامية فى القرن العشرين ·

وظل علماء الدين هم السلطة الدينية ، وكان هؤلاء يتمسكون بالشروح التقليدية للاسلام ، وكان علماء المساجد يتشبثون بالقديم ، ولا يكادون يتأثرون بتيارات الدراسة الزمنية ·

وفى الربع الأول من القرن العشرين بدا أن القومية الاسلامية والروح العصرية يسيران جنبا الى جنب · فمحمد اقبال فى الهند (١٨٧٣ ــ ١٩٣٨) قد اعتمد على أفكار نيتشه وبرجسون فى صياغة مفهومه للاسلام ، كما اعتمد على التقليد العقلى المتحرر فى صدر الاسلام وكان هو الذى بلور بفكره صورة باكستان كدولة اسلامية · وفى تركيا طبق (Ziyo Gökalp ١٨٧٥ ــ ١٩٢٤) الفلسفة الوضعية لكومت والنظريات السوسيولوجية عند دوركيم ــ طبقها على تحليل النظم الاسلامية الدينية ، وخلص الى أنها رموز للارادة الجماعية ، والقيم الثقافية للمجتمع التركى ، فأصبح فيلسوف القومية التركية وأباها الروحى · ونشر الشيخ رشيد رضا السورى (١٨٦٥ ــ ١٩٣٥) وهو من تلاميذ الشيخ محمد عبده مجلة أسماها (المنار) كانت تبشر بالافكار الاصلاحية، والجامعة الاسلامية فى العالم الاسلامى كله · وكان معظم قادة الاسلام الذين كرسوا جهودهم للنضال ضد السيطرة الغربية السياسية والاقتصادية يفترضون أن الجوانب النافعة من الفكر العلمى الغربى يمكن أن يستوعبها مجتمع اسلامى متحرر ·

ولكن فى الربع الثانى من القرن العشرين حدث احياء قوى للسلفية (الالتزام بالكتاب والسنة) فى مناطق كثيرة . فطبع الدولة التركية بالطابع الزمنى واحلالها للقوانين الغربية محل قانون الاسلام ، والتخلى عن الطربوش والحجاب ، قد بدا أنه يدل على أن الاصلاح والتحضر أو أى قبول للآراء الغربية ، انما يؤدى حتما الى « الزمنية » واصبحت المجلة الاصلاحية (المنار) شديدة التزمت ، ترفض الطابع الغربى ، وتعتبر أى انحراف عن اتباع التعاليم الاسلامية بكل صرامة

وشدة خطرا يهدد الاسلام ٠ وبعض علماء الدين الدين لم يسبق لهم مطلقا أن قبلوا جهود المصلحين لحملهم على التخلى عن التقاليد والعودة الى نقـاء القرآن ، أو الافتراض العصرى الذى يقول بأن المعرفة الغربية تتفق مع العقائد الاسلامية والعقلية الاسلامية هؤلاء المتزمتون قد أصروا على التشبث الشديد بسلطانهم وتمكنوا من طرد الاسـاتذة الجامعيين ، والموظفين العامين ، الذين جرؤوا على اتباع الأساليب الجديدة فى المناقشة ، كما حدث للكاتب المصرى طه حسين ٠ أما الحركات الاسلامية مثل حركة الاخوان المسلمين فى مصر وسـوريا وايران والاحرار فى باكستان فقد كانت مستعدة لأن تذهب فى الطريق الى آخر مداه فى رفض الأفكار الأجنبية ، والعودة الى التطبيق الحرفى المتزمت لقواعد الاسلام ٠

وكان هناك عدد من العوامل التى ساعدت على ما اتصفت به حركة المحافظة الدينية من حيوية كان زعماؤها هم أصحاب الفضل فيها ، اذ كانوا يعتبرون كل مناقشة فى الدين عقبة فى طريق الاصلاح الاجتماعى واليقظة الروحية ٠ وكان اصرارهم على أن كل فكر جوهرى موجود فى الاسلام من الأمور التى زادت من الاحساس بعظمة السلف ٠ ولما كانت وسائل المواصلات الحديثة قد مكنت لاعداد متزايدة من المسلمين من أن يحجوا الى مكة ، فقد زاد عدد الحجاج العائدين الى بلادهم من مكة ليمارسوا تأثيرهم ، ويزيدوا من قوة العناصر المحافظة فى كل أجزاء العالم الاسلامى ٠ وبالنسبة لكل القطاعات كانت معركة تحرير المجتمع الاسلامى تتطلب تقوية الايمان بالعقيدة وأدت قوة الالتزام العاطفى بالأهداف السياسية الى زيادة التصلب والتشدد النفسى لدى المحافظين ٠ فالعقل الذى يشك ، أو الذى لا يصل الى درجة التسليم الكامل ، قد يفهم على انه منحرف عن طريق النضال الايجابى ٠

ومع أن المسلمين المتطرفين لقوا مقاومة العناصر المعتدلة التى تتكون منها عادة الزعامة السياسية المسيطرة ، ومع أن منظماتهم تعرضت للحل عدة مرات ، كما تعرض قادتهم للسجن ، فقد بقى تأثيرهم قويا ، لأنهم ينصرون على نحو فعال الدين الذى تدين به الدولة ، ويصرون على أن الاستقلال تحقيق لأوامر الدين ٠ وبذا استطاع السلفيون أن يضعوا كل من عداهم موضع الاتهام ٠ فخلال الأعوام العصيبة بعد الحرب العالمية الثانية حين كانت الدول الاسلامية تصارع من أجل استقرارها ، ومواجهه المشكلات الضخمة للفقر والعوز ، كان لا بد من التعرض للصدمات وخيبة الجهود ، مما يؤدى الى البحث عن كباش للفداء ٠ واستطاع المتطرفون أن يستخدموا أقذع الأوصاف فى التنديد بخصومهم ، واستطاع السلفيون

لأن يحتكروا التحكم فى المد العاطفى الذى أتى بالتحرير ، وظل يبحث له عن تعبير واستمرت الاتجاهات التحررية ، ولكن المتطرفين أخذوا يدفعون بالقضية ويحيلونها الى اختيار بين أمرين التمسك بالدين ، أو التخلى عنه ٠

وبينما سار احياء الدين فى الاتجاه الذى أراده السلفيون ، فان سير الحوادث العملية ، وضـــغوط الزمن كانت تدخل تعديلات كثيرة تبدو للمتزمتين مناقضة لتعاليم الدين ٠ فالضغوط من أجل الاصلاح الاجتماعى للمجتمع الاسلامى ، سواء فى ذلك الضغوط الداخلية والخارجية ، أحدثت تعديلات متعاقبة فى القانون الاسلامى والعادات الاسلامية ٠ واذا استثنينا قانون الأحوال الشخصية المتعلق بمسائل الزواج والطلاق والميراث ، حل القانون البريطانى ، الجنائى والمدنى محل القانون الاسلامى فى الولايات الاسلامية الأصلية المستقلة فى الهند وباقى شبه القارة ، واتخذت مصر قانون نابليون منذ سنة ١٨٨٤ ، وفى منتصف القرن العشرين لم تـكن الشريعة الاسلامية مطبقة أحكامها الا فى أفغانستان ، والعربية السعودية واليمن ٠ واذا استثنينـــا هذه الدول المحـــافظة وجدنا أن ما حدث لا يعدو أن يكون بعض التعديل فى قانون الأحوال الشخصية أو مقترحات تستهدف تعديله ، توضع موضع الدراسة الجادة ، وبقيت تركيا الدولة الاسلامية ، التى ألغت القوانين الاسلامية للأحوال الشخصية وكذلك فى الشئون المدنية والجنائية وأحلت محلها قوانين مستمدة من الغرب ٠

وبينما أصبحت معظم البلاد الاســـلامية فى القرن العشرين حقول تجارب لادماج المبادىء الاسلامية فى حكم دول حديثة ، فان بلدين همـا تركيا والهند ، قاما باختبار قدرة الاســـلام على العمل فى مجتمع طبع بالطابع الزمنى ، سواء من حيث هو عقيدة الأغلبية ، أو من حيث هو عقيدة الأقلية ٠

ففى تركيا فى عشرينات هذا القرن ، رأينا أن أتاتورك الذى قام باصلاحاته الاجتماعية بتأييد من الصفوة من ذوى الثقافة الغربية ، لم يكتف بطبع الدولة بالطابع الزمنى والغاء القانون الاسلامى ، بل حاول عامدا فصم الصلة بين الاتراك وبين الجذور العربية للاســـلام ، فألغى الحروف العربية ، وأحل اللاتينية محلها ، وجعل الصلاة تؤدى باللغـة التركية ٠ وبعد ثلاثين سنة وصل الى الحكم حزب سياسى يميل الى اعادة بعض النفوذ للدين ، وكانت أول خطوة اتخذها هى اعـــادة تدريس الدين بالمدارس الأولية ، ومما هو أكثر مغزى من ذلك أنه أنشأ كليـة للدراسات الدينية داخل جامعة أنقرة ذات الطـابع الزمنى ، وبقى أن نرى ماذا سيتمخض فى مستقبل الاسلام عن هذه المحاولة الأولى لاقتران الدراسات الاسلامية والحديثة فى أعلى المستويات ٠

وبعد التقسيم ظل بالهند ٤٠ مليون مسلم ، يتمتعون بحق المواطنة الكاملة فى دولة زمنية ، يتكون غالبية سكانها الساحقة من الهندوس • وكان الهنود المسلمون يقاومون فى الماضى ادماجهم فى مجتمع هندوكى فى الظروف السابقة على القومية والسابقة على العصر الحديث ، حين كانت الطبقة الاجتماعية تحدد وضع الشخص وعلاقاته ، وكانت المواطنة بالمعنى الغربى غير معروفة ، وكانت الأسرة والدين أساس المجتمعات • ولقد ألغى دستور الهند نظام الطبقات ، وطبع القانون بالطابع الزمنى ، ومنح حرية العبادة والحقوق والمسئوليات الديمقراطية لكل المواطنين . وكبار المسلمين الذين بقوا فى الهند اعتقادا منهم بأن المسلمين قد يحظون بحياه رضية على هذا الأساس ، شاركوا مشاركة ايجابية فى الحكم وغيره من الميادين • كانوا يريدون أن يثبتوا أن الاسلام يمكن أن يوجد ويزدهر كعقيدة شخصية داخل مجتمع ديمقراطى متعدد الأديان، وفى آسيا الوسطى، أدى الحكم الشيوعى الى اضعاف دور الاسلام بين السكان المسلمين الكثيرين . فقد أصبح المسلمون معرضين مباشرة لضغوط ضد تمسكهم بالدين ، بلغت ذروة قوتها خلال فترة الخطة السوفيتية الخمسية الأولى (١٩٢٨ ــ ١٩٣٢) حين انتشرت حركة واسعة لتدمير المساجد ونفى الزعماء الدينيين ومصادرة الكتب الدينية والحروف العربية ، واستيطان غير المسلمين . ولما كان الاسلام مرتبطا بوضع الأقلية ، وكان يرتبط بطريقة فى الحياة تتعرض للتعديل الجذرى ، فان عملية التحضير والدمج فى المجتمع السوفيتى قد أخذت تصرف الناس بقوة عن الاسلام . وكانت قوى مماثلة تعمل عملها بين مسلمى الصين فى سينكيانج •

فى العالم الاسلامى بأسره قدمت ظروف الربع الثانى من القرن العشرين للمسلين ذوى الضمير الحى ما اعترف البعض بأنه مشكلة شائكة مؤرقة وهى التوفيق بين متطلبات العقيدة وضغوط العالم المادى الحديث • كانت المشكلة موجودة فى باكستان بالنسبة لمن عقدوا حياتهم ومستقبلهم بخلق دولة اسلامية منفصلة •كما كانت موجودة فى البلاد العربية بالنسبة لمن كانت جهودهم الكبرى تتجه الى البناء القومى كما كانت موجودة فى الهند بالنسبة لمن التمسوا تحقيق نموذج مرض للحياة الاسلامية كمواطنين لدولة ديمقراطية زمنية ، وفى اندونيسيا بالنسبة لمن حاولوا تحقيق « الوحدة مع التغاير » فى أرخبيلهم المتفرع الثقافات المترامى الأطراف • فالقضية فى الاسلام هى هل يمكن ــ وكيف يمكن ــ للحيوية التى أظهرها الاسلام فى عشرات السنين الماضية أن تعود الى التألق والانتصار وسط الضغوط العقلية والظروف المادية التى تسود العالم فى منتصف القرن العشرين •

٥ ـ الهندوكية

كانت الهندوكية صاحبة الفضل فى الديناميكية الروحية التى أدت الى حركة الاحياء الهندية فى القرن العشرين • فلقد فسرت من جديد ، وبعثت فيها الحياة فجددت جوهرها القديم وتحولت من عقيدة (التخلى) الى عقيدة (الايجابية) ومن التشبث بالعادات الى قوة من قوى الاصلاح الاجتماعى • وبهذا استطاعت أن تسيطر من جديد على الشعب الهندى •

وخلال القرن العشرين ، كانت الهندوكية ـ بتأثير الفكر المسيحى والسيطرة الاوربية فى حالة دفاع عن النفس • وكانت أهم حركاتهـا تتناول بعض فرقها دون البعض الآخر ، وكانت متأثرة مباشرة بتعاليم المبشرين ، أو راجعة الى مقاومة آثار هذه التعاليم • كانت فى المحل الأول حركات اصلاح ، تقبل أساسا النقد الغربى للفكر الهندوكى ، وتحاول أن تطوعه بمـا يتفق مع روح العصر الحديث • وكانت أهم هذه الفرق البرهمية السماجية التى أنشأها رام موهان روى (١٨٣١) وهى تعتمـد على التعاليم الهندوكية القديمة ، ولكنها تأثرت بالفـكر المسيحى الحر بشكل ظاهر •

ولكن فى خلال النصف الثانى من القرن العشرين أخذت روح جديدة تتكشف من ثنايا الهندوكية الأرثوذكسية حين ارتفعت الأصوات الجديدة تلح بضرورة المحافظة على التراث الروحى للهندوكية • فبرزت حركتان متميزتان تمام التميز . الأولى حربية ، صورة احيائية للهندوكية معروفة باسم ارياسماج انشأها سوامى دايانانذا ساراسواكى (١٨٢٤ـ١٨٨٣) وامها الايمان بتجلى الفيدا • والأريا سماج تعارض التنظيم الهنـدوكى للطبقات والمنبوذين ، وتركز على أهمية الخدمة الاجتمـاعية وقد قامت بحملة حربيـة لتعيد الى الهندوكية من تحولوا عنها الى أديان أخـرى • واستخدمت وسائل الاسلام والمسيحية فى محاربة هذين الدينين ، فأكدت أن الفيدا تشبه القرآن والانجيل من حيث هى نص مقـدس ، وأدخلت تنظيما صارما غير مألوف للهندوكية ليقوم بالوظيفة التى تقوم بها الكنيسة بين المسيحيين • وتأسيا بما يفعله المسلمون والمسيحيون ، حاولت ادخال الأفراد فى دينها على عكس ما جرت به التقـاليد الهندوكية التى كانت لا تسمح بالدخول فى دينها الا لتضم مجموعات كاملة كطبقات منفصلة • وهكذا كانت الارياسماج تتسم بالروح العدوانية ، فكانت تنـافس بنشـاطها المبشرين المسلمين والمسيحيين وتقيم نظاما تعليميا واسع النطاق فى البنجاب قصد به التصدى لتأثيرات النشاط التبشيرى •

والشخصية الرئيسية في الحركة الثانية (سرى راماكرشنا Sri-Ramakrishna ١٨٣٦ ـ ٨٦) وهو يوجى متصوف وقديس بالمعنى الهندوكى التقليدى ، وقد أثر تأثيرا عميقا فى المجتمع البنغالى على أيامه ، وخاصة بين جيل الشباب • ولم يكتف بايقاف اتجاه المثقفين الى الانفصال التام عن الهندوكية ، بل لقد أعاد الحياة الى عقيدتهم وأمدهم بفكرة ايجابية عن الحياة •

وقد أصبح أبرز تلاميذه (فيفكانندا Vivekananada) (١٨٦٣ـ ١٩٠٢) نبيا لهندوكية جديدة ، اذ الهبته حماسة الآحيائيين فقد زار أمريكا زيارة طويلة وقام بجولة فى ربوع انجلترا فأثر هذا فى وظيفته ورغبته فى تجديد شباب المجتمع الهندوكى ، واعطاء الهندوكية هدفا اجتماعيا • فلاعلانه الملتهب بأنه (لا يؤمن بدين لا يمسح دموع الأرملة ، أولا يأتى بكسرة خبز لفم اليتيم) ، هو تعبير عن المناخ الجديد • وقد وصف رسالته الخاصة بأنها « الكشف عن الأسس المشتركة للهندوكية وايقاظ الوعى القومى بين الهندوكيين » هذا وقد وجه هذا الأساس المشترك فى الفيفكانندا التى ترجمها فى لغة شعبية وبشر بها فى غير كلل فى كل أنحاء الهند وفضلا عن ذلك فقد درب مجموعة من المبشرين من المتعلمين ذوى الحياة النقية والحماسة الدينية ، على حمل هذه الرسالة الى القرى • وكان عدد لا يحصى من المبشرين والعلماء ممن لا ينتمون الى أى مذهب دينى بعينه ، يبشرون بنفس الرسالة فى أماكن مختلفة كثيرة •

كذلك فان الجمعية الثيوصوفية (التى تستهدف الوصول الى معرفة الله عن طريق الكشف الصوفى أو التأمل الفلسفى) بزعامة منشئها ومنظمها الأمريكى كولونيل الكوت (H.S. Olcott) ثم السيدة بزانت Annie Besent كانت هى الأخرى ناشطة فى الدعوة للمثل الدينية الهندوكية بين الطبقات المتعلمة فى العشرين سنة الأولى من القرن العشرين • وكانت ترجمة السيدة بيزانت للجيتا (١٨٩٥) والنشاط التعليمى للجمعية ، من الأسباب الهامة لتقوية ايمان الهندوكيين بدينهم وكانت عودة الايمان باليجا فاد جيتا على انها الكتاب الأسمى للهندوكية هى ما مكن قادة الرأى من صوغ الروح الجديدة بلغة الارثوذكسية الهندوكية • ومنذ القرن الثالث بعد الميلاد على الأقل كانت الباجافادجيتا قد أصبحت من النصوص الرسمية للعقيدة الهندوكية ، كتابا مقدسا يرجع اليه كل كاتب سياسى أو مدافع عن الدين يبحث فيها عن الشواهد التى تعزز رأيه • وفى السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين كانت موضوعا للتعليق من جانب كل كبار القادة السياسيين والدينيين تقريبا ،

وأصبحت أقوى الكتب نفوذا فى حركة التجديد الاجتماعى والأخلاقى والروحى للهندوكية ٠

وكان السياسى الايجابى تيلاك B.G. Tilak (١٨٥٦- ١٩٢٠) أول من أكد أن رسالة الجيتا ليست تجردية ولا أخروية كما قال المعلمون الآخرون ، ولكنها فى جوهرها كتاب مقدس يدعو الى أخلاق اجتماعية ديناميكية ، انها عقيدة ايجابية اجتماعية ، أول أسسها العمل لخير البشر دون نظر للصالح الشخصى ٠ وفى بحثه (سر الجيتا - ١٩١٥) أقام تفسيره على أساس وصف الجيتا للرجل المثالى بأنه الرجل الذى يؤدى واجبه فى هذا العالم بعقل متوازن دون أن يستهدف غايات أنانية ، بل لخير العالم وحده وانما يقصد بهذا العمل وجه الله ٠

وأبرز أن تعاليم الجيتا فيما يتعلق بالتضحية ، تركز على الياجنا البرهمية ، أو تكريس كل العمل لصالح العالم ، على نقيض التضحية الشعائرية فى الفيدا ٠ هذه النظرية القائلة بأن من واجب الفرد أن يعمل بصورة ايجابية للحفاظ على نظام عالمى هى النقيض المباشر للعقيدة التجردية التى سيطرت على شطر كبير من الفكر الهندوكى لمئات السنين ٠ وكان تيلاك يعتقد أن النظام الاجتماعى الذى تستهدفه جيتا هو بناء يقوم على (سواد هارما) أو واجب الفرد فى العمل طبقا لقانون طبيعته الخاصة وان يستمسك بقوة بما يراه هو أنه الحق ٠ وهذا التفسير يرفض المعنى الذى أضفاه المعلمون الدينيون على كلمة (سواد هارما) فى ظل المجتمع الطبقى - وهو أن على المرء أن يرضى بالوضع الذى يولد عليه ، وتصور الجيتا للمجتمع على أنه تنظيم متتابع الدرجات يعتمد على الوظائف والصفات ، لا علاقة له بنظام الطبقات حيث التقسيم على أساس المولد ٠ واذا كانت الجيتا تعلن ان التقسيم الرباعى تقسيم الهى ، ويمثل جانبا دائما من جوانب التنظيم الاجتماعى فانها فى تفسير (تيلاك) تنكر أن المولد هو أساس الطبقات الاجتماعية ، وتركز على صفات الفرد وعمله على انها أساس التقسيم الوظيفى ٠ على هذا الاساس يكون كل الاشخاص ، بما فيهم الأدنون ، مستحقين لقدر متساو من التقدم ماداموا ذوى عقل متوازن ، ويعملون بلا كلل لهدف واحد هو الصالح العام ، وعملهم قربان الى الله ٠ على هذا الضوء تبدو الجيتا فى جوهرها انجيلا للديمقراطية ٠

وأهم من هذا اعتبار الجيتا مبشرة بعقيدة تجديد المجتمع ٠ يقول كريشنا « فى أى زمان أو أى مكان تضعف فيه « دارما » ويسود الظلم ، فسأولد فى أجيال متعاقبة لأقضى على فاعلى الشر ، ولأعيد للقانون الأخلاقى

سيادته . وفى التفسير الجديد تتنبأ الجيتا بالدمار الحتمى لكل النظم ، وضرورة التغييرات الثورية لاعادة الاتساق الى الحياة .

وفى مجتمع راكد مثقل بالتقاليد والعرف ، ومختنق باثقال العصور ، جاءت فكرة أن التغيير أمر الهى اذا اضمحل شأن المجتمع — جاءت هذه الفكرة كأنها اسرافيل ينفخ فى الصور . اذ لم يتهيأ سلاح أقوى منها لمن أرادوا اعادة تشكيل المجتمع الهندى ومنحه الحيوية والهدف . فالعقيدة الجديدة — اليوجا فى مجال العمل — لم تكتف بمنح العمل السياسى حماسا دينيا وقوة ، ، بل لقد احالت الهندوكية ذاتها من تنظيم ستاتيكى الى قوة ديناميكية . وكانت محاولة جزئية لكسر التقليد التجردى قد جاءت فعلا من «فيفكانندا» الذى أوضحت محاضراته عن «يوجا الكراما» ان التجرد ليس بالضرورة ابتعادا عن الحياة وانشطتها كذلك كان المذهب الرهبانى المسمى « ارسالية راماكريشنا » محاولة للتوفيق بين نظرية صالح العالم ونظرية التجرد الدنيوى لأن رهبان هذا المذهب لم « يوغلوا فى الغـابات » أو الخلوات ، بل قاموا بأعمال وخدمات فى كل ميادين النشاط الاجتماعى . ولكن تيلاك هو الذى عبر تعبيرات أكثر ايجابية عن انجيل العمـل بأن أكد ما قاله كريشنا : «اذن فانهض، وخض معركة دراما»، فهو يعتبر أن كل التعاليم العقائدية لجيتا لها غرض واحد هو مد الرجل الخـير بالطاقة والعزم على عمل الخير .

وكان من السهل على تيلاك أن يثير نشاط شباب الهند عن طريق الاستشهاد بالجيتـا . فهو فى سر الجيتـا قد شرح عقيدة « التنشيط » بثروة من المعارف ، والسلفية الخالصة ، دون اشارة مباشرة للسياسة ولكن المعنى السياسى كان واضـحا ، لأن تيلاك كان الزعيم المعترف به للمتطرفين من الوطنيين الهنود الذين شعروا أن من واجبهم أن ينهضوا أو أن يحاربوا الأجانب الرابضين على التربة الهندية . وعند تيلاك أن الهند هى ميدان الخير والعدل ولن تستطيع الهند أن تنقذ نفسها الا بفضل رسالة جيتا .

واذا كانت «الايجابية» هى ما أكده تيلاك ، فان عقيدة الخـدمة الايثارية هى ما علمه غاندى بتعليقه على الجيتا . لقد كان فى الواقع تجسيدا للمثال الجيتوى للرجل المتوازن العقل ، الذى لا يستخفه غضب ولا خوف ، قدماه ثابتتان على الأرض وعمله كله موجه لخير أهل الأرض . لهذا كان تعليقه على الجيتا انعكاسا لعقيدته الشخصية .

وأهم ما أضافه غاندى للتعاليم المتماسكة للجيتا التشديد على أهمية الوسيلة . فعنده لا يكفى أن يكون الهدف مصلحة «الجميع» بل يجب أن

تكون الوسيلة نظيفة من الناحية الأخلاقية · وتعبر عقيدته المسماة «اهمسا أو اللاعنف» عن نظرية مؤداها أن قوة الفعل يجب ألا تبلغ حدا يضر بالطبيعة الحقة للقانون الذى يسير عليه آخر فى حياته ·

وأشمل تفسير للجيتا ـ على أنها أشد ما تكون تماسكا فى قيمتها الروحية ـ هو تفسير « سرى أوروبيندو » (١٨٧٢ ـ ١٩٥٠) · لقد تربى على التقاليد الكلاسيكية الغربية ، وكان ظهوره الأول كملهم للحركة الارهابية فى السياسة الهندية ، ولكنه تعرض لتحول روحى أثناء مقامه فى السجن لما يقرب من أربعين سنة ، من سنة ١٩١١ حتى وفاته سنة ١٩٥٠ ، فصار من أعظم المعلمين الروحيين بالهند · وقد أكد الطبيعة الأخلاقية لتعاليم جيتا ، فمزق فى غير رحمة التفسير الغيبى الذى كان قد أضفاه على رسالتها الاجتماعية كتاب تختلف حولهم الآراء كما أعان جمهور الهنود على فهم تعاليمها التى تتعلق بمشكلات الحياة ·

وهكذا أصبحت الجيتا انجيل العصر الحديث ، الأساس الرئيسى الذى ترتكز عليه أخلاقياته ، وعقائده الاجتماعية وحتى أفعاله السياسية· وتنقل رسالتها الى الرجل العادى فى آلاف الترجمات الشعبية ، كما يشهد بذلك عدد الكتب التى تنشر عنها كل عام فى كل لغة من اللغات الهندية وهى الحافز والمرشد للهندوس المحدثين ·

وثمة عوامل وشخصيات أخرى عاونت بشكل مباشر على نشر الفكر الهندوكى فى أرجاء العالم ، وعلى اليقظة العامة للضمير الاجتماعى · فقد أحيا رابندرانات تاجور (١٨٦١ ـ ١٩٤١) تقليد اخلاص النفس ، وقدم تفسيرا شعريا للعقائد الهندوكية العالمية · وقام د· انانداكومساراسوامى، (١٨٧٧ ـ ١٩٤٧) بتفسير رموزها · وقام سير جون وودروف (١٨٦٥ ـ ١٩٣٦) وهو قاض بريطانى بمحكمة كلكتا العليا باصلاح شعائر (تانترا) لعبادة الالهة الأم ، فخلصها من المبالغات التى شابت كثيرا من الشعائر ، وقامت الأخت نيفيتيا وهى انجليزية دخلت فى دين الهندوكية، بتوكيد المعنى الاجتماعى لكثير من النظم الهندوكية ·

وقد ضرب الغرب بسهم وافر فى اصلاح الهندوكية · فقد أصبحت الجيتا نفسها محبوبة جدا من الطبقات المتعلمة ، وقد وصلت الى معظمهم عن طريق الترجمة الانجليزية · وكانت أول مقدمة كتبها مهاتما غاندى لتعاليم الجيتا ـ مثلا ـ عن طريق ترجمتها الشاعرية التى قام بها سير ادوين أرنولد بعنوان الأغنية السماوية The Song Celestial (١٨٨٥)

ولقد مضى أكثر من جيل كانت فيه الترجمة النثرية للجيتا التى قامت بها « أنى بيزانت » بعنوان « أغنية الله » رفيقا ملازما لكل طالب هندوكى ٠ ومع أن تعليق تيلاك قد كتب بالماراتية ، وتعليق غاندى قد كتب بالجوجيراتية ، فان تأثيرها لم يعم الهند الا بفضل ترجمتها الانجليزية ، فأغلب الكتب المؤلفة عن الهندوكية الحديثة بالانجليزية ٠ وليس من المبالغة أن نقول ان انتشار اللغة الانجليزية فى كل مكان بالهند هو ما جعل من الممكن قيام حركة هندية شاملة لاصلاح الهندوكية ٠

وطالما كانت النصوص الهندوكية الكبرى فى غير متناول من يجهلون السنسكريتية ، فقد كان من يعرفونها يقتصرون على مجموعة قليلة من الناس ، معظمهم من البراهمة ٠ ولم تكن ترجمات الفيدا أو الاوبانيشاد باللغات الهندية الشعبية فى المتناول ، كذلك لم يكن فى المتناول تلك التعليقات الكبرى التى قام عليها البنيان الفلسفى للهندوكية ٠ فكتاب « الكتب المقدسة فى الشرق » (١٨٧٥) الذى نشر بالانجليزية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، بتحرير الأستاذ العالم ماكس مولر قد جعل هذه النصوص فى متناول الهنود المتعلمين تعليما غربيا حديثا ٠ كذلك جاء تفسير وتبسيط الفلسفة الهندوكية عن طريق اللغة الانجليزية ٠ فأحاديث وخطب فيفكاناندا ، ومقالات أوروبندو عن جيتا وكتابه « الحياة المقدسة » (١٩١٦ ــ ١٩١٩) وكتاب الفلسفة الهندية لرادا كريشنان (١٩٢٧) ومعظم الكتب القيمة الأخرى عن الهندوكية الحديثة قد ألفت بالانجليزية ٠ وقد كان التوحيد السياسى للهند ووجود لغة ــ وان كانت أجنبية ــ تمكن للتعبير القومى من أن يصل الى كل جزء من أجزاء الهند ــ نقول كان هذان أمرين لابد منهما للبعث الهندوكى ٠

وثمة نتيجة أخرى ترتبت على جميع الحركات التى تركز على الأساس الفلسفى العام والأساس الأخلاقى للهندوكية ، هى اضمحلال الانقسامات المذهبية ٠ فمنذ أيام الغزو الاسلامى الأول حتى منتصف القرن التاسع عشر ، أدت حركات الاصلاح الهندوكية عموما الى تأسيس مذاهب جديدة ٠ أما عملية التوحيد التى أعقبت احياء الهندوكية فقد كانت من القوة بحيث كاد أكثر المذاهب الجديدة تميزا ، وهو البرهمية الساماجية ، أن تمتصه الهندوكية العامة فيما امتصت ٠

وثمة ظاهرة أخرى ترتبط بالبعث الهندوكى فى القرن العشرين ، هى العدد الكبير من القديسين الصادقين والشخصيات المقدسة ، الذين استطاعوا بفضل عظمتهم الروحية ونفوذهم الأخلاقى ، أن يحسروا طوفان

الكفر بالعقيدة ، ويقدموا الالهام والأمل للجيل الجديد . فالشـــخصيات العظيمة مثل سرى راما كريشـــنا الذى يعتبره الكثيرون تجســيدا لله ويعبدونه بصفته هذه ، وسرى أو روبينـــدو وسرى رامانا ماهارسى قد رسموا قديسين بالموافقة الشاملة . وهناك الكثيرون من نفس اللون . ولايكاد يوجد جزء من الهند الا وبه الكثير من مثل هؤلاء الرجال المقدسين والنساء المقـــدسات قد قدموا الدليل على صـــدق ايمانهم بالمثـــال الذى ضربوه بممارستهم للحياة ، دون التبشير بأى عقيدة أو فلسفة ، أن الناس من كل الطبقات من خارج الهند وداخلها يلتمسون بركاتهم ولهم نفوذ قوى جدا على كتل ضخمة من الجماهير . لقد وجدت حركة الاحياء الهندوكية دعامة لها فى سير حياة هؤلاء الذين أخلصوا أنفسهم لعقيدتهم .. لقـــد تجردوا عن السعى للمنافع الدنيوية ، ولكنهم ظلوا يعيشون بين الناس، يمارسون أعمالا غير ذاتية لصالح العالم .

وهكذا فان الهندوكية مسلحة بكتاب مقدس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه مفسر على ضـــوء الاحتياجات الحديثة ، ومرتكز على عقيدة فلسفية فيها الجواب على تحديات الاديان الأخرى ، وقد صـــارت « الهندوكية » قابلة للتطبيق على مشكلات التعديل الاجتماعى .

وظلت الهندوكية الشعبية على أسلوبها القديم ، متزمتة ، فدائية شديدة التشبث بشعائر تقليدية شتى ؛ ولكن اعترتها أيضا تغييرات كبرى فيما يتعلق بالعادات الاجتماعية التى كان لها فيما سبق سند من الدين . لقد تضاءلت نواحى العجز الاجتماعى بسبب الطبقة ، ففتحت أبواب كثير من المعـــابد للمنبوذين ، وفى المناطق الشديدة التزمت فى مدراس ، وضعت الهبات الدينية الهندوكية تحت تصرف الهيئات العامة . لقد دبت الحياة فى الهندوكية التقليدية أقوى مما كانت تدب فى الأزمنة القريبة ، ولكن الهندوكية فقدت الكثير من طابعها ومناخها المحافظ ، وان احتفظت بالكثير من شكلياتها .

ومع أن النظم الاجتماعية للهندوكية ، التى صارت الى حد كبير تعتبر هى الدين نفسه ، قد ضربت بجذور عميقة فى القانون والعرف ، فانها لم تدع لنفسها قدسية الهية ، ولم يكن لها نظام كنسى يدعمها . لهذا أمكن تغييرها عن طريق التشريع . فحين أخذت الدولة تسن القوانين فى الهند بعد الحرب العالمية الأولى ، أصدرت الحكومات المركزية والأقليمية تشريعات أساسية تتنـــاول الشعائر الهنـــدوكية . فقانون الزواج المدنى ، الذى أصدرته الجمعية التشريعية المركزية عام ١٩٢٣ ، الذى أجاز التزاوج بين

الأفراد المنتمين الى طبقات مختلفة ، كان معول هدم لأساس المفهوم البرهمى القديم للطبقة · وقانون سن الرشد الصادر سنة ١٩٢٩ الذى رفع سن الزواج عند الفتيات الى أربع عشرة سنة ، قد حرم عادة زواج القاصرات ، تلك العادة التى ظلت متبعة ما يزيد على ألفى سنة وكانت مراعاتها تعتبر ملزمة بالنسبة للبراهمة على الأقل · وقد وضعت الهند المستقلة طبع المجتمع الهندى بالطابع الحديث هدفا من أهدافها الرئيسية . وأوردت كجزء جوهرى فى الدستور نظاما شـاملا للحقوق الأساسية التى يفرضها القانون اذ ينص على الالغاء التام لنظام المنبوذين ، ويسوى بين الرجل والمرأة فى الحقوق · وكان التشريع الاجتماعى الهندوكى الذى جاء بعـد ذلك تتويجا لمائة سنة من الجهاد من أجل اعادة تنظيم المجتمع الهندى على أساس عصرى ·

ولكى تتمكن الهند المستقلة العصرية من أن تحقق هدف تحـويل المجتمع الهندوكى ، كان لابد من تعرية النظم الاجتماعية البالية من ثوب الدين ، واصلاح المعتقدات الدينية بحيث تتيح التغيير ، وتكون خلفيـــة مشتركة للمجتمع · كان هذا مثال الاصلاح الهندوكى الذى استطاع ، عن طريق العمل من خلال مسالك كثيرة واستلهام مصادر عديدة قومية وأجنبية ، احداث حركة احيـاء دينى أمدت الشعب الهندوكى بمعنى الوحدة ، ودفعته الى الاصـــلاح الاجتماعى · ووجدت الدولة الهنـدية العصرية الأرض ممهدة ، لأن الاصلاح الاجتماعى كان قد أحرز النصر فى عقول الناس قبل أن يضفى عليه المشرعون جلال القانون ·

٦ ـ البـوذية

فى بداية القرن العشرين كان الدين البوذى فى كل مكان تقريبا يعانى من الضعف والانحطاط المعنوى · وكانت هذه هى الحالة بوجه خاص عند البوذيين فى الصين وكوريا وفيتنام واليابان · وكان الغاء البـوذية من أول الأعمال التى قام بها اصلاح ميجى فى اليابان سنة ١٨٦٨ · وفى الصين مع أن أباطرة المانشو قد منحوا رعايتهم لشكل من الأشكال اللاموية Lamaism فلم يكن للبـــوذية قيمـة تذكر من حيث هى دين · فلقـد كان المثقفون يخلصون نفوسهم للدراسات الكونفوشية ، بينما اقتصر عمل رجال الدين البوذيين تقريبا على أداء الشعائر القديمة للزراع فى المحل الأول ·

وفى بعض مناطـق جنوب شرق آســـيا التى تبعت الهينايانا أو

الثيرافادا كان الموقف أحسن من هذا بقليل وفى هذه المناطق كان التقليد البوذى متميزا عن التقليد الآخر الكبير ،وهو الماهايانا الذى يوجد اتباعه فى الصين وكوريا واليابان وفيتنام • وفى كمبوديا ولاوس وسيام حيث ظلت الملكية حفيظة على العقيدة ، ظل تقليد الحياة الدينية قويا ومستمرا الى حد ما • ولكن لما فقدت بورما استقلالها فقدت البوذية مركزها الخاص فى هذه البلاد ، فبدون توجيه مركزى أو تنظيم لم تعد السانجا (أو الكنيسة) قوة نشيطة ، وبخاصة حين اتجهت رعاية الحكومة البريطانية الى المسيحية ونشطت الارساليات المسيحية •

وفى سيلان ، قلب ثيرافادا بقى البوذيون فى حالة كسيرة ، من أثر قرون الاحتلال الأجنبى ، وتحول قسم ضخم من الطبقات العليا الى الدين المسيحى ولم تستطع البوذية أن تزدهر على نحو ما الا فى معزل التبت •

وفى منتصف القرن كان الموقف قد تغير تغيرا كبيرا فالاحتفال الخاص بمرور ألفين وخمسمائة سنة على موت بوذا سنة ١٩٥٦ قد شهد دينه قويا وقوته فى تزايد • وجاء معظم حركة الاحياء فى ثيرافارا حيث ارتبطت بالحركات القومية • وقد استنهضتها أبحاث العلماء الغربيين التى جعلت النصوص الدينية القديمة للبوذية فى متناول الشباب المتعلم ، وأدت الى ظهور الدراسات البوذية النقدية لا فى منطقة ثيرافادا وحدها ، بل وفى اليابان أيضا •

وفى تايلاند لم يكن الدين قد هوى الى الدرك الذى هوى اليه فى سواها ، وكان الحكام فى غابر التاريخ ينفقون على الكنيسة البوذية ويعينونها • وفى سنة ١٨٨٨ اتخذ أحد ملوك سيام ، الملك راما الخامس، لقب حامى حمى العقيدة البوذية • ومن بين الخطوات الكثيرة التى خطاها لتنفيذ مهمته نشر طبعة جديدة من التريبتاكا Tripitaka سنة ١٨٩٣ واعادة تنظيم المذهب البوذى الدينى واقامة مدرسة فكرية بوذية •

وظلت الكنيسة البوذية باعتبارها الدين الرسمى لتايلاند ، منظمة على المستوى القومى تحت رئاسة سانجاراجا أو البطريرك الأكبر الذى يعينه الملك ، وكانت الدولة ـ عن طريق وزارة الشئون الدينية ـ ترعى مصالح الدين • وظل المعبد البوذى المؤسسة الرئيسية فى القرى ، مستودعا للمال وغالبا ما كان المصدر الوحيد للتعليم والعلاج الطبى • وفى المدن حيث حل التعليم العام محل تعليم الرهبان أو صار تكملة له ، أصبحت المعابد أشبه بدور للمغتربين • وكان المفروض فى كل شاب بوذى فى تايلاند أن يقضى فترة من حياته راهبا ، وان لم تزد المدة عن أشهر قليلة • وفى أعوام

التغيير والقلق التى أعقبت الحرب العالمية الثانية ، حاولت منظمة الشباب البوذى أن تساعد الشباب على التماس سبيل لهم بين المسالك التقليدية والغربية ٠

وفى سيلان كان انحلال البوذية قد تأكد خلال نيف واربعمائة عام من الاحتلال الأجنبى ٠ فكانت الشعائر المسيحية قد سار عليها كثير من الناس أيام الاحتلال البرتغالى ، كما تبعتها الطبقات العليا أثناء الاحتلالين الهولندى والبريطانى ، وفى بداية القرن العشرين كان معظم البوذيين من أبناء الطبقات الدنيا ٠ وكان كثير ممن لم يدخلوا فى المسيحية قد أصبحوا لا يأبهون لدين ليست له مكانة فى البلاد ، ولا كرامة عند الحكومة ٠ فصارت المعابد البوذية أطلالا وخرائب ، وانتهى عهد التعليم البوذى ٠

وكانت عودة البوذية الى الحياة جزءا لا يتجزأ من حركة احياء القومية السيلانية ٠ لقد تركزت حول احياء التعليم البوذى ، وكان انشاء كلية اناندا Ananda سنة ١٨٨٦ على يد الكولونيل هنرى س أو لكوت بمثابة الخطوة الأولى نحو عودة البوذية كدين قومى ٠ وصارت الكلية بزعامة سير بارون جاياتيلاكا ، الذى كان له نشاط أيضا فى تشكيل المؤتمر القومى السيلانى مركز حركة الأحياء البوذية ٠ ونشب جيل بعد الحرب العالمية الأولى يؤمن بأن التقليد السنهالى Sinhalese الصادق لا ينفصل عن البوذية ٠

ولما كان البوذيون يرحبون دائما بمن يتحول الى دينهم ، فقد كان الارتداد فى كل الأوقات عملية طبيعية ، وتحول كثير من الزعماء الشبان الذين بدءوا حياتهم مسيحيين ، الى العقيدة البوذية ٠ وسرعان ما أدرك الطامحون فى العمل فى الحياة العامة ان ليس بوسعهم الحصول على تأييد شعبى أو نفوذ فى أمتهم الا اذا عادوا الى دين بوذا ٠ فكان الذين بيدهم مقاليد الزعامة السياسية ، وكبار الموظفين فى سيلان المستقلة ، من بين من عادوا الى عقيدة الأجداد ، وأصبحوا من الداعين المتحمسين للبوذية ، بل كانت التجمعات البوذية رءوس حراب فى النضال الوطنى ، وبعد الاستقلال أخذت الأحزاب السياسية تسعى الى كسب تأييدهم المنظم ، وظلوا عاملا من العوامل الكبرى فى رسم سياسات الدولة الجديدة ورعاية مصائرها ٠

ولم تكن البوذية فى بورما أقل شأنا من حيث هى جزء من الحركة الوطنية ، وعامل بناء فى الدولة القوية الجديدة . فلقد كان تأثيرها هناك أكثر استمرارا مما كان فى سيلان ، اذ لم يحدث حتى فرض الحكم

البريطانى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، أن الغيت التقسيمات الاجتماعية على أسس بوذية ، وفقد الدين مركزه الرسمى . وحتى بعد هذا ظلت الأديرة تقدم نظاما للتعليم الابتدائى فى كل أنحاء بورما وتحمى ثقافة بورما . ومع أن النظام بين الرهبان قد تراخى بعد تدمير التنظيم المركزى ، فان الدين لم يفقد مكانه قط بين الناس العاديين .

وحين أخذت الحركة الوطنية تتبلور ، كان القساوسة البوذيون — البونجي — هم الذين حملوا رسالتها الى القرى . وبالتدريج أخذت الحركة الوطنية ترتبط مع الأحياء البوذى ، واصبح اعتناق البوذية شرطا لتولى الزعامة المحلية أو القومية . وبعد الاستقلال مباشرة ، وجدنا رئيس الوزراء — يونو — وهو نفسه راهب غير منتظم يختلف الى الدير من حين الى حين ، يعيد النظام الاجتماعى البوذى ، وينتهج مع القساوسة البوذيين نهجا أكثر صرامة ، وانتفع من القوة الكامنة فى البوذيين فى اعادة تنظيم الحياة القومية ، التى بدأتها الدولة الجديدة .

وتدل الترتيبات المحكمة التى أجريت فى رانجون لعقد مجلس عالمى للبوذية سنة ١٩٥٦ على مدى ما وصلت اليه البوذية من توحد مع الحركة القومية فى بورما ، وتقليد التوفيق قديم فى البوذية يرجع الى الفترة التى اعقبت موت بوذا مباشرة ، ولكنه لم يمارس قرونا طويلة ، وكان احياؤه فى ظل دولة عصرية حدثا كبيرا من أحداث التاريخ الدينى فى آسيا . وكان هدف هذا المجلس ، الذى حضره ممثلون لكل البلاد البوذية ، يختلف عما كان عليه فيما مضى ، حين كان يقتصر همه على تسوية المسائل العقائدية، فامتد هذه المرة الى مناقشة نظام الرهبنة البوذية ، واتخاذ الخطوات لتقوية الحياة الدينية فى البلاد البوذية .

كذلك ظهر اهتمام ملحوظ باحياء البوذية فى الهند ، وهى موطنها الأصلى . فهنا أيضا كانت العاطفة الوطنية هى التى أدت الى تقييم جديد للتقليد البوذى ، وتزايد تقبله على أنه أحد الجوانب الكبرى للحياة الهندية — فدراسة التاريخ الهندى أظهرت البوذية بمظهر اتجاه تاريخى هام فى الحياة الهندية والفكر الهندى . واكتشف عدد كبير من النصوص البوذية باللغة السنسكريتيه ، المكتوبة أصلا بالهندية ، ونقلت من الصين والتبت ، وصار من الواضح أن النفوذ الهندى فى شرق آسيا يعتمد الى حد كبير على انتشار البوذية فى هذه المناطق .

واعترافا بمكانة البوذية من الحياة الهندية شجعت حكومة الهند اقامة معاهد للدراسات البوذية فى مراكز هامة مختلفة وعملت الترتيبات اللازمة لنقل الآثار البوذية فى بريطانيا الى الهند وأقيم احتفال هندى قومى كبير بمناسبة مرور الفين وخمسمائة سنة على وفاة بوذا . وليس من الصعب تفسير هذا الاعتراف . فالهندوكية لم تعتبر البوذية في يوم من الأيام شيئا منفصلا عنها مثل الاسلام أو المسيحية ، وكان بوذا نفسه يعترف به دائما كآله هندوكى . ومع أن الناس لم يتحولوا الى البوذية على نطاق واسع اذا استثنينا التحول الجماعى لبعض المنبوذين السابقين ، فان البوذية لم يعد ينظر اليها فى الهند على أنها من المذاهب المجدفة ، بل صار ينظر اليها على أنها تقليد عظيم وقيم فى الحياة الهندية ، يجب أن يعاد أدماجه فى الثقافة القومية للهند الحديثة .

وكان احياء البوذية أقل قوة بكثير فى البلاد التى اتبعت تقليد المهايانا منه فى البلاد التى اتبعت تقليد ثيرافادا .

وطوال القرن العشرين كانت البوذية الصينية عرضة لهجوم مستمر . فقد شنت عليها الحركات المتتابعة هجوما شديدا سواء فى صورتها الشعبية كما يمارسها الفلاحون ، أو فى تفسيراتها الفلسفية مع الكنفوشية والطاويه . فمنذ بداية القرن قامت حركة لتوسيع التعليم ، فطالبت بالاستحواذ على أملاك المعابد واستخدامها للانفاق على المدارس . وفى سنة ١٩١٧ كانت حركة البعث الصينى ، وهى الموجة الجديدة ، تعارض البوذية فى كل صورها . فلقد كانت زمنية الى حد بعيد ، وعلمية فى اهتماماتها ، فنددت بالبوذية الشعبية على اعتبار أنها خرافية ، واعتبرت الفلسفة البوذية ومعها الكنفوشيه والطاوية فلسفات غير علمية وأن لها تأثيرا اجتماعيا يبعث على التخلف . وفى العشرينات ضرب الحزب الوطنى البوذية الشعبية ضربة قاصمة . بأن قرر التدمير المنظم للصور الموجودة بالمعابد ، بدعوى تنقية الدين واصلاحه . فدافع الرهبان البوذيون عن أنفسهم بأن قاموا ببعض النشاط التعليمى ، وادخال بعض الاصلاحات التعليمية . ومع أن حركات مصادرة أملاك المعابد وتدمير الصور لم تكن لتحدث الا بين الحين والحين ، وغالبا ما كانت تواجه بمعارضة من جانب الفلاحين المحليين ، فقد كان الدين البوذى يتخذ موقف الدفاع عن النفس طوال هذه السنين .

وبوصول الشيوعيين الى الحكم وجدت الشيوعية فى الصين أنها فى وضع لا بأس به نسبيا ، وأن كان الطابع الزمنى الأساسى للشيوعية لم

يكد يدع مجالا لأى صورة من صور الدين فى نهاية الأمر . ذلك أن جمهورية الصين الشعبية كانت تختص بنقمتها فى المحل الأول بعثات التبشير المسيحية التى طردت ، ونظام الأخلاقيات الكنفوشية التى نبذت . ولكن البوذية لم تكن تشكل تهديدا يذكر لأهداف النظام الشيوعى ، ويمكن قبولها كصلة بين النظام الجديد وبين ماضى الهند ، وكوسيلة لرفض النفوذ البرجوازى الأجنبى فى الأعوام الحديثة . فأصلح كثير من المعابد على نفقة الدولة باعتبارها آثارا تاريخية وانتشرت البحوث العلمية التى تتناول فجر البوذية الهندية . ويمكن أن نقول بحق أنه كان أيضا لصلة البوذية بالقومية أثر فى تجديدها لمكانتها فى منتصف القرن .

أما فى اليابان فإن البوذية لم تنخفض مطلقا الى نفس الدرك الذى وصلت اليه فى الصين ، وان كانت الشنتو قد أصبحت دين الدولة بعد أصلاح ميجى ولم يصبح الناس بعد هذا مضطرين الى أن يكونوا أعضاء فى معبد بوذا ، تحت اشراف القسيس ، الذى كان له أيضا دور الرقيب وكان عدد من الجامعات البوذية تنفق عليها أموال جمعت من مختلف المذاهب البوذية ، وكانت هذه الجامعات مراكز للدراسات البوذية ، والحفاظ على العقيدة والشعائر التقليدية .

وفى بداية القرن وصل تأثير الدراسات البوذية فى الغرب الى اليابان ، عن طريق الأساتذة اليابانيين ، الذين درسوا فى أوروبا وعادوا يشرفون على الدراسات البوذية في الجامعات القومية والبوذية . وكان تركيز هؤلاء الأساتذة ينصب على النصوص البوذية الأصلية ، وعلى العودة الى نقاء الدين الذى حجبته التعقيدات ، وتعدد الفرق البوذية بعد ذلك . غير أن هذه الحركة انما انتشرت بين العلمانيين والشباب من البوذيين ، فهى لم تلق ترحيبا من جانب القساوسة فى الجامعات البوذية . فهؤلاء تشبثوا بمصالحهم المذهبية ، وتمسكوا بأساليبهم العقائدية التقليدية ، ففصلوا من القساوسة الشبان من اخذوا بطريقة الدراسة النقدية .

ومع أن الشنتو كانت هى الديانة الرسمية ، فان الكنيسة البوذية المنظمة قد أخلصت فى تأييدها للنظام الامبراطورى ولبرنامج العسكريين فى الأعوام التى سبقت الحرب العالمية الثانية . وأثناء الحرب أصبحت جزءا من التنظيم الدعائى الرسمى . وبعد الحرب حاول الزعماء البوذيون جعل الدين مستقلا عن السياسة ، وأثناء فترة الهزيمة والاضطراب ارتد كثير من الناس الى عقيدتهم البوذية الأصلية .

واستمرت الجامعات البوذية الست تقوم بالتعليم البوذى التقليدى . كذلك كانت الدراسات البوذية توجد فى عدد من المؤسسات الأخرى وانشئت منظمات قومية لنشر الأبحاث حول الموضوعات البوذية . ويشهد تكوين اتحادات لشباب البوذيين ، ومنظمات النساء البوذيات ، بتزايد الاهتمام بهذا الأمر . ولقد أكدت البوذية اليابانية حيويتها المتجددة أمام العالم ، بأن جعلت نفسها مقرا للمؤتمر البوذى العالمى الثانى فعقد فى طوكيو سنة ١٩٥٢ .

من هذا يتضح أنه كان هناك تزايد فى قوة التقليد البوذى ، واحياء الحياة الدينية فى بلاد جنوب وجنوب شرقى آسيا ، حيث تم التوحيد بين الدين والبعث القومى . ولقد أثبت الدين حيويته وقدرته المتجددة فى الظروف غير المواتية نسبيا فى الصين واليابان وفى موطنه الأصلى بالهند ، ولم يعد فى صورة احياء دينى بل فى صورة عنصر من عناصر الثقافة الهندية المتنوعة . وكانت البوذية كغيرها من الأديان الكبرى قد اكتسبت قوة جديدة فى منتصف القرن العشرين .

تعليقات على الفصل السادس

١ ـ جاءت التعليقات على هذا الفصل عن الدين من جانبين متعارضين تمام التعارض ، وقد عيب عليه أمران : ـ

(أ) عدم ادراك الروحانية الداخلية للدين ومنحه مكانا مركزيا فى التطور الثقافى للبشر .

(ب) عدم اعتبار الدين مجرد دفاع المجتمع الرأسمالى عن نفسه . وثمة ثلاثة أساتذة ايطاليون هم ماريو بنديشولو ، وسيلفيو جولزيو ، وفنشنزو كابيلليتى يسألون «لماذا يعالج العنصر الدينى فى تاريخ البشرية» تحت العنوان العملى وهو التغييرات الاجتماعية ، بينما يجب تناول الفكر الدينى مع الفلسفة والعلم ، باعتبار انه يقدم الانق العقلى والروحى لتاريخ القرن العشرين» ويعتبرون ان الطريقة التى اتبعها المؤلفون فى كلامهم عن العلم والدين ، كانت طريقة علمية جامدة . واستاذ آخر ، الاستاذ دانيس يجد انا فى هذا الفصل نرى عرضا لحقيقة فى منتهى التعقيد مع حرص شديد على الموضوعية ، والمعلومات الوثيقة ، ومع ذلك فان الاديان الكبرى ينظر اليها من وجهة نظر غريبة الى حد ما على الموضوع اذ كان من الممكن بدون تحيز لعقيدة أو اخرى بيان مايريد كل دين من الاديان الكبرى ان يمنحه للبشر ، وبخاصة لاهل هذا العصر ووصف المثل الاخلاقية والروحية التى يدعو اليها ، والحيوية الباطنية التى تكمن فيه بدلا من ذلك نجد ان الدين يعالج اساسا من حيث علاقته بالتقدم الثقافى والاجتماعى . وهذا جانب هام ، ولكنه ليس أهم الجوانب .

«كان يمكن قول أكثر من هذا عما حققه المبدأ المسيحى ، مبدأ العدالة والبر فى زماننا ». لقد ذكر الصلابة التى أظهرها الدين الكاثوليكى فى الاستمساك برسالته الالهية فى وجه انكار العقلانيين له ، ولكن تقدم وحيوية العلوم الفلسفية واللاهوتية والانجيلية فى الكاثوليكية الحديثة ، لم تؤخذ فى الاعتبار بقدر كاف» .

ويقف المعلقون الشيوعيون موقفامخالفا لهذا تمام المخالفة . فيكتب مستر امرفز: Imre Revesz تدل الجملة الاولى على جو الفصل بأكمله ، فلقد قيل ان كلا من الاديان العالمية الكبرى فى القرن العشرين قد استعادت النشاط فى (جوهره الداخلى) ولكن لاتوجد اية اشارة للسبب الحقيقى لهذا الاحياء الدينى العظيم . انه فى الواقع محاولة يائسة للدفاع عن النفس ، من جانب المجتمع الرأسمالى (الذى حيرته وورطته بقايا المثل الاقطاعية أو لعله امتزج بها فى بعض الاماكن) لمناهضة المسيرة المظفرة للاشتراكية ، وهدفها النهائى وهو الشيوعية فلاتزال الاديان الكبرى حتى اليوم معاقل للرأسمالية التى تعكسها هذه الاديان ايديولوجيا ». فاذا بدا الآن من حين الى آخر

انها تعطف على التقدم الاجتماعى والثقافى اكثر مما كانت تفعل منذ مائة سنة او مائة وخمسين سنة ، فان هذا العطف أضعف من ان يؤثر تأثيرا ملحوظا فى الاتجاهات التى جبل عليها كل دين من الاديان « فهو اضعف على العموم من ان يقضى على الاغـراض الكامنة فى الدين والكنيسة التى لايمكن ان يكون لها مكان فى المجتمع مستقبلا» واضعفه على الخصوص من مقاومة اندفاع الاديان الكبرى والكنائس الكبرى للحصول على السلطة السياسية والاستقلال المادى والاقتصادى (اذ يمكن ان نتبين دائما طابع الاستقلال صريحا او مستترا) .

ويعلق ثلاثة من الاتحاد السوفييتى هم أ.ك. جريجوليفتش ، ا.ا بيلاييف ، ج.ف. البين ، فيشرحون الموقف الشيوعى كما يلى : ـ

«ان الشيوعيين يحاربون التعصبات الدينية بنشر المعلومات العلمية الصحيحة عن العالم والمجتمع بين الناس ؛ وعن طريق بناء مجتمع اشتراكى جديد ؛ لايسمح بالاستغلال من انسان لاخيه الانسان ، وفيه تتوفر الاحتياجات الروحية والمادية للشعب بدرجة تتزايد يوما بعد يوم» .

لمن اراد الاستزادة من العلم بالكاثوليكية الرومانية ان يقرا ماياتى : ـ

J.Y. Calvez, Eglise et société économique (Paris, 1961-63), 2 Vols.

Joseph Folliet, «World Catholicism Today» (Westminster, Md., 1961).

Joseph Nestor Moody (ed.): Church and Society; Catholic Social and Political Thought and Movements, 1789-1950 (N.Y. 1953).

Papal Encyclicals, like that of Pius XII, «On the Sacred Liturgy» (1947).

وعن الدين فى ظل الشيوعية انظر :

Cyril E. Black, «The Transformation of Russian Society (Cambridge, Mass., 1960).

Robert Pierce Casey, «Religion in Russia» (N.Y. 1946).

John S. Curtis. «The Russian Church and the Soviet State». 1917-1950 (Boston, 1953).

Constantin de Grunwald, «La vie religieuse en URSS», Paris, 1961.

Boleslaw Szczesniak, «The Russian Revolution and Religion: A Collection of Documents concerning the Suppression of Religion by the Communists», 1917-1925 (Notre Dame, Indiana, 1959).

وفيما يلى كتب جديرة بالقراءة عن اديان العالم :

Marcus Bach, «Major Religions of the World (N.Y., 1959).

C.J. Bleeker, «Anthropologie religieuse; L'Homme et sa Destinée à la lumière de l'histoire des religions». (Etudes publiées sous la direction de C.J. Bleecker, avec l'aide de l'Unesco et sous les auspices du Conseil International de la Philosophie et des Sciences Humaines (Leiden, 1955).

Johnson E. Fairchild, Basic Beliefs; the Religious Philosophies of Mankind (N.Y., 1959).

V.T.A. Ferm, "Living Schools of Religion» (Ames, Iowa, 1956).

Sir Julian Huxley (ed.), «The Humanist Frame» (N.Y., 1961).

Benson Young Landis, «World Religions : A Brief Guide to the Principal Beliefs and Teachings of the Religions of the World and to the Statistics of Organized Religion (N.Y. 1957).

Guy S. Métraux and François Crouzet, eds. Religions and the Promise of the Twentieth Century (N.Y., New American Library, Mentor Books, 1965).

Paul Ramsey, «War and the Christian Conscience (Durhum, North Carolina, 1961).

Kenneth Thompson, «Christian Ethics and the Dilemma of Foreign Policy (Durham, N.C., 1959).

H.F. Vos, «Religions in a Changing World» (Chicago, 1959).

Charles C. West, «Communist and the Theologian» (Phila., Penn., 1959).

الفصل السابع

التعليم

١ ـ مقدمة

كان لكل تيار من تيارات العصر ، سواء أكان ثقافيا أو اجتماعيا أو سياسيا أثره على التعليم • هذا ما تقضى به طبيعة التعليم ، لأن النظام التعليمى لكل مجتمع يتضمن وينقل القيم والمواقف والمعايير السائدة فى المجتمع أى ينقل مجموعة من التقاليد والمعارف ويحاول أن يهيىء الجيل الجديد لما يمكن أن يواجهه فى المستقبل • والتعليم بوصفه أداة من أدوات المحافظة والتغيير على السواء يتأثر لا محالة بالتحولات التى تطرأ على البناء الاجتماعى وبالمعارف الجديدة ، وبتغيير التكنولوجيا وتغير المواقف الاجتماعية والعقلية •

وأبرز العوامل التى كان لهـا أثر ملحوظ على التعليم فى القرن العشرين ، التغيير نفسه • ففى عالم تنتابه التغييرات على اختلاف أنواعها بسرعة مذهلة كان لابد من أن يتزايد الدور الذى يقوم به التعليم ، من حيث هو أداة لتسهيل التغيير ومواكبته ولم يستطع أن يجعل مهمته الأساسية أن يكون نظاما للمحافظة على الطرق القديمة واستمرارها • وكان هذا واضحا بشكل خاص فى المجتمعات التى تمر بمرحلة ثورة واعية ، ففيها استخدم التعليم كوسيلة متعمدة لتحقيق الأهداف الثورية ، كما حدث فى الاتحاد السوفييتى وتركيا ، والدول الجديدة التى كانت شعوبها فيما قبل خاضعة للاستعمار • ولكن العلم والتكنولوجيا كانا يعيدان صنع كل المجتمعات خلال هذه الفترة ، بينما أخذت مراكز القوى فى العالم تنتقل من مكان الى مكان وأخذت النظم الاجتماعية تتغير ، وقد أدى هذا الى اسناد أدوار جديدة لكل الناس على اختلاف أنواعهم ، لقد كان التغيير السريع العامل الأساسى فى التطور التعليمى فى كل بلد بالعالم فعلا .

وكان جوهر التغييرات ذات التأثير المباشر على التعليم هو العلم وتطبيقاته ، لأن انتشار الاتجاه العلمى أثر فى أهداف التعليم وطرقه ،

كما أن العلم زاد كثيرا من حجم المعرفة التى من واجب الأنظمة التعليمية أن تنقلها • وأصبحت التربية ذاتها ميدانا للدراسة العلمية ، وقدمت ثمرات البحوث العلمية فى البيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الانسان أسسا جديدة لطرق تربوية كثيرة ، واتسع مجال الوسائل المتاحة للمربى بدرجة كبرى بفضل الوسائل الجديدة للاتصال وصار على التربية الحديثة أن تربى أفرادا ذوى عقول متطلعة ونظرة علمية الى الحياة وعلى أساسها تستجيب للتجارب الجديدة ، والمعارف الجديدة التى لابد لها من الالتقاء معها • وكان على التربية أن تنقل الى الطلبة مقادير متزايدة من المعرفة بالعلوم الطبيعية والبحث الاجتماعى ألانثروبولوجي والأثرى والتاريخى لا من حيث هى معرفة نظرية فحسب ، بل وتنقل اليهم أيضا دراستها فيما يتعلق بتطبيقاتها المعقدة الواسعة المدى •

ويمكن على العموم أن يقال بأن التربية فى القرن العشرين قد اتسعت وأعيد تصميمها لمواجهة احتياجات المجتمع الصناعى •

فبانتشار التصنيع لم تعد هناك بقعة فى العالم بعيدة عن تأثيره ولم يعد شعب يستطيع أن يبقى على قيد الحياة بدون الأدوات المصنعة • وانسان القرن العشرين بحاجة الى نوع من التدريب يمكنه من أن ينمو مع تطور الزمن ، وأن يغير من طبيعة عمله ، وأن يجدد فى تفكيره ، ويعدل فى عاداته الخاصة بالطعام والصحة وتربية الأطفال ، وأن يفهم المواقف الاجتماعية الجديدة ويواكبها ، وأن يقيم علاقات جديدة ، وأن يستوعب تأثيرات وسائل الاتصال بالجماهير وصار لا يحصل من هذا من والديه أو معلمه « فى الصنعة » الا على أقل القليل •

ان كل البلاد من أكثرها تقدما فى الصناعة الى غيرها الآخذة بأسباب الصناعة ، بحاجة الى جمهور مزود بالمعرفة والمهارات ، والقدرة على تقبل المعارف والآراء الجديدة ، وكلها بحاجة الى أعداد متزايدة من الفنيين والخبراء والمهنيين من كل المستويات ومن كل مجالات النشاط البشرى • فليس الالمام بالقراءة والكتابة للجميع ، ولا التدرب بالتقليدى للصفوة ، ولا أى مزيج من هذين ، يستطيع أن يفى بحاجة الدولة الى المهندسين والميكانيكيين والممرضات والطيارين والمديرين وآلاف من الوظائف الأخرى التى ترتكز على المعرفة المتخصصة والمهارات ، بل ولا يستطيع أن يجعل البلاد تواكب التطورات العلمية فى هذا العصر • فالأنظمة التعليمية فى كل البلاد قد تعرضت لضغط رهيب لكى تقوم بتدريب واسع الاختلاف فى نوعه لعدد من الناس يتزايد باستمرار •

وحاجة المجتمعات الصناعية لعمال مدربين يقابلها ويعززها حاجة الدول الديمقراطية الى مواطنين متعلمين • واذ راحت الديمقراطية فى الدول الديمقراطية التقليدية تضم كل الناس ، وانتشرت المبادىء الديمقراطية الى أجزاء أخرى من العالم ، فقد صار لابد للتعليم من أن يسير فى أثرها • فالاحتياجات التعليمية للعمال ، والفلاحين ، والنساء ، والأقليات العنصرية ، وغيرها مما كان يعتبر « الطوائف الدنيا » كل هذا قد تغير مع تغير التطلعات والمراكز الاجتماعية • فلم يعد يصلح لهم ماكان يكفيهم لو أنهم ظلوا فى مكانهم التقليدى ، بل صار لابد من أن يحصلوا على ما يليق بهم كمواطنين على قدم المساواة فى مجتمع ديمقراطى •

وكان للعزة القومية الأثر الحاسم فى تحديد الاحتياجات التعليمية للشعوب المتخلفة ، ففى القرن العشرين صار التعليم يعتبر حقا طبيعيا لجميع الناس ، أكبر قدر من التعليم يستطيعون استيعابه وتستطيع الدولة أن تقدمه •

وعلى الدولة تقع المسئولية الأساسية فى التوسع المستمر فى حجم ـ ومدى ـ التعليم الذى يراد ايصاله لعدد متزايد من الناس لفترات أطول وعلى نحو أكثر تنوعا ـ هذه المسئولية تقع على الدولة ، بسبب التوسع فى وظائفها وازدياد سلطانها فمن المسئوليات الأولى لدولة الرفاهية تقديم التعليم لمواطنيها • وفضلا عن ذلك فالتعليم احدى الوسائل المباشرة جدا التى تحقق بها الدولة سلطاتها المتزايدة ، وأهدافها القومية المركزة بحيث تتمكن من تحقيق غاياتها • وهذا أوضح ما يكون فى البلاد التى تمر بمرحلة ثورة ، أو تحاول احراز تقدم اقتصادى سريع • ولكن للتعليم صلة وثيقة بأهداف الدولة وأغراضها فى البلاد الأخرى أيضا ، سواء فى ذلك الدول ذات النظم التعليمية المركزية مثل فرنسا ، أو الدول ذات النظم التعليمية المحلية مثل الولايات المتحدة •

وكان لهذه العوامل تأثير أدى الى ظهور اتجاهات مشتركة فى النظم التعليمية فى العالم كله ، على اختلاف الماضى الثقافى ومستوى النمو الاقتصادى والنظم السياسية والبناء الطبقى • لقد انتشر التعليم بين الجماهير بما فى ذلك النساء ، وكان هناك اتجاه عام لاطالة مدة الدراسة المتاحة لكل طفل حتى يتم التعليم الثانوى بل والتعليم العالى فى صورة من صوره ، وأصبح هذا فى بلاد كثيرة متاحا لقطاعات عريضة فى المجتمع • على أن نفقات التعليم ارتفعت باستمرار بتزايد سنوات الدراسة ، وارتفعت مرتبات المدرسين ، وزاد حجم الانفاق على المبانى والمعامل والمكتبات وغير

ذلك من المهمات وظهر اتجاه عالمى لرفع مستوى مهنة التدريس اجتماعيا الى مصاف المهن الأخرى ، وامداد المدرس بتدريب خاص فى الطرق التربوية فضلا عن المعلومات الخاصة بالمادة التى يدرسها ، وأن يدرس العملية التربوية دراسة منهجية حتى تتهيأ للمربى معرفة قائمة على العلم ، كجزء من أعداده المهنى ٠

وتمشياً مع احتياجات المجتمع الصناعى ، وأهداف الدولة ، والنظريات الجديدة فى عملية التعليم ، ظهر اتجاه لجعل محتوى التعليم وطرقه أقرب الى تجارب الحياة ، واعطاء النشاط المدرسى طابعا أقرب الى الروح العملية ٠ فأخذت التربية تعنى بالتنمية للطفل وتوسيع مدى هذه التنمية وتدخل فى اعتبارها كل جوانب النمو وتنظر الى العملية التعليمية فى المقام الأول لا على أنها حشو الأذهان بمعلومات تلقى القاء بل على أنها اعداد الفرد كمواطن ، وقدرته على أن يؤدى وظيفة فى المجتمع الذى هو جزء منه ٠

وفى كل مكان كان هناك اتجاه الى مد التربية بما يجاوز تعليم الطفل فى الفصول ، بحيث تشمل نشاطات خارج المنهج الدراسى ، يمارسها الطفل خلال أعوام تعليمه بالمدرسة وامتداد العملية التربوية الى ما يجاوز هذه الأعوام من حياته المقبلة ٠ فأصبح تزويد الشباب والبالغين بمزيد من التعليم جزءا من البرنامج التربوى لكل بلاد العالم تقريبا ، سواء أكان ذلك فى صورة التعليم الأساسى وتعليم العمال ، أو تعليم الكبار ، أو برامج الخدمة العامة فى الجامعات ، أو دروس المراسلة والتدريب واعادة التدريب فى موقع العمل ٠

ولقد أدت ديمقراطية التعليم الى تضييق المسافة التقليدية التى كانت تفصل بين أهل المعرفة وجماهير الشعب الجاهلة ، وفتحت الباب على نطاق واسع لتحركات اجتماعية رأسية ٠ وبذلك أحيت آمال الناس فى تغير الفرد والتغير الاجتماعى وأبقت على هذه الآمال ٠ كذلك أدى انتشار التعليم العام الى تزايد عدد المستمتعين بالآداب والفنون ووسائل الاتصال بالجماهير ، وبذا تأثر مستوى ونوعية التعبير الأدبى والفنى ٠ فبينما هى تعطى وسائل ترفية للمواطنين المتعلمين ، فهى أيضا تقدم طريقا للتوجيه العقلى للشعوب فى الدول التى تحكم حكما مركزيا ٠

ولقد أخذ التعليم خلال هذه السنوات فى ايجاد عدد كبير من الناس لديهم معارف كثيرة ولكنها مبعثرة وغير منظمة ، وغير مستمدة من تجاربهم المباشرة ، ونتيجة لذلك صارت المجتمعات تتكون من عدد ضخم من أنصاف المتعلمين بدلا من عدد صغير من الصفوة المتفوقة فى العلم ،

وشعب درب عن طريق الخبرة أو عن طريق الممارسة والقدوة لأن يقوم بأعمال مادية فى الحياة اليومية ٠

هذه الاتجاهات العالمية كان لها آثار مضادة ، تركت بغير حل عددا كبيرا من القضايا النظرية التربوية وتطبيقاتها ٠ والواقع أنه فى كل قطر من أقطار العالم تقريبا فى منتصف القرن كان التعليم قضية مركزية عامة وأصبحت أهداف التربية وطرقها ونفقات التعليم موضوعات لمناقشات ودراسات مركزة وخلافات شديدة ، حين أخذت الأمم والمجتمعات تبحث عن طريق لتمكين أجيالها الصاعدة من العيش فى العالم الحديث ٠

ومع أن الاتجاه كان الى الاعتراف بالنظام التعليمى من حيث هو وسيلة تستخدم لتحقيق التكيف بما يلائم التغيير ، أو تنشيط التغيير ، فقد ظهرت فى كثير من البلاد عناصر تختلف فى قوتها تقاوم هذا الاتجاه ، وتحاول التركيز على الوظيفة المحافظة للتعليم ، باعتباره الحارس على القيم والمعارف التقليدية ٠ وبالنظر الى سرعة التغيير التكنولوجى والاجتماعى خلال نصف هذا القرن فقد يكون مما يلفت النظر أيضا أن النظم التعليمية فى أوروبا والأمريكتين وآسيا قد تغيرت تغيرا طفيفا جدا فى بنائها ومحتواها وطريقتها ، وان بدا انها تغيرت تغيرا كبيرا ٠

وكانت هناك اتجاهات مضادة أيضا للدعوة الى ادماج المواد العلمية والموقف العلمى ، ومطالبة النظام التعليمى بأن يحقق احتياجات المجتمع الصناعى ٠ وعلى الخصوص لقى الاتجاه الى ادخال المواد الحرفية فى التعليم العام مقاومة شديدة من جانب من أصروا على أن هذا يخضع النمو الروحى والخلقى والعقلى للطفل لأهداف مادية ٠ وكانت هذه المقاومة قوية بنوع خاص فى المجتمعات التى لا تولى العمل من القيمة ما توليه للفكر الفلسفى وكان المربون فى أمريكا اللاتينية مولعين بأن يعرضوا التباين بين مجتمعاتهم ومجتمعات أمريكا الشمالية على أساس الاختلاف فى القيم ومن ثم فهم زاهدون فى ادخال المحتوى العملى أو الطرق العملية الى مدارسهم ٠

بل ولم يكن الاتجاه الى صبغ التعليم بالصبغة الديمقراطية بقدر متساو من القوة فى كل مكان ، ولم يكن السير فى هذا الاتجاه يمضى بلا مقاومة ٠ فحيث بقيت العلاقات والمواقف الاقطاعية أو شبه الاقطاعية ، كما حدث فى اسبانيا وأجزاء من أمريكا اللاتينية والشرق الأوسط ، كان تعليم الشعب كله على أحسن الفروض أمرا لا تكترث به العناصر المسيطرة على المجتمع ، أما فى أسوأ الحالات فكان يلقى معارضة صريحة ٠ وكان هذا من أسباب بقاء معدلات الأمية مرتفعة جدا فى كثير من بلاد أمريكا اللاتينية

حتى منتصف القرن العشرين • وفى البلاد الاسلامية المحافظة كان الموقف السلبى نحو تعليم الشعب قويا بشكل خاص بالنسبة للنساء • وكان منع تعليم المرأة تقريبا خارج المنزل والذى استمر فى العربيـة السعودية فى الخمسينات مثالا صارخا على هذا الاتجاه المضـاد • كذلك فان الدول الاستعمارية خلال معظم هذه الفترة كانت تعتبر تعليم الشعب أمرا من الأمور التى لا تأبه لها أو تعارضهـا ، وان كانت حركة التعليم العـام قد قامت فى بعض المستعمرات الباقية بعد الحرب العـالمية الثانية ، على أساس الجهود الاختيارية السابقة التى نبتت أصلا فى البلاد الأم •

كذلك ظهرت معارضة لاتجاه قيام الدولة بمسئولية التعليم • وجاءت أشد المعارضات فاعلية وتنظيما من الهيئات الدينية التى كانت تدعى أنها صاحبة الحق فى تعليم الشباب ، وأنها المسئولة عنه • كانت أقوى هـذه الهيئات الكنيسة الكاثوليكية الرومانية • ولكن كانت هناك بعض التحديات للتعليم الزمنى من فرق مسيحية أخرى وبوذية واسلامية وأتت معارضة أقل فى رسميتها لاحتكار الدولة للتعليم فى المحل الأول ، أتت من فرق ومعلمين يرفضون فى المحل الأول فكرة تغليب مصالح المجتمع على مصالح الفرد ويخشون مما تصنعه الدول العاتية بالنظام التعليمى اذا انتهى الأمر باستيلائها العام عليه •

وأدت الاتجاهات التعليمية المشتركة الى مشكلات متشابهة فى كل أنحاء العالم ، ظلت بغير حل خلال هذه السنوات • كانت أكبر المشاكل العملية هى نفقات التعليم ، وصعوبة ايجاد وتدريب المدرسـين بسرعة تتناسب مع سرعة تزايد الطلب عليهم • وكانت هذه المشكلات أقل الحاحا حين كان التوسع بطيئا نسبيا والموارد موفورة وكان يوجد رصيد كبير من المتعلمين الصالحين للتدريس ولكن فى الأعوام التى تلت الحرب العالميـة الثانية حدثت أزمات فى كثير من النظم التعليمية نتيجة للضغوط الراجعة الى تزايد معدلات المواليد والتوسع فى تعليم الشعب فى المستوى الثانوى• وثمة مشـكلة حقة لم تنج منها حتى أغنى البلاد وأكثرها تقـدما من الناحية الاقتصادية ، هى التنازع على الأولوية فى الحصول على الاعتمادات الحكومية ، وتنوع ميادين العمل المتاحة وهذا قد زاد من صعوبة مشـكلة تمويل المدارس وامدادها بالمدرسين • وعلى النقيض من هذا نجد أن هذه المشكلات قد بلغت درجة الحدة والحرج فى الدول الجديدة التى اضطرتهـا ظروف انشائهـا وطبيعة العصر الى أن تعد بسرعة كبيرة جمهورا يعرف القراءة والكتابة ، وعددا من المتعلمين والمدربين يكفى لتقدم المجتمع •

ونتيجة للتوسع في التعليم ، والاتجاه الى تعميمه فى مستويات أعلى فأعلى ، ظهرت مشكلات تربوية تتمثل فى كيفية الجمع بين الكم والكيف : كيف تحتفظ بمستوى رفيع من التعليم المركز للمهنيين والمثقفين الذين كانوا من قبل لا يتعلم غيرهم فوق المستوى الابتدائى بينما نحن فى الوقت نفسه نوسع الفرص التعليمية بحيث نتيحها لأعداد كبيرة من الطلاب الذين يقلون عن هؤلاء فى الاهتمامات الأكاديمية ، والطاقة الفعلية ، ويختلفون عنهم فى الاحتياجات التعليمية ، كانت هناك شكوى واسعة النطاق من أن المستويات قد هبطت ، وان كان لا يشك غير قليل من الناس فى أن أفضل الدارسين الآن لا يقلون جودة عن المجموعة المحددة التى لم يكن يتعلم غيرها من قبل ٠

وحاول رجال التعليم فى كل مكان أن يحلوا مشكلة الجمع البصير بين عمليتى التعليم الشعبى والتعليم المركز ، سواء من وجهة نظر الفاعلية التعليمية ، واتاحة فرص التعليم ٠ وهذه المشكلة شأنها شأن المشكلات العملية الخاصة بتكاليف التعليم وايجاد المعلمين كانت حادة بوجه خاص فى البلاد التى اضطرت الى استخدام موارد محدودة لتحل فى وقت واحد مشكلة الأمية بين العامة وتدرب متخصصين مؤهلين أعلى تأهيل ٠ وفى هذه البلاد زادت هذه المسألة تعقيدا بفعل عامل اللغة ٠ لأن اللغة الدارجة التى كانت تستخدم فى تعليم الشعب تعجز عن ايصال من تعلمها الى العلوم المتقدمة ، فكان لابد من أن تدرس المستويات العليا من المعرفة بلغة أجنبية ٠

وفضلا عن المشكلة التربوية وهى كيف نوازن بين تعليم الجمهور وبين اعداد الصفوة المتعلمة ، نجد ثان مشكلة ثقافية قد نجمت عن وجود أنصاف المتعلمين ٠ فالمثقفون لا يستطيعون بعد اليوم أن يحتكروا ميادين الفكر والتعبير ، لأنهم يجدون أنفسهم فى مواجهة قوم لا يستطيعون الاستمرار فى تجاهلهم ولكنهم لا ينتمون الى عالمهم القديم ٠ ترى هل هذا يبعث على البهجة أم يبعث على الأسى ؟ هذا أمر يعتمد على وجهة النظر ، لقد كتب الأديب الاسبانى Orteg y Gasset وهو يمثل التقليد الثقافى الارستقراطى الذى لم يبلغ فى مكان آخر ما بلغه من قوة فى اسبانيا ، كتب يندد بما دعاه ثورة الجماهير (١٩٣٢) ووصفها بأنها تؤدى الى الهبوط بالمستوى ، والتساوى فى الدرك الأسفل ٠ اذ أنها بدل الفكر العقلى المستقل تتجه الى اتباع النزعات العاطفية والقبول بلا تمحيص لأفكار الآخرين ولكنها من وجهة نظر أخرى تعد تساويا فى العلو ، لأنها أوجدت قاعدة جماهيرية جديدة لم تظهر امكانياتها الكاملة بعد ٠

ولقد أخذت الاتجاهات المشتركة والمشكلات المتشابهة فى التعليم أشكالا متميزة فى النظم التعليمية المختلفة ، واختلفت أهمية هذه النظم بدورها خلال القرن العشرين تبعا لنفوذها وأعداد الناس الذين تأثروا بها. فلقد اتبع النظامان البريطانى والفرنسى على نطاق واسع خارج بريطانيا وفرنسا فانتشر النموذج البريطانى فى التعليم العام فى دول الكومنولث البريطانى والمستعمرات البريطانية وصار امتحان المتركيوليشن الذى تعقده جامعة لندن يستخدم على نطاق واسع كامتحان لدخول الجامعات ، واتمام الدراسة الثانوية • أما نظام التعليم الفرنسى فلم يقتصر تطبيقه على المقيمين الفرنسيين ، والمواطنين (المفرنسين) فى المناطق التى وقعت تحت الحكم الفرنسى ، بل صار نموذجا يحتذى فى كثير من النظم التعليمية فى الشرق الأوسط • وأما النظام الألمانى فكان له أثر قوى فى أوروبا الشرقية • وخلال الأعوام الأولى من هذا القرن اجتذبت النظم التعليمية الألمانية وبخاصة فى ميادين العلم والتكنولوجيا ، كثيرا من الطلاب من الخارج وكانت نموذجا احتذته المدارس التكنولوجية فى بلاد عديدة • وكان نظام التعليم فى الولايات المتحدة يتضمن ويؤكد كثيرا من الاتجاهات التى عمت خلال النصف الأول من القرن العشرين وكان لنفوذ بعض أقطاب التربية والمؤسسات البيداجوجية أثر واضح فى كثير من أنحاء العالم •

وفى منتصف القرن كان النظام التعليمى فى الاتحاد السوفييتى يحظى باهتمام واسع النطاق لأن الاتحاد السوفييتى كان المثل البارز الذى جعل من برنامجه التعليمى ، القوى بامكانياته ، احدى الدعائم التى قامت عليها نهضة الوطن • اذ سرعان ما قضى على أمية الشعب ، وعلم أعدادا ضخمة جدا فى كل المستويات الفنية والعلمية وكان للطرق التعليمية التى اتبعها الاتحاد السوفييتى أهمية خاصة بالنسبة للأقطار التى لاتزال تواجه مشكلة مزدوجة هى انتشار الأمية بين الناس والحاجة الى التقدم الاقتصادى السريع • كذلك يوجد اهتمام عام بالنظم التى نشأت فى الهند وجمهورية الصين الشعبية ، لأن هذين القطرين معا يضمان ثلث سكان العالم تقريبا ، ولا شك أن الوسائل المتميزة التى واجها بها مشكلات تحضير سكانهما أمر يهم باقى أنحاء العالم •

لن نستطيع فيما يلى من صفحات أن نتتبع بالتفصيل تطورات النظم التعليمية فى هذين البلدين أو غيرها من النظم التعليمية الكثيرة الأخرى • لهذا فان التجربة التعليمية لبعض الأقطار انما سترد على سبيل التمثيل أو التوضيح للتطورات العامة التى تشترك فيها بلاد كثيرة •

٢ – التعليم فى بداية القرن العشرين

كان الهيكل الأساسى للتعليم فى القرن العشرين موجودا بالفعل فى بداية القرن ، ولذلك يجب أن نستعرضه حتى نستطيع فهم ما طرأ من تغييرات خلال هذه السنوات ٠

١ – المدى :

فى بداية القرن كانت فكرة التعليم الابتدائى الاجبارى المجانى العام مقبولة على العموم باعتبارها هدفا من الأهداف فى الدول الغربية ، وأصبحت اغلبية السكان فى شمال أوروبا وغربها وأمريكا الشمالية ونيوزيلنده واستراليا تعرف القراءة والكتابة ٠ وكان محو الأمية من قبل هدفا من الأهداف المعترف بها التى يسعى الى تحقيقها فى اليابان ، والى درجة أقل فى أوروبا الشرقية والجنوبية ٠ ولكن كانت تقوم عقبات عملية كثيرة فى طريق تحقيق هذا الهدف حتى فى البلاد التى كانت تقبل المبدأ قبولا كاملا ٠

ولقد نجم الاهتمام بتعميم التعليم من حاجة الصناعة الى مجتمع يعرف القراءة والكتابة ، كما نجم من اقتناع الدول المؤمنة بالمبادىء الديمقراطية والحكم التمثيلى بأن وجود مواطنين متعلمين أمر ضرورى لفاعلية النظام الديمقراطى ونجاحه ٠ وفى البلاد التى تسودها البروتستنتية ، أدت الحاجة الى تمكين الناس من قراءة الانجيل أو النصوص الدينية ، الى انشاء مدارس للشعب قبل أن تظهر حاجة المجتمعات الصناعية الى مثل هذه المدارس ٠ وكان التعليم الشعبى يضاف عموما الى نظام أقدم منه ، يستهدف تخريج صفوة متعلمة كان يتكون منها أصحاب المهن الحرة ورجال الكنيسة ، والعلماء والمديرون ، والناس من ذوى الأذواق الرفيعة ٠

وكانت نظم التعليم التى نشأت فى بداية القرن فى الأمم الغربية هى الهيكل التعليمى للأمة ، وأخذت تؤثر فى أجزاء أخرى من العالم عن طريق الاستعمار والجهود التبشيرية والمؤثرات الثقافية ٠ ولقد سارت نظم التعليم فى بريطانيا العظمى وفرنسا والمانيا على أسس متشابهة وأن كانت متميزة ، بينما كانت النظم التعليمية فى الولايات المتحدة تختلف فى بنائها الأساسى ، أما المؤسسات التعليمية التى تتولى الانفاق عليها هيئات تنتمى الى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فقد لاءمت بين طرقها ووجهة نظرها الخاصة وبين شتى الظروف المحلية ٠

ففى بريطانيا والقارة الأوروبية ، كان تعليم الجماهير وتعليم الصفوة لكل منهما تنظيم منفصل واتجاه خاص فى سيره • فالتعليم الابتدائى تنفق عليه الدولة عادة ، وتبلغ مدته ست سنوات فى العادة وفى بعض البلاد ، وبخاصة فى ألمانيا وهولنده وروسيا كان فى امكان الطلبة الذين أتموا الدراسة الابتدائية أن يتلقوا تعليما اضافيا ، تكنولوجيا أو تجاريا ، فى بعض المدارس • وكان التعليم الثانوى يتقاضى مصروفات فى العادة ، ويؤدى الى الجامعة •

ويقوم النظامان على الفروق الطبقيــة ، ويؤديان الى استمرارها ، فبينما التعليم الابتدائى متاح لجميع السكان ، وهو عادة اجبارى وبالمجان ، كان التعليم الثانوى متاحا فى معظم الأحوال لمن يستطيع أن يدفع المصروفات المدرسية • وتقرير ما اذا كان الطفل سيلتحق بالدراســة الثانوية أم لا كان يتقرر عادة فى سن العاشرة أو الحادية عشرة بل قبل ذلك أحيانا • وكان التعليم الجامعى يتمتع به فى الأغلب من تخرجوا فى مدارس تتقاضى مصروفات ، أحيانا مدارس حرة وبخاصة فى حالة من يلتحقون بالجامعات البريطانية القديمة • ولكن بعض الطلبة القــلائل استطاعوا أن يلتحقوا بالتعليم العالى فى كل هذه النظم التعليمية ؛ ولقد كان بعض من صاروا فيما بعد زعماء الثورة الاجتماعية ممن سبق لهم الحصول على هذه الفرصة •

وعلى النقيض من النظم التعليمية فى أوروبا ، كان النظام الأمريكى بنيانا واحدا مستمرا من التعليم المجانى فى المدارس الابتدائية والثانوية والجامعات • فلقد كانت الولايات المتحدة تخلو من الطبقة المثقفــة أو من الارستقراطية الأوروبية ، وكان بها تقليد بروتستنتى قوى ومجتمــع على الحدود ، فاعتمدت البلاد اعتمادا كبيرا على هذا النظام المفتوح للتعليم العام لتحقيق أهدافها فى الحــكم الجمهورى والتقـــدم القومى ، اتاحة الفرص للأفراد ، وليكون بوتقة ينصهر فيها أبناء المهاجرين الذين أتوا من بلاد مختلفة • وكان المدى الذى يصل اليه الفرد فى التعليم يعتمد جزئيا على قدرته المــالية على أن يبقى بلا أجر ويتلقى عونا من أسرته خلال أعوام الدراسة الثانوية والعالية ، ولــكن الطلبة الطموحين كان ينتظر منهم أن يشقوا طريقهم فى المدرسة والكلية ويكسبوا المــال من أداء أى عمل مهما يكن وضيعا •

وكانت المدارس الخاصة والجامعات الخاصة التى تتقــاضى المصروفات توجد جنبا الى جنب مع المؤسسات التى تنفق عليها الدولة ، وتتبع مكانة

مرموقة ، وطلبتها اما من ذوى الدخول المالية أو ذوى الكفايات التى تكفل الحصول على المنح الدراسية • أما الأطفال فى المناطق الريفية فقد كان الالتحاق بالمدارس فيما يتعلق بهم محدود النطاق ، وكانت فرصتهم فى الالتحاق بها أضيق من أطفال المدن وفى الولايات الجنوبية كان أبناء الزنوج يتعلمون فى مدارس منفصلة ، وهى فى العادة فى مستواها ، ولكن مبدأ التعليم العام الذى هيأته الديمقراطية للجميع قد اتخذ نبراسا للتطور التعليمى فى الولايات المتحدة • أما دول أمريكا اللاتينية وقد سارت على النظام الأوروبى التقليدى وهو اعداد صفوة من المثقفين ، قد بدأت دول قليلة ـ أهمها الأرجنتين وشيلى ـ تضيف مفهوم التعليم العام الى هذا النظام التقليدى •

وفى بداية القرن كان قد تم الاعتراف بتعليم الكبار جزءا من النظم التعليمية فى الدول الغربية شأنه فى ذلك شأن تعليم الأطفال ، فالمعاهد الميكانيكية كانت قد نشأت فى بلاد كثيرة نتيجة لانتشار حركة التصنيع فى منتصف القرن التاسع عشر وقد فقدت هذه المعاهد كثيرا من عناية المسئولين ، ولكن حركات تعليم العمال ، الوثيقة الاتصال باتحادات العمال الناشئة قد بدأت تتبلور فان انشاء البرامج التعليمية غير النظامية من كل نوع يكشف عن رغبة واسعة الانتشار بين الناس فى متابعة التعليم وهم راشدون ، عن طريق مدارس المراسلة ، وفصول الخدمة العامة للجامعات ، وأشكال أخرى من التعليم الشعبى مثل اجتماعات المعسكرات الصيفية وجولات المحاضرات وحلقات القراءة والعدد المتزايد من المكتبات العامة التى تستهدف القارىء العادى وليس الدارس • وفى الولايات المتحدة كانت أعداد كبيرة من المهاجرين تتمثل فيهم المشكلة المزدوجة الأمية والجهل باللغة المحلية والثقافة المحلية فأنشئت فى المدن الكبرى مدارس ليلية لهم •

وفى بداية القرن كانت أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية مجالا للمبادىء التربوية والتجارب التعليمية وفى غالب الأحيان كانت هيئات التدريس المتغلغلة فى أجزاء أخرى من العالم تلعب هذا الدور ففى اليابان سار التعليم الابتدائى العام على النظام الغربى أولا ثم على النموذج الفرنسى ثم الألمانى بعد تعديله بما يلائم الأهداف والثقافة والمعايير اليابانية وقد استهدف هذا التعليم الابتدائى أن يقدم للأطفال مبادىء التربية الأخلاقية والتعليم ليجعل منهم أعضاء صالحين فى المجتمع بالاضافة الى معلومات عامة

ومهارات مما يلزم فى الحياة العملية (*) • وكان عدد محدود من المدارس المتوسطة والمدارس الثانوية للبنين يؤدى الى الجامعة •

وفى المناطق التى تسودها الأمية فى الشرق الأوسط وآسيا وأفريقيا رأينا المدارس التبشيرية الثابتة الأركان وبعض المؤسسات التى أنشأتها الادارات الاستعمارية تقدم تعليما غربى الطراز لصفوة غريبة الطابع يتزايد عددها • فالدول الاستعمارية فى الأغلب كانت تقدم التعليم الذى تحتاج اليه فى ادارة مستعمراتها . وكان النشاط التعليمى البريطانى أوسع ما يكون فى الهند ، حيث كان للحكومة بعض المدارس الابتدائيـــة والثانوية • وكانت تدفع المعونات لمدارس أخرى من مدارس الارساليات التبشيرية أو المدارس الخاصة • وقد تجاوزت هذه المدارس ــ الى حد ما ــ وظيفتها الرئيسية وهى الاعداد للوظائف المدنية والتدريب على العمليات الحكومية التكنولوجية المختلفة ، مثل انشاء الخطوط الحديدية وشبكات الرى والتدريب على أعمال الدرجات الدنيا فى المنشآت الصناعية فى الهند وبرما القريبة منها • وفى الهند الصينية وشمال أفريقيا لقنت الثقافة الفرنسية لقطاع من السكان ، وكان هذا فى معظمه عن طريق المـدارس التبشيرية الكاثوليكية ، وكانت الادارة الهولندية لأندونيسيا كلها تقريبا فى أيدى أوروبيين • وكانت تعتمد على نظام تعليمى محدود مخصـص أساسا للمقمين الأوروبيين والصينيين والهنود الأوروبيين من أبناء الطبقات الوسطى وبعض أفراد الطبقة الأرستقراطية المحلية •

وكان التعليم عن طريق البعثـــات التبشيرية التى كان معظمها من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة واسع الانتشار فى الصـين ، وبين الشعوب الخاضعة للامبراطورية العثمانية • وقد أدى فى كوريا الى تعديل وضع النساء ، وادخال الجديد من المعارف والأفكار الاجتماعية • وكان النفوذ الثقافى الفرنسى واضحا فى دوائر التعليم العالى فى ايران وسوريا• بينما كانت ثقافة صفوة المتعلمين فى مصر وتركيا فرنسية أو بريطانيـة والمـانية وكان التعليم فىالمدارس التبشيرية أضيق نطاقا بكثير بينالشعوب الأمية فى افريقيا مما كان عليه فى آسيا ، وقد أخذ يعدل فى أفكار بعض أفراد القبائل الافريقية ، ويوجد صلة بينهم وبين العالم الخارجى ، غير أن التعليم فى المدارس التبشيرية والتعليم الاستعمارى فى بداية القـــرن لم يكونا يمثلان التعليم الشعبى كما كان يمثله التعليم الابتدائى فى أوروبا وأمريكا • كذلك لم تكن هناك نظم تعليمية وطنية واسـعة الانتشار فى

(*) Imperial Ordinance No. 215, relating to elementary schools, 1890.

هذه البلاد ، فثمة تعليم ابتدائى تقليدى كان يقدمه الرهبان البوذيون والمؤسسات الدينية والخيرية الهندوكية . وكانت مدارس تحفيظ القرآن فى البلاد الاسلامية تقدم نوعا محدودا جدا من التعليم للصبية ، يكاد ينحصر فى استظهار القرآن ، مع بعض الشروح التى قد يقدمها «سيدنا» . وبالنسبة للباقين كان يجرى تدريب عنيف لاعداد محــدودة من الفقهاء والرهبان والقساوسة فى العلوم الكنفوشية أو البوذية أو الهندوكية أو الاسلامية . فقد كان التبحر فى العلم والتفانى فيه هو الأمر السائد فى التعليم ، اذا استثنينا التدريب الذى يقدم لصغار الصناع فى الورشة وللاطفال فى المنزل وكانت أجهزة اعداد خاصة المتعلمين تقدم مجمـوعة ذات نفوذ فى المجتمع . وكان النظام الصينى بما فيه من تعليم كلاسيكى هو أبرز هذه النظم ، اذ كان يعد الافراد لتولى المناصب المدنية والعسكرية ويختارهم عن طريق امتحانهم فى المواد الكلاسيكية . وكان باب الامتحان مفتوحا أمام أى رجل يستطيع تحصيل هذه المعارف . وفى بداية القرن ألغى هذا الامتحان ، وأنشئت جامعة بكين سنة ١٨٩٨ على الاسس الغربية . وكان الطلبة يعودون من دراستهم فى اليــابان والولايات المتحدة وقــد تشبعوا بالمفاهيم التربوية الغربية

٢ ـ الرعاية والتمويل :

كان مبدأ مسئولية الدولة عن تقــديم التعليم الاساسى على الأقل مقبولا بوجه عام فى البلاد الغربية فى أثناء القرن التاسع عشر . ولكن نسبة كبيرة من المدارس ظلت تحت الرعاية الدينية . وفى أوروبا كانت الواجبات التعليمية تتم فى معظمها عن طريق المدارس الاعترافية ، كمـا كان الشأن فى البـلاد الاســكندنافية ذات الكنيسة المقررة حيث كانت مدارس الدولة اعترافية أو فى ألمانيــا حيث كانت أغلبية مفتشى المدارس الحكومية من رجال الكنيسة . واحتفظت بريطانيا والاراضى الواطئة بنظام مماثل من المدارس الحــكومية والمدارس الدينية التى تتلقى معونة من الدولة . وفى الامبراطورية النمساوية المجرية كانت الدولة تتولى الانفاق على المدارس على اختلاف أنواعها ، كمــا تنفق على المدارس التى تختص بقطاعات بعينها من المجتمع ، وتستخدم فى تعاليمها لغات أجنبية .

ولم يحتفظ غير فرنسا والبلاد الاوروبية بنظام التعليم الذى تتحمل الدولة كامل نفقاته والاشراف عليه وذلك بعد صدور القوانين الخــاصة بطبع التعليم بالطابع الزمنى سنة ١٨٨٢ ، ولقد أدى الغاء الفرق الدينية سنة ١٩٠٥ الى خفض كبير فى عــدد المدارس الاختيــارية ذات التعليم

الكاثوليكى ، التى تؤدى عملها مستقلة عن الدولة • وفى الولايات المتحدة كان المبدأ الدستورى القاضى بفصل الكنيسة عن الدولة هو الاساس للنظام التعليمى العام ، الذى تتحمل الدولة نفقاته كاملة كما تشرف عليه اشرافا كاملا ، ولكن سمح بقيام مدارس خاصة وعدد كبـــير من مدارس الفرق الدينية •

ولم تكن الدولة تنفق على هــذه المدارس وفى المستعمرات باستثناء الهند وأندونيسيا الى حد ما ، اذ كان التعليم أساسا فى يد مدارس تحت ادارة دينية تعينها الدولة أو لا تعينها • وتمشــيا مع دعــوى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية بأن تعليم رعاياها هو مسئولية الكنيسة ، وأن من واجب الآباء الكاثوليك أن يرسلوا أبناءهم الى مدارس الكنيسة ، وجدت مدارس كاثوليكية فى كل البلاد التى يوجد بهـــا عدد كبـير من السكان الكاثوليك • وفى شــبه جزيرة أيبريا وأمريكا اللاتينية ، حيث غالبية السكان العظمى من الكاثوليك ولم تمارس الدولة الا استقلالا ضئيلا فى شئون التعليم ، كانت المدارس الكاثوليكية عصـب النظام التعليمى كله أو معظمه ، وفى البلاد الاخرى ازدهرت هذه المدارس بمعونة الدولة أو بغير معونتها ، وكان هذا الازدهار يتناسب مع حجم السكان الكاثوليك وقوة الاهتمام السائد بالتعليم • ولقد صممت المدارس الكاثوليكية التى يقوم عليها اليسوعيون وغيرهم من الفرق الدينية ، بحيث تقدم التعليم ممزوجا بالعقيدة الدينية ، ووجهة نظر دينية ، ولكنها كانت تتبع النماذج التعليمية المحلية فيما يتعلق بالمحتوى الزمنى للتعليم • ومع أن فرقا بروتسننتية عديدة غيرها كانت تمارس التعليم ، وبخاصة فى المستويات العليا ، كما تشهد بذلك الكليات التابعة للفرق الكثيرة فى الولايات المتحدة الامريكية، فانها قلما حاولت أن تلحق بها كل أتبـاع المذهب ، الا حيث تكون هذه المدارس فى الواقع هى مدارس الدولة •

٣ ـ المدرسون :

لامداد العدد الكبير من المدارس بالعـــدد اللازم بالمدرسين اللازمين للتعليم الابتدائى العام ، نظم تدريب المعلمين على نحـو منهجى فى أوروبا الغربية • وكان كل من النظم فى شـــمال أوروبا وغربها يعد مجموعتين متميزتين من المدرسين ، مجموعة للتعليم الابتدائى ومجموعة الثانوى • وفى الولايات المتحدة أيضا بالرغم منعدم وجود النموذج المزدوج للتلاميذ، فقد كان مدرسو المدارس الابتـــدائية يدربون فى مدارس المعلمين التى أقيمت على غرار معـــاهد المعلمين للمدارس الابتدائية فى أوروبا ، بينما

يكون مدرسو المدارس الثانوية من خريجي الجامعـــات كما هى الحال فى أوروبا ٠

٤ ـ محتوى التعليم وطريقته :

فى بداية القرن كانت أهداف التعليم ـ ومن ثم محتواه ـ فى عدة أنظمة بعيدة عن أن تتماثل ، ولكنها كانت تشترك فى بعض الاتجاهات ٠ ففى كل الانظمة الاوروبية كان هـــدف التعليم الابتـــدائى تعليم مبادىء الكتابة والقراءة والحساب ، التى صـــارت ضرورية لمجتمع يزداد انطباعا بالطابع الحضرى ، وامداد التلاميذ بالافكار والمهارات التى يرى ضرورتها منظمو التعليم فى كل قطر ٠ وكان التعليم الثانوى والعـــالى على العموم يتناولان مجموعة تقليدية من العلوم الكلاسيكية ، وان كانت هناك حركة متزايدة لادماج العلم واللغات الحديثة فى برامج التعليم على قدم المساواة مع الدراسات الكلاسيكية ٠ وكانت الجامعات فى الاغلب تعد أصـحاب المهن الحرة وتهيىء الأفراد لتحمل مسئوليات الحـكم ٠

وداخل هذا النموذج العام كان بناء النظام التعليمى والغاية الرئيسية التى يستهدفها يختلفان من قطر الى آخر ٠

ففى بريطانيا العظمى كانت المدارس الابتدائية تقدم للتلميذ الأدوات الأساسية اللازمة للعيش فى مجتمـــع صـــناعى ، بينما التعليم الثانوى والعالى هدفهما اعداد الشخص ليحصل على مستوى عال من الكفاية عن طريق تزويده بالدراسات الانسانية غالبا ، وبذا يعده للالتحاق بالخدمة المدنية بما فيها من مرونة وما تتطلبه من تحمل المسئولية ومتابعة دراسة الفنون وممارسة المهن ٠ وكان التعليم الفرنسى مسرفا فى المركزية والتنظيم الشكلى ، فكان يقدم حدا أدنى مشتركا من التدريبـــات القاسية فى اللغة الفرنسية ، والتزود بمعرفة اللغة والثقافة الفرنسية مع اتاحة الوصول ـ عن طريق المســـــابقات ـ الى مســـــتويات أعلى من الدراسة الاكاديمية الكلاسيكية ، والتعليم المتخصص المتقـدم ، الذى تتحـــدد سعته بعدد الوظائف المتاحة ، أو التى ينتظر أن تتاح لمن يحصلون على مختلف الدرجات العلمية ٠ وكانت الأنظمة الألمانية والروسية تقدم تدريبا مهنيا وفنيا لمن لا يلتحقون بالمدارس الثانوية والعالية ، كما تقدم تدريبا كاملا على البحث فى ميدان بعينه للصفوة من المثقفين ٠ وظـــل نظـــام التعليم المفتوح فى الولايات المتحدة يقدم تعليما يغلب عليه الطابع الكلاسيكى وذلك فيما بعد سنوات التعليم الابتدائى ٠ ولكنه كان قد بدأ فى قبول الفكرة الانتقائية،

فأخذ يقدم مجموعة مختلفة من المواد التى تتفق مع اهتمامات الطالب بوجه عام واحتياجات المجتمع ٠

وكانت الطرق السائدة فى التعليم الابتدائى تعتمد اعتمادا قويا على الاستظهار ولا تولى اهتماما يذكر بأن تتلاءم مع قدرة الفرد أو احتياجاته، وأن كان قدر كبير من النظريات التربوية ، وبخـــاصة أعمال بستالوتزى وفروبل وهربارت ، قد ظهرت فى القرن التاسع عشر ، مؤيدة لهذه الأفكار الجديدة ٠

وكانت الجامعات فى كل مكان مراكزا للتعليم التقليدى ، والاعداد للمهن الحرة ٠ ولكن ثمة معاهد فنية تقدم دراسات ودرجات جامعية فى الزراعة والهندسة كانت قائمة فى أوروبا وأمريكا الشمالية ٠

٣ ـ توسيع نطاق التعليم كعملية جماهيرية

فى أثناء القرن العشرين اتسع نطاق التعليم الشعبى فى كل مكان، على المستويات الثانوية والعليا ، فى البلاد التى بلغت مســـتوى صناعيا متقدما ، وعلى مستوى التعليم الابتدائى فى باقى أنحاء العالم ، وانتشر فى كل مكان بالنسبة للراشدين الذين شعروا بالحاجة الى أن يواكبوا التغيير المستمر ٠ ففى كل جزء من أجزاء العالم كان عدد متزايد من الناس يحظى بمزيد من التعليم ، ونمت نظم التعليم الرسمى فى حجمها وتعقيداتها ، وصار التعليم يستوعب نســـبة متزايدة من ثروة المجتمع وطاقاته ووقته وأفراده ٠

وكان النموذج فى كل قطر يعتمد على عوامل شتى :ـ

التقاليد الثقافية للقطر ، نظامه الاجتـماعى المتغير ، درجة التصنيع فيه ، الموارد الاقتصادية المتاحة للتوسع التعليمى ، مدى ولاء المجتمع لمبدأ تكافؤ الفرصة ، وتصميم البلاد على السير الواعى فى التنمية الاقتصادية، واستخدام التعليم أداة فى عملية التنمية ٠ وهكذا كان اتساع مدى التعنيم يعكس أمرين : حاجات الفرد ، وحاجات المجتمع ٠

وكان قدر كبير من تاريخ التطور التعليمى فى القرن العشرين يتضمن العلاقة المتبادلة بين نظم تســتهدف التعليم الشـــعبى ، ونظم تستهدف تدريب الصفوة من المتعلمين ٠ ولقد استدعت مقتضيات الحياة فى المجتمع الصناعى ـ وهى فى تزايد مســـتمر ـ احراز جمــاهير الشعب للمعرفه والكفاءة ٠ وكانت مشكلة مواجهة هذه الاحتياجات الكمية العلمية ، وبينما

نحن ننشىء مثقفين على مستوى عال كانت هذه المشكلة قائمة بصـورة أو بأخرى فى كل بلاد العـالم تقريبـا ، وفى كل مرحلة من مراحل التطور التعليمى ، فيما يتعلق بكل جوانب التعليم : ـ

١ ـ فى البلاد التى تنخفض فيها نسبة الامية :

(أ) صبغ التعليم الثانوى بالصبغة الديمقراطية :

فى البلاد التى كانت قد عممت التعليم الابتدائى كان معنى التعليم الشعبى التـوسع فى التعليم الثـانوى حتى يمكن تعميم التعليم فوق الابتدائى ٠ فى هذه البلاد كان تزايد انتاجية العمال الصناعيين ، وتناقص نسبة الأطفال الى البالغين من السكان قد أديا الى انتفاء ضرورة اشتغال الاطفال فى المصانع ، وتقديم الموارد لاعالة الاطفـال خـلال سنى المراهقة وتغطية نفقات تعليمهم ٠ ولما أصبح من الصعب على غـير المتعلم أن يعمل بكفاءة طالب الآباء بمزيد من التعليم لأبنائهم ، لتمكينهم من شق طريقهم فىالحياة .

وفى الولايات المتحدة أمكن للنظام التعليمى الواحد المستمر ، القائم على مبـدأ تكافؤ الفرصة للجميع ، وتنمية الفرد الى أقصى مدى تتيحه طاقاته ، أن ينتشر بسهولة ، ويمتد الى المسـتوى الثانوى ٠ وزاد عدد الملتحقين بالمدارس (الثانوية) زيادة كبرى كل عام حتى شـمل الاغلبية الكبرى من مراهقى الامة ٠ وفى ولاية بعد أخرى أخذ مستوى سن الالزام يرتفع الى ١٦ سنة ، حتى أن الولايات الثـمانى والاربعين جعلت التعليم اجباريا حتى بلوغ هذا العمر (١٩٥٠) وكانت عشر ولايات تتجاوز هذا العمر ، وحين بدأت الحرب العالمية الثانية كان التعليم الثانوى فى الولايات المتحدة قد أصبح تعليما شعبيا ٠ وفى سنة ١٩٥٢ كان ٨٢٪ من الاطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ١٤ ، ١٧ سنة يتلقون العلم فى المدارس ٠

ولقد اتخـذت الدول الاوروبية خطوات مختلفة لزيادة عدد الطلبة الذين يتلقون تعليمهم فى المستوى الثانوى ، وعدلت نظمها الخاصة بما يلائم التعليم الشعبى ، وتعليم الصفوة فى أثناء هذه العملية ٠

وفى الربع الأول من هذا القرن، وبخاصة بعد الحرب العالمية الاولى، كانت هناك حركات قوية فى كل دولة أوروبية لاطالة مدة التعليم المتـاح للجميع ، واضافة التربية الفنية الى الدراسة الثانوية ، وما فى مستواها،

وتمكين الطفل من أن يتقدم من مستوى الى آخر حتى يبلغ مرحلة التعليم العالى ، دون أن يوصد الباب فى وجهه ودون أن يتــقرر مستقبل الطفل بصفة نهائية فى سن العاشرة أو الحادية عشرة • ولكن بعد الحرب العالمية الثانية أصبح التعليمان الابتدائى والثانوى أكثر اندماجا ، وبذلت الجهود لتوسيع نطاق الفرص التعليمية ، بحيث تتحقق الاستفادة الكاملة بطاقات جميع الاطفال ، ويتاح لهم أن يســـيروا قدما فى تعليمهم ، دون اعتبار لوضعهم الاقتصادى أو الاجتماعى • وفى منتصف القرن كان هذا الاتجاه ملحوظا جدا • ففى عام ١٩٥٠ كان حوالى ٥٠ الى ٨٠٪ من الاطفال بين سن ١٤ ، ١٧ ملتحقين بالمدارس فى كل دول أوروبا الغــــربية فيما عدا أسبانيا والبرتغال وايطاليا •

وفى الأقطار الاسكندنافية جعل الالتحاق بالمدارس المتوسطة متاحا على نطاق واسع • ففى سنة ١٩٣٧ اتبعت الدنمارك مبدأ «التعليم الثانوى للجميع» فى مدارسها بالمدن ، وجعلت المدرسة المتوسطة استمرارا تلقائيا للتعليم الابتدائى • وأصدرت بريطانيا العظمى سنة ١٩١٨ قانونا برفع سن مغادرة المدرسة حين تتهيأ الاسباب لذلك ، وتقرر انشاء المدارس التكميلية ، وزيادة عدد المنح الدراسية فى التعليم الثـــانوى • ونتيجة لذلك اتسع نطاق التعليم الثانوى للبنين والبنات بدرجة كبيرة ، كما اتسع نطاق التعليم الجامعى • ولكن لم يرفع سن مغادرة المدرسة الى ١٥ سنة على نحو اجبارى الا بعد الحرب العالمية الثانية • ففى ظل قانون التعليم البريطانى الصادر سنة ١٩٤٤ ، والذى ينشىء ثـــلاثة أنواع من التعليم الثانوى ـ الاكاديمى والتكنولوجى والعام ـ كان التلميذ يختار الاتجـاه الذى يريده عادة فى سن الحادية عشرة ولكن كانت هناك فرص الانتقال من شعبة الى شعبة ، على أساس الميل أو الكفاية •

وفى فرنسا كانت هناك بعد الحرب العالمية الاولى حماسة قوية ، وان لم يكتب لها النجاح ، لانشاء المدرسة الموحدة ، بدلا من المدارس الابتدائيه المجانية والمدارس الثانوية التى تتقاضى مصروفات • ولقد صار الانتقال من التعليم الابتدائى سهلا بايجاد تشابه بين مقررات السنوات الأخيرة من التعليم الابتدائى والسنوات الأولى من التعليم الثـــانوى • وأخيرا ألغيت المصروفات المدرسية ســنة ١٩٣٧ ، وان ظل النظـــامان تابعين لادارتين منفصلتين • وأنشأت جمهورية فيمار الالمانية مدرسة موحدة لكل الاطفال، وان كان فيهـــا وحدات منفصلة ووحدات بروتستنتية أو كاثوليـــكية أو ماركسية معانة من الدولة ـ وكانت تقدم معونات مالية للتلاميذ النجباء •

حتى لا يتأثر اختيارهم لنوع تعليمهم المقابل بضغط من ســـوء أحوالهم المالية ٠

غير أن هذه الاجراءات ، وماشابهها من خطوات اتخذتها دول أوروبية أخرى ، لم تجعل التعليم كامل الديمقراطية ، بل ولم تقض تماما على البناء المزدوج للتعليم ، ولم تجعل التعليم الثانوى تعليما مفتوحا للشعب تماما، على نحو ما يجرى فى الولايات المتحدة ٠ ولكنها أبانت عن اتجاه عام نحو تحقيق هذا الهدف ٠

والنظام اليابانى الذى صار اجباريا حتى يبلغ الطفل السادسة من عمره سنة ١٩٠٧ ، كان يتبع النموذج الاوروبى للتعليم الابتدائى الشعبى، مع امكان وصول التلاميذ فى المراحل الأعلى فى التعليم بشرط أن يكونوا قد درسوا فى المدارس الاعدادية لعليا المحدودة العدد . وبعد الحرب العالمية الثانية ، ألغى النظام اليابانى واتبع النموذج الامريكى فى الانتقال المستمر من القاع الى أعلى حتى القمة ، طبقـا لطاقات الفرد واهتماماته ، بما يترتب على ذلك من زيادة كبرى فى تلاميذ المدارس الثـانوية وطلبة الجامعات ٠

ومع انطلاقة التطور فى الاتحاد السوفييتى ، قام السوفييت بتوسيع كل جوانب برنامجهم التعليمى بسرعة مثيرة ٠ لقد ورثوا نظـاما أوروبى الطابع ذا جزءين ، لا يصل فيه التعليم العام الا الى فريق من الشـعب ، فأنشئوا نظاما تعليميا عاما ، وهو نظام الأساس الموحد، الذى جعل التعليم اجباريا لمدة أربع سنوات سنة ١٩٣٠ ، وسبع سنوات لأطفال المدن سنة ١٩٤٧ ، وثمانى سنوات من التـــدريب على الصناعات الهندسية للجميع سنة ١٩٥٨ وهو يصر على أنه بغير انفاق الدولة على كل معاهد التعليم ، لا يمكن القول بأن نظام التعليم ديمقراطى ٠

ولقد بلغ عدد التـــلاميذ فى المدارس العـــامة أكثر من ثلاثة أمثال ما كانوا عليه قبل اثنتى عشرة سنة ، أى أن هذه الزيادة قد حدثت بين اعلان خطة السنوات الخمس الاولى ونشوب الحرب العـــالمية الثانية ٠ وفضلا عن ذلك فقد زيدت معاهد التدريب الفنى ومعـــاهد التعليم العالى زيادة ضخمة ، ومنحت كل التسهيلات للكبار لكى يستزيدوا من التدريب أو يعوضوا ما فاتهم فى المـاضى ـ وذلك عن طريق اتحـــادات العمال ، والمصانع ، والمدارس الليلية ، والدراسة بالمراسلة ، والمدارس الخاصة ، وبفضلها يتمكن من فشلوا فى الحصـول على تعليم منظم من أن يلتحقوا بمعاهد التعليم العالى ٠ ففى منتصف القرن قدرت الحكومة السوفييتية أن

واحدا من أربعـــة من مجمـوع عـدد السـكان يتلقى العلم ، على الأقل بالمراسلة (٥) •

(ب) التوسع فى التعليم العالى :

بعد الحرب العالمية الثانية أخذت أبواب التعليم العالى أيضا تفتـح للشعب ، وكان هذا أوضح ما يكون فى الولايات المتحدة • فقد مدت فرص التعليم للمحاربين القدماء ، مع الانفاق على معيشتهم أثناء دراستهم لعدد من السنين يساوى ما أنفقه كل منهم فى الخدمة العسكرية ـ وهى عادة أربع سنوات ، وبذا تمتعت آلاف عديدة بالتعليم العالى ، ممن كان المفروض أن ينتهى تعليمهم فى مرحلة مبكرة •

ولم تحذ أية دولة أوروبية حذو أمريكا فى فتح فرص التعليم عند القمة لأعداد ضخمة من الطلبة ، ولكن عدد الملتحقين بالجامعات زاد بمـا يعادل ٥٠٪ أو حتى ١٠٠٪ بالنسبة لما كانت عليه قبل الحرب ، واستمر انشاء معاهد متخصصة على مستوى عال • وفضلا عن ذلك فان الوصول الى التعليم العالى لم يعد يعتمد فى المحل الأول على القدرة المالية ، أو القدرة على الالتحاق بمدارس اعـدادية بمصروفات ، بل أصـبح يعتمد اعتمادا متزايدا على احراز المنـح المخصصة للطلبة الاكفـاء عن طريق التنافس والتفوق •

أما التعليم على المستوى الجامعى فى اليـابان ، وكان قـد وسع توسيعا كبيرا بعد عام سنة ١٩١٨ ، فقد ازداد اتساعا فى أثنـاء اعادة التنظيم بعد الحرب العالمية الثانية • وكان التوسع التعليمى فى الاتحـاد السوفييتى يشمل عددا ضخما جدا من معاهد الدراسات العليا ، وكان الموقف يشبه ذلك فى الجمهوريات الشعبية فى شرق أوروبا (٦)

(ج) تعليم البالغين والتعليم غير المنتظم :

كذلك وسع نطاق التعليم الشعبى ليشمل البالغين • ففى عالم تظهر فيه دائما معارف جديدة ، ووظائف جديدة ، يكون النـاس فى حاجة الى التعليم ، سواء لسد حاجاتهم ، أو رغبتهم فى مواصلة التعلم بعد تخرجهم من الجامعات أو المدارس • وتنشىء المدارس فصولا ليلية ، وتنشىء الجامعات دراسات خارج جدرانها ، وتقدم برامج تكميلية ، وبرامج خدمة بالمراسلة لمواجهة الطلب واستمر عدد متزايد من الناس يواصلون تعليمهم بعد انتهاء تعليمهم الرسمى ، وأخذوا يدرسون استعدادا لوظيفة جديدة ذات مرتب

أعلى ، أو لتجديد معلوماتهم فى الحقل الذى تخصصوا له • وثمة عدد كبير من رجال الاعمال سواء فى الصناعة أو فى الحكومة يقدمون برامج تدريب داخل العمل لتمكين موظفيهم من أن يتقدموا • وفى بعض البلاد أنشئت بعض البرامج الخاصة بالتأهيل المهنى ، لاعادة تدريب الاشخاص الذين صارت وسائلهم فى الصناعة عتيقة ازاء ما حدث من التغيير التكنولوجى ، أو الاشخاص الذين أصيبوا فى حادث أو دهمهم مرض يمنعهم من الاستمرار فى عملهم الأصلى •

وكان تعليم العمال فى عدد من البلاد يعينهم على أن يعملوا بكفاءة أكبر من حيث هم أعضاء فى نقابات العمال ومن حيث هم مواطنون • وتعاونت نقابات العمال مع المدارس والجامعات فى انشاء برامج تعليمية لأعضائها ، تشمل مواد اقتصادية واجتماعية وتاريخ حركة العمل والأساليب المتبعة فى نقابات العمال • ولقد أقيمت بعض المدارس الخاصة بالعمال اما على نحو مستقل ، أو عن طريق الاشتراك مع مؤسسات تعليمية • واستحدثت جمعيات تعليم العمال ، وبخاصة فى بريطانيا والسويد والولايات المتحدة ، طرقا ومواد تعليمية جديدة ، وقدمت قيادات لحركات تعليم العمال ، ولما أحرز العمال قوة سياسية وتأثيرا اجتماعيا توسع محتوى برامج تعليم العمال ، لكى يهيىء الدارسين لتحمل مسئوليات أكبر • أما المدرسة الثانوية الشعبية التى أنشئت فى الدانمارك فى القرن التاسع عشر ، كجزء من حركة الاحياء القومى ، فقد انتشر نظامها فى بلاد مجاورة ، وأخذت تمد شباب القرية وشاباتها بالحوافز الثقافية والعقلية ، والخبرات الاجتماعية ، ووجهات النظر الاقتصادية •

ووصلت برامج التعليم الاجتماعى والوطنى الى مجموعات كثيرة أخرى من الكبار ، عن طريق الساحات الاجتماعية التى تديرها المؤسسات التعليمية ، وعن طريق عدد لا يحصى من حلقات الدراسة ، التى تنظمها الاتحادات الأهلية ، مثل معاهد النساء البريطانيات ، وجمعيات الفيلم الكنديات ، وحلقات القراءة التى تنظمها المكتبات •

واذ ناقشنا التوسع فى التعليم وجب أن نأخذ فى اعتبارنا التعليم غير الرسمى ، والا كانت نظرتنا أضيق مما ينبغى • فثمة قدر ضخم من التعليم تضطلع به عن عمد ــ أو عن صدفة ــ الاجهزة الكثيرة للاتصال بالجماهير التى تعرض لها مواطن القرن العشرين • ففى معظم البلاد يعد الراديو أداة للتعليم ، ويستخدم لذلك عمدا • وحيث هو مشروع تجارى

كما هو فى الولايات المتـــحدة وكندا وأمريكا اللاتينية فان برامجه المعدة للتسلية تطعم بجوانب تعليمية كثيرة ، ويمكن أن يقال هذا فى السينما والتليفزيون ، والصحف اليومية والاسبوعية ، والمجلات الشهرية ، فهى تقدم معلومات وتعليما على نطاق واســـع جدا • فالاخبار ومواد التسلية والدعاية السياسية بل حتى الاعـــلان تلعب دورا هاما فى تعليم رجـل القرن العشرين •

٢ ـ فى البلاد التى تسودها الأمية :

(أ) التوسع فى التربية الأساسية :

فى خارج الولايات المتحدة وأوروبا والكومنولث البريطانى والاتحاد السوفييتى واليابان كان التعليم الشعبى ينتشر ببطء قبل الحرب العالمية الثانية ، ثم أخذ بعدها ينتشر بسرعة كبيرة وتركيز شديد • وفى العشرينات والثلاثينات تبعث ثورتى المكسيك وتركيا جهـــود صادقة لانشاء مدارس لسكانهما وأغلبهم من أبنـــاء الريف ، وشرعت مصر فى وضـــع تعليمها الابتدائى على أساس شعبى عام •

ولقد ركزت المكسيك برنامجها على انشـــاء تعليم ريفى واقعى • كذلك عدلت فى نظام مدارسها بالمدن ، لتجعله أقرب الى الناحية العملية، وأبعد عن الناحية الشفوية ، وأنشـئت مدارس فنية ومهنية مختلفة فى كل المستويات ، وكانت الارســاليات الثقــافية فى الريف وتتألف من اخصائيين فى الصحة العامة والزراعة والتشـــييد والحرف والصـــناعات والميكانيكا الريفية والموسيقى ووسائل الترفيه ، كانت تركز جهودها فى تحسين الحياة الريفية وكانت ارهاصا بكثير من البرامج الريفية المشابهة، التى أنشئت فى بلاد أخرى بعد ذلك بعشرين عاما • لقد استخدمت أولا كمعاهد متنقلة للاحياء الثقافى وتدريب مدرسى الريف العمليين ثم أخذت الارساليات بعد ذلك تصبح من وسائل تعليم المجتمع • وعن طريق هذه وغيرها من الجهود التعليمية نجحت المكسيك فى تخفيض نسبة الامية بها الى ٢٣٪ فى منتصف القرن ، وان ظل نصف الاطفال بلا مدرسة •

وتوســـعت دول أمريكا اللاتينية الاخرى فى تعليمها الابتدائى ـ فأخذت الأرجنتين وشيلى فى البناء على القــاعدة التى أرسيت فى بداية

القرن وأخذت البرازيل تبذل جهـــدا لتهييء الوســـائل لتنمية أراضيها الواسعة وثمة بلاد أخرى صغيرة مثل أورجواى وكوستاريكا وكوبا وبنما ، وصلت بالتعليم تدريجا الى نسبة كبيرة من الاطفال .

ولكن وقفت عقبات كثيرة فى طريق نشر التعليم الشعبى فى عدد من دول أمريكا اللاتينية .

فالاضطراب السياسى قد عاق انشاء النظم التعليمية واستمرار الانفاق عليها . والصفوة من الطبقات العليـــا من ملاك الاراضى والتجار والمثقفين كانوا يؤيدون التعليم الخاص فيرسلون اليه أبناءهم ، ولم يشعروا بأن هناك ضرورة كبيرة لكفالة التعليم للجميع . وفى البلاد التى بها عدد ضخم من الأهالى الهنود كانت عزلة هذه المجموعات واختلافات اللغة فيما بينهم من العوائق الاضافية ، وحيث كانت تجرى التقـــاليد بأن التعليم من مسئوليات الكنيسة لم يكن هناك شعور قوى بضرورة قيام الدولة بانشاء المدارس . وكان هناك تقليد أدبى قوى جـدا يبغض فى انشـــاء مراكز للتدريب العلمى وكان الفقر المدقع مشكلة ماثلة دائما .

وفى منتصف القرن كانت المدارس الابتدائية قد شملت ما لا يزيد عن نصف الاطفال فى سن الالزام بجمهـــوريات أمريكا اللاتينية . وفى خمسة أقطار ــ هايتى نيكاراجوا وهندوراس وبوليفيا وجواتيمالا ــ كان ثلثا الاطفال أو أكثر خارج المدارس . وثمة تسعة أقطار لا تزال تقدر معدل الأمية بها بما يزيد عن ٥٠٪ وهناك عوامل مشابهة أدت الى تعويق انتشار التعليم الشعبى فى شبه جزيرة أيبريا ، وفى جنـــوب ايطاليا ، وبعض أجزاء أوروبا الشرقية قبل الحرب العالمية الثانية .

وفى المستعمرات كانت معظم الدول الحـاكمة تتبع سياسة توسيع فرص التعليم توسيعا واضـــحا ولكنه محدود ، وبخـــاصة فى الأعوام المتأخرة ، حين زاد الطلب على التعليم بزيادة الوعى القومى . وفى البلاد الواقعة تحت الحكم البريطانى كان النموذج المتبع هو انشاء مدارس أولية وابتدائية يكون التعليم فيهـــا باللغة الدارجة ، ومدارس ثانوية باللغة الانجليزية . والاخيرة تؤدى الى امتحان الالتحاق بالجـــامعات البريطانية أو المحلية . وفى افريقيا بوجه خاص استـمرت المدارس فى معظمها تحت ادارة الارساليات التبشـــيرية مـع تبرعات مالية تقدمها لهـــا الحكومة الاستعمارية . وكان التعليم الاستعمارى الفرنسى يسير مباشرة على غرار التعليم فى فرنسا ويعد فى المستعمرات مجموعة قليلة من الصفوة الراسخى القدم فى اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية ، أما بلجيكا فبعد فترة من الاهمال التام تقريبا ، قدمت برنامجا للتعليم الفنى فى الكونغو البلجيكية ،

يدرس باللغة الفرنسية ، ويســـتهدف اعداد الأفريقيين للاشتراك فى مستويات أعلى فأعلى من المهارة والمسئولية فى حركة التطور الصـــناعى للمنطقة ٠

أما الهولنديون فى أندونسيا فقد ظلوا لا يقدمون التعليم الثانوى والعالى الا لعدد قليل نسبيا من غير الاوروبيين بينـــما شرعوا فى حركة تعليم شعبى ، تتضمن ترجمة اعداد من الكتب الى اللغة المحلية ، وتشجيع تعلم القراءة والكتابة ٠ وفضلا عن ذلك فان الزعمـاء القوميين والثقافيين أنشأوا مدارس الحدائق لتصل بالتعليم الى شعب جاوه ، الذى كان كله تقريبا محروما من الخـــدمات التعليمية ٠ وكان التعليم هناك يتم بأجور زهيدة أو بلا أجر على الاطـلاق ٠ وفى الفلبين فى ظل الحـــكم الامريكى أصبحت مدرسة المجتمع مركزا للتطور الاجتــماعى ، وكان النظام الذى أدخله اليابانيون فى كوريا شبيها بنظام اليابان ٠ ولكن على نطاق محدود، ولم يوضع التعليم الاجبارى موضع التنفيذ ٠ وكان تعليم الافريقيين فى المناطق الخاضعة للبرتغال محدودا للغاية قبل عام ١٩٤٠ ٠ وبعد ذلك عهد به كله الى الكنيسة ، مع معونة تدفعها الدولة ، بينما كل من المدارس التابعة للدولة أو المعانة منها أو الخاضعة لتفتيشها كانت تخدم الاوروبيين والأهالى « المتمثلين » ٠

وفى معظم هذه المناطق كان تعليم الصفوة يأتى قبل تعليم الشعب٠ وكان الكنغو البلجيكى استثناء ظاهرا من هــذه القـــاعدة ، لأن التعليم الاساسى والتعليم العملى كانا شديدى الانتشار قبل أن تكون هنـــاك أى فرصة تتيح للكنغوليين أن يحصلوا على التعليم العـالى ٠ وكانت بريطانيا على طريقتها ، تتبع سياستها الاستعمارية ، وهى تدريب مجموعة من القادة وتترك لمرحلة تالية توسيع نطاق التعليم بين جماهير الشعب ٠ ولقد عبرت الحكومة البريطانية عن هذه السياسة بوضوح فى نهـاية الحرب العالمية الثانية حين ووجهت بضغوط تتزايد بسرعة تطـالب بالحـــكم الذاتى ، فانشأت أو وسعت ثمانى جامعات فى مستعمراتها لتخريج رجال ونساء على مستوى من الكفاية فى الخـدمة العـــامة ، والقدرة على الزعامة التى يتطلبها التدرج الى الحكم الذاتى ، والمساعدة فى استيفاء حاجة البلاد من ذوى المؤهلات الفنية العالية ، الذين يتطلبهم التطور الاقتصادى والاجتماعى للمستعمرات ٠

وفى عدد من البلاد بذلت جهود خاصـــة لنشر تعليم القراءة والكتابة بين الكبار والصغار على السواء ٠ والتجـارب التى أجريت لتحقيق هذه الغاية ، والتى اجتذبت اهتماما واسع النطاق ، قد اتفقت نتائجها على

أن محو الامية لا يمكن أن يعتمد على عمل المدرسين الرسميين وحدهم . بل يجب أن يستعان فيه أيضا بتعاون أى شخص وكل شخص يعرف القراءة والكتابة • وفى الصين انشأ (جينى ين ،) برنامجا لمحو الأمية فى العشرينات ، استعان فيه بتلاميذ المدارس لتعليم مجموعات من الكبار بعد ساعات الدرس ، مما استثار الحماسة الجماعية للغناء وغير ذلك من الانشطة • وثمة واحد من المبشرين القدامى فى الفلبين ، هو فرانك لاوباخ، أثار الآمال فى أنه قد يمكن الاهتداء الى طريق قصير لتعلم القراءة والكتابة، ولكن هذه الطريقة السريعة وبرنامج «واحد يعلم واحدا» ثبت أنها غير مثمرة • ولقد لقى أتباعه ما ثبط هممهم، وكانت الجهود الواسعة الانتشار لمحو الأمية بين الكبار قد جعلت من الواضح تماما أن المهمة معقدة وصعبة، وأن النجاح فيها وثيق الصلة بالاستخدام المستمر للمهارة الجديدة ، أما مجرد تعليم الناس على القراءة فلم يمح أميتهم على نحو فعال •

وكانت السنوات العشر التى أعقبت الحرب العالمية الثانية أعواما ثورية بالنسبة للتعليم فى المناطق التى ترتفع فيها نسبة الأمية ، بمثل ما كان القرن التاسع عشر بالنسبة لاقرار مبدأ التعليم الابتدائى العام فى أوروبا وأمريكا الشمالية واليابان • وبالنسبة لملايين السكان فى البلاد المتحررة حديثا فى آسيا والشرق الاوسط ، وبالنسبة لافريقيا والشعوب الناهضة فى أمريكا اللاتينية ، بالنسبة لهؤلاء أصبح التعليم كلمة سحرية، مؤدية الى اعادة البناء الاجتماعى والوعى القومى •

وكانت الضغوط من أجل مد نطاق التعليم ليشمل أفراد الشعب ضغوطا مركزة • فحق الكبار فى الانتخاب ، والحاجة الى مهارات جديدة فى كل المستويات لتحقيق التقدم الاقتصادى ، وانتشار الاعتقاد بأن التعليم حق أساسى يجب أن تضمنه الدولة الحديثة لشعبها — كل هذا جعل تعميم التعليم أمراً لا مفر منه أمام الدولة الحديثة ولكنه أتى معه بمشكلات تدور من هولها الرءوس • فان كثرة ما هو موجود من الأميين وعجز غالبية الاطفال عن الوصول الى المدارس ، وتزايد عدد السكان بسرعة كبيرة كل عام ، كل هذا فرض على الدولة أن توسع خدماتها التعليمية بسرعة حتى يمكن على الأقل ألا يتدهور الموقف ويصير أسوأ مما هو عليه •

وأبعاد هذه المهمة يمكن أن نتبينها فى الهند ، حيث نرى أنه فى السنوات العشر التى تلت الاستقلال تضاعف تقريبا عدد التلاميذ بالمدارس الابتدائية ، بينما الالتحاق بالمدارس الفنية قد زاد الى خمسة أمثال ماكان

عليه ، وقبلت المعاهد الهندسية ثلاثة أمثال من درجت على قبولهم من قبل. معنى هذا ان عدد تلاميذ المدارس الابتدائية زاد بحوالى ١٥ مليون تلميذ ، وعدد تلاميذ المدارس الفنية بمقدار ١٥ ألفا ، وعدد طلاب المعاهد الهندسية بسبعة آلاف ، ولكل هؤلاء يجب أن يدبر ما يلزم من المدرسين والمبانى والكتب والمهمات . ولكن حتى لو انفقنا على الطفل فى المتوسط أقل من ١٪ مما تنفقه الولايات المتحدة وجدنا ان هذا الواحد فى المائة يشكل عبئا ثقيلا على موارد البلاد .

(ب) التوازن بين التعليم الشعبى وتعليم الصفوة :

واجهت الدول الجديدة ـ على نحو أشد مما واجهته الديمقراطيات القديمة ـ مشكلة نسبة ما تخصصه من طاقاتها للتعليم الشعبى ، ونسبة ما تخصصه لاعداد الصفوه ، وكيف توازن الجهود التعليمية بحيث تؤدى بشكل دائم الى التقدم الكلى للبلاد ، ذلك أن هذه الدول فى حاجة ماسة الى طبقة حسنة التعليم ، لتقوم بالخدمات وادارة شئون الدولة وتضطلع بدور القيادة فى مجال التطور الاقتصادى والاجتماعى الذى سيؤدى فى نهاية الأمر الى زيادة فرص التوظف والدخول لجماهير الشعب ، ورفع مستوى معيشتهم . وفضلا عن ذلك كان عليها أن تعد الفنيين وأن تعد رجالا ونساء قادرين على الاسهام فى مجال التقدم العلمى لأنه بغير القدرة على التقدم العلمى لا يسع هذه الدول الا أن تتدهور ، وتعود الى الخلف باستمرار كلما قفزت الدول المتقدمة قفزاتها المظفرة الى الأمام .

ولكن مشكلة ايجاد واعداد أساتذة يضمنون مستوى رفيعا لمعاهد التعليم العالى كانت أصعب حتى من مشكلة ايجاد الموارد للتعليم الشعبى، ذلك أن الموارد المحلية كان يمكن أن تستكمل الى حد ما عن طريق توظيف أفراد من الخارج ، ولكن أحد المصادر الرئيسية لهؤلاء الافراد فى الماضى، وهو بعثات التبشير ، أصبح مرفوضا من الشعب . ولقد خطت بعض الدول خطوات نحو تيسير تعليم بعض الطلبة النابهين بالخارج والاستفادة من الفرص التى تتيحها الوكالات القومية والدولية لذلك . ولكن هذه الوسائل تخفف وطأة المشكلة ولا تحلها ، أعنى مشكلة اعداد القيادات العلمية والفنية والادارية المطلوبة . وكانت بعض ظواهر الانحياز التقليدى الى الدراسات القانونية أو الادبية أو الفلسفية دون التكنولوجية ، وطموح الشباب الى حياة الموظف ، لا حياة التكنولوجى الفنى ، من الاسباب التى ساعدت على تعقيد مهمة اجتذاب وتدريب الافراد من ذوى الكفايات العالية.

وتصور الحالة في مصر بجلاء ذلك النضـــال من أجل زيادة اعداد الصفوه وتعليم الشعب في وقت واحد ، بينما الموارد محـدودة والحاجة ملحة • فالتعليم المصرى قد أقيم على النســق الغربى ، دعامته المؤسسات التي كان قد أقامها محمد على بعد سنة ١٨٣٦ لاعداد المهنـدسين والاطباء وغيرهم من الخبراء لوضع البلاد في مســتوى الدول الاوروبية ، وكذلك المدارس الثـــانوية والابتدائية التي تتقاضى مصروفات والتي كان يجرى التعليم فيها بالفرنسية أو الانجليزية وتعد للالتحاق بالكليات • وكان التعليم المتاح للشعب هو تعليم القرآن واللغة العربية مجانا فى المساجد• وحين أخذ المصريون أمرهم فى أيديهم فى الشئون الداخلية سـنة ١٩٢٣ أخذوا ينظرون الى التعليم على أنه الطريق المؤدى الى الاصلاح الاجتماعى ، وراحوا يخصصون نسبة متزايدة من الميزانية القـــومية لتعليم الشـعب واعداد المتخصصين •

وكانت الحكومات المصرية المتعاقبة تولى هـذا الجانب أو ذاك اعظم اهتمامها • فحاولت احداها أن تتيح لكل الاطفـال ستة أعوام من التعليم الابتدائى على مستوى شبيه بما كان قبلا لا يتاح الا لمن يستطيعون دفع المصروفات فى المدارس الابتـدائية على الطراز الاوروبى ، وأخرى ركزت اهتمامها فى اعداد القادة وتوسعت فى التعليم الثانوى والعـالى ، وثالثة ركزت اهتـــمامها فى خلق المدارس الفنية لتخفيف الضغط عن المدارس الثانوية ذات المناهج الاكاديمية ، ولكى تعد صغار الفنيين ، ولقـد ألغيت مصروفات المدارس الابتدائية سنة ١٩٤٤ وصـار يقـدم للتلاميذ الكتب والغذاء مجانا سنة ١٩٤٩ • وفى عام ١٩٥١ أصدر البرلمان قانونا بجعل التعليم الابتدائى اجباريا من سن ٦ الى ١٢ سنة • ولكى تستحث الحكومة حركة نشر التعليم وتقليل النفقات لجأت الى الاعيان فى الأقاليم تطلب منهم هبات من الاراضى والمبانى • فزاد عـدد من يتلقون التعليم الابتدائى فى المدارس الحكومية الى أربعة أضعاف ونصف من سنة ١٩٢٥ الى سنة ١٩٥٠ (٢٢٢ر٧٦١ : ٤٨٦ر٠٣٠ر١) وفى الخمسينات كانت الحكومة تحـــاول توسيع التعليم الشعبى فى المراحل التى تعلو المستوى الابتدائى ، فأنشأت ثلاث سنوات فى التدريب العملى بعد التعليم الابتدائى ــ المهارات الريفية فى القرى والتدريب الصناعى والتجارى فى المدن ــ والمدارس الفنية على المستوى الثانوى لاعداد مساعدى المهندسين وغيرهم من الفنيين • ومنذ عام ١٩٤٤ أخذت الدولة ترعى حركة محو الأمية لتمد الكبار بالتعليم الاساسى• وقام مـلاك الاراضى والمصـــانع والمراكز الاجتماعية واتحـــادات العمال

والتعاونيات والجمعيات الخيرية بتنظيم فصـــول لتعليم القراءة والكتابة والدين والاهداف القومية المصرية ٠

وفى نفس الوقت وســـعت مصر ودعمــت التعليم العــــالى لاعداد المتخصصين ٠ ففى سنة ١٩٢٥ كان ٨٠٥٩ فتى و ٤١ فتاة يتلقون العلم فى المدارس الثانوية الاميرية ٠ وفى سنة ١٩٥٠ كان هناك ٨٠ر٩٥٧ فتى و ١٢ر٨١٠ فتاة وزاد العدد بسرعة كبيرة بدرجة أنه بعد عام ١٩٤٩ صارت شروط الالتحاق أشد قســـوة ، وقدمت المنـــح التعليمية للمتفوقين ممن لا يستطيعون دفع المصروفات ، وذلك بقصد تجنيد خير الكفايات ٠ وفى المستوى الجامعى كان نفس التوسع يجرى، ولقد أقيمت أول جامعة حديثة فى مصر وهى جامعة القاهرة سنة ١٩٢٥ ، وفى ســـنة ١٩٥٢ كان هناك ثلاث جامعات حديثة ٠ ورابعة فى الطريق ، تخـــدم ٣٣ ألف طالب فى المجموع ، وهو ضعف العدد الذى كان مقيدا سنة ١٩٤٥ ٠

ولقد واجه كل بلد علىطريقته مشكلة ايجاد توازن بين تعليم الشعب وتعليم الصفوة ٠ فبينما الهند كانت تحاول تحقيق احتياجاتها من التعليم الابتدائى فقد زاد عدد طلاب الجامعات بها زيادة كبرى ٠ ولعل هذا دليل على الرغبة فى التحرك قدما نحـــو الجبهتين ، لدرجة أن النسبة بين عدد التلاميذ الملتحقين بالمعاهد العليا والملتحقين بالمدارس الابتدائية فى الهند ومصر ســـنة ١٩٥٠ ، كانت قريبـــة من النســـبة الموجودة فى الأقطـــار الاوروبية ٠ وبرغم الاحتياجات الخــــاصة لكل من هذين البلدين ، وهى كبيرة ، فان كلا منهما يمد غيره من الاقطار فى آســـيا وافريقيا بالمدرسين والفنيين لان العنصر المتعلم فى هاتين القارتين أقل كفاية مما هو فى هاتين الدولتين ٠

(ج) التربية الأساسية والتنمية الريفية :

من أبرز التطورات التى ظهرت فى أعـــوام ما بعد الحرب العالمية الثانية حركة تعليم الكبار وكانت تسمى من قبل «التعليم الاساسى» ٠ وعلى النقيض من حركات محو الامية فى الاعوام السابقة التى كانت تهتم بتعليم القراءة لذاتها دون التفات كبير لما يمكن أن تستخدم فيه المهـــارة الجديدة ، فان التعليم الاساسى كان يعتبر محو الامية وسيلة لا غاية ، ويركز عنايته فى التعليم النافع المتصل مبـــاشرة بالحياة اليومية ٠ وقد قدمت احدى البعثات الثقافية الريفية المكسيكية نموذجا يحتذى فى تنمية برامج التعليم الاساسى ، ولـــكن طرقا كثـــيرة أخرى استخدمت لتحقيق

الغرض الاساسى وهو تمكين الناس من أن يتعلموا ليحيوا حياة أفضل ، ولتحقيق المبدأ الاساسى القائل بأن الناس برغم ما يفوتهم من تعليم رسمى ، يستطيعون ان يتعلموا المواد التى لها معنى خاص عندهم ، ومن التجارب التى تمر عليهم بصفة مباشرة .

ولقد تمكن التعليم الأساسى بفضل ما لقيه من تشجيع اليونسكو التى وجهت قدرا كبيرا من طاقاتها الى هذا الميدان ، تمكن من أن ينقل الى كتل الشعب خارج المناطق الصناعية المبادىء الحديثة الصحة السليمة والغذاء الطيب ، والزراعات الجيدة ، والحياة الأسرية ، وتقنيات العمل والمسئولية . وأدت أنشطة التعاون ، ومساعدة الذات وتنمية المجتمع ، الى كسب خبرات عن طريق المشروعات المحلية للتشييد والصحة وحفظ التربة والعناية بالطفل . ووصل التعليم الشعبى فى صورة تعليم أساسى وتنمية اجتماعية الى الريفيين الأميين من أقصى العالم الى أقصاه ، فعدل من نظرتهم وروحهم وصحتهم وكفاءتهم وهم الملايين فى آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، كما ساعد على حسن توجيه الحيوية المكتسبة حديثا . ومع ذلك فما تزال الأمية فى مناطق واسعة من العالم حتى منتصف القرن مشكلة بغير حل .

٤ ـ ادارة النظم التعليميــة

١ ـ الرعاية :

أخذت الدولة على عاتقها تدريجيا الانفاق على تعليم الشعب ، ومن ثم السيطرة على التعليم ، وهذا الاتجاه يصور المفهوم الموسع لدور الدولة ومسئولياتها كما يعترف بحقيقة عملية جدا وهى أن الدولة وحدها هى التى تستطيع تمويل البرنامج التعليمى الموسع الذى يحتاج اليه المجتمع الصناعى الحديث . وحيثما تنهض الدولة بالدور الايجابى فى صياغة المواطنين ، وبخاصة فى البلاد التى حدث بها تغيير ثورى ، يكون التعليم من أقوى أدوات تحقيق أهداف محددة . وفى كل البلاد تقريبا أعتبر توسيع الدولة لنطاق التعليم وفاء من الدولة بحق المواطنين عليها .

وكانت الدولة تختلف اختلافا كبيرا فى مدى سيطرة الوكالات الحكومية على المدارس التى تنفق عليها الدولة أو التى تديرها الوكالات غير الحكومية ، بعون مالى وقدر من الرقابة من جانب الدولة . وكان لفرنسا نظام مركزى متطرف يقضى بأن كل مدرسة حكومية يجب أن تتبع

الجدول والمنهج وغير ذلك من التفاصيل التى تضعها خطة الدولة . غير أن النموذج فى معظم البلاد الديمقراطية أخذ يتحول فصارت الادارة تمارسها اما سلطة حكومية محلية ، أو هيئات غير حكومية .

وكانت السلطات التعليمية المحلية فى بريطانيا مسئولة فى المحل الاول عن ادارة المدارس داخل اطار عام من البناء التعليمى ، والمستويات الاستشارية الخاصة ، واجور المدرسين كما تقررها الحكومة المركزية . وكان التعليم العام فى الولايات المتحدة تقوم به المناطق التعليمية المحلية التى تعمل من خلال مكاتب منتخبة للتعليم ، فتضع الولاية المستويات والمقاييس وتقدم المعونة المالية والفنية ، ولا تقدم الحكومة المركزية غير الخدمات الاستشارية أو المعونات لطوائف خاصة من الطلبة ، مثل المحاربين القدماء أو لبرامج خاصة مثل التدريب المهنى ، والزراعى . وفي الأراضى الواطئة ، كانت سياسة ترك الاعترافيين أو غيرهم من الفرق احرارا فى ادارة مدارسهم ، يتمخض عنها نظام يقضى بأن حوالى ثلثى الاعتمادات التعليمية التى تنفقها الدولة على التعليم العام تذهب لمعونة المدارس التى يديرها أصحابها ، ولا تخضع لتفتيش الحكومة الا فيما يتعلق بالمبانى والمهمات وتدريب المدرسين والمناهج ، كما تخضع للامتحانات التى تجريها الحكومة ، وتمنح من يجتازها دبلومات حكومية وحيث يكون للمدارس الخاصة وجود مستقل بدون معونة مالية من الحكومة كما هو الحال فى الولايات المتحدة ، فان تزايد نفقات التعليم من شأنه أن يجعل موقف هذه المدارس حرجا .

لقد بسطت الدولة نفوذها على كل نظام تعليمى تقريبا ، غير أن هذا يواجه التحديات . فلقد ظلت الهيئات الدينية تقول بأن التعليم هو من شأنها هى ، وتؤكد أنها المسئولة عنه لا الدولة ، وكافحت الكنيسة الكاثوليكية فى كل البلاد التى ينتمى سكانها الى المذهب الكاثوليكى لكى تمارس اقصى سلطة تستطيعها على التعليم .

وفى الربع الأول من القرن العشرين بدا كأن الاتجاه العام نحو الطابع الزمنى واتساع نفوذ الدولة ومسئوليتها يعنى الابتعاد عن التعليم الذى تشرف عليه الهيئات الدينية . ولكن فى غير الدول الشيوعية زاد نفوذ الكنيسة على التعليم فى الربع الثانى من القرن . وبعد الحرب العالمية الثانية طالبت الكنيسة بعودة المعونة الحكومية الى المدارس الدينية ؛ وتمكنت من اثارة هذا الأمر على أنه قضية سياسية حية فى فرنسا وبلجيكا ، وحصلت على تنازلات فى شكل اعتمادات مالية حكومية للصحة

المدرسية والسيارات المدرسية ، حتى فى الولايات المتحدة ، حيث يسود الاعتقاد الجازم بفصل الكنيسة عن الدولة . وفى المجتمعات التى تتعدد فيها الأديان مثل كندا أو الولايات المتحدة او الأراضى الواطئة كان وجود تعليم تشرف عليه الهيئات الدينية بمعونة الدولة أو بغير معونتها : يوشك أن يدب الانقسام فى المجتمع ، وأن يفسد أثر المدارس الحكومية من حيث هى « بوتقة » ينصهر فيها الأطفال جميعا على اختلاف اديانهم .

ولم تقتصر مشكلة الاشراف الدينى على التعليم على المناطق التى تقع فى سلسلة الكنيسة الكاثوليكية : أو البروتستنتية ، بل لقد وجدت فى البلاد الاسلامية والبوذية ، فيما يتعلق بالمدارس التابعة للمساجد أو الرهبان البوذيين . ولما كانت المساجد والأديرة البوذية ليست فى وضع يسمح بتقديم التعليم الشعبى المطلوب ، ونظرا لأنها بحكم تقاليدها لم تكن تعلم غير الفتيان ، فقد اخذت تتميز عن نظام التعليم العام فى الدولة .

٢ ـ التمويل

تزايدت باستمرار نفقات التعليم وحاجته الى التمويل ، فقد ارتفعت المستويات فلم يعد يكفى أن تدفع مرتبا زهيدا لمعلم يدرس فى قاعة خاوية ليس بها غير السبورة ، وأقلام الاردواز ، وحفنة من الكتب ـ لا يكفى هذا لانشاء مدرسة . لقد ارتفعت النفقة بالنسبة لكل طفل بسبب اطالة فترة التعلم بالمدرسة ، وزيادة العناية بالفرد فى التعليم ، وتزايد تعقيد الأجهزة التى يتطلبها تدريس المواد ، وطرق التربية الحديثة وبالنسبة للنظام التعليمى بأكمله ، ارتفعت النفقات بسبب زيادة عدد التلاميذ ، والحاجة الى مدرسين أحسن اعدادا ولهذا فهم أحسن مرتبا ؛ ومبان ومهمات أعلى مستوى لكى تتمشى مع التغيير التكنولوجى العام ، وارتفاع مستويات المعيشة واضافة خدمات جديدة مثل العناية بالصحة المدرسية والغذاء ، مما لم يكن يشغل المدارس من قبل . وحيث تتجمع المدارس فى وحدات أكبر لكى تتاح الفرص اللازمة للتربية الحديثة ، والمهمات الكثيرة الواسعة النطاق ، فان نفقات الانتقال من المدارس واليها صارت أيضا من الأمور التى تؤخذ فى الاعتبار .

وظل التعليم الأولى فى أماكن قليلة يعتمد فى تمويله على ما يدفعه الآباء القادرون على الدفع ، ويقدم للفقراء مجانا ، واخذت المدارس الدينية تنفق عليها مختلف المذاهب الدينية المكرسة للتعليم ، مع ما يسهم به الآباء وغيرهم من اعضاء الابرشية ، أو ما يتبرع به المحسنون للجهود

التبشيرية . ولكن لما صار التعليم اجباريا أصبح تمويل الدولة للتعليم الأولى عاما بالنسبة للجميع ، باستثناء من اختاروا لأنفسهم التعليم الخاص مؤثرين اياه على التعليم الحكومى . ولكن حيث يعتمد تمويل التعليم على الموارد المحلية فان المجتمعات الفقيرة ، مهما بذلت من جهود كبيرة ، لا تستطيع أن تقدم لأطفالها من الفرص التعليمية كل ما يكفى ، مما تحظى به المدارس فى المجتمعات الغنية .

وقبل الحرب العالمية الأولى كان التعليمان الثانوى والعالى فى معظم البلاد يعتمدان في تمويلهما عادة على المصروفات والتبرعات الخاصة : مضافا اليها المنح الدراسية التى تمكن الطلبة الأكفاء من ان يواصلوا تعليمهم ، ويجاوزوا فى ذلك الحدود المالية المتاحة لأسرهم . ولكن فى الولايات المتحدة كانت المدارس الثانوية والجامعات التى تنفق عليها الدولة ، تقدم التعليم مجانا لنسبة متزايدة من السكان .

وبعد الحرب العالمية الأولى صارت مشكلة تمويل التعليم من المشاكل الحادة . فانتشار التعليم الثانوى تطلب زيادة كبرى فى استثمار أموال الضرائب ، أو الموارد الخاصه لأن الحاجة الى اقامة مزيد من المعامل والمكتبات ، ودفع أجور أعلى للمدرسين ، قد جعلت التعليم الثانوى عادة أعلى فى نفقته بالنسبة للتلميذ الواحد من التعليم الابتدائى وحين صار التعليم الثانوى والابتدائى تنفق عليهما الدولة صار التعليم من اكبر بنود الانفاق فى ميزانية الدول المتقدمة فى التعليم ، وصارت الحكومات المركزية مطالبة بان تكمل الموارد المتاحة للمجتمعات الفقيرة حتى لا يحرم أطفال هذه المناطق من فرص متكافئه فى التعليم نتيجة لعجز المنطقة عن أن تقدم نوع التعليم الذى تتوق اليه مختلف المناطق التى تضمها الدولة ، ولقد صارت مسألة انفاق الدولة على المدارس التى تديرها الهيئات الدينية أكثر الحاحا لزيادة نفقات التعليم .

وبعد الحرب العالمية الثانية أدت زيادة السكان فى كل الدول تقريبا الى وضع أعباء اضافية على الموارد التعليمية ، سواء فى البلاد ذات المعدل المنخفض نسبيا فى المواليد حيث أدت زيادة مفاجئة فى المواليد الى الاتيان بالملايين على غير توقع الى أبواب المدارس ، او فى البلاد التى تعكس السرعة المتزايدة فى عدد أطفالها ازديادا في معدلات من يعيش من الأطفال . فصار على التعليم ان يزاحم غيره من الأنشطة للحصول على الاعتمادات اللازمة له فى الميزانيات القومية والمحلية ، فيتنافس من أجل ذلك مع التنمية المادية او الاقتصادية ، وحفظ الصحة وسلامة الأفراد ، والخدمات الاجتماعية والمؤسسات العسكرية .

٣ ـ اعداد المدرسين وتدريبهم :

لقد سبق التزايد فى حجم التعليم سرعة اعداد المدرسين ، سواء فى البلاد التى تحقق لها من قبل تعليم شعبى فى بداية القرن أو البلاد التى كانت تحاول تحقيق تعليم اولى عام فى منتصف القرن . وفضلا عن ذلك فان اتساع الفرص البديلة للتوظف فى المشروعات الصناعية والحكومية قد جعل من الصعب فى أماكن كثيرة الابقاء على المدرسين فى مهنتهم أو اجتذاب أشخاص أكفاء الى مهنة التدريس ممن يستطيعون الحصول على مرتبات أعلى فى أعمال أخرى . وكانت هناك مشكلة عملية فى معظم انحاء العالم ، فان مدرسى التعليم الابتدائى كانوا يحصلون على أجور تقرب من أجور العمال غير المهرة ، ويحصل مدرسو التعليم الثانوى على مرتبات العمال المهرة ، ويحصل مدرسو الجامعات على مالا يزيد عن مرتبات صغار الموظفين . وفي بلاد كثيرة كان من الصعب بوجه خاص الحصول على مدرسين مؤهلين للعمل فى المناطق الريفية بسبب قلة الأجور ونقص وسائل الراحة فى هذه المناطق .

وفى الوقت الذى اشتدت فيه الحاجة الى مزيد من المدرسين وكثرت فرص العمالة البديلة مما جعل الحصول على المدرسين صعبا ، فان المؤهلات المطلوبة فى المدرسين زادت فجعلت من الصعب الحصول على عدد كاف من المدرسين المؤهلين . فظهر فى معاهد أعداد المعلمين اتجاه الى رفع المستوى المهنى ، وتوسيع محتوى التدريب ، لأن المدرسين صاروا يحتاجون الى كفاءة أكبر ليستطيعوا ان يواكبوا المعلومات الجديدة فى كل ميدان ، والتى ادخلت فى مناهج الدراسة ، وان يطبقوا ماكسبوا من معارف جديدة بسلوك الطفل وعمليات التربية ، فى تدريس فنى مقتدر .

وحيث زادت ضرورة الاسراع باعداد المدرسين عما تستطيعه معاهد المعلمين بالطرق العادية فقد لجأت الدول الى مختلف الوسائل المؤقتة لمواجهة الاحتياجات العاجلة ، بينما هى تعد أساسا أكثر صلابة لاعداد المدرسين للمستقبل .

والبرنامج التركى للمدرسين الريفيين مثال من أمثلة الحلول العاجلة . فعند قيام ثورة أتاتورك لم يكن بتركيا مدارس الا فى حوالى عشر قرى . كانت تركيا بحاجة الى حوالى ٤٠ الف مدرس جديد ، ولكن معاهد المعلمين العادية لن تخرج الا حوالى ٤٠٠ فى السنة ولما كان نجاح

الحكومة التركية فى ثورتها الاجتماعية يعتمد بداهة على اتاحة الفرص التعليمية لد ٧٥٪ من السكان الذين يعيشون فى القرى فقد ابتكرت سنة ١٩٣٦ خطة لاستخدام العرفاء Egitman) لنشر المدارس بسرعة فى المناطق الريفية .

وكان العرفاء Egitman من الفلاحين الذين حصلوا على التعليم الابتدائى وتميزوا فى اثناء خدمتهم العسكرية ، ووصلوا الى رتبة الصول ، فدربوا تدريبا مركزا مدة ثمانية أشهر ، وقام بالتدريس لهم المدرسون القدامى بالقرى ، ومعلمون من مدرسة الزراعة ليعيدوا اليهم علمهم بالقراءة والكتابة والحساب . وتقويتهم فيها ، ولاعطائهم فكرة عن التاريخ ، والجغرافيا والعلوم وطرق التدريس مع دروس نظرية وعملية فى الزراعة والبناء . وأرسل كل منهم الى قرية يقطنها أقل من ٤٠٠ نفس ليدرس فى مدرسة ابتدائية مدة الدراسة بها ثلاث سنوات ، وليساعد البالغين من القرويين فى حل مشكلاتهم الخاصة بالزراعة والتشييد . ويعطى منزلا وقطعة من الأرض وبعض الحبوب والآلات ومخزنا وأدوية ، ويوجه الى التعليم بالقدوة ، ويكون التعليم فى الفصول والاجتماعات الريفية . وباستخدام العريف Egitman كحل مؤقت ، تضاعف عدد تلاميذ المدارس الابتدائية فى عشر سنوات .

وكانت الخطوة الثانية ان أنشأ الاتراك معاهد ريفية اقيمت كما تقام القرى للتدريب العام والعملى للمدرسين الريفيين . وبعد دراسة مدتها خمس سنوات يدرب شباب القرية الذين اتموا التعليم الابتدائى على التدريس فى الفصل ، بل ويدربون أيضا على تشييد المدرسة ، والعناية بحديقتها وأرضها الزراعية كمثال يحاكيه القرويون ، ويجعلون الانتفاع بورشة المدرسة متاحا لأهل القرية ويعنون بالتربية العامة للأطفال ،والتربية الصحية ، ويشاركون فى مختلف المشروعات الزراعية والفنية والتكنولوجية التى تستهدف رفع المستوى الاقتصادى والثقافى للمجتمع . وفى سنة ١٩٥٢ كان ٢١ معهدا قرويا يدرب حوالى ٢٠٠٠ مدرس فى السنة ليحلوا محل العرفاء ويطيلوا مدة الدراسة الابتدائية الأساسية الى خمس سنوات وصار ٥٥٪ من أطفال الريف يتعلمون في المدرسة الابتدائية . وبعد سنة ١٩٤٣ صارت المعاهد والجامعة تقدم دراسة متقدمة مدتها ثلاث سنوات لتدريب المفتشين ، الذين كانت مهمتهم مساعدة المدرسين الريفيين على ملاحقة التطورات التعليمية الجديدة .

ولما كانت المناطق الريفية تشكو من اخطر نقص فى التعليم ، فقد ركز كثير من البلاد العناية الخاصة فى هذا الجانب من اعداد المدرسين • واتبعت بعض البلاد النهج التركى فى استخدام شباب الريف الذين يرجى أن يكون لديهم استعداد للاستمرار فى العمل خارج المدن • ولقد بدأت مصر برامج انشاء الوحدات المجمعة لتقديم الخدمات فى الريف بما فيها التعليم فى أماكن حسنة البناء مزودة بوسائل الترفيه ، ومجموعة كافية من المهنيين فى مختلف الميادين ، لينشئوا نوعا من المعيشة الشبيه بمعيشة المدن • ولقد أنشأت منظمة الدول الأمريكية مدرسة ريفية أمريكية لاعداد المعلمين ، مركزها فنزويلا ، وكانت اقامة هذه المدرسة اقصى ما قدم من معونة فنية فى ميدان التعليم فى الخمسينات .

أن طرق اعداد المدرسين تسير موازية لتطور النظم التعليمية التى تطبق فيها هذه الطرق . فالاتجاهات الى ديمقراطية التعليم انعكست فى الخطوات التى اتخذت لرفع مكانة التدريس بالمدارس الأولية الى مستوى المهنة ، كما تمثلت فى بعض الجهود التى بذلت لكسر الحلقة المفرغة لاعداد المدرسين والتى تعد خريجى المدارس الأولية للتدريس فى المدارس الأولية ، بينما المدارس الثانوية يدرس فيها خريجو الجامعات ففى بعض البلاد رفع مستوى معاهد اعداد المعلمين الى المستويات العليا بينما ادخلت بعض الكليات والجامعات دراسات بها لاعداد الطلبة ليكونوا مدرسين بالمدارس الأولية .

وفى بداية القرن كان موضوع تدريب المعلمين يتعلق بماذا يدرسون أكثر من تعلقه بكيفية التدريس ولقد أدى تطور نظرية التربية وطرائقها الى زيادة الاهتمام بتدريب المدرسين على فهم الطفل وتكييف الظروف التعليمية بما يتفق وما أسفرت عنه مكتشفات علم التربية . ولقد نهضت المعاهد المتخصصة باعداد مدرسى المدارس الابتدائية فزودتهم بالعلم بالطرق البداجوجية وكملت معلوماتهم التى حصلوها فى التعليم العام .

وكان المفروض فى مدرسى المدارس الثانوية والمعاهد الفنية أنهم يستطيعون التدريس بكفاءة اذا كانوا متمكنين من المادة التى يدرسونها . وقد ظل الافتراض قائما فى بلاد كثيرة وبخاصة فى أمريكا اللاتينية ولكن بتطور النظريات والتقنيات البداجوجية ، اتضح أنها لا تهم المدارس الابتدائية وحدها ، وصار مدرس المدارس الثانوية والفنية يتلقى اعدادا بيداجوجيا خاصا . ولكن حيث ظلت الحاجة الى المدرسين

ملحة ، وظل النقص فى عددهم شديدا كما كانت الحال فى الأعوام التى سادها ازدهار العمالة ، والتوسع فى التعليم الثانوى والعالى بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد أخذ التدريب المتخصص للمدرسين يختفى أو يعطل، وكثيرا ما كان المدرسون يعدون لمواجهة الطوارىء وعلى مستوى دون المقرر .

إن الوضع الاجتماعى للمدرس له أهمية كبيرة فى نجاحه فى القيام بواجباته وفى اجتذاب الناس الى المهنة . وقد لوحظت بعض الاتجاهات المتعارضة بعض الشىء فى معظم البلاد فى النصف الأول من القرن العشرين . فمن جهة كان هناك اتجاه الى منح مهنة التدريس اهمية أكبر ، بأن يشترط فى المدرس الحصول على مؤهلات أعلى وتدريب أكثر تخصصا وبأن يرفع مرتب المدرس . ومن جهة أخرى فانه حين أصبحت المجتمعات أكثر انفتاحا واتاحة لتنقل الأفراد بين الطبقات ، فان المدرس لم يعد يتمتع بالمكانة التى كان يتمتع بها فى مجتمع طبقى به عدد قليل من المهن . فارتفاع تكاليف الحياة يجرى بسرعة تفوق زيادة مرتب المدرس ، فصار من أصعب الأمور على المدرس أن يحيا وفق متطلبات مركزه ، بينما الأجور الصناعية ، والمرتبات فى الميادين الأخرى ترتفع بسرعة أكبر ، وتمثل بديلا أكثر جاذبيـــة من التعليم . ففى الولايات المتحدة مثلا كان تزايد ارتفاع مستوى الأجور الصناعية قد فاق مستوى مرتبات المدرسين التى ترتفع ببطء فى سنة ١٩٤١ . وظل الفرق يتسع فى الأعوام التالية . وفى بعض المواد مثل العلوم والرياضيات أدى ارتفاع المكانة فى الوظائف البديلة ، مع ارتفاع المرتب ، الى أزمة فى الحصول على المدرسين .

فالحاجة الى المدرسين الأكفاء هى أكبر المشكلات انتشارا فى النظم التعليمية فى كل انحاء العالم .

٥ ــ تغيير مواد التعليم وطريقته

مع تزايد عدد الملتحقين بالمدارس ، حدثت تغييرات فى مواد الدراسة وطـرق التدريس . وتضمنت هـذه التغييرات : طبع المنهج بالطابع العصرى ، بحيث يشمل ألوانا جديدة من المعرفة ، أو توجيه التعليم نحو جوانب من الحياة الحديثة ، بدلا من سيره فى الاتجاهات الكلاسيكية فى المنطقة ــ الاغريقية واللاتينية فى الغرب ، والعربية أو السنسكريتية القديمة أو الصينية كل فى ثقافته الخاصة ــ وبذا يمكن للتعليم أن يقدم

الكفايات التكنولوجية التى يحتاج اليها المجتمع الحديث ويعالج الميول والطاقات التى تتمثل فى قطاعات الشعب ، ويطبق نتائج البحوث البداجوجية والنفسية على تربية الفرد وتطويره وتحقيق أهداف الدولة.

١ - الصياغة العصرية لمنهج الدراسة :

في الأعوام الأولى من هذا القرن أخذ التعليم الثانوى التقليدى فى أوروبا يستكمل بالمواد الحديثة ، فزيدت عليه دراسة اللغات الحديثة والعلم وبعض المواد الاجتماعية حتى أن النظام الفرنسى الذى يتميز بمركزيته الشديدة ، والذى تتحدد فيه بشكل تفصيلى المواد الدراسية فى كل مرحلة ، أخذ يعطى محتوى دراسيا جديدا للمدارس الثانوية الحديثة بالاقاليم (كوليج) . وبمضى الوقت زاد عدد هذه المدارس العصرية ، كما أدخلت المواد الحديثة فيما يدعى بالمدارس الكلاسية ، حتى وجدنا فى منتصف القرن أن ٤٠ ٪ من المدارس الثانوية قد صارت تعتبر « عصرية » وان كان التمييز قد فقد أهميته ، لأن كلا من المناهج الكلاسية والحديثة قد صار يقدم عادة فى كل من المدارس الكلاسية والعصرية .

وأنشأت هولنده مدارس ثانوية حديثة الى جانب المدارس الكلاسية (الجيمنيزيا) وكذلك فعلت المانيا وبعد سنة ١٩١٧ حين صار دبلوم المدرسة الثانوية العصرية أساسا لدخول الامتحانات الجامعية حدث تداخل بين برامج الجيمنيزيا والمدرسة الثانوية العصرية . وكانت الجيمنيزيا الكلاسية تهيىء حاملى دبلوماتها للالتحاق فقط بكليات الاقتصاد أو العلوم الاجتماعية ، ولكن كلا من الجيمنيزيا والمدارس الثانوية العصرية صارت تقدم دبلومة حديثة تهيىء حاملها للالتحاق بكليات الطب والرياضة والفزياء . وكذلك القانون والاقتصاد والعلوم السياسية والاجتماعية .

وفى أقطار أوروبية أخرى كانت المواد الكلاسية التقليدية تستكمل على نحو مشابه ، أو يستبدل بها العلوم الحديثة والأدب والعلم والدراسات الاجتماعية . وكان هذا الاتجاه أوضح ما يكون فى الولايات المتحدة ، حيث كانت الدراسات الكلاسية تتكدس ، وتقف بمفردها ، سواء على المستوى الثانوى أو الجامعى وفى الأربعينات لم يكن بين الجامعات الأمريكية ما استمر على جعل الالمام باللغة الكلاسية شرطا للالتحاق بها ، أو الحصول على درجاتها ، الا عدد قليل من هذه الجامعات .

وفى خارج منطقة الثقافة الغربية كانت الصياغة العصرية للتعليم تعنى طبعه بالطابع الغربى متميزا عن التعليم الكلاسى الصينى أو الهندى أو الاسلامى . وكانت المواد الغربية التى تدرس تتبع عادة الاتجاهات الاكاديمية التقليدية للتعليم فى الدولة الحاكمة . فالمدارس فى المستعمرات الفرنسية كانت تدرس بها نفس المناهج التى تدرس فى فرنسا بقرار من وزارة المعارف الفرنسية . وفى بلاد أخرى كانت المدارس التى تستهدف اعداد الطلاب للالتحاق بالجامعات فى الدولة الأم مضطرة الى أن تدرس المواد الكلاسية اللازمة للالتحاق بهذه الجامعات . ولقد أنشأت المدارس فى البلاد المستقلة غير الغربية بالتدريج برامج تجمع بين الرياضيات والعلوم واللغات الحديثة والتاريخ ، مما تتميز به الدراسة فى المدارس الغربية الحديثة ، مع بعض العناصر التقليدية المحلية بعد تطويعها للاهتمامات والاحتياجات القائمة عند الشعب .

٢ ــ ادخال المواد الفنية والمهنية :

ترتب على ادخال المواد الفنية والمهنية وغيرها من المواد العملية انفصال جذرى عن التقاليد ، وكان هذا أبلغ اثرا من الصياغة العصرية للمناهج . وكانت المانيا هى التى تزعمت هذا الطريق فى القرن التاسع عشر ، حين أنشأت مدارس فنية خاصة تلى الدراسة الابتدائية والثانوية وقد أنشأت بعض البلاد مثل هولنده ، أنماطا مختلفة كثيرة من المدارس الفنية الخاصة ، على المستويات الابتدائية والثانوية فى ميادين كثيرة مختلفة كصناعات الخشب والمعادن ، وصيد الأسماك والملاحة ، والزراعة ، والتجارة ، والفنون الجميلة والصناعية ، والتدبير المنزلى ، والتوليد . وقد أدخلت غيرها مثل الولايات المتحدة مجالات أوسع فأوسع من المواد المهنية والتكنولوجية فى برنامج التعليم العام . ولقد حاولت بريطانيا حين أعادت تنظيم التعليم بها بعد عام ١٩٤٤ أن تضع المدارس الثانوية الفنية على قدم المساواة مع المدارس الفنية العامة والمدارس الفنية الاكاديمية .

ولقد ادت سرعة التغييرات التكنولوجية الى تعقيد مشكلة التعليم الفنى . فمع أن عدد الوظائف والمهن التى تتطلب تدريبا متخصصا قد تضاعف ، فان التقنيات والمهارات التى تدرس بالمدارس قد تصبح عتيقة حين يتهيأ التلميذ للانتفاع بما تعلمه ، أو قد تنتفى فائدتها خلال حياته العملية . وبينما المدارس تخضع لضغط قوى لكى تدرس التقنيات فان

المربين يتفقون على أن ما يحتاجه التلميـــذ الحديث فى المدن هو الفهم الأساسى للمبادىء العلمية والطواعية والقدرة على تعلم طرق جديدة ، والاستجابة للتغيير . وادخال عدد متزايد من المواد الفنية فى التعليم العام قد وازنه الاتجاه لجعل التدريب الفنى أوسع فى مجاله ، واقل فى تركيزه على مهارات محددة .

وقد ادى ادخال المواد المهنية الى اثارة سؤال عن هدف التعليم انقسمت بشأنه آراء المربين هل من مهمة التعليم العام أن يمد المجتمع بأفراد مدربين ، ويهيىء التلاميذ لكسب عيشهم حين يكبرون ؟ أم أن مهمته تزويد التلاميذ بالتراث الثقافى ، وتنمية شخصية الفرد ، وقدرته على النمو والتلاؤم الاجتماعى ؟ . فى الولايات المتحدة على الخصوص ، حيث الحد الفاصل بين التعليم العام والمهنى أقل وضوحا مما هو فى أوروبا ، كان هناك قلق خطير من أن يؤدى النظام التعليمى الى مجرد تخريج فنيين اكفاء ، لم تنم فرديتهم ولا شخصيتهم الاجتماعية . وفى الاتحاد السوفيتى من جهـــة أخـرى كان التدريب العملى والخبرة فى النشاط الانتاجى يعتبران ضروريين لتحقيق أهداف التعليم السوفيتى « لاعداد بناة للمجتمع الشيوعى ، متنوعى الخبرات والقدرات ، يتميزون بالنشاط والوعى » .

٣ ــ تطويع الدراسة لتلائم ما يطرأ على جسم التلميذ من تغييرات : ــ

عندما وصل التعليم الثانوى الى قطاع من الناس يزداد اتساعا ، وجب أن تتسع مواده ، لتتلاءم مع ما يتغير من قدرات التلميذ واهتماماته واهدافه . وأدى نشر التعليم الثانوى بين الجميع الى اضطلاع المدارس بمهمة تزيد فى تعقيداتها بكثير عما كانت تتحمله المدارس التى لا تخدم الا عددا محدودا من الناس ، مختارين على أساس تقاربهم فى الوضع الاجتمـــاعى أو المستوى العقلى . ولما كان لا ينتظر من كل المراهقين أن تكون لديهم اهتمامات عقلية قومية ، فقد اضطر التعليم الثانوى تقريبـــا الى أن يشمل مجالا واسعا من المواد المختلفة ، وفضـــلا عن ذلك فان وجود أغلبية من تلاميذ ليسوا أساسا من ذوى الميول العقلية ، قد أخذ يثقل كفة الميزان لصالح المواد العملية .

ولقد حلت بعض النظم التعليمية هذه المشكلة بأن جعلت البرنامج يتلاءم مع مختلف قطاعات الشعب ، ويبدأ يسمح بالمرونة والاختيار من داخله ، كما كانت الحالة عادة فى الولايات المتحدة . وحاولت نظم أخرى

أن تقدم برامج منفصلة لمجموعات متميزة ، مقسمة حسب القدرة والميل. فقد حاول البريطانيون بعد عام ١٩٤٤ أن يختاروا الأطفال ذوى الميول العقلية على أساس الاختبارات ، والانجاز المدرسى ، والاهتمام ، وتوجيههم الى المدارس الثانوية الأكاديمية التى تعد التلاميذ للجامعة . أما التلاميذ الذين يظهرون ميلا ميكانيكا ، أو اهتماما تكنولوجيا فيوجهون الى المدارس والدراسات الفنية . وكانت الحكومة تنفق على تعليم معظم التلاميذ فى المدارس الثانوية الحديثة التى حاولت أن تجمع بين المواد الأكاديمية والعملية ، وأن تطوع البرامج والطرق لشتى الاحتياجات والاهتمامات والقدرات من جانب الأطفال . وفى هولنده حلت مشكلة الاختلاف بين التلاميذ بانشاء نظام المعاهد الفنية المتخصصة .

وفى داخل مختلف النظم التعليمية والمهنية كانت النصيحه تبذل للتلميذ حين يختار بين المواد التى يدرسها بأن يكون اختياره على أساس اهتماماته وقدراته والفرص المحتملة للعمالة . وابتكرت اختبارات القدرات والشخصية ، لتكون أساسا لمثل هذه النصيحة ولتكمل الشواهد التى تتوفر من ملاحظة عمل الصبى وانجازاته فى الفصل . كذلك اعترفت المدارس بأنها مسئولة عن تهيئة كل التلاميذ وامدادهم بالمعرفة الاجتماعية ، بصرف النظر عن المجال الذى يتخصصون فيه . وكان المضمون الاجتماعى لكل الدراسات يتوسع ليشمل علم النفس ، والعلاقات الانسانية والنظم الاجتماعية ، والتاريخ لحديث وبعض المعرفة بالاقتصاد ونظام الحكم .

وقد أدى التوسع فى تعليم المرأة الى اثارة هذا السؤال هل تكون المواد التى تدرسها المراه هى نفس ما يدرسة الرجال ؟ فى المدارس الابتدائية يتجه الرأى الى أن يدرس الفتيان والفتيات معا فى نفس المدرسة ، حيث يتلقون نفس المواد وأن أبقت بعض النظم التعليمية على فصل البنين عن البنات فى مدارس خاصة بكل منهما ، ولا سيما فى بعض البلاد الاسلامية والكاثوليكية . وحتى على المستوى الابتدائى ، رأينا ان المدارس التى ادخلت نشاطا عمليا وتربية بدنية كان عليها أن تحل هذه المشكلة : هل يتاح للفتيات أن يتعلمن الحياكة والطهى ، بينما الفتيان يتعلمون استخدام الآلات ؟ وهل تكون تمرينات الرياضة البدنية واحدة عند النوعين ؟ وفى المستوى الثانوى تزيد المشكلة حدة لوجود المواد المهنية والدراسات المتصلة بالحياة اليومية ، مثل التدبير المنزلى ، والعناية بالطفل . وفى نظم التعليم التى تتسم دراساتها بالتنوع والمرونة

لمواجهة احتياجات مختلف التلاميذ كما فى المدارس الثانوية بالولايات المتحدة فان مثل هذه المرونة جعلت من الممكن تدريس مواد ذات اهمية خاصة للبنين أو البنات دون استبعاد أى من النوعين من المناهج التى يغلب عليها النوع الآخر .

وحذت الجامعات حذو المدارس الثانوية فوسعت من ميادين دراساتها استجابة لتزايد عدد الطلبة الذين يتلقون التعليم الجامعى واستجابة لما حدث من ظهور ميادين جديدة للمعرفة واستجابة لتعدد الميادين المهنية التى تتطلب مؤهلات عالية . وكانت الجامعة الأوروبية انتقليدية تتكون من كليات اللاهوت والحقوق والطب والفلسفة و لآداب والعلوم الطبيعية . وتمنح الجامعات البريطانية درجات فىاللغات القديمة والقانون والتاريخ الحديث والآداب والطب والعلوم . وتشمل الجامعات الأمريكية كليات للفنون الحرة ، مدة الدراسة بها اربع سنوات ، وبها أقسام تقابل كل ميدان من ميادين المعرفة ، يضاف الى هذا مدارس للدراسات العليا تمنح درجات عليا فى هذه الميادين ومدارس فنية للطب والقانون والهندسة وغيرها من المهن . وباتساع المعارف أضافتالجامعات الأوروبية اليها أقساما جديدة أو كليات بأكملها لمواد مثل علم النفس ، علم الاجتماع ، الاقتصاد ، العلوم السياسية والاجتماعية ، الهندسة ، كما تمنح الجامعات البريطانية درجات فى ميادين اضافية ، وانشات الجامعات الأمريكية أقساما جديدة في مجال الأكاديميات والمجال التطبيقى ، مثل التدبير المنزلى ، وادارة أعمال الصحة العامة . وفضلا عن ذلك فقد أقيمت فى بلاد كثيرة جامعات فنية منفصلة ، أو معاهد متخصصة فى الميادين الجديدة .

كذلك تغير طابع مجموعة الطلاب الجامعيين وبدأ يعكس المجتمع بأسره، على نحو ما يعكسه طابع طلاب المدارس الثانوية . فالطلاب الذين أتوا من بيئات اجتماعية محدودة التعليم لم يأتوا معهم الى الجامعة غالبا بثراء الماضى الثقافى الذى كان من خصائص الطلاب السابقين وهذا من أسباب الميل الى توسيع الثقافة الحرة فى تعليم المهندسين والمحامين والأطباء والعلماء ، الذين سيطالبون باستخدام معلوماتهم المهنية ونفوذهم المهنى فى الحياة الاجتماعية والثقافية التى هم بحاجة الى فهمها . ولما زاد عدد النساء المقيدات بالجامعات ، اظهرن ميلا الى التركز فى بعض الدراسات ولكنهن لم ينصرفن عن الميادين البعيدة عنهن نسبيا ، مثل الهندسة ولقد التحقت بعض النساء القليلات بهذه الميادين حتى فى البلاد

الاسلامية وامريكا اللاتينية حيث مشاركة المرأة فى كثير من جوانب الحياة والوظائف العامة أمر من الأمور المستحدثة والمحدودة .

وفى كل من المدارس الثانوية والجامعات وما فى مستواهما كان تنوع مواد الدراسة واختلافها ـ لكى تلائم مختلف النماذج من السكان وضرورة ايصالها الى الطلبة المتوسطين فضلا عن المتفوقين كان هذا التنوع وتلك الضرورة سببا فى مشكلة تتطلب الحل ، وهى كيف نمنع وجود عدد كبير من الطلبة المتنافرين غير المتجانسين من التأثير على نوعية التعليم ؟ كيف نمنع وجودهم من الحيلولة بين القلة الموهوبة وبين بلوغها أقصى مستوى تستطيعه ؟

ولقد أخذت محاولات حل المشكلة أشكالا شتى : انشاء مدارس أو فصول خاصة ، معاهد خاصة للأطفال الموهوبين ، التعجيل بانتقال أكفأ التلاميذ خلال المراحل التعليمية ، طبع التعليم بطابع العناية بالفرد، داخل فصل واحد ، أو مدرسة واحدة ، على نحو يثرى برامج التلاميذ الموهوبين دون أن يجعلهم بمعزل عن الآخرين . ولكل من هذه الوسائل مؤيدوه ومعارضوه فبعض المربين يعتقدون أنه من الخير حماية الأطفال المتفوقين عقليا من تفاهة زملائهم وصخبهم فيجب أن يجمعوا معا كي يستثير كل منهم نشاط زميله ، بينما يصر فريق آخر من المربين على أن هذا الفصل يؤدى بالنابهين من التلاميذ الى التعالى والغطرسة ويرى بعضهم تشجيع الطفل الذكى على أن يتقدم بالسرعة التى يتيحها له عقله ويعترض آخرون على ذلك بأن العجلة قد تدفع بعقل الطفل الى ما يجاوز مرحلة نضجه الاجتماعى . وبعضهم يرى أن التدريس المرن المعنى بالفرد يستطيع أن يستخرج من الطفل كل امكانياته العقلية دون أن يضحى بتطوره الاجتماعى الديمقراطى . وفضلا عن ذلك فان التنوع الكبير فى مواد الدراسة يؤدى الى مشكلة وجود « أنصاف المتعلمين » فلقد تعرضت أعداد كبيرة من الناس لتأثير مجموعة واسعة الاختلاف من المعارف ولكن التعليم لم يمدهم الا بالمام جزئى ومحدود جدا بها وقد قضى تعدد الميادين المتخصصة على نوع الاستاذية المتماسكة الشاملة التى كان يطمح اليها المثقفون فيما مضى . ومن أصعب المشكلات التى أتى بها تعميم التعليم هى كيفية العيش بأجزاء متناثرة من معارف العالم المعقدة الواسعة التى تزداد تعقيدا باستمرار ، وايجاد علاقات بين هذه الأجزاء المتناثرة .

٤ ـ تطور المبادىء التربوية وتطبيقها :

لقد حدثت تغييرات فى مواد الدراسة وطرق التدريس بسبب ما طرأ من تطورات على المبادىء التربوية ونتائج الدراسة العلمية فى الميادين المتصلة بالتعليم .

ولقد سارت التربية فى القرن العشرين طبقا للخطوط العريضة التى رسمها رواد التربية فى القرن التاسع عشر ـ الاهتمام بالطفل من حيث هو « شخص يتعلم » . وتقول العبارة المألوفة لقراء كتب التربية وأبحاثها أن فعل « يعلم » فعل متعد يأخذ مفعولين ، المادة التى تعلم والشخص الذى يتعلم . وتمثلا بما قال به بعض ذوى النفوذ من المفكرين، وممن أجروا التجارب فى أواخر القرن الثامن عشر وفى القرن التاسع عشر مثل (جوهان هنيريش بستالوتزى) و (فردريش فروبل) و (جوهان فريدريش هربارت) فقد ركز علماء التربية فى القرن العشرين اهتمامهم على « الشخص » الذى يعلم . واستحدثوا تقنيات فى غاية الدقة فى الملاحظة ، وأدوات التحليل النظرى ، لفهم نمو الطفل وتطوره ، والعناصر التى تدخل في العملية التعليمية .

وقد انبثقت بعض التطورات الهامة فى طرق التربية فى هذه السنوات من خلال العمل مع الأطفال المعوقين ، لأن محاولة الوفاء بحاجاتهم الخاصة أدت الى تقدير احتياجات الأطفال العاديين . وهذا يصدق على عمل «ماريا مونتسورى» التى بدأت حياتها العملية بالتدريس للأطفال شبه العاديين فى روما عام ١٨٩٨ وأصرت على أن الطفل يجب أن تتاح له الحرية فى أن يعلم نفسه ، وأعدت أدوات تعليمية يستطيع أن يتعلم بها بأقل قدر من التدخل الخارجى اذا قام بالعمل الذى يتفق مع ميوله . ولقد طبقت المبادىء التى بنت عليها طريقتها ، وعلى نطاق واسع فى كثير من البلاد الأوروبية ، وبخاصة على الأطفال فى سن رياض الأطفال كذلك أنشأ المربى البلجيكى « أوفيد ديكرولى » (١٨٧١ ـ ١٩٣٢) نظرياته التربوية التى وصل اليها عن طريق عمله مع الأطفال ممن يعانون من نقص عقلى . ولقد بنى ديكرولى أيضا طريقته فى التعليم على أساس الاهتمام بميول الطفل نفسه وحاول معرفة الامكانيات التعليمية عن كثب ، وتحديد مراكز الاهتمام التى يمكن أن تؤدى الى النشاط العملى فى جو غير رسمى ، والتى تتلاءم مع احتياجات الطفل فى مراحل عمره المتعاقبة ، واختلاف الاحتياجات الفردية .

وكان أشد المبادىء انتشارا في القرن العشرين مبدأ أثر فى طرق التعليم فى بلاد مختلفة ، يقول ان التعليم ليس شيئا منفصلا عن الحياة ، بل هو الحياة نفسها . وثمة فكرة وثيقة الاتصال بهذا المبدأ ، وان كانت ترتكز على أساس سيكولوجى مستقل ، هى الفكرة القائلة بأن التعليم عملية كاملة وليس مجرد شىء يدخل العقل ، بل ان التعليم عن طريق الممارسة أو عن طريق اشباعه لحب الاستطلاع ، تكون له أبعاد أكبر ، ومعنى اخلد عند المتعلم ، من مجرد المعرفة بشىء من الأشياء ، التى قد يستخدمها فى مستقبل حياته .

وكان أبرز الدعاه لهذه الفكرة ، ولعله أقوى المفكرين التربويين نفوذا فى هذا العصر ، الفيلسوف والمربى الأمريكى البرجماتى جون ديوى . فديوى يصر على أن التربية هى الحياة وليست مجرد اعداد للحياة ، وانه ما بقى النمو مستمرا فالتربية مستمرة أيضا . والمدرسة فى مجتمع ديمقراطى يجب أن تكون هى أيضا مجتمعا ديمقراطيا ، يستطيع الأطفال أن يحصلوا فيه على تجارب اجتماعية ، والطفل الحديث سوف يواجه باستمرار مواقف جديدة ، ومشكلات جديدة طوال حياته وعليه لذلك أن ينمى فى نفسه خصيصة حل المشكلات . كان ديوى يؤمن ايمانا عميقا بامكانيات الفرد واحتمالات النمو البشرى ، فاعتقد بأن التربية يجب أن تحافظ على النزعة الخلاقة عند الطفل وتقويها ، لأنه كلما نما كان عليه أن يختار ، وأن يعيد تنظيم تراثه الثقافى ، وأن يعيد صياغته حتى يلائم حاجاته فى عالم دائم التغير .

وكانت المبادىء التربوية التى أعلنها ديوى ملائمة الى أقصى حد لبلاد مثل الولايات المتحدة التى لها تقليد ديمقراطى ، وتتعرض للتغير الاجتماعى باستمرار ، وتعطى العمل قيمة كبرى فى مقابلته بالفكر أو التأمل . ولكنها انتشرت فى معظم بلاد العالم حتى في أمريكا اللاتينية ، حيث تعتبر التربية العقلية منذ القدم أعلى من الحس العملى ، وفى امبراطورية اليابان حيث بنيان المجتمع فى غاية الثبات والقوة والتسلط.

وثمة نظريات تربوية مشابهة ، تركز على الخلق والحرية والنشاط عند الطفل ، صارت تدعي بالتربية « التقدمية » و « الجديدة » وقد أنشأها مربون فى بلاد أخرى فى الربع الأول من القرن ، وقد أدى هؤلاء الى تعزيز الاتجاهات التى دعا اليها ديوى واتباعه . ولقد حاول المربى السويسرى (أدولف فرير) وضع حركة مدارس (النشاط) على أساس دولى ، وذلك بأن أنشأ المكتب الدولى للمدارس الجديدة فى جنيف سنة ١٨٩٩ .

كما أن برتراند رسل فى انجلترا بنظريته « التعليم والحياة الطبية سنة ١٩٢٦ » قد أصر على تنمية خصائص الشجاعة والحيوية والحساسية ، جنبا الى جنب مع الذكاء ، من خلال مدرسة يستطيع الطفل فيها أن يمارس التعبير عن الذات ، وأن يشترك فى أنشطة تعاونية ، وأن يسهم فى مناقشة حرة .

وظهر مربون ألمان مثل برتولد أوتو (١٨٥٩ ــ ١٩٣٣) ولودفيج جيرليت (١٨٥٥ ــ ١٩٣١) يرفضون التعليم الشكلى وأساليب القهر وفكرة توحيد « القالب » التى سارت عليها التقاليد التعليمية في المانيا ، وحاولوا أن يمدوا الطفل بفرص للنشاط لاستثارة حب الاستطلاع عنده، كما حاولوا ادخال الحكم الذاتى فى المدارس وقد أرانا مدرس الفنون من فينا فرانز شزك نتيجة لعمله مع الأطفال الموهوبين فرأينا كيف يمكن اطلاق طاقات الطفل الطبيعية عن طريق التعبير الخلاق . ولقد أدى نجاحه الى دعم الاتجاه الرامى الى احلال تعبير الطفل الحر عن نفسه محل التدريس بالوسائل الرسمية . وظهر فى الاتحاد السوفييتى ستاينسلاسى شاتسكى (١٨٧٨ ــ ١٩٣٤) فحول فكرة النشاط لذاته الى فكرة العمل المفيد اجتماعيا ، وأكد أهمية العلاقة بين التطور الكلى المتماسك للطفل واحتياجات المجتمع الذى ينتمى اليه . وحتى فى النظام الشكلى المركزى للتعليم الفرنسى أجريت بعض التجارب ، بتشجيع من جمعية التربية الحديثة التى انشأها روجر كوسينى سنة ١٩٢١ لنشر التعليم التقدمى فى فرنسا .

وتتمثل سعة انتشار هذه المبادىء التربوية فى انشاء الكثير من المدارس التجريبية التى تتركز حول الطفل . ليست التجارب التربوية بالأمر الجديد بطبيعة الحال ، اذ كانت الشخصية المتكاملة هدفا تربويا مألوفا منذ عصر النهضة الأوروبية . لكن الجانب المميز للمدارس التجريبية فى هذا العصر هو أن يطبق فى مدارس شعبية ليس تلاميذها مختارين مفهوم التنمية الكاملة للطفل ، لا تنمية عقله فحسب ، والتنمية الفردية لكل تلميذ ، ومحاولة تنمية قدرته الابداعية ، ونضجه العاطفى عن طريق برامج النشاط تتبع مع إقل قدر ممكن من السلطة المدرسية. والطرق التقدمية فى التعليم ، والمبادىء المنسوبة الى جون ديوى وماريا منتسورى وغيرهما تعرضت كما يتعرض أى نظام آخر ، لسوء التطبيق على أيدى من أساء فهمها أو أعوزتهم المهارة اللازمة لتنفيذها . ولقد أكد بعض النقاد حقا أن هذه الطرق تتطلب صفات استثنائية من

الحساسية والابداعية من جانب المدرس ، ولا يمكن أن يفترض فى غالبية المدرسين انهم كذلك ، وهى بهذا غير صالحة للتطبيق على أى نطاق واسع . واصر هؤلاء النقاد أيضا على أنه من غير المعقول ان تنتظر من معظم الأطفال أن تحركهم دوافع واهتمامات داخلية بدون المؤثرات الخارجية مثل الدرجات والثواب والعقاب . ولقد كان من أثر التطبيق غير البصير لهذه المبادىء ان فكرة التربية التقدمية كلها كثيرا ما تعرضت للهجوم على أساس أنها تلغى النظام وتبحث عن الابداع فى الطفل دون أن تعطيه أى شىء يستثير ابداعه ، وتخرج اناسا لا يستطيعون العمل الا اذا اهتموا به ، ويعطى الطلبة معلومات متناثرة بدلا من معارف منهجية منظمة .

وخلال هذه السنوات كانت هناك حركات مضادة ترمى الى « العودة الى الأصول » ، ولكن جرثومة أفكار ومبادىء اصلاح المدارس ظلت تعمل عملها ، على الأقل فى تعديل طرق التعليم اذا لم توفق الى أحداث ثورة كاملة فيه . فقد صارت الملامح الصحيحة الجوهرية للمدرسة الحديثة هى التربية الصحية والبدنية والعمل ، والنشاط اليدوى والموسيقى والفنون من حيث هى حوافز لاطلاق نشاط الطفل والدراسة الاجتماعية لانضاج التربية الاجتماعية للطفل . كل هذه الأفكار صارت موضع القبول على نطاق واسع . وفى أول الأمر كان هذا الاتجاه الجديد للتعليم يطبق أساسا على الأطفال الصغار جدا ، ولكن اتسع انتشاره بمضى الوقت فشمل الأطفال الصبية والمراهقين ، ودخل فى مجال التخطيط للنظم التعليمية كلها فى كثير من البلاد .

ومما له صلة وثيقة بالتعليم التقدمى ، وأن اختلف عنه فى منبته ، ومراكز اهتمامه ، وبعض جوانب طرقه ، نظام « التعليم الأساسى » ، الذى أنشأه فى الهند رابندرانات تاجور والمهاتما غاندى . وقد صيغت مبادئه التربوية على نحو ملائم للظروف السائدة فى بلادهما ، حيث كان الفقر المدقع سائدا والعمل اليدوى محتقرا من جانب الطبقات المتعلمة ، أو كان مرتبطا بالطبقات الدنيا فى المجتمع . ولقد قضى كل من تاجوروغاندى على الحد الفاصل بين التعليم والعمل ، فحاولا أن يرفعا من كرامة العمل اليدوى ، وأن يجعلاه أساسا لتدريب اليد والعقل ولاعادة الحياة الى الشعب الهندى ، وتحقيقا لهذه الغاية اهتما أعظم الاهتمام بتعليم حرفة من الحرف .

وعند غاندى ان الحرفة اليدوية اذا درست بطريقة تستميل العقل وتثريه كما تنظم حركة اليد فانها تكون وسيلة لتعليم مواد كثيرة مثل الرياضيات والجغرافيا ، والعلوم العامة ، واللغات ، وهى فى نفس الوقت تمكن الطالب من أن يستثمر وقته فى عمل انتاجى نافع ، وعنده أن النشاط ليس كافيا فى ذاته ، بل ينبغى أن يكون مفيدا . والحرفة يجب أن تعلم وتمارس بكفاية ، وان تخلق عادات الاتقان وتنمى الاعتماد على النفس واحترام الذات . وكان يعتقد زيادة على ذلك أن الطلبة اذ ينغمسون فى العمل ، فقد يستطيعون تمكين المدرسة من تغطية جزء من نفقاتها على الأقل — وهى فكرة جذابة فى مجتمع فقير ، لاتتسع موارده للانفاق على التعليم العام لكل أطفاله .

والحرف الخاصة التى أدخلها غاندى هى الغزل وفلاحة البساتين ، واختيرت لأنها ترتبط بالحاجات الانسانية الاساسية الى الملبس والطعام وتحتاج الى مهمات ومواد بأقل تكلفة ممكنة . وفضلا عن ذلك فالغزل يرمز مباشرة الى حملة غاندى لتحرير الهند من التبعية للصناعة البريطانية . ومع ذلك فان مبادئه يمكن تطبيقها على اى حرفة تحقق النفع الاجتماعى . ومع أنه كان واضحا للمربين الهنود ان تركيز غاندى على الحرف كان سياسيا بقدر ما هو تربوى ، وأن مجال ما يمكن تعليمه عن طريق التدريب الحرفى محدود وأن محاولة تمكين المدرسة من تغطية بعض نفقاتها كانت تهدد بجعلها مركز عمل للأطفال ، فان بعض مبادىء النشاط التى أعلنها غاندى أدمجت فى النظام التعليمى الأساسى بالهند .

واستمد التعليم السوفييتى فى مراحله الأولى عقب ثورة اكتوبر ، أفكاره من التعليم التقدمى وحاول أن يكيفها طبقا للأهداف الاشتراكية. لكن بعد أعوام التجريب الأولى صار التعليم السوفييتى يسترشد بمبادىء بيداجوجية متميزة خاصة به داخل اطار الايدولوجية الماركسية اللينينية ، ولقد أسهم عدد من المدرسين والشخصيات العامة فى تطوير البداجوجية السوفيتية ومن بينهم (N.K. Kruprkayaym, j. ومن صائغى النظرية الرئيسيين F.E. Dzecrzhinsky (١٨٨٨–١٩٣٩) Kalinn الذى اختبر أفكاره فى مستعمرات الأطفال الذين لا مأوى لهم والتى كان يديرها بين عامى ١٩٢٠ ، ١٩٣٤ . وكان أهم مبدأ تربوى فى نظره هو كيف نجمع بين أشد الواجبات المفروضة على التلميذ وأدقها وبين اقصى الاحترام لشخصيته . وقد رفض نظرية التربية « الحرة » على

اعتبار أنها تؤدى الى الرخاوه ، وفقد زمام المبادرة ، والعجز عن مواجهة الصعاب ، وتعرض عن استخدام اختبارات الذكاء وغيرها من المقاييس التى تفترض — أو تتضمن — أن شخصية الفرد تتحكم فيها الوراثة او بيئة ثابتة .

وكما يقول كاتب سيرته كان « نظامه الكامل فى التربيـــة مشبعا بالثقة البلشفية فى الامكانيات الواسعة للانسان ، مع تفاؤل كبير ، وثقة بالطاقات الخلاقة لمن يعيشون في ظل النظم الجماعية » . وكان يعتقد أن الانسان يجب أن يكون أمامه شيء ممتع يعيش من أجله ، ومعنى هذا بالتعبير البيداجوجى انه فى المحل الأول يجب أن تكون المتعة نفسها منظمة ، وان تبعث فيها الحياة وأن تتحول الى شيء ممكن . وثانيا فان المصادر البدائية للسعادة يجب باستمرار أن تتحول الى مسرات أكثر تعقيدا وأقوى من حيث المغزى البشرى * . وكان يعتقد أن الجماعة لها قوة تربوية ضخمة ، وهى تضع التفاصيل المعقدة لطريقة استخدامها فى التعليم • وكان يركز كثيرا على تأثر الطالب بالانخراط فى عمل نافع اجتماعيا • وجمع فى مؤسساته بين التعليم المدرسى والعمل الانتاجى، بهدف تنمية الطفل بأكمله عن طريق التربية العقلية والخلقية والجسمية والجمالية ، وعن طريق تعليم الصناعات المختلفة .

ولقد ادمجت مبادىء ماكارنكو فى النظام التعليمى السوفييتى فى الاعوام التى تلت بداية تنفيذ الخطة الخمسية الأولى ، وانعكست فى الدقة فى مطالبة الطلبة بأداء واجباتهم ، ونظام الجوائز ، والحوافز الجماعية للانجاز الفردى والربط بين الدراسة فى المدرسة والعمل النافع اجتماعيا ومحاولة الاحتفاظ بجو مرح فى التعليم ، وادماج التدريب البدنى والجمالى والمهنى بالجوانب الأخرى للتعليم العام .

وفى مواجهة كل هذه الاتجاهات الزمنية الحديثة التى تمثلهـــا التربية التقدمية ، ومبادىء غاندى ، والبيداجوجية ، والأشكال الأخرى للتجارب التربوية كان يقف في اصرار نظام التعليم الكاثوليكى ، الذى ظل دون أن تهتز قواعده ، وان عدل فى بعض طرائقه التفصيلية .

وتقوم التربية الكاثوليكية على العقيدة الكاثوليكية مباشرة : على فكرة الطبيعة المزدوجة للانسان ، الطبيعية والعلوية ، وسقوط آدم الذى حرم الانسان من حياته العلوية وخلاص الانســان على يد المسيح ،

(*) A.S. Makarenko, Road to Life (Moscow, 1951), p. x).

ورسالة الكنيسة والتعليم المسيحى من حيث تمكين الانسان من ادراك مصيره فى السماء . والهـــدف الثابت للتعليم الكاثوليكى كما ورد فى المنشور البابوى عن « التعليم المسيحى للشباب ســنة ١٩٢٩ » هو التعاون مع رحمة الله فى تشكيل المسيحى الصحيح الحق .. الرجـل العلوى ، الذى يفكر ، ويحكم على الأمور ، ويتصرف دائما على نحـو متسق طبقا للعقل الصحيح ، يتلألأ فيـه النور العـلوى الذى يأتى من تمثل المسيح فى شخصه وتعاليمه .. ويجب ألا ننسى أن موضـــوع التعليم المسيحى هو الانسان كله وبأكمله ، الروح مرتبطة بالجسم فى وحدة طبيعية وبكل ملكاته الدنيوية والعلوية .. لأن التعليم هو فى جوهره اعداد الانسان لما يجب أن يكونه وما يجب أن يفعله هنا على الأرض ، لكى يبلغ الغاية السامية التى خلق من أجلها ، فمن الواضح انه لا يمكن أن يوجد تعليم حق ، الا اذا كان موجها كله للغاية الأخيرة للانسان ..

والمبادىء الدائمة للتعليم الكاثوليكى لا تتضمن طرقا محددة . فكان هناك مجال كبير للاختلاف بين الطرق المستخدمة . فمع أن الفرق التى قامت بالتعليم مثل اليسوعيين استمرت تطبق تقنياتها المتقدمة ، استخدمت بعض المدارس الكاثوليكية مبتكرات حديثة مثل طريقـــة المشروع ، مرتبطة بنماذج أخرى للتعليم . والخصيصة المميزة للتعليم الكاثوليكى هى أنه يضع القيم الروحية فى المقدمة دائما . فهو يصر على أنه لا يمكن لأى تعليم أن يتجاهل العامل الدينى ، وان المدارس الزمنية انما تستطيع أن تقدم شكلا ناقصا ومشوها للتربية ، اذ ينقصها أهـم عناصرها وهو الدين . وكان هذا الاصرار على« الانسان بكامله وتمامه» وعلى غاية الانسان العلوية هو ما جعل الكنيسة تتشبث بقوة بأن تعليم الأطفال لا يمكن أن يعهد به الى سواها .

٥ ـ استخدام المكتشفات النفسية الجديدة :

ان ظهور الطرق التربوية قد تأثر خلال هذه السنوات بالتطورات التى حدثت فى ميدان علم النفس ، وبخاصة فى علاقة هـذه التطورات بعملية التعليم ، وبطبيعة النمو والتطور البشرى * .

وقبيل بداية القرن كان الاهتمام المتزايد بسيكولوجية الطفل قد أدى الى انشاء جمعيات دراسة الطفولة في بريطانيا وألمانيا وفرنسا ،

---

* See Chapter XVI, The Scientific Approach to Human Behaviour and Human Relations, and Chapter XVII, The Home.

وادخال دراسة نفسية الطفل فى مناهج بعض اقسام الجامعات . وفى الاعوام التى سبقت الحرب العالمية الاولى ، كانت محاولات ايجاد وسيلة للتمييز بين الأطفال حسب طاقاتهم الطبيعية ، وبخاصة ما يدعونه اختبارات الذكاء التى ابتكرها الفريد بينيت فى فرنسا وطورها ب.ل تورنديك فى الولايات المتحدة ، كانت هذه المحاولات قد ارست الأساس لطريقة علمية لدراسة الفروق الفردية . وفى أول الأمر عين رجال علم النفس فى هيئات الاشراف على المدارس فى لندن سنة ١٨١٣ ولوس انجلوس فى الولايات المتحدة سنة ١٩١٢ . وكانت وظيفتها الأولى التعرف على الأطفال ممن يقل ذكاؤهم عن المعدل المعتاد ، الذين لا يستطيعون الاستفادة من مناهج الدراسة العادية بالمدارس . وبمضى الزمن اتسع نطاق عملهم بفضل ابتكار فنون الاختبار ، لكشف الفروق فى الاستعداد والمميزات الشخصية والتوازن الانفعالى والنمو العاطفى .

وأدى تحسن وسائل تشخيص احتياجات الطفل وقدراته الى ايجاد أساس لتوجيهه فى التعليم على نحو أكثر فاعلية . ولكن معظم الاختبارات ابتكرت في مناطق الثقافة الغربية ، وبين أطفال المدن . ومع انها طوعت بطرق مختلفة ، وبذلت محاولات لتصميم الاختبارات على نحو يجعلها مستقلة عن العوامل الثقافية ما أمكن ، فقد ظلت غير كافية لتقدير الذكاء ، والقدرات ، والامكانيات والتلاؤم العاطفى للأطفال الريفيين ، وفى خارج مناطق الثقافة الغربية .

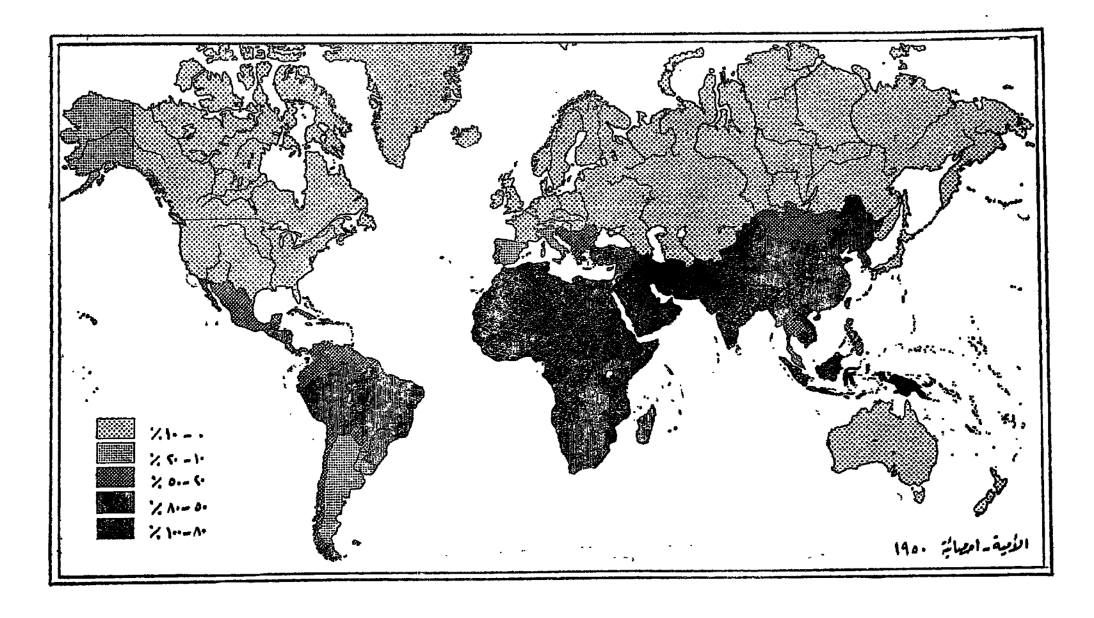
ولم نصل الى حل فى شأن الحد الذى يستطيع التعليم نفسه أو غيره من الخبرات تعديل ما يوصف بأنه قدرات فطرية . ولكن الشواهد القوية التى تجمعت فى ميدان التغذية والعناية بالرضيع ، والصحة العامة ، والأمراض العقلية ، تدل على أن قدرة الطفل على الاستجابة للتعليم قد تضمحل بشدة بسبب نقص التغذية ، أو الجوع العاطفى فى الطفولة المبكرة ، أو ضعف الصحة بدنيا أو عقليا ، وأن تحسين هذه الظروف قد يؤدى الى زيادة قدرة الطفل على التعليم ، فالطبيعة فيما يبدو تعتمد الى حد ما على « التغذية » .

ولقد استبانت بعض عناصر عملية التعليم بفضل نمو علم النفس التجريبى واهتمامه البالغ بالمثير ورد الفعل ، والادراك الحسى ، وتداعى المعانى ، والفعل المنعكس الشرطى ، وأثبتت سيكولوجية الجشتالت ان الحقائق أو الأفكار الجديدة لا تدرك فى فراغ ، بل تدرك كجزء من مفهوم كامل فى عقل الفرد تندمج فيه كل ملاحظة جديدة . وادت هذه المكتشفات

الى الارتياب فى النماذج الأولى للتعليم عن طريق الاستظهار ، دون وجود رابطة فكرية بين أجزاء ما يستظهر ، كما ادت الى الشك فى افتراض أن شيئا يتعلم فى سياق معين سيكون له تأثير بالضرورة فى سياق آخر.

وبفضل ما تحقق من تقدم في دراسة العقل ، أصبح رجال التربية أيضا على وعى بالعنصر العاطفى في التعليم ، وبما يترتب على ذلك من الحاجة الى الاهتمام باستعداد الطفل لاستيعاب المادة ، وبواعثه على التعلم ، والعوامل العاطفية التى قد تعوق قدرته على الفهم . فلما اتضح أن الفرد يجب أن يقف موقفا ايجابيا فى عملية التعلم ، ولا يكون مجرد وعاء تصب فيه المعلومات أوجد هذا الأساس السيكولوجى (للتعلم بالعمل) من حيث هو وسيلة للتعلم ، ومن حيث هو أداة للربط بين الفرص التعليمية والميول التى استثيرت فى الطفل . ووجه مزيد من الاهتمام الى التناغم فى مرحلة الطفولة الأولى ، وما أدى اليه ذلك من نمو حركة انشاء مدارس الحضانة . اما بشأن النسبة المتزايدة من الشبان الذين يمرون بالفترة الحرجة عاطفيا ، وهى فترة المراهقة ، بالمدرسة لا بمكان العمل ، فقد حاولت المدارس رسم البرامج التى تعينهم على النمو السليم واستكمال النضج .

ولقد أدى فهم العوامل الاجتماعية ، وعلى الأخص دور الثقافة فى تشكيل الشخصية ، الى ظهور أساس جديد لتفسير سلوك الطفل وتوجيه التعليم لما يلائم احتياجاته . اذ صار على المدارس أن تدرك ، وأن تعالج ، افتقاد الطفل للتلاؤم الاجتماعى ، وكذلك تخلفه العقلى ، أو سوء تغذيته البدنية . عليها باليقظة والفهم حين ينحرف فرد عن قيم مجموعته ، وحين يكون سلوكه متفقا مع مبادىء قد تختلف عما تريد أن تبثها فيه المدرسة او البيت ، أو غير ذلك من العناصر الاجتماعية ، وتعترف المدرسة الحديثة بأن ما يسمى « بمشكلات السلوك » قد يكون انعكاسا للصراع الاجتماعى فى بيئة الطفل ، أو لمحاولة الطفل التصرف فى مواقف بعيدة عن مجاله ، أو تكون أعراضا لاضطرابات فى الشخصية. لقد اتسعت بالتدريج خدمات ارشاد الطفل ، وكانت فى أول الأمر ترتبط أساسا بمحاكم الأحداث ، فامتدت الى المدارس ، ودرب المدرسون على طرق اكتشاف الأعراض الأولى لافتقاد التلاؤم العاطفى واحالة الطفل المريض الى مختص . وصارت تدرس الطفل الذى يفشل فى عمله المدرسى لمعرفة أسباب فشله ، فلم يعد الأمر يقتصر على عقابه أو حبسه


الأمية - احصائية ١٩٥٠
٠ - ١٠٪
١٠ - ٢٠٪
٢٠ - ٥٠٪
٥٠ - ٨٠٪
٨٠ - ١٠٠٪

أو نحو ذلك من وسائل التاديب ، لحمله قسرا على أن يتعلم بل صار يعالج بكل الوسائل التى تستطيعها المدرسة أو المجتمع .

وكثيرا ما أحدث التغيير الاجتماعى السريع تباينا بين المعرفة وقيم المدرسة والبيت ، واضطرت المدرسة الى البحث عن طريق يتمكن بها الطفل من علاج أثر هذه الفجوات التى قد تصادفه . وكانت هذه عملية بالغة الضخامة حيث يتكون تلاميذ المدارس من أبناء المهاجرين الوافدين من بلاد كثيرة ، وكذلك فى البلاد التى تعانى مجموعة متشابكة من النظم المتقلبة الخاصة بالطبقة والقيم ، وفى البلاد السريعة التطور التى تعتبر فيها المدرسة من أدوات التغيير الاجتماعى الجـــذرى ، وفى البيئات الحضرية التى يتدفق عليها باستمرار مهاجرون من الريف ، يحاولون تغيير حياتهم . ولقد نظمت المدارس برامج لتدريب الوالدين ، وشجعت اقامة مجالس الآباء للتقريب بين المنزل والمدرسة وتحقيق التعاون بينهما فى تربية الطفل . ولقد وصلت الدراسة التى قامت بهـــا اليونسكو ونشرتها بعنوان « التربية والصحة العقلية » (باريس سنة ١٩٥٥) الى نتيجة مؤداها أن الطرق المدرسية يجب أن تبقى على علاقة الطفل بمنزله ، بينما تحاول مساعدة المنزل على أن يتطور فى الاتجـاه الذى يسير اليه الطفل . وفى الوقت نفسه عليها تمكين الطفل من أن يقوى على مواجهة الاختلاف والصراع فى المجتمع المعقد ، الذى هو جزء منه .

ولقد طبقت الكشوف التعليمية الجديدة على تعليم المهـــارات الخاصة ، وبخاصة القراءة ، وعمليات الحساب الأساسية ، وأن كان لا يزال هناك اختلاف شديد ومستمر حول الطريقـــة والأسلوب ، ويستهدف استخدام الوسائل السمعية والبصرية منح الجهود التربوية فاعلية أكبر .

وكذلك اعترف بأن نماذج خاصة من التلاميذ لهـم احتياجات خاصة ، فابتكرت طرق فنية وأنشئت فصول خاصة للأطفال المتخلفين فى المدارس الكبيرة تكون الفصول لمجموعة من المدارس وكذلك الشأن فيما يتعلق بالمصابين بضعف خاص فى البصر أو السمع ، أو المصابين بمعوقات صحية معينة . فرجال التربية الأوربيون قد استعرضوا الحاجة الى أمثال هذه التدابير الخاصة فى عام ١٩٥٢ ، وخلصوا الى أنه على أساس التقديرات المحافظة جدا « يبدو من المرجح أنه ليس أقل من طفل من كل ٥ أطفال أو ٦ يحتاج الى نوع ما من المساعدة الخاصـــة التربوية أو السيكولوجية اذا أريد له أن يأخذ فرصة فى النمو السليم

والسعيد ، واذا أريد له ألا يعوق حسن سير الدراسة فى الفصول العادية » . ولقد اعترفت معظم بلاد العالم بحالة الأطفال ذوى الاحتياجات الخاصة ولكن وسائل تحقيق احتياجاتهم قلما تكفى ، وأما الأطفال الذين تواجههم مشكلات من أنواع أخرى فغالبًا ما يلقون الاهمال .

٦ ـ استخدام التكنولوجيا الحديثة :

تأثرت طرق التعليم أيضا بالتقدم التكنولوجى ، فالحاكى والسينما وأشرطة التسجيل والاذاعة والتليفزيون قد استخدمت كأدوات للتعليم، جنبا الى جنب مع السبورة وأقلام الرصاص والأدراج والكتب . ولقد أتاحت الوسائل الجديدة امكانيات ضخمة لتوسيع تجارب الطالب فوق ما كان يستطيع المدرس او المكتبة أن توضحه ، وأمكن احضار أروع آيات الموسيقى الى الفصل ، وأدت وسائل التسجيل الى تمكين التلميذ الذى يدرس اللغة الأجنبية من أن يستمع الى نطقه الخاص ، وأدى التليفزيون المقفل الدائرة الى تمكين المدرس ذى الكفاية الكبيرة من أن يصل بتدريسه الى عدد كبير من الفصول فى نفس الوقت . واذا كان لا يوجد من بين وسائل الاتصال بالجماهير ما يمكن أن يحل محل الاتصال المباشر بين المدرس والتلميذ ، فانها قد أدت الى توسيع كبير فى امكانيات المدرس ، ومجال نشاطه .

وكانت المدارس بطيئة في الاستفادة من هذه الوسائل التى لم تكن لتتفق مباشرة مع نظام التدريس بالفصل ولكن انتشارها أخذ يزداد اتساعا باستمرار . ولقد طبقت المدارس على نطاق جزئى أساليب الاتصال الجماعى تحقيقا للاقتصاد ، وفعلت ذلك من جهة أخرى دفاعا عن النفس ، اذ ادركت أن الطفل يتعرض خارج المدرسة لوابل من اصوات منطلقة من الراديو ، وصور مرئية آتية من السينما والتليفزيون فوجب على المدرسة أن تدخل مجال المنافسة لتستحوذ على اهتمام الطفل ومعتقداته . وفى البلاد التى تقع فيها وسائل الاتصال الجماعية والنظم التعليمية تحت سيطرة واحدة يكون تأثير وسائل الاتصال الجماعية معززا قويا لما تريد المدرسة أن تحدثه فى التلاميذ من آثار .

٧ ـ مادة التعليم وأهداف الدولة :

لقد تأثرت مادة التعليم تأثرا قويا بالتطورات السياسية وأهداف الدولة . فقد قوت الحرب العالمية الأولى من الدعوة الوطنيـة فى كل البلاد تقريبا ، مركزة على الأثر الذى كان قد بدأ منذ أن تولت الدولة مسئولية التعليم العام . وبظهور دول جديدة أو بفرض القوى لنظام جديد وجه التعليم لنصرة النظام الجـديد وكسب ولاء المواطنين له وتفانيهم فيه . والبلاد التى شعرت بتهديد من جانب قوميات أخرى فى الخارج أو قوى ثورية فى الداخل استخدمت مدارسـها لتعزيز العاطفة القومية كحصن يدرأ عنها هذه الأخطار .

وحيث تنعكس المبادىء الديمقراطية الليبرالية فى السياسـة التعليمية يكون من أهم أهداف التعليم تنمية كل فرد لصالحه الخاص، طبقا لقدرته وبصرف النظر عن أصله الاجتماعى . هذا المفهوم للتربية نجد تعبيراً كاملا عنه فى السياسة التربوية لجـون ديوى الذى اقام تفكيره على أساس الاعلان الأمريكى للاستقلال والمبـادىء السياسية لتوماس جفرسون . ويتضمن أن التربية يجب أن تتجه الى حاجات كل الناس ومطالبهم وأن التسهيلات التعليمية يجب أن يتسع مداها وأن تتطور بحيث تحقق تكافؤ الفرصة .

وقصة التعليم فى الولايات المتحدة خلال القرن العشرين تصور هذا الاتجاه الأساسى ، التوسع فى التعليم على مستويات اعلى فأعلى ، وتزايد عدد المواد التى تدرس فى المدارس والكليات وانشاء مدرسة الطفل ، وهى مدرسة يحتل فيها الطفل مكان المركز من الدائرة وتستهدف تنمية الطفل من كل نواحيه ، والاهتمام باسهام المدرسة فى تحقيق التكيف الاجتماعى للطفل . وكانت هذه الغايات نفسها هى ما تستهدفه أيضا النشاطات الكثيرة الخارجة عن مناهج الدراسة ، والتى تقوم المدارس أو منظمات الشباب خارج المدارس . فمنظمـات مثل فتيان الكشافة وفتيات المرشدات وجمعية الشبان المسيحيين ، وجمعية الشـابات المسيحيات ، وأندية أطفال الريف ، وما لا يحصى من مجموعات ميادين الرياضة أو الكنيسة أو الترويح عن النفس ــ كلها تعمل على بنـاء الشخصية وتنمية المسئولية الفردية ، والقدرة على المشاركة الفعالة فى حياة المجتمع .

وصار التعليم فى أوروبا فى اتجاه مشابه ، مع اختلاف ملحوظ بين البلاد من حيث النظام التعليمى وما يوليه الجانب الاكبر من اهتمامه .

ففى كل بلد أدخلت اصلاحات على المدارس تتجه بهـــا اتجاها قويا ناحية المدرسة الديمقراطية التى مركزها الطفل ، والتى تحاول استثارة النشاط الخلاق للطفل ، وتعنى بتنميته الكاملة ، وتهتم فيما تهتم بالتربية البدنية، وبرامج الصحة المدرسية واطعام التلاميذ ، وتتخذ الوسائل الخاصة الملائمة لتربية الأطفال المعوقين عقليا أو بدنيا أو عاطفيا . ولكى تواجه الدول الحاجة الى اعداد أفراد حسنى التدريب فى كل المستويات فقد قوت المحتوى التكنولوجى أو المهنى فى أفعالهم على نحو من الانحـــاء ، أما عن طريق المدارس المتخصصة أو عن طريق تنويع المواد الدراسية فى التعليم العام ــ ولكن بينما مضت النظم الاوروبية بعيدا نحـو قبول مبدأ التعليم للجميع طبقا للقدرة والميل فقد حاولت أن تحتفظ بالقيم المرتبطة بتحديد التعليم العالى وقصره على من يعدون لشغل مراكز السلطة والمسئولية العليا ، ومن يحتاجون الى كفاية مهنية عالية .

ومحتوى التعليم يعكس سياسة الدولة على أوضح صورة حيث تكون الدولة مشغولة باعادة صياغة مجتمعاتها على وجـه السرعة . فكل حكومة ثورية قد استخدمت التعليم بطريقتها الخاصة فمصطفى كمال اتاتورك قد اتبع وسائل تعليمية متطرفة لكى يعيد بنـاء الشــعب التركى فقد أحل الكتابة اللاتينية محل الكتابة العربية فى تعليم كل المواد الدراسية فأوشك الادب التقليدى والفكر التقليدى أن يكونا فى غير متناول الطالب العادى، وصار بصره متجها الى المستقبل .

وفى ايطاليا ركز موسولينى فى أول الامر اهتـــمامه على استخدام منظمات الشباب خارج المدرسة وأنشطة ما بعد العمل بالنسبة للكبار ، لكى يصوغ الشعب الايطالى فى القالب الفاشى . فلما حاول كخطوة ثانية أن يضع كلا من المدارس الدينية والزمنية تحت سيطرة الدولة أصرت الكنيسة على ان الحق الاول فى تربية الشباب انما هو للكنيسة والاسرة. وكانت الطرق التعليمية الهتلرية تستهدف القضاء على مراكز الفكر الحر. فالنظام النازى كان يحقق كلا من العقـلانية والتعليم الدينى ، ويريد أن يسخر التعليم الجماهيرى لاثارة الولاء للزعيم ، واعداد الناس لحياة الحرب، واعداد النساء للمنازل فأعاد تشكيل المدارس بما يلائم هذه الغاية ، وعهد بمهمة التبشير بالنازية للمؤمنين السياسيين .

ولقد قام الاتحاد السوفييتى بأتم المحاولات وأبعدها أثرا ، وأكثرها طموحا لاستخدام التعليم لاعادة بنـــاء شعب ودولة . ومهمته التعليمية اعداد ذلك النوع من الناس الذى يستطيع خلق مجتمع اشتراكى، وارضاع

هذه المبادىء للجيل الصاعد وللراشدين من السكان ممزوجا بالايديولوجية والاخلاقيات الشيوعية والولاء للحزب والتفانى فى الدولة السوفيتية ، وتحويل شعب غالبيته من الفلاحين الأميين الى منتجين أكفاء ، فى الصناعة والزراعة الآلية وأن يضع فى مكان المثقفين البرجوازيين مجموعة جديدة من المثقفين ، مستمدة من صفوف العمال والفلاحين ، وتدريب الفنيين الذين يحتاج اليهم التصنيع السريع وادارة شئون الدولة والاقتصاد .

وفى السنوات العشر التى تلت ثورة اكتوبر تحولت المدارس الأولية الى نوع من «مدارس العمل الموحد» يتركز برنامجها فى العمل النافع اجتماعيا وفى هذه المدارس التى نظمت كجماعات للتلاميذ والمدرسين وغيرهم من العاملين فى المدارس حل « التنافس الاشتراكى » بين فرق الاطفال محل الامتحان التقليدى ومنح درجات للطلبة كأفراد . وضعفت سلطة المدرس لأن نظام المدارس الجديد كان لا مفر من أن يقوم بالتدريس فيه عدد كبير من المدرسين المسنين الذين يعوزهم فهم الايديولوجية الشيوعية أو العطف عليها ، أو المعينين الجدد الذين يعوزهم التدريب والخبرة . ولقد تحققت سيطرة الحزب وتدريس المبادىء الشيوعية بالمدرسة جزئيا عن طريق منظمات الشباب الشيوعى ـ رواد الشباب ورابطة الشيوعيين الشبان .

وفى نفس الوقت عنى بتعليم الكبار عناية شديدة . فكل مركز نقابى أو مصنع أو محطة جرارات زراعية ـ استخدم للتعليم ، لمحو الامية ، ورفع الكفاية فى انجاز العمل بين الرجال والنساء من العمال والفلاحين ، وتهيئة عدد من الأكفاء للعمل فى الصناعة والزراعة . أراد الزعماء السوفيت انشاء طبقة جديدة من المثقفين من أبناء العمال والفلاحين ففتحوا أبواب معاهد التعليم العالى كلها لجميع الرجال والنساء فوق سن السادسة عشرة، بدون مصروفات أو اشتراطات من ناحية الدخل . ولما كان من يعوزهم الاستعداد لا يستطيعون متابعة دروس الجامعة ، أنشئت مدارس اعدادية خاصة تسمى Raifac لمساعدة الطلبة الذين يرجع أصلهم الى الفلاحين أو العمال وعلى الأخص أعضاء منظمات الشباب الشيوعية ، ليعوضوا ما فاتهم من التعليم بسرعة ، ويحصلوا على تدريب فى مستويات أعلى .

وعند بدء تنفيذ الخطة الخمسية الاولى سنة ١٩٢٨ ظهرت الحاجة الى اعداد ضخمة من كل أنواع الفنيين والمهندسين والعلماء والاداريين ، فكان لا بد من انشاء طبقة مثقفين مستمدة أساسا من أبناء العمال والفلاحين ، وهيئة جديدة من المدرسين المخلصين للمبادىء الشيوعية .

ولهذا استطاع النظام السوفييتي فيـــما بعد أن يركز على التنمية الكاملة للمواطن السوفييتي ، وتدريب الافراد من كل المستويات على المشاركة في المجهود القومي العظيم لبناء مجتمع شيوعي يحقق الانتاج الكبير ٠

تركز الاهتمام على التمكن من المعرفة ، وأعيد النظام الى المدارس ، وعادت سلطة المدرس ، بالاضافة الى عقد امتحانات قاسية واعطاء درجات لكل تلميذ على انفراد ٠ وكانت الكتب الدراسية المقررة تراجع باستمرار لتضاف اليها المعرفة الجديدة ، وسياسات الدولة كلما تطورت ، وكانت هذه الكتب تقدم المادة التي تدرس ٠ وكان المطلوب في المدرس أن يدرس مادته على نحو منظم وواضح ، مســتخدما في ذلك مختلف الطرق ، وأن يراجع المادة التي سبق تدريسها مراجعة منظمة ٠

وادخلت امتحانات المسابقة للالتحاق بمختلف معاهد التعليم العالي٠ ومكنت المنح الدراسية للطلبة الاكفاء من الاستمرار في دراستهم ٠ وبعد سنة ١٩٤٠ حين أعيد فرض المصروفات الدراسيةعلى المدارس العليا صارت المنح تعطى لأكفاء الطلبة . وقد استخدم نظام محكم لمنح الجوائز والألقاب لمن يحسنون العمل فأدى الى حفز الطلبة على بذل الجهد ، والتفوق العلمي واستخدمت كل الاجهزة : الصحافة والراديو والاحتفــالات العامة لاضفاء المكانة والاحترام على الشخص المتعلم، وبث الحماسة في المواطن السوفييتي ليحصل من العلم كل ما يستطيع ٠

وتهتم برامج المدارس العامة أعظم الاهتمام بالرياضــيات وعلــوم الفيزياء ، من أول مراحل التعليم ٠ وأدت تعديلات المناهج الى توسيع مجال تعليم الفيزياء والكيمياء ، وزيادة الوقت المخصص للعمل ، كما وسعت من مجال العمل اليدوي ، والنشاط العملي ٠ وخصص ما يقرب من نصـف ساعات الدراسة للمواد العملية والعلمية من سنوات التعليم العـام البالغة عشر سنوات في المدن الكبرى فيأوائل الخمســينات وخصص البــاقي لتدريس اللغة الروسية والأدب الروسي وتاريخ روسيا وجغرافيتها ، ولغة أجنبية ، وتربية بدنية . وبعد التعديلات التي أجريت عام ١٩٥٨ ، والتي قصد بها تحقيق تنسيق أوثق بين التعليم والانتاج زيد الوقت المخصص للتدريب المهني المباشر والعمل الانتاجي زيادة جديدة ، فبلغ ما يقرب من نصف ساعات الدراسة في الصف الحادي عشر ٠ وكانت كل المواد تدرس في اطار الايديولوجية الماركسية اللينينية ٠ كانت المناهج موحدة في كل أنحاء الاتحاد السوفييتي فيما عدا الجمهوريات غير الناطقة بالروسية ، ففيها تدرس الروسية كلغة ثانية ٠

وتشكل المدارس في كل الانماط جزءا من نظــام موحد ، ويحقق اشراف الدولة وحدة المناهج بل ويحقق أيضـا التنسيق بين عمل المدارس وغيرها من المؤسسـات التعليمية وحسن توزيع الموارد التعليمية • وثمة مدارس مختلفة في مستويات مختلفة تقــدم محتـــوى متخصصا يتصل بالميادين التى يعد الطلبة لها • وتهدف التكنيك Tecknikum الى تخريج فنيين متوسطى التدريب للصناعة ، وكذلك للطب والتعليم والموسيقى والفنون • وتعيين خريجيها فى الوظائف مضمون ، وعلى الخريج أن يعمل ثلاث سنوات فى الميدان الذى يدرس فيه قبل أن يتقـدم بطلب الالتحاق للجامعة ويستثنى من هذا الطلبة المتفوقون جدا • فهؤلاء يستيطعون أن يلتحقوا مباشرة بالتعليم العالى فى ميادينهم • وبعد ادخال هـذا النظام سنة ١٩٤٠ صار الشبان من سن ١٤ الى ١٧ يتلقون تدريبـا صناعيا من ستة أشهر الى سنتين فى مدارس العمل الاحتيـاطى الخـاصة ، وبعدها يعملون فى المشروعات الحكومية لمدة أربع سنوات • وهناك دراسات عليا متخصصة بالمعـاهد فى المواد الفنية والطبية والقـانونية وفى المعاهد البداجوجية لاعداد المدرسين ، يقبل الطلبـة بها عن طريق امتحانات المســابقة ، فيما عدا أوائل الخريجين من دراسة الســنوات العشر أو التكنيك ، ويتقرر عدد الاماكن المتاحة للطلبة فى كل ميدان طبقا لاحتياجات الاقتصاد . وتتجه الدراسات الى أن تصبح أكثر تكاملا وتخصصا ، ويعمل الخريجون ثلاث سنوات على الأقل فى الوظائف التى تعينهم فيها وزاراتهم •

والدرجات العلمية التى تتجاوز مستوى الجــامعة ، تتطلب أولاها ثلاث سنوات تليها امتحانات وتقديم رسالة ، وتتطلب الثانية اسهاما علميا أصيلا وهاما • وقد أدى هذا الى اجتذاب أكفأ العلماء لمواصلة بذل الجهود• أما الاكاديميات العسكرية والبحرية التى تعد للالتحاق بها مدارس اعدادية داخلية متخصصة ، ومدارس خاصة لتدريب أفراد الحزب ، فهـذه تقدم تدريبا متخصصا فى هذه الميادين • وقد ورد بالتقارير أن المدارس الفنية الوسطى خرجت اخصائيين بمعدل ٣١٢ ألف فى السنة ، وخرجت المعاهد المتخصصة العليا ٢٢٤ الف خلال الخطة الخمسية الخامسة ١٩٥١/١٩٥٥

وهكذا نجــد أن النظام التعليمى الســوفييتى ، تكمله الصحافة والاذاعة وشبكة من المكتبات العامة وغــير ذلك من المؤسسات الثقافية ، يستهدف اعطاء جميع السكان نظرة علمية وفهما أساسيا لعمليات الانتاج، والتفانى فى مبادىء المجتمع الشيوعى ، وخلق مواطنين موجهين اجتماعيا، واعداد الافراد الحسنى التدريب اللازمين للتطور الاقتصادى والاجتماعى والسياسى والعسكرى السريع للاتحاد السوفييتى •

وكانت اعادة صياغة النظام التعليمى اليابانى بعد سنة ١٩٤٥ مثالا حيا لاعادة توجيه التعليم واعادة صياغته ليخدم الهدف الجديد للدولة . ففى السنوات السابقة على الحرب العالمية الثانية ، كان النظام اليابانى المركزى تسيطر عليه القيادة العسكرية · كان هناك ضباط من الجيش ملحقـون بكل مدرسة ثانوية أو عالية بعد سنة ١٩٢٥ ، وكانت عنايته تتركز فى واجبات الفرد نحو الدولة التى يجب عليه أن يخدمها · وخلال الحرب أغلقت معظم المدارس الثانوية والعالية أبوابهـا ليتفرغ الطلبة للخدمات الانتاجية أو العسكرية ، وحطمت بعض المدارس فعلا ·

وبعد الحرب تصرفت اليابان على أساس ان الهزيمة أثبتت أن الطرق القديمة خاطئة ، فشرعت فى بنـاء برنامج تعليمى يؤدى الى قيـام دولة ديمقراطية ومجتمع ديمقراطى ، أكثر مما يؤدى الى أوضاع أوتوقراطية· فصار المنهج فى كل المدارس يولى معظم اهتـمامه للدراسات الاجتماعية والرياضية التطبيقية والعلم والصحة والرياضة البدنية ووسـائل ازجاء وقت الفراغ ، أملا فى بناء عقول سليمة فى أجسـام سليمة ، ومواطنين صالحين لدولة الديمقراطية · وصارت المدارس تقدم وجبة الغداء ، وتقوم بالكشف الطبى على التلاميذ بين الحين والحين وحل نظام للتعليم الثانوى العام شبيه بنظام الولايات المتحدة المفتوح للفتيان والفتيات محل العدد المحدود للمدارس الاعدادية العليا التى لم يكن يدخلها غير الفتيان ، والتى كادت فى الماضى أن تكون الطريق الوحيد الى الجامعة ·

وفى الكليات والجامعات الكبيرة العدد التى كانت تقدم التعليم العالى فى العلوم والآداب ، وتقدم تدريبا لأرباب المهن والمدرسين ، كان الطلبة يتلقون ثقافة واسعة فى الانسانيات والعلوم الاجتماعية، والعلوم الطبيعية بالاضافة الى المواد التى تخصصوا فيها · كذلك توسـع كل من التدريب المهنى والتربية الاجتماعية للكبار عن طريق برامج الخـدمة العـامة التى تقدمها الجامعات أو المكتبات ، أو المتاحف أو صالات المواطنين العامة التى انشئت بالمدن والقرى ببعض المعونة من الحكومة المركزية . وفى هذه القاعات كانت تلقى محاضرات ثقافية عامة ، وتقدم خدمات مكتبية وأنشطة ترويحية وتنظيمية ·

من خلال هذه الوسائل ، ومن خلال المسالك غـير الرسمية للاذاعة والصحافة ، حاولت اليابان أن تجعل مؤسساتها التعليمية تسهم فى اقامة ثقافة عامة «غنية بالفردية» وأن تتيح فرصا متـكافئة للجميع كل حسب قدرته · وفى السنوات العشر التى تلت هذا الاصلاح التعليمى ، كان عدد

المدارس الثانوية وطلبة المعاهد المعادلة للجامعات ، قد زاد بدرجة كبرى ، وكان عدة آلاف من النساء يستفدن من الفرص الجديدة التى اتيحت لهن للحصول على التعليم العالى. وشعر بعض المربين ان التغيير قد نجم عنه ضعف فى بعض مواد الدراسة عما كان الحال فى النظام القديم ، وخشى من أن تزايد اعداد الطلاب سوف يهبط بمستوى التعليم العالى ٠ ولكن لاحظ آخرون ظهور «مرونة عقلية» متزايدة ، وظهور بعض الصفات الاخرى الاقرب اتصالا بالاهداف الجديدة للمجتمع اليابانى بعد الحرب ٠

أما جمهورية الصين الشعبية فانها فى محاولتها الكبرى للتحضر والبناء الاجتماعى ، استخدمت التعليم كوسيلة قوية لمساعدة البلاد على أن تقفز الى الأمام ٠ وحتى قبل وصول النظام الشيوعى الى الحكم ، وبينما كان الجيش الثامن يبنى قاعدته فى المناطق الشمالية الغربية ، كانت الحركة تركز كثيرا على التعليم ، فالشيوعيون بموارد قليلة وتحت وطأة ظروف الحرب لم يقوموا فقط بتعليم المبادىء الشيوعية بل قاموا كذلك بتعليم القراءة والكتابة للجنود والفلاحين ، وادارة المدارس والكليات حتى على المستوى الجامعى ٠ فلما وصل النظام الشيوعى الى الحكم قام بحملة قوية للتغلب على الأمية المتفشية فى الفلاحين ، واستكثر من المدارس بأسرع ما يمكن فى طول البلاد وعرضها ، وعمل على تقوية المعاهد الفنية والعلمية لاعداد الفنيين اللازمين لمهمات التطوير الاقتصادى والاجتماعى.

وفى أقل من عشر سنوات استطاعت مقاطعة بعد أخرى أن تقول بأن حملات مكافحة الأمية بها وصلت تقريبا الى كل الأميين من السكان ، وأن أفراد أسر بأكملها ــ من الاجداد الى الأحفاد ــ قد التحقوا بمدارس محو الامية ٠ وكان الناس يرسمون الحروف التى تعلموا كتابتها حديثا على الجدران والاشجار وقطع الأثاث ليعينهم ذلك على الدرس والتذكر ٠ وحتى يصير محو الامية ممكنا من الناحية العملية على نطاق شعبى ، وحتى يسهل تبادل المواصلات خلال البلاد ، اتخذت الاجراءات لاستخدام حروف مبسطة ، واعتبار النطق المستخدم فى اقليم بكين هو النطق المعتمد فى كل أرجاء البلاد ٠ وعملت المزارع التعاونية على اكمال مجهود الحكومة فى انشاء المدارس ، فقامت هى والمصانع بانشاء مدارسها الخاصة ، فأقامت المبانى ، وأعدت الأثاث من صنعها ، وجندت المدرسين من كل المصادر من موظفى الحكومة أو الفنيين الذين أرسلوا للعمل بالمزارع ، والجنود الذين انتهت فترة تجنيدهم ، والشبان من أعضاء التعاونيات الذين تخرجوا فى المدارس ٠ وبزيادة عدد المدارس ، صار فى استطاعة معظم التعاونيات أن يكون بها بعض الأعضاء من أبناء المدارس ، الذين يستطيعون التدريس

لغيرهم . وقامت التعاونيات الأكثر تقدما باقامة مدارس متوسطة ثم ثانوية . وفى تلك الاثناء تضاعفت مؤسسات التعليم العالى عدة أضعاف فى كل المراكز الهامة ، وبلغ عدد المقيدين بها عدة ملايين . وكان التوسع فى التعليم فى كل مستوى حتى أعلى المعاهد العلمية يتبع الخط الذى رسمه الحزب الشيوعى لكل مجالات النشاط « أكثر وأسرع وأحسن وأوفر » .

وكان التوسع الضخم فى التعليم فى مكان القلب من الثورة الفنية والثقافية ، التى كانت تدرب المثقفين من أبناء الطبقة العاملة ، وتهدف الى ازالة الفروق بين العمل البدنى والعقلى . وكان التعليم وثيق الارتباط بالانتاج وزاد الرابطة بينهما توثقا ، وأنشأت المصانع مدارس يقضى فيها عمالها جزءا من ساعات العمل ، ويصرف لهم جزء من المرتب نظير الساعات التى قضوها فى تعلم مهارات جديدة . ونظمت العلاقة بين المدارس وادارة بعض المصانع ، وكان طلابها يتلقون تدريبا عمليا وفى الوقت نفسه يساهمون بمجهودهم فى انتاج المصانع . وكانت بعض الفصول تدار بالمزارع التعاونية فى فترات الراحة . وكان طلبة المعاهد الفنية يقومون برسم تصميمات للآلات أو ابنية المصانع المحلية ، والمستودعات والمهمات الزراعية ، ووسائل القضاء على الامراض الخطيرة المحلية ، أو غير ذلك من المشكلات الحقيقية والعملية ذات الصلة المباشرة بالانتاج .

وظهرت معاهد علمية أنشأت مشروعات تستهدف رفع الصين الى المستويات العلمية العالمية أو أعلى من هذه المستويات فى أكثر ما يمكن فى الميادين ، وبأقصى سرعة وفى الدول التى تخلصت من الوضع الاستعمارى كان محتوى التعليم وطريقته يمثلان تحديات كبرى . فالتعليم الموروث عن الاستعمار لم يكن يصلح لمواجهة حاجات دولة حديثة . فهو فى معظمه أدبى ، وهو مشبع بمواد ووجهات نظر أكثر صلة بثقافة الدولة المستعمرة منها بثقافة الامة . وكان التعليم العالى تدرس فيه المواد بلغة أجنبية ، وهذا يوشك أن يقطع الصلة بين العنصر المتعلم وبين كتل الشعب ، ممن لا يحسنون هذه اللغة . ولم يكن هناك حافز للعمل اليدوى ــ فالصفوة المتعلمة أعلى قدرا من أن تلوث أيديها بالعمل ــ ولا تدريب للفنيين والعلماء على نحو ما يتطلبه مجتمع حديث ، وبخاصة مجتمع يتطلع الى التصنيع السريع .

وفى الهند هدم غاندى الحاجز الفاصل بين التعليم والعمل، ببرنامجه التعليمى القائم على كرامة العمل . ولكن حتى القوة الدافعة المنبثقة مما

كان له من مكانة هائلة لم تجعل من السـهل التغلب على التعصب ضد النشاط العملى . وفضلا عن ذلك من تعصب ضد العمل اليدوى . وفوق ذلك فان توكيده لأهمية الحرفة اليـدوية ـ اذا طبق تطبيقا حرفيا ـ قد يؤدى الى تعويق التعليم الفنى بالنسبة لأبناء المدينة أكثر مما يحفزهم . أما فى البلاد الاخرى التى لم يظهر فيها غاندى ليمهد السـبيل ، ويبارك العمل اليدوى ، فقد كانت مهمة التحميس للعمل ، والمهارات الفنيـة أقوى مما كانت عليه فى الهند نفسها .

ولم يقتصر واجب التعليم فى الدول الجـديدة على ايجاد موقف ايجابى نحو العمل ، بل تعدى هذا الى خلق مثل اجتماعية جديدة ونوع جديد من احترام الذات . ففى ظل الحكم الاستعمارى كانت المـدارس تقلل من شأن الثقافة المحلية ، وتعلى من شأن القيم الأجنبيـة ، وتثبط الرغبة فى الاصلاح ، ولا تكاد تفعل شيئا لتقوى ثقـة الشعب بنفسه ، بينما تفعل الكثير لتحطيم هذه الثقة . فكان النظام التعليمى للدول الجديدة يواجه مشكلة ايجاد وعى اجتماعى ، يحث الشباب على خدمة المجتمـع ، وتقوية ثقته بنفسه ، لتمكين الناس من استخدام قدراتهم على نحو فعال ، دون تهاون ولا عدوان . ولقد تمثلت هذه المشكلة بحق فى كوريا ، حيث أبعدت اللغة الكورية عن برامج التعليم بالمدارس أثناء الاحتلال اليابانى ، وأهملت دراسة تاريخ البلاد وفنونها . فكانت المهمة العـاجلة لرجال التعليم الكوريين هى اعادة تراثهم الثقافى الى برامج الدراسة ، مع العمل فى الوقت نفسه على تطويع الثقافة التقليدية للمثل الديمقراطية الجديدة .

وكان من الصعب أن يطوع محتوى التعليم وطرائقه للموقف الجديد . فالمدرسون القدامى من ذوى الثقافة الأدبيـة والطرق الجـامدة والمواقف التقليدية ، لم يستطيعوا اثارة اهتمام التـلاميـذ ، أو كسب احترامهم . والمدرسون الجدد ، من النوع الذى تتطلبه المهمة الخـلاقة ، مهمـة اعادة التوجيه الثقافى ، لم يكن من شىء يجتذبهم الى مهنـة لا تغنيهم مكانتها المحترمة ، عن أجورها الضئيلة . والتلاميذ الذين ورثوا تقاليد الاحتجاج من أيام اشتراكهم فى الصراع من أجل التحرير ، يسودهم القلق وعـدم الرضى . فكان على عدد من البلاد أن تعالج المشكلة التى أسماها المعلمون الهنود « انفلات الطلبة » . اذ وجد عدد كبير من الشـبان يتلهفون على بلوغ أهداف جديدة ، فيجدون أن دراساتهم لا علاقة لها بهذه الأهداف ، ويجدون مدرسيهم لا قدرة لديهم على التأثير واطلاق الطاقات .. فيعبرون عن قلقهم بعدم المبالاة بالدراسة ، وبالفوضى ، أو بالمقاومة السلبيـة . وفى كثير من بلاد آسيا والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية التى تعمل على

احداث تغيير اجتماعى سريع بالطرق الديمقراطية ، لم يكن من السهل استخدام الطرق التعليمية لاعادة التوجيه والتغيير ، دون الانتجاء الى طرق لا تتفق مع أهدافها وبنيان مجتمعاتها ٠

وواجهت الدول الجديدة مشكلة حادة فى موضوع اللغة ٠ فالتعليم الشعبى فى أوروبا وأمريكا كان قد نشأ فى بلاد ذات لغات متقدمة وموحدة تقريبا ٠ ثم امتدت هذه اللغات الى آسيا وأفريقيا وجزر المحيط الهادى ووصلت الى كثير من شعوب الاتحاد السوفيتى والىالهنود بأمريكا الوسطى والجنوبية ، فوصلت الى شعوب كانت لغتها المنطوقة لا تسجل بطريق الكتابة أحيانا ، وكانت فى أحيان أخرى مختلفة فى اللغة الأدبية ، وأحيانا كانت تكتب ولكن ادبها هزيل جدا ٠

وكان لابد أن يكون التعليم العام باللغة المحلية ، وقد اتفق رجال التربية على أن التعليم الأول للطفل يجب أن يكون بلغة موطنه ، كذلك كان للعزة المحلية والقومية دخل فى الموضوع ٠ وكانت بالبلاد المتعددة اللغات مشكلة اضافية هى الحاجة الى لغة موحدة تدرس للمتعلمين الجدد ٠ غير أن المواد الحديثة لم يكن يمكن الاطلاع عليها الا باللغات الأوربية الكبرى ٠ قد تستطيع احدى اللغات المحلية أن تصبح بمرور الزمن ، وعن طريق الاستعمال ، لغة العمل ، كما سبق للفرنسية والانجليزية أن حلتا محل اللاتينية ، وكما حلت الألمانية والروسية فيما بعد محلالفرنسية فى المناطق التى تتكلم الألمانية والروسية ٠ ومضت اليابان شوطا بعيدا فى اثبات أن اللغة الآسيوية تستطيع أن تتحول الى أداة للتعبير عن العلم الحديث والفكر الحديث ٠ ولكن العملية بطيئة ، والحاجة الى علماء وفنيين فى أعلى المستويات مشكلة ملحة ، لهذا لم يكن أمام الدول الجديدة من خيار الا أن تسير فى وقت واحد على أساس جعل التعليم الشعبى باللغة المحلية وابتكار لغة قومية بأسرع وقت مستطاع ، واستمرار استخدام احدى اللغات الأوربية فى الاعداد السريع للأفراد المتعلمين تعليما عاليا ، والذين لا غنى عنهم فى تطوير الدولة ٠

وقامت الهند بتعزيز تعليمها الجماهيرى باللغات المحلية ، وأعادت رسم حدود الولايات لهدف عملى ، هو أن يكون الناطقون بلغة واحدة فى نفس الولاية الادارية والتعليمية ٠ وفى الوقت نفسه حاولت أن تجعل اللغة الهندية اللغة الرسمية للاتحاد الهندى ، فتدرس ابتداء من السنة الثالثة فى المدارس بهدف جعلها فى نهاية الأمر لغة الاتصالات الرسمية ٠ وتدرس اللغة الانجليزية كلغة اضافية فى المستوى الثانوى لنسبة من

السكان تبلغ على الأقل النسبة التى كانت تتعلمها فى ظل النظام التعليمى المحدد في الماضى • وأرادت بعض الجامعات أن تستمر فى التعليم باللغة الانجليزية ، لكي تستبقى مزايا الوصول المباشر الى معارف العالم ، وتوفر الجهود المضنية للترجمة والنشر التى يتطلبها ايجاد قدر محترم من الكتب باللغة الهندية أو باللغات المحلية الكثيرة •

وكان لأندونيسيا وبورما مشكلات مشابهة الى حد ما ، وان اختلفت فى كل منهما عن الأخرى ، فاتجهتا الى حلول أخرى • فأندونيسيا وقد ورثت المدارس التى كان التعليم فيها باللغة الهولندية ، وسكانا معظمهم من الأميين يتحدثون لغات محلية شتى ، جعلت من لغة الملايو اللغة القومية وجعلتها لغة التعليم العام فى كل المستويات فى بعض المناطق ، وابتداء من السنة الثالثة فى مناطق أخرى . وفى الوقت نفسه أحلت اللغة الانجليزية محل الهولندية ، باعتبارها لغة الاتصال بالعلوم المتقدمة ، ولغة التعامل مع العالم الخارجى . أما بورما فورثت تعليما محليا « ينتهى عملا بطريق مسدود » كما قالت لجنة بحث السياسة التعليمية سنة ١٩٤٦ • يضاف الى هذا نظام انجليزى ، ونظام يجمع بين الانجليزية واللغة المحلية ، لايؤدى الا الى عنق الزجاجة فى الجامعة ، وهدفه الابقاء على اللغة الانجليزية كلغة مستخدمة على نطاق عام ، وفى الدراسة في المدارس الثانوية والعالية لمن سبق لهم تلقى التعليم الابتدائى بلغة بورما • وحاولت أن توسع آداب لغة بورما بتسجيل المواد التى تروى شفاها ، وتشجيع التعبير الأدبى، وترجمة بعض الروائع العالمية . ولكنها لم تهدف الى جعل خزائن العلم الكبرى متاحة بلغة أهل بورما •

وفى الصين حاول المصلحون التعليميون بعد سنة ١٩١٩ حل مشكلة الفجوة بين أداة التعبير الأدبية الرسمية واللهجات الكثيرة المستخدمة فى الحديث ، وذلك عن طريق استخدام لغة محلية مكتوبة ، تتبع استخدام التعبيرات الدارجة • ومضى النظام الشيوعى خطوة أخرى ، فوحد نطق « الكلمات الشائعة » ، وأنشأ كتابة مبسطة • أما اسرائيل فجعلت العبرية لغة حديث ، وعن طريقها تدمج فى سكانها من يهاجرون اليها ، على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم •

وكانت مشكلة اللغة من أشد المشكلات حدة فى التعليم ، بالنسبة للافريقيين الذين يتكلمون عددا كبيرا من اللغات القبلية غير المدونة • ولما كانت هناك قوى كبيرة تعمل على تفتيت الروابط القبلية ، أصبحت قيمة تطويع كثير من هذه اللغات للكتابة ، وبناء أدب لها ، أمرا مشكوكا

فيه • فالاتجاه السائد كان نحو زيادة استخدام عدد قليل من اللغات الأفريقية فى بعض المناطق ، مثل السواحيلية فى تنجانيقا ، واستخدام اللغة الانجليزية والفرنسية فى غرب أفريقيا ، مع وجود اللغة العربية كمنافس يبحث له عن قاعدة فى السودان ، وثمة عاملان سهلا تحقيق الغايات التعليمية فى البلاد التى ترتفع فيها نسبة الأمية ، هما سهولة الحصول على وسائل الاتصال بالجماهير ، والجانب التعليمى فى برامج التنمية الريفية • فالراديو يذيع برامج تعليمية فى كثير من البلاد على ساحات القرية أو غيرها من الأماكن ، حيث يجتمع القرويون للاستماع والمناقشة • وفى أحد هذه البرامج فى كولومبيا بأمريكا الجنوبية نظم قساوسة الابرشية مجموعات لتلقى دروس فى الزراعة وغيرها من المواد العملية . وقام القساوسة ومساعدوهم بادارة المناقشة وتنظيم الحضور الى (مدرسة) الراديو . ويقوم المكتب المركزى بامداد من يحضرون بالبذور والسماد أو غير ذلك من المواد الواردة فى الدرس •

ويمكن أن نضرب أمثالا كثيرة من مناطق مختلفة • غير أنه فى كل هذه البرامج وأمثالها كان من المعترف به أن المعلومات التى تصل عن طريق وسائل الاتصال بالجماهير لم تكن بديلا عن الجهد الايجابى للتعلم ، الذى يبذله الشخص نفسه • ولقد كان انشاء مراكز التدريب الخاصة بالتعلم الأساسى التى ترعاها اليونسكو فى المكسيك لجمهوريات أمريكا اللاتينية ، وفى مصر للدول العربية ، وفى مراكز أخرى لمناطق أخرى ، تأكيدا لمبدأ جعل التجربة الذاتية للشخص أساسا للتعلم •

أن تقدم برامج التنمية الريفية يتيح فرصا واسعة للتعلم . فهى تستهدف اثارة اهتمام القرويين ، وتنبههم الى امكانياتهم الذاتية ، وحفز جهودهم التعاونية لرفع مستوى حياة القرية . ولهذا كانت هذه البرامج تنتهج نهجا تربويا فى الأساس . والواقع أن بين « التنمية الريفية » و « التعليم الأساسى » صلة وثيقة جدا بحيث كانا يعتبران أحيانا من المترادفات •

فبرنامج التنمية الريفية فى بورتوريكو كان مثالا لبرنامج تعليمى يستخدم كلا من وسائل الاتصال بالجماهير وتقنيات التنمية الريفية ، لتحقيق هدف التعليم الأساسى وتنمية المجتمع وهو رفع مستوى الحياة فى المجتمع الريفى • وفى هذا البرنامج كان « منظمو المجموعة » المزودون بسيارات الجيب ومكبرات الصوت ، والسينما ، واعلانات الحائط ، والنشرات الاعلامية ، يعملون جميعا فى القرى والدساكر • فهم فى أول الامر يقرءون ويناقشون احدى النشرات مع مجموعة من المواطنين ، ويعدون

العدة لتوزيعها فى القرية • ثم يعودون ومعهم فيـــلم سينمائى فى نفس الموضوع • وهو دائما يحفز المجتمع الى الاعتماد على النفس ، كمـا يأتى بمكبر صوت يستطيع المنظم والمواطنون من خلاله أن يعلقوا على الفيلم ، أو الموضوعات ذات الأهمية المشتركة • وحينما يعبر أهل القرية الذين بهرتهم هذه الأنشطة التعليمية عن رغبتهم فى أن يقوموا بمشروع اجتماعى ، فان المنظم يساعدهم على تعبئة مواردهم ، وأن يستعينوا بالموارد الفنية وما اليها مما يتاح فى المنطقة ، وأن ينموا القدرة على العمل لتحقيق أهـداف مشتركة •

٦ ـ اهتمام دولى بالتعليم

اذا كان التعليم فى كل دولة وثيق الصـلة بالمؤسسـات القوميـة والأهداف القومية ، فان ملامحه المشتركة ، وأهميته الشاملة ، جعلتـه موضوعا للاهتمام العالمى والتعاون الدولى • وقد بدأت سلسلة من المؤتمرات الدولية مع بداية الحرب العالمية الأولى ، فجمعت بين المهتمين بتبادل الخبرة والآراء التربوية • وأصبح التعليم موضوع اهتمام عالمى فى العشرينات ، عند انشاء عصبة الأمم ولجنتها الخاصة بالتعاون الثقافى ، وتحويل مكتب التربية الدولى للتعلم الذى تأسس فى جنيف سنة ١٩٢٥ الى مؤسسـة دولية عام ١٩٢٩ • وفى المؤتمر الدولى الأول للتعليم العام الذى عقد فى جنيف سنة ١٩٣٣ ، قدمت الحكومات تقارير عن نظمها التعليمية ، وتلقت توصيات من المؤتمر الدولى •

وسار النشاط الدولى فى ميـــدان التعليم فى خطوط رئيسية هى تبادل المعلومات وادارة الدراسات المقارنة للنظم المدرسية ، وتنظيم مواد الدراسة وطرقها •ويصدر المكتب الدولى منذ عام ١٩٣٣ ، الكتاب السنوى الدولى لشئون التعليم ، وبذا صار فى متناول كل دولة ، ما فى البلاد الأخرى من اتجاهات فى الخبرة والفكر .

كما ان منظمة اليونسكو ، التى تأسست سنة ١٩٤٥ قد وسـعت نطاق تبادل المعلومات والوثائق بين الدول ، ونظمت عقد مؤتمرات دولية حول مشكلات تعليمية محددة • واستطاعت بالتعاون مع الأمم المتحـدة وغـيرها من الوكالات الدولية المتخصصة أن تعزز حركة تبـادل الطلبة والمدرسين ، وقد استجابت لطلبات الدول الأعضاء فقدمت معونات فنية فى الادارة ، وتدريب المدرسين ، واعداد مناهج الدراسة . وبالتعاون مع

وكالات الأمم المتحدة ، ومنظمة الدول الامريكية أقامت مراكز التدريب الخاصة بالتعليم الأساسى لدول أمريكا اللاتينية والدول العربية .

وهكذا نجد أنه فى كل المستويات ، من مجتمع اصغر القرى حتى المجتمع الدولى ، صار التعليم من أعظم الأمور التى تشغل مجتمعات القرن العشرين فى كل أنحاء العالم .

تعليقات على الفصل السابع

١ ــ يورد فرانسوا روسو ما يلى تكملة لما ورد بهذا الفصل عن التعليم :

تعتقد الكنيسة الرومانية الكاثوليكية أن مسئولية التعليم تعتمد فى المحل الاول على الاسرة ، وفى المحل الثانى على الكنيسة ، وان كان من حق الدولة بل ومن واجبها ان تهتم بشئون التعليم على المستوى القومى وأن تنشيء مدارس علمانية . ومن واجب الدولة أن تتيح لتلاميذ هذه المدارس التعليم الدينى اذا طلبت ذلك اسرهم .

ان الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ترجو الآباء أن يرسلوا ابناءهم الى مدرسة كاثوليكية كلما امكن ذلك فى ظل النظام التعليمى السائد فى بلادهم ، لأن الكنيسة ترى أن الصبى لا يمكنه الحصول على تعليم مرض متكامل الا فى بيئة تعليمية مسيحية ، لأن تعليم الدين رغم أهميته الاساسية ، لا يعدو أن يكون عنصرا من العناصر التى تسهم فى التربية المسيحية للصبى .

ويقال أحيانا ان وجود المدارس الكاثوليكية معناه اقامة عقبة فى طريق الوحدة القومية . ويبدو ان هذا الرأى مصاب بقصر شديد فى النظر .

فالمدرسة الكاثوليكية لا يمكن ان تعتبر عقبة فى طريق الوحدة القومية بحال من الاحوال ، اذ انها تفعل الكثير لتعزيز هذه الوحدة ، عن طريق تعليمها الواسع الافق، وولائها للصالح العام الذى يتحقق بفضل التعليم المسيحى . وفضلا عن ذلك توجد فرصة واسعة لاجتماع انماط مختلفة من الصبية ، حتى وان كانوا من تلاميذ مدارس منفصلة . فمع ان الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ظلت تستمسك بقوة بالمبادىء التى سبق ان ذكرناها ، فانها تعترف بأن مشكلات اليوم فى التربية والتعليم من الضخامة بحيث تتطلب مزيدا من تدخل الدولة سواء من حيث التنظيم او من حيث التمويل ، وان التعليم الكاثوليكى لم يعد فى الامكان ان يخطط له بمعزل عن النظام التعليمى القومى العام . ولكن مع ان المدارس الكاثوليكية مستعدة هكذا لقبول قدر كبير من الاندماج فى النظام التعليمى القومى ، فانها تعلن انه من الممكن ان يحتفظ لها باستقلالها الروحى .

وللاطلاع على مزيد من المعلومات الخاصة بموقف الكاثوليك يرجع الى :

John D. Redden and F.A. Ryan: A Catholic Philosophy of Education (Milwaukee, 1956).

Kevin J. O'Brien: The Proximate Aim of Education (Washington, D.C., 1958).

ومن افكار اخرى يرجع الى :

M.F. Ashley Montagu: Education and Human Relations (New York, 1958).

Aubrey E. Haan: Education for the Open Society (London, 1962).

Max Lerner: Education and a Radical Humanism (Columbus, Ohio, 1962).

Frederick Meyer: Philosophy of Education for Our Time (New York, 1958).

National Educational Association, American Education Research Association, Philosophical and Social Framework of Education (Washington, D.C., 1958, 1961).

David Riesman: Constraint and Variety in American Education (New York, 1958).

Ephraim V. Sayers and Ward E. Madden: Education and the Democratic Faith: An Introduction to the Philosophy of Education (New York, 1959).

٢ ــ يؤكد ايكولم ان انشاء نظام مدرسي ديمقراطي موحد في الاتحاد السوفييتي جعل من الممكن تحقيق مبدأ التعليم العام وتكافؤ الفرصة في فترة زمنية قصيرة بشكل ملحوظ . ويسير على هدى الاتحاد السوفييتي عدد كبير من الاقطار الاخرى لانه في عمله بحقل التعليم يجسد اماني شعوب العالم ».

٣ ــ يذكرنا ايكولم منذ البداية بأن القوانين التي جعلت التعليم اجباريا صعبة التنفيذ ولم تصبح حقيقة واقعة في بعض البلاد ، وكان السبب الرئيسي ضعف المركز المادي لكتل الجماهير ولان الدول التي جعلت التعليم العام ضرورة قانونية لم تقدم دائما تعزيزا لهذا التشريع في صورة اعتمادات مالية لتوسيع شبكة المدارس وتجهيزها بالمهمات وصيانتها وتدريب المعلمين ... الخ .

٤ ــ كتب ايكولم يقول أن حركة التحرير القومي القوية في بداية القرن العشرين في المستعمرات وفي البلاد الناقصة الاستقلال ادت الى ظهور تطور ديمقراطي في الحياة يتمثل في بعض التوسع في انشاء المدارس وفي تدريب الاداريين والفنيين والعسكريين من الوطنيين ».

٥ ــ ينوه الاستاذ اي . ان « اندرسون بأهمية العلاقة بين التربية والزعامة القومية • ويلاحظ من كتبوا في تاريخ التربية ان طبيعة التعليم الثانوي والعالي تؤثر اساسا في طابع المجتمع وانجازاته وذلك بتقريرها لنوع التعليم الذي يتلقاه القادة . ويميلون الى اعتبار التعليم الابتدائي ، برغم ضرورته في ذاته ، انما هو مستودع يختار منه انجب التلاميذ لمراحل التعليم التالية ليكونوا اعضاء في تشكيل سياسة المستقبل وتتألف منهم المجموعات التي تتخذ القرارات . ويجب ان نتساءل هل كتاب المقال قد ابرزوا على نحو كاف تأثير تطورات المدارس الثانوية والعليا في اوروبا على انجازات بلادهم وبخاصة في ميادين الحياة الاقتصادية والاجتماعية ».

ان المشكلة الرئيسية التي واجهها الاوروبيون في التعليم خلال النصف الاول من القرن العشرين كانت في ميداني التعليم الثانوي والعالي . فلقد دخلت البلاد المختلفة هذه الفترة وقد سبق لها منجزات في تطوير التعليم الابتدائي بينما المدارس الثانوية لم تتلق في كثير من الدول الا تعديلا متواضعا لكي تواجه احتياجات الزيادة الكبرى في

اعداد السكان وظهور وتوسع الاقتصادالصناعى والتكنولوجى، فلقد وضع طابع المدارس الثانوية وقصورها حدودا على منجزات الجامعات ؛ ذلك ان طبيعة أعداد الطلبة الجدد طورت نوع التعليم الذى تستطيع الجامعات تقديمه والاساس الطبقى للتعليمين الثانوى والعالى فى معظم البلاد — فقد كان الفلاحون والعمال مبعدين عنهما الى حد كبير — كان يعتمد على الاستمرار فى تقديم برنامج يهدف الى تعليم الانسانيات واعداد الشبان لحياة الوظائف أو لحياة المهن الحرة . وفى معظم البلاد أهملت وسائل تدريب المهندسين والعلماء ورجال الاعمال ويستثنى من هذا المانيا والدول الصغرى فى شمال اوروبا الغربية. ولقد قاست ألمانيا من تدهور التعليم الثانوى والعالى فى عهد الاشتراكيين الوطنيين .

ولما اقيمت الدول الجديدة بعد الحرب العالمية الاولى حذت حذو فرنسا وايطاليا دون اتباع النظم التعليمية فى ألمانيا قبل عهد النازى وكانت النتيجة انه بعد شغل المراكز الوظيفية فى هذه الدول الجديدة فقد ظهر بسرعة ارتفاع كبير جدا للبطالة من أصحاب المهن القديمة وقد ترتب على هذا انجرافهم الى حركات يمينية راديكالية أو يسارية راديكالية . أما المهن الجديدة التى صار لابد منها فى عصر التصنيع فقد كانت غير جذابة لافراد المجتمع فى البلاد التى لم تحرز بعد درجة كبيرة من التصنيع . فقد وجدت هذه البلاد نفسها مضطرة الى صرف مبالغ طائلة من دخلها فى الانفاق على جهاز حكومى لا يتخذ موقف المبادرة فى اقامة نظام تعليمى لاعداد الافراد فى المستويات العليا لخلق اقتصاد قادر على القيام باحتياجات الدولة الجديدة وجهازها الحكومى . ولم تكن هذه الحالة مقصورة على أوروبا الشرقية فلقد كانت أسبانيا والبرتغال فى موقف شبيه بذلك ؛ وكانت ايطاليا وفرنسا وبريطانيا العظمى فى أواسط القرن لاتزال مترددة فى هذا الامر . فأنظمتها التعليمية لم تكن بحيث تدرب الافراد — من مهندسين وعلماء ومديرى أعمال وغيرهم من قادة الاعمال — بأعداد كافية لشغل المراكز المتزايدة فى الصناعة . ولقد كشفت تجربة الحرب عن طبيعة هذه الاحتياجات بصورة قاسية ، اذ اشتدت الحاجة الى أصحاب القدرات العلمية والتكنولوجية والقيادية فى الانتاج فجرى البحث عنهم فى استماتة .

وفى الاعوام التى تلت الحرب العالمية الثانية عملت الدول الاوروبية ؛ بدرجات متفاوتة ؛ على تطويع التعليم الثانوى والعالى لسد الحاجة لما يحققه واعداد الافراد المدربين فى المناطق التى لم تكن لها سابقة فى ذلك . والقضاء على العلاقة التى كانت قائمة بين الطبقة الاجتماعية ونظام التعليم . فبدءوا يبحثون عن المقدرة ويصقلونها بصرف النظر عن الاصل الاجتماعى . ومع ذلك فقد ظلت مقاومة الهيئات التعليمية للبدع الحديثة قوية ، فهل يتسع التعليمان الثانوى والعالى ويتلاءمان مع الاحتياجات الجديدة أم تقام مراكز لتدريب الافراد خارج المعاهد الرسمية ؟

هذا سؤال لم تجب عنه الى الآن فرنسا ، وبعض الدول الاخرى لا تزال بعيدة عن مواجهة هذه المشكلة .

والمراجع الخاصة بهذا الموضوع واسعة جدا بطبيعة الحال فى العالم الحديث. ومما يفيد أى قارىء له عناية خاصة بالموضوع ان يطلع على التقارير التى أصدرتها اليونسكو فى عرضها السنوى للتعليم مثلا فيما يختص بالتعليم الثانوى (لندن ١٩٦١)

ولقد صدرت تقارير هامة فى بريطانيا العظمى . ومن أمثلتها تقرير نيوسم الذى اعده المجلس الاستشارى المركزى ... راجع أيضا :

Margaret A. Clapp, «The Modern University» (Cornell University Press, 1950).
W.R. Fraser, «Education and Society in Modern France (London, 1963).
George F. Kneller, Higher Learning in Britain (Berkeley, 1955).
W.M. Kotschnig, The University in a Changing World (London, Oxford, 1932).
W.M. Kotschnig, Unemployment in the Learned Professions (Oxford 1937).
Donald W. Miles, Recent Reforms in French Secondary Education — With Implications for French and American Education (New York, 1953).
OECD, Forecasting Manpower Needs for the Age of Science (Paris, 1960).
Jean Thomas and Joseph Majault, Educational Problems, Common to European Countries, Report to the Third Conference of Ministers of Education, (Rome, 1962).

٦ ــ يضيف ايكولم انه فى جمهورية الصين الشعبية نفذ أيضا اصلاح التعليم العالى فلقد الغيت الانظمة الصارمة فى تعليم الكلاسيكيات الرجعية وادخلت دراسة النظرية الماركسية وتاريخ الثورة الصينية . وتبذل عناية كبرى للتوسع فى التعليم التكنولوجى .»

٧ ــ يضيف ايكولم قائلا ان مشكلة التعليم المدرسى فى المناطق الريفية الذى كان موضوعا للمناقشة الخاصة فى المؤتمر الدولى الحادى والعشرين بشأن التعليم العام تعتبر من المشكلات الملحة جدا وكما اظهرت مطبوعات اليونسكو كان لايزال هنـاك ٢٥٠ مليون طفل فى المناطق الريفية من العالم لايستطيعون الالتحاق بالمدارس . وفى بلاد كثيرة يوجد نقص ملحوظ فى المبانى المدرسية وفى عدد المدرسين . وغالبا فان ابناء الفلاحين الفقراء ينتهون من دراستهم قبل اتمام منهج المدرسة الابتدائية ويشرعون فى العمل مع آبائهم . وتتعقد مشكلة المدارس الريفية فى بعض البلاد بسبب استمرار بقايا الاقطاع وبسبب انعدام الوحدة الدينية والقومية بين الناس ، وبسبب المتـاعب الاقتصادية الخطيرة ، وبسبب انه جوار المدارس الحكومية مدارس خاصة تبشيرية واسلامية ويهودية ... الخ " ينتمى معظمها الى هيئات دينية او يخضع لنفوذ هـذه الهيئات . وانخفاض مرتبات المدرسين عقبة خطيرة فى طريق النهوض بالتعليم فى الريف » ولقد حلت مشكلة المدرسة الريفية بنجاح فى البلاد التى بدات خطواتها على طريق التطور الاشتراكى فهى هناك حلقة عضوية فى نظام تعليمى حكومى موحد . انظر .

N.K. Goncharov, Narodnoe Prosveshchenie v SSSR (Public Education in the USSR), Report submitted to the International Seminar in Tashkent, (April 1961), Moscow, 1961. (Parallel texts in French, English, and Spanish).

٨ ــ كتب ايكولم يقول انه فى سنة ١٩٥٨ حين دخل الاتحاد السوفيتى مرحلة البناء التفصيلى للشيوعية ، وواجه الحياة فى المدارس بواجبات جديدة اعد برنامج تفصيلى واسع النطاق للتعليم ونوقش على المستوى القومى الفسيح ووافق عليـه مجلس السوفييت الاعلى فى الاتحاد السوفيتى واصدر به قانونا » والنقطة الرئيسة فى هذا البرنامج والتى كان تحقيقها قد بدأ بالنجاح ، هى التطبيق المستمر لمبدأ الجمع

بين التعليم والعمل الانتاجي ، والعمل الانتاجي والتعليم . وخير الوسائل الرئيسية لتنفيذ هذا المبدأ هي الاخذ بمبدأ التعليم الفنى المتعدد الجوانب .

٩ ـ ينوه ايكولم بأن الفترة التى تناولتها الدراسة كانت تتميز بصور جديدة من تنظيمات الاطفال ، التى كان لها تأثير كبير جدا على تعليمهم فحين نويت الحركة الثورية الجماهيرية بتأثير ثورة أكتوبر الاشتراكية بدأ تكوين منظمات ديمقراطية لابناء العمال . وكان أولها الجماعات الشيوعية فى المانيا التى انشأت منظمة أطفال « سبارتاكوس » وبعد ثورة أكتوبر مباشرة بدأت هيئات مشابهة تظهر الى الوجود فى روسيا السوفيتية .. وفى مايو أصدر مؤتمر الوحدة الروسية التابع لرابطة شباب الشيوعيين الروس قرارا بانشاء منظمة لشباب الرواد . وفى العشرينات والثلاثينات اقيمت منظمات الاطفال الديمقراطية فى بلاد كثيرة منها الولايات المتحدة الامريكية والمملكة المتحدة وبلجيكا وسويسرا والنمسا والسويد . وبعد الحرب العالمية الثانية كانت هذه الحركة قد ظهرت فى أكثر من ٣٠ قطراً فى اوروبا وآسيا وامريكا اللاتينية . وهي فى الواقع وسيلة فعالة لغرس أكرم الفضائل الانسانية فى الاطفال والشباب .

١٠ ـ انظر مزيدا من المعلومات عن جمعيات الشباب فى الفصل الثالث .

١١ ـ يؤكد ايكولم انه حتى ممثلو التربية قبل عهد النازى كانوا يتظاهرون بالاهتمام بالشخصية ورعاية اهتماماتها ولكنهم كانوا يؤكدون فى الوقت نفسه الاهمية الكبرى للدين والجنس ، والقومية ويدعون الى أن يكون تعليم الشباب فى جو عسكرى ووطنى متطرف . وكانت هذه الافكار الشديدة الرجعية هى على التحديد التى نمت وتطورت حين استولى النازى على الحكم . ففكرة التفوق العنصرى للالمان وحقهم فى السيطرة على العالم ، والطاعة العمياء ـ وكل الانكار غير الانسانية ـ أصبحت أساس تعليم الاطفال والشباب .. فكانت المدارس تقدم دراسات عنصرية كما تقدم تدريبا عسكريا مركزا للشباب .

الفصل الثامن

استخدام وقت الفراغ

١ ــ وقت الفراغ الجديد

ان ابرز ما يميز المجتمع الصناعى الحديث هو ما صارت تستمتع به كتل الجماهير من وقت الفراغ ــ وقد تمخضت الطرق التى يستخدم فيها هذا الفراغ ، والمؤسسات الجديدة المتصلة به عن ظهور ثقافة جماهيرية ، أخذت تزداد انتشارا وتغلغلا مع الزمن ، طابعه بميسمها عادات ونظرات المجتمعات الصناعية ، وهى تزداد انتشارا كلما اتسع مجال لتكنولوجيا الحديثة ، والتصنيع الحديث ، فى أرجاء جديدة من العالم .

فلأول مرة فى التاريخ صارت جماهير الشعب فى البلاد الصناعية بلا عمل خلال وقت طويل من كل يوم ، وكل أسبوع ، فأصبحوا متحررين من بذل الجهود اللازمة لكسب العيش ــ مثل العمل اليومى فى الحقل أو فى المصنع أو فى المنزل الذى لم تكن له نهاية وهكذا صار الفراغ الذى كان من قبل ميزة خاصة ينعم بها الأغنياء الذين يعيشون على عمل الآخرين ، حظا مشاعا يتمتع به المواطن العادى .

ومفهوم « الفراغ » الذى ظهر خلال هذه السنوات يتضمن هو نفسه فكرة جديدة ، وموقفا جديدا نحو كسب العيش . ففيما قبل المجتمعات الصناعية ، كان الفراغ الذى تتمتع به كتل الشعب يأخذ صور اجازات دينية كثيرة ، واحتفالات عائلية ترتبط بالزفاف وغيره من الأحداث العائلية ، والمواسم التى يحتفل فيها بالمناسبات ، الزراعية الدورية ، وبخاصة بذر البذور والحصاد ، وغير ذلك من المواسم المعروفة للمجتمعات الزراعية .

وقد أدى نظام المصانع فى أول الأمر الى تضييق وقت فراغ العمال ، لأن العمل المستمر فى المصنع لمدة أربع عشرة ساعة فى اليوم ، ولستة أيام أو سبعة فى الأسبوع وباستمرار ، قد حرم العمال من تلك

المرونة التى كان يتيحها العمل الزراعى ، اذ لم تكن مدة العمل تتخللها تلك الفترات الموسمية التى تخف فيها وطأة العمل ، وصار الوقت المسموح به للاحتفال بالأعياد الدينية محددا جدا ، ومخفضا الى أقصى حد ممكن . ولكن الصناعة بتمييزها الحاسم بين وقت الفراغ ، أرست أساسا لتقسيم الحياة الى عمل ولعب ، واعتبار وقت الفراغ شيئا مطلوبا ، ويستطيع العمال أن يحصلوا عليه ، وان يستخدموه ، وجعلت مفهوم العطلة السنوية انها فترة من الزمن خالية تماما من العمل ، ومن حق الناس الحصول على هذه الاجازة ، كجزء من نظام الحياة .

والفراغ الجديد هو فى أساسه احدى ثمرات التكنولوجيا الحديثة فانتاج الآلات قد زاد من انتاجية العامل ما مكنه من أن يكسب عيشه بالعمل ساعات أقل فى اليوم ، وأيام أقل فى الأسبوع بل وان يحصل فى هذا الوقت القصير على ما يكفيه للانفاق على وسائل المتعة أثناء الفراغ .

على أن عمال الصناعة لم يحصلوا لأنفسهم على قدر متزايد من وقت الفراغ الا بالنضال . ففى أول الأمر طالبت اتحادات العمال بتخفيض ساعات العمل مراعاة لصحة العامل ، وعلى أساس الحاجة الى الوقت لأداء الواجبات المنزلية . ولكن في أوائل القرن العشرين حين تم تحديد ساعات العمل بعشر ساعات فى اليوم ، وتعميم هذا النظام ، طالب العمال بتخفيض جديد لساعات العمل ، على أساس الحاجة الى وقت الفراغ . وكان العمال يربطون بينه وبين رفاهية الطبقة العليا . وفى عصر الديمقراطية ارادوا أن يحصلوا على هذه الرفاهة ، مع غيرها من علامات المساواة . فطالبوا بتقصير متلاحق لساعات العمل ثم طالبوا بالحصول على اجازات سنوية بأجر ، وأجور اضافية لمن يعمل أيام الأحد والعطلات العامة وكانوا يحصلون على مطالبهم خطوة فخطوة . وأخذ أصحاب العمل فى الوقت نفسه يعترفون بأن قدراً من الفراغ يزيد من كفاءة العامل .

وقد حصلت الفكرة العامة التى تدعو الى تقصير ساعات العمل ، ومنح اجازات بالأجر ــ خارج نطاق الزراعة ــ على الاعتراف والقبول فى كل الدول الغربية الصناعية ، اذا استثنينا أيام الضغط الاقتصادى ، مثل الحروب التى تؤدى الى اطالة كبيرة فى ساعات العمل اليومى ، او فترات الكساد الذى يؤدى الى البطالة والفراغ الاجبارى . وكان المبدأ العام فى الولايات المتحدة وكندا أن تكون مدة العمل أربعين ساعة

اسبوعيا ، وذلك بالنسبة للعمال الصناعين والمكتبيين ، بينما كانت مدة العمل فى معظم المناطق الاخرى من ٤٢ الى ٤٨ ساعة ، وكان الاتجاه يسير نحو زيادة تخفيض ساعات العمل . وفى سنة ١٩٦٠ كان متوسط ساعات العمل بالنسبة لعمال المصانع والمكاتب فى الاتحاد السوفيتى أقل من أربعين ساعة . أما فى اليابان فكان هذا المتوسط لايزال أكثر من ٥٠ ساعة فى الأسبوع .

وقد منحت التكنولوجيا الحديثة فراغا جديدا للزوجات أيضا . فالأدوات المنزلية الحديثة ، والانتاج الآلى للاطعمة المخبوزة والمحفوظة والمجمدة ، قد أعفى النساء من ساعات طويلة كن يقضينها في الغسل والتنظيف والطهى . فلم يعد صحيحا ذلك القول المأثور « ان عمل المرأة لا ينتهى » . واما نساء الطبقة الوسطى اللاتى كان قد اتيح لهن من قبل قدر من الفراغ بفضل وفرة الخدم ، فقد ساعدت المبتكرات الجديدة على تعويضهن عن فقدهم ، حين انصرفوا الى العمل فى المصانع ، حيث يحصلون على أجور تتيح لهم أيضا قدرا من الفراغ . واما النساء اللاتى لم يكن لديهن خدم ، فقد أتت الآلات الحديثة والمنتجات الجديدة لهن نقدر من الفراغ لاول مرة .

كذلك استمتع الشبان بمزيد من الفراغ لسببين :

أولهما أن زيادة دخول أبويهم قد مكنتهم من استغلال قدر متزايد من هذه الدخول للبقاء خارج سوق العمل ، فظلوا طلبة فى المدرسة خلال مرحلة المراهقة .

والسبب الثانى أن الوسائل الحديثة فى المنزل قد أتاحت للشابات وقتا للفراغ ، بعد أداء وجباتهن المنزلية الخفيفة . فصار لكثير منهن مصروف جيب خاص بهن ، بعد أن كن مضطرات الى مساعدة أسرهن على المعيشة . هذا التطور ، مضافا اليه ما أتيح للمراهقين والمراهقات من حرية الاجتماع الجديدة على نطاق واسع قد أدى الى اقامة أساس لما صار يمكن ان يدعى « ثقافة جماهيرية تحتية مشتركة » بين المراهقين فى المدن بالبلاد الصناعية .

وبمجرد ان تهيأ الفراغ لكتل الشعب نشأت مسألة كيفية استخدامه . وقد جاء جزء من الجواب على هذا من جانب التكنولوجيا الحديثة نفسها ، ذلك ان وسائل الاتصال بالجماهير ، ووسائل المواصلات ، قد مكنت من ابتكار صور جديدة للتسلية والمتعة . وهى

تعتمد الى حد ما على التسهيلات التى تقدمها الوكالات العامة أو التجارية ، وما يختاره الناس ليقضوا فيه وقتهم ونشاطهم .

اننا نلاحظ فى البلاد الصناعية المتقدمة ظهور قدر متزايد من الأنشطة الاقتصادية لانتاج وتوزيع ، وتصليح ، والاعلان عن المنتجات والخدمات التى تناسب وقت الفراغ وتسلياته أكثر مما تهتم بضرورات الطعام أو الملبس أو المأوى . وحيث النشاط الانتاجى يسترشد فى المحل الأول بالنواحى التى يتجه اليها انفاق المستهلك ، فان التفاعل بين الطلب من جانب المستهلك ، ومحاولة المنتج تسويق بضائعه ، يؤديان الى انتاج نموذج من نماذج أنشطة وقت الفراغ ، بعكس الأذواق العامة وتأثير المصالح التجارية عليها .

والجمهور متعطش الى التسلية من كل الأنواع ، متعطش الى المعلومات فى كثير من الأمور ، ومتلهف على الاشتراك فى عدد كبير من الألعاب والهوايات . ولقد استفادت صناعات التسلية الجماهيرية من الادوات الجديدة للاتصال ، وقدمتها للسوق الجماهيرية فى صورة مجلات شعبية وانتاج وتوزيع الافلام ، وتقديم التسلية على الهواء فى البلاد التى يكون فيها الراديو والتلفزيون فى يد المصالح التجارية . وينمو حجم التكوين الصناعى المعقد الواسع النطاق الذى يخص أدوات المتعة واستخدامها ، كما يزداد تغلغلا فى كل أنحاء العالم كل سنة ، بينما تزدهر وتتسع صناعة أدوات الرياضة والهوايات .

ولقد قدمت صناعات التسلية ، بجماهيرها المتحفزة ، وسيلة قوية من وسائل الاعلان عن كل وسائل الانتاج ، وأصبحت تعتمد فى الكثير من دخلها على الشركات المستعدة للدفع من أجل الوصول الى هذه السوق القوية بامكانياتها اما المعلنون فقد استخدموا من جانبهم نماذج للتسلية لكى يأسروا اهتمام الجمهور وانتباهه . بل لقد حاولوا أن يجعلوا من التسلية نفسها أداة لبيع سلعهم . وهكذا يساعد المنتجون والمعلنون على تكوين الأذواق ، فضلا عن محاولة ارضائها ، وكانت النماذج التى ظهرت نتيجة من نتائج التفاعل المستمر بين المنتج والجمهور .

ولكن لم يحدث فى أى مكان أن ترك كلية أمر استخدام وقت الفراغ لمفعول السوق ، ومبادرة المشروعات التى تحركها المصالح التجارية . ففى كل مكان صار جزء من المسئولية عن وقت فراغ المواطنين من اختصاص الدولة ، والوكالات التعاونية ، أو الدينية ،

او الانسانية . فتقوم الدولة بانشاء الحدائق ، والملاعب ، والمتاحف . وحدائق الحيوان ، والمكتبات . وكان هذا أمرا مقررا من قبل فى المجتمعات المدنية قبل تخفيض ساعات العمل ، او ظهور المواقف المرتبطة بدولة الرفاهية ، التى حفزت على تقديم المزيد من الوسائل لوقت الفراغ . وحين صارت مدة العمل اليومى ثمانى ساعات زاد هذا من طول الأوقات التى لا تقضى فى العمل ، فقام عدد من أصحاب الأعمال والقادة والباحثين الاجتماعيين فى البلاد الصناعية بالتعبير عن مخاوفهم من أن العمال قد لا يعرفون ماذا يصنعون بوقت الفراغ ، وقد يقضونه فى شرب الخمور والتسكع . ومن الناحية التاريخية جاء التطور الأعظم للتصنيع والرأسمالية في المجتمعات التى تعتبر العمل والتجميع والاستثمار الحكيم فضائل أخلاقية ، وتخشى من انفاق وقت الفراغ فى الحماقة والتسكع ، مما يؤدى الى افساد المجتمع ، ويضعف من قوته الأخلاقية . فلما صار الفراغ حقيقة جماهيرية ، رأت المجتمعات التى تسودها هذه القيم أنه لابد من تعليم الناس كيف يقضون أوقات فراغهم على نحو مفيد ، وتهيئة الوسائل التى تحقق لهم ذلك . وفى الوقت نفسه أعرب الكثيرون عن مخاوفهم من أن رتابة العمل فى المصنع قد تحطم انسانية العامل الصناعى ، فأدى هذا الى محاولات للبحث عن بديل لما كانت تجلبه ممارسة الحرفة من رضاء نفسى فى الماضى .

ونتيجة لذلك حدث فى العشرينات توسع كبير فى ميدان « الترويح المنظم عن النفس » فى شكل أندية رياضية ، وفصول للعمل اليدوى ، ومسارح للهواة ، وموسيقى ، ورقص ، ومناقشات . وبعض هذه الأنشطة الترويحية ترعاها الحكومات وبعضها الآخر ترعاها المنظمات الخاصة . ففى بريطانيا مثلا غالبا ما ترعاها منظمات مثل معاهد النساء ورابطة تعليم العمال ، ورابطة المسرح البريطانى ، أو وكالات الرفاهية مثل بيوت التوطين .

ومعظم البلاد ، سواء على المستوى القومى أو المحلى ، جربت طرقا لتقريب الكتب والفنون والموسيقى والمسرح الى الجمهور العريض ، بتوسيع نظم مكتباتها ومتاحفها ، وانشاء فرق الأوركسترا ، ومختلف المشروعات الفنية والمسرحية . وتوسعت البرامج المدرسية بحيث شملت مجالا واسعا من الألعاب الرياضية وغيرها من الأنشطة غير الداخلة فى المناهج الدراسية ، والتى تستهدف تنمية الميول والمهارات التى قد تؤدى الى استخدام الفراغ على نحو خلاق ، ولقد أدمج

« الترويح المنظم » فى التخطيط الاجتماعى لسنوات الكساد ، كما استخدم فى أوقات الحرب ابتغاء تقوية الروح المعنوية . فالكساد والحرب ، والاعتراف بدور دولة الرفاهية ، كل ذلك أدى الى معاونة الحكومات بقدر متزايد فى هذا المجال ، في البلاد التى كانت وسائل ازجاء وقت الفراغ فيها من اختصاص الهيئات الحرة ، كما شجعت التوسع فى انشاء الحدائق العامة ، والملاعب ، وحدائق الحيوان ، وحمامات السباحة ، وملاعب الجولف ونحوها .

كذلك عنيت المشروعات الصناعية ونقابات العمال باستخدام العمال لوقت الفراغ . وقدمت كثير من الشركات الكبرى لموظفيها تسهيلات رياضية وأيدت فرق الشركة الرياضية والموسيقية والفنية . وحصلت النقابات على معاونة من الوكالات التعليمية فى برامج التعليم بالاتحادات وشجعت أعضاءها على حسن استخدام وقتهم فى الاستزادة من الدرس أو بممارسة الألعاب والهوايات ، فلما توفر لدى الناس الوقت ، وشتى الموارد التجارية العامة ، صاروا يقضون وقت فراغهم بطرق تكشف عن تفاوت كبير فى نظرتهم الى الفراغ نفسه ، كما تعبر عن عدد كبير من الأذواق والميول . فالأشخاص الذين يريدون أن يستفيدوا من وقتهم فى تحسين مستواهم ، والاشخاص الذين لا يتميز عندهم الخط الفاصل بين الاهتمامات المهنية وغير المهنية ، يميلون الى قضاء وقت فراغهم بطرق تزيد من مهارتهم ، وتدعم حياتهم العملية ، وثمة آخرون يكادون يقصرون استخدام وقت فراغهم على زيادة استمتاعهم بالحياة . فهم ايجابيون فى موقفهم من المتعة ، يفعلون ما يبدو أنه جانب للمتعة ، دون النظر الى تأثيره على مركزهم أو تحسين شخصياتهم .

وبعض الناس يستخدمون وقت فراغهم فى مجرد الاسترخاء ، أو الهرب مما يسود بيئتهم من كآبة وارهاق ، لينسوا ما يقلقهم ويحيوا حياة أخرى ، على الأقل بخيالهم ، ولفترة وجيزة . والسينما والراديو والتليفزيون تحقق هذا الغرض بنجاح ، ولهذا أحرزت قدرا كبيرا جدا من الشعبية . وهناك أشخاص آخرون على النقيض من ذلك ، فهم يخصصون قدراً كبيرا من ساعات فراغهم فى خدمة مجتمعاتهم ، فيشغلون مراكز للمسئولية فى المنظمات المدنية ، ويتطوعون بوقتهم لنشاطات مثل القيادة الكشفية أو التمريض فى المستشفيات ، أو الانخراط فى تأييد قضية من القضايا ، من خلال نقابتهم ، أو حزبهم السياسى ، أو كنيستهم أو ما شابه ذلك .

وكانت الحاجة الى الاجتماع بالغير ، والتفاوت الواسع بين اهتمامات الناس التى يمكن ممارستها فى ظروف المدنية الحديثة ، سببا فى ظهور مجموعة من الأندية المختلفة أشد الاختلاف ، والى ظهور فرق رياضية أو مجموعات غير رسمية مشكلة فى مجتمعات أو فى أماكن العمل، أو مرتبطة بمدرسة ، أو كنيسة ، أو احدى المؤسسات الترويحية. وهناك قائمة تضم ما لا يقل عن ٢١ من أندية الهوايات الخاصة التى أنشأها موظفو الأمم المتحدة فى الخمسينات بالمقر الرئيسى للهيئة فى نيويورك تعتبر مثالا لأنواع المجتمعات التى تفتح للناس . مثل هذه الأندية تهيىء الوسائل لاجتماع الناس المتشابهين فى الميول واستمتاعهم ، على اختلاف مقر اقامتهم ، أو أصولهم ، أو مراكزهم ، فهم يشكلون نواة يتجمع حولها كثير من الناس ويقومون بنشاطهم الاجتماعى . ولقد حل التشابه فى الميول محل تشابه الوضع الاجتماعى من حيث هو أساس للاحساس بالانتماء عند سكان المدن الذين يتعرضون لحياة تخلو من التعارف والتآلف بين الناس .

وتنقسم هذه الطرق فى استخدام وقت الفراغ الى مجموعتين كبيرتين ، مجموعة سلبية ومجموعة ايجابية .

فهناك طرق تسلى الناس كمتفرجين أو مستمعين وأخرى تتطلب منهم مشاركة نشيطة . ولم يكن الحد الفاصل بين النوعين دقيقا دائما لأنه فى الأشكال السلبية للتسلية توجد درجات متفاوتة من السلبية ، تتدرج فى الميل الجاد الى الانتباه غير البصير للموسيقى أو الألعاب . فيصغى مستمع الى كل نغمة ويدرك الجوانب الممتازة في كل لحن بينما شخص آخر سلبى ، يحتفظ بالراديو مفتوحا للضجيج فى ذاته ، ويذهب لمشاهدة مباراة فى كرة القدم لأن الناس يذهبون لمشاهدتها ، فيذهب فى زمرتهم . ولكن فى كل أنواع التسلية السلبية يعتمد الفرد على ما يؤديه شخص آخر غيره .

وفى أواسط القرن تمخضت العوامل التى أثرت على استخدام وقت الفراغ عن ثقافة جماهيرية مشتركة . وازدهرت الى ابعد الحدود ، ويمكن استجلاؤها فى أوضح صورها فى الولايات المتحدة، حيث الظروف مواتية بشكل خاص . ولكن كل الملامح الجوهرية كانت موجودة فى اماكن أخرى ـ تخفيض ساعات العمل ، ارتفاع الدخول ، طمس الفوارق الطبقية القديمة ، نمو صناعات التسلية . ولقد كانت نسبة ارتياد السينما بالنسبة للفرد فى بريطانيا فى الخمسينات أعلى

منها فى الولايات المتحدة . وقد خصصت باريس منطقة فى غابة بولونيا يستطيع أصحاب السيارات الفرنسيون أن يقيموا فيها مخيماتهم ، وأنشأت الدول الاسكندنافية وسائل خاصة رخيصة لقضاء العطلات ، لا بالنسبة للعمال الذين يتناولون أجورا عن أيام العطلات فحسب ، بل أيضا للزوجات اللاتى يقضين الاجازات فى الترويح أيضا . وصارت اليابان فى مقدمة الدول من حيث حجم انتاج الدوريات والكتب . وكانت الثقافة الجماهيرية تتسم بصفات مشتركة فى كل المناطق الصناعية .

وفى الاقتصاديات الاشتراكية نجد أن الاتجاهات التى تميز الأقطار التى يكون فيها المنتجون أحرارا فى أن يهتموا وأن يؤثروا فى رغبات الشعب ، تتعرض لقيود تحد من جموحها ، تحقيقا لمبدأ الاستخدام النافع اجتماعيا للموارد ، وتنمية ما يدعى بالأنشطة المرغوب فيها اجتماعيا . فى هذه الدول نجد أن الحكومة ، سواء بطريق مباشر أو عن طريق مشاركة الهيئات العامة ، مثل نقابات العمال ، تقدم التسهيلات لاستخدام وقت الفراغ التى تقدمها الوكالات العامة فى البلاد الأخرى على العموم (۱) . وهى تهتم بأنواع النشاط التى لا تعتبرها ذات قيمة اجتماعية ، أو التى تعتبرها عبئا على الموارد ، فهذه لا يمكن السماح بها ايثارا لتقديم الاحتياجات القومية الأخرى . وترويج الأذواق الفاسدة أمر يواجه بالتثبيط المباشر ، كما أن وسائل اشباع هذه الأذواق من الخارج تقف فى طريقها الرقابة ، وتنظيم الاستيراد .

فى هذه المجتمعات يعتبر التخطيط لكيفية استخدام وقت الفراغ جزءا لا يتجزأ من التخطيط القومى . ولقد أدخل الاتحاد السوفيتى فى كل مراحل تطوره التسهيلات للانتفاع بوقت الفراغ . فأحال قصور الأغنياء الى مصحات واستراحات ، يقضى فيها العمال اجازاتهم ، وشجع الأنشطة التى تعمل أيجابيا على تحسين النمو البدنى ، ورفع المستوى الثقافى للشعب .

ولقد حققت متنزهات الثقافة والراحة فى المدن غرضا مزدوجا ، فهى أماكن تستطيع العائلات أن تسترخى فيها خارج المنازل المزدحمة ، كما أنها تفسح للناس ساحات للعب وممارسة أنشطة مختلفة ، وهى مجال فسيح لاقامة المعارض التى تتيح التعليم غير الرسمى . وتقدم الأستادات الرياضية والملاعب ودور الرياضة مجالا لممارسة الألعاب وغيرها من الأنشطة البدنية . ولقد أصبحت دور الأندية أو غيرها من حجرات الاجتماع فى المصانع والمزارع الجماعية مسرحا لشتى ضروب

النشاط الثقافى ، تقوم بها فرق غير رسمية تدفعها الى هذا وحدة الحزب المحلية ، وغالبا ما تساعدها فى ذلك . وشجعت صحف الحائط والمجلات وحلقات الدراسة ، والمناقشات ، وجمعيـــات الأدب وشكلت فرق موسيقية وتمثيلية ورياضية .

وعلى كل المستويات شجع العمال السوفييت على استخدام وقت فراغهم فى الدراسة ، حتى ينموا قدراتهم ، أو يتدربوا على عمل اعلى . وقدمت أنماط كثيرة من الوسائل التعليمية لجعل هذا ممكنا . فالسينما والراديو والتليفزيون تعتبر وسائل تعليمية ، وهى تحقق هذا الغرض على نحو مباشر عن طريق الأفلام التسجيلية ، أو الاذاعات التعليمية ، وعلى نحو غير مباشر عن طريق العروض المسرحية .

فالاتحاد السوفيتى والديمقراطيات الشعبية التى تتبع فى شأن ازجاء وقت الفراغ سياسة مشابهة فى جوهرها لسياسته ، تحاول اذن أن تهدى خطى الثقافة الجماهيرية ، وأن تستحدث قيما وأذواقا وعادات جديدة ، وشخصيات تتلاءم مع التصور الســـائد بها للمجتمع الذى ينشدون بناءه .

وخلال هذه الاعوام انتشر كل من الفراغ الجديد ، والثقـــافة الجماهيرية ، فى المناطق الحديثة العهد بالتصنيع . سار انتشار كل منهما على انفراد الى حد ما ، وحيثما تقدمت الصناعة اتت معها بوقت الفراغ ، وانتقال العادات التى سادت فى البلدان الصناعية خلال مائة سنة أو نحوها ، انتقالها كلها مع تنظيم المصـــانع ، وادارة الآلات الى البلاد المصنعة حديثا . وقد قبلت من حيث المبدأ المقاييس التى قررتها معاهدات مكتب العمل الدولى — بما فى ذلك عدم زيادة مدة العمـل اليومى عن ثمانى ساعات — او طبقت بأكملها الى حد ما ، وان استمر الفراغ يعتمد على المواسم الدينية والعائلية بالنسبة للغالبية العظمى من السكان التى بقيت فى الزراعة وما يتصل بها . أما بالنسبة لمن دخلوا مجال التصنيع فقد أصبح « وقت الفراغ » جزءا من طريقتهم الجديدة فى الحياة .

وفى الوقت نفسه ، بل والى حد أكبر ، أتت وسائل الاتصـــال بالجماهير بعناصر من الثقافة الجماهيرية لكل الناس ، سواء منهم من لديه وقت فراغ ومن ليس لديه ، فقد أصبحت الأفلام باللغات الهندية الكبرى مثلا صورة محبوبة من صور التسلية فى كل البلاد ، ليس فقط فى المدن حيث معظم دور السينما ، بل أيضا فى مناطق ريفية مختلفة ،

حيث تقدم عدة مئات من السينمات المتنقلة عروضها فى مخيمات .
كذلك لم تقتصر التسلية بالاذاعة على العاملين فى الصناعة من سكان البلاد الآخذة فى النمو ، بل وصلت الى كل أنواع الناس فى المدن والقرى.

وأدى الراديو والسينما الى نشر الموسيقى الشعبية على نطاق واسع . وأدت الأفلام الهندية الى سعة انتشار ما صار يدعى«بموسيقى الفيلم» ، وهى موسيقى خفيفة بها بعض مذاق الموسيقى الهندية التقليدية ، ولكن بدون ما فيها من عنف . وأدت الى حركات مشابهة ، قائمة على النماذج الموسيقية العربية ، فصارت تغنى وتعزف على الأثير فى البلاد العربية . ويمكن سماع الموسيقى التركية الشعبية فى كل مكان تقريبا من البلاد ــ فى مشارب القهوة ، وخارج المحلات التجارية ، أو في الميادين العامة وشهد مجال الرياضة أنشط استخدام جماهيرى لوقت الفراغ فى البلاد المصنعة حديثا . فاذا كانت ألعاب مثل البولو أو سباق الخيل من هوايات الأغنياء منذ زمن طويل ، فان نمو الألعاب الشعبية يعد ظاهرة من ظواهر القرن العشرين . واللعبة المفضلة فى مكان ما تختلف عنها فى مكان آخر وبعض المناطق أنشط من غيرها فى مجال الرياضة . ولقد لقيت الرياضة تشجيعا خاصا فى البلاد التى خضعت للنفوذ البريطانى . ففرق الهند ، والفرق الأفريقية ، وجزر الهند الغربية للكريكيت والهوكى ، تشترك فى المباريات داخل الكومنولث ، وصارت الباسبول تلعب فى أى ساحة فضاء فى بلاد امريكا اللاتينية . وقد رفعت الفرق الناجحة واللاعبون الناجحون رأس مجتمعاتهم وأممهم .

وظل نموذج ازجاء الفراغ عند الجماهير أكثر بروزا فى البلاد المصنعة ، بل لقد زاد قوة فى هذه البلاد ، وتأثر به أسلوب الحياة ، على نحو أكثر عمقا . ولكن الاتجاهات الجوهرية في استخدام الفراغ ، وتنمية الثقافة الجماهيرية على نحو ما تطورت فى البلاد الصناعية ، قد انتشرت على نطاق عالمى فى منتصف القرن العشرين .

وسنعرض فيما بعد للطرق الكثيرة التى تستخدم فيها جماهير غفيرة من الناس الفراغ الجديد ونناقشها ، من حيث التطور فى النشاط والطرق التى تقدم بها التسهيلات فيما يتصل بالفراغ الجديد، سواء على نحو تجارى أو عن طريق الوكالات العامة ، كما هو فى المناطق الرأسمالية ، أو على انه جزء من التنمية القومية المخططة فى المجتمعات الاشتراكية .

واستخدام الفراغ وشكل الثقافة الجماهيرية يرتبطان ارتباطا وثيقا بجوانب أخرى فى التنمية التكنولوجية والاجتماعية ، وبتقدم الآداب والفنون . لهذا فالصفحات التالية يجب أن تقرأ بالرجوع الى الفصول الخاصة بالاتصال والمواصلات التى تعرض التكنولوجيات التى احدثت ثورة فى كثير من جوانب انشطة وقت الفراغ ، وكذلك الفصل الخاص بالتعليم الذى يتتبع محو الأمية وما يعتمد على ذلك من تقدم واسع فى الأدب الشعبى . كذلك ينبغى أن يقرأ مع الرجوع الى الفصول الخاصة بالآداب والفنون لأنه لا يمكن رسم حد فاصل وواضح بين التعبير والاستمتاع الشعبى بالفراغ أو وسائل المتعة ، وبين التعبير الأدبى والفنون من جانب آخر .

٢ - نشاطات وقت الفراغ

١ - القراءة :

كانت القراءة عند كثير من الناس صورة محببة من صور الاسترخاء ، سواء من حيث هى غاية فى نفسها ومن حيث انها تعين على متابعة الاهتمامات الأخرى . وكان هذا يصدق منذ زمن طويل على الطبقات المتعلمة ولكنه أصبح الآن يصدق أيضا على المستوى العام الأعلى للتعليم الشعبى . فأدى هذا مع اتساع مجال الفراغ ، الى ايجاد جمهور قارىء كبير العدد مما أغرى دور النشر باصدار الصحف السيارة والمجلات ، ومختلف الكتب ذات الطباعة الرخيصة ، بالاضافة الى مطبوعاتها العادية . وكانت النتيجة أنه بانتصاف القرن كان ٩٠٪ من سكان البلاد المتقدمة صناعيا يقرءون الصحف كل يوم ، وارتفع رقم توزيع المجلات عاما بعد عام ، وبدأت الكتب الشعبية الطباعة تصير فى متناول الناس على مفارق الطرق ، وفى المحال التى لم تكن تطلب منها الكتب من قبل . وانتشرت المكتبات فى مجتمعات المدن ، وكثير من المناطق الريفية . وباتساع الجمهور القارىء تغير طابع المادة المقدمة . فظهرت أنواع جديدة من الجرائد والمجلات والكتب ، جنبا الى جنب مع الأنماط القديمة بعد تعديلها لتناسب الطلبات الجديدة . والأشكال الجديدة تتدرج من جرائد مختصرة (البرشام) ، الى المجلات المصورة ، الى الطبعات الشعبية من روائع الكتب ، الى نصوص « علم نفسك » ، ومجموعات مختلفة لا حد لها من الروايات البوليسية ، وروايات

المغامرات ، وروايات الخيال العلمى . وتشمل الانواع القديمة والجديدة كثيرا من وصف الرحلات فى المناطق النائية ، وكثيرا من تراجم العظماء ، والتراجم الذاتية ، وتقارير مستفيضة عن تطورات العلوم والفنون .

(أ) الجرائد والمجلات المنتشرة على نطاق شعبى :

كانت الجرائد من بداية ظهورها فى القرن السابع عشر تسجيلا لاحداث يستفيد منها التجار والساسة ، كما كانت وسيلة للدعاية السياسية . وأصبحت فى القرن العشرين أيضا وسيلة من وسائل التسلية . وكان القراء فى القرن التاسع عشر يطالبون بأن تغطى الجرائد النواحى المالية والسياسية ، والأخبار المحلية ، والتعليق على الأحداث الثقافية والرياضية . أما قراء القرن العشرين فيريدون مع كل ذلك تقارير عن المكتشفات العلمية ، تغطية كل الأخبار الرياضية ، تقارير عن الطقس ، وأعمدة مختلفة مخصصة لأنشطة وقت الفراغ . واخذت الصحف تضيف الى تغطية الأخبار ارشادات فى فلاحة البساتين ، والتصوير الفوتوغرافى ، وغير ذلك من الهوايات ، والغاز الكلمات المتقاطعة ، وأخبار السفر والراديو والسينما ، وتعليقات على التليفزيون ، ونصائح تتعلق بالوجبات والحفلات والموضة . وقد أدخل الكثير من الصحف رسوم الكاريكاتير وشرائط الكاريكاتير الهزلية .

وحاولت المجلات الشعبية الجديدة كما حاولت الجرائد أن تجمع بين عدة أمور ، فتكون من أدوات التسلية ، والتنبؤ بالمعلومات ، وتفسير التطورات فى العلم والتكنولوجيا وغير ذلك من الميادين المختلفة . وهى تستهدف كل طبقات المجتمع ، وكل الأعمار ، وكل الميول والأذواق . والمجلات التى من هذا الطراز قوية بنوع خاص فى الولايات المتحدة . وبعد الحرب العالمية الثانية أخذت المطبوعات التى من هذا القبيل تنتشر انتشارا واسعا فى كل الأقطار .

وهذه المجلات اذ تعرض المعلومات ونواحى التسلية فى مختلف المستويات العقلية ، تفترض وجود نموذج مشترك يميل قراؤها الى أن يتمثلوه في أنفسهم ، نموذج مستوى معيشى مرتفع يزداد ارتفاعا ، ووسائل تخفف من عناء العمل باستمرار ، وأفخر الملابس واحدثها ، وكذلك أفخر وأحدث المنازل والسيارات والمساحيق ، والفيتامينات والعقاقير العجيبة ، والصورة التى يحلمون بها تصور الحب الرومانسى

والحياة الأسرية والأطفال الذين ربوا على أساس أحدث مبادىء سيكلوجية الأطفال والفراغ الواسع وجو الشباب الدائم .

ومع أن هذه المجلات مليئة بالمعلومات ، فهى فى المحل الأول لا تستهدف تنشيط الفكر ولا التشكيك فى القيم . انها ترضى شوقا غير مركز الى معرفة الأحداث الجارية ، والطبيعة ، والأجزاء النائية من العالم ، وما تصنعه الآلة والعقل ، والطب ، والدين ، والألعاب ، والفضاء الخارجى ، والحياة اليومية لنجوم السينما ، والرياضة وغيرهم من المشاهير . ومجلات أخرى يستمد منها القارىء مشاعر العدوان — دون أن يعتدى — أو تمنحه فرصة الهرب الى دنيا السحر ، والخيال ، والجنس ، والجريمة ، والمغامرة .

وكان قدر كبير من حيز المجلات الشعبية يخصص للاعلانات ، وعليها تعتمد هذه المجلات فى دخلها الى حد كبير . ويستطيع خبراء الاعلان الأكفاء أن يرسموا صورا واشكالا تجتذب انتباه الناس واهتمامهم ، وتدفعهم الى العمل فى الحال . ولقد صار الاعلان مصدرا من مصادر المعلومات ومولدا دائما للرغبات الجديدة . وهناك عدد من أجمل الصور الفوتوغرافية وفنون الرسم فى صفحات الاعلان ، والى جانبها رسوم فنية مستنسخة لتوحى بالاحترام الكبير للسلعة ، فثمة ألوان تأخذ بالبصر وثمة أفعل التفضيل وغيرها من وسائل جذب الانتباه عن طريق التأثير العاطفى ، وهكذا أصبح الاعلان فى ذاته صورة من صور التسلية فى كثير من الأحوال .

وفى داخل الاطار العام تختلف كيفية العرض ، وتختار النقط ذات الأهمية الخاصة عند جمهور محدد ، وميوله المفترضة .

وكان عدد المجلات العامة مثل جون بول فى انجلترا وستردای افننج بوست فى الولايات المتحدة تنشر قصصا جيدة ومقالات مفيدة فى كثير من الموضوعات الجارية كما تنشر صورا كاريكاتورية تسخر من مشكلات الحياة اليومية ، وهى تستميل الجماهير القارئة نوعا ما ، وهم بالملايين. وفى أول الأمر ظهرت هذه المجلات بدرجات متفاوتة فى الاتقان ، ولكنها بالتدريج صارت متساوية فى جودة الطباعة وتعدد الألوان .

وأوسع المجلات العامة انتشارا مجلة ريدرز ديجست ، وهى أوسع المجلات انتشارا فى العالم منذ بدايتها سنة ١٩٢٢ ، وقد وصل

توزيعها الى ١٢ مليون نسخة فى الولايات المتحدة تقريبا سنة ١٩٥٦ ، و ٣ ملايين نسخة فى طبعات أجنبية بلغ عددها ٢٨ طبعة . وفى كل شهر تنشر ملخصات للمقالات المختارة من عدد كبير من المجلات الأخرى فى الأشهر السابقة ، وتلخيصا لاحدى الروايات البالغة الرواج ، وقصصا عن أفراد تغلبوا على بعض المصاعب ، بفضل كرامتهم وثبات جنانهم . وتروى قصة التقدم فى ألف ميدان بتفاؤل انسانى دائم . وفى ميدان تربية الأطفال مثلا تفسر المشكلات على ضوء آخر الأبحاث النفسية. ولكنها فى تحليلها للمشروعات التجارية تتحيز لقيم المجتمع الراسمالى المبكر . وقد تبعتها مجلات على الغرار نفسه فى كثير من الميادين المتخصصة ، لأن الفراغ الذى تهيأ للناس مؤخرا لايكفى — رغم انفساحه — لقراءة المقالات المفيدة فى كل الدوريات فأخذ عدد كبير من الناس يعتمدون على الملخصات فى الحصول على معلوماتهم .

والامبراطورية الأمريكية للنشر ، وهى مؤسسة التايم ، تشمل مجلات التايم (١٩٢٣) وفورشن (١٩٣٠) ولايف (١٩٣٦) وأركتكشرال فورم (انضمت ١٩٣٥) ، وهاوس اندهوم (١٩٥٢) ، وسبورتس الستريتد (١٩٥٤) هذه المؤسسة وضعت مقاييس للمعرفة الشعبية على المستوى المتأنق ، وحددت معنى النجاح . وكانت فورشن أول مجلة تصور الشركات الكبرى تصويرا مثيرا — فى نطاقها العالمى واستخدام العلم والرجال الذين يتولون الادارة — وتعرض صناعة القرن العشرين كأنها (عالم من الفن) يشبه ناطحات السحاب .

والمجلات الأسبوعية الاخبارية مثل تايم وما يحذو حذوها ، التى تغطى الأحداث الكبرى التى يريد المواطن المعاصر أن يعرفها تشمل مجالا من المواد أوسع مما كانت تشمله مجلات الرأى القديمة . وتفترض فى القراء أن معلوماتهم الأساسية أقل . وهكذا فهى تجد استجابة من جماهير القراء الحديثى العهد بالتعليم . وظلت أرقام توزيعها فى صعود .

أما المجلات المصورة فاستخدمت كل امكانيات التصوير الحديثة للوفاء بحاجات الجماهير المتزايدة من الأخبار التى يمكن أن تفهم بسرعة، وتشبع الرغبة فى التأثير السريع المثير . وكان ناشرو المجلات يستخدمون الصور كوسائل ايضاح من سنين طويلة ، من هذه المجلات الستريتد لندن نيوز والستراسيو التى يرجع تاريخها الى سنة ١٨٤٢ و١٨٤٣ . ولكن مع التقدم الكبير فى آلات التصوير والأفلام مما أتاح تصوير الحركات والصور الشديدة القرب والصور الصريحة للناس فى اللحظات

الحرجة ، فقد أصبحت الصور الفوتوغرافية فى ذاتها هى الجوهر ، وأخذت المجلات المصورة مكانها كمجلات قائمة على الصور . والمجلات الكثيرة التى من هذا النوع مثل مجلة لايف التى تحاكى فى شكلها مجلة (فى) الفرنسية تروى قصصها فى صور ، ولا تستخدم الكلام الا لاعطاء الاحساس بالاستمرار ، وللتفسير ، حيثما يلزم الأمر . وهى تعلق على الأحداث عن طريق المقال التصويرى ، وهو ترتيب للصور الفوتوغرافية فى نموذج يبرز النقط التى يريد المحرر ابرازها على نحو خاص .

وتزايد انتشار المجلات النسائية طوال هذه الفترة . ووصلت فى الخمسينات الى الدرجة التى وصلت اليها مجلات الصور ، اذ صارت من أحب الدوريات الى الناس وتحوى المجلات النسائية العامة قليلا من كل شىء قد يهم النساء : مقالات عن التعليم ، ووسائل تسهيل الأعمال ، شئون السياسة أو المجتمع ، لمحات عن الجمال ، وأقسام خاصة عن آخر صيحات الموضة ، والتدبير المنزلى ، والعمارة والديكور الداخلى ، وقصص قصيرة ، وشعر ، وتعليق عن فيلم ، وتلخيص رواية . وتختلف مستويات هذه المجلات اختلافا بعيداً . وهذا أوضح ما يكون فى بريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية ، أوضح مما هو الحال فى الولايات المتحدة ، لأن الناشرين فى هذه الدول يهدفون الى تقديم مجلات لمستويات اجتماعية مختلفة . وهى فى مجموعها قد زادت انتشاراً وتأثيراً . وقد أصدرت كبرى هذه المجلات وهى المجلة الأمريكية ليديزهوم جيرمان مجلدا عن تاريخها سنة ١٩٥٦ احتفالا بعيدها الخامس والسبعين ، فدهش من لا يدمنون القراءة اذ وجدوا أنها كانت تنشر بانتظام قصصا ومقالات وقصائد لأدباء يعتبرون نجوما فى فنونهم . فقد وجد هؤلاء الأدباء فى هذه المجلة مكانا طيبا لكتاباتهم ، بسبب المكافأة المجزية التى تستطيع دفعها للكاتب ، ولأن توزيعها جعلها الثالثة بين المجلات الشعبية فى الولايات المتحدة .

وثمة مجلات اخرى شعبية لها علاقة بعالم التسلية ، منها دوريات واسعة الانتشار جدا مثل راديو تايمز التى كانت تنشر برامج الراديو والتليفزيون للأسبوع القادم ، كما تنشر الأنباء والتعليقات عليها ، وكذلك المجلات الواسعة الانتشار فى بلاد كثيرة التى تفرد صفحاتها للمسامرات حول نجوم السينما والاذاعة والتليفزيون .

وهناك مجلات شعبية هابطة المستوى تباع بالملايين فى الأكشاك وعند باعة التبغ ومحلات العقاقير وغير ذلك من مراكز بيع الصحف فى

الطرقات ، وهى تمثل أخشن جوانب الجنس ، والعنف فى حدودها القصوى . وهناك مجلات الاعترافات ومجلات قصص الجريمة والفزع، التى تعتمد على الاثارة لتجتذب القارىء وتبيع نسخها على نطاق واسع. ومن أخشن وأعنف هذه المجلات ما يستخدم الكاريكاتير ، أو صورة الشريط الضاحك ، الذى يستخدم على نطاق واسع لتبسيط عرض القصص والمعلومات . وحين يحدث ذلك يصاب الآباء والمدرسون بقلق ويطالبون بحظر تداول هذه المطبوعات . وهذا موقف يتعارض مع مبدأ حرية الصحافة ، ولكنه ركز الانتباه على نتيجة من نتائج تعليم الشعب القراءة والكتابة ، هى رواج سوق الاثارة الحوشية . فأدى هذا الى الكثير من التفكير حول كيفية رفع الناس فوق مستوى العقلية الصبانية، ومثيرات القوة التى تستخدمها التجارة ، دون الالتجاء الى استعداء السلطة على حرية النشر .

والمجلات المنتشرة على نطاق شعبى توجد جنبا الى جنب مع مجموعة مختلفة لا تحصى من الدوريات التى تصدر لصالح بعض المجموعات الخاصة . فقد ثبت للعاصفة قليل من المجلات الأدبية والسياسية والاجتماعية الموروثة عن القرن التاسع عشر . وكذلك فعلت الدوريات المهنية والتكنولوجية والنشرات شبه التعليمية . مثل المجلات الجغرافية ، والدوريات الشهرية الشعبية العلمية . وقد ضم الى هذه الدوريات عدد كبير من الدوريات الجديدة . فكل أنواع الجماعات الوظيفية ، بل وحتى الشركات ، أخذت تصدر مجلاتها الأسبوعية أو الشهرية أو الفصلية . وأخذت دور النشر الكبرى تصدر مجلات جديدة ، تستهدف الوصول الى من هم في سن معينة ، أو ذوى الاهتمامات الاجتماعية الذين كان لا يظن فيما مضى أنهم من الكثرة ، أو من الغنى بحيث تصدر لهم نشرات خاصة . فمثلا المتحمسون للأمانة المطلقة ، والمراهقون ، صارت لهم مجلاتهم الأنيقة اللامعة الورق ، ويوزع من بعضها ما يزيد على المليون نسخة . وكذلك فان لمجلات القصص العلمية والقصص البوليسية هواتها فى أجزاء كثيرة من العالم ، وفى كل المستويات الاجتماعية . ونسبة كبيرة من هذه النشرات الخاصة ، والدوريات العلمية ، والمجلات ذات الجاذبية الشعبية ، تقدم المعلومات للناس الذين يمارسون الهوايات ، أو لمن يستعينون بها ليواكبوا المعلومات الجديدة فى الميدان المهنى الذى يهمهم .

ومن بين مجـــلات الاهتمامات الخاصـــة توجـــد دوريات الرأى ، والمجلات الأدبية ، التى تثير مسائل حول القيم فى الثقافة الجماهيرية ، وعن القوى الصناعية والسياسية · والمجلات الأسبوعية مثل السـبكتاتور والنيوستيتسمان والايكونومست فى بريطانيا تعرض الأخبـــار على ضوء نظريات سياسية مفهومة ومحددة ــ يمينا أو يسارا أو وسطا ــ ومع تحليل تصفه الايكونومست بأنه « يستهوى عقول المفكرين فى كل مكان » وفضلا عن المجلة الأوروبية ذات الطراز العتيق ظهر طراز جـــديد تمثله « الساترداى ريفيو أوف ليترتشر » فى الولايات المتحدة ، وهى تحـــاول تشجيع جمهور متزايد من حديثى العهد بالتعليم على بعض النقـــد ، حين يتناولون الكتب والمسرح والصور الجديدة للأفـــلام والراديو والتليفزيون والتسجيلات . وقد وجدت هذه المجلات صعوبة متزايدة فى الاستمرار بقيد الحياة ، لأن طريقتها التى لا تجتذب الا عددا خاصا ، ومواقفها الانتقادية ، كان معناها تحديد مجـــال التوزيع ، ولهذا فلم تجتذب عددا كبيرا من المعلنين اللازمين لزيادة ايرادها ، بينما تزداد نفقات النشر بحيث لا يمكن مواجهتها بمجرد رفع قيمة الاشتراك .

والواقع أن قوى اقتصادية كبرى تميل الى تركيز نشر المجلات الشعبية فى أيدى عدد قليل من دور النشر الكبرى . فمن الضرورى استثمار رءوس أموال ضخمة فى هذه الصناعة نظرا للمجال الفسيح الذى تختار منه المواد ، وضرورة سرعة اصدار الأعداد التى تبلغ عدة ملايين ، والاستخدام المتزايد للألوان ، وبسبب وجود شبكات عالمية واسعة من المراسلين والمصورين والباحثين الذين يجمعون المواد ، أصـــبح التوزيع فى ذاته عملية بالغة الضخامة . كل هـــذه العوامل جعلت من الصعب على الناشر المفرد أن يستمر في عمله ، وأدى هـــذا الى تكوين « أسر » من المجلات تستطيع مجتمعة أن تحصل على موارد كافية لخدمة السوق الجماهيرية .

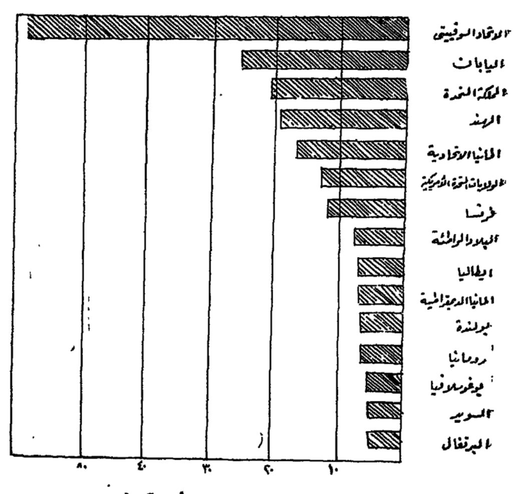
والمجلات الواسعة الانتشار بين أفراد الشعب فى البلاد الاشتراكية ، حيث نشر المجلات يقوم به القطاع العام ، تختلف عن المجلات فى البلاد التى كانت تتمتع بصحافة تجارية حرة قبل عهد الاعـلانات والاستثارات ولـكنها تشبهها شبها قريبا من جوانب أخرى كثيرة · فنبرة ومحتوى

المجلات التي تستهدف رفع المستوى الثقافي للشعب لاتتأثر باختلاف أذواق القراء ، التي وجد الناشرون التجار في أماكن أخرى أنه من المفيد لهم أن يستغلوها • وفي تناول هذه المجـلات للمنتجات واستخداماتها ، تتكلم كأنما هذه المنتجات قد أتت الى السوق بطريقة مخططة ، وتحـدد أنسب الطرق لاستخدامها • وبدلا من آخر صيحات المعلنين ، فان قراء المجلات الشعبية في الاتحاد السوفيتي والديمقراطيات الشعبية يجدون في المجلات آخر صور الدعاية الرســمية ، وبدلا من الاستثارة يجـدون مواد تنـدد بالسلوك غير الأخلاقي والاهتمامات البدائية الخشنة •

ولكن هذه المطبوعات ـ شأنها كشأن المجلات الشعبية في بلاد أخرى وتعتبر من مصادر المعلومات للشعب ، مع تفاوت كبير في مقــدار الفضول العام والاهتمامات الخاصة ، وقد اتبعت في أسلوبهـــا طريقــا ملائما لغرضها مع ظهور المجلات المصورة ، واستخدام اللون ، والطباعة الفاخرة ، والاعداد الفني لصفحات المجلة • والمجلات العامة تفترض في قرائها أنهم يريدون أن يعرفوا أشياء عن أمور كثيرة • وقد كثرت المجلات المتخصصة من كل الأنواع ـ للنساء والشباب والفلاحين وعمال المعادن وأصحاب كل مهنة وحرفة ـ كذلك تنتشر المجلات التي تغطي الحياة الاجتماعية والسياسية والأدبية •

(ب) الكتب الشعبية :

ان التدفق المستمر للكتب من مطابع العالم ، لدليل قوي على أن الدوريات لم تغن عن الكتب كمادة قراءة • ولقد دل المسح الذي أجرته اليونسكو عن انتاج الكتب سنة ١٩٥٢ على أن هناك سبعة أقطار تنتج ما يزيد على ١٠٫٠٠٠ كتاب سـنويا ، هي الاتحاد الســوفيتي ـ المملـكة المتحدة ـ فرنسا ـ الهند ـ اليابان ـ جمهورية المانيـــا الاتحادية ـ والولايات المتحدة بهذا الترتيب ـ وان ١٦ دولة أخرى تنشر ما يزيد عن ٣ آلاف كتاب •



عـدد الكتب مقدراً بالآلاف

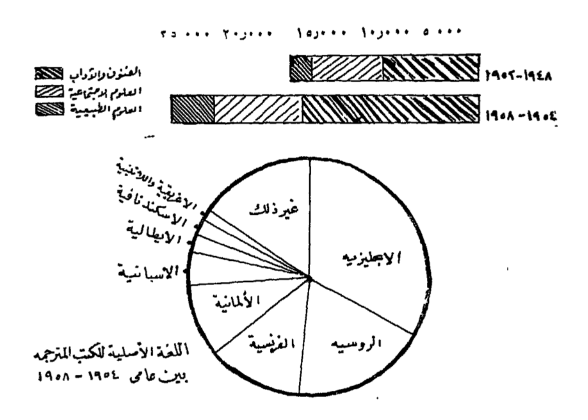
يبين هذا الرسم البيانى الكتب التى نشرت عام ١٩٥٧ وعدد الكتب التى اصدرتها اكثر الدول انتاجا للكتب «ودول العالم تختلف فيما تطلق عليه كلمة «كتاب» اذ تطلقها احيانا على النشرات والتقارير الحكومية وما اليها» .

المصدر : الكتاب السنوى الاحصائى للامم المتحدة عام ١٩٦٠ .

وقد انتشرت حركة انشاء المكتبات الشعبية فى القرن التاسع عشر بشكل كبير ، ولم تعد المكتبات مجرد خزائن للكتب ، بل أصبحت لذلك مغريات باستخدام هذه الكتب • وفى بلاد كثيرة افتتحت مكتبات المدن فروعا فى الأحياء ، وعلقت معروضات ، ونظمت القاء محاضرات ومناقشات ، وهيأت قاعات مطالعة خاصة للأطفال •

واستخدمت اخصائيى المكتبات المطلعين على المراجع ، لمعاونة رواد المكتبة على الاهتداء الى المادة التى يبحثون عنها • وابتداء من

العشرينات صارت المكتبات المركزية فى المدن وبعض المناطق الريفية تستخدم مكتبات متنقلة ، تتوغل فى أقاليم كانت من قبل مقطوعة الصلة تماما بالكتب ، وتقوم بزيارات أسبوعية أو نصف أسبوعية ، وتمكن القراء من أن يطلبوا الكتب التى يحتاجون اليها على نحو خاص .



خريطة تبين الكتب المترجمة

المتوسط السنوى لانتاج العالم على أساس الموضوع ١٩٤٨- ٥٢، ١٩٥٢، ١٩٥٤-١٩٥٨ ، وعلى أساس اللغة الأصلية للكتاب بين ١٩٥٤ - ١٩٥٨ .

المصدر : الكتاب الاحصائى السنوى للأمم المتحدة ، ١٩٦٠

وكانت شبكة المكتبات تغطى البلاد فى بعض الأقطار أكثر مما تفعل فى غيرها . ولكن فى كل مكان أدت الخدمات المكتبية الى زيادة مطردة فى عدد الكتب التى صارت فى متناول عدد متزايد من الناس . وكانت السويد فى مقدمة الدول التى بلغ فيها مقدار التسهيلات بالنسبة للفرد الواحد نسبة عالية جدا . ولوزارة الثقافة فى الاتحاد السوفيتى شبكة من المكتبات العامة تمتد حتى على المستوى الاقليمى ، وتدير مراكز

استعارة فى الأحياء ، ومكتبات اعارة متجولة ، وتقدم الكتب لمكتبات الأندية والمراكز الثقافية ، والمزارع الجماعية ، وغيرها من المجموعات ، وشبكة الولايات المتحدة من المكتبات العامة ، وهى أشـــمل بالنسبة لبعض المدن منها لبعضها الآخر ، تكملها عــدة آلاف من المـكتبـات المدرسـية والجامعية والمـكتبات المتخصصة للوكالات والمنظمات العامة • ويستطيع عامة الشعب أن يستخدموها • ونظام المـكتبات العـامة فى بريطانيا قـد استكمل بانشاء مكتبات زهيدة التكلفة ، ممكنة الاعارة ، تتغلغل فى كل مكان •

كما آن أندية بيع الكتب تتيح لأعضائها أن يتسلموا كل شهر بثمن مخفض جدا كتابا تختاره مجموعة من النقاد من بين المطبوعات الجارية • وكان هناك ٧٤ من أندية الكتب على مستوى البلاد كلها للراشدين فى الولايات المتحدة ، و ١١ للاطفال • ويتزايد العدد فى أقطار أخرى • وبعض الاندية عام مثل أندية « كتاب الشهر » ، وبعضها تتخصص فى المنشورات التاريخية والفنية وطبعات جديدة من الروائع القديمة ، وعدد كبير من الموضوعات الأخرى • هذه أندية قد جعلت الكتب المختارة فى متناول جمهور عريض ، كان كثير من أفراده تعوزهم الفرصة أو الـكفاية لأن يختاروا بأنفسهم ما يقرءون • وساعد ذلك على تقليل نفقات النشر ، بايجاد سوق واسعة مضمونة ، وســد الثغرة الراجعـة الى تركز محـال بيع الكتب فى المدن الكبرى والأماكن المركزية •

وأنواع الكتب التى تستحوذ على اهتمام الجمهور تتفاوت تفـــاوتا كبيرا •• من الروايات الرومانسية ، وبخاصة ما كان منها تاريخيا ، الى التقارير شبه العلمية عن آخر المعـــارك مع الطبيعـة • فبفضل كتب مثل صعود افرست » لسير جون هنت (١٩٥٣) اســتمتع القراء ـ دون أن يتكبدوا المشقة ـ بخوض غمار الثلوج وصعود الجبل ، وتعلموا شيئا عن الأساليب الفنية لتخطيط الرحلات الكبرى • كذلك فان كتب الرحلات والدراسات الانثروبولوجية للمجتمعات البدائية قد لقيت رواجا ضخما خلال هذه الأعوام ، لأنها أشبعت تطلع الناس الى أسرار حياة غيرهم من البشر . والكتب التى تصف الحياة العذراء ، مثل خاتم الملك سليمان تأليف كونراد لورنز (١٩٥٢) ، أو شـــالرذى سالمون تأليف هنرى وليم صن (١٩٤٨) الذى يظهر القارىء على عادات الحيوان والطيور والسمك ، قد اجتذبت اليها القراء من الشباب والشيوخ • واصبحت كتب التراجم والتراجم الذاتية من كل الأنواع من أوسع الكتب انتشارا

بين القـراء الذين أرادوا أن يعرفوا كيف يتصرف أعـلام الرجال ازاء المشكلات التى تواجههم ، كما راجت بين ذوى الأمزجة التأملية والهادئة ، الذين يحبون أن يقارنوا بين مختلف الاوصـاف لحادث واحـد • كذلك انتشرت الكتب التى تبعث فى القارىء حنينـا الى الطفولة ، أو ذكريات أسلوب فى الحيـاة ، والتى تقدم أجوبة تقوى الثقة بالنفس على حـل المشكلات الشخصية الشائعة •

وسواء أكانت المـادة تاريخية أم جغرافية أم نفسيـة أم علمية أم سيرة من السير ، وسواء عرضت فى قصة أو فى كلام مباشر ، فان القراء يتطلبون ثقة فى ايراد التفاصيل ، والاحساس بأن قراءتهم تضـيف الى معلوماتهم ، والى نفاذ بصيرتهم الى الحقيقة فى الماضى والحاضر •

واصبح اقتناء الكتب أيسر بفضل ظهور الطبعات الشعبية الرخيصة مع المجلات والجرائد اليومية وفى كل محـال التجـزئة • ولم تكن محاولة تقديم كتب رخيصة بالأمر الجديد • فمنذ منتصف القرن التاسع عشر قدمت طبعات تاوشنيتنر الألمانية المؤلفات الانجليزية والألمانية وجعلتهـا فى متناول القارىء فى طبعات رخيصة • ولكن التوسع العظيم اتى حين اكتشف الناشرون انهم بطبع الكتب كما يطبعون المجلات ، بمطابع بالغة السرعة ، وبيعها بكميات هائلة ، يستطيعون أن يحققوا لانفسهم أرباحا كبيرة • لقد اتبع الناشرون مثال سلسلة بنجوين فى اعـادة طبع روائع الكتب ، وطبع كتب جديدة فى طبعات رخيصة للجيب • ولمـا كانت تجارة الكتب الشعبية تعتمد على سعة الانتشار ، فان الكتب صارت تعرض فى أقسام المحلات التجارية ، بل فى محلات البقالة • ولم يعد عرضها يقتصر على الاكشاك ومحلات التبغ •

والكتب الرخيصة الطبع تغطى عددا كبيرا من الموضوعات • وكانت فى بداية الامر اما كتبا مشهورة جدا يعاد طبعها ، على افتراض أن الناس يودون شراء الطبعات الرخيصة لأن ثمنها فى متناولهم ، أو كانت كتبـا رهيبة تباع ببنس واحد • وبعد ذلك صار الناشرون يقدمون مزيجا من الروايات البوليسية وروايات المغامرات والروايات العلمية ، واعادة طبع الروايات والمسرحيات الشهيرة ، وكتب دليلك الى الطيور أو المعادن أو الطوابع أو التحليل النفسى ، وينشرون أبحاثا عن موضـوعات تتراوح بين النظرية السياسية وبين الاديان الكبرى ، ومن علم الآثار الى الموسيقى — اى أنهم فى الواقع صاروا ينشرون أى مادة وكل مادة ينتظر لها الرواج بين الناس • وأن الاتساع فى تنوع الاهتمامات التى تشير اليها العناوين الجديدة ، المتجددة دائما ، ليشهد بأن التعبيرات عن الثقافة الجماهيرية رغم

أنها كانت فى غالب الاحيان صاخبة مبعثرة وحوشية ، فانها أيضا تصور وعياً جديداً بالعالم ، فيما وراء الدائرة الصغيرة لأى شخص فى هذه الحياة. كما تصور مجهودا حيا لتقديم جزء من معنى الحياة على الأقل .

وفى البلاد الشيوعية حيث بذل كل مجهود لانشاء أمة من القراء من بين العمال والفلاحين الحديثى العهد بتعلم القراءة والكتابة ، فقد نشرت ملايين الكتب الرخيصه ووزعت ، وأنشئت المكتبات فى المصانع والمزارع والمدارس وغير ذلك من المراكز. فظهرت طبعات للروائع الروسية ، وأعمال الأدباء السوفيت ، وأعمال أجنبية من أوربا وأمريكا وآسيا وأفريقيا ، وصدرت فى طبعات تزيد على ١٠٠٫٠٠٠ نسخة . ولقد ظهرت بالروسية وبمختلف لغات الجمهوريات السوفيتية . وقد حصلت دار النشر الحكومية للروايات والشعر فى الاتحاد السوفيتى على الجائزة الأولى فى المعرض العالمى ببروكسل سنة ١٩٥٨ لسعة مجالات المواد التى تتناولها الكتب .

٢ ـ السينما :

لعل السينما من أهم أنواع التسلية بين معظم شعوب العالم فى القرن العشرين . فمنذ عشرينات هذا القرن أخذت أعداد متزايدة من الناس تذهب الى السينما ، بعضهم يكثر من هذا وبعضهم يقل . وتدل احصائيات سنة ١٩٥٢ على أن البريطانيين يرتادون السينما بمعدل ٢٥ مرة فى السنة ، والنيوزيلنديين ١٨ مرة ، والاسترالين ١٦ مرة ، والأمريكيين ١٥ مرة . ولكن الناس على اختلاف أممهم ، سواء كانوا فرنسيين أو ألمانا ، أو يابانيين أو هنودا أو مكسيكيين أو غير ذلك ، كلهم فى جميع أنحاء العالم يحبون السينما . وكذلك فانهم يشهدون نفس الأشخاص والقصص التى صنعت هذا العالم من الخداع السينمائى .

وظهور السينما يصور التفاعل الدائم بين المنتج الذى يختبر وسيلته وسوقه ، والجمهور المستجيب لما يعرض عليه من مناظر ، وتتلون نظرته بلونها . انه لا يوجد فى أى صورة أخرى من صور « ازجاء وقت الفراغ » ان كان دور المنتج بهذه الأهمية . وان كانت طبيعة ونوع التسلية تعتمد بنفس هذا القدر من الأهمية على ظروف الانتاج ومتطلباته . فصنع الأفلام عملية معقدة باهظة التكاليف ، وتوزيعها يتطلب تنظيما محكما ومهمات دقيقة . والسينما من حيث هى « موصل » تؤدى التسلية والفن فى كل مستوياتهما . ولكن اقتصاديات انتاج الفيلم تتطلب أن يشهده الجمهور . ويحاول منتجو الأفلام دائما أن يهتدوا الى صيغة تكفل لهم اجتذاب الجمهور ، وهم يكررون كل نموذج ناجح ، حتى ينبههم هبوط الايراد الى أنه لم يعد يجتذب الجماهير .

وقد سيطرت هوليوود على السينما من حيث هى وسيلة ترفيه طوال العصر ، وذلك باستثناء المناطق الواقعة تحت النفوذ الشيوعى ، حيث لم تتسرب أفلام هوليوود فحتى قيام الحرب العالمية الثانية كانت هوليوود تقدم من ٧٠ الى ٨٠٪ من الأفلام التى تعرض بالبلاد غير الشـــيوعية . وحتى فى الخمسينات ظلت تقدم حوالى ثلثى الأفلام المعروضة فى هذه المناطق واستعراض أحوال السينما كصورة من صور التسلية خلال هذه السنوات لابد أن يتيح حيزا كبيرا لظاهرة هوليوود وتأثيرها فى تشكيل الثقافة الجماهيرية ، وان كان هناك منتجون فى بلاد أخرى قد ضربوا بسهم أوفر فى تطوير الفيلم من حيث هو فن ، وان كان نمو صـــناعة الأفلام القومية ، وبخاصة فى آسيا ، قد استحوذ على اقبال الجماهير فى بلادها ، بل لقد دخلت الأسواق العالمية ، وذلك فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية .

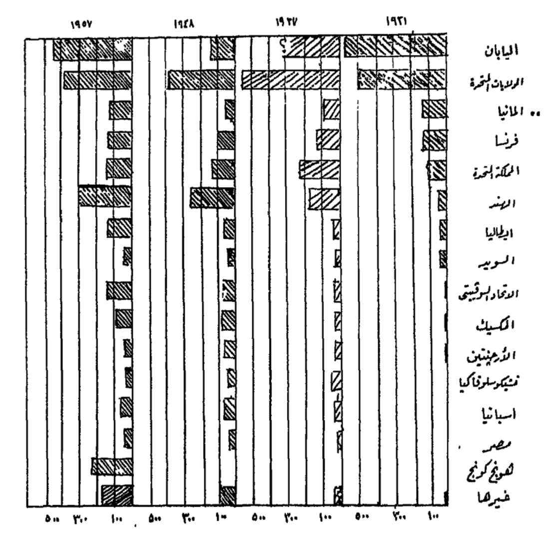
ولقد أقام صناعة السينما الامريكية رجال يشاركون المشاهدين فى ماضيهم وأذواقهم — فالمنتجون الأوائل كان منهم عدد من عمال الفراء السابقين والبائعين الذين يديرون عروضا عاطفية رخيصة صارخة ، يستطيع الناس الذين يعيشون فى المدن المزدحمة أن يجدوا فيها وسـائل مختلفة للتسلية ، بما فى ذلك النظر من الثقوب الى السينما مقابل بنس واحد للنظرة ، وقد استطاع أنجح هؤلاء الرواد أن يحصل من المال على ما يكفى لافتتاح مسارح صغيرة تعرض بها أفلام قصيرة نظير أجور زهيدة للدخول أو افتتاح مسارح فودفيل تعرض بين فصولها أفلاما سينمائية . ولما أصبح هؤلاء المنتجون هم أعظم المنتجين فى هوليوود ، فقد ظلوا يفكرون بطريقة المهاجرين الجدد وغيرهم من عمال المدن ، الذين كانت تزدحم بهم أماكن العرض الصغيرة الأولى . ولم يتعلموا الا بالتدريج أن الجمهور انما يستجيب للتسلية المتماسكة الواعية الفنية.

وكان الأمر فى أوربا على النقيض من ذلك ، اذ كانت الأفلام فى أول الأمر امتدادا للمسرح ، وبعد المراحل التجريبية الأولى صـــار المنتجون المسرحيون الذين يقدمون الأفلام يفكرون فى المسرح والسينما من حيث هما صورتان من صور الفن .

وكان مركز عالم السينما فى أوروبا حتى قيام الحرب العالميـــة الأولى ، ولكن بعد عام ١٩١٥ ، انتقل مركزها الى الولايات المتحـدة ، لأن الصناعة هناك كان لها جمهور ، ودعامة مالية لا يوجد ما يعادلها فى مكان آخر . فى هذا الوقت كان « رجال المشاهد ببنس » قد حصلوا

على شبكة من المسارح فى طول البلاد وعرضها ، وأنشأوا شركات انتـاج كبرى ، وصار من أعضاء مجالس ادارتها ممثلون لأغنى شركات الولايات المتحدة الأمريكية ، وفى أوجز عبارة صار الفيلم جزءا هاما من دنيا الأعمال •

وبعد انقضاء فترة من فترات المنافسة الحادة ، ظهرت شركات السينما الأمريكية الكبرى كوحدات كبرى مندمجة للانتاج والتوزيع والعرض • وفى السنوات الأول كان المنتجون يصنعون الأفلام ويؤجرونها فى سوق مفتوحة الى العارضين •



عـدد الأفـلام المنتجـة *

* الأفلام القصيرة مستبعدة

** المانيا الاتحادية والديمقراطية فى ١٩٤٨، ١٩٥٧

الانتاج العالمى من الأفـلام

المصدر : الكتاب السنوى الاحصائى للأمم المتحدة ١٩٥١ - ١٩٦٠

ولكن تغير الوضع بنمو صناعة السينما ، فأخذ بعض عتاة المنتجين يضعون أيديهم على عدد كبير من المسارح ليكفلوا لأفلامهم دورا مضمونة للعرض • ومن جهة أخرى أخذ أصحاب سلاسل المسارح الكبرى يتملكون استوديوهات للانتاج ليكون لهم نوع من الرقابة على الأجور وليضمنوا لمسارحهم بعض الأفلام ، وكان للشركات المندمجة موارد ضخمة ،واقتضاها الصراع من أجل البقاء أن تحرص كل الحرص على امتاع الجمهور •

لقد مضت سنوات كان بوسعهم تسويقها من خلال مسالك واقعة تحت سيطرتهم • وتكلفة هذه الافلام تقل عن تكلفة أفلام الدرجة الأولى ، بينما يعتمد الجزء الأعظم من برامجهم وأرباحهم على أفلام الدرجة الثانية التى كان بوسعهم تسويقها من خلال مسالك واقعة تحت سيطرتهم • وتكلفة هذه الافلام تقل عن تكلفة أفلام الدرجة الاولى ، وهمها الوحيد هو التسلية ، دون أى ادعاء فنى •ومع ذلك فقد عمل المنتجون على احراز أعظم تأييد عام لأفلامهم فأخذوا يجرون تجارب واسعة على القصص والممثلين وواصلوا محاولاتهم لاتقان تكنيكات صناعة الأفلام •

وكان الأخذ بنظام (النجوم) من أهم العوامل التى أدت الى سعة انتشار كل الأفلام • ومنذ البداية كان المتفرجون يستحسنون بعض الممثلين والممثلات أكثر مما يستحسنون غيرهم • فكانت النجمة الدنمركية (أستاتلسن) البطلة المحبوبة لدى ملايين من شباب أوروبا خلال الحرب العالمية الأولى ، فلما اقتنع المنتجون بهذه الحقيقة أخذوا يتنافسون فى الحصول على النجوم ، ويختارون القصص التى يعتقدون أنها أنسب للنجم ويمنحون النجوم مرتبات تتزايد ارتفاعا بشكل مذهل • وأخذت الاستديوهات الكبرى بنظام التعاقد لمدى طويل مع النجوم ، ومعنى هذا أن تدفع لهم أجورهم العالية حتى حين لا يكون لديهم عمل يؤدونه ، وأخذ كل استديو ينفق الأموال الطائلة فى الاعلان عن نجومه الخاصين به •

وما ان حل عام ١٩٢٠ حتى كان النموذج الذى يجتذب الجماهير قد تحدد • فالناس يذهبون لشهود الافلام التى يصفها بأنها خير انتاجهم ، ويذهبون لمشاهدة بعض النجوم : مثل مارى بكفورد « الفتاة ذات الخصلات الذهبية » ورودلف فالنتينو المعبود الوسيم ، ودوجلاس فيربانكس البطل الذى تميز فى التمثيل الرومانسى ، وكذلك كبار العشاق : والبطلات ذوات الاغراء الجنسى والاوغاد وأبطال الكوميديا وعلى رأس الجميع شارلى شابلن وكانت اعداد كبرى تذهب كذلك لأنماط محددة من الأفلام ، مثل الأفلام الامريكية ، لمجرد الاستمتاع بما فيها من مغامرات • واصبحت دور العرض قصورا فى منتهى الترف وجمال الاضاءة • فاصبحت هوليوود

وقتذاك رمزا للسحر والمغامرة والرمانسية والانفاق بغير حساب وصارت المصدر الذى يمد الجماهير بنماذج تحتذى وبصور لسرحات الخيال .

على أن صناعة الفيلم الامريكى القوية التى اعتمدت على سوقها المحلية التى كانت تضم خمسى دور العرض السينمائى فى العالم ، هذه الصناعة لم تلبث أن امتد نشاطها الى الخارج . ففى عام ١٩٢٥ صارت الافلام الامريكية تعرض فى سبعين دولة ، وترجمت عناوينها الصغرى الى سبع وثلاثين لغة . فكان ٨٠ ٪ من الأفلام الخفيفة التى تعرض فى بريطانيا امريكية فى مقابل ٦٠ ٪ فى المانيا . ولكن رغم التفوق الهائل لهوليوود فقد استمرت أوروبا تصنع الفيلم التاريخى واشتهرت فى أرجاء العالم أفلام من انتاج كبار السينمائيين فى ألمانيا وروسيا وفرنسا والدانمارك وغيرها .

وفى هذه الظروف طلب المنتجون الأوربيون المساعدة من حكوماتهم ، على أساس ارتباط السينما بالمصالح القومية ، شأنها فى ذلك شأن أى صورة أخرى من صور الفن أو وسائل الاتصال . فأصدر البرلمان البريطانى قانونا عام ١٩٢٧ يقضى بتخصيص نسبة للأفلام البريطانية من مجموع الأفلام التى تعرض ، وأن تفرض قيود على الأفلام المستوردة. وقامت دول أخرى بمحاولات مشابهة لتعزيز قوة صناعات الأفلام بها عن طريق التمييز الضريبى ، وقيود الاستيراد ، أو الاشتراط على عارضى الأفلام بأن تكون نسبة معينة مما يعرضون من الانتاج المحلى .

وفى سنة ١٩٢٦ ظهرت السينما الناطقة . ومع أن الأساليب الفنية اللازمة لظهورها كانت موجودة منذ أوائل القرن ، فانها لم تطبق الى أن أدت سرعة التدهور فى أرقام رواد السينما الامريكية بهوليوود الى ادراك أن الجمهور يريد شيئا جديدا ، وحصلت الأفلام الأولى ذات الموسيقى المدبلجة على نجاح سريع ، وأدركت صناعة السينما أنه لابد من تحمل كل ما يقتضيه التحول الى السينما الناطقة من تعديلات . وأخذت الأفلام تعتمد على الحوار ، كما تعتمد على الحدث ، والمنظر فى اجتذاب الجمهور . ولقد أحرزت التعليقات الاجتماعية الذكية ، والأفلام الممتعة التى تدور حول الحياة اليومية اقبالا وشعبية على نحو فاق كل توقع واشتد ولع الناس بكبار الممثلين ، وبخاصة من ذوى الأصوات المؤثرة مثل جريتا جاربو .

وما كاد الصوت يجد قبولا وتحسينا حتى ظهرت فى السينما الأنماط العالمية التى ظلت موجودة حتى بعد الحرب العالمية الثانية .

وسيطرت الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا على السينما فى العالم خلال هذه السنوات . وقدمت الصناعة الأمريكية بعض الأفلام الخفيفة الممتازة ، وقدمت نسبة عالية من أشرطة الأنباء العالمية والرسوم المتحركة التى تزخر بالحياة ، ولكنها أيضا ظلت تنتج كميات كبيرة من قصص الغرام والمغامرات من المستوى الثانى والثالث . وبفضل التمكن من تقنيات العمل السينمائى صارت هذه الأفلام مقبولة عند الجماهير فى كل أنحاء العالم حين لم يكن لذلك بديل . ولكن بعضا من زعماء هوليوود رأى أنه لابد لهـا من أن تحسن المستوى العام لأفلامها اذا ارادت أن تستبقى محبة الجمهور لها .

وأحرز الفرنسيون تفوقا عالميا فى ميدان الأفلام الفنية ، وكانت أحسن الأفلام الفرنسية تستهدف دائما صفوة من المتفرجين ، وان كانت الصناعة الفرنسية أنتجت أيضا أفلاما عادية للتوزيع التجارى . وكانت الأفلام الروسية فى العشرينات والثلاثينات تتميز بواقعيتها ، ودقة دراستها للأنماط البشرية ، والقوة الدرامية التى تؤدى بها رسالتها . وأنشأ البريطانيون مدرسة الفيلم التسجيلى التى حصلت على اعجاب النقاد ، وقد انتفع بها على نحو واسع خلال الحرب العالمية الثانية فى الدعاية ونشر الأنباء . كذلك كان لها جمهور عالمى لا بأس به ، وذلك بالنسبة لأحسن أفلامها الخفيفة ، وبخاصة ما يجمع بين الفكاهة والترقب والقلق ، وبالنسبة لبعض الروائع الدرامية مثل هنرى الخامس .

وبعد الحرب العالمية الثانية تغير موقف الفيلم فى العالم ، اذ ظهرت صناعات للأفلام جديدة ومحلية واسعة النطاق ، مما قلل من سيطرة هوليوود ، كما دخل التليفزيون المعركة كأحد المنافسين فى ميدان التسلية والامتاع . وحدث فى الأفلام الأمريكية تحول تدريجى أدى الى التقليل من عدد الأفلام التى تصدر سنويا . ولكن هذه الأفلام كان مستواها على العموم أعلى مما سبق . وخلال سنوات الحرب كان الناس يذهبون ليروا أى شىء ، ولكن حين ظهر التليفزيون بقى الناس فى منازلهم . وحاولت هوليوود أن تستعيد مكانتها فاستغلت الألوان ، والشاشة الواسعة ، ما أمكن ذلك . وأخرجت مزيدا من الأفلام فى مواقعها الطبيعية . وبذا قدمت أساسا موثوقا به للأعلام كما قدمت اللون المحلى . وقللت من عدد الأفلام الرخيصة ، أفلام المرتبة الثانية ، وزادت عدد ما تعرضه من الأخبار الاجتماعية ، وأخذت تحاول تصوير حقيقة العواطف البشرية ، على خلاف ما كانت تجرى عليه فيما سبق اذ كانت تعالج

الموضوع من الخارج الى حد كبير • ومع أنها خفضت من عدد الأفلام ، فقد ظلت أكبر منتج لها حتى بعد سنة ١٩٥٥ حين تفوقت اليابان والهند على الولايات المتحدة فى عدد الأفلام التى تنتجها •

وظلت بريطانيا وفرنسا تصنعان وتصوران افلاما عالية المستوى ، كما أخذت بلاد أخرى تنتج أفلاما معترفا بأهميتها • فالأفلام الايطالية قد اجتذبت الانتباه ، سواء منها ذات الطابع الواقعى المر وما أعطى مذاقا أكثر حلاوة وفكاهة فى علاجه للمجتمع • وكان للأفلام السويدية سمعة عالية على العموم • ويعتبر قليل منها من بين أجمل ما صنع من أفلام • كذلك أخذت تظهر أفلام مكسيكية وتعرض فى الخارج • وظهرت أفلام تسجيلية كندية من انتاج المكتب القومى للأفلام ، وترجمت الى خمس لغات ، وانتشرت فى كل مكان من أنحاء العالم • وتوسع الاتحاد السوفيتى فى استخدام الأفلام سواء فى التعليم أو فى التسلية ، وأنشأ صناعات أفلام اقليمية بلغات ومواد الجمهوريات السوفيتية • وفى الخمسينات عادت الى الظهور فى السوق المحلية أفلام روسية حية ، مثل « الونشات تطير » كما ظهرت بعض أفلام صنعت فى ألمانيا الغربية • ولقد سارت صناعة الأفلام الآسيوية على الخطوط العامة التى سارت عليها صناعات الأفلام فى أمريكا وأوروبا ، فقدمت نماذجها الخاصة فى السحر والرومانسية والاسراف العاطفى ، والنجوم المحبوبين ، والتسلية الموسيقية ، والمناظر ، ومسرح الحياة اليومية • وكانت الى أشكال التسلية الطويلة الخفيفة التى تعود عليها الجمهور الآسيوى أقرب منها الى الخطوات السريعة ، والتوتر الدرامى فى الأفلام الامريكية والأوروبية •

وكان الفيلم اليابانى أكثر الأفلام الآسيوية تقدما • وقد بدأ منذ الفجر الأول لصناعة السينما • ولكن الفيلم اليابانى لم يدخل السوق العالمية الا بعد اعادة تنظيم الصناعة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية • وبعد ذلك حصلت الافلام اليابانية الفنية البارزة القليلة على جوائز فى المسابقات الدولية ، وحصلت على اعجاب العالم ، لامتيازها فى التصوير الفوتوغرافى ، والحساسية فى تصوير الآشخاص • وظلت معظم الأفلام اليابانية تقدم لجمهورها قصصا رومانسية من الماضى ، ومشاهد مرحة من الحاضر ومناظر حساسة للطبيعة ، وأحداثا درامية رومانسية محبوبة على أوسع نطاق ، تدور حول الصراع بين الحب الشخصى والواجب العائلى •

وتعتمد الأفلام الهندية اعتمادا شديدا على الموسيقى والرقص وتأثير

الملابس · كذلك نقوم على قصص رومانسية ، وتصوير حالة المجتمع الراقى ، والدراما التاريخية ، وتراجم الاشخاص · ولقد شكا مكتب أبحاث الفيلم الهندى سنة ١٩٥١ من أن الأفلام تستهدف مستوى منخفضا من الذوق والفكر ، ففشلت فى أن تكون أداة من أدوات توجيه الناس الى الأهداف الاجتماعية والثقافية التى تشهدها البلاد · وانتجت الحكومة الهندية ذاتها أشرطة اخبارية وأفلاما تسجيلية أو تعليمية · وكلفت دور السينما بعرضها مع كل فيلم تجارى · وبعد سنة ١٩٥٥ حصل عدد قليل من الأفلام الهندية المشتملة على صور واقعية للحياة اليومية على الاعتراف الدولى ، فعرضت فى العالم على نطاق واسع ، وتصدر الأفلام الهندية أكثر ما تصدر الى البلاد التى يوجد بها سكان من الهنود ·· فى افريقيا وجنوب شرق آسيا والشرق الاوسط ·

وفى الأعوام التى تلت الحرب العالمية الثانية ظهرت صناعات أفلام كبيرة ، تعمل للسوق الآسيوية ، وذلك فى سنغافورة وهونج كونج ومانيلا وفرموزا · والصناعات التى قامت فى سنغافورة وهونج كونج وفرموزا تهتم أساسا بالأفلام الموسيقية والكوميديات · أما فى الفلبين فقد تبعت صناعة السينما مثال اليابان والهند فى تقديم عروض مسرحية تزدهى بالأزياء ، وتعتمد على التاريخ القديم أو الأساطير · وفيما يتعلق بالأفلام التى تعالج الحياة الحديثة ، كانت مشاكل الأسرة هى الموضوعات الرئيسية ، وبخاصة مشاكل الأصهار وهو موضوع يعود اليه الأدب الآسيوى دائما · واستخدمت جمهورية الصين الشعبية السينما استعمالا واسع النطاق لنشر المبادىء الشيوعية خلال البلاد · وكانت غالبا ما تستخدم صورة معدلة من الأوبرا الصينية التقليدية ·

ومع أن أفلام هوليود وأفلام أوروبا ظلت تعرض فى طوكيو وبانجكوك وبمباى فى خمسينات هذا القرن ، فان الافلام الآسيوية كانت أكثر ما يعرض على الجماهير فى البلاد الآسيوية · فلقد كانت تبتكر صورها الخاصة للتسلية والمحاكاة وكانت تعين على تحديد شكل الثقافة الجماهيرية التى أخذت تتبلور فى هذه البلاد ·

ولما كان هناك تأثير متبادل بين منتجى الأفلام وجماهير السينما فى كل أنحاء العالم ، فقد ظهرت قوى يعمل بعضها للاسفاف بنوعية الأفلام ، ومالت قوى أخرى الى رفع هذه النوعية ، ومن ثم تأثير الافلام على الحياة الثقافية للناس · وعلى مر السنين مالت هذه الضغوط الى رفع مستوى التسلية الجماهيرية التى تقدمها الأفلام ·

لقد أصبحت مأثورات الأدب العالمى ، ســـواء من الروايات أو المسرحيات زادا مشـــتركا لكل المتفرجين على نحو لم تكن لتبلغه فى صورتها المطبوعة ، وأدى عرضها على الشاشة الى استمالة المشاهدين الى القراءة • وبتطور المشاهدين وزيادة قدرتهم على التمييز لم يعودوا يهرعون جماعات لرؤية أى شىء يعرض ، ولهذا زاد تأثير نقاد الأفلام الذين يكتبون للصحف والمجلات الشائعة • ومنذ عام ١٩٢٩ ومابعده ، أخذ مجمع الصور المتحركة فى أمريكا يقدم جوائز سنوية تعرف بجوائز الأوسكار ، اعتمادا على الاختيار فى نظر كل من النقاد والمشاهدين ، مما يضفى المكانة على الأفلام المختارة ، ويجذب اليها جماهير النظارة • ويدل الاقبال الشديد على بعض الأفلام ذات المستوى الرفيع الممتاز ، على أن الذوق الشعبى كان قد ارتفع بحلول الخمسينات . وكان الفيلم الذى ضرب الرقم القياسى فى طول مدة عرضه فى دار كبرى للسينما بنيويورك هو فيلم «الحذاء الأحمر» وهو عمل رائع من أعمال الفن يجمع بين كل القوى التعبيرية اللازمة للافلام – تغيير سريع فى المناظر ، ألوان ، رقص ، موسيقى – فى مسرحية تدور حول راقصة باليه ممزقة بين مهنتها وحبها ، وقد عرضت هذه الدراما باستمرار على جماهير مثقفة لمدة عامين •

وكان من نتيجة الانتشار الواسع للأفلام ، سواء على المستوى القومى أو العالمى ، ادخال أفكار جديدة وأساليب جديدة فى حياة الكثيرين ، ممن كانوا – لولا ذلك – معزولين عن مثل هذا التنوع فى التجارب • وقد أدت الى احســـاس الناس بالتنوع الثقافى فى العالم ، وان كانت الأفكار التى تنقلها الأفلام تظهر فى صورة مشوهة فى غالب الأحوال . وقد جاء فى تقرير اللجنة البريطانية التى بحثت حالة الأفـــلام فى العشرينات أن السينما (هى من غير شـــك عامل فى غاية الأهميـــة ، فى تعليم كل طبقـــات المجتمع ، وفى نشر الثقافة القومية ، وفى عرض الافكار القومية والتقاليد القومية فى العالم كله ، وفضلا عن ذلك فان لديها امكانيات كافية غير محدودة فى تشكيل أفكار العدد الضخم من الناس الذين تعرض عليهم) • انه لم يتطامن لأى وسيلة أخرى ما تطامن للسينما من انتشار عالمى ، ووصول الى كل أنواع البشر •

٣ – الراديو

كان الراديو ومن بعده التليفزيون الأداتين اللتين نقلتـــا الترفيـــة والتسلية والثقافة الجاهيرية الى البيت • فجعلا عالم الواقع وعالم الايهـــام جزءا من الحياة اليومية للرجال والنساء والأطفال على نحو قريب الى

النفس ، مستمر مثابر لا يتطلب من المستمع بذل أى جهد ، فمن مطلع الفجر حتى ساعة متأخرة من الليل ، ما على ربة البيت فى المطبخ أو الأب العائد من عمله ، أو الطفل بعد رجوعه من مدرسته ، الا أن يديروا مفتاح الراديو ليستمعوا الى الموسيقى أو الأخبار أو المسرحيات أو أخبار المباريات أو المعلومات منقولة اليهم حيث هم • هذه الأصوات تسافر مع سائق السيارة فى الطريق الرئيسى ، ومع رواد الشاطىء فى الاجازات • وهى تملأ الجو فى المطاعم والمحلات التجارية والميادين العامة والمصانع والسيارات العامة • فالراديو كان الرفيق الدائم للحياة اليومية فى الربع الثانى من القرن العشرين •

ولم تبدأ اذاعة الترفيه والأخبار الا فى عشرينات القرن الحالى ، وان سبق استخدام اللاسلكى كوسيلة للاتصال ، منذ مستهل القرن • وقد بدأ استخدام الراديو سنة ١٩٢٠ حين أذاعت محطة راديو فى بيتسبورج بالولايات المتحدة الامريكية نتائج انتخابات الرياسة بأمريكا قبل أن تتمكن الجرائد من طبع الأنباء • فأثار هذا اهتماما مباشرا لدى الجمهور ، ولم يبق الا استغلال هذا الاهتمام فى تجارب جديدة • وأخذت المحطات فى الولايات المتحدة وبريطانيا تذيع برامج منتظمة وسرعان ما حذت حذوها المحطات فى أماكن أخرى •

وكانت البرامج الاولى تتألف من الأخبار والموسيقى والطرائف — تضخيم ضربات قلب فراشة ، أو أصوات منبعثة من غواصة — ولكن سرعان ما ظهرت أنباء الرياضة وغير ذلك من البرامج المحبوبة • وكانت المحطات فى أول الامر تذيع عددا قليلا من الساعات المتصلة ولكن لم يمض وقت طويل حتى كان لها برامج تبدأ بالتمرينات الرياضية فى الصباح الباكر ثم الأخبار والموسيقى والتمثيليات الفكاهية والدعابات لتسلية الزوجات فى أثناء تأدية أعمالهن ، وتمتد البرامج بعد الظهر للأطفال • وتذاع أنباء الرياضة والمتنوعات فى ساعات المساء • وأخذ الناس يعولون على الراديو فى معرفة آخر الأنباء بل ظن بعضهم أن الاذاعة سوف تحل محل الصحف وتلغيها تماما ، كما صار الناس يستمعون عن طريق الراديو الى آخر الالحان من الفرق الموسيقية الجديدة، قبل أن تعرض تسجيلاتها للبيع فى المتاجر المحلية • وصاروا يلتمسون لديه فيضا زاخرا من التسلية المجانية التى لم يسبق أن أتيحت لهم من قبل •

وارتفع رقم المبيعات من أجهزة الراديو بسرعة كبيرة كلما ازداد

اهتمام الناس بما يمكنهم الاستماع اليه عن طريق الأثير • وفي الولايات المتحدة حيث أخذ الراديو يصبح بسرعة شيئا لا غنى عنه ، ارتفع عدد المنازل المزودة بالراديو من ٦٠ ألفا سنة ١٩٢٠ الى ثلاثة ملايين وخمسمائة ألف سنة ١٩٢٢ وتسعة ملايين سنة ١٩٢٩ ، وزاد عدد محطات الاذاعة خلال السنة نفسها من ٣٠ الى ٥٧ الى ٦١٨ محطة • وفي بلاد أخرى كان معدل التوسع أقل سرعة ، ولكن في جميع الجهات زاد اقبال الناس على وسيلة الاتصال الجديدة هذه ، بامكانياتها التي لا تكاد تحد • وكان بالولايات المتحدة نصف مجموع ما بالعالم من أجهزة • ولكن ارتفع عدد الأجهزة الى عدة ملايين في الاتحاد السوفيتي والمملكة المتحدة وغيرهما من البلاد الأوروبية ودول الكومنولث واليابان ، وبلغ آلافا عديدة في كل بلد من بلاد العالم تقريبا • ومهما يكن من بعد الاقليم ، وسواء أكان الاستقبال في المنازل أم أماكن التجمع أم في الهواء الطلق ، فان الراديو يقدم التسلية والأفكار للناس في كل الاقطار •

وفي أثناء عشرينات وثلاثينات هذا القرن ظهرت ثلاثة نماذج عامة للتنظيم والتمويل الاذاعيين مما أثر على الطريقة التي يستخدم بها الراديو والبرامج المذاعة منه : نظام المشروع الخاص بما يصحبه من منافسة نشيطة بين المحطات ، وأقل قدر ممكن من السيطرة الحكومية كما هو الشأن في الولايات المتحدة وبلاد أمريكا اللاتينية واليابان والى حد ما كندا واستراليا ؛ ونظام الهيئة العامة كما يتمثل في هيئة الاذاعة البريطانية ، ونظام الملكية والسيطرة الحكومية المباشرة على عمليات الاذاعة ، ويتمثل هذا في الدول الشيوعية ، وفي معظم الدول الجديدة في آسيا وأفريقيا • كما يستخدم هذا ، بالاشتراك مع أحد النظم السابقة في بلاد أخرى وفي دول الكومنولث البريطاني •

وفي الولايات المتحدة تعتمد محطات الاذاعة الكثيرة في تمويلها على المعلنين الذين يدفعون الأموال مقابل الترويج لمنتجاتهم بين المستمعين ، ويجتذبهم الى الاصغاء والى الاعلان ما في برامج الاذاعة من تسلية ، بينما لا يدفع هؤلاء المستمعون شيئا مباشرا نظير ما يحصلون عليه من متعة ، عدا دفع ثمن جهاز الراديو في أول الأمر • وفي ظل هذا النظام كان الراديو يعتبر اداة للتسلية وفي قليل جدا من الحالات كان يعتبر وسيلة من وسائل التعليم • وكانت كل البرامج خفيفة ، واذا كانت اعلامية فانها متنوعة ومثيرة • وكانت قصيرة ، أو كانت تقسم الى متنوعات من الموسيقى والحوار والتعليقات ، مع ما يتخلل هذا من الاعلانات الكثيرة •

وأصبح الاعلان نفسه جذابا مسليا ، لكي يستطيع أن يستولى على انتباه المستمع • ولما كان القانون الفيدرالى قد قضى بان يخصص قدر من الوقت لبرامج الخدمة العامة ، كشرط للحصول على رخصة لاستخدام موجات الأثير ، فقد كان هناك دائما عدد من برامج مخصصة للموسيقى الجادة ، ومناقشة القضايا العامة ، أو تقديم معلومات تتعلق بموضوعات مثل الزراعة أو العناية بالطفل ، كما تهتم بآخر الأنباء والطقس •

وقد تعرض الراديو لضغط أقوى مما تعرضت له المجلات الجماهيرية ذاتها ، لكي يمتع أكبر عدد ممكن من المستمعين ، لأن البرنامج الذى يصغى اليه الناس هو البرنامج الذى يحظى بتأييد المعلنين • وأنواع البرامج التى تقدم هذه التسلية الشاملة للجمهور تتألف من عروض مختلفة ، تجمع بين اسكتشات فكاهية ، وآخر الأغانى الشعبية ، وبرامج الفوازير ، وأنباء الرياضة ، والقصص المسلسلة عن الناس العاديين وأزماتهم العاطفية ، ومسرحيات الأسرار ، واللقاءات مع الشخصيات العامة ، وعدد كبير من المقطوعات الموسيقية ، بعضها على الهواء ، وأكثرها مسجل • وكان الاعلان نفسه قد أصبح فوق ذلك جزءا من التسلية الاذاعية ، حين زاد اهتمام المعلنين بعرض اعلاناتهم بطريقة شائقة جذابة •

والبرامج الرئيسية فى طول الولايات المتحدة وعرضها هى التى تقدمها أربع شبكات رئيسية ، يدعمها الاعلان القومى ، وان كانت هناك أعداد ضخمة من المحطات المحلية تدار فى معظم المدن على اختلاف أحجامها ، معتمدة على أموال المعلنين المحليين ، وتقدم فنانين محليين أو لقاءات محلية ؛ مع ما تقدمه من الموسيقى المسجلة • والمبالغ الضخمة التى يدفعها المعلنون للشبكات الاذاعية ، جعلت فى استطاعتها استخدام أقوى الكفاءات التمثيلية والموسيقية والاخبارية لبرامجها ، ولكن الجمهور المستمع انما يستمع اليها على حساب تعرضه الدائم لسيل من الاعلانات ، وميل نحو التشابه ، على أساس تقديم أحب البرامج الى أكبر عدد ممكن من الناس • ونتيجة لذلك شرعت مختلف المؤسسات التعليمية فى محاولة انشاء محطات خاصة بها ، تحاول اشباع مختلف الأذواق والاهتمامات وكذلك فعلت محطات (الموسيقى الجيدة) التى أنشئت فى عدد من المدن الكبرى فى الأربعينات ، لتذيع برامج تتألف أساسا من الموسيقى الكلاسيكية والحديثة الجادة •

وفى بلاد آخرى حيث الاذاعة تعتمد في تمويلها على الاعلان ، نشأ

نموذج مشابه من البرامج التى تستهوى الجماهير ، مع بعض التنويع فى حدود الوقت المخصص للاذاعات التعليمية ، وطريقة استخدام هذا الوقت.

وحيث الاذاعة تديرها وكالة حكومية أو شبه حكومية لا يكون من الضرورى أن تتجه كل البرامج الى أكبر عدد ممكن من المستمعين . فاستحدثت برامج تستهدف هيئات معينة من المستمعين . ولكن حتى هذه المحطات تتعرض لنفس الضغط لكى تذيع البرامج الواسعة الشهرة .

وهيئة الاذاعة البريطانية ، التى تدار كهيئة احتكارية ذات سلطة عامة وخاضعة لاشراف البرلمان ، بذلت محاوله محددة لاشباع هوايات المستمعين فى ثلاثة مستويات تعليمية مختلفة : البرنامج الخفيف الذى يتجه أساسا الى التسلية ، ويقدم عروضا متنوعة ، وموسيقى شائعة ، ومسرحيات شعبية ، وقصصا ذات أهمية انسانية . والاذاعة المحلية ، وتهدف أيضا الى اجتذاب عدد كبير من المستمعين ، وتقدم برامج تتعلق بالفنون والعلوم وشئون العالم على مستويات لا تتطلب المعرفة المتخصصة، وتقدم السيمفونيات ، وعروض مسرحية للروايات الشهيرة ، وتقدم الأحاديث والمناقشات وبرامج الأطفال . أما البرنامج الثالث فهو تجريبى على نحو مقصود ، ولا يلتفت للذوق الشائع . ولقد بدأ سنة ١٩٤٦ بأمل أن يتمكن فى النهاية من رفع مستوى كل البرامج البريطانية ، واجتذب اليه مستمعين بينهم أوسع الاختلافات ، على نحو لم يكن منتظرا . فهو يقدم الموسيقى الجديدة ، والمسرحيات التجريبية ، والمحاضرات التى تقدم المعرفة الجديدة ، وتحليل الأنباء الجارية ، على نحو ينشط الفكر ويحفزه . وقد نجح فى ذلك الى حد أن ايطاليا وأسبانيا واليونان وألمانيا وفرنسا قد أنشأت برامج على غراره ، كما أن المحطات التعليمية فى الولايات المتحدة ودول الكومنولث البريطانى وبلاد أمريكا اللاتينية ، تستخدم فى اذاعاتها الخاصة بعض النصوص المذاعة على البرنامج الثالث ، ومع ذلك فان محطات الاذاعة البريطانية قد خفضت فى الخمسينات من الوقت المخصص للبرنامج الثالث ، وقدمت بدلا منه شبكة البرامج الثلاثة ، وهى أكثر شعبية وعملية ، وتستهدف المستمعين من ذوى الهوايات الخاصة أو الراغبين فى تعلم اللغات .

أما اذاعات الدولة فى البلاد الشيوعية فتستخدم أساسا للاغراض التعليمية ، وفى تزويد الناس فى كل أنحاء البلاد بنظرة واحدة الى الأمور، وتفسير الأحداث . ولقد أنشأ الاتحاد السوفيتى محطات اذاعاته باشراف وزارة التربية والتعليم ، التي تقدم برامج قومية ، وتشرف على

برامج المحطات الاقليمية أو المحلية • وأنشأت محطات تقوية ، لكى تغطى المناطق الريفية الشاسعة ، وقدمت الملايين من أجهزة الراديو والمكروفونات فى الميادين العامة لتضمن أن يستمع للاذاعة أكبر عدد ممكن من الناس • ويذيع راديو موسكو بانتظام ثلاثة برامج فى وقت واحد للمستمعين فى كل انحاء الاتحاد السوفيتى ، برنامجا ذا طبيعة عامة ، وبرنامجا للمجموعات المتخصصة ، مثل العاملين فى ميادين الزراعة والصناعة ، وبرنامجا للتعليم الرسمى • وفى الأعوام العشرة التى تلت الحرب العالمية الثانية ، وجدنا أن راديو موسكو ، ومعه أكثر من مائة لجنة محلية للمعلومات الاذاعية فى عواصم جمهوريات الاتحاد السوفيتى وغيرها من المراكز الادارية ، تقدم برامج من ثلاثة أنواع فى كل أنحاء الاتحاد السوفيتى فى حوالى ٧٠ لغة • وكل هذه البرامج تخبر الطبقة العاملة بآخر تطورات العلم والتكنولوجيا ، وتبسط لهم أروع أعمال الآدب فى روسيا والعالم ، كما تقدم الموسيقى والفنون الجميلة • وبرامج (جامعات الثقافة) الشعبية (وجامعات التدريب الفنى) المخصصة للعلم والهندسة والعلوم الزراعية وغيرها من المواد تتيح الفرص لحسن استخدام وقت الفراغ ، ورفع مستوى الناس التعليمى والثقافى • كذلك وجه اهتمام كبير الى برامج الأطفال •

وفى البلاد الأخرى التى يتبع فيها نظام راديو الدولة ، أو حيث تشرف عليه هيئة عامة ، يستخدم الراديو للتربية والتعليم • فالحكومة الهندية قد وجهت اذاعتها الحكومية لأغراض متنوعة ، منها التمهيد لجعل اللغة الهندية لغة قومية ، وتعريف الناس بالموسيقى الهندية التقليدية • وحوالى ٧٥٪ من جميع المدارس الاسترالية اشتركت فى الاذاعات المدرسية بهذه القارة فى الخمسينات • وجربت النرويج عمل برامج تعليمية على الموجة القصيرة موجهة الى أسطولها التجارى الذى يجوب البحار السبعة• ولكن حتى الاذاعات التى تديرها الحكومة تتعرض لبعض الضغط لكى تتلاءم مع أذواق الناس ، وتحتفظ باهتمامهم •

ومهما يكن من طابع برامج الراديو ، فقد أخذت تمد المستمعين بعدد من الصور والتجارب المشتركة • فأساليب الكلام ، ونماذج التسلية فى نيويورك ، أو هوليوود او لندن أو باريس أو موسكو ، تسمع بشكل واحد فى كل أجزاء البلاد التى تتجه اليها ، سواء فى المناطق الريفية أو فى المدن ، فى قصور الأغنياء أو أكواخ الفقراء ، فى منازل المتعلمين وغير المتعلمين • وللمستمع بطبيعة الحال قدر من الحرية فى اختيار

ما يسمع ، وبعض أجهزة الراديو تقفل لوقت طويل ، بينما غيرها لا يكف عن الاذاعة • ولكن أثر هذا الاختيار محدود ، والراديو مقيم أبدا فى المنزل والسيارة والورشة ، يتحدث ويتكلم ويعزف الموسيقى التى تسمع فى المنـــازل الأخرى ، والورش الأخرى فى طول البـــلاد وعرضهـــا • ان برامج الراديو تأتى الى الناس حيث هم ، فليس عليهم ان يخرجوا للبحث عنها كما يفعلون بالسينما أو الكتب أو المجلات التى يقترضونها أو يشترونها ، أو المباريات التى يحضرونها • وهكذا كان الراديو من أقوى العوامل التى أعطت محتوى مشتركا للثقافات الجماهيرية فى كل أنحاء العالم •

٤ ـ التليفزيون

جاء التليفزيون الذى استخدم لأول مرة بعد الحرب العالمية الثانية، بمثابة تهديد لكل من السينما والراديو • فلم يعد الناس مضـــطرين للذهاب الى دور السينما التماسا للمتعة المرئية فهى فى متناول أيديهم اذا أداروا مفتاح التليفزيون بمنازلهم • وقد استطاع التليفزيون باضافة بعد جديد وهو الصورة ، أن يقدم برامج أغنى مما يستطيع الراديو أن يقدمه بالصوت وحده • وكانت النتيجة المباشرة نقص عدد رواد السينما ، وانتقال كثير من أنجح برامج الاذاعة الى التليفزيون • وبعد مضى بعض الوقت صار من الواضح ان شاشة التليفزيون الصـــغيرة تضع حدودا على مدى العرض المرئى ، بينما استطاع الراديو أن يستمر جنبا الى جنب مع النشاطات الأخرى دون أن يتطلب الانتباه الكامل من المستمع ، أو بقاءه على وضع واحد ثابت كما يفعل مشاهد التليفزيون •

ومنذ عام ١٩٣٠ حاول المذيعون فى الولايات المتحـــدة والمملكة المتحدة والاتحاد السوفييتى وفرنسا وألمانيا أن يجربوا طرقا لاستغلال اضافة المنظر الى الصـــوت المذاع • ولكن برامج التليفزيون المنظمة لم تبدأ الا فى أواخر أربعينات هذا القرن • وما كادت تبـــدأ حتى انتشرت انتشار النار فى الهشيم • ففى كل أنحاء العـــالم ، أقبل النـــاس على استخدامه ، وأدماجه فى أساليب حياتهم ، لأنهم كانوا قد تعودوا تمام التعود على الراديو المقيم دائما فى المنزل ، وعلى الذهاب الى الســـينما التماساً للترويح عن النفس ، بينما البناء الصـــناعى الكائن فى هـــاتين الصناعتين يمكن تطويره بسهولة لانشاء الوسيلة الجديدة •

وما ان حل عام ١٩٥٥ حتى كان التليفزيون يعمل على أساس منتظم

فى ٢٠٤ دوله • وكان على وشك الدخول فى ١٢ دولة أخرى • وكان فى مراحل التخطيط فى ١٩ دوله • وكانت الولايات المتحدة فى المقدمه ، اد كان لديها ما يقدر ب ٨٠٪ من أجهزة التليفزيون فى العالم سنه ١٩٥٥ ، ولكن عدد أجهزة التليفزيون قد ارتفع فى كل مكان الى أرقام فلكية • وعدد الاجهزة لا يبين تماما المدى الدى وصل اليه تأثير التليفزيون ، لأن عددا كبيرا من الاجهزة كان فى المقاهى وقاعات الانتظار ، والأندية ، وغير ذلك من الأماكن العامة •

وكان النموذج التنظيمى لصناعة التليفزيون فى معظم البلاد يميل الى احتذاء حذو النموذج الاذاعى ، مع بعض التعديلات • ففى الولايات المتحدة كانت معظم البرامج فى التليفزيون - كما كانت فى الراديو - تعتمد فى تمويلها على الاعلان • وقدمت هيئة الاذاعة البريطانية برنامجا تليفزيونيا • ولكنها فى سنة ١٩٥٥ استجابت لضغط الرأى العام فانشأت محطة تليفزيونية مستقلة ، تمولها الاعلانات التجارية • وفى معظم الدول الأوروبية كانت الاذاعة التليفزيونية تدار باشراف الدولة • وفى بلاد أمريكا اللاتينية كانت المحطات تجارية • وفى الاتحاد السوفييتى والديموقراطيات الشعبية اتسعت الاذاعة التليفزيونية كجزء من أجهزة الدولة •

وبرامج التليفزيون تشبه البرامج المعدة للراديو ، وان كانت نسبة الموسيقى فيها أقل ، ونسبة التمثيليات أكثر ، كما أنها تستخدم أفلام السينما استخداما واسع النطاق • وفى روسيا نجد أن كل الطرائف التى تعرضها السينما تعرض فى التليفزيون تلقائيا ، ولكن فى البلاد الأخرى لم تصبح الأفلام السينمائية فى متناول التليفزيون الا بعد أن أفرجت **الاستوديوهات عن أرشيفاتها** السينمائية القديمة • وكان معظمها أفلاما صنعت منذ عدد من السنين • ولكن بعضها أحرز نجاحا ضخما على التليفزيون ، وأحيا أسماء وشهرة كثير من النجوم السابقين •

وكانت عروض المنوعات والاهتمامات البشرية محبوبة دائما فى كل مكان • وكذلك كانت أخبار المباريات الرياضية ، التى أمكن غالبا رؤيتها فى المنزل على نحو أوضح من رؤيتها فى الملاعب ، لأن الصورة تقرب الى المشاهد كل لعبة • أما التمثيليات فقد تدرجت من تقديم واف لمسرحيات مشهورة الى العرض الروتينى للتمثيليات المسلسلة • وأدت الأفلام التسجيلية الى اعادة تنظيم أحداث الماضى ،

وكذلك صورت جوانب من الحياة المعاصرة ، أو سجلت التقلبات الطبيعيه . واستدعيت الشخصيات البارزة الى الشاشه للتحدث معها ، أو للاشتراك فى مناقشة القضايا العامة .

وكان من النواحى المميزة للتليفزيون أنه مكن الجمهور من أن يرى مباشرة كثيرا من الأحداث العامة ، مثل الاجتماعات السياسية وتتويج البابا ، واجتماع الأمم المتحدة . وشعر ملايين الناس أنهم على صلة وثيقة بالشخصيات العامة ، لأنهم شهدوا تعبيرات وجوههم وايماءاتهم فى أثناء المناقشات ، أو حين لا يكونون فى مركز الاهتمام من المسرح ، أو حين يوجهون خطاباتهم الى الجمهور من خلال التليفزيون . كما أن الشخصيات العامة بدورها حاولت قصدا ان تجعل من نفسها شخصيات تليفزيونية ناجحة ، فتعنى بمنظرها فى التليفزيون طبقا للتقنيات اللازمة للنجاح المسرحى .

وفى البداية أخذ التليفزيون ينقل مباشرة الأشكال السائدة فى الراديو والسينما . ولكن ثبت أن البرامج الاذاعية والسينمائية ليست كلها صالحة للتليفزيون بنفس المقدار . فبعد فترة مبدئية من التقليد والتجريب ظهرت أنماط جديدة من البرامج تناسب العرض التليفزيونى بوجه خاص ، فى مكان صغير ، وبصورة صغيرة ، وفى الجو المنزلى الذى تسوده الألفة ـ فظهرت المسرحيات والمناقشات ، من أمثال برنامج بنك العقول » الذى يعرضه التليفزيون البريطانى أسبوعيا ، والبرامج الاعلامية التى تتضمن الاكتشافات ، والمظاهرات وبرامج الأسئلة التى يستطيع المشاهد فيها أن يشعر بشعور الشخص المسئول .

وكانت الصعوبة الكبرى التى صادفت التليفزيون هى كيف يمكن الحصول على عدد كاف من المواهب لشغل الوقت كله . ان نفقات الانتاج التليفزيونى فى مدة قصيرة باهظة حقا . وحتى اذا كانت المحطات لا تبث عروضها الا لمدة خمس أو ست ساعات فى الليل ، يظل من الصعب عليها أن تقدم مادة من الدرجة الأولى فى الجودة . وقد تزايد الاعتماد على تسجيل البرامج فى أمريكا بدلا من عرضها على الهواء ، وكان انتاجها فى استوديوهات هوليوود على اتصال وثيق باستوديوهات انتاج أفلام السينما .

وقد أعان على حل هذه الصعوبة البرنامج الدولى للتعاون ، فمنذ عام ١٩٥٤ وما بعده صار لأوروبا شبكة تبادل تعرف باسم « تليفزيون أوروبا » تضم جهود ثمانية أقطار ، هى بلجيكا والدنمارك وفرنسا وجمهورية ألمانيا الاتحادية والأراضى المنخفضة وايطاليا وسويسرا والمملكة

المتحدة • وكان أول ما عرضته بطولة كرة القدم العالمية سنة ١٩٥٤ المذاعة من سويسرا ، وظلت البرامج من هذا الطراز محبوبة على نحو خاص ، ولكن بمضى الوقت أضافت هذه الشبكة التليفزيونية الى الرياضة والتسلية لقطات حميمة من الحياة الخاصة التى يعيشها الناس العاديون فى كل من هذه البلاد ، وبذا أعانت المشاهدين على فهم سكان الأقطار الأخرى • وابتداء من سنة ١٩٥٣ صارت الولايات المتحدة تقدم برامج تليفزيونية على أفلام لأمريكا اللاتينية ، ثم جعلتها فى متناول محطات التليفزيون اليابانية والأوروبية •

ومع أن ضخامة البرامج التليفزيونية قد أخذت تؤدى فى ذاتها الى التقليل من جودتها ، فقد دلت الشواهد على أن المشاهدين الذين سبق لهم أن تعودوا على رؤية أو سماع أصحاب المواهب الرفيعة فى السينما لن يسهل عليهم تقبل العروض الأقل جودة فى التلفزيون بمجرد أن يخف انبهارهم الأول بهذا الجهاز وهكذا فان نفس العوامل التى تؤدى الى رفع مستوى التسلية الشعبية فى السينما والراديو تعمل عملها فى التليفزيون أيضا .

٥ ــ الفرق التمثيلية :

ظل الممثلون الهواة شكلا شائعا من أشكال نشاط وقت الفراغ ، برغم سعة انتشار الأفلام والتليفزيون • وتتفاوت نوعية وجدية تمثيليات الهواة بين المستويات القريبة من الاحتراف ، التى حصلت عليها بعض فرق الجامعات وبعض المناطق ، الى التجمعات التمثيلية التى تقدم اسكتشات بسيطة للتسلية الذاتية فى الأندية ، أو المسرحيات المدرسية التى تجمع بين التسلية والتعليم . وفى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ، كانت هناك حركة قوية لانشاء (مسارح صغيرة) تمول عن طريق تبرعات الناس أحيانا ، لتقدم متنفسا للمواهب التمثيلية المحلية ، وأحيانا لعرض مسرحيات لم تجد لها مكانا على مسرح المحترفين • ولما توسعت المدن فى خدماتها الترفيهية العامة أدخلت التمثيليات فى تلك البرامج التى تقدمها •

وخارج المراكز الحضرية الكبرى قامت مسارح الهواة ، وهى مصدر من أهم مصادر التسلية المسرحية • وهذه المسارح التى تتيح المجال لنشاط كتاب المسرح والممثلين ، كانت أحيانا قريبة الشبه بمسارح الهواة فى المجتمع وفى أحيان أخرى كانت أشبه بمسرح المحترفين •

وكانت تتلقى المعونات من الهيئات المهتمة بالفنون ، سواء أكانت هيئات خاصة أم عامة ٠

وفي الاتحاد السوفيتي والديموقراطيات الشعبية لقى العمال والفلاحون تشجيعا على الاستمتاع بتقديم الموسيقى والمسرح والباليه ، سواء كمتفرجين أو كمشتركين من الهواة ٠ وقد أقيمت مسارح المحترفين والباليه والأوركستر فى المدن والبلدان على اختلاف حجمها ـ حوالى ٥٠٠ فى الاتحاد السوفييتى فى الخمسينات ، بينما كانت فرق الموسيقيين الهواة ، أو الفرق التمثيلية الشعبية تتدرب وتمثل فى المصانع والمزارع الجماعية والمؤسسات التعليمية ٠ واعتمدت هذه الفرق من المحترفين والهواة على الأساس الثرى للموسيقى والباليه والمسرح الروسى ، كما اعتمدت على التعبير الشعبى التقليدى لمختلف الاقاليم ٠ وحيث لم يكن هناك وجود تقليدى للفن المسرحى ، فقد ظهر هذا الفن ، كما حدث فى جمهورية ازبكستان التى لم يكن بها مسرح أصيل ، ولكنها صارت فى الخمسينات تضم ٢٦ فرقة تمثيلية تقدم عروضا من كل الأنواع وكانت المواسم والأعياد الاقليمية والقومية من بواعث تشجيع هذا التطور ٠

٦ ـ الموسيقى الشعبية والرقص الشعبى

بالنسبة للشباب بخاصة ، صار الاستماع الى الموسيقى الشعبية والرقص الشعبى من الطرق المحبوبة لقضاء وقت الفراغ ٠ والواقع أن المراهقين كانوا أهم من روج لأساليب متعاقبة فى الموسيقى ، وأشكال متعاقبة فى الرقص ، ومنحها شهرتها وانتشارها ، مما غمر الأسواق بطالبى شراء تسجيلات الموسيقى والرقص ، كما أن المراهقين يشكلون قدرا كبيرا من جمهور المستمعين للموسيقى الشعبية المذاعة على الأثير ٠ والاساليب الغالبة على هذه الأشكال من التعبير غالبا ما كانت فى نظر معظم الراشدين شيئا لا أهمية له ، بل شيئا كريها ٠ ولكنها كانت من الملامح الرئيسية للثقافة الخلفية للمراهقين ٠

وقد نبعت الموسيقى الشائعة فى القرن العشرين من ثلاثة أصول رئيسية : العروض الموسيقية ، وفرق الجاز ، والأغانى الصاخبة التى تثير خيال الجمهور حين تذاع بالراديو أو حين يغنيها مطرب فى ناد ليلى ٠ وبفضل الراديو والتليفزيون أمكن لبعض الأغانى أو الألحان أن تصبح أثيرة لدى الملايين بين يوم وليلة ٠ فالأغانى الجديدة تذاع مرارا وتكرارا فى برامج الراديو ، فترتفع المبيعات من التسجيلات ارتفاعا كبيرا ٠ولكنها

على العموم سرعان ما تنخفض • وقد تكون الأغانى بسيطه ، أو حتى ساذجة ، وقد يكون الأداء ضعيفا اذا قيس بأى مقياس موسيقى ، ولكن اذا كانت الأغنية تحسن التعبير عن حالة نفسية سائدة ، فان الأغنية سرعان ما تصبح جزءا من ثقافة الجماهير •

لقد أصبحت العروض الموسيقية محبوبة الى أقصى حد من الجماهير التى تستطيع رؤيتها ، وهى تكون نسبة كبيرة من الموسيقى الشهيرة التى تعزف باستمرار على الهواء ، أو تدار على الحاكى فى المنزل • والطابع الأوروبى الذى يدعى أوبريت فينا ، اعترافا بفضل أستاذ الموسيقى الخفيفة يوهان شتراوس (١٨٢٥ ـ ١٨٩٩) ، كان مرحا غنيا بالألحان الرومانسية • وكان لهذه الاوبريتات مجد عظيم فى الأعوام التى سبقت الحرب العالمية الأولى • واستمر ذيوع الالحان المأخوذة من بعض هذه الأوبريتات المحبوبة التى وضعها أنصار شتراوس مثل الموسيقار الهنغارى (المجرى) فرانزليهار (١٨٧٠ ـ ١٩٤٨) وغيره وقد أعيدت اليها الحياة عدة مرات فى الاعوام التى تلت ذلك •

وبعد الحرب العالمية الأولى كان أوسع نماذج العروض الموسيقية انتشارا ، والذى قدم الكثير من الموسيقى الشائعة ، هو الكوميديا الموسيقية الامريكية ، التى تبلورت كصورة متميزة من صور التسلية ، فى برودواى • ويرجع أصلها الى تقليد مسرح الفودفيل وقد حدث حريق عام ١٨٦٦ فى مسرح بنيويورك كان مقدرا أن تمثل عليه فرق باليه فرنسية • فلما عرض مدير الفرقة الباليه الذى أعده على مسرح الفودفيل لكى يتجنب الاصابة بخسارة مالية ، وحشا العرض بمتنوعات مختلفة من الغناء والرقص ، فقد استحدث بذلك نمطا من أنماط العروض المسلية التى تعتمد على الجمع بين الأغانى المثيرة وجاذبية « الفتيات •• الفتيات •• الفتيات » •

وبمرور الوقت ثبتت قدم هذه الانماط وصارت الكوميديات الموسيقية تحمل مزيدا من الشبه بما يشتمل عليه العرض المسرحى من عقدة ، وتشخيص وبناء درامى • وصارت العروض يقل اعتمادها على جاذبية فتيات الكورس الجميلات شبه العاريات ، ويزيد اعتمادها على الملابس والتأثيرات المسرحية والفكاهة وأنظمة الرقص المرحة أو المعقدة • وصار أساس الشهرة العرض الذى يعتمد على الاداء الموسيقى الحسن البناء ، والشعر الغنائى الملهم ، سواء أكان رومانسيا أم تهكميا • وصارت بعض العروض تعتمد على مسرحيات بأكملها ، كما حدث فى برودواى أو فى

موسم برودواى سنة ١٩٥٥ حين عرضت « سيدتى الجميله » معتمدة على مسرحيه بجماليون لجورج برناردشو ·

وكانت أحسن الكوميديات الموسيقية هى باستمرار أشد ما يجذب جماهير برودواى · وقد استمر عرض بعضها سنوات ، وليس فى المسرح مكان خال · بينما أغانيها تسمع من كل مذياع ، وتباع اسطواناتها على نطاق واسع · وبمضى الوقت التقطت أفلام لأنجح العروض ، ورآها ملايين البشر ممن سبق لهم أن عرفوها ، وتذوقوا كثيرا من ألحانها · وما حلت خمسينات هذا القرن حتى بدأ وكأن هذا الشكل المحبوب من أشكال التسلية يتجه الى أن يكون شكلا فنيا قائما بذاته · فهو عرض يتجمع من أجزاء شتى ، لا من جزء متكامل · ولكنه مع ذلك تسلية مسرحية فى جوهرها ، تتألف من الموسيقى ، والرقص ، والمنظر ، ويربط بينها خيط قصة · ولكن بعض النقاد اعتبروا أحسن الكوميديات الموسيقية مجرد تعليقات على الحياة ، تستمد وحدتها الشكلية من الموقف المشترك الذى يعبر عنه الديكور ، والموسيقى ، والرقص ، والغنائيات، والممثلون ، والاخراج · والنظرة الخاصة التى تعبر عنها الكوميديا الموسيقية مسرحيا ، وعلى نحو مبالغ فيه ، ومتأنق ، هى الاحساس بهزلية المؤسسات الموقرة ، مع حب حار لنفس المؤسسات التى يسخر منها العرض ·

واذا كانت الكوميديات الموسيقية قد قدمت معظم الأغانى الشائعة ، فان فرق الجاز قدمت الموسيقى الشعبية الراقصة · والجاز من حيث هو شكل موسيقى ، يرجع أصله الى الايقاعات المأخوذة من عرب افريقيا ، ممزوجة بأشكال ميلودية وهارمونية وبناءات موسيقية مستمدة مما فى أوروبا من مارشات وترانيم وأغانى العمل والمواويل الشهيرة · وهى من الناحية الاجتماعية تعتبر الموسيقى التى استطاع زنوج نيوأورليانز أن ينفسوا بها عما يكنون من طاقة وغضب ، وحنين الى الوطن ، وحزن ، وسخرية وطرب · وحين اجتاحت الاندية الليلية وساحات الرقص فى باقى أجزاء الولايات المتحدة فى أثناء الحرب العالمية الاولى ، شعر معظم الراشدين بصدمة · اذ كانوا قد ألفوا الرومانسية الحنون فى الموسيقى السائدة وقتذاك · أما عند الشباب فكانت متنفسا محبوبا ·

وجوهر الجاز هو الارتجال · ولهذا فلا يمكن فصله تماما عن الرجال الذين يؤدونه · وللفرق الشهيرة عملاؤها الذين يأتون بها الى المقاهى وصالات الرقص ، حيث يقدمون عروضهم باستمرار ، كما يقدمون

الموسيقى فى أماكن أخرى . ولقد أصبحت أساليبهم العديدة مألوفة للناس بفضل اذاعة التسجيلات على الاثير أو الحاكى ، وصار المتحمسون للجاز يستطيبون ما يقدمه عازفوهم من دقات مختلفة .

وبمضى الزمن قدمت فرق جديدة أساليب جديدة ، وذاعت أنماط متميزة متتابعة . كانت موسيقى الجاز الأصلية فى أعوام ما قبل سنة ١٩١٤ عالية النبرة ، مليئة بالحياة ، تحفز المستمع الى الرقص على نغماتها ولكن ابتداء من أواسط العشرينات أخذت ايقاعات نيواورليانز غير المنسابة يختفى بريقها ، وتحل محلها ايقاعات أنعم وأرهف تعرف « بالسوينج » . وفى أعوام ما بعد الحرب العالمية الثانية ، لم يعد الجاز أهم موسيقى يرقص الناس على أنغامها ، بل صارت موسيقى تسمع ، وأخذ الملحنون يدرسون مكوناتها دراسة جدية ، ويؤلفون مقطوعات جازية . أما المراهقون فى خمسينات هذا القرن فلم يعودوا يجدون الجاز باعثا على الرقص ، لأنه صار فى نظرهم شيئا عقليا مدروسا يعنى به النقاد ، ويسمع فى المواسم الرسمية ، التى تجتمع لها جموع الراشدين الجادين .

وانتشرت موسيقى الجاز فى كل أنحاء العالم ، سواء كموسيقى للرقص ، أو موسيقى للسماع . وصارت فرق من الشباب فى كثير من البلاد ترقص عليها وتستمع اليها وتناقشها وتحاكيها .

وصارت أشكال شائعة متتابعة للرقص يأخذ بريقها بأنظار كل جيل جديد من أجيال الشباب . من ذلك الرقصات الحية على ايقاعات الجاز ، مثل الشارلستون التى انتشرت فى العشرينات « والفوكس تروت » فى الثلاثينات ، ولقيت الرومبا والتانجو المأخوذتان عن أمريكا الجنوبية انتشارا واسعا ، وتلتها أنماط متفرعة منها مثل السمبا . وصارت « الجيف » الرقصة المحبوبة عند محبى الجاز السريع ، تتكون من حركات ارتجالية متعمدة لخطوة بسيطة أساسية ، وتمثل محاولة كل فرد التعبير عن انطباعه بالضربات الوحشية للموسيقى . وما انتصفت خمسينات هذا القرن حتى صارت « الروك آند رول » سائدة ، مع اغفال قوى للدقات ، ومع خليط لا شكل له من أغانى رعاة البقر ، وموسيقى أمريكا الجنوبية ، والصور الشعبية من الجاز .

وفى الأماكن التى بقيت فيها الموسيقى الفولكلورية حية ، كما حدث فى شطر كبير من شرق أوروبا وبين كثير من شعوب الاتحاد السوفييتى كانت الميلوديات التقليدية ، والايقاعات التقليدية ، هى أساس الاغانى

والرقصات السائدة · وكان من سياسة هذه الدول تشجيع احتـــرام واستخدام الثقافة الفولكلورية ، كما حدث فى المجر ، حيث قام الملحن زولتان كودالى (١٨٨٢ ــ) بمحاولات مستمرة لادخال الموسيقى الفولكلورية الى المدارس ، وتشجيع انشاء فرق الكورال التى اشتهرت فى طول هذه المنطقة وعرضها .

٧ ــ الألعاب الرياضية :

أمدت الرياضة الناس فى القرن العشرين بقدر كبير من مصـــادر التسلية ، وبعدد كبير من الأبطال ، وبوســـيلة لتقدم الأشـــخاص أو استرخائهم · وكانت الرياضة عند بعض الناس وسيلة لتحسين مراكزهمفى الحياة · وتلعب الاغلبية العظمى من الناس كهواة ، ولكنهم اذ يتفرجون على المباريات انما يتيحون الفرصة للرياضيين المحترفين فى أن يبلغوا مكانة شبيهة بمكانة نجوم السينما ·

ويميل عدد كبير من الناس فى كل دول أوروبا الغربية الى قضاء يومى السبت والأحد بعد الظهر فى مشاهدة مباريات كرة القـدم ، أو البيسبول ، أو مشاهدة السباق · ويحب غيرهم أن يذهبوا فى أمسياتهم التى لا يشغلهم فيها عمل الى المبارزات ، أو مباريات الهوكى ، أو كـرة السلة ، أو مسابقات الانزلاق على الجليد ، أو مباريات المصارعة .ويذهب أكثر من ٦٠ مليون أمريكى كل ربيع وصيف لشهود مباريات متتابعـــة كبيرة وصغيرة للبيسبول ويذهب أكثر من ١٥ مليون لشهودمباريات المدارس الثانوية والكليات ومباريات المحترفين ويذهب من يقابلهم من البريطانيين والفرنسيين والايطاليين وأهل أمريكا اللاتينية فى نسب كبيرة الى مباريات كرة القدم ، أو حلبات السباق · ويتمثل الاهتمام الأكبر بالرياضة فى المساحات الواسعة التى تفردها الصحف لأنباء الرياضة ·

ولقد أتى التليفزيون الى المنزل بخـــير ما فى أحداث الرياضـــة التى يتوق اليها المتفرجون · وقد أدى هذا فى أول الأمر الى تقليل عدد المتفرجين · غير أن مسحا قد تم سنة ١٩٥٠ فى الولايات المتحدة يدل على أن الناس الذين انقضى على امتلاكهم لأجهزة التليفزيون مدة تزيد عـلى عام أو عامين ، لا يكتفون بمشاهدة المباريات على شاشـــة التليفزيون ، ولكنهم أيضا يذهبون شخصيا لمشاهدة الأحداث الرياضية أكثر مما يفعل من ليس لديهم أجهزة للتليفزيون · وبصرف النظر عن التليفزيونوتأثيره فقد ظلت الألعاب ذات الجمهور ؛ تجتذب أعدادا ضخمة من المتفرجين ؛

فانه ليزيد من انفعالهم بالسباق أو بالمباراة ، حضورهم شخصيا فى الحلبة ، واشتراكهم ايجابيا فى الرهان •

ولقد نمت المشاركة الشخصية فى الرياضة نموا ملحوظا مع تزايد وقت الفراغ • لقد كان الناس دائما يتسلون بالقنص وصيد السمك ولعب الباولو وغيرها من الألعاب ، فتزايد عدد الناس الذين يمارسون هذه النشاطات وغيرها ، يشجعهم على هذا تزايد الاهتمام باللياقة البدنية ويساعدهم عليه توفر الملاعب على اختلافها ، وحمامات السباحة ، وحلبات الانزلاق ، التى أنشأتها المجالس البلدية ، والمدارس ، والأندية الخاصة . أو الشركات التجارية ، وقامت المدارس والأندية بتشجيع العاب الفريق لأنها ذات قيمة كبيرة فى تعويد الافراد على بذل جهد تعاونى • وكذلك لما تبعثه هذه الالعاب من بهجة فى نفس اللاعب والمتفرج •

لقد كانت الالعاب الرياضية تحتل مكانا هاما فى خطة استخدام وقت الفراغ فى المجتمعات الاشتراكية • فقد شجع الرجال والنساء على المساهمة الايجابية فى كل أنواع الرياضة تحقيقا لحسن صحتهم ، ونموهم البدنى المتناسب . وتنافست فرق من آلاف المصانع والمزارع والمدارس والمدن فى كثير من الميادين ، وكرم الرياضيون الناجحون ، فصاروا أبطالا محليين وقومبين ، وبذل كل جهد لارسال أبطال الرياضة للمباريات الدولية •

وكان لكل بلد ألعابه التى يحبها بشكل خاص : فالبريطانيون يلعبون الكريكيت ، والأمريكيون يلعبون البيسبول ، والنرويجيون والسويسريون ينزلقون على الجليد ، والايطاليون يفضلون رياضة الدراجات • ولكن النشاطات الرياضية على اختلافها كانت منتشرة فى كل مكان • فرياضات الماء اجتذبت عددا من الناس يتزايد باستمرار • وأصبحت السباحة من الألعاب التى يتزايد الاقبال عليها ، وصارت حمامات السباحة العامة جزءا من وسائل الترفيه الطبيعية • ولكن السباحة كانت مجرد البداية • فبعد الحرب العالمية الثانية بخاصة ، أخذ كثير من الناس فى رياضة الانزلاق على الماء ، ورياضة الغوص تحت الماء لاستكشاف عالم البحار ، الذى لم يكن من قبل معروفا الا للغواصين المحترفين • ويضرب بعضهم السمك بالحراب ، ويرقب آخرون عادات الحياة فى البحر ، ويلتقون الصور للحياة الجميلة التى لم يروها الا منذ عهد قريب •

واشترى ملايين الناس القوارب • لقد كان التجديف منذ زمن بعيد من وسائل قضاء وقت الفراغ المنتشرة فى البلاد الاسكندنافية وبريطانيا

واستراليا . ولكنه كان فى بلاد أخرى يعتبر عموما من رياضات الأغنياء دون غيرهم . ولكن فى سنة ١٩٥٧ ذكرت احدى صحف نيويورك أن أبرز تحول فى عادات ازجاء وقت الفراغ ، هو الانتقال من مسالك الأرض الى مسالك الماء ، لأن النزهة باليخت التى كانت رياضة أصحاب الملايين والأمراء قد نزلت عن عرشها وصارت رياضة ديمقراطية فى قوارب النزهة .

واذا كانت الملايين تتجه الى الأنهار والبحيرات وشاطىء البحر لقضاء ساعات فراغها داخل الماء أو فوقه ، فان ملايين أخرى تحب الأرض وتفضل أن تمشى على أن تعوم ، وتفضل أن تتسلق على أن تغوص وأن تستكشف عادات حيوانات البر ، بدل أسماك البحر . وبعض هواة المشى كانوا من الجيولوجيين أو علماء النبات الهواة . وكان غيرهم يشترى مناظير مقربة ، ويستيقظ مبكرا ليرى الطيور ويستمع الى غنائها . وقد جرب أعنف الرياضيين قوة احتمالهم مع الجبال ، وأناروا المسالك ، وشيدوا مبانى ينزلون فيها ، وينزل فيها غيرهم ، فى كل سلاسل الجبال العظمى فى دول الغرب .

وصار الناس شيبا وشبابا يحبون اقامة المخيمات فى الهواء الطلق وتعود عدد متزايد من أطفال المدينة على الحياة فى الخلاء ، فى معسكرات صيفية ، تديرها منظمات الشباب ، ووكالات الترفيه ، أو تقام كمشروعات خاصة . وأخذت الاسر تحزم مهمات المعسكر فى سياراتها ، وتقيم مخيماتها على أرض المعسكر ، التى يتوافر فيها الماء والوسائل الصحية ومواقد النار فى الحدائق العامة ، أو أراضى المعسكرات الخاصة ، أو حقول الفلاحين . وعدد الاشخاص الذين يقضون عطلة آخر الأسبوع فى معسكر أو يقضون أجازة أطول فى أراضى المعسكر التى تقدمها السلطات الخاصة بالمتنزهات فى الولايات المتحدة ، قد زادت بسرعة كبيرة فى ثلاثينات هذا القرن ، حتى بلغت مليونا أو أكثر ، قبل أن تدهمها قيود استهلاك البنزين زمن الحرب ، وأخذت تتضاعف على الاقل كل خمس سنوات فى السنوات العشر الأخيرة التى تلت الحرب العالمية الثانية .

ويتزايد عشاق ألعاب الشتاء ، وبخاصة الانزلاق ، وأخذت الصحف تنشر تقارير متصلة عن حالة الثلج فى مختلف أماكن الانزلاق ، لارشاد سكان المدن الذين يفكرون فى وسيلة لقضاء عطلة آخر الاسبوع أو العطلات الأطول . وقد أعدت كثير من المدن ساحات يجرى فيها تسوية الجليد بعناية ، خدمة لهواة الانزلاق ، ويستطيع الناس أن يشبعوا خيالهم اما بالانزلاق السريع أو المعتدل ، بدون اعتماد على الجو الخارجى . وفى المدن

تقدم ملاعب الباولو وساحات الانزلاق على القباقيب وملاعب الاسكواش وحمامات السباحة ومعاهد الرياضة تمرينات شتوية يجد فيها الرجال والنساء الذين يعملون بالمكاتب أو المصانع معظم ساعات يومهم متنفسا من حالة التوتر التى تسودهم فى المكاتب ·

وتعقد المباريات القومية والدولية فى كل أنواع الألعاب الرياضية ، للهواة والمحترفين ، بين الفرق وبين الافراد · وأشهر المباريات الدولية هى الألعاب الأولمبية ، التى أعادها الى الحياة فى تسعينات القرن الماضى رجل فرنسى يدعى البارون بيير موكوبرتان ، الذى كان معنيا ببث روح الهواية فى الالعاب لكى يستبقى فيها معانى النبالة والفروسية التى كانت علما على الرياضة فى الماضى · وقد عقدت أول مباريات ناجحة فى لندن سنة ١٩٠٨ وصارت فيما بعد تعقد كل أربع سنوات ، فيما عدا سنى الحرب ، فى المراكز الرئيسية فى العالم · وتقوم المنظمات الرياضية فى الدول المتنافسة فى أثناء الاعوام التى تتخلل مواعيد المباريات بعمليات تصفية لاختيار أفضل الفرق والافراد لتمثيل بلادهم فى الأولمبى القادم · وتتركز العناية فى هذا الاستعداد ، ويلقى تأييدا من جانب الهيئات المنظمة ، وتسهيلات حكومية وبخاصة فى البلاد الشيوعية ، مما أثار مناقشات جادة حول الحد الفاصل بين مفهوم الهواة والمحترفين فى الرياضة ، كما أثار تساؤلات حول ما اذا كانت روح الهواية تجد فعلا من التعزيز لها والمحافظة عليها ما تستحقه أم لا تجد ؟

٨ ـ الرحلات :

أصبح السفر بفضل السيارة والطائرة من الوسائل الشائعة لقضاء عطلة آخر الاسبوع والعطلات العامة · واذا كان الطقس مواتيا ، فان أول سؤال يتبادر لأسر كثيرة يتزايد عددها هو « أين نذهب ؟ » والقيام برحلة قصيرة فى سيارة الأسرة ، قد يؤدى الى زيارة مكان ذى أهمية خاصة وارتياد أراض لم تسبق رؤيتها ، أو قضاء نزهة لطيفة فى بقعة جميلة ولكن المشكلة كانت واحدة فى كل مكان ، وهى أن الطرق تخنقها حركة المرور ·

وأصبح السفر الى الخارج ممكنا وجذابا لأعداد من الناس تتزايد فبعض الناس كانوا يسافرون لمشاهدة الالعاب الاولمبية أو غيرها من المباريات الرياضية الكبرى ، وغيرهم يذهب لحضور المناسبات الموسيقية مثل مواسم أدنبرة أو سالزبورج أو لشهود بعض المعارض الفنية الخاصة ، أو للذهاب الى أسواق التجارة الدولية · وبعض الناس يسافرون لشهود المناظر

الطبيعية ، وبعضهم لشهود الآثار التاريخية • وأصحاب التذوق فى الاطعمة يذهبون الى فرنسا ليأكلوا ، ومتسلقو الجبال يذهبون الى سويسرا لتسلق جبال الألب • ورحلات السيارات السياحية تقدم للناس فرصا للقيام برحلات رخيصة فى أثناء عطلاتهم • وأن ما يفعله الناس للحصول على الراحة فى أثناء شهور العمل ، من شأنه أن يؤثر على اختيار المكان والمناسبة حين يفكرون فى السفر •

وبتزايد عدد من يسافرون ، وتزايد معرفتهم بالأقطار المتاخمة لهم ، وتجوالهم فى أثناء رحلاتهم السياحية التقليدية فى المراكز الأوروبية الهامة ، فقد نمت رغبتهم فى أن يتجاوزوا فى أسفارهم هذا النطاق • فان سمحت مواردهم المالية ، شرعوا يسافرون الى أجزاء من العالم لم تكن السياحة اليها مألوفة من قبل • وبذا أخذوا يتعلمون شيئا عن ثقافات وأقاليم غريبة عنهم كل الغرابة • وهكذا فان السفر ـ شأنه فى ذلك شأن الكثير من وسائل قضاء وقت الفراغ ـ يؤدى أيضا وظيفة تعليمية •

وفى الاتحاد السوفييتى كان الشكل الرئيسى الذى اتخذه السفر هو الرحلات الى المتاحف ، والأماكن التاريخية ، أو المدن الكبرى ، وقضاء العطلات فى كثير من الاستراحات ، وبيوت العطلات ، المتاحة للعمال فى القرم والقوقاز وأجزاء أخرى من البلاد . وكانت الرحلات ذات الأهمية الخاصة ضربا من ضروب المكافأة على التفوق فى الانتاجية ، أو التفوق فى الالعاب الرياضية أو الفنون .

٩ ـ الهوايات :

بالنسبة للكثيرين ـ أو قل بالنسبة لمعظم الناس ـ تكون هواية أو أكثر من الهوايات المختلفة التى لا تحصى ، موضع الاهتمام ، فتكمل الاعمال الرئيسية للناس ، وأحيانا تنافسها • وفى بعض الاحيان قد تؤدى الهواية الى تغيير فى المهنة ، كما كان شأن رجل هوايته جمع الحيوانات فى حظيرة فأصبح مديرا لأكبر حديقة من حدائق الحيوان • ولكن فى غالب الاحوال تقوم الهواية أساسا لشغل وقت من تركوا الخدمة • ولما كانت الهوايات تتطلب من الفرد أن يكون نشيطا وماهرا الى درجة ما على الأقل ، فقد صار لها وظيفة تعليمية الى جانب وظيفتها الترفيهية ، وصارت من وسائل تحسين أذواق الناس ومعارفهم وقدراتهم •

ا - تنسيق الحدائق :

يعتبر تنسيق الحدائق أولى الهوايات عند كل الناس فى بريطانيا والولايات المتحدة ومعظم دول أوروبا الغربية ، باستثناء سكان المدن الذين ليس فى متناولهم مساحات من الارض الفضاء · وحتى هؤلاء نجد أن بعضهم يمارسون هذه الهواية ، عن طريق الزراعة فى الشرفات أو فى قطعة من الحدائق العامة · وقد استطاع زارعو المشاتل الهولنديون أن يربحوا أرباحا طائلة من تصدير شتلات ممتازة للأمم الاخرى ، وتحسين البذور واعدادها وتقديم النباتات والمخصبات لهواة زراعة الزهور · وقد كان هذا من الاعمال المربحة فى كثير من الدول ·

ويركز بعض الهواة كل عنايتهم فى تعميم حدائقهم ، بينما يوجهها آخرون لزراعة ورود رائعة ، أو حتى خضروات ، بينما يعنى آخرون بزراعة بعض الأعشاب الخاصة أو جمع بعض الزهور غير المألوفة · كل هذه الاهتمامات الخاصة كانت أساس المعارض المحلية والاقليمية والقومية كما كانت أساس ظهور الكتب والمجلات التى تعنى بكيفية تحقيق نتائج مرغوبة ، وأساس معرفة أنباء ما يفعله الناس الآخرون بنفس الاهتمامات وأساس نشأة « جمعيات هواة الحدائق » التى صارت توجد فى معظم المدن أو الضواحى ، وتقدم فرصا للنشاطات الاجتماعية ، وتبادل العينات والمعلومات الخاصة بفن فلاحة البساتين ·

ب - الفنون والصناعات :

لقد صارت كل أنواع الفنون والصناعات محبوبة الى درجة كبرى · فقد ازدهرت فصول الفنون ، والمجموعات التى تدرس الرسم والتلوين المائى والزيتى وصنع النماذج ، وفصول الحرف مثل النسيج واشغال الخشب وصنع الآنية وتلوينها · وكانت الفصول تتكون أحيانا من مجموعات من الورش ، يعمل الهواة فيها للمتعة ، تحت ارشاد مدرس شبه محترف· وفى بعض الأحيان كانت الفصول وحدات نظامية من وحدات فصول تعليم الكبار تبرعت بها وكالة تعليمية أو خيرية · وفى الدول الشيوعية لقى الفنانون الهواة تشجيعا خاصا من الدولة · وفى كل مكان كان أفراد هذه المجموعات يعرضون أعمالهم فى معارض الحى التى تقام فى قاعات الاجتماع والميادين العامة ، والمدارس ، والورش ، والمتاحف ، والمكتبات ، والمبانى العامة ، وكان ما يختار منها يعرض فى المعارض الكبيرة للمدينة أو للدولة فضلا عن استخدامها لتزيين المنازل · ولم يقتصر أثر كل هذا النشاط على

اعطاء الناس فرصة للتعبير الخلاق عن أنفسهم ، ولكنه ساعد أيضا على رفع المستوى العام للذوق ، لأن الناس تعلموا المبادىء الأساسية للفن ، فى أثناء محاولاتهم التجريبية فى التصميم ، والتلوين ، والاعداد الفنى ٠

وصار المنزل نفسه ، وبخاصة فى الضواحى غالبا ما يقدم فرصة لتطبيق التقنيات الصناعية القديمة ، مثل النجارة وصناعات المعادن التى أعيدت اليها الحياة ، لتمنح المسرة ، حين لم تعد ضرورة من ضرورات الحياة ٠ وصار كثير من أصحاب المنازل يستمتعون بتزيين منازلهم ، أو اصلاح ما فسد منها ، أو من مهماتها أو أثاثها ٠ وفى الخمسينات صار شعار « افعلها بنفسك » شعارا شديد الانتشار فى كثير من البلاد التى ارتفع فيها أجر العمال ٠ وبذا أضافت الهواية فائدة عملية الى ما تقدمه من متعة تنمية المهارات اليدوية أو الفنية وكسب المعارف الجديدة ٠

ج ـ الفوتوغرافيا (التصوير) :

كانت الفوتوغرافيا من أبرز الهوايات التى انتشرت فى القرن العشرين فهواة الكاميرا صاروا يشترون كاميرات أدق فأدق ٠ ويجربون استخدام الافلام أسرع فأسرع ، كما يحاولون تجربة الأفلام الملونة ٠ وانضم الهواة والمحترفون فى أندية الكاميرا ، وأقاموا المعارض التى كانت الجوائز تمنح فيها لمن قدموا أنجح الدراسات من حيث الفن ، ومن حيث التكنيك ٠ وللحصول على أحسن النتائج الممكنة ، وصـار المصورون الفوتوغرافيون يطلعون على كتب الكيمياء ، ونظرية الضوء ، ويحمضون أفلامهم بأنفسهم ٠ وصاروا يدرسون المجلات المصورة ، و « حوليات الكاميرا » ، والكتب التى تعرض أروع انتاج أساطين المصورين الفوتوغرافيين ، ثم يطبقون دراساتهم الخاصة ، فيصورون الناس والأماكن والحيوانات والأزهار ٠ فما ان حلت الخمسينات حتى كان ملايين البشر يسجلون الأحداث المنزلية ، ومناظر الرحلات فى صور متحركة ، من صور الهواة ٠

د ـ الموسيقى :

كانت الموسيقى دائما هواية محبوبة فى بعض الدوائر ، وبين ذوى المواهب الموسيقية ٠ وقد أصبحت واسعة الانتشار بفضل ما أتاحه الراديو والحاكى من مختلف الانماط فى المنزل ، وما قدمه شريط التسجيل للهواة من امكانية تسجيل الصوت بطريقة تجريبية ٠

وفى بداية القرن كان الناس اذا أرادوا قضاء ليلة موسيقية ، فقد كانوا يقصدون بها عادة التجمع حول البيانو ، أو غناء الاغانى السائدة واذا كانوا من الموسيقيين الجادين فانهم يعزفون على الآلات الوترية ، أو آلات النفخ معا ، أو يغنون أغنيات جماعية • وفى الأعوام التى تلت ذلك ظل الناس من أصحاب المواهب الموسيقية يعزفون على الآلات الموسيقية ويشتركون فى المقطوعات الجماعية ، ليستمتعوا بموسيقى من صنعهم ،كما يستمتعون باستماع موسيقى الآخرين • وفى كثير من الاحوال كان الراديو والتليفزيون ينشطان هذا الاتجاه ، لأن الأفراد أو الفرق اذا بلغت مستوى معينا فقد تجد سبيلها الى البرامج الاذاعية المحلية •

ولقد كسب الحاكى أعدادا جديدة ضخمة من المستمعين لكل من الموسيقى الكلاسيكية والشعبية • ولقد كان لا يزال مجرد لعبة علمية فى بداية القرن ، ولكنه شب عن الطوق حين أخذ الموسيقيون يستخدمونه فى تسجيل أعمالهم ، وحين أخذت الشركات التجارية تنتج نسخا من عزف أرتو روبنشتين لموسيقى شوبان أو غناء انريكو كاروزو للأوبرات الايطالية وفى أول الأمر لم يكن يجمع هذه التسجيلات الا عدد قليل من الناس ولكن بفضل توسيع الراديو لرقعة متذوقى الموسيقى ، فقد تزايد عدد من يجمعون التسجيلات ــ وباتساع السوق ، أخذت المسجلات تتنوع وتختلف ــ وبعد اختراع الطرق المحكمة الدقيقة والتسجيلات الموسيقية الطويلة وظهور الاسطوانات الخفيفة غير القابلة للكسر من البلاستيك ، نمت هواية جمع التسجيلات وتزايد انتشارها ، وأخذ الناس لا يشترون اسطواناتهم على أساس نوع الموسيقى ، أو اسم الفنان فحسب بل أيضا على أساس المستوى الفنى للتسجيل • وأصبح متقنو التسجيلات خبراء فى مجال هواياتهم ، يوسعون معارفهم عن طريق برامج الراديو والقراءة ، ويعمقونه بالاصغاء الى تسجيلاتهم الخاصة •

وبفضل شريط التسجيل أمكن للناس القيام بتسجيلاتهم الخاصة واقتصر بعض الناس على تسجيل ما يذاع على الراديو من حفلات بارزة • أو تسجيل مجهوداتهم الفنية الخاصة ، بينما آخرون قد استخدموا جهاز التسجيل لاجراء تجارب على الاصوات ، ومركبات الاصوات : نفير السيارة وجرس الكنيسة ، وصفارة القطار ، واصطخاب الامواج ، وهزيم الريح ــ وقد جاءت أروع هذه التجارب من فرنسا ، فيما أطلق عليه الفرنسيون اسم «الموسيقى المادية» وبابطاء الأصوات والاسراع بها ، ومزج كل الأنواع ،

أمكن للمجربين أن يحققوا فى الموسيقى شيئا يشبه التجارب السيريالية فى الفن ٠

هـ ـ الهوايات الميكانيكية :

ان كثرة العدد التى ظهرت فى عصر الآلات قد هيأت للناس سلسلة من الهوايات ٠ فاجتذبت آلات السيارة اهتمام عدد كبير من النـــاس ، وبخاصة الصغار الذين كانوا يجدون متعة فى فك الآلات القديمة ، واعادة تركيبها ، واصلاحها ، بحيث تنتج قوة أكبر ، وتحويل ســـيارة قديمة مهشمة الى مركبة ذات سرعة زائدة ٠

ولقد أصبح الراديو من بدايته الهواية المحبوبة عند مئات الالوف من الرجال والصـــبية ، الذين أخـــذوا يجربون ارسال رسائل ، وتلقى اشارات من أبعد الجهات التى يستطيع جهازهم المصنوع منزليا أن يصل اليها ٠ وبذا استقرت علاقات ومشاركات بين حياة الناس على ما بينهم من مسافات شاسعة ٠ واذا ألقينا نظرة على عدد هواة « اشـــارات الراديو » الذين حصلوا على تراخيص باستخدامها وتزايد معدل أعمارهم بعد ذلك، حكمنا بأن هذه الهواية لم تعتمد فى انتشارها على جدة الاختراع ، أو حداثة سن من يلهو بها ٠ كذلك أخذ الناس يجربون استخدام أدوات الكترونية أخرى ، وبخاصة أجهزة الصوت البالغة الدقة ، التى كانت من أوسع الهوايات الآلية انتشارا فى خمسينات هذا القرن .

وهكذا نرى ان استخدام الفراغ الجديد بكل هذه الطرق ، قد عدل من روح الحياة ، وأثر فى نظرة الناس اليها ٠ ولعله يمكن القول بأن القرن العشرين ، بفضل ما ظهر فيه من وسائل جعلت لدى الناس فائضـــا من الوقت يستخدمونه كما يشاءون ، قد أتاح لكتل الجماهير فى البـــلاد الصناعية أن يحظوا بما كان وقفا على الطبقات الفارغة من قبل ـ امتاع أنفسهم ، وتنمية شخصياتهم ، عن طريق تعليم أنفسهم فيما يحبـونه ويفضلونه ٠ ولكن نماذج « ازجاء وقت الفراغ » عند الجماهير قد تجاوزت مجال تنمية الشخصية ، والاستمتاع الفردى ، الذى كانت تستأثر بـــه القلة الممتازة ٠ فعلى نحو لا يقل عما كان للملامح الكبرى الاخرى فى حياة القرن العشرين ـ مثل نماذج الاعمال الجديدة ، والانطباع بطابع المدن ، والدينامية المستمرة ، واطالة عمر الانسان بفضل الطب ـ كان للفراغ الجديد الذى أتيح للجماهير استخداماته الكثيرة ، أثر كبير فى اعادة صياغة الحياة الثقافية لنسبة متزايدة من البشر ٠

تعليق على الفصل الثامن

١ ـ يوجه المعلقون السوفييت عناية القارىء الى النقطة الآتية :

ان جزءا هاما فى هذا التخطيط لوقت الفراغ فى الاتحاد السوفييتى تقوم به الدولة ، والمؤسسات العامة ، واتحادات العمال ، ومنظمات الشباب ؛ والهيئات الاختيارية ؛ من فنية ورياضية وغير ذلك ، مما يعتبر من المنظمات المستقلة فى نشاطها وغير الخاضعة لرقابة الدولة .

فالراديو والتليفزيون والسينما ومسارح المحترفين وفرق الاوركسترا والمتاحف والحدائق والمنتزهات وجزء من الاندية والمكتبات ومعظم دور النشر تخضع لتوجيه مؤسسات الدولة . بينما المصحات ، واستراحات العطلات ، وقواعد رحلات السائحين، وكثير من الاندية والمكتبات تديرها اتحادات العمال . وبرامج جامعات الثقافة الشعبية وقاعات المحاضرات العامة وكذلك النشاطات الفنية للهواة والالعاب الرياضية وبعض المتاحف ودور النشر ، تخضع لرقابة هيئات حكومية .

المحتـــويات

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
٢ ـ نظم الدول الديمقراطية الليبرالية	٢١٥
١ ـ النظام الانتخابى والأحزاب السياسية	٢١٥
٢ ـ وسائل أخرى للتعبير عن الرأى السياسى	٢١٨
٣ ـ البناء التشريعى	٢٢٠
٤ ـ البيروقراطية	٢٢١
٥ ـ القانون الادارى	٢٢٥
٦ ـ الهيئة القضائية	٢٢٧
٧ ـ المشكلات التى تواجهها الدول الجديدة فى تطبيق النظم الديمقراطية	٢٢٨
٣ ـ مؤسسات الدول الشيوعية	٢٣٧
١ ـ الحزب الشيوعى	٢٣٧
٢ ـ أجهزة الدولة	٢٣٨
تعليقات على الفصل الرابع	٢٤٥
الفصل الخامس : المؤسسات العسكرية	٢٥٩
١ ـ المؤسسات العسكرية التقليدية	٢٦٠
٢ ـ صناعة الأسلحة	٢٦٥
٣ ـ تحول المؤسسات العسكرية بسبب الحرب الشاملة ..	٢٦٧
٤ ـ المؤسسات العسكرية المدنية والحرب العالمية الثانية ..	٢٧٢
٥ ـ المؤسسات العسكرية فى العصر النووى	٢٧٥
تعليقات على الفصل الخامس	٢٨٢
الفصل السادس : الدين	٢٨٣
١ ـ اتجاهات عامة فى الأديان الكبرى فى العالم	٢٨٣
٢ ـ المسيحية	٢٩٥
٣ ـ اليهودية	٣١٦
٤ ـ الاسلام	٣٢٧
٥ ـ الهندوكية	٣٣٤
٦ ـ البوذية	٣٤١
تعليقات على الفصل السادس	٣٤٨

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٦٥٩٠/١٩٧٠



الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

الثمن ٨٥ قرشا